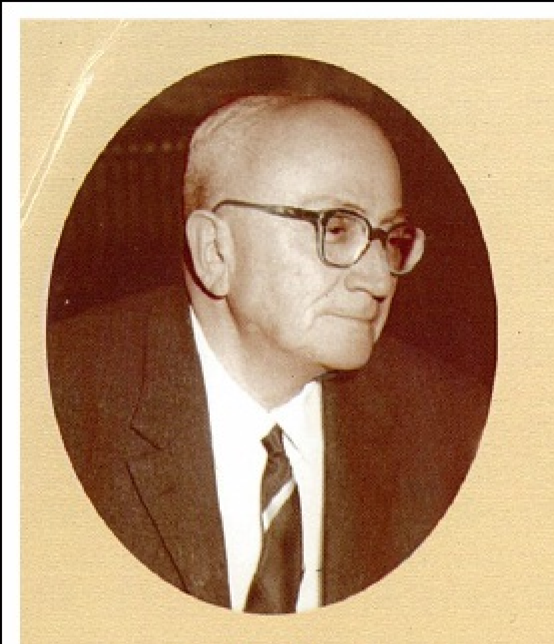
مذكرات خالد العظم



المجلد الاول

طبعة ثالثة

الدار المتحدة للنشر



مُذكراتُ خَالد العَظْم

مذكرات خالد العظم

في ثلاثة مجلدات

المجلد الأول

الدار المتحدة للنشر ش.م.م.

الطبعة الثانية

[illegible]

١٩٧٣

محتويات الكتاب

المجلد الاول

المجلد الثاني

المجلد الثالث

تقديم الكتاب

خالد العظم ، رجل الدولة وداهية السياسة ، اشهر من ان يعرف . فهو احد القلائل الذين صنعوا تاريخ سوريا الحديث ، وشاركوا المشاركة الفعالة في ارساء اللبنة الاولى لوجودها الاقتصادي وفي تجديد طموحها القومي .

عرفته في مركز المسؤولية ، وعرفته بعيدا عنها ، كما عايشت محنته يوم كان سجين السفارة التركية التي احتمى بها في دمشق ، ويوم قدم الى لبنان لاجئا سياسيا مريضا ، ليلفظ انفاسه الاخيرة وهو يردد : سوريا الحبيبة ، لتعش .

كان سياسيا محترفا ، وكان في الوقت نفسه مولعا بالادب والفن ، احب هواياته الى نفسه القراءة والرسم ، واكثر ما يقرأ كتب التاريخ والمذكرات السياسية .

لقد عرف خالد العظم من اخبار القدماء وآدابهم فوق ما كان يعرفه القدماء انفسهم ، وآمن بأن اليوم الذي تنقطع فيه الصلة بين جديد الامة وقديمها هو اليوم الذي تهون فيه ويحال بينها وبين الابداع .

كان يؤمن بأن التجديد لا يتم الا باحياء القديم والاخذ بما يصلح منه للأوان الحاضر والزمان الآتي .

وكان يسلك الى تصوير عواطفه الطريق نفسها التي يسلكها الشعراء ، طريق العبارة القوية المؤثرة التي تستثير اعجابك لاستثارها بعقلك وحسك وشعورك معا .

كان رحمه الله مجاهدا وفيا ، قوي الحجة ، بعيد النظر ، شجاعا ، لا يستكين للاحداث أو يستسلم للصعاب ، بل يتحداها بطاقة جبارة لا تعرف مللا او كلالا .

وكان في غروب شمسه ودنو اجله ، يحدثني بالذكريات الخوالي ، ذكريات الماضي الجميل واهله ، وعلائقه بهم ، وما اشتركوا فيه من افراح او تقاسموه من اتراح . فيبدأ رحمه الله سائلا ملحا في سؤاله ، ثم يثوب الى رشده تدريجا حتى اذا يئس من الجواب اطمأن الى يأسه ، فقنع بالذكرى ، ومضى يستحضر الاحداث بالذكرى ليقصها على نفسه كأنما كان يخاطب انسانا آخر .

وعندما شق عليه المرض اخذ يتحدث عن رحيله بايمان الذي ادى الامانة حتى آخر المطاف . وقد جاءت نهاية ذلك المطاف يوم الخميس في الثامن عشر من شهر فبراير (شباط) لسنة ١٩٦٥ .

وسمعته يردد آخر كلماته : « اوصي بأن ادفن بجوار الامام الاوزاعي ، فلا تحملوا نعشي الى دمشق لئلا يتفاعل السوريون مع هذا الموقف فتقوم المظاهرات ويسقط الجرحى . انني ضنين بدم اخواني في مماتي بقدر ما كنت ضنينا به في حياتي » .

ذلك خالد العظم ، « المليونير الاحمر » ، الذي جاهد وناضل منذ نعومة اظفاره ، فكتب زهاء نصف قرن من تاريخ سوريا وتاريخ العرب الحديث .

كان يؤمن بالعمل الهادف الصامت ، المترفع عن الغوغائية التي ما استخدمها يوما للانطلاق . فقد قال لي مرة وكنا نتحدث عن بعض الزعامات في العالم العربي ، وكيف انه لم يستطع ان يكون «زعيما جماهيريا» : « أريد ان اكون دائما الريح التي تسير الشراع ، وليس الشراع الذي تسيره الريح » .

هكذا كان بالفعل ريحا جبارة دفعت الشراع بعيدا بعيدا .

ومما قاله في منهاجه الانتخابي في آب (اغسطس) ١٩٤٥ :

« اني اشهد الله على اني لم استوح هذا البرنامج الا من قناعتي به ، واعتقادي ان الفرد الى الزوال مهما عمر ، وان على من يثق به الشعب ان يستوحي جميع اعماله من ايمانه بمجد امته، وبمصلحة مواطنيه وسعادة الشعب الذي هو منه واليه ، وتمهيد الطريق لاطفالنا من بعدنا ، لان من لا يخطط لمستقبل امته يكون قد حكم على بلده بالجمود ، وحال دون التطور الوثاب الذي يساعدنا على الحياة الحرة الشريفة الرغدة . »

وبعد ، فان هذه المذكرات التي تخرج لاول مرة هي ثورة فكرية ، ومدرسة سياسية ، وعبرة تاريخية ، وضعها رحمه الله بكل موضوعية وامانة ، فأعطى الاحداث حقها من البحث والتحليل وعلق عليها بدقة وتجرد . كان امينا في سرد الوقائع ، لم يجامل ولم يحاب ولم يكذب ، بل ظل بعيدا عن الدعاية والتضليل .

هكذا ارادها خالد العظم ان تكون ، وهكذا حملت « الدار المتحدة للنشر » الامانة ، لتقدم الى الجيل الصاعد نصف قرن من تاريخ امته ، يعكف على دراسته ليستخلص العبرة من دقائق المرفان .

عمر المدني

الجزء الأول : ذكريات خاصّة

الفصل الأول

نشأة المؤلف ومحيطه

ولدت ليلة النصف من شهر شعبان ١٣٢١ . وقد عثرت بعد جهد كبير على ما يقابل ذلك التاريخ في حساب الاشهر والسنين الشمسية وهو ٦ تشرين الثاني ١٩٠٣ . وروت لي المربية الزنجية التي اولتها والدتي امر العناية بي واسمها منكثة (ام سميح) ان مدينة دمشق كانت تلك الليلة مزهزهة بالانوار — انوار القناديل الصغيرة ذات العلب المعدنية المملوءة بزيت الزيتون وبوسطها خيط من القطن يضيء ويرسل في الجو نورا ضئيلا اصفر . وكانت المئات من هذه القناديل تعلق على الجدران وعلى اقواس النصر المكسوة بالسجاد وباغصان الحور والصفصاف . وكانت الجماهير تسير بـ « عراضات » تحمل الاعلام المزخرفة بالالوان المتعددة يتودهـا شخص يصرخ بملء صوته قائلا ، مثلا : « يا فوتني عالصرايا . . . » فيردد الناس قوله ، ثم يبتكر جملا اخرى : مثل : « يا مرحبا باللي جاي . . » الى آخر ما هنالك مما يسمونه في الانكليزية Slogan فيثير الحماس وهو محمول على الاكتاف يتهادى وسيفه يلمع في الفضاء .

وكانت فرحة والدي بالمولود الجديد تفوق ، بالطبع ، فرحته بعيد ذكرى ولادة السلطان . ولكن حدوث العيدين في ليلة واحدة زاد القوم بهجة وسرورا ، كيف لا وقد مضى على زواج والدي خمسة وعشرون عاما انجبفيها بنتا واحدة وغلامين ماتا قبل ان يبلغا الثالثة من عمريهما . وكانت امي سافرت الى حمص والتجأت الى جامع سيدنا خالد بن الوليد ، حيث صلت وابتهلت الى الله ان يهبها غلاما . ونذرت ان تسميه خالدا تبركا باسم الصحابي الجليل . وهكذا اسميت باسمه واضيف اليه اسم « سليم » نزولا عنه رغبة احد اصدقاء والدي ، هو الشيخ تقي الدين ، نقيب الاشراف . وقد روى

له انه راى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : « بشر محمد فوزي باشا بسليم » فتلقى والدي ــ وكان على درجة كبيرة من التقى وحب الرسول ــ هذه الرواية بانشراح وتفاؤل واصبح اسمي « خالد سليم » مما دعا الشيخ مصطفى نجا من علماء بيروت وادبائها ، صديق والدي الحميم والشاعر الرقيق ، الى نظم قصيدة كذكرى لمولدي هذه هي : ــ

بدا من كريم للوجود كريم
محياه كالبدر المنير سليم
تجلى بافلاك السعادة مشرفا
وعن مثله هذا الزمان عقيم
هو ابن الذي قد فاز بالمجد والعلى
محمد فوزي المعظم وهو عظيم
همام وفيّ بالعهود مهذب
تقي سخي الراحتين حليم
عفيف شريف النفس اوصاف ذاته
قد استلهمتها في السماء نجوم
على الصدق مطبوع وبالنفع يعتني
وبالخير يسعى دائما ويقوم
حباه بشعبان المعظم ربه
غلاما به عقد السرور نظيم
فاهديه من حسن الثناء مع الهنا
به وله مني الدعاء يدوم
ولادته قل يا مؤرخه بها
اتى خالد بالعز وهو سليم
١١٤ ٦٣٥ ١١٠ ١٧ ١٤٠
١٣٢١ هجرية

كانت ولادتي في دارنا القديمة الكائنة بحي سوق ساروجه في احدى الغرف العادية التي احترقت فيما احترق من الدار في ١٩٥٦ .

والحادث الذي اذكره وانا بين الثانية والثالثة من عمري هو رجل ملقى على الارض ، يخبط براسه ويديه ورجليه . وقد قيل لي عندئذ انه مصاب بالصرعة . فخفت كثيرا ولجأت الى حضن مربيتي .. وكان هذا الخوف سبب انطباع هذه الصورة في مخيلتي وبقائها حتى الآن .

واما الذكرى الثانية في مخيلتي فهي اصوات المدافع التي اطلقت في دمشق يوم الانقلاب التركي في ١٩٠٨ . وقيل لي : « اعلنت الحرية . . » وطبعا لم اكن انا مدركا ما هي الحرية ولا اهلي كانوا مهتمين بافهامي كنهها . وقد تعرفت بها فيما بعد ؛ ولمست كم من المظالم ترتكب في سبيلها .

بداية سلسلة الاضطرابات في الشرق الادنى

واجزم بان هذا الانقلاب الذي حصل في الدولة العثمانية كان بداءة الهزات التي استمرت منذ ١٩٠٨ ولا تزال تحول دون الاستقرار في الشرق الادنى . فلا تكاد تمضي سنة دون ان يحدث في جزء من هذا الشرق ما يبعث الارتجاج في المجموع : ففي ١٩٠٩ خلع السلطان عبد الحميد وتولى الاتحاديون الحكم ، وفي ١٩١١ استولت ايطاليا على طرابلس الغرب ، وفي ١٩١٢ نشبت حرب البلقان ، وفي ١٩١٤ انفجرت الحرب العالمية الكبرى ودامت حتى آخر عام ١٩١٨ ، وفي ١٩١٩ بدات مناوشات حربية بين الافرنسيين والوطنيين السوريين استمرت حتى موقعة ميسلون ، بتموز ١٩٢٠ ، حينما تغلب جيش الجنرال غورو ودخل دمشق. ولم تهدا سورية خمسة وعشرين عاما تضتها تحت الانتداب الافرنسي . فكانت اولى المظاهرات ضده في ١٩٢٢ حينما جاء مستر كراين الاميركي ؛ فاحتشدت الجماهير والقيت الخطب ضد فرانسا واوقف المرحوم الدكتور عبد الرحمن شهبندر ورفاقه . وكانت هذه اولى التفاعلات الشعبية ضد الاستعمار .

وقامت الثورة السورية ضد فرنسا في ١٩٢٥ وظلت تشغل الافرنسيين حتى ١٩٢٦ ؛ ثم اثيرت المظاهرات على اثر فشل دور تجربة الحكم الوطني الذي اقامه الافرنسيون في ١٩٢٨ . وظلت البلاد تتمخض بالمظاهرات والمناوشات حتى ١٩٣٢ ، حين اقام الافرنسيون شبه حكم وطني لم يلبث ان واجه المظاهرات واقفال المخازن والدكاكين في ١٩٣٣ . ثم نشبت الثورة في فلسطين ضد الانكليز واليهود في ١٩٣٥ ، وتجددت في ١٩٣٨ بينما كانت القلاقل تملأ الجو ارهابا في سورية حتى انفجرت الحرب العالمية الثانية وانقسم الافرنسيون قسمين ، الواحد بقي مخلصا لحكومته المركزية في فيشي والآخر اشترك مع الانكليز بمحاربة قوى الجنرال دانتز ، الذي دخل دمشق واستولى على سورية ولبنان . ثم انتهى الامر الى قيام الحكم الوطني في سورية في ١٩٤٣ . الا ان الافرنسيين لم يراعوا وعودهم باحترام استقلال سورية فكانت حوادث العدوان في ١٩٤٥ .

ولم يمض على العهد الوطني الذي قام في سورية ولبنان اكثر من عامين حتى دخلت قضية فلسطين في دورها الحاد ، فقررت بريطانيا الغاء انتدابها وسحب جيوشها من تلك الربوع. وتدخلت الامم المتحدة باقرار تقسيم البلاد الى جزئين خصت اليهود بالجزء الاكبر الغني والعرب بالجزء الآخر . واعترض العرب شعوبا وحكومات ودخلت القوى العربية الى الاراضي الفلسطينية ودارت بينها وبين اليهود معارك عديدة ، فلم تنجح قوانا — لاسباب عديدة لا مجال لذكرها الآن — في طرد اليهود . وتدخلت الدول الكبرى التي اتفقت كلمتها هذه المرة واجبرت الدول العربية على قبول ايقاف القتال ، ثم على توقيع اتفاقات الهدنة .

وفي ١٩٤٩ قام بسورية انقلاب عسكري تزعمه حسني الزعيم بناء على تشجيع الافرنسيين والامريكيين ، ثم قام انقلاب معاكس دعمه الانكليز كاد يلقي بسورية في احضان العراق لولا قيام اديب الشيشكلي بقلب الحكم القائم وتسلم قيادة الامور . لكنه لم يلبث ان اضطر الى الهروب من دمشق في ١٩٥٤ ، فقام الحكم المدني الديمقراطي حتى اواخر ١٩٥٧ . غير انه انهار بدوره بتأثير عوامل عديدة لا تبرىء الامريكيين من التدخل بها . ثم كانت الانتفاضة العسكرية ضد الوحدة في ٢٨ ايلول ١٩٦١ .

وما حدث في سورية رافقته في بقية البلاد العربية حوادث لا تقل اهمية وتأثيرا على مجرى التاريخ ، لا سيما في مصر حيث قام سعد زغلول بثورته التي استمرت حتى نوال الاستقلال . ثم لجأ عبد الناصر ورفاقه الضباط الى قلب نظام الحكم بمعاونة الامريكيين المعنوية . ثم كانت حوادث الهجوم على قناة السويس في ١٩٥٦ وما عقب ذلك من حوادث هامة .

واما في الجزيرة العربية فكانت حرب الهاشميين والسعوديين انتهت باحتلال عبد العزيز بن سعود الحجاز والحاقها بمملكته . وكذلك نشبت في العراق ثورات وانقلابات عديدة بدات بالثورة الوطنية ضد الانكليز ثم توالت الانقلابات العسكرية الواحدة تلو الاخرى : بكر صدقي ، حكمت سليمان ، ياسين الهاشمي ، العقداء الاربعة (الصباغ ورفاقه) ، نوري السعيد، الكيلاني، الوصي عبد الاله . وهؤلاء كلهم قاموا ، واحدهم ضد الآخر ، فقتل اكثرهم وسجن الباقون، الى ان انتهى الامر بقلب النظام الملكي كله على يد عبد الكريم قاسم ورفاقه ، فابيدت المائلة المالكة وسجن من بقي حيا من الزعماء السياسيين . ثم عقب ذلك ما حصل في الموصل من ثورة عسكرية ،

تلتها محاولة قتل عبد الكريم قاسم نفسه . وهـــذا كله لم يضمن للعراق استقرارا مستمرا منذ قيام دولة العراق حتى الآن .

ولئن نعم لبنان بهدوء نسبي فان الثورة التي قامـــت في ١٩٥٨ واستمرت طويلا خدشت سمعة ذلك البلد الذي سعى ابناؤه لاشاعة الهدوء والسكينة في ربوعه . وهكذا ابتلي لبنان بالانقسام الداخلي ومســـاوئه .

ولم ينج لبنان من ويلات الانقلابات العسكرية اذ حدثت محاولة لقلب نظام الحكم في ١٩٦١/١٢/٣١ ولكنها باءت بالفشل .

واما الاردن فقد نعم بقسط من الاستقرار النسبي مدة اطول من جيرانه ، الا انه منذ حوادث فلسطين وانضمام المنطقة الغربيـــة اليه بدات مظاهر عدم الاستقرار تتجدد عاما فعاما . فقتل الملـــك عبد الله ، ثم تنازل ابنه الملك طلال عن العرش . لكن حفيده الملك الحسين ظل عرضة لتيارات سياسية متضاربة جعلت بـــلاده غير هادئة من حيث الامن والاستقـــرار السيـــاسي . فهناك انتخابات ١٩٥٥ ، وقيام حكومة النابلسي وسيرها الى جانب سورية ومصر والسعودية ، ثم ردة فعل الملك حسين بحل البرلمان واسناد الحكم الى سمير الرفاعي وهزاع المجالي ، وسجن العقائديين ، وتعثـــر الامور بين المملكة الاردنية والجمهورية العربية المتحدة ، واضطراب الحال حتى اغتيال المجالي. والحقيقة ان وضع الاردن بهذا الشكل غير مضمون العاقبة ، ولا بد من انضمام الاردن مـــع سورية والعراق وتاليف دولة عربية قوية على طريقة الاتحاد الفدرالي ، وهكذا تكون الامور عادت الى نصابها الطبيعي .

ولم تنج بلاد فارس من هزات عنيفة بدات في العصر الحاضر بثورة القائد بهلوي وفـــوزه بعـــرش ايران ، ثم صدامه مع الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية ، مما ادى الى خلعه ونفيه الى افريقيـــا حيث توفي . ثم قام مصدق بحركته الشهيرة التـــي بذل الاميركيون والبريطانيون جهدهم لقلب نظامه فنجحوا وتنفسوا الصعداء . ثـــم قامت مظاهرات جديدة وهرب الشاه ثم عاد ، ولكنـــه لا يزال هـــو ونظام حكمه معرضين للانهيار . وفي افغانستان قامت حركة معادية للاجانب على يد عاهلها امان الله لم تلبث الدول الكبرى ان قضت عليها بواسطة باجا سقا . لكنه قتل وعادت الامور لسيرها الطبيعي.

وباكستان ، بعد استقلالها في ١٩٤٧ ، لم تستقر فيها الامور . فقامت ثورة تولاها قائد الجيش الذي سمى نفسه رئيسا للجمهورية. وتركيا كذلك ، بعد ان حاربت اليونان وظفـــرت باستقلالها وسادت

الطمانينة فيها وسارت في طريق التقدم والرقي ، انقسمت الى فئتين : فئة برئاسة عصمت اينونو وفئة برئاسة عدنان مندريس الذي فاز بانتخابات ١٩٥٠ النيابية وتسلم الحكم . لكنه اساء التصرف فانهارت اقتصاديات تركيا انهيارا خطرا . فقـــام الضباط عليــه واعتقلوه وتسلموا زمام الامر ثم اعدموه .

والسودان ايضا لم تحرم من انقلاب تولى العسكريون بنتيجته شؤون الحكم برئاسة الفريق عبود ، في ١٩٥٨ .

فاذا التفتنا حولنا في بلاد الشرق الادنى ، بحـــالته الحاضرة ، راينا حكومـــات عسكرية مستبدة تسيطر على اجزائـــه : تركيا ورئيسها الجنـــرال غـــورسيل ، ولبنان ورئيسه فـــؤاد شهاب ، والجمهورية العربية المتحدة ورئيسها البكباشي جمال عبد الناصر ، والعراق ورئيسه اللواء عبد الكريم قاسم ، والباكستان وعلى راسه الجنرال ايوب خان . اما الدول الاخرى فتحكم بطريقة لا تختلف عن الطرق المتبعة في البلاد المذكورة من حيث النظام الرئاسي الاستبدادي وهي لم تنج من عدم الاستقرار ، رغم ان الحكم فيها حكـم عسكري غير شوري باستثناء اسبانيا والبورتغال . والفضل في هذين البلدين يرجع الى عقلية فرانكو وسالازار وطبيعة الشعبـــين الاسبانـــي والبورتغالي .

ويبدو ان داء الحكم العسكري الذي استشرى في الشرق الادنى انتقلت عدواه من امريكا الجنوبية ، حيث لا يستقيم الحـكم لجنرال او قائد حتى يقلبه زميل له ، وهكذا دواليك .

ولعل للغيرة والحسد اثرهما في اندفاع القواد العسكريين الى الطموح للقبض على زمام الامور واغتصاب السلطة ، سواء مـــن الحكام المدنيين او من زملائهم العسكريين الذين سبقوهم في هـــذا المضمار .

وباكثر الحـــالات ، يسبق الانقلاب العسكري تردي الامور الداخلية في البلاد ، نتيجة لتزاحم المدنيين على الحكم ولجوئهم الـــى اساءة استعمال صلاحياتهم ، حرصا منهم على استبقاء دفة الامور في ايديهم . فتنتشر الفوضى ويعم التبرم والاستياء ، فيهرع ضابـــط مهووس او جماعة من صغار الضباط الى عزل السلطة المدنية عن الحكم والحلول محلها ، حاسبين انهم باسلوبهم الحـديدي ، وبمـــا اعتادوا عليه مـــن اصدار الاوامر التي لا مرد عليهـــا لجنودهـــم يستطيعون املاء ارادتهم على مجموع الشعب . وهم يعتقدون ان ادارة سياسة الدولة ، داخليا وخارجيا واقتصاديا وعلميا، امر سهل

كادارة حسابات فرقة عسكرية او تمرين كتيبة على السير واخـــذ التحية او اطلاق الرصاص . واولئك الضباط ــ خصوصا في بلدنا ــ الذين هربوا من المدارس الرسميــــة لعجزهم عن الحصول علـى شهاداتها والتجـأوا الى المدرسة العســكرية حيث لا تزيد مدة الدراسة فيها عن سنتين ، ثم بداوا يعلقون النجوم والنسور على اكتافهم بسرعة خاطفة ، ظنوا انهم يخدمون بلدهم باستيلائهم علـى قيادة البلاد وبابعاد المجربين من المدنيين الذين مـارسوا صناعـة الحكم طويلا وكانوا على علاتهم اكثر خبرة ودراية من هذه الطبقة اليـافعة .

وفي جملة الاسبـاب الاسـاسية التي ادت الى الانقـلابات العسكرية كان ابتعاد الشعب وزعماؤه عن الرضوخ لمطالب الدول الاستعمارية وقبول اقتراحاتها المؤدية الى ربط مصير الامة الصغيرة بالدولة الكبيرة . فعندما يعجز عملاء تلك الدولة عن تسيير سيـاسة البلد في مثل هذا الاتجاه يعمدون الى اغـراء بعض الضباط للقيام بانقلاب عسكري يوقف ، على الاقل ، الاتجاه المعاكس لرغبة تلك الدولة ، اذا هو لم يوجه الامور في مصلحتها .

طبيعي ان جميع الضباط المشتركين في الانقلابات ليسوا عملاء للاجانب ولكنهم يخدعون بمظاهر الامور ، وبما ينفخه فيهم بعـض رفاقهم من روح الحماس الوطني فيصبحون آلة تلعب بهم الايـدي الملوثة ، ثم لا يلبث اكثرهم ان يفهم الحقيقة ولكن بعد فوات الاوان .

اراني ابتعدت كثيرا عن نطاق البحث الذي حددته لنفسي في هذه الذكريات التي نويت فيها الابتعاد عن ذكر ما له صلة بالسياسة . ولكن هل بقدرة اي رجل سياسي ان يكتب صفحة دون ان ينساق قلمه انسياقا آليا الى الجانب السياسي ؟

اول مدرسة انتسبت اليها مدرسة خاصة كانت تديرها سيدات افرنسيات ، وهي قريبة من دارنا بسوق ساروجة . واذكر انني كنت اخـاف من الذهاب لوحدي ، مما حمل مربيتي « منكشة » على مرافقتي ، لا الى باب المدرسة فحسب ، بـل ايضا الى الجلوس بجانبي على المقعد ، كانها طالبة تتلقى الدروس . والغرابة هي انها لم تضع وقتهـا سدى ، اذ انتهى بهـا الامر الى ان تعلمت بعض الكلمات الافرنسيـة وتركيب بعض الجمل . ثم دخلت المدرسة الابتدائية التي كان يديرها الشيخ كامل القصـاب . ولكن المقام لم يطل بي هناك اكثر من يوم واحد لانني كنت اجـد نفسي وحيـدا بين طائفة من اولاد لا اعرفهم ، فينتابني نوع من الوجل بسبب عدم

اعتيادي مخالطة النـــاس . ذلك ان اهـــلي كانوا يمنعون علي معاشرة من كان في سني ، فربيت في البيت معزولا عن الناس . وجاءني ابي باستاذ يعلمني القرآن ومبـــاديء القراءة ، فراح يقضي الساعات العديدة بين التعليم وبين اوقات كنت افترضها استراحة لنفسي ، فانفقها في النوم او اللعب او اكل الشوكولاته والسكاكر . وكان الاستاذ ينتظر بكل صبر عودتي الى الدرس معه . على انه كان يشهد باني ، على الرغم من طيشي وقصر وقت دراستي، كنت احفظ جيدا وارضيه في ما يطلبه مني من جهد دراسي .

ولما وجد والدي صعوبة في ارغامي على ارتياد المدرسة اضطر لاستحضار مربية اجنبية تعنى بتثقيفي وتربيتي ، فكان لها وللمربيتين اللتين توالتا علــى هذه المهمـــة الفضل في حسن معرفتي باللغة الافرنسية . وهكذا تلقيت دراستي الابتدائية في الدار مدة ثلاث سنين « ١٩١٠ ــ ١٩١٢ » . واذكر ان احدى هؤلاء المربيات كانت افرنسية وكانت تروي لي قصصا عديدة جرت معها في بطرسبورغ عاصمة الامبراطورية الروسية اذ ذاك ، حيث كانت تقيم مع احدى العائلات المالكة لتربية اولادها . اما الثالثة فكانت سويسرية .

وكانت تسود عادة الاحتفال بختان الاولاد في حفلة تتناسب روعة مع مقام العائلة. وانا اذكر يوم الاحتفال بختاني في ١٩١٠ . ففي هذا اليوم دعي الى تناول طعام الغداء ما لا يقل عن خمسمائة مدعو تناثروا في باحة دارنا الواسعة وغرفها وقاعاتها يستمعون لجوق من العازفين والمطربين ويتناولون القهوة والمشروبات ــ غير الروحية طبعا ــ ويتوازعون علب الملبس . وكنت اجول بين المدعوين ممسكا بيد والدي ، مزهوا بالقنباز الحريري الذي كنت ارتديه ، وبالطاقية البيضاء التي علق عليها الكثير من المجوهـــرات الماسية ، كأنني عروس ليلة زفافها . لكن سرعان ما انتهى سروري وابتهاجي بهذه الحفلة عندما قادني والدي الى الغرفة المعدة لاجراء عملية الختان وسلمني بيده الى الاخصائي السيد الساطي . فامسك هذا بي وراح يقوم بمهمته . فاخذت اصـــيح وابكي مستنجدا بوالدي وبوالدتي اللذين راحا يبكيان خارج الغرفة منتظرين انتهاء العملية . امـــا انا ، فبقيت بحضن مربيتي « منكشــه » يحوطني جم غفير من الاقارب واصدقاء والدي الخلص . وكانت الغرفة تعج بهم . وبعد ان انهى الدكتور الساطي عمله حملوني الى السرير العالي المنصوب بصدر الغرفة تعلوه « ناموسية » من التول الرفيع ، وقد زينت بالزهور الاصطناعية .

وجاء والدي ووالدتي ، والدموع تمــلأ اعينهما ، وعانقاني بعاطفة عميقة وصارا يأتيان الي بالهدايــا التي قدمت لي بهذه المناسبة السعيدة . وقد بلغت الهدايا قدرا لم اعد اذكره ، ولكنها على كل حال كانت تملأ سطح منصات عدة . ووضعت ، الى جانب السرير ، الساعات الجيبية ، اذ لم تكن الساعات اليدوية قد ظهرت يومئذ في الاسواق . كانت سلاسلها ذهبية ، وكانت المحابر مع الاقلام ذهبية ايضا او فضية . وهذا بالاضافة الى المخمسات ـــ وهي عملة ذهبية قيمتها خمس ليرات ذهبية ـــ والليــرات الذهبية المفردة ، الانكليزية منها والافرنسية والعثمانية . وكنت اتلذذ بعدها وملء كفي بها واسقاطها تباعا في حضني وسماع صوت رنينها . وكأن في جملة الهدايا علب مملوءة بأوراق الكتابة مع ظروفها ذات الالوان الزرقاء او البيضاء والرسوم الصغيرة لزهور ملونة ، وكــرات تمثل مصور الارض مجسما ، وغير ذلك من الاشياء . واني اقارن ما كان يهدى في تلك الايام وما يهدى الآن من الثريات الزجاجية والتماثيل الرخامية او الخزفية وآلات الراديو او التلفزيون وساعات اليــد الذهبية والزهور البديعة وعلب الشكولات والسكاكر وهي من الخــزف الصيني او الاوروبي الثــمين . لكن بطلت الآن عــادة الاحتفال بالختان فزالت مناسبة جميلة يفرح بها الاولاد ولو كانت تتضمن في الوقت نفسه تجربة مؤلمة . ذلك انهم كانوا يستعيضون عن التخدير العام او الموضعي بالهتاف والصراخ : نيريا يا هيه ... صلوا على محمد ... ونور العين ... ونير وغضير ... وبيض الله وجهه ..

موكب الحج وحراسته

ومن المشاهد التي لا تزال مطبوعة في مخيلتي موكب الحج . اذ كان الحجاج يجتمعون في دمشق ويسافرون بموكب كبير الى المدينة المنورة ، ومنها الى مكة المكــرمة . وكانت الحكومة التركية توفد لحراسة الموكب قوة من الجيش مع مدفعين . لكنها لم تكن مطمئنة الى هذه القوة لحراسة العشرين الفا او اكثر من الحجاج . لذلك كانت تخصص سنويا مبلغا كبيرا من المال ، يصل الى بضع مئات الالوف من الليرات الذهبية سنويا ، ليوزع بمعرفة امير الحج ، على رؤساء القبائل التي على طول الطريق . وبذلك تحصل الحكومة على الامن . وكان يكلفها اضعاف ذلك المبلغ ، لـــو هي عمدت الى استئصال داء الغزو المتفشي بين العشائر .

وقد روى لي صديق والدي المرحوم مصطفى بك سليمان انه كان يرافق ذات مرة الهيئة التي اوفدتها الحكومة لدفع الاموال الى رؤساء العشائر حتى تضمن عـــدم مهاجمتها العمال الذين كانوا

يقومون ببناء السكة الحديدية بين دمشق والمدينة المنورة . وكانت مهمته ترتيب الجدول بذكر اسم رئيس العشيرة والمبلغ المدفوع له . فلما طلب من احد الرؤساء ان يدلي باسمه رفض هذا بشدة ، رغم الالحاح عليه . وحين اعيت الحيلة اعضاء اللجنة قاد مصطفى بك هذا الشيخ الى خارج الخيمة وسأله عن سبب تمنعه فاجابه بأنه لا يستطيع البوح باسمه خوفا من ان يصل الى مسامع السلطان — وكان السلطان اذ ذاك عبد الحميد الثاني — فيأمر بذبحه . فازداد مصطفى بك دهشة واخذ يصر عليـــــه لمعرفة سبب هذا الجزع . وبعد الجهد والايمان المغلظة استطاع الحصول على السر الرهيب ، وهو ان الشيخ كان اسمه « سلطان ! »

وهكذا كان ذلك البدوي المتنقل هو وعشـــيرته في صحارى الحجاز الشاسعة ، والذي لم تكن يد السلطان لتطاله ، بل تقدم اليه المال لتتحاشى شره ، يخشى ان يسمع السلطان ان هنالك شخصا يدعى سلطان ، قد ينازعه ملكه وسلطانه فيأمر بقتله .

والمضحك في القصة ان السلطان القابع بقصره في الاستانة ، وسلطته تمتد من جنوب الجزيرة العربية حتى نهر الدانوب ، ومن حدود ايران حتى مصر وطرابلس الغرب وما بعدهما ، كان يتبادل الخوف مع ذلك البدوي الذي لا يمتد سلطانه الى اكثر من عشرين بدويا وثلاثين جملا ومئة نعجة . فيدفع واحدهما الخوة ويقبضها الاخر كحق له ، رغم خوفه الشديد منه .. وهكـــذا كان في ذلك العصر من المفارقات والغرائب ما يتناسب مع سذاجة القوم وضعف الحـــاكم .

اما امير الحج فكان مقامه عاليا. وكثيرا ما كانت تنتقل الوظيفة بالارث . وقد تعاقب على هذا المنصب ثلاثة من اجدادي ، على ما ذكر في التواريخ ، وهم اسعد باشا العظم وابنه وحفيده ، الى ان انتهت الى احد زعماء الاكراد بدمشق ، وهو المرحوم سعيد باشا شمدين . وبعد ان توفي ، ورث امارة الحج حفيده عبد الرحمن باشا اليوســـف .

وكان الركب يتوجه من دمشق في اليوم الخـامس من شهر شعبان ، اي قبل يوم عرفات باكثر من شهرين . ذلك لان الموكب لم يكن يقطع اكثر من ٤٠ كيلومترا في الاربع والعشرين ساعة ، مراعاة لقدرة سير المشاة من الحجاج والعكامة الذين كانوا يرافقون الجمال ويعنون بخدمة من كان يركبها .

وعدا المشاة ، كان من الحجاج من يركب الخيل والبغال ومن

يركب الجمال منفردين او مزدوجين ، على ما يسمى «محارة» ، اي نوع من الهودج يحمل راكبا في كل من الجانبين وعليه غطاء يخفف عنه برد الليل ووهج النهـار .

وكان السير يتم في الليل اتقاء للحر القاسي الذي حن يهدد الانسان والحيوان بالهلاك . لذلك كان « العكامة » يسبقون الركب الى «المحطة»، فيصلون قبله بساعة او ساعتين،ويهرعون الى نصب الخيـام واشعال النار وتحضير كل ما يحتاج اليه الحجـيج من استراحة ونوم وطعام .

وهكذا كان الحاج يعاني انواع المشاق ، على ظهر الجمل او الحصان او مشيا على الاقدام ، حتى يصل الى المدينة بثلاثين يوما ، فيرتاح مدة ثم يستأنف سيره الى مكة فيقضي بين الحرمين المقدسين اثني عشـر يوما .

وليس غريبا ، اذن ، ما كان يردده الناس . وهو ان الذاهب الى الحج مفقود والعائد منه مولود . اما الان ، فبفضل الطائرة يستطيع الحاج ان يطير ليلة الوقفة الى عرفات ثم يعود ، بساعات اربع ، بعد اتمامه مناسك الحج ، فلا يطول غيابه اكثر من ايـام معدودات ولا تتعرض حياته للهلاك وامواله للسلب كما كان في السابق . ولذلك توجب على كل مسلم ان لا يكتفي بالحج مرة واحدة على الاقل ، كما فرّض عليه .

واذكر مرة انني صحبت والدي في مركبتنـا ، وكـان يرتدي لباسه الرسمي . وهو معطف طويل الى تحت الركبة ، مزركش بالقصب ، تعلوه الاوسمة العثمانية والالمانية ، وقد رصع احدها بالماس ، وكان والدي تلقاه من امبراطور المانيا عند زيارته دمشق في عام ١٨٩٨ . وكان يتدلى من وسطه سيف معلق بالحزام المزركش ويعلو رأسه طربوش غير مقشش .

وسارت بنا المركبة في طريق الميـدان المزدحم بمن يركب العجلات ، ومن يمتطي صهوات الخيل والحمير والبغال ، ومن يسير على قدميه . اما الارصفة فكانت تكتـظ بالنساء المحجبات وبالاولاد . وكانت شبابيك البيوت المطلة على الطريق تغص بالمتفرجين من نساء ورجال حملهم كسلهم على القناعة بالتفرج .

وكان الذي يجلب الاهتمام موكب المحمل والسنجق . امـا المحمل — وقد احسن من حفظه في المتحف الوطني كذكرى للماضي — فهو هيكل مغطى بقماش مخملي اخضر كتبت عليه بالقصب آيات من القرآن ، يحمله جمل مزركش بانواع الاقمشة والجلود خيطت

عليها الاصداف الصغيرة والمرايا. اما السنجق فكان يحمله خلف المحمل جمل آخر . وهو علم ، يقال انه علم النبي صلى الله عليه وسلم ، يمسك به موظف خاص يلبس هنداما مزركشا خاصا بالمناسبة .

وكانت الجماهير تحيط بهذين الجملين . وكان بعضها يعتقد ان لمس احدهما يجلب له البركة والربح المعنوي . وكان امير الحج يتقدم الموكب راكبا على صهوة حصانه ، وهو يتهادى بين الجماهير والجنود المحيطين به . وكانت الموسيقى العسكرية تعزف الاناشيد، بينما يتلو المشايخ التراتيل الخاصة فيرددها القوم معهم بكل خشوع وابتهاج . وكانت النساء يرسلن الزغاريد بأصواتهن العالية ... وهكذا كان الموكب يسير ، تحيطه هذه الجموع المختلفة الملابس . منها الرسمية المزركشة بالقصب لاصحاب الرتب المدنية ، والعسكرية التي تشبهها من حيث السيوف وما اليها ، فضلا عن البسة المشايخ، الاسود منها والازرق والبني، بحسب رتبة اصحابها، تعلوها العمائم المزركشة بالقصب ايضا . واما الشعب فكان لباسه ، كما لا يزال حتى الآن، خليطا من اللباس الاوروبي والبلدي المؤلف من قنباز طويل او سروال ضيق الساقين ومعطف عادي او قميص من « الديما » وصدرية مزركشة وحزام من الاغباني او القماش العادي الاسود او الاحمر . واما لباس الراس فمن الطاقية الصغيرة البيضاء او الملونة الى الكوفية البيضاء او الملونة مع عقال اسود او بدونه الى الطربوش الاحمر او الابيض الى كاكوليـة الدراويش ذات اللفة الخضراء . ولكن لم تكن لتشاهد بين جميع هذه الجماهير احدا بدون غطاء راس الا الاطفال الصغار ، اذ كان عيبا ان تخرج الى الشارع وراسك مكشوف . واما الان فاذا لم تكن عـاري الراس فالناس تتطلع اليك بتهكم .

والفرق الكبير الظاهر بين الامس واليوم هو في لباس المراة .. فكانت المسكينة ملفوفة بملاءة سوداء لا تظهر لها جزءا من جسمها حتى ولا كسمه ... واما الوجه فمخبأ يكاد لا يخرقه النور ... حتى انني اجيز اقامة تمثال تمجيد للمراة العربية المسلمة التي كانت تستطيع السير في الشارع وتمييز طريقها خـلال هذا الحجاب الكثيف ...

وكنا في طريقنا ضمن الموكب كاننا في بحر خضم تتجاذبه امواج ليست من الماء بل من اناس يتدافعون ويتراجعون كانهم بحر هائج . والاذن تفضت طبلتها الاصوات المتضاربة المتماسكة المؤلفة من الالات النحاسية التي يضرب عليها افراد جوقة الموسيقى العسكرية

بشدة تتناسب مع صولة الجيش وهيمنته على العباد ، ومن صريخ مشايخ الطرق الذين يظنون انهم بقـدر ما يرفعون اصواتهم بقدر ما يتقربون من اعلى العليين ، ومن زغردة النسـاء التي لا تفرق في اوجها عن الولاويل المستعملـة في الحزن ، ومن ازيز الرصاص الذي يتبارى شباب الاحياء باطلاقه فرحا وسرورا ويزيد في ضجيجه اصوات المدافع التي كانت تطلق من الثكنات . واذا اضفت الى كل ذلك صوت هدير الناس ودوي احاديثهم وعيـاطهم استطعت ان تتصور ـ بأقل من الواقع على كل حال ـ ما كانت تعانيه الآذان في الساعتين او الثلاث التي تنقضي حتى يصـل الموكب الى قرية العسالي بآخر حي الميدان .

واذا اضفنا الى هذه المزعجـات ما كان اصحاب الدكاكين يمطروننا به من انواع المياه : ماء الورد وماء الزهر والماء العادي الذي كان يقذفه البعض بدلا من الاولين توفيرا واقتصادا ، فتبتل ثيابنا كأنها في يوم ممطرير . واذا ذكرنا ما يصيب المرء من دنش ونكش ودعس على الاقدام ، ومن زلة الارجل في الجور والحفر التي كان يسترها عن الاعين الازدحام الشديد والاكتظاظ المخيف كأنه يوم الحشر ... فاننا بذلك قد نعطي صورة قريبة عما كان يجري بيوم المحمل المشـهود .

وهل اطرف من وقوف الموكب امام مقام سعد الدين الجباوي ريثما يتناول الجمل السعيد قطع السكر والملبس التي جرت العادة على تقديمها له من قبل من كان يمارس هذا الامتياز مفتخرا ؟

قلنا ان هدف القوم كان قرية العسالي ، حيث تحتشد الجموع قرب الجامع حول الخيام المنصـوبة للمدعويين الرسميين من الباشاوات والبكوات والافندية ، مدنيين وعسكريين وعلماء ، لوداع امير الحج وامين الصرة ـ اي الاموال التي كانت ترسلها العاصمة لتوزيعها على العشائر ـ وسائر الحجاج . وكان يتصدر الجميع والي سورية والى يمينه امير الحج والى يساره المشير قائد الجيش الخامس المرابط في دمشق ، ومن حولهما سـائر المدعويين من الموظفين ووجوه المدينة وعلمائها . وبعد تسليم الصرة رمزيا الى امينها يتعانق الامير مع كبار المودعين ويمتطي صهوة جواده ويسير في مقدمة القافلة بين الزغاريـد وبكاء عائلات المسافرين وانغام الموسيقى وتهاليل المشايخ وتعاويذهم ... وتظل المناديل تلوح حتى يغيب الركب في طريقه الى الكسوة حيث يقضي بقية ساعات النهار

ثم يستأنف المسير ليلا الى المزيريب في طريقه الى المدينة ثـم الى مكـــة .

في ربيع ١٩١٤ ارادت الحكومة العثمانية ان تقوم بعمل يدعم هيبتها المتداعية على اثر الحربين اللتين خسرتهما ، وهما الحرب ضد ايطاليا حيث اضاعت طرابلس الغرب ، والحرب ضد الدول البلقانية حيث انحسر سلطانها عن بلاد البلقان كلها . وكانت المباريات بين الدول الكبرى جارية بهمة في مضمار الطـــيران، اذ اجتاز الطيار الافرنسي «بله ريو» مضيق «كاليه» في بحر المانش من الاراضي الافرنسية الى الاراضي الانكليزية . ثم قام الطيار الافرنسي « فرين » برحلة جوية بين باريس والقاهرة ، في حين ان الطيران الاميركي كان من جهته يستجلب اعجاب الجماهير .

وكانت الطائرات في ذلك العهد صغيرة الحجم وذات محرك واحد لا تتجاوز قوته المائتي حصــان . وكانت مقاعد الطيارين مكشوفة ومعرضة للبرد والرياح . اما طول الطائرة فلا يتجاوز سبعة امتار . واما طول الجناحين فكان سبعة امتار ايضا .

وبدأت الرحلة الاولى من الاستانة حيـــث تولى الطياران العسكريان فتحي وصادق قيادة الطائرة الصـــغيرة متوجهين الى القاهرة ، على عشر مراحل .

اول طائـــرة تصل الى دمشق

وفي اليوم الذي اعلن فيـــه نبأ وصـــول اول طائرة الى دمشق احتشدت جموع غفيرة يقدر عددها بمئة الف نسمة ، في الفسحة التي يشغلها الان معرض دمشق الدولي . وكان على الطائرة ان تحط على المرج الاخضر كيفما كان الامر ، حيث لا مدرج ولا برج ولا استعداد لمساعدتها على الهبوط . وكنت مع والدتي واهل بيتي قد اتخذنا من احدى المطاحن المشـــرفة على ساحة المرجة مركزا للفرجة . وقد خشينا ان ينهار بنا البناء الخشبي من كثرة المحتشدين به من المتفرجين . واما والدي فكان جالسا مع الهيئات الرسمية تحت صيوان كبير اعد لهم في منتصـــف الساحة . وبقينا ساعات طويلة ننتظر وصول الطيارة . وكان الاولاد كلما شاهدوا نسرا في الجو صاحوا : وصلت ، وصلت ، فتشرئب الاعناق الى السماء وتنطلق الضحكات . وهكذا حتى بدا في السماء جـــرم لا يشبه النسور وصار يحوم فوق الساحة ، فارتفعت اليه اصوات الزغاريد والهتاف . وما لبثت الطائرة ان حطت في اول الساحة وتدرجت على الحشيش حتى توقفت في اخر المرجة ، فهرع القوم وهجموا على الطائرة ورفعوا الطيارين على الاكتاف وقادوهما الى الصيوان ،

حيث كان الوالي والمشير وسائر المستقبلين الرسميين بانتظارهما . اما الطائرة فلو لم تسرع شرذمة من الشرطة لتحيط بها وتمنع الناس من التقرب اليها ، لما بقي منها اثر ، بسبب الاقبال على اخذ قطعة منها على سبيل الذكرى .

وبعد ان انتهى الاستقبال الرسمي سار الموكب الى دارنا بسوق ساروجه ، حيث كان مقررا نزول الطيارين ضيفين كريمين على والدي . وبهذه المناسبة ، فان من الطريف ذكر الخلاف الذي وقع بين والدي وبين عبد الرحمن باشا اليوسف على اي منهما يستضيف الضيفين . وكانت مجادلة عنيفة امام الوالي ، الذي لم يستطع حسم المشكلة الوخيمة العواقب الا بتقسيم مدة الاستضافة بين المتنازعين ، فخصصت الليلة الاولى لوالدي والليلة الثانية لجارنا عبد الرحمن باشا . وهكذا اعددنا للزائرين غرفتين مجهزتين بأفخر الرياش .

ووصل الموكب الى الدار ، فالتزم فتحي وصادق غرفتيهما للراحة حتى المساء . ثم اشتركا بالوليمة التي اقامها والدي على شرفهما وحضرها الوالي والمشير وكبار الموظفين والوجهاء .

وفي اليوم الثاني طاف الضيفان اسواق المدينة وتفرجا على مباهجها ، ثم ذهبا الى دار عبد الرحمن باشا ، فقضيا ليلتهما ، بعد وليمة اعدت لهما هنالك .

وفي صباح اليوم الثالث زحفت الجماهير الى المرجة لتشاهد سفر الطائرة . وكان الحفل كحفل الاستقبال . وصعدت الطائرة ببطء الى السماء وتوارت عن الانظار والناس يدعون لها بسلامة الوصول . الا ان القدرة الالهية لم تستمع الى تلك الابتهالات ، فسقطت الطائرة قرب بحيرة طبريا ومات الشهيدان في سبيل الواجب والتقدم . وانتشر الخبر بدمشق انتشار النار في الهشيم ، وتولت اسلاك البرق اذاعة الخبر الى كافة انحاء العالم . وفي اليوم الثالث من الحادث استعدت المدينة لاستقبال الطيارين جثتين هامدتين ، لا قوة لهما ولا حول ، بعد ان استقبلتهما نازلين من اوج علائهما في السماء . تبارك الله ، يعلي من يشاء ويدني من يشاء . بيده الموت ، وهو على كل شيء قدير .

احتشدت الجماهير امام محطة القنوات وانزل النعشان من القطار مكللين بالعلم التركي ، تعلوه الزهور والرياحين . وسارت الجنازة بين عشرات الالوف من الواقفين على الارصفة والمحتشدين في الشبابيك وعلى سطوح المنازل . وكانت المآقي تذرف الدموع

ـسخية والوجوه يعلوها الحزن الشديد . وكانت ولولة النساء تعلو اصوات المؤذنين وارباب الشعائر الدينية . وتوجهت الجنازة الى جامـــع التكية ، حيث اقيمت صلاة الميت . ثـم سارت نحو سوق الحميدية ومنه الى المثوى الاخير الذي اختير للشهيدين بجوار صلاح الدين الايوبي .

وبعد اسبوع وصلت الطائرة الثانية . كـــان استقبالها هذه المرة في سهل المزة ، ولـم تقم اية حفلـــة ، حـــدادا علـــى الفاجعة السابقة . ونزل الطائران بدار عبد الرحمن باشا ، اذ ان والدي لم يسع هذه المرة لاستضافتهما ، حزنـــا منه وتألما عـــلى رفيقيهمـــا. وغادرت الطائـــرة دمشق وتوجهت الـــى مصر ، الا ان حظها وحظ قائديها لم يكن احسن ممـــا سبق ، فوقعت في البحر امام مدينة يافا ونجا احد القائدين واستشهد الآخر فحملت جثته الى دمشق ووريت بجانب الرفيقين الاولين . ونكأت هذه الفاجعة الجرح الذي لم يكن قد التأم بعد . وظلت الحادثتان مـــدار حديث الناس وسبب حزنهم مدة طويلة ، الى ان اعلنت الحرب العامـــة بصيف ذلك العام ، ثم اشتركت الدولة العثمانية بهـــا . فنسي الناس الفاجعتين وشغلتهم فواجع الحرب الكبرى ومصائبها .

وفي ربيع ١٩١٥ بعث جمال باشا قائد الجيش الرابع والحاكم بأمره في البلاد العربية (سورية ولبنان وفلسطين والحجاز) وفـــدا من المشايخ العلمـــاء الـــى المدينة المنورة لتلاوة السيرة النبوية يوم المولد الشريـــف ، والتضرع الى اللـــــه عز وجل بان ينصر جيش المسلمين . وجاء احد اقربائنا الشيخ توفيق الحسيني لدارنا واقترح على والدتي ان نذهب كلنا الى المدينـــــة المنورة بالقطار المخصص للوفد ، اذ لم تكن المواصلات في تلك السنة ميسرة بسبب اشتراك تركيا بالحرب . فاستصوبت والدتي الفكـــرة وقـــررت السفر دون استشارة والدي الذي كان حينئذ في الاستانة ، نائبا عن دمشق في مجلس المبعوثان العثماني . وكانت اسرتنا مؤلفة من والدتي وعمتي الاثنتين وشقيقتي الاثنتين ومني ، فخصص لنا بالقطـــار غرفتان في كل واحدة منهمـــا سويران : الواحـــد فوق والثاني تحته . واكتظت سائر غرف القطار بالمشايخ الذين تجاوز عددهـــــم المئة . ولم يكد القطار يبرح محطة القنوات حتى تعالت اصواتهم بالاناشيد النبوية وبتلاوة الآيات الكريمة . وكانت رحلة ممتعة لولا بطء سير القطار واضطراره للوقوف مرات عديدة، وذلك بسبب نوع الوقود المستعملة في

القاطرة ، وهو الخشب والحطب بـدلا عن الفحم المفقود منذ بداية الحرب . فكان السائق يضطر لتوقيف القطار كلما نقص البخار في المرجل ، والانتظار حتى ترتفع حرارة المـاء فيتكاثف البخار ليعيد القطار الى سيره . اما السبب الآخر للوقـوف المتكرر فكان ورع المشايخ ، اعضاء الوفـد ، اذ انهم كانوا قـد اصدروا امرهم الى سائق القطار بايقافه عند حلول مواعيد الصلوات الخمس . وهكذا كنا نضيع اكثر من ساعة بانتظار وضوء السادة المشايخ ووقوفهم صفا واحدا خلف الامام واقامة الصلاة وارسال الدعوات الخيرات . والواقع انه كان منظرا رائعـا وقوف مئـة متعمم وسط الصحراء مبتهلين الى المولى تعالى خاشعين مؤدين واجبهم الديني بكل ايمان وخضوع ، وخاصة عند صلاة العصر ، حين كانت ظلالهم تمتد طويلا على رمال الصحراء الناعمـة ، او عند صلاة الصبـح ، حين كان صوت المؤذن الشجي يدوي في الارجاء الخالية الا ممن عبد الله .

وكنت لا افوت وقتا من اوقات الصلاة ، واقيمها مع المصلين بكل خشوع وهيبة ، وانا البس لباسا جهز لـي قبل السفر . وهو مؤلف من قنباز حريري ابيض ، تعلوه جبة بيضاء . وقد اكتمل هذا الزي عند وصولي الى المدينة ، حيث اشتريت عمة من النوع الذي يلبسه اهل تلك البلد ، وكم اتمنى لو اخذت لي صورة فوتوغرافية ، اذن لكانت ذكرى جميلة .

واضافة الـى الشعائر الدينيـة والتلاوات والاناشيد ، كان اهتمام رفاقنـا المشايـخ مصروفا الـى تناول انواع الاطعمة التي استزادوها او راحوا يحضرونها في القطار ويتهادونها في ما بينهم . وكان مشهورا عنهم حب الطعام ، لدرجة النهم . فكان الواحد منهم يفتخر بالانواع الفاخرة من المآكل ، لا سيمـا الحلويات التي كانت الصناديق مليئة بها (الكنافة باشكالها والكول واشكر وغيرهـا من المعجنات الطيبة) .وكـان احد اعضاء الوفـد ، ، احمـد افندي الداغستاني ، رجل يتظاهر بالبله . فيطوف على وجـوه البلد ناقلا اخبار اليوم كانه محطة اذاعة سيارة . ولم يكن مع احمد افندي من الزاد ما يهديه او ما يؤمن حاجته ، الا انه استجلب معه دزينات من اوعية الماء (المسماة شربة) وهي جرة صغيرة مصنوعة من الفخار . واقتصر عمله على املاء هذه الاوعية بالمحطـات وتعليقها بشبابيك الممرات . وحينما يعمد المسافرون الى الطعام كان احمد افندي يمر بالغرف ويقدم الماء العذب البارد ، فيدعى لمشاركة الناس في طعامهم .

وكان يتظاهر بانه سبقهم . ولكنه « من شان خاطرهم » كان يتناول لقيمات معدودات . وهكذا فــلا ينتهي به المسير حتى يكون قد ملأ بطنه واكتفى .

كانت مبارحتنـــا لمحطـــة القنوات بدمشق في الصباح . وظل القطار يسير بتمهل حتى وصل الى محطـــة عمان بعـــد الغروب . وهنالك علمنا ان احدى المركبـــــات قد احتـــرق الزيت في دواليبها واوشكت اللهب ان تحرق المركبـــة بمن فيهـــا . فابعدت عن القطار ووزع ركابها على المركبات الاخـــرى . وصدف ان عمتي الصغرى كانت مستندة الى شباك غرفة المركبة فسمعت بكاء امراة واقفة على الرصيف ، فاشفقت عليها وسالتها ما بها وراحت تخرج من جيبها قطعا من النقد لتعطيها اياها ، ظانة انها متسولة. فاجابتها المراة : اني مسافرة معكم ، واحترقت المركبة فاقترحوا علي الجلوس مع طائفة من الرجال فابيت . وها اني معرضة للبقاء بعمان ولا اعرف فيها احدا . ولم اجد في القطـــــار مكانا بين السيدات امكث فيه . واسترسلت في البكاء والنحيب حتى بلغ الحزن بعمتي حدا كبيرا . فقالت لها اصعـــدي واجلسي الـــى جانبـــي . وانتفضت شقيقتي وحذرتها من استضافة امراة لا تعرفها . فلم تكترث عمتي وتركت لها جزءا من سريرها فجلست عليه وراحت تكيل لها الشكر والمنة . ولم تمض ساعة او اقل حتى شعـــرت عمتي بضرورة الخروج الى الممر لاستنشاق الهواء النقي . ولما عادت، ما كان أشد عجبها عندما رات ضيفتها متمددة على السرير كلـــه . فقالت لهـــا : ها اني قد عدت فعـــودي الى محـــلك . فاجابتها المـــراة بصفـــاقة : انت دفعت اجرة محلك وانا كذلك دفعت اجرته ، فاقعدي حيثمـــا كنت جالسة . « وما حدا احسن من حدا » .

وابتدأ بين السيدتين خصام ونقاش لم يغيرا شيئا من الموقف . وظلت المراة الدخيلة محتلـــة السرير وبقيت عمتي حتـــى الصباح جالسة في المحل الذي تخلت عنـــــه سابقا لتلـــــك المراة الجاحدة الناكرة المعروف .وجرى ذلك بظل شماتة شقيقتي وترديدها الامثال السائرة عن عدم تقديم المعروف الا لمن يستحقه .

لم يكن بتلك الايام فندق في المدينة ياوي اليـــه المســـافرون . فكان كل واحد ينزل عند « مطوف » ، حيث ينام اعضاء الاسرة بغرفة واحدة على الفرش الممدودة عـــلى الارض . واخترنـــا نحن مضيفنا (وعلى ما اذكر كان اسمه ابن المـــدني) وذهبنا الى الجامع ساعة

وصولنا ، حيث يصلي الرجال في المسجد النبوي وتصلي النساء بعيدا عنهم ، بجزء منـــه محدود بجدران خشبية لا تخرقهـــا الانظار . ولا يزال بمخيلتي الخشوع الذي شعرت به اذ ذاك ، عندما زرنا قبـــر النبي صلى الله عليه وسلم ، وطفنا حوله ، واقمنا الصلاة بجواره ، وقعدنا على الارض ننهل مما يشع من القبر من اشعاعات لا استطيع وصفها لانها روحية غير مادية . وقيل ، فيما بعد ، ان الاتراك، قبل ان ينسحبوا من المدينة ـــ حيث حاصرتهم قوى الشريف حسين بن علي ـــ سلبوا ما استطاعوا من مجوهرات ومن قطع ذهبية وفضية ذات قيمة اثرية ومادية . وقد زرت المدينة المنورة والمسجد النبوي مرة ثانية بعد مرور ٣٥ عامـــا ، فلمست الفارق الكبير بين حالتيه السابقة واللاحقة . فبعد ان كانت السجف السميكة تحـــــول دون دخول النور الوهاج ، فيسود على الجـــو شيء مـــن الظلام تخففه انوار الشموع ، بدا لي الحرم في المرة الثانية والنـــور يملأ اجواءه بعد ان ازيلت تلك الستائر . واني اعتقد ان العبـــادة بجو لا يشع فيه النور ، بل تملأه ظلمـــة غير كاملـــــة ، تكون مقرونة بالهدوء والسكون اللذين يجعلان المرء محفوفا بشعور روحاني لا اقدر على التعبير عنه . فالانســان بصلاته اقرب ما يكون الى باريه ، فهو يتعبده ويناجيه ولا اظن ان كل ذلك يتم في جو عاصف بالنور والضجيج . فما احلى الصلاة في جو مظلم هادىء لا يسمع فيه سوى صوت الآذان الرخيم ، وصوت الامام يتلو الآيات الكريمة مع ترديد المصلين لكلمتي الله اكبر ، وسبحان ربي الاعلى ، وسبحان ربي العظيم ، وصوت هدير المصلين الى السجود . ففي هذا كله روعة لا تدانيها طقوس الصلاة عند غير المسلمين .

والفرق بين صلاتنا وصلاتهم اننا ندعو الناس بمحاجرنا وفيض روحنا . اما هم فيدعونهم بالاجراس المعدنية . واما الموسيقى التي ترافق صلاتهم والانغام التي ترتلها فرق الصغار ، فأثرهـــا لا يعادل على اي حال اثر الاصوات الرخيمة تتلو ما انزل علينا من آيات بينات تجمع الـــى سمو المعاني روعـــة الالفاظ والعبارات . وفي ركوع وسجود جماهير المصلين تتجلى مظاهر العبادة واضحة مخلصة . واما الحركات التي يقوم بها الكهان فتبدو لي اشبه بحركات الساحر منها بطقوس عبادة جدية . وعلى كل حال ، فهذه المراسيم والطقوس انما هي من اختراع الكهنة ولا تمت الى اصل الاديان بصلة ما .

وفي اثناء اقامتنا بالمدينة المنورة ، زرنا البقيع حيث مدافن اسرة

النبي (صلعم) . وقد طمسها الوهابيون فيما بعد ، ظنا منهم أن بقاءها قائمة فوق الارض تستهوي الناس لعبادة احجارها .

واذا صح ان الناس كانوا يعبدون الحجارة في الحجاز قبل ظهور الدين الاسلامي ، فلم يعد ثمة خطر من الرجوع القهقرى بعد ذلك، لا سيما ان العلم يشع على الافكار، بحيث لا يدع مجالا للتخوف من هذه الجهة .

ثم عدنا الى دمشق بالقطار. لكننا حرمنا في عودتنا هذه من رفقة السادة المشايخ. فقد استطابوا العيش في كنف الرسول وآثروا التأخر هناك قليلا .

في مستهل ربيع ١٩١١ عزم والدي على القيام برحلة الى اوروبا . كان السفر اليها نادرا وغير ميسر بسهولة لمن كان لا يتكلم احدى اللغتين الاجنبيتين السائدتين : الانكليزية والافرنسية . ولذلك عول والدي على مرافقة صديقه حسين حلمي باشا طيلة الرحلة .

قضاء الصيف في لبنان

وكانت الصداقة بين والدي وبين الباشا المشار اليه قد تطورت حينما كان هذا الاخير (مكتوبجي ولاية سورية) اي رئيس ديـوان الوالي . وهي وظيفة قد تبدو الآن غير مهمة ولكنها كانت آنذاك تعادل وزارة الداخلية الآن من حيث الصلاحيات والنفوذ ، لا سيما ان ولاية سورية في تلك العهود كانت تشمل الاقضية الاربعة التي الحقت في ١٩٢٠ بالجمهورية اللبنانية ، كما كانت ايضا تشمل بلاد المملكة الاردنية وجزءا من المملكة السعودية (معان) .

وزار والدي والباشا ايطاليا وفرنسا والمانيا والنمسا وعادا الى استنبول ، حيث ودع والدي رفيقه وعاد الى بيروت .

وعدا ان السفر الى البلاد الاجنبية كان غير مألوف ، فان سفر الزوجة والاولاد مع رب العائلة كان امرا غير وارد . ولذلك سمح لنا والدي، لقاء تركنا لوحدنا ، ان نقضي الصيف في لبنان . فاستأجرنا بيتا في بلدة سوق الغرب قرب عاليــه . ولي بتلك البلدة ذكريات مؤلمة ، اذكر منها ان الدار التي كنا نقطنها في بناية مؤلفة من عدة طوابق ، كان لها شرفة على واد سحيق فوق شرفات تابعة للطوابق السفلية. وكانت الشرفة من احجار مصفوفة صفا غير محكم، تحملها احجار مثلها بارزة عن البناء . وذات صباح كنا جالسين على ارض الشرفة، فتراءى لوالدتي ان تستحضر آلة تحميص القهوة . ورحت

ادير معها حركتها . ويظهر ان قطع الفحم المشتعلة ضمن المحمصة اثرت حرارتها على حجر الشرفة الذي كنت جالسا عليه فانشق وسقط على الشرفة التي تحته وسقطت معه .

وكان، قبل هنيهة، اولاد مستأجر الدار السفلى يلعبون على شرفتها تحتنا . الا ان مربيتهم ادخلتهم صحن الدار واغلقت الباب بينما كنت اهوي مع قطعة الحجر . فانتبهت المربيـــة واسرعت الى فتح الباب فالتقطتني من الارض وحملتني الى داخل الدار وانا فاقد الوعي . اما والدتي فلم تشاهد الحادث لانها كانت مشغولة بامر آخر . فلما سمعت صوت انفجار الحجر التفتت صوبي فلم ترني ، بل رات فوهة مفتوحة الى جانبها ، فادركت اني وقعت منها . ونظرت الى الشرفة فلم ترني ايضا ،لان المربية كانت اخذتني الى الداخل . وهكذا تصورت والدتي ان سقطتي تجاوزت الشرفة الى الوادي السحيق ، فقامت من فورها وركضت نزولا على الدرج تفراء بدون غطاء راس .وعندما قامت والدتي من مكانها وهرولت للتفتيش عني ، سقطت وراءها القطعة الثانية من الحجر الذي سقط من قبل . وهكذا فلو لم تأخذني المربية من مكان سقوطي لوقعت قطعة الحجر الثانية فوقي وهرستني هرسا . وبمنتصف السلم تلاقت والدتي المهرولة بالمربية المسرعة صعودا لتطمينها على سلامتـــي . وعندمـــا اطمأنت والدتي علي ، رغم غيبوبتي ، امسكت خاتما ماسيا ثمينا كـــان باصبعها وقدمته للمربية هدية وعربونا على ديتها عليها . ولم اصح من غيبوبتي الا بفضل سائل اليود الذي مســـح به الدكتور غراهام الجرح الذي اصابني براسي وانا اسقط بين احجار الشرفة . ولما فتحت عيني شاهدت عشرات من السيدات والرجال يحيطون بالسرير الذي كنت ممددا عليه ، وفي مقدمتهم والدتي . وكانت الدموع تملأ عينيها ولون الاصفرار يصبغ وجهها .

فقالوا لي انني وقعت من الشرفة انا ووالدتي ، كأنهم بذلك يزيلون الخوف والهلـــع من قلبي . فبكيت من الم الجرح اكثر من الخوف .

كان الدكتور غراهام طبيبا بريطانيا اقام في بيروت واكتسب شهرة واسعة في لبنان وسورية . وكانت جميع الاسر المعروفة في بلادنا تهرع الى بيروت لاستشارته بامراضها . وانا اذكره جيدا وهو يبتسم ويسأل مرضاه بصوت ناعم : كيفك يا ست نظيـــرة ؟ اذ انه تعلم اللغة العربية ، ولكنه لم يتمكن من التخلص من اللهجة الانكليزية

في عربيته . وكان الدكتور غراهام اول من استورد سيارة الى البلاد، فكنا نسمع صوت محركها يدوي بارجاء الجبل عندما يصعد بها من بيروت الى سوق الغرب ، حيث كان يقضي فصل الصيف .

وبهذه المناسبة ، لا باس من ذكر ما كانت عليه في مطلع العصر الحاضر وسائل النقل العامة. فلم يكن غريبا ان ترى باشا او وجيها كبيرا يركب حمارا ابيض او بغلا اشهب لزيارةصديق له في البلد. اما اغلبية الرجالات المعروفين ، فكانوا يملكون اصطبلا عامرا بالجياد العربية العريقة الاصيل ، يمتطون صهواتها بكل اعتزاز .

وكان كل من سعيد باشا شمدين ، امير الحج ، والامير عبد القادر الحسيني يملك وحده عربة (كروسه) المشتقة من كلمة Carrousa الايطالية ، يجرها جوادان . ثم ازداد عدد العربات فصار عندنا عربة جميلة. الا ان استعمالنا لها كان كسوانا محصورًا بالزيارات التي يقوم بها والدي للوالي او لكبار اقرانه ، وللزيارات التي كانت والدتي وعمتي واختي يقمن بها. كان والدي يركب العربة مساء كل يوم ، من ابتداء فصل الربيع حتى اواخر الخريف ، ليذهب « لشم الهواء » في الربوة او الشادروان او دمر . وهذه كانت ابعد مرحلة يقبل بها السائق (العربجي) خوفا على الخيل من التعب ، حتى انه كان يرفض العمل بعد الظهر اذا استعملت العربة صباحا للذهاب الى القرية او البستان ، مع ان المسافة لا تتجاوز بكليهما خمسة كيلو مترات . واني اذكر الفرحة التي كنت اشعر بها عندما كان والدي برسل الى العربجي خبرا بان « يحضر العربة » ، فكنت اركض الى الاصطبل لابلغه هذا الامر بنفسي ، فتبدأ عملية التحضير، فياخذ العربجي والسائس بمسح الجوادين ، ثم يجران العربة من مستودعها . ويلبس السائس الجوادين الطقم اللماع ويربطهما بالعربة ، ثم يعتلي الكرسي العالي في مقدمتها ويمسك بيده السوط (الكرباج) ويضرب به الهواء ، فيسمع صوت (القمشة) فتهب الخيل وتخرج من الاسطبل الى الشارع ، والعربجييزهو على مقعده كانه هو الباشا .

ويصل الباشا ، وانا الى جانبه ، فنركب العربة وتطق القمشة مرة ثانية . وتنطلق العربة بصوت عجلاتها الحديدية ـــ ولم يكن بعد استجلبت الاطارات المصنوعة من المطاط ـــ واصوات نعول الخيل الحديدية . وكان العربجي ينادي الناس بالابتعاد عن طريقه بالنداءات الآتية : «اوعى ظهرك .. اوعى بالك ... يالله ياحبيبي يالله ! »

وقلما كان يستعمل الزمور وهو طابة من المطاط يعصرها فيخرج من البوق النحاسي صوت يشبه صوت ناقلات البترول التي تجوب الآن الشوارع في المدينة ، عندما لا يكون ثمة ازمة وقود طبعا . وكان من الصعوبة بمكان ان تجتاز العربة طريقها بين قوافل المشاة الغادين والراجعين فيالشارع العريض، دون التزام الارصفة، ناهيك بالباعة المتجولين ببضائعهم المتنوعة ، وهي محمولة على ظهور البغال او الحمير . فكان الشارع مكتظا بهم لدرجة الاشباع . وكانوا يقفون بوسطه ويقضون وقتهم بالمساومة على سعر رطل الكوسا مثلا ، ثم يمسكون الميزان ويزنون البضاعة ويسلمونها الى المشتري ، فيضعها هذا في سلته او كيسه، ويمضي الوقت هكذا، كأن لا قيمة له. وكانوا يستغربون لماذا يعجل العربجي بالسير فلا ينتظر انتهاء عملية المساومة على ثمن الفاكهة او الخضرة ، بينما يلمسها الشاري بيده للتحقق من نضوجها ويتذوق « كم حبة منها » قبل وزنها وتطبيش الميزان . ثم هنالك « صرافة » الربع المجيدي او « البشلك » وهكذا يقتضي للصفقة ربع ساعة على الاقل . . . « وهات يا صبر ! »

وكانت العادة السيئة الثانية التي تنهك اعصاب العربجي هي ركوب الاولاد الصغار على مؤخرة العربة ومناداة الناس : « عربجي ورا . . . ورا » اي ان وراءه اولادا معلقين بعربته ، فيطلق سوطه عليهم فيصيبهم به ، فيهربون . ثم يأتي غيرهم ، وهكذا ، طول الطريق .

ولم يكن مألوفا ، بل كان عيبا ، ان يركب رب الاسرة مع زوجته وشقيقاته وبناته بعربة واحدة .

وكانت السيدات اذا ركبن العربة ارخين غطاءها (الكبوت) زيادة في منع عيون الناس من رؤية وجوههن . وكان غير ذلك عيبا كذلك .

ولم يكن الرجل يمشي بصف واحد مع زوجته او شقيقته ، بل كان يمشي امامها وهي وراءه بعدة خطوات . واكثر من ذلك كانت الاسر المعروفة لا يمشي رجالها ونساؤها معا ولو على مسافة خطوات . كانوا يسيرون لوحدهم ، ثم تأتي النساء في يوم آخر ، او بعد ساعة . وكان غير ذلك عيبا من العيوب .

حتى في القطار ، لم يكن الرجال يجالسون النساء . فتفرد لهن غرف خاصة بهن .

اما الانتقال من بلدة لاخرى فكان على ظهور الخيول او بالعربات او بالقطار الذي احدث بين دمشق وبيروت في ١٨٩٢ . وكان السفر بينهما قبل ذلك بواسطة العربات الخاصة التي كانت تملكها الشركة الافرنسية ، وتسمى ديلجانس (Delegance)وهي عربة تتسع لثمانية عشر راكبا وتقطع المسافة بين تلك المدينتين بيومين . اما « الحنطور » فكان يقطعها باثنتي عشرة ساعة ، لكن عدد الركاب فيه كان محددا باربعة . وكانت على طول الطريق مراكز لتبديل الجياد او البغال ، وعدد تلك المراكز على ما اظن خمسة عشر بين كل منها عشرة او خمسة كيلومترات ، بنسبة سهولة الطريق بينها . ولم يكن لدى الشركة عربات كثيرة ولذلك لم يكن يتجاوز عدد المسافرين من دمشق يوميا ٢٢ راكبا — عدا الراكبين على الخيل — اي ما يعادل على وجه التقريب عدد المسافرين عندما تهنح الحكومة بدمشق السفر الى لبنان او تقيده على حسب اهوائها .

والدي يعين وزيرا

في تموز ١٩١٢ استقالت الوزارة التركية التي كان يراسها سعيد باشا ، المشهور بلقب « كوجوك » اي الصغير نسبة لصغر جسمه — وذلك لاختلافها مع مجلس النواب او بالاحرى للاتفاق مع الحزب الذي كان مسيطرا على شؤون الدولة منذ الانقلاب الثانى ، وهو الحزب الذي كان يدعى «الاتحاد والترقي». فاستدعى السلطان احد مشاهير قواده العسكريين وهو المشير غازي احمد مختار باشا — وكان لقب الغازي يمنح لكبار القواد الذين يبلون في الحروب . وكان الباشا المشار اليه غير منتسب لحزب الاتحاد والترقي، فشكل وزارته من كبار رجال الدولة ، اي انه لم يعطها الصفة الحزبية ولم يشترك فيها احد من اعضاء حزب الاتحاد . وتألفت الوزارة هكذا :

المشير احمد مختار الغازي صدرا اعظم ، الشيخ جمال الدين شيخا للاسلام ، كامل باشا (الصدر السابق) رئيسا لمجلس الشورى ، حسين حلمي باشا (الصدر السابق) ناظرا للعدلية ، فريد باشا (الصدر السابق) ناظرا للداخلية ، الفريق ناظم باشا ناظرا للحربية (وهو الذي قتله جماعة انور باشا فيما بعد) ، الفريق محمود مختار باشا ناظرا للبحرية (وهو نجل الصدر الاعظم) ، محمد فوزي باشا العظم ناظرا للاوقاف (وهو والدي) ، نائل بك ناظرا للمالية . وغيرهم ممن نسيت اسماءهم .

واول عمل سياسي قامت به الحكومة الجديدة كان حل مجلس

النواب والدعوة لانتخابات جديدة . وثار حزب الاتحاد والترقي ضد هذا الموقف واشترك فيما بعد بالانتخابات باكثرية كبرى . وبحث مركزه الرئيسي فكرة احالة الوزارة التي حلت البارلمان الى الديوان العالي (اي المحكمة العليا) لمحاكمتها على خرق الدستور ، على حسب رايهم . وكادت وزارة طلعت باشا ، خلال الحرب العالمية ، تباشر الاجراءات القانونية لهذه الاحالة للمحاكمة لولا انتهاء الحرب وفشل الدولة العثمانية فيها وهروب سادة الاتحاد والترقي الى خارج البلاد ، حيث تصيدهم الارمن وقتلوهم الواحد تلو الاخر .

كان المألوف في عهد العثمانيين ان الوزارة تبقى بالحكم مدة طويلة ، ولذلك بعث والدي يستدعينا جميعا اليه ، فجمعنا امتعتنا بكل ابتهاج وذهبنا الى بيروت حيث ركبنا باخرة نمساوية اوصلتنا الى الاسكندرية . وكانت هذه اول سفرة لي بالبحر ، لا زلت اذكرها بسرور ، اذ اني لم اشك من دوار البحر . وظللت انا وشقيقتي الصغرى نعمت ، رحمها الله ، نجوب اطراف الباخرة ونصعد سلالمها ونركض في مماشيها ، بينما كانت والدتي وعمتاي واختي الكبيرة يجلسن على ظهر الباخرة يتفرجن على البحر وهن ملتحفات بعبآت حريرية مزركشة بالقصب . وكانت رؤسهن مغطاة بمناديل حريرية ملونة تحجّب شعرهن . وكان المسافرون يمرون امامهن ويتفرجون عليهن بكل اعجاب واحترام . وكان بينهم رسام يسعى لالتقاط صورهن بريشته ، فكانت احدى عمتيّ تدير وجهها لتمنعه عن تصويره ، فكان يركض للجهة المقابلة ليحظى بغرضه ، فتدير وجهها ثانية . واخذنا جميعنا نضحك من هذه المناورات البريئة . وعندما وصلنا الى بور سعيد اقترح علينا سعيد بك الغزي ، وكان متوجها بنفس الباخرة الى استنبول لاتمام دراسته في معهد الحقوق ، ان نبارح الباخرة ونتوجه بالقطار الى القاهرة حيث نقضي ليلة ثم نذهب الى الاسكندرية فلم تقبل والدتي ، بحجة ان ابن خالتها ، رفيق بك العظم ، ينتظرنا بالاسكندرية ، وكنا اخبرناه بموعد وصول الباخرة .

وهكذا حرمنا من مشـــاهدة القاهرة بمعالمها قبل الحرب . وسارت بنا الباخرة في المساء ، ولم تكد تخرج من المرفأ حتى اخذت عاصفة هوجاء تقيمها وتقعدها وتميل بها ذات اليمين وذات اليسار ، كانها قشرة جوز في حوض ماء . ولم يبق احد من الركاب بمنجى من دوار البحر فاستلقى جميعهم على فرشهم . واستمرت العاصفة

حتى الصباح ، عندما دخلنا مرفأ الاسكندرية . وكنا كلما ازدادت وطأة عوارض الدوار نلوم والدتي ونمزح معها قائلين لها : « انت مشتاقة لرؤية ابن خالك .. فرميتنا بهذه الورطـة .. سـامحك الله .. » فكانت تتقبل هذا المزاح بالابتسام وهي تقول: « ما عليش .. فشوا قلبكم . » ولم تذق طعم النوم الا قليلا . وهكذا دامت الحال حتى دخلت الباخرة باحة المرفأ الفسيحة ، فهدأت واستمرت في مسيرها ، حتى مربطها ، بكل تؤدة ووقار ، بعد ان كانت في الليل كالسكران الذي يتهادى يمنة ويسارا ويرتفع وينخفض بدون اتزان .

اول من شاهدناه على الرصيف كـان ابن العم رفيق بك . فتغامزنا نحن الاولاد الثلاثة وقارنا بين نحول المشار اليه وبين الصيت الواسع الذي كان يصحبه بين ابناء العرب . وفي الواقع كان المرحوم رفيق بك العظم احد الرجالات القلائل الذين كانوا يسعون لاستقلال بلادهم وتخليص اخوانهم العرب من النير التركي . بل كان من اولئك الزعماء الذين لم يهب لهم من العمر ما يساعد على التكاتف لحمل الاعباء بعد انتهاء الحرب العالمية ومجيء الامير فيصل الى سورية وبدء عهد الاستقلال .

اخذنا مع ابن العم نجوب شوارع الاسكندرية ونتفرج على معالمها وشوارعها . وقارناها بشوارع دمشق التي كانت حتى ذلك التاريخ ضيقة كما فتحها الاجداد . وبتنا ليلتنا باحد الفنادق المطلة على الساحة الكبيرة . وفي الصبح الباكر امتطينا الباخرة الرومانية فاعجبنا بنظافتها ورونقها ، وبغرفها وبهائها ، وكانت سفرة ممتعة بين الاسكندرية وميناء بيره اليوناني المجاور لمدينة آثينا عاصمة المملكة . ولم تسمح والدتي بنزولنا الى البر للتفرج على المدينة ولا على الذهاب الى آثينا ، فظللنا على ظهر الباخرة . وفي المساء عاودت السفينة السفر الى الاستانة . وصدف عندما كنا نخترق مضيق الدردنل موعد رجوع والدي على ظهر بارجة بحرية عثمانية من رحلة قام بها لزيارة مدينة تركية اصيبت في الاسبوع الماضي بزلزال شديد . وعندما تقاربت الباخرتان ـ وكان والدي يعلم اننا على ظهر الباخرة ـ ارسل لنا برقية لاسلكية يستطمن عن صحتنا ، فابلغني قبطـان باخرتنا هذه الاشـارة . فاجتمعنا كلنا على الظهر ورحنا نلوح بايدينا ومحارمنا الى والدي وهو على ظهر البارجة التركية . واخذ هو يلوح لنا بيده . والححت على والدتـي ان تطلب اليه ايقاف الباخرتين لكي اذهب لعنده ، فضحك الجميع . وازددت عنادا ورحت

اخبط الارض برجلي ، مما ضاعف ضحكهم الهازىء الى ان توارت البارجة العسكرية عن الانظار ، معتمدة على تفوقها بالسرعة . وظللت ابكي مدة لانهم لم يسمحوا لي بالالتحاق بوالدي . ووعدتهم بالشكوى عليهم والتظلم منهم الى والدي .

وكان والدي ، بعد تسلمه مقام الوزارة ، قد استأجر دارة جميلة في احد احياء المدينة المطلة على مضيق البوسفور يسمى «اورتن كوي» ، اي القرن الوسطى . وكانت تلك الاحياء المتلاصقة، بعضها ببعض ، على طول المضيق من اجمل المصايف العالمية . والدارة كانت مؤلفة من ثلاثة طوابق ، بكل واحد منها ثماني غرف. وقد خصصت ابهاء الطابق الارضي للاستقبال والطعام ، وغرف الطابق الاول للمنامة والثالث للخدم والامتعة . وتحيط بالدارة حديقة واسعة تشرف من علو ثلاثين مترا على قسم من الحي ، ومن ورائه المضيق نفسه ، ومن بعده الاحياء المقابلة المنتشرة على الضفة الثانية ، ومن خلفها جبال تكسوها الاحراج فتكسبها لونا زمرديا بديعا . وتخترق المضيق ، بصورة مستمرة ، القوارب المندفعة بالايدي ، والزوارق الشراعية وذات المحركات ، واليخوت البيضاء البديعة ، والسفن الصغيرة التي تجوب كل حي من احياء المضيق فتنقل الساكنين والمتفرجين ، وكذلك السفن الكبرى القادمة من شواطىء البحر الاسود والذاهبة اليها . وكانت هذه كلها تمر امامنا كما تمر من شارع مدينة ما السيارات الصغيرة والاتوبوسات والدراجات والمشاة .

ولم تقع عيني في رحلاتي العديدة لاكثر البلاد الاوروبية والآسيوية والاميركية والافريقية على مناظر ابهج من مضيق البوسفور ، والبحيرات الايطالية والسويسرية ، وجداول مدينة ونيزيا (البندقية) الايطالية .

وبجانب من جوانب الحديقة انشئت بحرة تحيطها صخور ركبت على الجوانب بشكل بديع . وكان في صدر البحرة مغارة اصطناعية من تلك الصخور يندفع منها الماء بغزارة . ولهذه البحرة قصة لا انساها ، وهي انني كنت ذات يوم العب مع شقيقتي الصغيرة وابن خالتي رفيق في الحديقة . فخطر لي ان ابهر رفاقي باللعبة التي كان اهداني اياها والدي ، وهي باخرة كنا نتسلى بتسييرها على وجه ماء البحرة . ووقف كل منا بناحية من البحرة وصرنا نوجه الباخرة الى ميناء رفيقه . وصدف ان انتهى « الزمبرك » فوقفت الباخرة

قريبا من ميناء شقيقتي. فصرنا نضحك عليها ، مما استفزها لجلب قضيب جربت ان تجر به الباخرة الواقفة في عرض البحرة . وكان القضيب قصيرا ، فكانت النتيجة ان سقطت هي في الماء . وعندما رأيتها غاصت ولم يعد يظهر لها اثر تولاني الخوف فقفزت هاربا الى البيت . اما ابن خالتي الذي كان يكبرني بثلاثسنين فلم يفقد اعصابه وظل واقفا حتى شاهد شعر شقيقتي يطوف على وجه الماء فمد يده والتقطه . وحاول رفع الصغيرة من الماء فلم يفلح ، فناداني بان ارجع لعونه فرجعت راكضا وتمكنا نحن الاثنان من انتشال الغريقة بكل صعوبة، غير مدركين اننا كنا نعرض حياتنا للخطر لو انزلقت ارجلنا. وما كدنا ننتهي من عملية الانتشال من الماء ومن القائها على الضفة حتى هرعت الى الدار واختبأت بغرفتي ، بينما كان ابن الخالة يسرع بطلب النجدة . وهكذا نجت شقيقتي من الغرق بفضل وعي ابن خالتها ، لا بفضل اخيها . الا انني ، فيما بعد ، كنت اسكت عن قلة شجاعتي هذه وامنن شقيقتي كلما تخانقنا بانها مدينة لي بالحياة، وانها لولاي لكانت في خبر كان ، الى آخر ما هنالك من معزوفات التبجح والتمنين بعقلية الاولاد .

وعندما انتهى شهر رمضان وجاء العيد ، طلبت من والدي ان ارافقه في الموكب الرسمي كما كنت افعل بدمشق بمواكب الحج . فاجابني بان الامر اختلف ، واننا لسنا بالشام ، وان المراسم هنا لا تسمح لاحد ان يرافق الوزراء ولا ان يدخل الى السراي . فبكيت وانتحبت حتى تدخلت والدتي فوجدت حلا وسطا ، وهو ان اختبيء في العربة ، وكانت من نوع « الكوبيه » اي المغلقة بسقف والمحاطة بشبابيك وابواب تجعلها كالغرفة . وهكذا ابقى فيها ولا يراني احد ، بينما اتلصص من وراء ستائر الشبابيك واشاهد الموكب . وتقبل والدي هذا الحل لانه لم يكن ليستطيع مخالفة الوالدة ولا يريد زعلي . وهكذا تغلب الحب الابوي ومسايرة الزوجات على دساتير البرتوكول العثماني .

كان برنامج الاحتفال يتضمن اجتماع الوزراء بسراي « طوغه باغجة » حيث كان يقيم السلطان ، وذهابهم بمعيته الى الجامع ، ثم العودة الى السراي حيث يستقبل السلطان المهنئين . وذهبنا بالعربة المغلقة الى باحة السراي . ونزل والدي وبقيت مختفيا فيها. واحكمت الستائر حتى لا يراني احد . وبعد مدة شاهدت نزول السلطان الى باحة السراي ووراءه الوزراء ورجال القصر ، وكلهم بثياب التشريفات

الكبرى ، ذات الصدر المزركش بالقصب . وكانت الاوسمة تلمع على صدورهم والسيوف المدلاة الى جوانبهم تكاد تدخل بين ارجلهم فتوقعهم ارضا ، كلما تشابكت مع اطراف الشرائط الحريرية المعلقة بها بعض الاوسمة . وكانت هذه الشرائط تختلف الوانا بحسب الاوسمة ، اذ كان الوسام الاعلى شأنا هو وسام « خاندان آل عثمان » ولا يمنح الا لافراد الاسرة المالكة ، ولخديو مصر ،ولبعض الملوك الاجانب، وهو مؤلف من حلقات ذهبية مرصعة بالماس تحيط بالرتبة وتتدلى حتى منتصف الصدر .

ويلي هذا الوسام وسام الامتياز ، وله وشاح اخضر واحمر ورصيعة توضع على الجانب الايسر باعلى الصدر وهي مرصعة بالماس والزمرد والياقوت واللؤلؤ . وتقدر قيمة هذه المجوهرات بخمسة الاف ليرة ذهبية . ويليه الوسام العثماني ، ووشاحه اخضر في الوسط ، وله كناران من اللون الاحمر ، وهـو خمس درجات : المرصع والاول والثاني والثالث والرابع . ويأتي بعده الوسام المجيدي ، ووشاحه احمر في الوسط ، وله كناران من اللون الاخضر، وهو ست درجات : المرصع ثم الاول حتى الخامس .

والى جانب هذه الاوسمة التي كان يفتخر بحملها اصحابها كانت ثمة اوسمة اجنبية مهداة في شتى المناسبات . وهكذا كانت صدور بعض كبار رجال الدولة مزينة بمجموع الاوسمة التي ينالها صاحبها ، بحيث تكاد تشبه لكثرتها واجهة مخزن مجوهراتي اكثر منها صدر رجل دولة مدني . وقد احصيت عدد هذه الاوسمة على صدور بعض هؤلاء الوزراء فوصلت بالعدد الى العشرين . واظنني اخطأت العد ، اذ كان في الواقع اكثر من ذلك .

وتألف الموكب من الفرسان ، حاملي الاعلام الصغيرة من مختلف القطع العسكرية . ثم تأتي عربة السلطان ويجرها اربعة جياد بيض، ويمسك براس كل واحد منها سائس مزركش الثياب .ويحيط بالعربة بعض رجال الجيش من رتبة لواء وفريق. وكان يركب امام السلطان، ضمن العربة المكشوفة ، احد كبار المرافقين ، على ان لا تقل رتبته عن فريق .

ويسير وراء العربة طائفة من الفرسان ايضا . ثم تأتي عربات الصدر اعظم ، وشيخ الاسلام ، والوزراء ، ورجال القصر . ويبلغ عدد هذه العربات المئة واكثر . ويسير الموكب بين صفوف المتفرجين، وامامهم الجنود رافعين البنادق بالتحية ، فيجيبهم السلطان مسلما

بيده ، فتنطلق من الحناجر عبارة « بادشاهم جوق يشا » ، اي عش كثيرا يا مليكي ، الى ان يصل الموكب الى الجامع حيث ينزل الملك من عربته فتستقبله الهيآت الدينية . ويدخل المسجد ، ولكنه بدلا من ان يجلس بين المصلين ، كان ينزوي بمقصورة خاصة تشرف من وراء شبكة على فسحة الجامع من عل ، بحيث لا يرى المصلون سلطانهم وامير المؤمنين على الاطلاق . وقد تمكنت ، عند زيارتي للاســتانة في ١٩٣٤ ، من زيارة جامع بيلديز ومشـــاهدة مقصورة السلطان ، فوجدتها بهوا واسعا يطل من جهة واحدة ، ومن وراء شبكة حديدية ، على الجامـــع . وفي هذا البهو مقاعد وثيرة ، لان السلطان كان يستدعي بعض كبار رجال الدولة والسفراء لمقصورته ويتحدث اليهم ، سواء في الاعياد او ايام الجمعة .

وقد ابتدع هذه العادة السلطان عبد الحميد الثاني الذي كان يخشى الاختلاط مع رعيته ، خوفا على حياته . وقد زاد تخوفه بعد محاولة اغتياله بوضع قنبلة موقوتة في احدى عربات الموكب فانفجرت قبل ان يصل السلطان الى عربته بلحظات . اذ انه بعد ان خرج من باب المسجد توقف قليلا مع شيخ الاسلام وتحادث معه بامر ما ، فانفجرت القنبلة بدوي هائل وتطايرت اشلاء القتلى في الهواء وتساقط الجرحى على الارض . ولم يفقد السلطان اعصابه بل هرول من اعلى الدرج وصعد الى مركبته الخاصة التي كان يقودها بنفسه وامسك بزمام الخيل واطلق عنانها مارا فوق الاشلاء سرعة ، ودخل سراية بيلدز وتحصن بها. ثم اثبت التحقيق ان طائفة من الارمن كانوا مدبري المؤامرة ، فالقى القبض عليهم وحوكموا وعلقت مشانقهم بساحة ذلك المسجد .

وظللت مختبئا داخل المركبة . وقد زال فرحي وانشراحي بما رواه لي السائق من حديث تلك المؤامرة وانفجار القنبلة بالمحل الذي كانت به مركبتنا . فانتقمت من الســائق قائلا له : ان السائق (العربجي) طار قبل غيره . واذا حدث اليوم انفجار مماثل فمصيرك كمصيره . فضحك وقال ان سلطاننا السلطان رشاد محبوب وليس له اعداء . فلا تخف . وهكذا خف ذعري وهدأت .

وبعد انتهاء فرائض الصلاة استقبل السلطان والذي بصفته وزير الاوقاف ومشرفا ، بالتالي ، على شؤون المساجد . وتلطف معه بالحديث ، ثم اخذ طريقه الى الباب حيث شيعه رجال الدين . وامتطى مركبته وعاد الموكب بالمراسم نفسها الى السراي .

وابتدات بعد ذلك مراسم التهنئة ، وقد رواها لي والدي فيما بعد. وكان الخدم يقدمون الشراب غير الروحي ، طبعا ، مع انواع السكاكر والحلوى . وهؤلاء كانوا كلهم عبيدا سودا يرتدون الالبسة المزركشة بالقصب والمؤلفة من سروال عريض وفوقه معطف قصير .

وفي الوقت الذي كان السلطان يستقبل في بهو قصره الكبير ، كانت المراسم نفسها تقام في قسم الحرملك ، حيث زوجة السلطان (ياسين قادين افندي ، اي الزوجة الاولى) ، وبنات السلطان ، يستقبلن سائر الاميرات وزوجات الوزراء والكبراء . وبالطبع كانت السيدات ينتهزن هذه الفرصة لارتداء اجمل الثياب وتعليق التيجان المرصعة بالماس والزمرد والياقوت واللؤلؤ على رؤوسهن ، فوق نوع من لباس الراس المؤلف من التول الرقيق ويسمى « هوتوز » . اما الاعناق والصدور فكانت عامرة باجمل قطع المجوهرات ، من عقود لؤلؤية او ماسية ، ومن الاوسمة المرصعة الخاصة بالسيدات مع وشاحاتها البيضاء ذات الكنار الاحمر والاخضر ، ولها خمس رتب . واما الاذن ، فتتدلى منها عناقيد ثمينة من اللؤلؤ او الزمرد . وكذلك المعاصم والزنود ، فتحمل الاوزان الثقيلة من الاساور الذهبية والمرصعة .

وكانت المراسيم تقضي بان لا يدير احد ظهره الى السلطان وهو يبتعد عنه . وكذلك كانت المراسم توجب على السيدات ان يرجعن الى الوراء عندما يبتعدن عن « الزوجة الاولى » .وكثيرا ما كانت السيدات يتعثرن بذيول لباسهن الطويلة ويوشكن الوقوع على الارض . ولذلك كن يتمرن قبل الحفلة في بيوتهن على خطوات الرجوع حتى يتقنها فيتحاشين ضحكات المزاح او الاستهزاء التي تطلقها سائر السيدات الصديقات او العدوات . وبالطبع امضت والدتي وعمتاي واختي الكبرى اوقاتا طويلة في التهيؤ لحضور هذه الحفلة ، سواء بعملية التجميل او بعملية التمرن . ولم تكن قواعد التجميل في ذلك العهد اقل دقة وعناية مما هي عليه الآن . فالبودرة والدزكن (وهو سائل ابيض تطلى به الوجوه ليزيد بياضهـــا) والكحل . اما حمرة الشفاه ، فلم تكن معروفة اذ ذاك . وكان الشعر طويلا غير مقصوص ، وبذلك كانت النساء يتمكن من رفعه عاليا على رؤوسهن بدون حاجة الى نفخه كما يفعلن الآن . واما الثياب الرسمية للسهرات والاحتفالات فكانت من البروكار الغالي الثمن، تصل اطرافها السفلى الى الارض وينسحب عليها . وهي ذات « شاحط » ، اي ذيل طويل

يلم جميع الاقذار والاوساخ والغبار عن الارض . وكانت الاكمام تصل حتى الايدي . وعلى الاجمال ، لم يكن اللباس النسائي يظهر من المراة الا عنقها وصدرها ، ولكنه كان يظهر مفاتن خصرها بالمشد (الكورسه) ذي القضبان المصنوعة من الحديد او عظام الحيتان . فكانت السيدات تشده وتسترسل في شده حتى ترتفع معدتها مع سائر اعضاء بطنها الى صدرها فتتحمل ضيق النفس لتظهر خصرها نحيلا جذابا . وتحت الخصر كانت تظهر ارداف عريضة ممتلئة . كان كل ذلك تمشيا مع الذوق العام الذي اوجب على المراة السمنة لكي تعتبر ذات جسم محبب . وكانت النساء النحيلات يوصمن بانهم « ممصوصات » لا يستجلبن الانظار ، بعكس اللاتي يشبهن « رفيعة خانم » المصرية التي كانت تعتبر مثال الانوثة الجذاب . ولم يكن ذلك في بلادنا فقط بل كان ايضا في اوروبا وامريكا .

ومن المشاهد التي لا تزال عالقة في مخيلتي زيارة قمنا بها ، بناء على توصية خالتي المقيمة بالاستانة هي وزوجها واولادها ، لجامع كائن في الاحيــاء القديمة حيث يوجد مدفن احــد الرجالات الصالحين الذين يطلق عليهم الناس لقب الاولياء وهو مركز افندي . ولم يكن للمسجد طابع خاص يستوجب زيارة خاصة سوى نبع الماء الجوفي المتصل بالمسجد بنفق ضيق لا يتسع لمرور اكثر من شخص واحد . واخذ كل منا شمعة ليستضيء بنورها ضمن النفق الذي يمتد اكثر من مئة متر باعوجاجات متعددة . وسرنا خلف قائدتنا الشيخة ونحن نردد الادعية والآيات التي كانت تقراها هي ، حتى وصلنا الى مغارة فسيحة نوعا ما،فاشارت الى ثغرة في احد جدران المغارة وقالت لنا : « انحنوا وادخلوا الى المنبع واشربوا من مائه وتوضئوا واجلبوا معكم بحصة من الحصات التي تجدونها في البركة » . وصار كل واحد منا يدخل ويخرج بدوره ، اذ ان المغارة الداخلية ذات النبع ما كانت لتتسع لاكثر من شخص واحد . وكان النور يلج اليها عبر الصخور من طاقة عالية جدا في سقفها، لا تتجاوز قطرها نصف متر .

اما الطاقة التي ولجنا منها الى النبع فكان قطرها ايضا لا يتجاوز ستين او سبعين سانتيمترا ، مما اضطرنا الى القيام بحركات جمنا ستيكية لنستطيع عبورها . ولا انكر ان قلبي كان يخفق بسرعة من الرهبة والتخوف . ولما جاء دوري دخلت وشربت من الماء العذب

وانتقيت اكبر بحصة لماعة وخرجت بها ظافرا . ولما جاء دور احدى عمتي ، حالت سمنتها من الدخول بسهولة عبر الطاقة فاستعصى عليها الامر وعلقت بين المغارتين وراحت تصرخ وتولول وتبكي حتى اسرعنا لنجدتها . وسعينا لدفعها الى داخل مغارة النبع ، الا انها صرخت قائلة : « استغنيت عن الدخول ... من شان الله اسحبوني ». فجررناها الى الخلف بصعوبة، فجلست ارضا وراحت تقرأ الاوراد والادعية لخلاصها من هذه الورطة . ولولا رهبة المكان وما كان عالقا بذهني من اننا في مقام ديني مقدس ، لتغلبت علي رغبة الضحك على ما جرى ، كلما تصورت عمتي نصفها هنا ونصفها هنالك ، وفخذها الواحدة عندنا والاخرى في المغارة الصغيرة،وظهرها منحن وراسها غير ظاهر . وقد اثر هذا الحادث على اعصاب عمتي المسكينة لدرجة انها عندما آوت الى فراشها ليلا اصابتها نوبة عصبية ، فصارت تهذي بشكل مخيف حتى اضطررنا الى استدعاء طبيب جرعها بعض العلاجات فهدأت ونامت ساعات عديدة . وزال بذلك خوفنا عليها من نتائج الصدمة التي تلقتها .

وبقي في نفسي سؤال لم استطع الا طرحه على والدتي ، وهو ان زوار مغارة النبعكثيرون، فاذا اخذ كل واحد بحصة منه فلا يبقى شيء فمن اين ياتي البحص الجديد ؟ فأجابتني بابتسامة خفيفة ان بركة مركز افندي تؤمن عدم نضوب الينبوع وبحصه . وما كانت هي ، ولا كنت انا ، لاصدق هذه الخرافات . فقلت لها انني اميل الى اسناد هذا الامر الى غيرة حراس المغارة من المشايخ الذين دفعنا لهم البخاشيش عند خروجنا وحرصهم على ان يجد الزوار دوما العدد الكافي من البحصات المباركة ، فلا يخرج احدهم الا ويده قابضة على ما يعتبره حرزا حريزا يضمن له الصحة والهناء وكل ما يشتهيه في هذه الدنيا .

دراستي في استانبول

وعندما اقترب فتح المدارس اخذني والدي الى مدرسة « غلطة سراي » ، وهي ارقى المعاهد التركية ،تشرف عليها هيئة من المعلمين الافرنسيين ، بحيث تكون الدراسة باللغة الافرنسيه مع اعطاء الدروس باللغة التركية لوحدها . واستقبل المدير والدي باحترام واستدعى بعض المعلمين لفحصي واستجلاء درجتي العلمية واللغوية . ثم اشاروا بتسجيلي في الصف الاول للغة التركية ، لاني لم اكن اعرفها . اما الدراسة العادية فسجلوني في الصف الثالث .

وعندما حان موعد بدء الدروس ، صرت اذهب في الصباح الباكر من دارتنا في اروقة كوي الى المرفأ ، حيث نركب احدى البواخر الصغيرة العاملة بين غلطه وساحلي البوسفور ، فنصل الى جسر غلطة بعد ساعة . ثم نركب القاطرة التي تصعد من غلطة الى اول شارع « يك اوغلي » . وهذه القاطرة كان يسحبها قشاط سميك وعريض من الجلد ، فترتفع على عجلاتها الحدبدية فوق قضبان تشبه قضبان السكك الحديدية حتي تصل الى المحطة العليا ، بينما تكون القاطرة الثانية تنزل بمحاذاتها من المحطة العليا الى المحطة السفلى . كان كل هذا الجهاز يشبه قطر « المترو » التي تسير تحت الارض في بعض العواصم ، كبرلين وباريز ولندن ونيويورك . الا ان المسافة لم تكن طويلة ، ، واجتيازها لا يأخذ اكثر من خمس دقائق . ومن هنالك كنا نركب حـــافلات الترامواي التى لم تكن عندئذ مسيرة بمحركات كهربائية ، بل كانت تجرها ثلاثة جياد او بغال .

وهكذا كنا نقضي ساعة من الزمن حتى نصل الى مدرسة غلطة سراي . وكنا في اكثر الاوقات نتجنب ركوب البواخر البحرية ونركب الترامواي من اورطه كوي حتى غلطه ، خوفا من الامواج الشديدة التي كانت تهز الباخرة ، فنتحمل البرد والمطر ونحن في الحـــافلات المفتوحة الجوانب ، تحاشيا من مخاطر البحر . وعلى هذا الشكل كنت مضطرا لمغادرة الدار قبل الفجر حتى اصل الى المدرسة ساعة افتتاح الصفوف . وكنت اعاني البرد والتعب كثيرا ، مما اضطر والدي الى التفكير بالانتقال الى حي قريب من المدرسة ، فيخف عني عناء الذهاب الى المدرسة والعودة منها ، بتلك الظروف القاسية . وهكذا استاجرنا دارا في حي شيشلي ، كان مؤلفا من خمسة طوابق ، بكل منها غرفتان فقط ، مما جعل السكنى فيه عسيرا .

وكنت في الصباح اذهب الى المدرسة ، اما برفقة اولاد حسين حلمي باشا بمركبتهم او بالترامواي . اما برنامج الدروس فكان قبل الظهر بالافرنسية وبعد الظهر بالتركية . وكان تناول طعام الظهر بالمدرسة نفسها . ولم يكن الغذاء سيئا ، وخاصة ايام الاحاد ، حين كانت تقدم لنا الفاصوليا اليابسة مع الارز ، وكنت مولعا ـــ ومـــا زلت ـــ بهذه الاكلة . اما الحلويات فكانت نوعا طيبا .

وقد حدث لي في احد الايام ان عوينات التلميذ الجالس خلفي

وقعت على الارض وانكسرت الزجاجة ، فالتقطت احدى شظاياها ووضعتها امام عيني . ولشد ما كان ذهولي حين تمكنت من قراءة الجمل المكتوبة على اللوح الاسود ، وكنت لا اتميزها واظن ان رفاقي مثلي لا يرونها . والان فبفضل قطعة من الزجاج اقرا بوضوح. فجلت بنظري في قاعة الصف الى رفاقي والى الاستاذ ، فأخرجني عن طوري مشاهدة اعينهم وانوفهم وآذانهم . ولا يدرك قيمة هذه المشاهدة الا من كان مصابا بقصر النظر (Myope) مثلي. ويظهر ان الاستاذ انتبه الى حركاتي غير الطبيعية وانا ممسك قطعة الزجاج وابحلق بوجهه ، فظن اني اسخر منه . وسألني عن اسباب تلك الحركات . ولم يصدقني حين اكدت له الامر الواقع ، وامرني بالذهاب الى قرنة الغرفة والوقوف فيها مديرا ظهري الى الصف . ولم اكن استحق تلك العقوبة فبكيت وسكت على مضض .

اصابتي بقصر النظر

وعندما عدت مساء الى الدار ، اسرعت الى اخبار والدي بما حدث ، وقلت له : « ارجوك ، اشتر لي عيون » . فضحك ووعدني بتحقيق امنيتي في الغد الباكر . وبالفعل ، قادني في اليوم التالي الى طبيب عيون ففحص عيني ووصف لي العوينات الملائمة . فاصبحت منذ ذلك اليوم صحيح النظر . وفيما بعد ، عندما غدوت شابا كنت ازهو بعويناتي ذات الاطار الذهبي والمعلقة على انفي برفاصين ضاغطين لم يكن ميسورا تثبيتها جيدا ، بحيث كانت بأول حركة مفاجئة تسقط الى الارض فينكسر زجاجها : فأركض الى بائع العوينات لاستبدالها بغيرها . وكثير من الشبان كانوا يضعون على انوفهم نظارات ، مع ان عيونهم صحيحة ! ويظهر ان السيدات والآنسات في ذلك العهد كان يستهويهن الشارب المعقوف والنظارات الذهبية .

ولم يطل بنا المقام في دارنا الجديدة بشيشلي . فقد عاد والدي ذات مساء ، مقطب الجبين على غير عادته . ولم يشأ اخبارنا عن سبب انزعاجه ، ولكنه افضى لوالدتي على انفراد بأن الدول البلقانية ، وهي بلغاريا وصربيا واليونان وقره طاغ ، اعلنت الحرب على الدولة العثمانية ، وان جيوشها دخلت اراضينا . ولم يكن عمري قد اعدني بعد لتفهم هذه المشاكل جيدا ، غير انني شعرت بانقباض صدري وخفت من العواقب . اما والدتي فكان همها استطلاع اخبار اخيها اليوزباشي ممدوح بك وزوجته وولديه الذين

اندلاع حرب البلقان وعودتنا الى دمشق

كانوا ، بحسب مقتضيات وظيفة خالي في الجيش ، يقطنون بلد ايشتب في الروم ايللي . ولم يطل وجلها طويلا ، اذ تراجعت الجيوش العثمانية وعادت عائلات الضباط الى استانبول. وفرحت بلقاء بنت خالي رفيقه التيكانت رفيقتي في طفولتي بدمشق، قبل ذهابها مع ابيها وامها الى الروم ايللي . ونسيت الحرب وخوفي منها ورحنـا نقضي السهرات باللعب وتبادل الحكايا . وظلت صداقتنا متينة حتى الان . وقد تزوجت من دولة نصوح بك البخاري وانجبت منه اولادا .

وبعد مضي وقت لا يتجاوز الشهر بدانا نسمع قصف المدافع ، فعاودتنا المخاوف ، اذ كانت الجيوش البلغارية قد وصلت الى مقربة من الاستانة واصطدمت بخط الدفاع الذي كان الجيش العثماني تمكن من اقامته في حتـالجه .

وذات مساء عاد والدي اكثر اضطرابا من اي يوم اخر ودخل توا الى غرفته مع والدتي واعلمها بأن الحكومة ، بعد أن تيقنت من عدم جدوى الحرب ومن سوء العـاقبة اذا ما استمرت بها ، بحثت في امكان طلب عقد هدنة مع بلغاريا . ولما علم الضباط المهوسون من جماعة الاتحاد والترقي ، وعلى راسهم انور بك بطل الانقلاب في ١٩٠٨ ، دفعوا طـلاب الجامعة وسـائر المدارس للقيام بمظاهرات صاخبة هاجمت « الباب العالي » ، اي مقـر الصدر الاعظم ووزير الخارجية ، وهم ينادون « حرب ايسترز » اي نريد الحرب . وكانوا يعلنون عن سخطهم على الحكومة التي تميل الى المهادنة بايجاد تسوية مع الدول البلقانية تفاديا لحرب قد تقضي على الدولة العثمانية او ، على الاقل ، تقضي عليها بضياع بلاد الروم ايللى . وكان وزير الحربية ناظم باشا اكثر الناس اطلاعا على قوة الجيش العثمانى وعلى انه غير قادر على مواجهة الاعداء على طول الحدود التي تمتد اكثر من الف كيلومتر . وعندما وجـدت الحكومة نفسها مضطرة للحرب على الجبهتين الداخلية والخارجيـة رجحت الاستقالة . وكلف السلطان كامـل باشا بتأليف وزارة جديدة ، فتم ذلك بساعات قليلة ، نظرا للموقف الحرج . ولم يدع والدي للاشتراك بالحكومة الجديدة ، ولذلك قرر ان نعود كلنا الى سورية في اليوم التالي على ظهر باخرة افرنسية . اما هو فيعود بطريق البر ؛ وذلك خوفا من ان يقع اسيرا بأيدي اليونانيين الذين كانت بوارجهم الحربية توقف كل باخرة قادمة الى تركيا او خارجة من احد مرافئها ، فيقبضون على من هم في سن الجندية وعلى من

يرون اخذهم من رعايا الدولة العثمانية باعتبارهم من الاعداء .

وقد شق علينا جميعا هذه العودة المباغتة الى دمشق ، بعد ان كنا نظن اننا سنبقى في استانبول سنين عديدة . وزاد في عدم الارتياح فراقنا عن الوالد وخوفنا من اساطيل اليونان . الا ان والدي لم يتزعزع عن قراره ، فخضعنا لمشيئتـه ، لا سيمـا ان اصوات المدافع كانت تسمع بوضوح ، مما جعلنا نتخوف من الوقوع بايدي الجنود البلغاريين ، فيما اذا توصلوا الى احتلال العاصمة .

ولم تمض بضع ساعـات حتى كانت جميع حوائجنا في الصناديق ، مهيأة للشحن . ولم يبق في البيت ما يؤمن مبيتنا ، فلجأنا لدار ابن عمة والدي ، السيد بديع بك المؤيد العظم الذي كان موظفا في ادارة الديون العمومية . وقضينا الليلة عنده .

وفي الصباح توجهنا الى المرفأ وصعدنا سلم الباخرة . واجتمع والدي ومعه بديع بك مع ربانها واوصياه بنا . وعندما علم الربان سبب عزوف والدي عن مرافقتنا اكد له واقسم بشرفه انه يضمن عدم حدوث اية اساءة لوالدي ، وانه سيسجله باسم بديع بـك المؤيد . فنزل والدي عند الحاحنا وظل في الباخرة التي اقلعت بعد قليل ، بعد ان سجل اسمه مستعيرا اسم ابن عمه . ووضع والدي بطاقة على احد المقاعد التي كان المسافرون يستاجرونها ليستلقوا عليها فوق ظهر الباخرة . كان ذلك زيادة منه في الحرص على اخفاء هويته ، حتىً عن جميع الركاب ونوتية الباخرة وخدامها .

سقى الله تلك الايام التي كان بها الانسان يسافر بغتة بدون جواز سفر وسمات خروج وغيرها من المعاملات التي تزهق الروح بشدتها وصعوبة انجازها . صحيح اننا كنا مسافرين من استانبول الى بيروت ، اي من بلد عثماني الى بلد عثماني . ولكن الحال كان على نفس النمط ، حتى بشأن السفر الى البلاد الاجنبية . فكان الانسان يتنقل بين جميع البلاد دون ان يسأله احد الى اين هو ذاهب ، ودون ان يفتح له صناديقه ويبعثر له ثيابه باسم التفتيش عن المهربات او باسم الجمارك ، ودون ان يحاول معرفة مبلغ النقود التي يحملها معه . كانت الحرية كاملة حينذاك في التنقل ونقل الاموال واستيراد الحوائج . فاين تلك الايام مما نحن فيه اليوم . وصدف ان قصدت الذهاب هذا العام ١٩٥٩ الى « الحمه » وهي تابعة لنا . فاستحصلت على اذن رسمي من رئاسة الاركان العامة حسب الاصول . وقد اوقفنا اثنتي عشرة مرة في الذهاب والرجوع ، لاظهار

الاذن والهويات الشخصية .

وغادرنا الاستانة والاسى ملء ضلوعنا ، ليس اسفا على فراق مدينة جميلة سررت بوجودي فيها كثيرا فحسب ، بل شعورا منا ايضا بأننا نترك هذه العاصمة المسكينة باشد ايام محنتها ، والاعداء على قاب قوس منها يرسلون الفوج تلو الفوج لاحتلالها واعادة وضعها الى ما كانت عليه ايام بيزنطية . وكان والدي اشدنا حزنا وحسرة . وقد ظل واقفا على ظهر الباخرة ينظر الى معالم المدينة تمر امامنا بمساجدها ذات القبب المتعددة والمآذن المسرولة ، وبجسرها الذي يعج بالمتنقلين بين ضفتـــي الخليج ، وبدورها الخشبية المتلاصقة تلاصق الناس ، بعضها ببعض ، يوم زحمة - ثم بمضيقها الذي تشق مياهه الزرقاء تلال الضفتين الخضراء ، وجزره الصغيرة الممتدة على طريق المسافر من استانبول وكأنها اولاد صغار يتبعون القطار عندما يغادر المحطة .

وفي اليوم التالي كنت اتناول طعام الغداء مع والدي في بهو الطعام ، واذ بالباخرة تتوقف . فهرعنا الى النوافذ ، فرأينا ثلاث بارجات حربية تيقنا انها يونانية . وشاهدنا زورقا يتجه من احدها الى باخرتنا . ولم يتحرك والدي من محله ، وظل يتناول طعامه ، كأن خطرا لم يهدده . فجلست امامه وتظاهرت بالتجلد . لكني كنت اشعر بخفقان قلبي وبامتقاع لوني . فأشار علي ابي بأن اهدأ ، فعاودت الاكل لكن دون تمييز بين الحلو منـــه والمر . وبعد نصف ساعة تقريبا ، تحركت الباخرة فقفزت ثانية الى النافذة . كنت انظر هذه المرة بسرور الى ابتعادنا عن قافلة المدمرات العدوة . وبعد قليل ، جاء الربان وصافح والدي واكد له انها المرة الاولى التي يعطى معلومات غير صحيحة عن شخصية ركاب باخرته ، وذلك حفاظا على سلامة ابي . الا انه اضطر لتسليم ثلاثة جنـــود اتراك، فاخذهم اليونان اسرى حرب .

وكان ابتهاجي شديدا ، بحيث لم استطع اخفاءه . فهرولت الى حيث كانت والدتي وسائر افراد العائلة يقبعن في غرفهن تجنبا لمجالسة الرجال ، ونقلت اليهن بشرى زوال الخطر .

وانتهت رحلتنا بسلام . فوصلنا الى بيروت التي كنا غادرناها قبل ثلاثة اشـــهر .

ذكرت ان والدي اعتاد على قضاء فصل الصيف في دارتنا بدمر ، التي انشاها في ١٩٠٠ . وكان يفضل ذلك لانه كان حتى ١٩١٢ يشغل وظائف بدمشق لا تسمح له بالابتعاد عنها . وكانت دمر تؤمن له ، بسبب قربها من المدينة ، قضاء الليل بعيدا عن حر دمشق ومع اسرته . لكنه عندما اصبح نائبا في مجلس المبعوثان ، بدأ يفكر بتمضية الصيف في ربوع لبنان . وهكذا كنا ننتقل ، كل سنة ، من مصيف الى اخر . فصيف ١٩١١ قضيناه في سوق الغرب ، و ١٩١٣ في المعلقة بلبنان . لكننا ، بعد انفجار الحرب العالمية الاولى ومصادرة دارتنا بدمر طيلة الحرب ، بقينا بدمشق . اما في صيف ١٩١٨ فذهبنا الى المتـــين .

وما بقي عالقا بفكري من مصيفنـــا في المعلقة هو مشاهدتي تمثيلية (اليتيمتين) . وقد اشترك فيها كل من الاستاذ السيد سلامة حجازي والسيد جورج ابيض . كان الاول في اوج مجده الفني ، يطلق اغنياته الشهيرة فيثير حماس المتفرجين المنقطع النظير . وكان الفصل لا ينتهي حتى يصر الشعب على سماع « اجوليبت ما هذا السكوت » ، او « ان كنت في الجيش ادعى صاحب العلم فانني بهواكم صاحب الالم » .

ويستطيع من سمع هاتين القصيدتين ينشدهما الشيخ سلامة حجازي ان يقارن بين الذوق الموسيقى ، قبل خمسين عاما ، وبينه الان يجري على لسان عبد الحليم حافظ. اما الموسيقى الآلية ، فالفرق لا يخفى على العيون والآذان بين التخت المكون عند ذلك من عود وكمنجة وقانون ودف ودربكة ، وبين الفريق المكون الان من عـــدد عديد من الالات القديمة كالتي ذكرت ومن الالات التي ادخلت حديثا كالبيانو وانواع الكمنجة والالات التي يستعمل فيها نفخ الهواء . واني اعتقد ان الموسيقى العربية قد ارتفعت سوية وتحسنت عن ذي قبل كثيرا . اما الغناء ، فبعد ان مر في دور مستطاب على يد عبد الوهاب وام كلثوم ، فقد انحط الان بفضل عبد الحليم حافظ وامثاله ، عدا ما يجري على حنجرة شكوكو واضرابه ، وخاصة من حيث الاغاني نفسها التي اصبحت ، بالنسبة الى المغني العربي ، كلوحات بيكاسو بالنسبة الى الرسم .

اما التمثيل فلا اظن انه تقدم شوطا كبيرا . وقد كتب لي ان اشاهد كبار الممثلين المصـــريين كيوسف وهبي وجورج ابيض والريحاني وغيرهم ، وكبريات الممثـــلات كفاطمة رشدي وروز

اليوسف وغيرهما ، فلم اشعر بالاعجاب مثلي حينما كنت اشاهد تمثيلية جوق افرنسي مثلا . وقد قضيت ليالي عديدة بمسارح القاهرة وباريز . واقول والاسف مـلء مشاعري ، ان المقارنة مستحيلة . ولست ادري على من يستطاع القاء التبعة في بطء التمثيل المسرحي والسينمائي ، اعلى الممثلين او المخرجين او المؤلفين ؟ والشعب ليس مسؤولا ، فهو يسهم ، خاصة في السينما ، اسهاما ماليا كبيرا في تسديد نفقات الاخراج والتصـوير واتعاب الممثلين وارباحهم . افلا يستحق المتفرج العربي عناية اكبر ، من قبل العاملين في هـذا الحقـل ؟

ولنعـد الآن الى سيـاق بحثنا عـن المصايف ، فاذكر باننا دعينا ، خلال اقامتنا في المعلقة ، لقضاء بضع ايام عند اسرة المرحوم عمي خليل باشا في بلودان . وقد ركبنا القطار قبيل الظهر ووصلنا الى الرياق ، حيث كان ثمة مطعم يقصده قليل من المسافرين . اما الاخرون ، ونحن منهم ، فكانوا يكتفون بـ « الزوادة » المؤلفة على الاغلب من « كنته » وبطاطا وبيض مقلي وزيتون اخضر وفاكهة الموسـم ، من عنب وتـين وبطيخ . ووصلنا قبيل العصر الى الزبداني ، فاستقبلنا مضيفونا واخذونا الى خارج المحطة ، حيث وقف رتل من الحمير المختلفة الحجم واللون .. والطبع . فامتطى كل منا دابة اختارها بعد الاتكال على الله ؛ وسار الكل كانه يعرف الطريق بدون دليل . وعندما بدانا بتسلق جبل بلودان لمسنا خطـر واسطة النقل هذه : فكانت الدواب لا تمشي الا على حافة الطريق ، اي بمحاذاة الوديان . فكان يكفي تعثر احدى ارجل الدابة لتهوي هي وراكبها الى اسفل الوادي . اما السـرج فكان بدائيا بدون « ركابه » . ولم يكن بيد الراكب سوى حبل يشد به راس الدابة وغصن يضربها به ليحثها على السير . وكثيرا ما كانت الدابة تجنح الى جانب شجيرة لالتهام اوراقها ، فكنا نلجا الى الصبر والانتظار خشية من زعلها . وكانت المواقف تشتد خطورة عندما تشاهد نباتا ارضيا زمردي اللون ، فتمد عنقها وتنهش منه ، بينما يبذل الراكب كل جهده للاحتفاظ بتوازنه على السرج الذي كثيرا ما كان يميل الى الامام او يتهادى يمنة ويسرى . فكان السقوط عن ظهر الدابة كثير الحدوث ومثيرا للضحك اذا كانت السقطة بسيطة . وكان نصيبي من مغادرة ظهر دابتي وافرا . وكان الكل يهرع لاعادتي الا شقيقتي الصغرى التي كانت لا تخفي شماتتها ، اذ انها انصـاعت لقول

الوالدة واعتلت معها حمارا واحـــــدا . اما انا فلم اتقبل النصح وظننتني فارسا مغوارا . وكانت النتيجة اربعة جروح في رجلي ، لا تزال آثارها حتى الان بادية ، رغما عن قطن الصفصاف ومرهم القطرون وهما العلاج الذي اصرت والدتي على تطبيقه ، حسبما كان وصلت اليه حينئذ معلوماتها الطبـــية ـــ رحمها الله رحمة واســـــعة .

اما بلودان،مصيف دمشق،ذات الفندق الكبير والكازينو الرائع والدارات البديعة والشوارع العريضة والمنتزهات الجميلة الان ، لم تكن في ذلك العام الا قرية كسائر القرى السورية ـــ بيوتها ، حيث يسكن المصطافون ، قذرة ذات غرفتين وايوان ، سقوفها من اغصان الاشجار واوراقه تعشش فيها الحرادين والافاعي ، وارضها من التراب الذي تثير غباره كل خطوة .. لا حمام ولا بيت راحة سوى «خشة» بعيدة في اخر البستان او الحديقة التي تحيط بالدار ، كانت مصنوعة من الخشب او الواح القصدير ، وكان بابها من القماش بدلا عن الخشب . وكانت الريح تتقاذفها ، اما عن الروائح فلا تسل!

واني لاشهد باننا كنا قنوعين جدا بطراز حياتنا . فكان القليل يرضينا ، والتقشف الطبيعي يكفينا . اما الان ، فلم يعد يرضي الجيل الجديد الا الاستماع الى الراديو ، ومشــــاهدة التلفزيون والسينما ، وركوب افخر انواع السيارات والطائرات ، والسكنى في بيوت تعمر بافخر انواع الرياش ـــ طراز لويس الخامس عشر أو السادس عشر ـــ ولم يعد يستعمل الا احدث مستحضرات ماكس فاكتور وعطورات غزلان وسواها من عطورات باريز ، ولا يلبس الا اخر موديلات كريستيان ديور وجاك فات ولا يتزين الا بالمجوهـــرات الكريمة ذات القراريط العشـــــرين او اكثر ، من صنع كارتبيه وفان كلـــيف ..

امــــا شبابنــــا الان فهم اقــــل « سنـــوبيزم » (Snobism) من الآنسات ، يكتفون بكرافات سولكا ولانفان ، وبالاجواخ التي يصنعها دورمويل . وقد اقتصر لباسهم صيفا على بنطال بسيط وقميص ابيض او ملون بدون اكمام . واختفى الطربوش الذي كان يتباهى بطوله وكيه البعض حتى انهم كانوا يقتنون لكل طربوش علبة خاصة من الكرتون يأخذونها معهم حتى في اسفارهم .

وبطبيعة الحالة الاجتماعية التي كان يحددها ويقيدها تحجب

النساء ، كان الرجال يرتادون لوحدهم مقهى بلودان الوحيد ويلعبون النرد ويشربون القهوة والشاي او شراب الليمون او التوت .

اما النساء فاذا خرجن من دورهن فيسرن كسرب من القيقان السوداء الى بستان محاط بجدران عالية تمنع تسرب انظار الرجال من خارجه. وهناك يمددن البسط على الارض ويفرشن عليها الفرش والمخدات ويجلسن جوقة او جوقات فتضرب على العود من تجيده منهن ، وتغني من كانت منهن ذات صوت رخيم . وكن جميعهن يصفقن ويرددن مع المغنية بطرب وحماس .

وفيما عدا الغناء لم يكن ثمة ما يسليهن سوى لعب «البرجيس» او «الباصرة» او تجاذب اطراف الحديث . وما كانت الاحاديث كما يفترض ان تكون حول مواضيع اجتماعية او سياسية او علمية او فكاهية ، بل حكايا تحكيها البارعات في هذا المضمار ، او شائعات مزجت بها الاستغابة والنميمة : فلانة شعرها قصير وفستانها اقصر من ركبتها ، او حماتي قالت لي كذا واجبتها كذا ، الى اخر ما هنالك من الكلام الحطيط الذي ليس له معنى . وهكذا كانت النساء يذهبن الى « السيران » . ولا بد من القول بانهن ، على الرغم من تفاهة هذه المسليات ، فانهن كن يرجعن من السيران وبواقي الضحكات التي كن يطلقنها تصل معهن الى عتبـــــة دورهن ، ولربما دخلته ولحقتهن .

وكن يذكرن سيران بيت فلان ويقلن لبعضهن : « افي بالك كم ضحكنا وكم انبسطنا يومئذ ؟ » اما الطبخ وتحضير الاطعمة فكان شغلهن الشاغل : دق الكبة وشيها وقليهـــــا ، وعمل المتبلات والباذنجان المقلي ، وطهي المجدرة وتوضيب المخلـــلات . ناهيك بالخاروف المحشى بالارز والقلوبات (الفستق واللوز والصنوبر) ، فضلا عن الصفيحة وغير ذلك من الماكولات الدسمة التي كان الرجال والنساء يلتهمونها دون التفكير برقــة الخصــــور . اذ كانت المــــراة المستحبة هي التي لا يقل وزنها عن ثمانين كيلو من اللحم والدهن المملؤ به جسمها . فاين ذلك الجسم النسائي المثالي في مطلع العصر الحاضر من الجسم المثالي في منتصفه .

فالمراة اليوم تفضل المــوت من الجوع من ان يزداد محيط خصرها سانتمترا واحدا ووزنها كيلوا واحدا .

اما السيران العائلي فكان يقتصر على الاب واولاده وبناته

وزوجته او زوجاته . وقليلا ما كانت تجتمع اسرتان ولو كان رب كل واحدة اخا للاخر . وذلك لضرورة تحجب بنت العم عن ابن عمها الا اذا كان بينهما رضاع . وقضية القربى بالرضاع كان لها شأن كبير بين الاسر ، وخاصة فيما يتعلق بالزواج . وكثيرا ما تداخلت امرأة فضولية واعلنت انها ارضعت الخطيب وخطيبته . وبمجرد ادائها القسم على صحة ذلك تمنعت الاسرتان عن انجاز مشروع الخطبة وراح الخطيبان ، اذا كانا مرتبطين برباط الحب ، يلعنان تلك العجوز التي تتداخل فيما لا يعنيها ، فتفسد بعملها امل لقائهما .

ومما اذكره في هذا السبيل ان الشيخ بدر الدين الحسيني ، والد الشيخ تاج الدين الحسيني ، وكان في مقدمة المشايخ المحترمين الحائزين على ثقة الشعب ، كان يمر بنا مرة في السنة ليحي عمتي بداعي النسب عن طريق الرضاع ، لان سنة الرسول توجب على الرجل ان يتفقد انسباءه ولو مرة في العام .

وبعد ذكر انواع السيارين ، لا بد من التعرض لنوع آخر ، وهو ما كان يقوم به الرجال لوحدهم . كانت تسليتهم تتناسب مع بيئتهم ، فاذا كانوا من فئة المشايخ كانت اغانيهم واهازيجهم مـــدائح نبويـــة او قصائد صوفية يؤديها حسان الشباب ذوو الصوت الرخيم . وكان شرابهم الشاي يحضرونه بـــ « السماور » ويطوف عليهم به غلمان مخلدون كانهم اللؤلؤ المنثور .

واذا كـــانوا من الوجهـــاء استصحبوا جوقا من المغنين وعازفي الالات الموسيقية . وكان شراب معظمهم العرق ، ومأكلهم « المازات » ، واحاديثهم مزاح وتهريج يتولاهما من كانوا يسمونهم بخفيفي الدم كالشنبون وامثاله .

اما الشباب اللاهي فكانت نزهاتهم لا تخلو من مغنية وراقصة. وكانت تلك النزهات تسمى « شكارا » . ومن العادات الثابتة في هذه الحفلات ان تنتهي ببقاء المغنية مع صاحب الدعوة وانصراف المدعوين ، هذا اذا لم يهاجمهم اهل الحي مدفوعين بغيرتهم على شرف الحي الذي داسه اولئك القـــوم بشكارهم ، فيجري تبـــادل الرصاص في معركة حامية تكون الغلبة فيها اما لاصحاب الشكار فيستمرون في غرضهم ، او لاصحاب الغيرة والناموس فيختطفون الراقصة ويجعلونها نصيب زعيمهم تلك الليلة . وكثيرا ما كان صاحب الشكار تغلبه النشوة ويبلغ به الحماس حدا — بتأثير العديد من

اقداح الخمر ــ يحلف عنده بان الشكار « على بياض » ، اي انه تنازل عن فريسته ــ الراقصة ــ فتصبح حراما عليه . وكان هذا ابلغ ما يقدمه الداعي لمدعويه من الحفاوة والاكرام .

وكان المرحوم ابو درويش ــ وهو احــــد ظرفاء دمشــق المشـهورين ــ يقص علينا حكاية شكار اقامه ابن عم له انتهى باعلان « البياض » . فلما انصرف المدعوون آوى هو وابن عمه الى الفراش وجعلا الراقصة بينهما ، مع العـــــلم بأن تقاليد « البياض » عند « الزكرتية » ، اي الشباب المتعجرف المتباهي بقوته ونخوته وتمسكه بقوله ، لا تسمح لاحد ان ياتي بأي عمل يتنافى مع « البياض » ، فلا يجوز حتى لصاحب الدعوة ان يمس او يلمس يد الراقصة او يفكر بأي عمل يتنافى مع الاخلاق الحميدة . اما صاحبنا ابو درويش فما كانت هذه التقاليد راسخة في تفكيره ، لا سيما انه كان ــ قبل اعلان البياض ــ تبادل مع الراقصة الابتسامات والغمزات . أما الان فما غمض له جفن ، وظل يتقلب يمنة ويسرى . وتجاسر في النهاية والقى يده على صدر الراقصة وارفق حركته بشخرة تبررها اذا ما خطر للمراة ان تبدي سخطها . واذ لم يبد شيء من هـــذا ، تجرا على تحريك يده وداعب النتوء . ولما لم تبد صاحبته معارضة تجرا على اكثر من ذلك ، مما كان يرويه لنا مع التمثيل . الى ان شعر صديقنا بحركة في الجهة المقابلة . اذ التفت ابن عمه نحو الراقصة ، وكان قد راودته خواطر مماثلة ، فراح يصغي ليعرف إذا كان ابو درويش نائما ام لا . ولم يكن بوسع هذا ان ينسحب حتى لا يسمع ابن عمه الحركة . فبدأ يشخر ليقنعه بأنه نائم . فاطمأن ابن العم ومد يده ، فاذ به يشعر بوجود محتل سبقه . فامسك به وعضه ، فصار شخير ابو درويش مزيجا من الشخير والعواء . وبانتفاضة مفاجئة تمكن من التخلص من قبضة اليد . وقام لتوه والقى بنفسه من اعلى السلم الى اسفله .. فانكسرت رجله ولكنه استمر بالهرب وافلت من يد ابن عمه الذي بقي في الغرفة ليؤدب صاحبته او ليستمتع بها لوحده !

هذه قصة رويتها لاعطي فكرة عن العادات التي كانت سائدة قبل خمسين عاما . وكان عسيرا تصويرها بشكل اقل وضوحا .

اما الحياة اليومية فتختلف ايضا بحسب البيئات . فالموظفون يبكرون على وظائفهم ويعودون ظهرا فيتناولون طعامهم ويعودون

لعملهم حتى قرب الغروب . وكذلك التجار والعمال مع اختلاف واحد، وهو انهم لا يعودون الى دورهم للغداء بل يتناولونه بمركز عملهم . فالتجار يصلهم طعامهم ضمن « سفرطاس » . وهو مؤلف من عدة طبقات من الطاسات مربوطة بعضها ببعض . اما العمال فيكتفون بالخبز مع البندورة او الزيتون .

اما الوجهاء الذين ليس لهم عمل معين سوى قبض ايجار العقارات التي يملكونها وجني ربح اراضيهم ، فكان الواحد منهم يجلس في « البراني » اي القسم المخصص للرجال ويستقبل اصدقاءه ويقدم لهم القهوة العربية والسكاير والنراجيل . وكان الحديث في هذه الاجتماعات لا يتعدى الاخبار المحلية « والدردشة » وتبادل النكات والاحاديث الطلية او الحكايات المستطرفة . وكانت تنتهي الاجتماعات والزيارات وقت الظهر ، حين يعود الزوار الى دورهم لتناول الغداء . اذ كان القلة من اصحاب الوجاهة لهم مائدة ممدودة يوميا ، اذكر منهم المرحوم عبد الرحمن باشا اليوسف الذي كان يلتقي على مائدته يوميا ما لا يقل عن عشرة اشخاص يشاركونه الطعام بدون دعوة سابقة . اما والدي وغيره من اقرانه فكانوا يفضلون الجلوس مع اسرتهم والتلذذ بتناول طعامهم معها .

وفي الليل كانت كل طائفة تقضيه بما تشتهيه نفوس اصحابها . فالوجهاء اعتادوا الجلوس في السهرة في دورهم واستقبال ضيوفهم على نحو ما يجري قبل الظهر . ونحا نحوهم التجار والطبقة المتوسطة والعاملة . وكانت تؤلف منهم مجموعات تربط بينهم الصداقة والالفة في المعشر والاطباع المتقاربة . فكان افرادها يتبادلون السهرية ليلة عند هذا ، وليلة عند ذاك . وكانوا يسمون هذا الاسلوب « دورا » . وكانت احاديثهم لا تخرج عن المألوف عند جميع افراد المجتمع ، بالاضافة الى ان صاحب الدور كان يقدم لضيوفه في آخر السهرة الحلويات بانواعها والفواكه الموسمية ، ناهيك بالشاي والقهوة الحلوة او المرة .

اما الذين لا يكتفون بهذه الحياة الساذجة البسيطة ، بل يعمدون الى اقتناص المتعة بالحياة الصاخبة ، فلم يكن امامهم سوى الاتجاه الى حي اليهود حيث يقضون السهرة مع اصدقائهم ، بصحبة المغنيات والراقصات اليهوديات ويتناولون من كؤوس الخمر (العرق) ما ينسيهم همومهم ويغوص بهم في بحر المسرات واللذائذ . وكانت جميع بيوت الحي اليهودي مرتعا لهذه الليليات التي كانت تنفق فيها

الاموال جزافا .

واشتهر من بين العائلات اليهوديات بيت مكنو .. وبنات تطش وغيرها . وهي مؤلفة من اخوات ثلاث او اربع ، لا تعدم الواحدة مسحة من الجمال ورخامة في الصوت .

وقليلا ما كان صاحب السهرة يكملها بالمبيـت بعد انصراف مدعويه . فالمعروف ظاهرا على الاقل ان هذه السهرات بيضاء .

واما الملاهي الاخرى فكانت نهارا مقتصرة على المقاهي التي يلجأ اليها العاطلون عن العمـل ، فيلعبون النرد او الشطرنج ويتناولون القهوة والشاي والقرفة من المشروبات الساخنة والبوظة والليمونادة وشراب التوت او الورد وغيرها من المشروبات المبردة بقطع بالثلج الذي كان يستجلب من رؤوس الجبـال على ظهـر الدواب ويختزن في محلات خاصة ، اذ لم يكن «البوظ» معروفا، ناهيك بآلات التبريد (فريجيدير) .

ومن الملاهي الليلية ، كان ثمة بعض المسارح التي تمثل فيها الفرق المصرية او كان يغني على «تخوتها » المغنـون والمغنيـات واكثرهم من مصر ، كعبده الحمولي ، والسيد عثمان وابو العلاء ، والشيخ سلامة حجازي ، والسيد السقطي ، وغيرهم من المغنين ، فضلا عن الست ليلى ومنيرة المهدية ومثيلاتهما .

اما السينما فكانت في اول عهدها تعرض في صالة وحيدة هي مقهى الزهرة التي كانت قائمة مكان بناية الشربجي بساحة الشهداء (وقد احترقت فيما بعد وهدمت) . وكان طرازهـا كطراز المسارح التمثيلية ، اي كان يحيط بالصالة الواج لا يستطيع المرء التفرج منها جيدا ، الا اذا كان جالسا في مكان مواجه للشاشة. ولم تكن الالواج الجـانبية موافقة .

وعلى الرغم من ان والدي لم يكن يسمح لي بارتياد السينما او المسارح او غيرها من المقاهي او الملاهي ، فاني رافقته في بعض الاحيان الى مهرجانات رسمية في السينما او التمثيل . واذكر ان السينما كانت في حالة بدائية تبدو فيها حركات الممثلين كأنها حركات دمى ، كما هي الان في بعـض الاشرطـة الرديئـة مـن الصـور المتحركة . اما الكركوز فتفرجت عليه مرة واحدة خفية عن والدي الذي منعني من ارتياده بسبب الالفاظ البذيئة والشـتائم القذرة المستعملة فيه ، ولان محيط المتفرجين كان من طبقة سيئة السمعـة والاطبـاع .

ومع ذلك فكان اكثر الملاهي الليلية استجلابا للزبائن ، من كهول وشباب واولاد . وكانت بذاءة الالفاظ وسخف المواضيع الطابع الخاص لروايات كركوز . وقد انقرض هذا النوع المبتذل ، بعد ان انتشرت السينما الناطقة واستهوت الجميع .

والى جانب هذه الصفحات من حياة المجتمع ، كان ثمة جلسات يعقدها المثقفون من شبابنا الذين كانوا تلقــوا دراستهم العليا في استانبول وعاشوا في جوها الاكثر رقيا من جو دمشق . وكانوا على قلتهم يتنادون للسهر سوية ، فتلقى القصائد الشعرية ويتلى بعض الكتب العلمية والادبية .

ثم انه كان هنالك نوع آخر من الحياة : حياة جماعة العلماء والمشايخ. فكان المسجد هو النادي الذي ياوون اليه قبل الظهر وبعد العصر وبين المغرب والعشاء، كمكان تعقد فيه الحلقات التي يتوسط كل منها احد العلماء الشهيرين ، فيلقي « درســـا » على تلاميذه المواظبين وغيرهم من القادمين عفوا ، سواء من طبقة الوجهاء أو من الطبقات الاخرى . ومما لا شك فيه ان مظاهر التعبد قد تضاءلت منذ نصف قرن ، رغما عن كون الدين لا يزال على ما اظن مستحكما في النفوس كما كان في الماضي .

وكانت تقام في هذه الاوساط حفلات « ذكر » تقتصر عـــلى المدائح النبوية المترافقة مع حركات ابتاعية لطيفة . وفي مقدمة هذه الحفلات ذات الطابع الخاص ما كان يقيمه من وقت لآخر دراويش المولويين من حفــلات يقبل على حضورها الوجهـــاء والرسميون وخاصة ، الســـــواح .

وكانت الحفلة تبدأ عندما يتقدم شيخ المولويين بجبته البنية ذات الاكمام الفضفاضة وعلى راسه قلنسوة عالية من اللون البني وحول قاعدتها « لفة » خضراء . فيقف الشيخ في الوسط ويبدأ بحركة بطيئة لولبية فيلحقه الدراويش بلباسهم الابيض الفضفاض ، وقلنسواتهـــم البنية ، ويبداون بالفتل ، ويدهم الواحدة تسنـــد الرأس ، والثانية ممدودة الى الامام . ويستمر اللف والدوران عـــلى نغمة النايات المتعددة . وما كان اشبه هذا المنظر بمنظر راقصات الباليه بلباسهن الابيض الذي يصبح بتأثير الـــــدوران كـــانه مظــلة . وهكذا يدور الدراويش ويفتلون بسرعة متزايدة . وتمر الدقائق ، بل الساعات، وهم في غيبوبة عما يجري . ويحيطون بشيخهـــم ثم يتقدمون منـــه

ويحنون قاماتهم امامهم وينادون : هو ..

لقد قضى اديب الشيشكلي على هذه الجماعات والغى وصادر املاكها ، فزالت هذه العادات البريئة الجميلة ، وليتها لم تزل، فهي تراث ليس فيه ضرر .

وكان الاطفال يتسلون — بعد انصرافهم من مدارسهم — بلعب الدحل في الشــوارع او لعب الطــابة او الخشب شاب . ولم يكن للرياضة نصيب الا لعبة الصراع . واذكر اننا في المدرسة التجــارية الفنا أول فريق لكرة القدم (فوت بول) كما الفنا فريق الكشــاف ، وذلك في ١٩١٥ ، كما سيأتي ذكره فيما بعد .

اما الشباب فكانوا يتفاوون باقتناء الافراس الاصيلة فيركبونها بزهو واعتداد ويبولون وجوههم نحو « صدر الباز » او « الربوة » او « دمر » حيث تسير الجموع للتنزه وشم الهواء مشيا على الاقدام ، جماعات جماعات . فيجلسون على ضفاف الانهر او على المــروج الخضراء ويتناولون ما جلبوه معهم من مــآكل . ويشربون الشــاي ويغنون شتى الاغاني الشعبية ، مثل ابو الزلف والميجنة ، ويا ماريا، وعالروزنه ، وعالدوم عيني عالدوم ، وعصفوري يا عصفوري. هذا عدا المواويل التي لا يحصى عديدها . وكانت ترافق هذه الاغــاني انغام العود وضرب الدربكة ، وهما اكثر آلات الطرب شيوعا بسبب سهولة حملهما .

وبالطبع ، لم يكن ثمة راديو على البطارية ، ولا ترانزستور ، ولا مكبرات اصوات ، ولا غراموفون متنقــــل . ولم يكـن الناس يستطيعون ان يغنوا الادوار الطويلة التي كانت من اختصاص كبــار المغنين ، وهي على سبيل المثال: ياما انت واحشني ، وصفا الازمان، ويا قمر دار العيون ، وذلك لطولها وصعوبة ادائها . ولذلك كــانوا ينزلون الى مستوى « عالروزنة » ، تماما كما يفعل اليوم من لم يهبهم الله صوتا رخيما فيطلقون حناجرهم باغاني عبد الحليم حافظ مثل : « نار يا حبيبي نار » .. التي لا يحتاج اداؤها الا لنفس طويل.

اما حياة السيدة اليومية فكانت اجمالا متأثرة بالمحيط الضيــق الذي كانت تعيش فيه . فالحجاب كان يحول دون اجتماع الرجال مع النساء . واقتصرت بسبب ذلك حياة المراة على الاجتماع مع بنــات جنسها . فكانت الزيارات قاصرة على الاهل والصديقات ، تقوم بها

المراة مع من تقطن معهن من النســاء . اما زوجهـا او اخوها او اولادها الذين تجاوزوا سن المراهقة فلا يجوز ان يرافقوها ولا حتى ان يركبوا معها في مركبة واحدة الا في حالات الضرورة ، كالذهاب الى الطبيب مثلا.فكان لا بد عندئذ من ارخاء «كبوت» المركبة.واذا كان المسير الى زيارة والد الزوج او والد الزوجة او احد افراد اسرتهمـا من الذين تربطهم صلة الرضاع ، فلا تمشي المراة الى جانب زوجهـا او اخيها بل هو يسير في المقـدمة وهي تسـير وراءه على بعد عدة خطوات ، تجر اولادها من يدهم وتحمل منهم من لا يستطيـع المشي وهي تتعثر بخطاها بنسبة كثافة المنديل الذي يحجب وجهها عـن الناظرين . اما الملاءة التي ترتديها فكانت من اللون الاسود وتتـدلى حتى الارض ، وقد تنسحب اطرافها على الارض . وكانت مصنوعة بشكل يحجب المراة كاملا ولا يظهر كسمها البتة . ولا تزال النسـاء في احياء المدينة القديمة يرتدين هذا الزي ، رغما عن ان سكان الاحياء الجديدة تطورت حالتهم الاجتماعية فتبدلت الملاءة « الزم » الى ملاءة محصورة لا تتجاوز اطرافها الركبتين ويفلت من اجنحتهـا الزنـدان واليدان . ورق منديل الوجه حتى صار شفافا لا يحجب من الوجـه شيئا بل يزيد في جماله بستره بعض العيوب . ثم خطت المراة خطوة اجرا واستبدلت الملاءة بغطاء رقيـق تعصب السيـدة راسها به (البشمك) ، وجسمها مكسو ببدلة عادية فوقهـا معطف . ثم انتهى الامر بان خرجت المراة العصرية عن كل ما يفرقهـا عن المراة غـير المسلمة ، من حيث اللباس الذي ترتديه للخروج من الدار .

وكانت الاجتماعات التي تروق للنساء بصورة خاصة هي التي تعقدها في الحمامات ، سواء عندما تذهب للاستحمام فعلا او عندما تذهب داعية او مدعوة اليه . فتجتمع العشرات من النساء ويقضين الساعات الطويلة باللهو والغناء وسمـاع الموسيـقى والاكـل والاستحمام . وبالطبع لم يكن ثمة اختلاط بين النساء والرجال ، اذ كان دخول الحمامات محصورا بالسيدات قبـل الظهر ، وخاصـا بالرجال بعد الظهر وطول الليل .

وفيما عدا الزيارات والحمامـات لم يكن ثمة محل ترتـاده السيدات . فلا سينما ولا مسارح ولا نـوادي ولا مقاهي . امـا النزهات فكانت الى البساتين الخاصة لا سواها من المنتزهات العامة، وعلى الاخص ما يدخل اليها الرجال . ولذلك كانت سيداتنا عـلى مختلف اوساطهن يتبعن في دورهن فيقضين معظم وقتهن بالعنـاية

بالمنزل وبالاولاد ، وبتحضير المآكل والتفنن بها . وهذا ما يدعو للقول بان المراة العربية اجمالا اصبحت نحيلة القوام عندما نقصت عنايتها بمطبخها ، وازدادت مشاغلها خارج دارها في النزهات والزيـارات والجمعيات والنوادي والرقص والرياضة .

واذا اراد بحاثة ان يقارن حالة المراة الاجتماعية والعلمية قبل خمسين عاما بحالتها الان لوجد فروقا مدهشة . والادهش ان هـذا التطور ، او بالاحرى هذه الطفرة ، حصلت بدون ثـورة وبدون ان تلاقي ممانعة في محيط الرجال المتمسكين بتقاليدهم وشعائرهم .

فالمراة كانت لا تخرج من بيتها الا لقضاء حاجات ضروريةكزيارة اهلها واصدقائها ، او عيادة مريضة او حضور مأتم ، او انها لا تخرج في حياتها الا الى مرقدها الاخير . وكان الحجاب في غدواتها يمنـع الرجال من رؤية خصلة من شعرها حتى انه كان بنفس الوقت يمنعها من رؤية طريقها جيدا . ولم يكن يتيسر لرجل ان يجالسها الا اذا كان قريبا لها من الذين يحرم عليها الزواج منه اصلا او رضاعا .

اما ثقافتها العلمية فلا تتجاوز اجمالا قراءة القرآن وحفظ آياته دون الكتابة . وهو ما كانت النساء يتلقينه في المدارس التي يطـلق على صاحبتها اسم « خجا » المشتقة من كلمة خوجه التركية التي تعني « المعلم » . وهي بالاحرى كتاتيب ترسل اليها البنات الصغار لتمرينهن على تلاوة القرآن . واذا ما « ختمت » اي انهت التلميـذة اجزاءه ، اقامت لها والدتها حفلة « ختمـة » دعت اليهـا الخجا والرفيقات والآل والصديقات ، فتقرا قصة المولـد النبوي ويـوزع « الملبس » ، وهو نوع من السكاكر . وهكذا تكون آنساتنا نلن ما كان يعادل في تلك العهود شهادة البكالوريا او الشهادة الجامعية .

واما المدارس الخاصة التي انشاها بعض الارساليات الدينية الاجنبية لتعليم البنات المسيحيات ، فكانت تقبـل عـددا قليلا مـن الآنسات المسلمات اللائي كان والدهن يسمح لهن بذلك . وهكـذا تحصل الانسة على قسط من العلم المحدود . وكذلك كان شـأن المدرسة الرسمية للبنات التي يرتادها عدد قليل من بنـات الوجهاء والموظفين الاتراك .

فاين هذه الحال مما وصلت اليه المراة الآن من اشتراكها مـع الرجل في محيطه وعمله ومورد رزقـه ، واعتيادهـا عـلى ارتياد المجتمعات العامة كالنوادي والسينما ، وتوليها امر جمعيات خيرية

مختلفة الاهداف ، وانتسابهـــــا الى الجـــــامعة بمختلف كلياتها ، وممارستها المحاماة والطب والتجارة والوظائف العامة ، وغير ذلـــك من مظاهر التطور الذي كاد يوصل السيدة العربية الى سوية المرأة الاوروبية والامريكية . على ان هذا التقدم ، اذا شمل بعض الاوساط في احياء محدودة من المدن ، فانه لا زال مرجوا شموله للقاطنات في الاحياء الاخرى التي بقيت الحياة الاجتماعية فيها كما كانت عليه في الماضي ، رغما عن التحسن الملموس في السوية العلمية .

ولم يكن نصيب الرجال من مناهل العلم احسن كثيرا من نصيب النساء . فكان « الكتاب » اول مرحلة يلجأ اليها الاولاد الصغـــار . وكان يتولاه « شيخ » يعلم القرآن بطريقة سقيمة لا تؤدي الى فهـــم معانيه القيمة ، ولكنها تجعل الطـــالب يحفظ آيـــاته حفظـــا على « الغائب » كما تيسر له تلاوة القرآن وهو مغمض العينين .

والويل لمن كان ينسى آية او يتعثر بها او يغير حركة في احدى كلماتها . فـــ « العلقة » له بالمرصاد على يديه و « الفلقة » عـــلى رجليه . وهكذا كان الضرب والايذاء وسيلة التعليم المسموح بهـــا، فيماني الطلاب المساكين منها ما لا يطاق .

واذا ما انهى التلميذ القرآن اقام له اهله حفلة « ختمة » كالتي تقام للتلميذات . وكان يعتبر حائزا على الدرجة الاولى في سلم التعليم ــ كالسرتيفيكا مثلا . ثم يرسل التلميذ امـــا الى المدرسة الرسمية المسماة « رشيدية » ، او الى المدارس الخاصة ، الوطنية منها والافرنسية . ولست ادرى لماذا لم يرسلني والـــدي الى المدرسة العازارية التي انجبت كثيرا من اولاد الوجهاء . ولعـــله لم يشأ ان ارتاد مدرسة مسيحية . فقد كان رحمه الله كثـــير التمسك بدينـــه وغيورا عليه .

متابعة حياتي الدراسية في دمشق

وهكذا كان نصيبي ــ عندما بدا لوالدي ان لا بد من انتسابي لمدرسة ما لتلقي العلم ــ ان اسجل في احدى المـــدارس الخـــاصة التي كان يديرها ويعلم فيها فريق من المشايخ ، واسمها المـــدرسة التجارية . ولست ادري لماذا سميت كذلك ، ولم يكن لها اي اتصال بالعلوم التجارية . وكان مقرها دار آل مردم بك في زقاق البوص (وكذلك لا ادري لماذا سمي هذا الزقاق بهذا الاسم،وهو جانب من سوق الحميدية) وهي دار فسيحة «الديار»، اي الباحة، تحيط بها غرف متعددة ، اتخذت لايواء تلاميذ الصفوف الاثنتي عشرة . وكان

يدير المدرسة الشيخ مصطفى الطنطـاوي ، يعـاونه الشيخ محمد المحلجي . وكان من اساتذتها الشيخ هاشم الخطيب وعوني بـك القضماني وغيرهما .

دخلت الصف السادس وبدات بتلقي الـدروس وكانت تعطى باللغة العربية . وكان البرنامج الدراسي يتضمـن الصرف والنحو (نصر ـ ينصر ـ نصرا ..) ، والقرآن الكريم الذي كنا نقراه جملة بصوت عال ، والعلوم الدينية (الصلاة والحج ..) ، والحسـاب والجغرافيا ، وحسن الخط ، والتاريخ الاسلامي .

وكان رفاقي في الصف السادة شفيق سليمان ، وانور وثريـا فوق العادة ، وفائق سليمان ـ وهم جيراننا في حـارة داود آغا ـ وفؤاد المحاسني ، وجواد المعظم ، والدكتور سالم ، وغيرهم .

وكان المجلي في دروسه يحصل على مكافاة من المديرية وتسمى «آفرين» ، وهي على درجات : آفرين، ثم تحسين ، ثم امتياز، والى غير ذلك مما لم اعد اذكره . وكنا نحتفظ بهذه البطـاقات المزخرفـة ونتفاخر بها . اما العقوبات فكانت ايضا على درجات : فمن عقص الاذن الى الضرب على اليد بالمسطرة الى الفلقـة الى الطرد ... وكانت عقوبة الفلقة تجري بحضور جميـع تـلاميذ المـدرسة قبل انصرافهم . فيضرب البوق ايذانا بالاجتماع ويقف كل صف الى جانب تلاميذ الصف الآخر حول الباحة . ولم يكن احد يعلم من المحكوم عليه بالجلد . ثم يدخل المدير ومعه المحلجي المكلف بتنفيـذ العقوبات . وينادى على التلميذ المخطيء فيبطحه المحلجي ارضا . وتربط برجله الفلقة ، وهي حبل مشدود الى ضلعين من الخشب ، ويبدأ الاستاذ بالضرب على اسفل الرجلين والتلميذ يصيح ويبكي من الالم ويستعطف الاستاذ ويقول : من شان النبي ... بمحبة الرسول ... دخيـل رجلك يا استاذ .

لكن الرحمة كانت مفقودة من قلب الاستاذ المحلجي، فيظـل يضرب ويضرب بكل قوته كان له ثارا على التلميذ ، او كانه يجد لـذة في التعذيب . وهكذا الى ان يغشى عـلى المضروب ، او تكل يـد الضارب ، فيفرج عن التلميذ فيعود الى صف رفاقه بكل صعوبة والم مما اصاب رجليه من جروح وشقوق !

بهذه الصورة الوحشية كان الطلاب يعاقبون على هفوة بسيطة لا يفرض عليهم الان لقاء ارتكابهم مثلها سوى تنزيل العلامة او التاخر

في المدرسة لما بعد الدوام .

وهكذا كانت العقوبات الجسدية معتبرة ، اذ ذاك ، عقوبات رادعة . اما الان فيكتفى بالعقوبات المعنوية .

من ذكرياتي بتلك المدرسة ان المديرية كانت تشدد علينا من اجل اداء الصلاة في احد ابهاء المدرسة المتخذ مسجدا، وذلك بعد الوضوء من ماء البحرة الذي يقارب في فصل الشتاء درجة التجمد . وكانت المياه تنقطع عن ذلك الحي خمسة عشر يوما في شهر شباط ، فيأمر المدير والاستاذ المحلجي بجمع تلاميذ المدرسة كلهم ، فيسيرون بهم اثنين اثنين حتى جامع التوبة في حي العقيبة ، للقيام بالوضوء والصلاة . ثم يعودون بنا كالقافلة الى المدرسة لاتمام الدروس اليومية . وكانت الامطار والثلوج الكثيرة في ذلك الشهر لا تعيقنا عن السير مشيا على الاقدام في الطرقات المملوءة طينا. ثم لا نلبث ان نعود الى المدرسة ، والمياه تتساقط عن ثيابنا ، والطين مرشوش عليها. واما الاساتذة فما كانوا يرون بذلك باسا ما دام فرض الصلاة قد اقيم .

وحينما اقابل هذه الذكرى بما المسه الان من عناية بالتلاميذ الصغار ، اذ يجلسون في غرف صحية مدفأة ويأتون الى المدرسة ويعودون الى دورهم بسياراتهم او بسيارات ذويهم ، وبما يحاطون به من اعتناء صحي متواصل من قبل اطباء المدرسة، اتمنى لو اعود الى المدرسة اذ لم يكن لشيء فللعودة الى ايام الصبا !

ومن طريف ما يروى بصدد الفروق بين الماضي والحاضر ان « الخرجية » التي كان الآباء يعطونها لاولادهم يوميا كانت تختلف بين نحاسة وبين « ابو الميه » وذلك بحسب قدرة الاهل المالية . ولايضاح قيمة النحاسة لا بد من بيان ما كان يتداول في الايدي من انواع العملة .

في عهد الحكومة العثمانية الاخير ، اي قبل الحرب العالمية الاولى ، كانت الليرة العثمانية قطعة من الذهب تساوي مئة غرش او خمسة مجيديات . وهي قطع من الفضة تساوي الواحدة عشرين غرشا صاغا. وينقسم المجيدي الى نصفي مجيدي واربعة ارباعه.

وكان الغرش الصاغ عملة مصكوكة من النيكل ، كتب عليها ٤٠ بارة ، وينقسم الى نصفي غرش اي ٢٠ بارة واربع قطع كل واحدة قيمتها ١٠ بارات . وهذه الاخيرة تسمى « متليك » والاسم

آت من لفظة (Metalique) اي « معدني » باللغة الافرنسية. والمتليك هذا ينقسم الى خمس نحاسات او عشرة نصف نحاسة ، وكل عشر نحاسات تساوي « بشلك » ، وهي قطعة من النحاس الاسود . اما الابوميه فكان يساوي عشر نحاسات ، والابوميه الصغير خمس نحاسات . ولم تكن العملة الورقية معروفة قبل الحرب ، فلما اشتركت تركيا فيها بدأت باصدار اوراق نقدية ما لبثت ان انهار سعرها في السوق الحر.

فاذا اعتبرنا ان الليرة العثمانية الذهبية تساوي الان ٣٠ ليرة سورية ، وجدنا ان الابومية يعادل ٦٠ غرشا سوريا ، والنحاسة تساوي غرشا سوريا ونصف الغرش . ومع ذلك فقد كانت قيمة النقد ، اذ ذاك ، بالنسبة لقيم الاشياء هي اكثر مما هي عليه اليوم. فما يأخذه التلاميذ الفقراء من آبائهم كان يكفيهم لشراء ما يشبعهم عند الظهر خبزا وزيتونا ، او جبنا مع قطعة من الشوندر المسلوق. وقليل منهم من كان يجلب معه طعامه للغداء ضمن «سفرطاس» ، وهو اربع او خمس علب من النحاس تعلق فوق بعضها البعض الاخر وتحوي انواع الطعام . اما المترفون ، فكان طعامهم يأتيهم ، ظهراً ضمن سفرطاس مليء بالاطعمة الطازجة، بينما كان التلاميذ الاخرون يجلبون اطعمتهم معهم وهي «بايتة» اي من طعام الامس .

واذكر اننا قبل انتهاء السنة الدراسية دعينا لاقامة حفلة من الحفلات السنوية ، فاخذ كل واحد دوره في التمثيليات المتعددة التي لم تكن تتجاوز احداها محاورة بين اربعة تلاميذ ، يلقي كل واحد منهم سطرا او سطرين وينتهي دوره . وكم كنا فخورين بهذه الادوار التي كنا نحفظها ونلقيها بكل حماسة واندفاع .

وفي السنة الدراسية الثانية، كانت الدولة العثمانية قد اشتركت بالحرب العالمية الاولى واعلن سلطانها الجهاد المقدس ضد اعدائه الانكليز والروس والافرنسيين . فدعينا مرات عديدة للاشتراك بمظاهرات شعبية كانت السلطات المحلية تأمر بها . فتخرج مدرستنا بجميع طلابها ، صفا صفا ، وتلتحق بقافلة طلاب المدارس الاخرى، فنطوف الشوارع مهللين مكبرين ، داعين للسلطان بالنصر، ومنشدين الاغاني التركية الحماسية ، مثل اردوفر ، تيدي يمين . . .

واذكر ان احد الاساتذة واسمه محي الدين افندي كان مولعا بالرياضة ، فعمل على تأليف فريق كشفي وفريق للعب كرة القدم .

وهكذا الف في سورية في ١٩١٥ اول فريق كشفي . وانتسبت اليه مع لفيف من رفاقي منهم جواد العظم ، ونسيب الحجار، وفؤاد محاسن، وخليل حموي ، ومحمد سالم ، وغيرهم . وكنا نرتدي البسة الكشاف الخاصة ونحمل العصي ونتمنطق بحزام علق به خنجر وضوء ينار بالزيت الحلو . وكان على ظهرنا حرام وبعض ادوات الطعام والطهي . فكنا نذهب في رحلات كشفية الى اعالي جبل قاسيون او الى قرى الغوطة .

اما فريق الفوتبول ، فكان ملعبه في ساحة المرج الاخضر، التي يقوم عليها الآن معرض دمشق . وكنت على خفة وزني اجيد اللعب. ولكني كنت افضل ان اكون حكما ، فآمر بصفارتي توقيف اللعب أو تسييره ، واوقع العقوبات واحكم بين اللاعبين .

كذلك كنا نتمرن في المدرسة على انواع الالعاب الجمناستيكية، كما اني كنت مع ابناء عمي اركب الخيل واذهب الى الربوة للنزهة ايام الصيف . وهذا كان اول عهدي وآخره بالرياضة ، عدا لعب التنس فيما بعد . الا انني لا ازال اميل اليها ، واتمنى لو لم اتركها كممارس. وليس احب الى من مشاهدة مباراة فوتبول او تنس ولعب وحركات جمناستيكية ، مما حملني على تنشيط فريق من لاعبي الكرة (الفوتبول)، وعلى رأسهم المرحوم سامي الشمعة ، على المضي بتأسيس نادي « امية » وتكريس مبلغ من المال لاستئجار ملعب وتشييد مدرج ، وذلك في ١٩٣٢ . واما لعبة التنس فقد ولعت بها في ١٩٢٦ ، حينما قضيت الصيف في قرية برمانا بلبنان . واما البليارد فقد تعلمته ايضا في برمانا ، ثم استأجرت طاولة بليارد وجلبتها لداري في بيروت في ١٩٢٧ ، حيث مارست اللعب على يد لاعب فرنسي مشهور . ولكنني بعد عودتي الى دمشق ، اضطرتني الظروف لترك هذه اللعبة ، لان دمشق لا تحوي ملعبا يستطيع المرء ارتياده اذا هو اراد تجنب معاشرة من لا تتناسب سويتهم مع سويته.

بعد ان انتهت الفحوص السنوية ونجحت لاجتياز الصف ، فكر والدي مقضية تعلمي اللغة التركية التي كانت لغة البلاد الرسمية . ولم اكن اعلم منها شيئا لان المدرسة التي كنت اداوم فيها لم تكن تعنى بها . فقرر ان ياتيني باستاذ يجهزني لدخول المدرسة السلطانية الرسمية التي كان التعليم كله فيها باللغة التركية. وهكذا صار الاستاذ بهجت بك، معاون مدير المدرسة المذكورة ، ياتي يوميا

الى مصيفنا في دمر ، فتمكنت من معرفة اللغة تكلما وكتابة وقواعد. وعندما حل موعد دخول المدارس لم يقبل قيدي في المدرسة الا بعد اجتياز فحص باللغة التركية . وكان الفضل لذلك الاستاذ بان تمكنت من اعطاء الاجوبة كلها بلغة تركية سليمة، فنجحت بالفحص وسجلت في الصف الخامس . وكانت المدرسة هي تجهيز بيروت (سلطاني) . وقد انتقلت الى دمشق ، اثر اشتراك الدولة بالحرب ، واتخذت لها مكانا في الابنية التي كانت تشغلها مدرسة الآباء العازاريين المغلقة بسبب انتسابها للحكومة الافرنسية . وهكذا داومت في تلك المدرسة سنة كاملة . وكان رفاقي فيها ابناء عمي جواد وتحسين العظم ، وعمر وراتب اليوسف . وكان كل منا في صف غير صف رفيقه ، ، الا اننا كنا نلعب سوية في الفرص لعبة الدحل بالاشتراك مع رفاقنا الآخرين . وكذلك كنا نتناول الطعام سوية .

وكنا كلنا نحب ونفضل الرز مع الفاصولية اليابسة ونطلب من اهلنا ان لا ينسوها يوميا . وكانت تاتينا ثلاثة (سفرطاسات) الاولى من دارنا اشترك فيها مع جواد ، والثانية من دار عبد الرحمن باشا اليوسف ، ويشترك فيها ولداه عمر وتحسين . اما الثالثة الآتية من دار عمي خليل باشا ، فكانت نصيب راتب ورفيق لهم اسمه حسن افندي . وكان الرز غاليا جدا اثناء الحرب ، مما كان يحمل عائلة جواد وتحسين على استبداله بالبرغل في بعض الايام .

وعندما كان يثور راتب احتجاجا ويقول : «يا اخي.. انا اهلي بعثوا لي رزا .. آكل برغلا في حين ان اصحاب البرغل ياكلون حصتي من الرز . » وكنا نضحك ونتقاسم معه نصيبنا منه .

وبعد ان انتهت السنة الدراسية واجتزت الفحص السنوي نقلني والدي الى سلطاني دمشق ومكانه مدرسة عنبر .

وليس لي ما اكتبه عن السنة الدراسية الوحيدة التي قضيتها في هذه المدرسة ، اذ ان والدتي خافت علي من اوبئة الكوليرا والتيفوس والتيفوئيد التي انتشرت بدمشق وراح الكثيرون ضحيتها . فاصرت على بقائي في البيت وكلفت بعض اساتذة المدرسة ان يعطوني دروسا في الجبر والهندسة والكيمياء .. الا ان هذا التدبير لم يفدني وظلت معرفتي بهذه العلوم ضعيفة جدا . ثم عاودت دراسة اللغة الافرنسية على يد الاستاذ علي الجزائري المعروف باسم

« مسيو علي » . وكان له الفضل في تمكني من هذه اللغة .

وبعد الخلاص من حكم الاتراك واعلان الاستقلال افتتحت الحكومة السورية مدرسة الحقوق واعلنت قبول الانتساب اليها لكل من كان مسجلا في مدرسة الحقوق بالاستانة او بيروت ، ولمن كان حائزا على شهادة الاعدادي اي التجهيز ، ولمن يجتاز فحصا يعادل تلك الشهادة . فعزمت بعد موافقة والدي على دخول الفحص وبدات استعد له . غير ان انتقال والدي الى جوار ربه في تلك الفترة وما اضطررت للقيام به من حفلات تابينية اخرني عن انجاز الدروس وضاعت فرصة تقديم الفحص . وذات يوم جاءني صديقي فؤاد المحاسني وانبأني بان مدرسة الطب لم تزل تقبل الانتساب اليها بالفحص،فقلت له : «وهل اكون بالنتيجة طبيبا ؟» قال : « لا بل انك تستطيع عبر الانتساب الى الكلية الطبية ان تنتقل بدون فحص جديد الى مدرسة الحقوق . » وهكذا فعلت .

انتسابي الى مدرسة الحقوق في دمشق

كان مدير المدرسة الاستاذ عبد اللطيف صلاح، وهو فلسطيني الاصل ، عبوس الوجه ، خشن المعاملة . وقد استمرت مديريته حتى آخر تموز ١٩٢٠ ، حين هرب مع من هرب من دمشق من رجال السياسة .

وكان يدرسنا الحقوق الاساسية . اما اساتذتنا الآخرون ماذكر منهم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر (علم الاجتماع) ، ورفيق التميمي وعفيف الصلح (التاريخ السياسي) ، وابراهيم هاشم (الحقوق الجزائية) ، والشيخ سعيد الباني (المجلة)، وتوفيق السويدي (الحقوق الرومانية) .

وفي الصفين اللاحقين، الثاني والثالث، درسنا على يد كل من فارس الخوري (مالية) ، وشاكر الحنبلي (الحقوق الادارية)، وعثمان سلطان (الحقوق التجارية) ، ومصباح محرم (الصكوك الجزائية) ، وسامي الميداني (الحقوق الدولية) ، والشيخ توفيق الايوبي (الوقف)، والشيخ سليمان الجوخدار (الاراضي)، والشيخ امين سويد (الفقه) .

ويبدو من تلاوة اسماء هؤلاء الاساتذة كم كانت الحكومة تعنى بهذه المدرسة ، فوفرت لها احسن الاساتذة ووجه دمشق العلمي . وقد توفي الان اكثرهم ، رحمهم الله رحمة واسعة .

وكان رفاقي في الصف الاول : فؤاد المحاسني، وصادق العظم،

ومختار الايوبي ، وموفق الحسيني ، ومحمود النجار ، ومحمود الماضي ، وخالد الداغستاني ، وخليل الحموي ، ومحمد القصاب ، وعبد الحميد مارديني، ويوسف ياسين (الوزير السعودي الحالي)، وابراهيم شيشكلي ، وجورج شاهين ، وجورج ريس ، وظافر رفاعي ، ومصطفى رحيباني ، وراسم سلطان ، وسيمون لويس . وفيما بعد كانت ارفع المناصب السياسية والادارية والقضائية نصيب هؤلاء الرفاق الاعزاء .

والتحق بنا فيما بعد سامي البكري . اما الصف المنتهي في عام ١٩٢٠ ، فكان فيه سعيد الغزي .

وتجلت الصعوبات امامنا في اول ايام الدراسة ، اذ لم يكن هنالك من كتب نرجع اليها . وكان الاساتذة يلقون محاضراتهم وينصرفون . وقليل منا من كان يلتقط « نوطا » . ومن جهة ثانية لم يكن يشترط علينا الدوام في المدرسة كما يشترط الان . فلم نكن نحضر الدروس كلها ، وخاصة أيام البرد والمطر . وهكذا ضاعت علينا فوائد لم نشعر بفقدانها الا عند اقتراب الفحوص . وكنا شلة من الاصدقاء : المحاسني والعظم والايوبي والحسيني ، فضربنا اسداسا باخماس وصرنا نفكر بطريقة ناجعة تكفل لنا اجتياز الفحص على الاقل ، ناهيك بالاطلاع العميق على ما اعطي من الدروس خلال السنة . وارشدنا المحاسني الى رفيقنا محمود النجار واكد انه كان مواظبا على جميع الدروس ، بأخذ « نوطا » ويرتبه بشكل مختصر مفيد . فسعينا اليه ودعوناه للاشتراك معنا بتحضير الفحص، فلبى رجاءنا وصرنا نجتمع قبل الظهر وبعده عندي او عند سائر اعضاء الشلة ونحفظ جوابا لكل سؤال من الاسئلة التي ستطرح علينا والتي اعلنتها الادارة سلفا . ومن طريف ما حصل لنا ان دعونا ذات يوم استاذ الفقه للمذاكرة معه ، فحضر بعد الافطار — وكنا بشهر رمضان — فاسرعنا لاستقباله . وبينما هو يستعد للجلوس معنا حول الطاولة ، بدت مني حركة غير اختيارية اردت بها ان اقدم له كرسيا اريح . فسحبت الكرسي الذي كان مزمعا على الجلوس عليها في نفس اللحظة التي حط جسمه عليها بكل ثقله فهوى على الارض . ورفع رجليه الى اعلى ، وراحت لفته تتدحرج في ساحة القاعة . . . فشاهدت المنظر وذهلت . ولم اصح الا على اصوات ضحك الرفاق !

ولم يقدروا على ضبط ضحكاتهم فشاركتهم بها على غير ارادتي.
ثم هرعنا كلنا لرفع الاستاذ عن الارض واجلاسه . وبدات المذاكرة في جو يسوده عاملا المرح والجد . وبدأ الاستاذ يطرح الاسئلة الواحد بعد الآخر ، بادئا بمن كان جالسا الى يمينه . ومن حسن حظ الصف انه بدا بمحمود النجار ، ثم بفؤاد المحاسني اللذين كانا واقفين على هذا الدرس . فتطلعنا نحن الآخرون ، بعضنا ببعض، ولم نكن نعلم من الاجوبة شيئا . وخشينا ان نحن لم نجب بشكل مقبول ان يحكم علينا الاستاذ بالجهل، فيؤثر ذلك في موقفنا بالفحص. لذلك لجأنا الى الحيلة ، والمرء ابو الحيل ، وصار كل واحد منا يحسب ما سوف يصيبه من سؤال على موجب التسلسل ويعمل على حفظ مختصر الجواب على قدر الامكان . وهكذا مر دوران الى ان قلنا للاستاذ : « نحن يا استاذنا الفاضل نريد التزود بمعلوماتكم الفائضة عما نعلمه (ولا نعلم في الحقيقة شيئا) ، فنرجو أن تعطونا محاضرة عامة بدلا من طرح الاسئلة علينا » . فاصبنا بذلك نقطة الضعف في غرور الاستاذ او في سذاجته ، وتخلصنا من الموقف الحرج الذي وقعنا به . . . ومضت السهرة بسلام .

اما ذكريات السنة الثانية والسنة الثالثة فكان اكثرها يتناول الفحوص السنوية . ومنها انني ليلة فحص المالية في الصف الثالث، حلمت بانني سحبت الاسئلة الثلاثة الاولى بالقرعة . ذلك ان الاسئلة كانت ترقم وتوضع في انابيب نحاسية صغيرة ضمن سلة من القش، امام الهيأة الفاحصة .

فلما جاء دوري وقفت امام الاساتذة وسحبت انبوبا وفتحته، فاذا به يحوي رقم (٢) فبدات بسرد الجواب بطلاقة. وتحايلت به، فاوردت جواب السؤال الاول رغبة في اظهار الكثير من المعرفة .

وشعر الاستاذ فارس الخوري بحيلتي وتبسم . ولما انتهى كلامي عاودت السحب ، فاذا بالرقم (١) يظهر ضمن الانبوب الجديد فضحكت وضحك الاستاذ الخوري . فتساءل الاساتذة الاخرون عن سبب الضحك ، فاجبناهم . وسحبت انبوبا ثالثا فاذا هو يحوي الرقم (٣) ، وعندئذ فقعت انا ورفاقي الواقفون على الباب من الضحك ، اذ اني كنت اخبرتهم صباحا بما حلمت به . فعجب الاساتذة لهذا الضحك . ولم يسعني الا ان اروي لهم الامر على حقيقته . فضحكوا معنا وتعجبوا من هذا المنام ومن تحققه كاملا .

وعند ذلك التفت الاستاذ الخوري وقال : « اظنك لم تحلم باقي سأطرح عليك سؤالا رابعا » . فقلت : « ليكن ما تريد » . فالقى علي سؤالا فيكيفية تنفيذ ميزانية الدولة، فاجبت بما لا يقل عن حسن الاجوبة الثلاثة الاولى ، مع الفارق ان الاسئلة المذكورة كنا حفظناها عن ظهر قلبنا . اما السؤال المبتسر ، فكان الجواب عليه موافقا للمضمون جملة ، لا كلمة كلمة .

اما الحادث الثاني فوقع في فحص « الاحكام الوقفية » وكان استاذنا فيه المرحوم الشيخ توفيق الايوبي . ذلك انني بينما كنت اجيب على السؤال المطروح علي شاهدت بسمة تعلو وجه الشيخ عبد المحسن الاسطواني الذي كان مدعوا في عداد الهيأة الفاحصة. ففسرت لنفسي ان هذهالبسمة تنم عنان الاستاذ الاسطواني وجد في جوابي ابتعادا عن الصحيح ، لكنه لم يشأ مجابهتي بغلطي فتبسم. وفجاة قطعت كلامي وتوجهت الى الاستاذ المشار اليه وقلت له : «لم تبتسم يا حضرة الاستاذ ؟ هل في جوابي خطأ ؟ » فصحا الاستاذ الايوبي من نصف نومته . وساد الافق سكوت وذهول . وترقع الاسطواني وقال متلعثما : « الحقيقة .. انني .. غير متفق معك فيما اوردته من حكم ! »

فقفزت من محلي وخرجت الى حيث تركت دفتري في السل وجلبته واطلعت الاسطواني على ما جاء فيه من حكم لا يختلف مطلقا عن ما سردت . فقال : « نعم ، ان المكتوب هنا هو ما ذكرته، لكنه خطأ ... » فاجبته : « قد يكون ذلك . اما انا فقد نقلت حرفيا ما اعطانا اياه استاذنا . فان كان بينكما خلاف في صحة هذا الحكم ، فلست انا طرفا في النزاع . والسلام عليكم » . وخرجت من قاعة الفحص بين تصفيق الرفاق !

وطال الجدال بين الاستاذين ، الضالع كل منهما في علمه . اما انا فجلست في مقهى المدرسة اشرب الشاي مطمئنا الى المصير. وفي الواقع تغلب راي الاستاذ الاسطواني على راي استاذنا الايوبي . ومع ذلك فقد نلت عشرة على عشرة على جوابي المخفق. وكانت هذه اول مرة ، على ما اظن ، ينجح في الفحص من يجيب اجابة مغلوطة. لكن عذري كان واضحا . فقد حفظت ما لقننا اياه المعلم، فلم تكن الخطيئة خطيئتي .

والحادث الطريف الثالث هو انني تأخرت عن المجيء الى

المدرسة يوم فحص « الصكوك الحقوقية » . وحينما دخلت الصف وجدت رفاقي منهمكين في كتابة الاجوبة على الاسئلة التي سبق ان كتبها الاستاذ على اللوح الاسود وغادر المكان تاركا للمبصر مراقبة الطلاب . وجلست مكاني ونطاعت الى جانبي فلقيت الرفاق كلهم ممسكين بدفاترهم ينقلون منها الاجوبة بدون اي عناء . فقلت لهم « ما هذا ؟ الا تخشون عين المبصر ؟ » فاجابوا : « لا تهتم به .. واعمل مثلنا » . فقلت : « لا والله » . وعملت على كتابة الاجوبة مما هو عالق بذهني . اما مبصرنا ، حفظه الله ، فكان جالسا على المنصة تاخذه سنة من النوم دون اي اكتراث لما يجري امامه . وصار رفيقي الجالس الى جنبي ، محمود النجار ، ينكشني ويومىء الي بالعمل مثله . وكنت اجيبه : « انت ايضا يا محمود ؟ انت الاول في الصف وتتنازل الى النقل ؟ » فقال : « يا اخي ، كل صك يحوي عشرة او خمسة عشر شرطا من شروط صحة العقد ، فاذا نسيت واحدا او اكثر نقصت علاماتك». ولم يقنعني كلامه ولم يرتح ضميري الى هذه السرقة . وملأت صحيفتي وسلمتها للمبصر .

وفي اليوم الثالث اعلنت نتيجة الفحص ، فاذا بجميع الطلاب ينالون عشرين علامة على عشرين . واما انا فعشرة فقط . فضحك الرفاق وهزأوا بي وراحوا يلومونني على تصلبي . فقلت لهم انها قضية مبدأ وانهم سيرون ان العاقبة دائما مع الحق . ورحت لعند المدير وسردت له الواقع وكان هو بنفسه متعجبا من هذه النتيجة ، لا يجد لها تفسيرا . فلما اطلع على السر ، ذهب فورا الى وزير المعارف وروى له القصة . وفي اليوم التالي اعلنت ادارة المدرسة الغاء الفحص ، فقامت قيامة الطلاب وراحوا يعتبون علي لشكواي الى المدير ، واعلنوا عزمهم على الاضراب .

واضطرني هذا الى التدخل والسعي لحل وسط وافقت عليه الادارة واقره الطلاب. وهو ان يحسب لجميع الطلاب عشرة علامات من عشرين ، واجراء فحص تحريري ينال به كل طالب ما يتناسب مع معرفته .

ودخلنا الفحص فحصلت مع بعض رفاقي على ١٩ علامة . واحتفظ البعض بما نالوه سابقا . وانتهت الازمة باجتياز الجميع هذا الفحص الصعب .

والخلاصة ان اطيب ايام الصبا كانت التي قضيتها في معهد

الحقوق . فالرفاق كانوا لطفاء ظرفاء ، والاساتذة طيبون يعملون جهدهم لتحضير الدروس واملائها علينا املاء . وبعضهم طبع هذه المحاضرات بشكل كتب وباعها منا . وكان الجو العام في المدرسة جوا اخويا ، لا سيما اننا كنا في الصف الاول لا يتجاوز عددنا الثلاثين . وعندما وصلنا الى السف الثالث كان العدد في المدرسة كلها مئة طالب او مئة وعشرين طالبا، مما جعل روح الالفة والزمالة بين جميع التلاميذ تأخذ مجراها بسهولة . وباعتبارنا لم ندخل بعد الميدان السياسي ، فلم تكن بعد قد اثرت فينا وفي مجموع البلاد نتائج الانتداب الافرنسي الذي بدأ بدخول الافرنسيين دمشق في الرابع والعشرين من تموز ١٩٢٠ ، اي بعد انقضاء السنة الدراسية الاولى . وانتهت في تموز ١٩٢٢ دراستي للحقوق واجتزت معرفاقي الفحص النهائي . فحصلنا على الشهادة وعكف كل واحد منا يشق طريقه في الحياة .

ذكرياتي من الحرب العالمية الاولى

واما ذكرياتي عن الحرب العالمية الاولى فكانت محصورة بما اسمعه من الاخبار على السنة الضيوف او ما اقراه في الجريدة الوحيدة الصادرة بدمشق واسمها « الشرق » وكان يراس ادارتها الشيخ تاج الدين الحسيني والشيخ خليل الايوبي ويتولى تحريرها الاستاذ محمد كرد علي والاستاذ خير الدين الزركلي . ولم يكن قد اخترع الرادبو الذي جعلنا في الحرب العالمية الثانية نستمع الىجميع محطات الاذاعة ونطلع على اخبار الفريقين المتحاربين . وهكذا كنا نردد باستهزاء وسخرية ما كان يصدر في البلاغات العسكريةاليومية التركية والالمانية من عبارات تكاد تكون واحدة كل يوم وهي: «دشمن قطعاتي مرد قوتلز مزه هجوم ايتمشلر ايسه ده بوسكور تلمشاردر ...» اي « ان القطعات المعادية هاجمت قواتنا الشجاعة ولكنها ارتدت على اعقابها خائبة.. »، او « لا جديد في الجبهة الغربية » او « هجم العدو على الجبهة الفلانية هجوما قويا وقاومته قوانا بضراوة وخسرت القليل من القتلى ، بينما تكبد العدو الخسائر الجسيمة » او « انكفأت قوانا لمراكز جديدة وفقا للخطط المرسومة » . وقد كانت هذه التعابير تخفي انكفاءات خطيرة ، وانكسارات مؤدية الى الارتداد الى الوراء عشرات الكيلو مترات ، ووقوع عشرات الالاف من الاسرى والقتلى والجرحى تسعى القيادات الحربية الى كتمها عن الجمهور خوفا عليه من انهيار اعصابه . غير ان الاطراد في سياسة اخفاء الحقائق التي لجأ اليها

اسياد الموقف ادت الى قناعة الناس بان الحرب خاسرة في النهايـة وصاروا لا يصدقون حتى الاخبار الصادقة ويبالغون في تقدير الخسائر وظلت قصص الدفاع عن مضايق « جناق قلعه » تشغل بال الجميع بسبب الخطر الذي كان يهدد مركز العاصمة القريبة من الجبهة ، فيما لو انهارت القوة المدافعة وتمكـن الانكليز والافرنسيون من احتلال الاستانة وقطع الاتصال بين تركيا وحلفائها المانيا والنمسا وبلغاريا .

والواقع ان الجنود الاتراك استبسلوا في الدفاع وفي مقاومة ما قام به الجنود الانكليز والافرنسيون مـن هجوم عنيف بحرا وبرا ، وما بذلوا من اجل اختراق هـذه الجبهـة والوصول الى العاصمة العثمانية من جهد كبير،وما ضحوا به من بوارج ومدرعات من الطراز الحديث ، وما هدروا من دماء ما لا يقـل عن اربعمائة الف جندي ، وما خسروا من معدات عسكرية لا تعد ولا تحصى . وفي الواقع ، فقد صمد الجنود الاتراك مستعينين بمـا قدمه لهم حلفاؤهم الالمان من مدافع واسلحة وذخيرة . وقد لمـع في هذا الدفاع المستميت اسم قائد الجبهة التركية مصطفى كمال باشا الذي لعب في ما بعد دورا كبيرا انقذ فيه بلاده من نتائج انكسارها في الحرب العالمية .

اما نحن في سورية ، فالحقيقة اننا لم نكن نبالـي كثيرا بما يجري في الدردنيل . وكنا لا نذكره الا في الاناشيد الشعبية التي كنا نؤمر بالقائها ونحن في المدرسة وهي :

جناق قلعه ده .. غليبولي ده .. دشمن ازرز ..

اي « ندعس العـدو في جناق قلعه وغليبولي » . اما الجهـاد المقدس الذي اعلنه السلطان بناء على الحاح الحكومة الالمانيـة ، فلم يحفل به احد ، سواء في تركيا او في بقية البلاد الاسلامية . اذ ان الدعاية الانكليزية سريعا ما عكفت على التعـليق بان الجهاد في الاصل هو حرب ضد غير المسلمين ، سواء كانوا انكليزا او المانا . فكيف يحالف السلطان فريقا من المسيحيين ويحـارب فريقا آخر منهم ؟ وهل هذا جهاد بالمعنى الصحيح ؟ وقد نجحت هذه الدعاية البريطانية ، مـع ما رافقها من تاثير الذهب الوهاج ، في وقوف المسلمين في كافة الانحاء موقف المتفرج اجمالا، عدا فريقا منهم اشترك في الحرب الى جانب الانكليز والافرنسيـين ، كالهنود والسنغاليين

والمغاربة ، وغيرهم .

وهذا الجهاد المقدس الذي اعلنه خليفة المسلمين لم يحل دون اعلان الشريف حسين بن علي ، امير مكة ، الثورة واشتراكه فيها هو واولاده ضد مقام الخلافة ، ودون تحالفه مع الانكليز من اجل استقلال البلاد العربية .

في بدء الحرب عين جمال باشا ، ناظر البحرية ، قائدا للجيش الرابع . فجاء الى دمشق وفرض سلطانه على جميع البلاد السورية واللبنانية والفلسطينية وصار الحاكم المطلق ، يعطي الاوامر ويتصرف بالامور كأنه السلطان نفسه . وجهز الجيش الرابع بمعدات اعتبرها كافية لعبور قناة السويس واحتلال البلاد المصرية . وبدا بهجومه عليها مخترقا صحراء سيناء ، دون ان يكون ثمة خط حديدي ينقل به جنوده او سيارات تقوم بهذه المهمة ، اذ ان الخط بين اللد والاسماعيلية انشأته القيادة البريطانية ، اثر انسحاب القوى التركية ، واستعانت به في احتلال فلسطين وسورية ولبنان . ولم يخطر ببال القيادة البريطانية ان القوى التركية سوف تجتاز هذه الصحاري لفقدان الآبار ووسائل النقل ، فانكفأت على راس قواتها على الطرف الغربي من القناة وراحت تحصد بمدافع البوارج الحربية المرابطة في القناة شراذم الجنود الاتراك التي توصلت الى ضفة القناة الشرقية منهوكة القوى ، جائعة عطشى . وعلى الرغم من ذلك ، تمكن بعض هذه السريات من اجتياز القناة ، مستخدمة قوارب حملتها معها عبر الصحراء على ظهر الجمال والبغال . ولكن هيهات للشجاعة وحدها ان تقف في وجه الاسلحة الآلية والحصون المتراصة . فوقع شهيدا من وقع ، واسيرا من انقذته العناية الربانية . ولم يعد من جبهة الهجوم هذا غير العدد اليسير الذي اطلق ساقيه للريح ورجع ينجو بنفسه من الموت الزوآم ، فروى لرفاقه وآمريه ما شاهدته عيناه من مجزرة رهيبة وفشل ذريع .

وهكذا خابت الحملة التي اراد بها الالمان الهاء الجيش البريطاني بتخصيص عشرات الالوف من الجنود لهذه الجبهة بدلا من ارسالها الى الجبهة الغربية للاشتراك في المعارك الكبيرة الدائرة بين الجنود الالمان والجنود الافرنسيين .

وانكفأت القوى التركية بعد تلك الهزيمة وعسكرت في غزة وضواحيها وبقيت بحالة الدفاع حتى اضطرتها قوى الهجوم

البريطانية الى الانكفاء مجددا ، مخلفة وراءها مدينة القدس ويافا . وانتقلت القيادة التركية الى مدينة الناصرة ، الى ان قامت القوى البريطانية بالاشتراك مع قوى الامير فيصل بالهجوم في خريف ١٩١٨ ، فاحتلت دمشق وبيروت وحلب . وعلى اثر ذلك جرت مفاوضات الهدنة بين الفريقين في مودروس . وانتهت الحرب بين الامبراطورية العثمانية والحلفاء في مطلع شهر تشرين الثاني ١٩١٨ .

ولا اخفي اني كنت في الحرب هذه في عداد المؤمنين بنجاح الامبراطورية العثمانية وذلك بتأثير محيطي العائلي . اذ ان والدي كان من المخلصين للامبراطورية التي كان يعتبرها الدولة الاسلامية الوحيدة في العالم . وكان يكره الانكليز والافرنسيين الذين كانوا يعلنون عن مطامعهم في اراضي الدولة ولا يخفون عداءهم للاسلام .

هذه هي حقيقة لا مندوحة لي من ذكرها علي علاتها . وكان المرحوم والدي — على قلة ما كان يصارحني به من آرائه ومعتقداته السياسية بالنظر لصغر سني — حائرا بين شعوره الديني وشعوره العربي ، او بمعنى آخر ، حائرا بين الوقوف الى جانب الاتراك لانهم مسلمون ليدافع عن الكيان الاسلامي الموشك على الانهيار — بهزيمة الامبراطورية العثمانية في الحرب العالمية — وهذا ما حصل فيما بعد — وبين الوقوف الى جانب ابناء بلده ، كالعسلي والانكليزي ورفاقهما الداعين والعاملين على احياء القومية العربية واستقلال جزيرة العرب . فكان يؤلمه ان يستند هؤلاء الشبان الى بريطانيا وفرانسا لتحقيق اهدافهم ، لاقتناعه بان الدولتين لن تتأخرا عن بسط نفوذهما ومد سلطان استعمارهما عند سقوط الامبراطورية العثمانية ، غير عابئتين بالوعود التى تكون قد تكرمتا بها على الجمعيات العربية . ولكنه من جهة ثانية ، لم يكن راضيا عن السياسة التى اتبعها جمال في سورية ، من شنق كبار رجالاتها وتهجير العائلات العربية الى الاناضول . ثم انه لم يكن جازما بان الظفر سيكون في آخر الامر من نصيب الالمان وحلفائهم ، لا سيما بعد دخول الولايات المتحدة الحرب الى جانب خصومهم . فكان يتألم سرا ولا يبدي رايه جهرا ، خوفا من اغضاب جمال باشا . ولم اطلع على آلامه وآرائه التي ذكرتها فيما سبق الا خلال استراقي السمع لاحاديثه مع والدتي في اواخر سهرات الليالي وانا

تابع في سريري اتظاهر بالنوم . وذات ليلة عاد والدي مبكرا من « البراني » ووجهه متجهم واشار على الجميـــع بالانصراف ، وبقي وحده مع والدتي . اما انا فاسرعت الى السرير وتظاهرت بالنوم . فما مضت مدة قصيرة حتى سألت والدتي زوجها عما به ، فامتلأت عيناه بالدموع وقال لها حزينا متهدجا : « سيشنقونهم الليلة : ابن عمي شفيق المؤيـــد ، والعسلي ، والانكليزي ، والجزائري ، كلهم ستعلق رقبتهم بالحبال ويقضي عليهم بعد ساعات . » فسألته المزيد من الايضاح فقال لها : « كان نوري بك — امين سر الولاية العام وصاحب النفوذ الكبير — عندي واعلمني سرا بأن المحكمة العرفية بعاليه حكمت على اكثر الموقوفين بالاعدام وصدق جمال باشا على الحكم وسينفذ بهم شنقا في الساعـــات الاولى مـــن الغد » . وراح يبكي ويبدي الاسف العميق الذي لم يخالجني اي شك بصحته ، لانه بدا امام الشخص الوحيد الذي لم يكن والدي يخفي عنه شيئا من شعوره وهو امي .

وفي ما انا استعيد هذه الذكرى الاليمة يخطر في البال ما كان يشيعه ابناء اعمامي من الاسرة العظمية والمؤيدية ان لوالدي ضلعا في شنق المرحوم شفيق المؤيد لانه كان خصمه السياسي ، او انه على الاقل لم يتألم مـــن اعدامـــه وظل يوالـــي جمال باشا والحكام الاتراك ولم يستقل من النيابة . واقول في نفسي ما اظلم الانسان بحكمه على اخيه الانسان ، فيما يتعلق بمشاعره المعنوية ومواقفه التي كثيرا ما تحمله اليها دوافع عديدة في مقدمتها الدفاع عن النفس وتجنب اذى الحكام الظالمين .

والواقع ان والدي اضطر للسكوت امام تلك المجزرة . فلا هو — ولا غيره — اعلن اشمئزازه وعدم رضاه عن اعمال جمال باشا . لكنه اتخذ سبيل السعي للتخفـــيف عن بقيـــة المحكومين بالنفي الى الاناضول ، وللحيولـــــة دون سوق الكثيرين من الشبان المعروفين بدمشق الى جبهة الحرب انتقاما لانهم وعائلاتهم اشتغلوا للعروبة . وكانت تلك المساعي يقوم بها والدي خفية لدى جمال باشا او الوالي خلوصي بك وسائر القواد الاتراك . وكان يعلـــم علم اليقين بان الاتراك ، وبالاحرى جمال باشا ، سينتهي الى نفي بقية العائلات السورية ذات الوجاهة ، فلا يبقى بسورية من افرادها احد ، وبان آخر من يطرد من بلده هو والدي وعبد الرحمن بك اليوسف ، آخذا بعين الاعتبار انهما نائبان في مجلس الاعيان والمبعوثان وان لهمـــا

اصدقاء في الحكومة المركزية وفي حزب الاتحـــاد والترقي . فتكون خاتمة المطاف بهما ، بعد ان تكون قد نفذت سياسة تهجير العرب الى الاناضول واسكان البقية الباقية من الارمن في البلاد العربية .

معرفتي الاولى بجمـــال باشا

طلب جمال باشا في مطلع الحرب الى سيدات الاسر الشامية ان تؤلف جمعية نسائية للعناية بالجرحي من الجنـــود ، فتأسست جمعية أسميت باسم « جمعية الامور الخيرية » وانتخبت والدتي رئيسة لها ، وقرينة جمال باشا نائبة للرئيسة ، وبنت عمي قرينة عبد الرحمن بك اليوسف خازنة، وسعاد خانم مردم بك امينة للسر. وانتسبت الى هذه المؤسسة معظـم السيدات والآنسات من اسر دمشق . واتخذت الجمعية مركزا في احدى الــدور التي هــدمت في ١٩٤٦ لتعريض الشارع المسمى الآن بشارع بورسعيـــد . وكنت اذهب مع والدتي واعاون السيدات بتحضير اكياس السكاكر التي كن يعددنها لتوزيعها عـــلى الجرحى الوافدين مـــن جبهـــة الحرب بفلسطين ، مع علب الدخان وغير ذلك من الهدايا . واذكر ان جمال باشا زار مرة مركز الجمعية ومعه انور باشا ناظر الحربية والقائد العام للجيوش العثمانيـــة . وعندمـــا وصل واستقبلته والدتي ، باعتبارها رئيسة ، والى جانبها السيدات والاوانس اعضاء الجمعية كنت الى جانب امي اتطلع الى وجـــه جمـــال باشا المهيب بلحيتـــه السوداء الداكنة وعيونه التي ينفذ منهـــا شعاع الذكاء والاعتـــزاز بالنفس . وسأل امي اذا كنت ولدها ، فأجابت نعم . فمد الي يده فقبلتها كما كان يفعل من هو اكبر مني سنا وارفع مكانة .

وقال « ما شا الله . . ما شا الله . ارجو ان يكون في المستقبل كأبيه » . فانحنت والدتي شاكرة وانحنيت بعدهـــا . وصرت مزهوا بهذه الالتفاتة العظيمة من القائد العظيم !

هذه هي معرفتي الاولى بجمال باشا الذي لقب فيما بعد بجمال السفاح . واجتمعت الالوف في مسرح الزهرة لمشاهدة رواية الفها بعض الشبان ، كالوا بهـــا للباشا انـــواع الشتائم وقذفوه بشتـــى التهم .

والواقع ان هذه الروايـــــة ابرزت علـــى المسرح بعد خروج الاتراك من البلاد العربية . اما في عهد حكمهم بسورية ، فكان جمال باشا يستقبل استقبال الملوك الفاتحين ويكيل له الشعراء والادباء

المديح شعرا ونثرا ، حتى ان احدهم وهو السيد خير الدين الزركلي (سفير السعودية في المغرب الآن) القى امام صورة جمال باشا في حفلة افتتاح جريدة الشرق قصيدة مطلعها :

احنوا الرؤوس ورددوا النظرات
هذا مثال مفرج الكربات

فشبهه بالباري عز وجل . وكانت اكف الجميع تدمى من كثرة التصفيق ..

وقد يرد للخاطر سؤال : كيف يستطيع المرء التوفيق بين تنكيل جمال باشا بالعرب وبين احتفاء وجهائهم به في الاحتفالات ؟ وهل اقتصر الترحيب على طبقة معينة من اهل البلاد ام تناول طبقات الشعب على اختلافها ؟ فاقول بأن كل الطبقات في سورية من طبقة الوجهاء والاغنياء ، اي طبقة الارستقراطيين ، الى الطبقة الوسطى من الموظفين ، بل حتى الطبقة العاملة ، كانت تشترك باستقبال جمال باشا ووداعه في غدواته وروحاته . وكان الناس — ولا يزالون — لا يعتبرون الاشتراك بمثل ذلك تأييدا منهم او دعما لسياسة ما . كانوا يحضرون لمجرد الفرجة ، والا فكيف نستطيع تفسير الاستقبال الرائع الذي قوبل به الجنرال الافرنسي غورو عند قدومه الى دمشق اثر ظفر جنوده في معركة ميسلون ؟ وكيف لا نغطي وجوهنا خجلا مما بدا من بعض المستقبلين ، حين فكوا رباط خيل عربة الجنرال المشار اليه ووضعوا انفسهم بدلا عنها وجروها في الطريق ، بين دوي المصفقين وهتافاتهم ؟

هل بمقدورنا ان نحمل الجهل العام في الشؤون السياسية مسؤولية هذه الميوعة ؟ ان اهالي باريز لم يكونوا في الشوارع عندما دخل اليها جنود الالمان في ١٤ حزيران ١٩٤٠ ، بل اعتصموا في دورهم واغلقوا الستائر الخشبية . لكنهم بعد سنتين بدأوا يتعاملون مع ضباط الجيش المحتل وافراده ويدعونهم ويقبلون حضور حفلاتهم ويشاركونهم افراحهم واتراحهم .

واهل دمشق استقبلوا جمال باشا بالحماسة نفسها التي استقبلوا بها ، فيما بعد ، الامير فيصل بن الحسين عندما انسحب الترك ودخل الانكليز الى سورية ، ثم حين عودته من باريز . ثم كان استقبال الجنرال كاترو بما لا يقل مهابة عن الاستقبالات الشعبية التي كان يقابل بها شكري القوتلي بغدواته المتكررة ، او

غيره من كبار رجالات العرب . ولقد اشاد الامبراطور ويلهلم الثاني ، عاهل المانيا ، بحسن وفادة الدمشقيين له ، حين زيارته في ١٨٩٨ ، واوصى بأن تؤخذ الدروس عن دمشق في كيفية استقبال الملوك . .

ولهذا يحسن بالذين تستقبلهم هذه المدينة بحفاوة وروعة ان لا تأخذهم عاطفة الغرور ، فيظنون انفسهم حائزين على مرتبة خاصة في نظر الدمشقيين . وليعلم الجميع ان اهل دمشق يستقبلون ، ويستقبلون بحفاوة كل من وفد اليها ، عدوا كان ام صديقا . فليمتع القادم (ايا كان مقامه) نظره بمشهد نهر بردى مثلا ، او مأذنة الجامع الاموي ، او باي اثر آخر من آثار دمشق الخلابة ، لا اقل ولا اكثر ، وليسعد بحفاوة الاهلين وليهنأ بها . ولكن حذار من الغرور ومن الاعتقاد انه وحده صاحب هذه الحفاوة والعناية . فدمشق تقدم لزوارها الاستقبالات كما تقدم لهم الماء القراح والطعام الشهي والهواء النقي . فهذه امور عادية . وهي من عادات الاحتفاء بالضيف واكرامه ، انتقلت بالتوارث من جيل الى جيل .

ومن جهة اخرى ، لا بد من التنويه بأن اكثر الحكام الجدد ارادوا ، زيادة في اظهار ترحيب البلاد بالقادم ، ان يحملوا آلاف الفلاحين وغيرهم من الاهلين على ظهور السيارات ، حاملين انواع « الشراطيط » هازجين مادحين . فيقف هؤلاء القوم في الصف على ارصفة الشوارع التي سيمر بها الموكب ، وذلك تحت اشعة الشمس المحرقة صيفا ومزاريب مياه الامطار شتاء ، وهم يرددون العراضات والهتافات التي يتعلمونها من منظمي الاحتفاء . ويظل بهم الامر الى ان يصل صاحب المقام الرفيع ، فمزداد هتافهم وتدمى ايديهم من التصفيق . ثم يلتفتون الى السيارات التي اقلتهم في المجيء فلا يجدون اثرا لها في العودة ، فيضطرون للرجوع خائبين راكبين متن ارجلهم ، قائلين بحق : من خفف راسه تعبت رجلاه . هذا هو حالنا في دمشق وحلب وسائر مدن سورية حتى السنين الحاضرة ، حين جرى استقبال الرئيس جمال عبد الناصر بما لم ينقص عن استقبال من سبقه في دخول دمشق . وكان ذلك بالاضافة الى الحشود التي نظمها عملاؤه في سورية سعيا منهم لحمل الرئيس على الاطمئنان والارتياح لتظاهرات شعبه في الاقليم الشمالي . فيرضى بدوره عنهم، ولو دارت الدائرة على سورية المسكينة . ولربما اراد اصحاب المقامات الرفيعة الآن في دمشق ان يضربوا على الوتر الحساس لدى

رئيسهم، حين تبدى لهم هذا الطبع فيه. من ذلك انه عندما وصل الى حلب لاول مرة وتطلع من شرفة دار المحافظة. فلم يعجبه اتساعها قال لزلمه : « دي ما تسعش اكثر من عشرين الـف نفس .. انا عايز ميدان اكبر. » فعكف الاتباع على التشاور واستنجدوا بالمحافظ. فاشار عليهم بساحة فسيحة تملكها دائرة الاوقاف وليس عليهـا اي بناء ، وعلى جانبها دار السيد سامي صائم الدهر . فاسرعوا اليها كلهم ، وعلى راسهم الرئيس ، واضطروا للقفز معه مرتين من فوق جدار حديقـة قصر المحافظـة لكـي يتجنبوا صعوبـة اختراق الجماهير المحتشدة امامه ، الى ان وصلوا الى الدار المقصودة . ولما صعدوا الى الشرفة تنفس الرئيس الصعداء وقال « ايوه كده .. دي تسع مئة الف ، ودا اللي انا عايزه » ثم امر بسوق الجماهير الى الساحة وراح يكلمهم ثلاث ساعات متواصلـة عن القوميـة العربية ، والاستعمار ، والعملاء ، والاشتراكية الديمقراطية التعاونية ، حتى تعبوا ولم يتعب .

بقدر ما كان جمال باشا شجاعـا مقدامـا ، كان متحسبا للطوارىء ، يقظا على حياته من ان تمسها يد قاتلة . ولا غرابة في ذلك لمن كان مثلـه وترعرع في محيط ثورة الضباط الاتراك الذين حاربوا في ماكدونيا عصابات البلغار ، ثم انتزعوا الملك من السلطان عبد الحميد وهجموا على الباب العالي وهـو مقام الصدر الاعظم ووزير الداخلية وقتلوا وزير الحربية ناظم باشا واجبروا كامل باشا على الاستقالة . وبذلك تم لحزب الاتحاد الترقي الاستيلاء على الحكم في ١٩١٣ والبقاء فيه حتى انهيار الدولة العثمانية في تشرين الثاني ١٩١٨ . فهرب كبار اعضاء الحزب الـى خارج المملكة . غير ان جمعية الطاشناق الارمنية لاحقت كل واحد منهم علـى انفراد . فصرع طلعت باشا في برلين ، والبرنس سعيد حليم باشا في رومـا، وجمال باشا في بلاد الافغان ، وانـور باشا في القفقاس . وبذلك تم للجمعية الانتقام ممن نكلوا بابناء الطائفـة الارمنية في الحرب العالمية الاولى وشردوهم خارج بلادهم .

وفي صيف ١٩١٦ ، طلب جمال باشا من والدي ان يقيم على شرفه مادبة كبيرة . ولم يكن لاجابة رغبته بد ، فدعا الوالي وكبار الموظفين والامراء والوجهاء والعلماء لتنـاول طعام العشاء في صحن دارنا بسوق ساروجه . وفيما كانوا كلهم بانتظار وصول الباشا ،

جاءنا احد السعاة راكضا ينبىء بمقدمه ، فهرع والدي وانا معه الى استقباله على عتبة الباب الخارجي . وكان بينه وبين ساحة الدار البرانية دهليز طويل لا يتجاوز عرضه مترا ونصف المتر ، يحيط به على الجانبين حائطان عاليان . وعندما وصلت سيارة جمال باشا ونزل منها ومد يده للسلام على والدي ، انطفأ النور فجأة في جميع الحي وساد ظلام رهيب . وشعر والدي بأن يد الباشا ارتعشت بشدة . وامسك الباشا بيد والدي ولم يتركها حتى عاد النور بعد دقيقة . كانت وهلة فظيعة ، رأيت فيها وجه الباشا اصفر شاحبا ، ووجه والدي احمر داميا . فالاول خاف من ان تكون ثمة مؤامرة لاغتياله في الظلام المفتعل ، ووالدي خشي ان يتهم بتحضير المؤامرة وهكذا خاف كل منهما وظلت يداهما متماسكتين من الخوف المتبادل . وظل هذا الشعور مخيما على الحفلة كلها رغم التظاهر بالمرح والسرور . وانصرف المدعوون حين ابدى الباشا رغبته في اللعب بالورق حسب عادته . فاعدت الطاولة فورا وادوات اللعب وجلس هو وعبد الرحمن بك اليوسف وبشارة الاصفر واحد معاونيه من كبار الضباط يلعبون البوكر . ولم يكن والدي يعرف اللعب بالورق ، فجلس على كرسي الى جانب اللاعبين يتفرج عليهم . وطال اللعب حتى بعد نصف الليل وانتهى بأن ربح الباشا عددا وافرا من الليرات الذهبية فوضعها في جيبه وصار يخشخش بها كالاولاد الصغار .

لقاء جمال باشا وانور باشا في دارنا

وذات مرة دعي انور باشا وجمال باشا للعشاء بدارنا . وعندما تدمني والدي لتقبيل يديهما سألني انور باشا عما اعمله في اوقات فراغي ، فقلت له انيْ اصدر جريدة فاثار جوابي هذا استغرابه واستغراب جمال باشا . فسألني الاخير : « اية جريدة هذه التي تصدرها ولا يصلني خبرها . ولا هي تقدم للمراقبة؟ » فقلت لهما انها جريدة اصدرها بالاشتراك مع رفاقي في المدرسة ، وهم اولاد جيراني فضحكا وطلبا مني نسخة منها فاحضرتها . فقرآها واعجبا بها ، وانفرجت اسارير وجهيهما عندما قرأا المقالة الرئيسية التي كتبت فيها ان الجميع يتمنون ان يكون لزيارة انور باشا القائد البطل اثر طيب في تقريب قلوب العرب والاتراك . الا ان جمال باشا قال لي : « لا تستعجل في الاهتمام بالسياسة . فهي مهنة شاقة . » وضحك الجميع .

وفي الواقع ، كنت ولعت منذ مدة باصدار جريدة صغيرة ذات اربع صفحات بقياس ٢٢ × ٣٠ سانتمترا ، اطبعها على الجلاتين .

وكنا نوزعها على المشتركين وهم اربعة : والدي ، ومصطفى بك سليمان ، وعاطف افندي فوق العادة ، وحسني بك سليمان بك ، وهؤلاء آباء رفاقي المشتركين معي في تحرير الجريدة واصدارها . وكنت اراس التحرير واكتب المقالة الرئيسية . وكان انور فوق العادة يتولى كتابة باب القصص البوليسية التي ننقلها الى التركية من روايات ناث بنكرتون وجاك ملتون . وكنت ارسم الرسوم باعتباري امهر الرفاق في الرسم . وكنا نتقاضى بدل الاشتراك بالنسبة لمقدرة المشترك المالية ، ونعنى بالتحرير والطبع ، ونقضي اوقات فراغنا في هذه المهنة حتى يأتي يوم الاصدار الاسبوعي . فنشتغل كلنا بالطباعة ، وذلك بتحضير الجيلاتين ونسخه ثم صبه في صينية خاصة . حتى اذا جمد الصقتنا عليه الصحيفة المكتوبة بحبر خاص ، ثم قلبناها ووضعنا على سطح الجيلاتين اوراقا بيضاء ، الواحدة تلو الاخرى ، فيظهر عليها النص المطبوع .

وكم اتمنى لو بقيت عندي نسخة من هذه الاوراق ، كذكرى لتلك الايام الرغيدة ، وكمثال لعقلية ذلك الجيل .

وذات مرة عقدت مؤتمرا صحفيا في ١٩٥١ ، فاحببت مداعبة الصحفيين . فقلت لهم اني مثلكم صاحب جريدة ورئيس تحريرها ولما اصروا علي باجلاء الامر ، ذكرت لهم هذه القصة ، فضحكنا جميعا . وساد الجو مرح ازال ما كان فيه من العبوس والانكماش .

مضت سنوات الحرب دون ان يكترث بها الاهلون. كانوا لا يشعرون بها الا من حيث الغلاء ، ومن حيث افتقاد اكثر الاسر الى الازواج والاولاد الذين ذهب بعضهم الى الجندية وهرب بعضهم الآخر منها واختبأ في القرى . اما الغلاء فسببه انقطاع استيراد البضائع والمواد التي كانت تستحضر من الخارج ، كالرز — وبلغ سعر الرطل منه ليرة ذهبية — والسكر وزيت الكاز والقهوة والشاي . وقد ارتفعت اسعار هذه الاصناف ارتفاعا جنونيا وحرمت منه الطبقات الفقيرة ، فاستعاضت بالدبس عن السكر ، وبالبرغل عن الرز ، وبالشعير المشوي عن القهوة ، وبالبابونج عن الشاي . اما القمح فقد بلغ سعر الطن نحو ٢٠٠٠ ليرة سورية او اكثر ، وذلك بسبب وضع الحكومة يدها على جميع الانتاج ،

واقتصار المتداول بالسوق السوداء على ما كان يهربــه الزارع او يسرقه المتعهدون .

واصبح الخبز المقدم للمستهلكين خليطــا من الشعير والذرة والكرسنة . وقس على ذلك ارتفاع اسعــار بقية المستهلكات . فصفيحة زيت الكاز بلغ ثمنها ليرة عثمانية ذهبية . ولم يكن ، بالطبع، بمقدور التجار ان يستوردوا مــن الخــارج شيئا لان البلاد كانت محاطة بالاعداء ، برا وبحرا ، ولم يكن لها منفذ سوى المانيا . ولكنها كانت هي بدورها محصورة مثلنا . ولذلك اصبح الضيق شديدا عند الاهلين من هذه الجهة .

اما الجندية او ما كانوا يسمونه « سفر بلك » اي التعبئــة العامة ، فلم يسلم منها شاب من السابعـــة عشرة حتى الخمسة والاربعين . وكانت القيادة العسكرية لا تبقي في سورية جنودا من ابنائها ، بل تسوقهم الى جبهة سيناء او جبهة الدردنيل او جبهــة القفقاس ، وهكذا استشهد منهم الكثير ، وجرح واسر الاكثر . على ان نسبة الهاربين من الجندية وكانوا يسمونهــم « فرارية » اي فارين ، فلا شك انهم كانوا اكثر ممن التحق بها . ولجأت الدولــة بسبب ظروفها المالية العسيرة الى قبول البدل النقدي مالا او قمحا . فسارع الموسرون الى انقاذ حياتهم ورفاههم ودفعوا ما فرض عليهم وبقوا خارج المعركة . ولا ريب في ان الراي العام لم يكن يعتبر نفسه متضامنا مع الاتراك في حربهم . وزاد في هذا الشعور العدائي لجوء جمال باشا الى شنق كبــار رجالات العــرب وتهجير اسرهم الى الاناضول . ولم يكن في دمشق سوى محطة واحدة لتوليد الكهرباء ، تعمل على شلال مياه بردى بالتكية . وظلت هـــذه المحطة تغذي العاصمة حتى ١٩٥٨ حين استغني عنها وحولت الميــاه الى الشلال الكبير في سوق وادي بردى .

وكانت هذه المحطة على الرغم من ضآلة انتاجها ـــ نحو الف كيلو وات فقط ـــ كافية لسد حاجات المدينــة في التنوير وفي تسيير القاطرات الكهربائية الى المهاجرين والميدان ، قبل الحرب . غير ان غلاء زيت الكاز اضطر الناس الى تمديــد الكهربـــاء الى دورهم فازدادت المقطوعية منه ، بحيث لم تعد محطة التكية قادرة علــى تلبية الاحتياجات المتزايدة . ولذلك عمدت الشركة الى قطع التيار عن كل حي مرة في الاسبوع ، والى تخفيض معدل الفولتاج ،مما ادى الى تخفيض سرعة القطارات تخفيضا كبــيرا . ومن جهة ثانية لــم

يكن السفر الى بيروت او لبنان مما يبهـج النفس ويسرها ، اذ ان الجوع والفاقة نزلا الساحل وحصدا مئات الناس . ولم تعد ترى في الشوارع الا الاولاد الصغار ، وكانهم هيـاكل عظمية يغطيها ثـوب فضفاض ، يسعون وراء لقمة ياكلونها ويفترشـون الارض ويلتحفون السماء . فكانت مناظر تفتت الاكبـاد ، خصوصا حين لا يستطيع الانسان تلبية النداءات كلها واشباع الراكعين المستنجدين .

كان ذلك بسبب تعمد الاتـراك القضاء علـى اهل لبنان المسيحيين الذين كانوا في زعمهم اعداء لهم يدعون فرانسا لاحتلال البلاد ورفع يد تركيا عنها . ولم يعد غريبا بعد هذا كله ان يستقبل مسيحيو لبنان الجنود الافرنسيين الذين نزلوا في بيروت في ١٩١٨ بكل فرح وابتهاج . واما المسلمون ، فلولا قيام حكومة الامير فيصل في الشام وتعلقهم بها كدولة مسلمة ، لكانوا اشتركوا كلهم مع الطائفة المسيحية في الترحيب بفرانسا . على ان بعضهم التزم هذا الجانب وساير الانتداب وظل بوفائه له حتى انهارت معالمه .

قضيت مع عائلتي صيفـي ١٩١٦ و ١٩١٧ في لبنان ، حيث نزلنا في فندق شاهين بعاليه ، وكان احسن فنادقها اذ ذاك . كان مركزه دار آل بسترس ، ومؤلفا من بناء واسع يحوي بهوا فسيحا على جوانبه الثلاثة عشر غرفة للنوم . اما قاعة الطعام ففي الطابق الاسفل وسط حديقة واسعة تطل على بلدة عاليـه وجبال لبنان وسهل الشويفات ومدينة بيروت والبحر . وحول الحديقة ، وبقسم منها ، حرش من اشجار الصنوبر الباسقة . ولا ريب في ان قضاء الصيف في لبنان ينعش الانسان ويوفر لـه استنشاق الهواء العليل الناعم واغتراف الماء الزلال البارد . واني احب ، اكثر ما احب في الجبل ، وقت الظهر ، حين تحيط به مجموعات من الغيوم التي يطلقون عليها اسم « غطيطة » فيمتلىء الجو ببخار الماء الرطب وتخف حـدة اشعة الشمس ، فيتمدد الانسان على الارض تحت اغصان الصنوبر الظليلة يشم العبق برائحته الزكية الخـاصـة . وهكـذا يخلو البال ويسبح الفكر في الخيال ، دون مكدر او مزاحم .

واعتدت منذ صغري ان اتسلق الحرج المطل على قرية سوق الغرب . وظللت حتى الآن اذهب اليه كلما زرت لبنـان صيفا . فللانسان ارتباط بمكان ما يبقى وثيقا طيلة حياته ، تزيـد في وثوقه ذكريات تتكرر حوادثها في المكان كانها مكتوبة في لوح الازل . وقـد سحت كثيرا وجلت في انحاء اوروبا وآسيا وافريقيا وامريكا وشاهدت

اجمل مدنها ومواقعها الطبيعية ، ولكنني لم اشعر بالسعادة بكل ما تتضمنه من معنى كالتي لمستها ولا ازال المسهـــا واتخيلها في هذه البقعة الحبيبة .

في صيف ١٩١٦ اقام المرحوم عبد الرحمن باشا اليوسف حفلة قران ابنتيه وجيهه وشفيقه على ولدي اخيه محمد علـــي ومنيف . ودعتنا والدة العروستين ، وهي بنت عمـــي ، لحضور الحفلة . فذهبنا كلنا ، اعني والدتي وعمتي وشقيقتي وانا بالقطار الى قرية عاليه . ومنها بالعربات الى سوق الغرب ، حيث دار آل اليوسف . وكان شقيقا العروستين ، محمد سعيــد وعمر ، وخالاهما ، جواد وتحسين ، في جملة المدعوين . فقضينا اسبوعا كله مرح وسرور . واطربت المدعوات المغنية المشهورة منذ ذلك العهد السيدة بديعة مصابني ، وكانت في عز صباها . ونزولا عند قواعد التحجب ، لم يرافق المغنية تخت من الموسيقيين الرجال ، بل ثلاث نساء عزفن على العود والقانون وقاما بوظيفة الكورس . ولم تقتصر بديعة على الغناء ، بل اتحفتنا بما كانت تجيده وهو الرقص الشرقي . فابدعت بالحركات والالتواءات المغرية . كانت حقا محط الانظار والاعجاب ، وخاصة عندنا نحن الشبان الناشئون. ولم تخلص المطربة الفاتنة من ملاحقة كبير الشبان فينا محمد سعيد ، او من والده رحمه الله. ولا ادري اذا اقتصر الامر على ما شاهدناه من غمز ولمس ، ام تعـدى ذلك الى الجدّ . فالله اعلم .

اما حفلة الزواج نفسها ، فتتالت وقائعهـــا حسب الاصول المتعارف عليها . فدخل العريس يحيط به والده ووالدته . وتقدم الى منتصف البهـــو الكبير وامسك بيد عروسته وسار معها الى المقعدين المخصصين لهما . ثم دخل العريس الآخـــر ، يحيط بـــه شقيقا العروس باعتبارهما اولاد عمه وباعتبار ان والديه كانا في عالم الاموات ، وسار كذلك مع عروسه الى المقعديـــن الآخرين . وجلس الى جانبي العرسان المرحوم عبد الرحمن باشا ، فأخوه احمد بك وسائر المدعوات.وكان من المألوف الا تحتجب النساء عن اقرباء العريس ليلة القران . وراحت المطربة بديعة مصابنـــي « تجلو » العرسان باغنية :

اسم الله اسم الله يـــا عروسة

يـــا ورد جـــوا الجنينـــة

زهر القرنفــــل يــا عروســـه
يــا ورد خيــم علينــــا

قومي العبــي بقميصـــك
وكــــل العزبان على كيسك

اللـــــه يخليك عريســك
يــا حـــلاوه عسليـــة

قومــي العبـي وسلينـــي
سكــران وعايــف دينـــي

عطشـــــان وباللـــه اسقينـــي
من روس شفايفــك ميــه

قــومي العبي بعــرق المـــاس
يــالي حــارس علــى البــزاز
الله يجـــيرك مـــن عين النــاس
يــا حـــلاوة عسليــة

قومي العبي بحبل اللولــــو
وافردي شعرك علـــى طولــه
خليهــم يحكـــوا ويقولـوا
علــى جمالـك يا زينــة

قومـــي العبــي بحلقاتــك
اللـــه يخلــي اهلياتــك
ديري بالك علــى حماتــك
يــا حـــلاوة عسليـــة

وتسمى هذه الاغنية « جلوة العروسة » . وبينما كانت المطربة تلقيها كانت المدعوات يرمين في السلة التي تضعها امامهــا الليرات الذهبية وانصاف الليرات . وهي الاكرامية التي تتناولها المطربة يوم احيائها احدى حفلات العرس ، وذلك عدا الاجرة التي تتقاضها من رب البيت .

وكانت زغاريد النســاء تملأ اجواء البهو وتهز اركانـــه . وكان صاحب الدار يتصدر هذا الجمع كانه هرون الرشيد في حرمه ، ينتقل بانظاره الى السيدات والاوانس الجميــلات ويطلق الضحك بقهقهته العالية ، والمرح يسود الدار كلها . وبعد ان انتهـــت الجلوة ادت بديعة بعض الرقصات المهيجة واشجت مسامعنا ببعض الاغنيات الخفيفة

الرائجة في ذلك العام وكانت تردنا من مصر التي تربع ملحنوها على عرش الموسيقى العربية منذ اكثر من نصف قرن .

وكان جميع الناس الحاضرين يصفقون للمغنية ويستزيدونها ويستعيدون اغنياتها الا العرسان الاربعة . فهم لم يستطيعوا اخفاء تبرمهم من طول الحفلة ورغبتهم في الذهاب الى الغرفتين المعدتين لهم ..

وكان رب البيت ايضا يتشوق الى انهاء هذه الحفلة النسائية حتى يتسنى له اخذ المطربة وجوقتها الى الدار الملاصقة ليمكث هو فيها مع ضيوفه الرجال ساهرين حتى الصباح .

وبعد انتصاف الليل انتهت الحفلة الغنائية ولجأ العرسان الى غرفتيهما . وتوجهت المدعوات الى المقصف الفاخر المعد في قاعة الطعام الفسيحة . وتلهت السيدات بتناول ما لذ وطاب من المآكل التي لم تكن تتناسب قط مع الحرمان السائد في البلاد ، اذ كان صاحب الدعوة اوسع الدمشقيين ثروة وجودا .

على ان رفيقنا محمد سعيد لحظ خطة والده باقتناص المطربة التي اخذها لدارته الخاصة،فأشار علينا باللحاق به.فسبقنا المتآمرين الى الدار الملاصقة وجلسنا في البهو الكبير مع من كان فيه من الاقارب الحاشية . ولما جاء عطوفة الباشا متأبطا ذراع المطربة تجددت الحفلة غناء ورقصا . وامتلأت كاسات العرق وافرغت ثم امتلأت مجددا . وظل الحال على هذا المنوال حتى تسللت اشعة الشمس خلال الستائر المدلاة على الشبابيك . فلا ابو سعيد مل ولا بديعة كلت . لكن الحاضرين تعبوا ونعسوا فصاروا ينسحبون الواحد تلو الاخر ، كل الى غرفته ومأواه ، تاركين الباشا مع الراقصة منفردين .

في شهر آذار ١٩١٨ قامت الجيوش البريطانية ، تساندها قوى الامير فيصل ، بهجوم جديد على الجبهة . وسرعان ما استولت على الناصرة واحتلت مركز القيادة التركية العامة . واستمرت في التقدم بدون توقف ، داحرة امامها القوات التركية الهاربة من وجهها .

واشتد الخطر وشعر الجميع بقرب دخول الانكليز الى دمشق. وذهبت والدتي لزيارة عقيلة الوالي وما لبثت ان عادت ، والاهتمام

باد على محياها ، وقالت لنا : « هلموا .. فنحن مسافرون غدا الى الاستانة ! » وراحت تجمع الثياب في صناديق السفر . ولما سألناها المزيد من الايضاح قالت ان امراة الوالي قالت لها انها مسافرة في القطار صباح الغد لان القوات الانكليزية هاجمت الجبهة بشدة وهي على وشك احتلال دمشق . فطلبت والدتي منها السماح لنا بمرافقتها في قطارها الخاص فتقبلت ذلك بكل ارتياح . فعارضت شقيقتي الكبيرة فكرة ترك البلد وما نملك فيه من اراض واملاك دون اي سبب يضطرنا للابتعاد ، واقترحت استشارة والدي في الاستانة ببرقية قبل الاقدام على الرحيل . فاجابتها والدتي بكل عصبية بأن لا وقت للاستشارة ، وبانها مسافرة على كل حال مع خالد ونعمت (انا وشقيقتي الصغرى) فيلمش من يريد وليبق من يريد . وقالت عمتي حورية ، رحمها الله ، « انا معك اينما رحلت . » وكانت بطبيعتها مسايرة لا تعارض والدتي بشيء . فاضطرت شقيقتي للامتثال . ورحنا نتعاون في جمع اثاث البيت في قاعة واحدة وتغطيته بالقماش خوفا عليه من التلف ..

والدتي تقرر الهرب الى الاستانة قبل احتلال دمشق

وكان لدى والدتي ما يقرب من ثمانية الاف ليرة ذهبية فاحضرت اكمارا من الجلد ووضعت في كل منها الف وخمسمائة ليرة ونيف . وجربت ربطها على بطن كل واحد منا فنجحت التجربة . وفي الصباح الباكر انهينا حزم البستنا . وربطنا الاحزمة الذهبية وتوجهنا الى محطة البرامكة حيث كان القطار الخاص ينتظر وجاءت قرينة الوالي وبنتها ودعتنا للركوب في صالونها ، فاذا هو صالون اعد ليكون مستشفى سيار . فلم يكن فيه سوى مقاعد حديدية وفي وسطها مقعد متحرك للعمليات . فلم ترتح والدتي لفكرة السفر بهذا الشكل وسألت عما اذا كان ثمة مركبة اخرى من مركبات السفر العادية ، فاجابوها بالايجاب . . فانتقلنا الى غرفتين عاديتين من الدرجة الاولى .

وكان ذلك في الاول من نيسان ١٩١٨ . وما برحنا دمشق حتى اشتدت الزوابع وهطلت الامطار بشكل عجيب . وعندما وصلنا الى الرياق قبل المساء وهممنا بالانتقال من قطارنا الى القطار العريض الذي كان سياخذنا الى حلب ، جاءنا الضابط المرافق لحرم الوالي واعلمنا انه حصل حادث ليلة امس بين رياق وبعلبك ، حين تصادم قطاران فتمطل الخط ، واصبحنا مضطرين لانتظار رفع القاطرات المعطلة عن الخط . ثم دعانا باسم قرينة الوالي للذهاب

معها الى المعلقة حيث ننتظر في القطار عودة خط حلب للسير . فشكرته الوالدة وابلغته رغبتها في الانتظار في القطار الحديدي، في الرياق نفسها .

وما اظلمت الدنيا حتى بدا الخوف يتسرب الى قلب والدتي وعمتي وشقيقتي . وندمت والدتي على عدم اللحاق بقرينة الوالي وصارت تحسب الف حساب لبقائنا وحدنا بدون حارس في محطة تعج بالجنود والضباط من مختلف الملل . وزاد في خوفها وجود الليرات العثمانية ، فجمعت الاحزمة الذهبية وخبأتها تحت المقعد وغطتها بما وقع تحت يدها من الجرائد .

وقد فرحت من خلاصي من الحمل الذي اثقل كاهلي رغما عن كونه من الذهب الوهاج ، وانتحيت جانبا من المقعد ورحت اغط في النوم بينما اخذت والدتي وعمتي تقرآن الاوراد المختلفة والادعية المباركة لينجينا الباري تعالى هذه الليلة . وعندما افقت مع الصبح كانت والدتي لا تزال ساهرة علينا وشفتاها تتمتم الاوراد بصعوبة. رحمها الله رحمة واسعة واسكنها فسيح جناته .

وقرب الساعة الثامنة صباحا جاء ابو امين ، وهو الرجل العجوز الذي ارفقناه بنا ليحرسنا ويخدمنا طيلة الطريق . فاشبعته الوالدة لوما وتأنيبا على تركه ايانا منذ وصولنا الى الرياق. فاعتذر بانه اضاعنا ولم يستطع اللقاء بنا في ظلام الليل . فقلت نعم الحارس ! وبعد هنيهة جاء ضابط وحيا والدتي تحية عسكرية وقال لها : « لقد هتفت لنا حرم الوالي باشا بان نستفسر عن صحتكم وراحتكم . وهي تدعوكم للمجيء الى زحلة لتناول الطعام سوية على مائدة القائمقام ، ثم تعودون سوية في المساء ، حين يبارح القطار محطة الرياق بعد ان يكون الخط قد اصلح . » فشكرت والدتي الضابط وابلغته قبول الدعوة . فاسرعنا الى قطار خاص اعد لنقلنا. ووصلنا الى المعلقة فوجدنا في محطتها مركبتين نقلتانا الى فندق قادري ، حيث كانت قرينة الوالي بانتظارنا . وكانت مأدبة عامرة حضرها القائمقام والمرافق ولفيف من السيدات، منهن قرينات الموظفين والضباط ومعهن قرينات بعض وجهاء زحلة والمعلقة . وقرب المساء عدنا في القطار الى الرياق فوجدنا قطار حلب جاهزا . فركبناه وراح يقطع البراري سراعا كأنه يريد تعويض ما فات من تأخر .

وخلال الرحلة الى حلب ، بدأت والدتي تفكر بالصعوبات التي

حسبت حسابها بعد حادثة الرياق ، وما كانت خطرت في بالها قبل مبارحة دمشق . كيف لا ، وسكة الحديد لا تصل الا الى محطة الاصلاحية ، وهي تبعد عن حلب اكثر من اربعين كيلو مترا ، ومن هنالك وجب ركوب العربات التي تجرها الخيل والسير الى محطة ثانية فيمدة لا تقل عن يومين ، ثم ركوب القطار حتى الاستانة؟ فعدا طول مدة السفر بمجوعها ـ ما يقرب من عشرة ايام او احد عشر يوما ـ فقد حسبت والدتي حساب التنقل المتكرر من المركبات الى القطارات وقضاء الليل في احد الخانات او في المركبة . وعاودها الخوف على ارواحنا وعلى الليرات الذهبية . وبعد تفكير عميق قررت في نفسها ان تمكث في حلب . فلما وصلنا اليها وبتنا ليلة في فندق بارون ، زارت قرينة الوالي وابدت لها مخاوفها واعتذرت لها على عدم الاستمرار على السفر معها . فتقبلت الخانم عذر الوالدة وودعتنا والدموع تتلألأ في عينيها الجميلتين وذهبت في سبيلها .

وابرقت والدتي عندئذ لوالدي واخبرته بقدومنا الى حلب ، واستشارته بالبقاء فيها او بالاستمرار الى الاستانة . وبعد ثلاثة ايام ورد الجواب بالعودة الى حماه وانتظار وصوله اليها .

وكانت الصحف نشرت الانباء الاخيرة الواردة من جبهة فرانسا، حيث قام الالمان بهجوم كاسح اضطر القيادة المشتركة الافرنسية ـ الانكليزية على مواجهته بكل ما لديها من قوى ، حتى انها لجأت الى طلب النجدات من جبهة فلسطين ، مما ادى الى توقف الهجوم البريطاني وزوال خطر احتلال سورية . فقررت والدتي البقاء في حلب اسبوعا ، ثم العودة الى حماة . ومكثنا في الفندق طيلة هذه المدة . ولما عزمنا على السفر وطلبنا من الفندق حسابنا لندفعه ، اشار علينا ابن عمنا صبحي العظم بان نسدده بتنكتين من السمن ، كنا جلبناهما معنا . ورضي صاحب الفندق فلم تكلفنا في الفندق مدة عشرة ايام سوى هاتين التنكتين من السمن .

وعندما وصلنا في القطار الى محطة حماه ، ابلغنا اولاد عمنا الذين حضروا لاستقبالنا بان نظام الحجر الصحي مفروض على كل قادم ، وبان علينا أن نبقى اربع وعشرين ساعة في الخيام المنصوبة فوق المقبرة .

فطاش صواب والدتي ورفضت ان تنام ونحن احياء بين الاموات، واستدعت مدير المحطة . فاعتذر هذا لان لا سلطة له وعرض علينا

تضاء الليل في غرفته . وبعد الاخذ والرد مع القائد العسكري قبلنا ضيافة رئيس غرفة المحطة وبتنا في غرفته . امــا شقيقتي الكبــيرة فاندست بين صفوف السيدات اللاتي جئن للسلام علينا وذهبت معهن الى البلد .

وفي الصباح نزلنا الى البلد مشيا على الاقــدام بسبب فقدان الخيل والمركبات وحللنا ضيوفا في دار ابن عمنا خالد بك . فوصل والدي بعد عشرة ايام وحــل بدوره في ضيــافة ابن عمه ولكن في « العتاق » القسم المخصص للرجال . وكـــم فرحت بالهدايا التي جلبها لي والدي معه من فيينا ، من ربطات عنق واقمشــة وعطورات ومعدات للتصوير ، مع المواد الكيمائية اللازمـــــة لتحميض الافلام المخترعة حديثا والمصنوعة من الجيلاتين ؛ بدلا عن الزجاج . وهذه لم يكن استعمالها في سورية بعد معروفا . وذلــــك بالاضافة الى الكتب الافرنسية والتركية التي كنت اوصيتـــه عليها ، ما عدا كتابا مترجما عن الافرنسية وعنوانه « كوزل دوست » اي « الصديــق الجميل » لمؤلفه غي دوموباسان . ولما سألته قال لي : « لا شأن لك بكتب كهذه . » ولم يبح لي بانه استحضره معه وقراه في رحلته وقرر اخفاءه عني لانه يتضمن قصة باريزية خليعــة لم يشأ السماح لي بمطالعتها .

واعود بالذكرى لما كان يبذله الاهل في ذلك العصر من عناية في تربية اولادهم وابعادهم عن مهاوي الفسق والفجور ، فلا يجيزون لهم ارتياد المقاهي او مشاهدة الروايات التمثيليـــــة او حتى الافلام السينمائية خوفا عليهم من ان تسوء اخلاقهم وان يتعلموا الرذيلة . حتى ان الروايات المطبوعة كانت تابعـــة لرقابة الاهل قبل وصولها الى ايدينا. وهذه الحال لا سبيل الى مقارنتها بما نحن عليه الآن من انحلال في الاخلاق والعادات . وابرز دليــل هو مــا نشاهده في السينما من مناظــر العراء والتهيــــج الجنسي الناشيء عن القبل الطويلة الامد والالتصاقات الجسمية التي تتسابق اكثر الممثلات الى التفنن بها اجتذابا للشهرة وزيادة في الكســب .

ولا ريب اننا ــ ولا اقصد بذلك اهل سورية فحسب بل اغلبية البشر ــ عائدون القهقرى الى العصور السالفة ــ كعصر رومــا مثلا ــ من حيث التحلل من الحشمة والاسترسال في الخلاعة . ولقد وصلت الينا هذه العادات ضمن ما اتحفنا بــه الغرب ، منذ وطــأت

فرانسا هذه البلاد . ولئن احتوى ذلك كثيرا مما اخترعه الغرب من الات وادوات علمية وصحية وفنية وزراعية ، وكلها مجلبة للتقدم والرقي والسعادة والهناء الا ان ما رافقها من العناصر غير المادية ، كالرقص والبهرجة والخلاعـة والتحلـل الخلقي ، بالاضافة الى الكوكايين وغيره من المخدرات ، كان كله سموما روحية ومادية ، حولت خطانا عن صراطهـا المستقيـم ، وطورت اخلاقنا واضاعت توازنها الدقيق ، وبدلت عاداتنا الحسنة وغيرت وجهة نظرنا الى الامور . فما كنا نستعظمه لم نعد نستكره ، وما كنا نستهجنه لم نعد نراه نابيا غريبا . فيكذب احدنا ، ولما تنفضح كذبته يضحك ويقول : « مزاح ! » ، ويسرق فلا يحرس جيرانه جيوبهم ، ويرتكب الموبقات فيقال عنه : « شاب اشتهى ! » ويخون بلده فيقال : « لعل لـه عذر ! »

اما فضائل الاستقامة في المعاملة ، والصدق في القول ، والوفاء بالالتزام ، والحفاظ على العهد والامانة ، فكأنما هي عادات اكل الدهر عليها وشرب وطواها كما طوى فضائل الشجاعة والكرم والمروءة التي كان الاقدمون يتفننون بها في قصائدهم العصماء .

وما نراه مستشريا في بلادنا من تدن في سوية الاخلاق نراه، على كل حال، في جميع بلاد العالم، اللهم الا في التي لم تدخلها المدنية الحاضرة، كمجاهل افريقيا وآسيا وامريكا واوقيانوسيا. ونحن نتساءل اذا كان حقا ما نعتقده من التحام الحضارة الحالية مع تدني سوية الاخلاق. اننا نرى في الجيل الحاضر من الطبائع والاخلاق والميول والعقليات والاتجاهات غير ما نراه في الجيل الوسط بينه وبين جيلنا . فالذين ولدوا قبل الحرب العالمية الاولى هم غير من ولدوا بين الحربين . وكذلك من ولدوا بعد الحرب العالمية الثانية هم غير هؤلاء واولئك ، فهل للحروب اثر في تبدل تلك الروح ؟ لا ريب ان ما تسببه الحرب من تشتت العائلة بالتحاق الزوج بالجيش المحارب واضطرار الزوجـة لتدارك اود حياتها بنفسها والعمل للابقاء على اولادها وما ينتج من جراء ذلك من صداقات جديدة واتصالات خارج الدار الزوجية — لا ريب ان هذه العوامل لها اثرها في الحياة العائلية والاخلاق العامة. والى جانب ذلك يجدر ان لا ننسى اثر القتال والتخريب في ما اصاب المدن فقتل من قتل ، وشوه من شوه ، وصار شريدا طريدا من داره ودياره الكثير من افراد الشعوب .

أعجيب بعد ذلك ان تتولد في النفس غصة ضد البشرية اطلاقا؟ أغريب ان يلجأ المنكوب في اهله ودياره الى الكذب والاحتيال لكسب قوت يومه والبقاء على وجه البسيطة ؟

واولئك المطرودون من ديارهم ، المشردون في ارض الله الواسعة جماعات وفرادى بالمئات والالوف ، العائشون الآن بفضل ما تجود به المنظمات الدولية من الفضلات ، المفترشون الارض والملتحفون سماء خيمة تلعب فيها الرياح غربا وجنوبا ، الهاربون من المطر يتسرب من ثقوب الخيمة الى حيث النجاة من البلل ، المتلاصقون بعضهم ببعض كصغار الطيور سعيا وراء الدفء ، الناظرون الى بزوغ الشمس نظر الامل بيوم اسعد ، الآسفون في المغيب لانقضاء النهار دون جديد .. هؤلاء واولئك المقيمون نساء ورجالا واطفالا في غرفة واحدة بمسجد او بمدرسة ، انطلب منهم جميعا ان يحتفظوا بطهارتهم وباستقامتهموبصلاح نفوسهم وبما كنا نعتبره في العصر التاسع عشر متلازما مع الحضارة الاجتماعية او الدينية من مقومات واسس ؟

صحيح ان البشر ليسوا كلهم لاجئين ، وان كثيرا من الذين لم تصبهم الحرب بأذى ، بل عادت عليهم بربح وبتضخم فيثروتهم ، لا تختلف طباعهم واخلاقهم الآن عن طباع اولئك التعساء الذينوصفنا حالهم . فهؤلاء لم يشردوا ولم تحرق دورهم ولم تخرب معاملهم ، وهم باقون في القصور المنيفة التي كانوا ينعمون بها قبل الحرب ، فما الذي دعاهم وحملهم على التشبه باولئك المعدمين خلقا وطباعا ونظرا الى الامور ؟ لا ريب ان الفاقة والجوع بعيدان عنهم ، وان التفكير في كيفية تدارك لقمة الغد لا يشغل بالهم ، وان المدارس التي يرسلون اولادهم اليها لا تزال تعنى بتربيتهم وبتثقيفهم على الوجه الاكمل . لكن الشيء الذي لا ريب فيه هو اننا نعيش كلنا على وجه البسيطة كاننا في صندوق محكم فلا يوجد جرثوم في بلد ما حتى ينتقل بسرعة الطيارة الى البلاد المجاورة ومنها الى سائر انحاء العالم . خذ بيدك قدحا فيه بعض الجراثيم واملأ القدح ماء قراحا ، تجد ان الماء لا ينظف القدح من نقطة الجراثيم . وخذ بيد اخرى قدحا مملوءا بالماء المقطر والق فيه نقطة من الجراثيم ، تجد الماء قد تلوث كله . وهكذا ، فعندما تتجاور او تتلاقى الفضيلة والرذيلة كانت الغلبة للأخيرة ، بدون اي ريب .

وكيف تريدون ان يعيش بلد في جو من العصمة والتعفف والى جانبه بلد آخر طغت عليه معالم التطور في الاخلاق والعادات ؟ هل يستطيع القاطنون في البلد الاول ان يحموا انفسهم مما يدخل اليه على امواج الاذاعات والتلفزيون ، وبالصحف والكتب والسينما والاغاني والصور والاحاديث ، وبالعدوى من القادمين من السواح او بما يشاهده ابناء البلد نفسه في غير بلاده فيرجع به الى مسقط راسه ؟

وما نهاية هذا الانزلاق ؟ هل يتغلب رجال الدين بنصائحهم على هذا التيار ؟ ام ان حربا ذرية ستقضي على هذه البشرية فتنقرض ثم تعود الخليقة في دورة جديدة ؟ هذا ما يخرج عن قدرة قوانا العقلية التنبؤ به . فلنترك للاقدار ان تتفاعل .

تركت الحديث عن ذكرياتي وسرحت في بحر الخيال . ولنعد الآن لما كنا بصدده . فقد عدت مع والـدي الى دمشق ثم لحقتنا والدتي مع سائر افراد الاسرة. وقضينا ذلك الصيف في قرية متين باحدى الدور المعتبرة آنئذ احسنها ، وهي مؤلفة من ثلاث غرف نوم ومطبخ . ارضها تراب وسقفها جذوع حور تعلوه طبقة من الشوك فوقه تراب مصقول . وبالطبع لم تكن الدار حاوية على اية وسيلة للترف ولا حتى للراحة . فلا كهرباء ولا ادوات صحية . ومع ذلك فقد انقضت الاشهر الثلاثة والمرح سائد في حياتنا . فننزل الى حديقة السيد الحامد ونمضي فيها الوقت حتى الظهر بانواع التسليات في ظلال غيضة السفرجل الوارفة على ضفاف ساقية الماء البراق . ثم نعود ظهرا لتناول الغداء والاستراحة حتى قبيل العصر . فنذهب الى كروم العنب والتين ، ثم نعود المساء فنسهر على لعبة البرجيس، بينما والدي يقرا الجرائد التركية التي كانت تصله من الآستانة . وفي الاشهر الثلاثة التي قضيناها في متين لم انزل الى دمشق سوى مرة واحدة . ذلك ان مركبتنا ما كانت توصلنا من متين الى دمشق بأقل من ثلاث ساعات . اما العودة فكانت تستغرق خمس ساعات بسبب علو متين بالنسبة الى دمشق .

*

وفي اواخر ايام متين بدا الجيش البريطاني هجومه على جبهة فلسطين ، فعجلنا بالعودة لدمشق ، وسرعان ما اشتدت وطأة الهجوم وعاد خطر سقوط المدينة يسود الاجواء ، وذات يوم عاد والدي من مقابلة الوالي متجهم الوجه ، فسألناه الخبر فاعلمنا بان

الوالي سيسافر في الغد الى العاصمة ومعه الموظفون الاتراك ، ولن يبقى هنا سوى قائد الجيش الذي ينسحب بدوره بعد تأمين ارتداد القطعات العسكرية مع معداتها وذخائرها .

وعادت الينا ذكرى هروبنا الى دمشق في ربيع العام نفسه وسفرنا الى حلب ، وسألت والدي عما سيعمل فقال: « اني مسافر مع الوالي . اما انتم فتبقون في دمشق حيث لا خطر عليكم ».

دمشق عشية دخول الجيش البريطاني

وفي صباح اليوم التالي ذهبت معه الى محطة البرامكة مودعا فجاء الوالي وكان منهوك القوى منهار الاعصاب كسائر الموظفين المنسحبين معه . وجلسنا في البهو ننتظر القطار الذي تأخر عن موعده لسبب لم اعد اذكره ، وحان وقت الطعام ظهرا ، فاشار الوالي بالذهاب الى سراي الحكومة ، وجلس مع والدي — وكنت معهما في البهو الكبير — فجاؤونا «بالزوادة» التي كان والدي اعدها للسفر ، واكلنا منها حتى الشبع ثم عدنا الى المحطة فجاء القطار وصعد اليه الوالي ووالدي وسائر الموظفين ، وسار القطار الهوينا حتى غاب عن انظارنا وعيوني تملؤها الدموع .

وعدت الى الدار حيث بدات والدتي تتخذ العدة للمحافظة علينا وتأمين القوت اللازم لمواجهة احتمال حصار البلد . وجاءنا ابن عمنا عبد الله بك ومعه نجله محمود بك ، وكان هذا شابا يافعا يرافقهما من اصدقاء والدي توفيق بك شاتيلا ، فكنا نسهر كل ليلة نحن الاربعة في « البراني » . وكان الصديق ابو احمد (شاتيلا) يزيل عنا ، بخفة دمه وحكاياته المضحكة ، ما كان يعترينا من الوجل والتحسب من نتائج انكسار الجيوش التركية واحتلال دمشق من قبل الاعداء ، اذ كنا لا نزال نعتبرهم كذلك . وذات ليلة سمعنا اصوات المدافع والانفجارات فصعدنا على السطح . وهناك شاهدنا حريقا تأججت ناره الى اعالي السماء . فارتعدنا خوفا وسألنا عما يجري ، فقيل لنا ان فلول الجيش التركي اشعلت النار في مستودعات الذخيرة في حي الميدان ، قبل انسحابها منه . فاحترق ما تبقى في المستودعات من مواد وانفجر ما فيها من قذائف .

وكان المشهد طريفا في دارنا . ابن العم عبد الله بك ونجله متحفزان وبيد كل منهما السيف مشوقا والبندقية ممدودة على حضنيهما ، والعم ابو احمد تعلو وجهه صفرة الخوف وهو قابع في احد الزوايا ونبريش الاركيلة في يده المرتجفة . وكنت انا اجول

بنظري بين ابناء العم ، وكلهم « صبة نار » كما يقال . وبين العم ابو احمد واركيلته كاد الضحك يأخذني لولا التخوف من المصير . وكانت والدتي خارج الغرفة تنظر الي من الشباك لتطمئن علي، اذ ان تمسكها بالحجاب كان يحول دون جلوسها معنا . وانقضى الليل الا اقله ونحن على هذه الحال.وهدأت اصوات الانفجارات وانطفأت النار لفقدان ما تأكله . فأخذ كل منا قسطا من النوم . وسرعان ما ايقظتنا والدتي قائلة انهم دخلوا . فخرجنا الى الشارع فوجدنا الناس مكتظة على الارصفة.وكان الخيالة الاوستراليون يمرون في سوق ساروجه ، بعد ان دخلوا المدينة من جهة المزة واخذوا طريقهم الى حلب للحاق بالجيوش التركية . وهــكذا اخترقوا المدينة من شرقيها الى غربيها .

وحمدنا الله على انتهاء الفترة بين الانسحاب والاحتلال عـلى خير وسلامة . ورحنا نتسقط الاخبار ، فعلمنـــا ان الامير سعيد الجزائري ، حفيد الامير عبد القادر ، احتل بنفسه بهو السراي واعلن قيام حكومة عربية وولى نفسه رئاستها . لكن ما لبث ان دخل البهو رضا باشا الركابي ومعه ضباط بريطانيون واعلن ان الجنرال اللنبي قائد الحملة العام قد اصـــدر قرارا بتعيينه حاكما عسكريا للمنطقة الشرقية ، فانسحب الامير يجر ذيل الفشل .

الفصل الثاني

الملك فيصل في سورية

في اليوم التالي دخل دمشق الشريف فيصل بن الشريف حسين الذي كان اعلن العصيان على الدولة العثمانية ونصب نفسه ملكا على العرب . فاستقبلته المدينة استقبالا منقطع النظير ، على نمط الاستقبالات الشعبية التي ذكرتها فيما سلف . ونزل الشريف ضيفا في منزل قريبنا محمود بك البارودي ، والد فخري بك البارودي ، الذي كان جنديا في الجيش العثماني ثم وقع اسيرا وسيق الى القاهرة وهناك اتصل بآل الحسين فاستدعوه الى مكة وعينوه مرافقا للشريف فيصل . فرافقه في حروبه ضد الاتراك .

وذهبت الى دار البارودي للسلام على الشريف. فقدمني اليه محمود بك قائلا : « هذا خالد بك ابن محمود فوزي باشا العظم . » فصافحني الشريف وسألني عن والدي فأجبته انه في الاستانة . وكان المشار اليه يعرف والدي منذ ان كان هو ووالده مقيمين في الاستانة . وقد اجتمعا سوية في دمشق ايام الحرب عندما كان الشريف يمثل والده لدى جمال باشا . ثم سافر الى الحجاز بحجة تجهيز جيش عربي يحارب الى جانب الجيش الرابع ضد القوات البريطانية . غير ان الحجة لم تكن صادقة . اذ ان الشريف حسين كان على صلة وثيقة بمن شنقهم الاتراك في ١٩١٥ من رجالات العرب وبمن بقي حيا من سائر المشتغلين بالقضية العربية ، مثل آل البكري والدكتور شهبندر وشكري القوتلي وفارس الخوري .

وعندما حلت النكبة في السادس من ايار ١٩١٦ وعلقت المشانق في بيروت ودمشق وبدا عزم جمال باشا على القضاء على فكرة العروبة وكل من نادى بها ، عزم الشريف فيصل على الهروب من ظلم جمال باشا . واستشار والده في مكة وهو اميرها ، فأمره بالسفر الى الحجاز دون ان يشعر جمال باشا بحقيقة نوايا الوالد والابن . وهكذا كان ، فسافر الشريف فيصل بوداع حافل ، ثم لحقه

ابناء البكري وغيرهم من الشبان العرب على ظهور الجمال . وما ان وصلوا الى دار الامان ، حتى اعلن الشريف حسين بن علي الثورة ، فانقطعت المواصلات بين الحجاز وبين سوريا . ولم يكن والدي يشارك الشبان العرب في مساعيهم ، اذ انه كان يقول ببقاء الامبراطورية العثمانية المسلمة ، على ان ينال العرب حق الحكم الذاتي ، او على الاقل ، الصلاحيات الواسعة في الادارة المحلية .

وبعد ان قامت الثورة العربية ، راح الشريف فيصل واخوه الشريف عبد الله يجتمعان مع العشائر البدو ويعملان على استدراجهم للالتحاق بالثورة باذلين لهم المعطيات والاموال بسخاء . وشعر جمال باشا بخطورة تدخل اولاد الشريف حسين لدى العشائر ، فاستدعى والدي وعبد الرحمن باشا اليوسف والشيخ اسعد الشقيري — والد احمد الشقيري الوزير السعودي الان — وابلغهم انه انتدبهم للسفر الى المدينة المنورة للاجتماع مع رؤساء العشائر واسداء النصائح لهم بعدم الالتفات لاغراءات امير مكة العاصي ، وللسعي الى تأليب من كان منهم قد انضم للثورة واعادته الى جادة الصواب . واعلن جمال باشا تخصيص مبالغ كبيرة من المال في هذا السبيل . وطلب الي والدي ورفيقيه ان يسافروا صباح غد .

وكان بين عبد الرحمن باشا وآل الحسين الهاشميين عداوة قديمة ترجع الى يوم اعتلى الشريف حسين منصب امارة مكة فمنع الباشا المشار اليه من انجاز مهمته في مكة كامير للحج وقطع عنه المال ومنع عنه القوى المرافقة وسيره الى جده ، حيث ابحر الباشا على ظهر باخرة عائدا الى دمشق وحده ، دون حاشيته وامتعته .

فلم يكن غريبا اذا ان يتقبل الباشا هذه المهمة بكل ترحاب ، ظانا انه يستطيع بمعاضدة الدولة ، لا سيما بشخص ممثلها جمال باشا ذي السطوة المخيفة ، ان يقضي على ثورة الحجاز وان يقهر الشريف حسين وابناءه فيطردهم من ديارهم كما طرده قبل ستة اعوام . اما الشقيري ، وكان مفتي الجيش الرابع ، قد اعتبر نفسه موظفا ينفذ ما يصدر اليه رئيسه جمال باشا من اوامر ، وهو قائد هذا الجيش نفسه . اما والدي فلم يرق له الامر وتمنى لو يستطيع تجنب التدخل مباشرة في هذه القضية . وحسب للمستقبل حسابا ، لا سيما انه كان غاضبا في سره على سياسة جمال باشا . فكيف له ان يقوم بمهمة يعتبرها الهاشميون حركة عدائية ضدهم ؟ لكنه لم يكن في

موقف يسمح له بالاعتذار ، خصوصا ان مزاحمه ومنازعه في الزعامة بدمشق ، عبد الرحمن باشا ، كان ابدى استعداده للسفر وترحيبه بالفكرة . وكان بنتيجة ذلك كله ان سافر الوفد الى المدينة المنورة ، حيث كان قائد الحامية الفريق فخري باشا الذي اعتصم فيما بعد بالحرم النبوي وهدد بنسفه حينما شدد الشريف علي بن الحسين الحصار على المدينة . وظل في عناده هذا حتى بعد عقد الهدنة بين الحلفاء والاتراك . فانسحب هو والقطعات التي كانت معه الى معتقل الاسرى بالقاهرة ، وقد ابقي معه سيفه . واديت له ولجنوده التحية العسكرية لقـاء استبساله في الدفاع عن المدينة التي امر بالمحافظة عليها .

ولم يتلق فخري باشا خبر وصول الوفد بارتياح . لذلك لم يقابلهم بحفاوة ، وتساءل عما اتى لاجله هذا الشيخ وهذان المدنيان .

فالضباط على العموم لا يتقبلون تدخل المدنيين بشؤون يعتقدون انهم قادرون على حلها بقوة السيف . ولم يسمح فخري باشا للوفد بالقيام بمهمته ، فقفل راجعا دون ان يجتمع اعضاؤه بأحد من رؤساء العشائر . وقدموا تقريرا شفهيا لجمال باشا الذي فضل عدم اثارة زميله في المدينة ، فطوى صفحا عن فكرته .

وكان رفيقاي الملازمان لي ، ليل نهار ، فؤاد المحاسني ومنير العيطة . وظهر لي بعد انسحاب الاتراك انهما من المندفعين في العقيدة العربية . وبتاثير احاديثهما المتوالية ، وبفضل الجو العام وتفتح الوعي ، اصبحت من اشد الشبان تعلقا بالشريف فيصل الذي لقب بعد دخول الشام بالامير فيصل — قبل ان يصبح الملك فيصل . وتفاعلت في نفوسنا الدعاية التي انبثت في جميع انحاء البلاد لمقاومة الاجانب والتمسك باستقلال البـلاد .

لم يكمل والدي طريقه الى الاستانة بل توقف في حمص بانتظار تطور الحوادث . وصدف ان عاد عبد الرحمن باشا اليوسف من الاستانة بنفس الوقت فمكثا سوية في حمص . وذات يوم ، جاءنا بدوي وناولني ، بعد ان تأكد من انني انا ابن الباشا ، كتابا ارسله معه والدي من حمص . وفيه يخبرنا بانه بقي فيها ، وبانه ينتظر الوقت المناسب لعودته الى دمشق . ففرحنا بهذه الرسالة فرحا لا يوصف . ومنحنا البدوي العطايا السخية مقابل هذه البشرى ،

ولقاء ما تكبده من مشقة المجيء الى دمشق مشيا على الاقدام . ولم يمض على وصول الكتاب اسبوع حتى وصل والدي ومعه عبد الرحمن باشا وبعض الاقارب والاصدقاء ، وكانا راكبين في مركبة عبد الحميد باشا الدروبي ، صديقهم الحمصي الذي اعارهم اياها لهذه السفرة. اما الاقارب من بني العظم ، ومنهم صفوت بك المؤيد ، والاصدقاء وعلى راسهم عبد المجيد سويدان ، فكانوا يمتطون جياد الخيل . وقد رافقوا والدي ومعهم بعض رجالهم للمحافظة عليه وعلى عبد الرحمن باشا ، طول الطريق من حمص الى دمشق .

والدي يقابل الملك فيصل ويـــؤيده

وفي اليوم التالي توجه والدي الى زيارة الامير فيصل لتهنئته بظفره واعلان تأييده لحكمه في سورية . وقد رحب الامير بوالدي ترحيبا جميلا ودعا الى طي صفحات الماضي ، والسير يدا بيد لمواجهة مطامع الاجانب وتركيز دعائم الاستقلال . فأجابه والدي بأنه يضع نفسه تحت تصرفه لتأمين هذه الغاية . وفي الواقع ، لم يكن لدى والدي سبب — وقد انهارت الامبراطورية العثمانية — للتردد في دعم الدولة العربية المسلمة المرجو اقامتها في البــــلاد السورية والحجازية والفلسطينية . وكان الامير فيصل من جهته بحاجة الى الحصول على تأييد اهل سورية له ، باعتباره آت ليتولى عليهم من خارج بلدهم . كما انه كان عالما بما كان لوالدي من نفوذ كبير في دمشق خاصة ، وسورية ولبنان عامة . اذ كان الزعيم المحترم صاحب القول الفصل ، سواء لدى ابناء بلده او لدى نواب المدن الاخرى الذين كانوا يجتمعون في الاستانة برئاسته . فلم يشأ الامير فيصل ان يكون اول اجتماع بينهما غير ودي ، فينفر والدي منه وتنقطع بينهما بعد ذلك الصلات الطيبة . اضف الى ذلك ان الامير فيصل كان عالما بما كان سيتعرض له من مقاومة الافرنسيين له وعدم الرضاء عن تسلمه امارة او تاج سورية ، بعد ان كانوا عقدوا مع الحكومة البريطانية الاتفاقية الشهيرة باسم سايكس — بيكو التي جعلت لبنان والساحل السوري منطقة تابعة لهم مباشرة . اما المدن الاربع : دمشق وحمص وحماه وحلب ، فجعلتهـــا خاضعة للنفوذ الافرنســــــي .

وقد اكد لي صحة ما كان يتمتع به والـــدي من مقام رفيع حادثان ، الاول رواه لي بديع بك المؤيد ، نائب دمشق السابق . وهو ان الحكومة التركية عزمت في ١٩١٨ على تجديد امتياز شركة

حصر الدخان، الا انها لاقت معارضة شديدة من النواب.فمنهم من كان متحزبا لها ، ومنهم من كان معارضا في الاصل . فكان لا مندوحة لها من الحصول على تأييد النواب العرب ، وكان عددهم يبلغ الثمانين . فاتصل الصدر الاعظم ، طلعت باشا داهية الاتحاديين ، بسفير تركيا في فيينا — وكان هذا صديقا حميما لوالدي حين كان امينا عاما للولاية بدمشق ، ثم حين اشتراكهما سوية في وزارة احمد مختار باشا — وطلب اليه ان يدعو والدي لزيارته في عاصمة الامبراطورية النمسوية لاقناعه بلزوم تأييد الحكومة . فقبل والدي الدعوة وبعث بمن يطلب له جوازا من وزارة الداخلية . ولشد ما كان عجبه حينما جاءه مستشار الصدارة وقدم له جوازا سياسيا وابلغه تحية طلعت باشا ، مدعيا بأنه لما علم بنية والدي في السفر امر باصدار هذا الجواز وبوضع صالون في قطار اوروبا السريع تحت تصرفه . ولم يفهم والدي سر هذا الاكرام غير المألوف ، فشكر الصدر الاعظم على لفتته هذه واستعد للسفر . وعندما اجتمع مع حسين حلمي باشا في فيينا — حيث نزل ضيفا في السفارة — اطلعه صديقه على ما اراد طلعت باشا ان يكلفه به من مهمة خاصة . واضاف قائلا : « انتم المبعوثون العرب تستطيعون ان تنقذوا الوزارة من السقوط . وطلعت باشا يعلم انك يا باشا الشخص الوحيد الذي يستطيع التأثير على زملائه المبعوثين العرب ويحملهم على تأييد الحكومة . وهو على استعداد لتلبية ما ترغبون ، بدون قيد وشرط » .

نفوذ والدي ومقامه الرفيع

فكر والدي قليلا — كما روى ذلك لي بديع بك — وتظاهر بصعوبة الامر وقال لصديقه السفير ان البلاد العربية مستاءة من جمال باشا ومما ارتكبه ولا يزال يرتكبه في سورية من مجازر ومظالم . فقد شنق رجالاتنا وهجر العائلات الى الاناضول وسجن الابرياء . ولكل مبعوث عربي قريب شنق او ابعد عن دياره او صديق اصيب في مصيبة ، فكيف تريدون مني ان احملهم على تأييد الحكومة التي يشترك فيها جمال باشا نفسه ؟ فقال حسين حلمي باشا انكم على حق فيما تبدون ، لكن ما العمل وطلعت باشا يصر ويلح بطلب التأييد ؟

فقال له والدي لا بد من ارضاء خاطر المبعوثين العرب . فسأله السفير عن مدى المطالب التي يجب ان تلبيها الحكومة ،

فأجابه بأن المطلب الاول هو عدم عودة جمال باشا الى منصبه في دمشق ، والثاني هو تغيير السياسة التي اتبعها الوزير المشار اليه في البلاد العربية ، والثالث هو عودة المتغيبين الى بلادهم . ولمح بأنه قد يثير المبعوثون مطالب اخرى. واتصل السفير برقيا بطلعت باشا واوصاه بقبولها وتنفيذها فورا، فجاء الجواب بالموافقة على ما ذكره والدي وبطلب سرعة عودته للعاصمة. ولما وصل والدي الى الاستانة اجتمع فورا مع طلعت باشا ، فأكد لـه المشار اليه موافقته والوزراء على النقاط التي طلب منه تحقيقها ، وانه ابلغ الولاة بالسماح للعائلات العربية بالعودة الى اوطانها ، ثم وعده بتعيين جمال باشا الملقب بالصغير خلفا لجمال باشا الكبير . وكان الاول محبوبا ومعروفا في دمشق ، بحلمه وحسن تقديره الامور .

وعلى اثر ذلك دعا والدي المبعوثين العرب الى داره وابلغهم ما حصل . فوافقوا بالاجماع على المطالب التي ابداها ، واضافوا عليها بعض المطالب من الدرجة الثانية،وبعض المطالب الشخصية. وهكذا حلت ازمة تجديد امتياز شركة الريجي التي توليت عندما كنت وزيرا للمالية في ١٩٤٩ امر شرائها وجعلها مؤسسة وطنية بحت . وبذلك عادت الاسر العربية المشردة في الاناضول الى وطنها ، وجمدت سياسة القضاء على العرب . وقد اوردت هذه القصة الواقعية للتدليل على مقدار نفوذ والدي لدى نواب سورية ولبنان وفلسطين والعراق واليمن ــ ذلك النفوذ الذي حمل طلعت باشا على استخدامه لمصلحة حكومته ، كمـا استخدمه والدي لتحقيق بعض الامور العاجلة لمصلحة ابناء امته العربية .

اما الدليل الثاني على متانة زعامة والدي في دمشق فهو حينما دعـا الامير فيصل جميع الناخبين الثانويين في سورية وفلسطين لانتخاب نواب للمؤتمر السوري الـذي قرر جمعه لمجابهة بعثة الاستفتاء التي كانت مهياة للحضور الى هذه البلاد بغية استطلاع رايها في شكل الحكم المقبل ومدى قبولها الانتداب .

ذلك ان جميل مردم وعزت دروزة جاءا ذات يوم الى والدي وابلغاه بانهما ورفاقهما الشبـاب العاملين في الحقل السياسي المسيرين للاتجاه العام ، وكانوا معروفين باسم « رجال الغيب » ، قد قرروا ترشيح والدي عن دمشق . ولكنهما رفضا ان يلبيا رغبته في معرفة اسماء بقية المرشحين ، فاشمأز والدي وصرفهما . ثم استدعى اصدقاءه ذوي النفوذ في الاحياء والف معهم قائمة مستقلة

اشترك بها هو كرئيس لها . وكانت تتألف من عبد الرحمن باشا اليوسف والشيخ تاج الدين الحسيني والشيخ عبد القادر الخطيب والشيخ محمد المجتهد وفوزي البكري واحمد القضماني وجورج عويشق ويوسف لينادو وعزت الشاوي . اما الشيخ مسلم الحصني فقد اعتبر نائبا بدلا عن المرحوم والدي اثر وفاته . اما قائمة « رجال الغيب » فكانت مؤلفة من جميل مردم وشكري القوتلي والدكتور احمد قدري وغيرهم . فلما جرت الانتخابات النهائية فازت قائمة والدي بمجموعها وفشلت قائمة مرشحي الشباب التي كان يؤيدها علنا الامير فيصل ورضا باشا الركابي، الحاكم العسكري . ولم يقتصر فوز والدي على هذا الشكل ، بل انه عندما اجتمع المؤتمر السوري وبوشر بانتخاب رئيسه ، جرب « رجال الغيب » ترشيح هاشم الاتاسي . لكن والدي فاز بأكثرية ساحقة .

وثمة حادثة ثالثة تؤيد قولي وهي ان مستر ويلسون ، رئيس الولايات المتحدة الاميركية ، اوفد الى سورية ولبنان وفلسطين هيئة برئاسة مستر كراين لاستطلاع راي اهل البلاد في مصيرهم السياسي وفي هل يقبلون الانتداب الذي كانت تطالب بريطانيا وفرنسا بفرضه على الشرق الادنى ، وفي من هي الدولة التي يختارونها منتدبة عليهم .

وبينما كان يظن ان هذه الهيئة ستكون مؤلفة من مندوبي الدول الثلاث ، اذا بفرنسا وبريطانيا تنسحبان باللحظة الاخيرة وترفضان الاشتراك بها خشية ان ترتبطا معنويا بنتائج الاستفتاء . وعلى ذلك اقتصرت اللجنة على المندوبين الامريكيين . واعلن نبأ قدومها في صيف ١٩١٩ .

وذات ليلة جاء رسول من لدن الامير فيصل وسلم والدي بطاقة كتب عليها الامير بخط يده يطلب موافاته في الغد الباكر لامر هام . فلبى والدي الدعوة وظل في مقابلة الامير ما يزيد عن الساعتين ، عاد بعدها واعلمنا بانه اوضح له الحالة السياسية وما لقيه من رفض كليمانصو سماع ما اراد الامير ادلاءه فيمؤتمر الصلح من طلبات ورغبات باسم الشعب السوري ، رافضا الاعتراف به ممثلا عن سكان هذه المناطق ، مما ادى الى تعكر الجو واستفحال الازمة . لكنها انتهت بقبول اشتراك الامير بمؤتمر الصلح نائبا عن والده، بصفته ملكا على الحجاز، لا ملكا على العرب، كما كان اعلن عن نفسه . واوضح الامير لوالدي الحاجة الملحة التي يشعر بها

وهي الاعتماد على بريطانيا لتحقيق استقلالنا ودفع خطر الانتداب الافرنسي على سورية ولبنان . واسر له ان لويد جورج ، رئيس وزراء بريطانيا ، طلب اليه ان يعمل على توجيه الشعب في سورية ولبنان نحو ابداء رغبته في الحصول على مساعدة بريطانيا . وسال الامير راي والدي في ذلك ، فأجابه بأن معنى ذلك قبول الانتداب الانكليزي . فكيف نستطيع مواجهة التيار الشعبي الذي يرفض اي انتداب ويطالب بالاستقلال التام الناجز ، لا سيما ان الذي دفع الشعب في هذا التيار هو الامير نفسه ؟ فقال الامير « هذا هو مـــا اردت التعاون معكم لاجل النجاح بـــه . »

وظل الامير يصر حتى وعده والدي بالاجتماع الى النواب والبحث معهم . لكن الامير ظل مصرا عليه بلزوم تأييد هذا الراي امام النواب وبذل الجهد لحملهم على الموافقة عليه .

ولم يكن جميع المشتغلين بالسياسة متفقين مع الامير على خطته هذه . وكان في عدادهم متطرفون لا يتأخرون عن الصاق تهمة الخيانة بكل من يقبل بأي تساهل وبالرجوع خطوة ولو بسيطة عن الاستقلال الناجز . وكان فيهم من يشـــــعر بأن الانكليز يريدون ، بحمل السوريين على المطالبة بمساعدتهم وبانتدابهم ، الحصول على مركز اقوى من مركز الافرنسيين ليساوموهم على منافـــع وامتيازات ، ثم يتنازلون لهم عن سورية .

وفي الواقع لعب الساســة البريطانيون دورا خبيثا في هذه القضية . فبعد ان ابدى الشعب السوري للجنة الاستفتاء رغبته في المساعدات البريطانية ، اضطر رئيس وزراء فرنســـا لمساومة لويد جورج . فتنازل لانكلترا عن منطقة الموصل التي كانت بموجب اتفاقية سايكس ـــ بيكو من نصيب فرنسا ، كما قبلت هذه الاخيرة بأن تكون فلسطين تحت الانتداب البريطاني في حين ان المتفق عليه سابقا ان تكون دولية . وهكذا ضحكت انكلترا بدهاء ساستها على ذقون السوريين وعلى رأسهم الامير فيصل .

واجتمع والدي ، باديء ذي بدء ، الى زملائه نواب الشام وتبادل الراي معهم . ثم اجتمع الى سائر النواب ، زمرا زمرا ، وانتهى به الامر ، بعد الجهد والتعب ، الى ايجاد الصيغة الاتية :

١) التمسك بطلب الاستقلال الناجز بدون حماية او وصاية او انتداب .

٢) دعوة الولايات المتحدة لتقديم المساعدات الفنية والارشادات العملية .

٣) اذا لم تقبل الولايات المتحدة مد يد المساعدة ، يطلب من بريطانيا القيام بذلك .

٤) رفض الانتداب الافرنسي رفضا باتا .

٥) رفض الهجرة الصهيونية الى فلسطين والاحتجاج على وعد بلفور .

٦) تنصيب الامير فيصل ملكا على المملكة السورية بحدودها الطبيعية .

وتقرر بعد موافقة النواب على هذه الصيغة واطلاع الامير فيصل واقراره اياها ان تعقد اجتماعات عديدة بدمشق تعلن فيها هذه القرارات ويمهد لقبولها لدى الرأي العام .

وعقد اول اجتماع بدار احمد افندي الحسيني . وعندما بدأ والدي بيانه ، قفز الدكتور احمد قدري ، وهو طبيب الامير وقرينه وصاحب الكلمة العليا في القصر ، وراح يكيل التهم والشتائم لوالدي ولسائر المجتمعين ناعتا اياهم بالمتآمرين على استقلال البلاد وبالمتاجرين بحريتها وبمستقبلها ، فساد الهرج والمرج وكاد ان يحصل ما لا يحمد عقباه بين جماعة والدي والنواب وبين الشبان الذين اتى بهم الدكتور قدري وكلهم من اعضاء النادي العربي المتحمسين المندفعين شأن جميع شبان العالم لا يعالجون الامور الا بالهياج والتطرف ولا يتركون لراجحي العقل اصحاب الخبرة والنظر البعيد ان يمحصوا الامور ويجدوا لها الحل المناسب .

وانفرط الاجتماع وذهب والدي ومعه النواب الى قصر الامير ليعرضوا عليه الامر ويحتجوا على مسلك طبيبه وقرينه . فاستقبلهم الامير بوجه عابس وطلب اليهم بيان ما يريدون . فقال له والدي انك يا سمو الامير دعوتني وطلبت مني ان اعمل على الدعاية والترويج لما وجدتموه مؤتلفا مع مصلحة البلاد من خطة سياسية عامة . ولبى النواب رغبتكم واجتمعوا الليلة ليطلعوا الراي العام على هذه الخطة وعلى ضرورة توحيد الكلمة على اساسها امام لجنة الاستفتاء ، واذ بصديقكم الدكتور قدري — وكان حاضرا الى جانب الامير — يقذفنا بالشتائم والتهم في وطنيتنا واخلاصنا ، فهذا ما لا نقبله وما نرجو من سموكم وضع حد له . فاجابه الامير ان الدكتور مخلص لوطنه ولا يقول الا ما يوحيه له وجدانه . وهكذا بدا لوالدي ان

الامير لا يريد التخلي عن الدكتور وان لا فائدة من الجدل ، فانسحبوا من الجلسة وعاد كل منهم لداره . وبعد يومين استدعى الامير والدي مرة اخرى ، فاعتذر لسوء صحته ، فألح الامير ، فلم يسع والدي الا الذهاب . فبادره الامير بشرح ما حصل ، قائلا انه لم يكن له بد من مسايرة الدكتور ومن لف لفه من الشبان المتطرفين والتظاهر بعدم معارضتهم . غير انه لا يزال عند رأيه ولا يرى دونه سبيلا لانقاذ البلاد من استعمار الافرنسيين . ورجا والدي ان ينسى ما مضى وان يظل معه وان يعاونه في مسعاه . واكد لي والدي بأنه اقتنع بموقف الامير لئلا يضطر الى الرضوخ لآراء المتطرفين فيما اذا لم تسنده الطبقة المعتدلة ، فتسير البلاد الى الهاوية . وهكذا وعده والدي بما اراد ، وافترقا والبشر يعلو جبهة الامير فرحا وانشراحا.

وصول هيئة الاستفتاء الامريكية

ثم وصلت الهيئة الامريكية فاستقبلها الشعب بحماس كبير ولافتات كتب عليها بحيا ويلسون حامي الحريات — الاستقلال او الموت — العرب يريدون الاستقلال ويرفضون اي انتداب — الاستقلال يؤخذ ولا يعطى — لتسقط فرنسا — لتسقط الصهيونية وليسقط بلفور . وكانت الهتافات تصل عنان السماء والمظاهرات تمر امام فندق فيكتوريا وامام مقر المؤتمر السوري يقودها الشبان المتحمسون وينادون بالاصوات العالية : « لا حماية ، لا وصاية ». وكانوا ينشدون الاناشيد الحماسة :

انت سورية بلادي	انت عنوان الفخامة
وعلى ام القرى منا سلام	على من في بواديها اقاموا
على حامي الحمى في القبلتين	امير المؤمنين قرة كل عين
خليفتنا ومولانا الحسين	سلاما عرفه كالمسك طاب

وقابلت هيئة الاستفتاء اول ما قابلت وفد المؤتمر السوري وعلى رأسه والدي فقدم لها مذكرة ضافية لا تخرج عن مضمون القرارات التي ذكرناها فيما سلف . واضاف والدي الى البيانات التي ادلى بها الاعضاء وقال اننا معشر المسلمين لا نجيز اقامة التماثيل ولكننا مستعدون لاقامة تمثال كبير للرئيس ويلسون احتراما بما له من فضل في سبيل تحرير الشعوب وعربونا على ما سنكن له بقلوبنا من منة لانقاذنا من خطر الانتدابات والصهيونية . وآمن المتعممون من اعضاء الوفد على كلام والدي فسر اعضاء الهيئة الامريكيون ايما سرور . وقد اجمعت البلاد السورية وفلسطين على المطالب التي ذكرتها آنفا وهي الاستقلال التام ، وطلب مساعدة

الولايات المتحدة والا فمساعدة بريطانيا ، ورفض فرنسا والصهيونية، واقامة مملكة دستورية تحت تاج الملك فيصل . واما في لبنان فاجمع المسيحيون على طلب انتداب فرنسا ، وانقسم المسلمون شطرين : شطر طالب بالانتداب الافرنسي ، وشطر ضم صوته الى اصوات سورية وهو قلة .

وجدير بالاسف ان النتائج التي حصلت عليها هيئة الاستفتاء لم تصل الى مجلس الاربعة ـ وهم ويلسون ولويد جورج وكليمانصو ورئيس حكومة ايطاليا ـ الذي اخذ على عاتقه تحضير معاهدة الصلح وتقسيم اراضي الدولة المغلوبة ووضع مصير العالم الجديد . وعدم وصولها يعود الى معارضة فرنسا الشديدة . واما بريطانيا ، فبعد ان ظهرت نتائج الاستفتاء ساومت فرنسا فوضعت في جيبها الموصل وفلسطين وتركت لفرنسا سورية ولبنان بعد اقتطاع المنطقة التي اسميت فيما بعد بشرق الاردن . وبذلك انتهت فصول الرواية التي لعبها الداهية لويد جورج دون ان يؤمن لصديقه الامير فيصل عرش سورية مع انه مدين له بتحقيق اطماعه .

هذه صفحة من صفحات جهاد سورية في سبيل استقلالها والمؤسف ان احدا من الذين اشتركوا به فعلا لم يدون ذكرياته المفصلة عن الحقبة من الزمن بين دخول الامير فيصل دمشق فاتحا بتشرين الاول ١٩١٨ وخروجه منها مهزوما بتموز ١٩٢٠ . فبهذه الاشهر الاثنين والعشرين مرت سورية بأكثر ايامها غليانا ونشاطا . فهي ، بعد ان خرجت من دور الهدوء المطلق ايام الاتراك ، استفاقت دفعة واحدة ووجدت نفسها حرة طليقة بعد القيود والمظالم ، فراح شبانها وشيبها يروحون ويجيئون في الشوارع هاتفين منشدين .. يسقطون من يشاؤون ويهتفون لمن يحبون دون معارض ، لا الدول الكبرى تنجو من سخطهم ولعناتهم ولا رجال السياسة العظام من هتافاتهم العدائية . ولم يكن رجال الشرطة يعارضون مظاهراتهم ، ولا الحكومة تحاسبهم . وكيف تفعل ذلك وهي التي تدفعهم الى الشارع بدلا من انتسوقهم الى المدارس او الثكنات لتعلمهم وتصنع منهم جنودا وضباطا يقودون معركة الاستقلال التي لا بد انها كانت قادمة .. وهذا شأن الحكومات الضعيفة التي تستند الى الشارع لتثبيت اقدامها . فهي تلهب القوم حماسا واندفاعا ولكنها في سبيل تجهيز جيش منظم وتدريبه على صنعة الحرب لا تتحرك قيد انملة ... وعندما تهب ريح المعركة ويهجم العدو على الحدود تسارع

للتفاوض وتسريح الجيش .. ثم ترفع الاعلام البيض وتلقي عن اكتاف اعضائها اعباء المسؤولية وتستقيل تاركة الحبل على الغارب، وآل علي تندب عليـا .

لم يكن في مقدور سورية في الواقع ان تحارب فرنسا ــ وقد انتصرت على المانيا ــ وتجابه هجومها لاحتلال البلاد لفقدان التعادل في القوى . ولكن لا يستطيع احـد ان يمـاري ويدعي انه لـم يكن بمقدورنا ان نجهز جيشا منظما يصمد في ميسلون شهرا او اسبوعا على الاقل ... فثمة شعوب عديدة قاتلت دولا قوية اشهرا مديدة بل سنين طويلة ... واقرب مثال على ذلك مجاهدو الجزائر الابطال الذين مضى على حربهم ضد فرنسا اكثر من خمس اعوام . ثم الم تقاتل سورية في ثورتها عامي ٩٢٥ و ٩٢٦ مدة تقارب السنة او تزيـد ؟

صحيح ان الغلبة كانت في النهاية للاقوى وانتهت الثورة بدون نتيجة عاجلة ، الا ان البلاد رفعت راسها بها عاليا . كما ان الثورة اذكت في النفوس روح الوطنية وفتحت باب الصراع السلمي المتواصل ضد الانتداب حتى جر ذيل فشله وانسحب من سورية الى غـير رجعة . لا ادعي بأن قوانا الذاتية قهرت فرنسا واخرجتها من البلاد عام ١٩٤٥ ، ولكنني اتشبث في ان مضي البلاد في مناهضة الانتداب من جملة الاسباب القوية التي تذرعت بها بريطانيا لانذار الجنرال دوغول لسحب قواه من سورية .

ولو كنا قابلين بالانتداب او حتى بوجود فرنسا بشكل من الاشكال ، لما كان ثمة سبيل لبروز تشرشل في الميدان مهددا ومارضا ارادته بتخلي فرنسا عن هذه البلاد .

ومن هنا تبرز فكرة ضرورة الاعتماد على صداقة احدى الدول الكبرى للحصول على دعمها عند الحاجـــة واما الحياد المطلق والابتعاد عن التفاهم مع احد الفرقاء الاقوياء فانه في الغالب يؤدي الى اتفاق كلمة الجميع ضدنا كما حصل عام ١٩١٩ وعام ١٩٢٠ حينما توازعوا الانتدابات في مؤتمر سان ريمو ويؤدي على كل حال الى وجودنا منفردين اذا عمد فريق الى التحرش بنا كما حصل عام ١٩٤٨ عندما وقعت الواقعة بين الدول العربية وبـــين اسرائيل فالتفتنا ذات اليمين وذات اليسار فلم نجد غوثا ولا معينا .

فلو بقيت في سورية حكومة وطنيـــة يرئسها الملك فيصل لاستطاعت ان تقف بوجه المستشارين والمفوض السامي اكثر مما

وقفته الحكومات المدنية لهؤلاء بمراكزها ومنافعها . هذا راي يقابله راي مخالف وهو ان وجود الملك فيصل كان من شأنه ان يهدىء الحال ويخفف حدة التوتر بين الشعب والحكام الافرنسيين ، بحيث تنطفىء جذوة الوطنية وتنعدم فكرة مقاومة الانتداب .

وسواء قلنا بذلك الراي او بعكسه فان الامير فيصل ذهب الى كتم اتفاقه مع كليمانصو ، وبذلك انصاع لراي « رجال الغيب » . فهل كان رضوخه هذا عن قناعته بصحة رايهم ، ام انه وجد نفسه في الساحة وحيدا لا حول له ولا قوة ؟ انه كان قادرا على تاليف حزب قوي يعضده في سياسته ، قوامه رجال لهم في البلاد قول محترم ، مثل رضا باشا الركابي وعلاء الدين الدروبي والشيخ تاج الدين الحسيني وغيرهم ممن كانوا ينضوون تحت لواء وزعامة المرحوم والدي . فيؤلف منهم وزارة تستند الى اكثرية اعضاء المؤتمر السوري وتقف في وجه جميل مردم واخوانه . وهكذا تسير بالبلاد سيرة معتدلة تقربها من التفاهم مع الحكومة الافرنسية لتخفيف شرور الانتداب ، وتهيء الشعب لمزاولة الاستقلال يوم الحصول عليه ، بجهاز واستعداد كاملين .

رايي في اتفاق فيصل ــ كليمانصو

للدفاع عن هذه النظرية والاقتناع بصحتها لا بد للمرء من ان يراجع النصوص والوثائق ، فيطلع على اتفاق فيصل ــ كليمانصو ، وعلى المعاهدة المعقودة في ١٩٣٦ بين سورية وفرنسا على يد زعماء الكتلة الوطنية والتي صدقتها مجلس النواب السوري بالاجماع ، ثم يقابل بين هذين النصين . عندئذ يجد ان احكام المعاهدة هذه لا تختلف في جوهرها مع الاتفاق المذكور ، وان كان في المظاهر والتعابير فروق تبدو كانها كبيرة لاول وهلة .

فلنجرب تحليل هذه النصوص والفوارق :

الاتفاق : تؤكد الجمهورية الافرنسية اعترافها للاهلين الناطقين باللغة العربية في ارض سوريا من كافة المذاهب ان يتحدوا ليحكموا انفسهم بأنفسهم بصفتهم امة مستقلة .

المعاهدة : ان الجمهورية الافرنسية وحكومة الجمهورية السورية بناء على تصريح الحكومة الافرنسية امام عصبة الامم يسعدها عقد معاهدة مع الحكومة السورية معتبرة ما تم من التطور في سورية ونظرا للتقدم الذي تحقق في سبيل تثبيت سورية امة مستقلة ..

الاتفاق : يعترف الملك فيصل بان السوريين لا يستطيعون في

الوقت الحاضر نظرا لاختلال النظام الاجتماعي الناشيء عن الاضطهاد التركي والخسائر المحدثة اثناء الحرب ان يحققوا وحدتهم وينظموا ادارة الامة دون مشاورة ومعاونة امة مشاركة على ان تسجل هذه المشاركة من قبل جمعية الامم عند تكوينها فعلا . وباسم الشعب السوري يطلب هذه المهمة من فرنسا . ويعهد الامر بان يطلب من فرانسا وحدها المشاورين والمدربين والموظفين الفنيين لاجل تنظيم جميع الادارات الملكية والعسكرية .

المعاهدة : الحكومة الافرنسية تقبل مساعدة سورية مدة المعاهدة وفقا لنصوص الاتفاق الملحق وتعترف الحكومة السورية بأن استمرار بقاء حق المرور للطائرات الجوية للحكومة الافرنسية التي تجتاز الاراضي السورية وصيانتها في جميع الظروف هي من مصلحة التحالف .

ملحق المعاهدة : وضع بعثة عسكرية تحت تصرف الحكومة السورية ونظامها وطيرانها العسكري ، تحدد مهمة البعثة وتاليفها ونظامها بالاتفاق بين الحكومتين . ولما كان من المرغوب فيه ان يكون التدريب والتعليم واحدا في الجيشين فان الحكومة السورية تتعهد بان لا تستخدم سوى الافرنسيين بصفة معلمين او اختصاصيين . يطلب هؤلاء المدربون والاختصاصيون من الحكومة الافرنسية ويرجع امرهم في الادارة والانضباط العام الى رئيس البعثة العسكرية . ويجوز أن يعهد الى ضباط من البعثة العسكرية القيام بقيادة فعلية مؤقتة في القوة العسكرية السورية بناء على طلب موجه الى ممثلي الحكومة الافرنسية وموافق عليه منهم .

الاتفاق : سيقيم صاحب السمو الامير فيصل في باريز لدى ناظر الامور الخارجية مفوضا ويكون مامورا بتعقيب المسائل الخارجية التي تهم الامة السورية وسيعهد الى ممثلي فرنسا السياسيين وقناصلها في الخارج بتمثيل مصالح سورية الخارجية وسيكون للمفوض السوري في باريز مندوبون لامره في لندن وروما وواشنطون ضمن نطاق كادر السفارة الافرنسية ووظيفتهم رؤية المصالح المختصة باحوال السوريين الشخصية وسيعهد للقناصل بمهمة القنصلية السورية .

المعاهدة : سفير فرنسي في دمشق وزير مفوض سوري في باريز .

(مراجعة النصوص من الملاحق .)

الاتفاق : يعترف الامير فيصل باستقلال لبنان تحت الوصاية الافرنسية وبالحدود التي يسيطلنها له مؤتمر السلم .

المعاهدة : اعترفت ضمنا باستقلال لبنان بحدوده التي اعلنها الجنرال غورو عام ٩٢٠ (لبنان الكبير) وذلك عند ذكر المباحثات التي ستجري بين سوريا ولبنان بشأن المصالح المشتركة .

ولم يذكر في الاتفاق شيء يتعلق بشؤون النقد بينما ربطت المعاهدة النقد السوري بالنقد الافرنسي ربطا محكما على اساس التعادل القائم اذ ذلك وهو ليرة سورية = ٢٠ فرنكا افرنسيا .

وما يجدر ذكره اننا لو بقينا حتى الآن على هذا الارتباط لانهار سعر الليرة السورية اثر انهيار الفرنك الافرنسي الى التعادل الاتي : ليرة عثمانية ذهبية = ١٨٠ ليرة سورية بينما هي الان لا تساوي اكثر من ٣٠ ليرة سورية . وقد اتيت على بحث هذا الموضوع مفصلا في الجزء الخاص بالشؤون الاقتصادية والمالية من ذكرياتي السياسية .

وقد اعترفت المعاهدة المذكورة لفرانسا بقاعدتين جويتين ، كما اعترفت لها بحق استعمال الطرق ووسائط النقل الحديدية والمرافيء

ومن جهة ثانية ، اذا قارنا ما جاء في هذه المعاهدة من مجمل الاحكام فاننا لا نراها بعيدة عما طلب الجنرال غورو تحقيقه في ١٩٢٠ من شروط ذكرها في الانذار الذي بعث به الى الملك فيصل .

ومن ناحية ثالثة لا نرى اختلافا كبيرا بين نصوص هذه المعاهدة ونصوص المعاهدة التي وقع عليها حقي العظم مع دومارتيل في ١٩٣٣ ، وقامت قيامة مجلس النواب والشعب ضدها .

واليك ايها القارىء النقاط الجوهرية في النصوص الاربعة المشار اليها :

١ — وجود فرانسا في سورية كدولة حامية او منتدبة او صديقة او حليفة هو امر مقر به في النصوص كلها . وما الاختلاف في التسمية سوى تمش « مع موضة » الزمن . ففي تشرين الثاني ١٩١٨ لم تكن جمعية الامم قد خلقت ولا وضعت في التداول تعبير « الانتداب » . وفي ١٩٢٠ ورد ذكره لانه خلق في شرعة جمعية الامم في ١٩١٩ . اما في سنتي ١٩٣٣ و ١٩٣٦ فكان الزمن المنقضي على تطبيق الانتداب قد اظهر مساوئه فثارت الشعوب ضده ، ولذلك

استبدلت الكلمة بما اسمي « التحالف » ، وهو من حيث الاساس يجيز بقاء عناصر الانتداب ولو بشكل مخفف او مغاير بالاسم فقط .

٢ ــ الجيش واستخدام وسائل النقل والمرافيء : النصوص الاربعة وان اختلفت الالفاظ فهي لا تختلف في المعاني .

٣ ــ المسائل المالية : في انذار غورو والمعاهدتين اعتراف بالنقد السوري الذي اصدره المصرف السوري ، وهو العامل الاقتصادي للانتداب . اما اتفاق فيصل كليمانصو فلم ترد اية اشارة اليه . ولعل الحكومة السورية اذ ذلك كانت تمكنت من استبقاء النقد الذي وضعت اسسه في ١٩١٨ واصدرت عملة خاصة لسورية غير مرتبطة بالفرنك .

٤ ــ المستشارون : تختلف النصوص في كيفية مجابهة قضية المستشارين والاختصاصيين ولكنها في مجموعها لا تنبذ الفكرة . فهي تقبل المبدا وتسعى لتحديد العدد وتختلف فيما بينها على ذلك فحسب .

والفروق بين هذه النصوص الاربعة ان كانت تتجلى في الميل لمصلحة سورية ، فالفضل بذلك عائد الى التضحيات التي بذلها الشعب السوري في سبيل مناهضة الاستعمار . فالمظاهرات العدائية واقفال الاسواق اسابيع عديدة كل مرة ، والاحكام الصادرة واعتقال المئات من المشتغلين بالقضية الوطنية ، والثورات المسلحة التي قامت في حماة وغوطة دمشق وجبل الدروز وحوران ، بالاضافة الى المساعي السلمية التي كان الوفد السوري يقوم بها في محيط جمعية الامم في جنيف ، والمناقشات الحامية التي كان يواجهها مندوب فرانسا في لجنة الانتداب ، كل ذلك جعل قيود النصوص تخف تدريجيا بمضي الزمن . فما كانت عليه سورية في ١٩١٩ و ١٩٢٠ من حال اثر معركة ميسلون وانهزام فلول الجيش السوري لا يشبه بأي حال وجه سورية بعد ان اظهرت خلال ستة عشر عاما من مقاومة سلبية وايجابية ما رفع راس البلاد عاليا وجعل الافرنسيين يقتنعون بان لا سبيل لهم الا باتفاق مع السوريين . وهكذا فعلوا عند عقد معاهدة ١٩٣٦ .

فهل كان بامكان المفاوضين السوريين ان ينالوا من الشروط ما هو اصلح مما حصلوا عليه ؟ اربما لا . لكن الذي نلومهم عليه هو ما اعلنوه اثر عودتهم من باريز . فسعد الله الجابري يقول: « لم يبق

لدى الافرنسيين سوى ان يعطونا مرسيليا . »

وفارس الخوري يصف المعاهدة بانها معجزة القرن العشرين.

فهذه الاقوال المخالفة للواقع ادت الى اعتقاد الافرنسيين بانهم تورطوا في منح سورية اكثر مما يجب ، وانهم اضعفوا مركزهم فيها . فاعترض العسكريون على المعاهدة واهملوا تقديمها لمجلس النواب ، مما حمل جميل مردم على السفر مرتين الى باريز لمحاولة اقناع حكومتها بابرام المعاهدة . لكنه وجد نفسه مضطرا لعقد ملاحق جديدة اعتبرت في سورية ضارة بالمصلحة . واعلن فارس الخوري رئيس مجلس النواب مخالفته لما جاء في النصوص الجديدة ، فلم تجرأ الحكومة على تقديمها للمجلس ، وبذلك بقيت هي والمعاهدة الاصلية طي الملفات .

وهكذا ولدت المعاهدة ضعيفة هزيلة . ثم اوثقت بقيود ورباطات سدت منافسها ، فماتت غير مأسوف عليها . والغريب ان الفريق الذي طالب فيما بعد باحيائها وتثبيت العلاقات السورية الافرنسية على اسسها كان الجنرال كاترو الذي ناهضها حين ابرامها وبذل جهده لعرقلة ابرامها . اذ ان كاترو عام ١٩٣٦ لم يعد هو هو عام ١٩٤١ .

وفي هذه الفترة من الزمن كانت فرنسا مسرحا لخيول الالمان ، وكان رئيسها يعالج في فيشي امورها المحلية . اما الجنرال ديغول ، زعيم نهضتها ، فكان ما يزال في برازافيل بالكونغو يسعى مع شرذمة من فلول جيش فرنسا،قوادا وافرادا ، لاستبقاء كيان وطنه في صف الحلفاء . وسورية لم تعد محتلة من قبل الجيش الافرنسي فحسب، بل جاءت الجيوش البريطانية واستولت على الشؤون العامة ولم تترك للافرنسيين سوى مقعد صغير يجلس عليه ممثل فرنسا وهو يميد من تحته ويتأرجح .

وكان ممثل بريطانيا الجنرال سبيرس لا ينفك يحاول زحزحة اركان النفوذ الافرنسي في سورية . فلما وجد كاترو وديغول الا مفر من التفاهم مع السوريين لاستبقاء ما يمكن من مخلفات الانتداب، سعيا لدى شكري القوتلي في ١٩٤٣ اي قبل الانتخابات العامة ، لاقناعه بالرجوع الى احكام معاهدة ١٩٣٦ ، لقاء تأييد انصاره من المرشحين للنيابة او على الاقل عدم مناهضتهم .

وتوصل الفريقان الى حل وسط لم يعلن رسميا في حينه ، لكنه اتضح فيما بعد حينما اخلف القوتلي بوعوده فاشتكى الافرنسيون

السر . واللعبة البارعة التي لعبها القوتلي هي انه طمئن الافرنسيين فانخدعوا باقواله ووعده ولم يعارضوا ترشيحه لرئاسة الجمهورية، مع ان عدد النواب الذين كانوا يتلقون الايحاء من الجنرال كوله لم يكن قليلا . ومن جهة ثانية ، بعث القوتلي دعاته ينشرون الدعاية له على انه خير من هاشم الاتاسي لتولي رئاسة الجمهورية لانه غير مرتبط مع الافرنسيين باي التزام في حين ان الاتاسي كان ارسل الى كاترو كتابا بقبول الرجوع الى احكام معاهـدة ١٩٣٦ . وكانت لعبة القوتلي ناجحة ، ولو انها كانت مطلية بطلاء التضليل والمراوغة. فابعدت الاتاسي عن قصر المهاجرين والجنرال كوله عن قصر الصالحية وتم الامر لمن احكم فصول هذه التمثيلية .

وفي انتخابات رئاسة الجمهورية في ١٩٥٥ لعب شكري القوتلي لعبة مماثلة ليظفر بالرئاسة . فاغرى عبد الناصر والامير فيصل بن عبد العزيز بدعم مشروعهما بضم سـورية الى جبهتهما لمناهضة العراق ، كما وعد العراقيين بان لا يعارض حلف بغداد . وكانت النتيجة ما اراد . اذ دعمته في الوصول الى الكرسي كل من مصر والسعودية والعراق ولبنان وامريكا وبريطانيا وفرنسا ، مع ان بين هذه الدول تنافرا شديدا وتعاكسا في السياسة السورية . الا انه استطاع بالخـداع والتضليل كسـب تاييد الملوك والرؤساء المتنافسين ودعم الدول الاجنبية التي كانت سياستها متقاربة ، وخاصة بشان حلف بغداد . اما في الداخل فقد ادى تضليله هذا الى كسب تاييد الخصمين اللدودين : رشدي الكيخيا ومخائيل اليان اللذين لم يتفقا يوما من الايام على شيء الا على انتخاب القوتلي . ولم يحصل هذا الاتفاق الا لسبب ارتباط هذين النائبين بالسياسة الانغلو اميركية .

ظل الامير فيصل تحت رحمة « رجال الغيب » حتى دعاه البريطانيون الى لندن في شـهر نوفمبر ١٩١٩ وابلغوه هناك بان الجيش البريطاني سوف ينسحب من سورية ونصحوه بالحاح بان يتفاهم مع الحكومة الافرنسية . لكنه هذه المرة ايضا لم يجرؤ على تغيير السياسة التي كان يفرضها عليه افراد جماعته بدمشق ، بل راح بناء على تخطيطهم يؤلف العصابات ويمدها بالمال والاسلحة للتحرش بالافرنسيين وازعاجهم . ولئن اذكت هذه الاعمال جذوة الوطنية في البلاد الا انها لم تثمر الا بايغار ضغينة الافرنسيين ضده ، فانقطع الامل بابقـائه على عرش سورية . ومنع الامير فيصل الافرنسيين من استخدام السكة الحديدية السورية لنقل جيوشهم

الى كيليكيا لمحاربة الاتراك ، ويا ليته كسب بذلك منة مصطفى كمال باشا ، وكانت النتيجة ان اضطر الافرنسيون للتفاهم مع الاتراك والانسحاب من تلك المنطقة. ثم توطدت العلاقات الطيبة بين الفريقين بزيارة فرانكلان بويون الى انقرة وتنازل فرنسا عن محافظة الاسكندرون فيما بعد . فلو دعم الامير فيصل آنئذ الحركة التركية الفتية التي حمل لواءها مصطفى كمال لحال دون تفاهم الافرنسيين معه ، ولما انتهت قضية الاسكندرون على الشكل الذي انتهت اليه في ١٩٣٨ .

وهذا مثال آخر عن طيش رجالاتنا السياسيين من امثال « رجال الغيب » في المحاربة على جميع الجبهات ، دون استبقاء صديق او نصير .

تنصيب فيصل ملكا على سورية

في اذار ١٩٢٠ تقرر تنصيب الامير فيصل ملكا عن سورية . ولست ادري ماذا استهدف هو ورجال الغيب من وراء هذه الخطوة: هل كانت ترمي الى وضع الدول الاجنبية تجاه الامر الواقع ، ام الى اقامة حكم دستوري نيابي يجعل الحكومة مسؤولة تجاه المؤتمر السوري ؟ اما الاجانب ، سواء كان فيصل اميرا او ملكا ، فلا تتغير نظرتهم اليه، ولا يزيد في اعينهم اعتلاء تاج على مفرقه ، ولاتجعلهم يعدلون عن ما بيتوه بحق سورية من خطة وسياسة .

واما الحكم النيابي فكان « رجال الغيب » مسيطرين على فيصل كما كانوا مسيطرين على المؤتمر السورى ، لا سيما بعد وفاة والدي في ١٤ / ١١ / ١٩١٩ . ولربما قصدوا السيطرة على سير امور الوزارة مباشرة ، وذلك باصدار دستور وربط مقدرات الحكومة بالمؤتمر ومشيئته .

وقد جرت حفلة البيعة ببهو دار المجلس البلدي صباح ٨ اذار ١٩٢٠ . وقد دعينا للسراي الكبرى . وعندما تكامل عدد المدعويين سير بهم الى دار البلدية فغص بهوها بالنواب ورجال الدين والوجهاء والموظفين . وحضر الحفلة الكولونيل كوس الافرنسي ، الضابط المنتدب من قبل غورو لدى فيصل ، فاعتبر الناس حضوره دليلا على اعتراف فرنسا بالوضع الجديد .

ولم يكن في البلاد عرش يليق بالملك الجديد . فلما اعيت الحيلة رئيس البلدية ، حمدي الجلاد ، تبرع احد اعضاء البلدية ابو الخير الفرا بتقديم كرسي من داره وكان مزينا بالصدف والعاج من النوع الذي كانت صناعة دمشق تتباهى به .

ووصل الامير فيصل في موكب حافل ، فعزفت الموسيقى ودخل دار البلدية واستوى على العرش . والقى رئيس المؤتمر السوري هاشم الاتاسي خطبة وجيزة تلى فيها القرار التاريخي الذي اتخذه المؤتمر باعلان المملكة السورية وتنصيب الامير فيصل ملكا دستوريا عليها . فاطلقت المدافع مئة طلقة والقى الملك كلمة وجيزة . ثم بدات الجموع تمر امامه فتبايعه بالمصافحة . وكانت الحماسة على اشدها والبهجة على اكملها . ولم يكن بين الحاضرين من جاء منافقا . الجميع يبدون فرحتهم الصميمة ويبتهلون الى الباري تعالى بأن يرعى استقلال البلاد ويحمي مليكها المحبوب . ورفع العلم الجديد على سارية واجهة دار البلدية وهو علم الثورة العربية ، وفيه نجمة بيضاء سباعية في المثلث الاحمر .

وفي اليوم التالي دعيت السـرايا للاشتراك في حفلة تنصيب الوزارة الجديدة . واجتمع في البهو الكبير جمع كبير . ثم حضر الرئيس الجديد وتلى الكتاب الموجه من الملك فيصل الى رضا الركابي المصدر بعبارة « وزير سمير المعالي السيد رضا الركابي » ، وهي ترجمة حرفية لما كان مالوفا في قصر بيلدز العثماني عند مخاطبة الصدر الاعظم : « وزير معاليسميرم . » واظن ان الذي اوحى بهذه الديباجة هو احسان الجابري الذي اختير رئيسا للبلاط الملكي ، فجرى على ما تعلمه حينما كان في دائرة التشريفات بالمابين العثماني اي في قصر بيلدز الذي كان مقرا للسلطان عبد الحميد .

اول وزارة وطنية في عهد الملك فيصل

واليكم اسماء الوزراء في اول وزارة دستورية :

الرئيس : الفريق علي رضا الركابي (من رجال الجيش)

رئيس مجلس الشورى : علاء الدين الدروبي (والي دمشق سابقا ومن رجال الادارة العثمانيين البارزين)

وزير الحربية : اللواء عبد الحميد القلطقجي (من كبار رجال الجيش)

وزير الداخلية : رضا الصلح (والد رياض الصلح)

وزير الخارجية : سعيد الحسيني (من كبار وجهاء القدس)

وزير المالية : فارس الخوري (وكان نائبا عن دمشق في مجلس المبعوثان العثماني)

وزير الحقانية : جلال زهدي (وهو من رجال القضاء البارزين)

وزير المعارف : ساطع الحصري (وهو من رجال التعليم)

وزير التجارة والزراعة : جورج رزق الله .

وبعد يومين تقدمت الوزارة امام المؤتمر السوري لتلاوة بيانها، فنالت ثقة المجلس . وكان المجلس انتقل من البناية التي يشغلها امام جسر فيكتوريا الى بناية العابد بساحة المرجة .

ورغم ان رضا الركابي كان من اعضاء حزب الاستقلال ومن «رجال الغيب» فانه كان عاقلا بصيرا لا تتآلف طبيعته مع هوج رفاقه. لذلك اضطر للاستقالة ، فعهد الى رئيس المؤتمر السوري هاشم الاتاسي امر تأليف الحكومة الجديدة ، فجاءت على الوجه الآتي :

رئيس الوزراء : هاشم الاتاسي (رئيس المؤتمر السوري ومن رجال الادارة العثمانيين)

رئيس مجلس الشورى : علاء الدين الدروبي (ابقاء)

وزير الخارجية : الدكتور عبد الرحمن الشهبندر (من زعماء الوطنيين الشباب)

وزير الداخلية : رضا الصلح (ابقاء)

وزير الحربية : يوسف العظمة (من الضباط الشباب المتطرفين)

وزير المالية : فارس الخوري (ابقاء)

وزير الحقانية : محمد جلال زهدي (ابقاء)

وزير المعارف : ساطع الحصري (ابقاء)

وزير التجارة : جورج رزق الله (ابقاء)

وعندما تقدمت الوزارة الجديدة الى المؤتمر السوري لنيل ثقته (وكان المؤتمر قد انتخب الشيخ رشيد رضا نائب بيروت للرئاسة محل هاشم الاتاسي) جرت مناقشة حامية بين الحكومة والنواب المطالبين باعلان استعداد الوزارة للدفاع حربا عن استقلال البلاد. وكادت الوزارة تسقط لولا ان تداركت الامر واعلن وزير الحربية القائمقام يوسف العظمة باسمها ان وزارته هي وزارة دفاع .

وبدرت من الحكومة الجديدة بادرتان تنسجمان مع خطة الدفاع هذه ، وهما اعلان الجندية الاجبارية واصدار قانون بفرض التجنيد الاجباري. لكن ثمة ما يسمح للمرء بالتساؤل هل كانت الحكومة جادة في هاتين الناحيتين ، ام انها ارادت بهما مسايرة الراي العام والهاء الناس ، او بالاحرى تخويفهم بطلبهم وطلب اموالهم لمصالح الدفاع حتى يرجعوا عن الحاحهم عليها وملاحقتهم اياها ؟

لا ريب في ان اعضاء الحكومة ، بمن فيهم وزير الحربية يوسف العظمة ، كانوا جميعهم — قانعين بان لا سبيل لصد اي هجوم قد تقوم به القوات الافرنسية لاحتلال سورية . فالقوى السورية

لا يمكن اعتبارها جيشا منظما مدربا يقوده ضباط متمرنون على فن الحرب . والمستودعات خالية الا من البنادق والعتاد المختلفة النوع والقياس والصنع — وكلها من مخلفات الجيوش — التركية والالمانية والانكليزية التي حاربت في الربوع السورية . والاراضي المتاخمة لتلك التي احتلها الجيش الافرنسي في البقاع وسواه لم يحفر فيها خندق لايواء الجنود ، ولم ينشأ فيها اي حصن . وما على القارىء الذي يهمه زيادة المعرفة عن هذه الحقائق الا مطالعة كتاب «ميسلون» لمؤلفه ساطع الحصري ، وزير المعارف ، في الحكومتين السوريتين اللتين تولتا الحكم منذ اعلان ملكية فيصل حتى خروجه من دمشق .

قد لا يكون في مقدور الحكومة اذ ذاك ان تخلق في اربعة اشهر جيشا يقاوم الجيش الذي هزم اكبر دولة محترفة لفن الحرب . وهذا امر غير مستغرب ولا يستوجب معاتبة الوزارة على عدم تحقيقه ، لكن الذي يستحق اللوم هو احجامها عن مصارحة الشعب بالحقيقة ولو كانت مرة مريرة ، وتضليل الراي العام والهاب حماسه ، وهي التي كانت قانعة في سرها بان البلاد لا تستطيع بهذا الجيش مقاومة الغزو الافرنسي . وكان فيصل ميالا للتفاهم مع فرنسا ولايجاد تسوية تجنب البلاد مرارة الانهزام في ساحة القتال ، وكان كبار الساسة المتقدمين في السن والخبرة والتجربة لا يعدمون وسيلة لايجاد مخرج يحفظ كرامة البلاد ويدفع عنها خزي الاحتلال والاستعمار ، ولو بقبول بعض التضحيات .

اما الحقل الخارجي فظل خاليا من اي تشبث لحمل احدى الدول الاوروبية على نصرة قضيتنا . صحيح ان الدول المتحالفة اتفقت على تقسيم البلاد العربية في مؤتمر سان ريمو المنعقد بربيع ١٩٢٠ ، وان امريكا ابتعدت عن مشاكل العالم وانطوت على نفسها ، وان روسيا كانت مشغولة في تركيز ثورتها والدفاع عن بلادها تجاه جيوش الروس البيض التي كانت تغذيها بريطانيا وفرنسا ، وانه لم يعد يحسب حساب المانيا والنمسا . لكن بريطانيا وفرنسا كانتا في واقع الامر عدوتين لدودتين تتظاهران بالصداقة وتخفيان الحقد الدفين . ومن عاصر عهد الثورة السورية في ١٩٢٥ يجد في آذان الساسة البريطانيين مرتعا خصبا لسماع شكاوى السوريين ، وفي دفائن عقولهم مراكز جاهزة ومستعدة لخلق المؤامرات والازعاجات لفرنسا في الشرق الادنى .

ويبدو لمن يتابع تاريخ الحوادث في سورية ما بين دخول الامير

فيصل اليها في ١٩١٨ ونشوب الحرب بين الدول العربية واسرائيل ، ان الساسة السوريين المسؤولين عن توجيه بلدهم وادارة شؤونها العسكرية والخارجية لم تتغير عقليتهم ولم تتبدل خطتهم من حيث تهيئة وسائل الدفاع وجعل البلاد قادرة على صون استقلالها . فكما جابهنا العدوان المنتظر من الجانب الافرنسي في ١٩٢٠ بضعف وهزال كذلك جابهنا العدوان الصهيوني الاستعماري على فلسطين في ١٩٤٨ بجيوش عربية ضعيفة في التدريب وفي الاسلحة والذخائر. واضعنا ، في الفترة التي انقضت ما بين نوالنا استقلالنا الحقيقي في ١٩٤٣ وبين دخول الجيوش العربية الى الاراضي الفلسطينية في ١٥ ايار ١٩٤٨ ، الفرصة الذهبية التي فسحت امامنا لخلق جيش قوي بسلاحه متين بتمرينه . وكانت النتيجة في الحالتين واحدة : اندحار امام الجيش الافرنسي وفشل ذريع امام القوى الصهيونية ، اي اضاعة استقلالنا في ١٩٢٠ واضاعة الجزء الاكبر من فلسطين في ١٩٤٨ .

اذكر اني كنت في ١٩٤٨ وزيرا مفوضا في باريز اتلقى من الحكومة بدمشق البرقية تلو البرقية بلزوم تدارك الاسلحة والذخيرة، لكن بعد ان حلت الكارثة واشتبكت الجيوش بعضها مع بعض ، وبعد ان حظرت الدول تصدير الاسلحة الى البلاد العربية . وكان الاحرى ان يدركها الحماس منذ ١٩٤٦ ، حينما كنا قادرين على شراء الاسلحة من اي بلد اوروبي او اميركي ، دون قيد او شرط ؟

لقد بدأ تسليح الجيش السوري عمليا منذ اول صفقة عقدتها بنفسي مع الحكومة الافرنسية في كانون الاول١٩٤٨ ، فوصل السلاح الينا على بارجة تخفرها مدرعة افرنسية في شهر شباط ١٩٤٩ . وتوالت الصفقات بعدها حتى توصلت منذ ١٩٥٥ الى الاتفاق مع حكومة الاتحاد السوفيتي وتشكوسلوفاكيا على مد الجيش السوري بما يلزمه من سلاح وعتاد ، فبلغت الصفقات المتعددة التي عقدتها مع الحكومتين المذكورتين حدا جعل جيشنا في الدرجة الاولى — بين الجيوش العربية — استعدادا وقوة .

فهل لم يكن بمقدور حكامنا في ١٩٢٠ و ١٩٤٦ ان يوجهوا انظارهم شطر الاتحاد السوفيتي لشراء الاسلحة ، ام ان الخوف من بعبع الشيوعية منعهم من ذلك ؟ وهل كانت الدولة المذكورة مستعدة لتلبية طلبنا في هذين التاريخين ؟ ليس بمقدوري ان اعطي جوابا اكيدا عن ١٩٢٠ ، ولكنني اجزم انه كان بالامكان الاعتماد على السلاح الروسي في ١٩٤٤ وما بعدها .

اما ناحية جهاز ادارة الجيش فكان ضعيفا بضباطه المتخرجين من المدرسة الحربية العثمانية ، المتمرنين في الجيش العثماني الذي انتقل من فشل الى فشل في جميع الحروب التي اشترك فيها واما افراد الجيش فواجب الحقيقة يقضي بالاعتراف بانهم لم يكونوا متحلين بفكرة الجندية على الاطلاق . اذ كان اكثرهم قد ذاق مرارة الهزائم المتوالية في حروب المملكة العثمانية ، فانكسرت معنوياتهم . واما الباقي فمرت الحروب وهو متوار عن الانظار هاربا من الجندية. فلم يكن من اليسير ، اذا ان تخلق في برهة وجيزة روحا عسكرية كالتي لا بد عنها في اي جيش .

واما المال فكان ايضـــا بعيدا عن متناول يد وزير المالية . والمال ، كما يقال ، عصب الحرب . وهل يستطاع انشاء جيش والخزينة فارغة ؟ لقد حمل هذا النقص وزير المالية فارس الخوري الى التفكير بقرض داخلي يفرض على الاهلين ، على ان تحدد لجان خاصة نصيب كل فرد منه وفق ما تخمنه لديه من مقدرة مالية . غير ان هذا التدبير جاء متاخرا وفي الوقت الذي تاهب الافرنسيون للهجوم على سورية، بحيث ان نجاح القرض — على فرض النجاح — لم يكن يؤدي الفوائد المرجوة منه . وهذا برهان آخر على اننا ناتي دائما الى المحطة بعد سفر القطار .

اني اعتقد ان النقص الاكبر يمكن رده الى ضعفنا في الاخلاق والعلوم وفي سائر المقومات التي لابد منها لامة قادرة على الحياة وعلى الذود عن حياضها ، فنحن امة ويا للاسف ، لم نزل في دور الانحطاط في الحلقة المفرغة التي تدور فيها جميع الامم : صعود واستقرار ثم هبوط وركود . فهل وصلنا الى القعر فركدنا بانتظار حلول موعد الصعود ؟ اظن ، بل اعتقد ، اننا خرجنا من الحرب العالمية الاولى ونحن في مرحلة الركود في القعر ، واننا بدانا بالصعود على درجات السلم ، درجة درجة . ولكن هزالنا يحول دون الاجراء المنظم ، فنلهث . وتخطىء قدمنا الدرجة فنقع ونرجع الى الوراء متقهقرين ، ثم نصعد الى القمة فنستريح من عناء التسلق ، وتستقر بنا الامور بهناء ورغد .

سبق ان ذكرت كم تدنت الاخلاق اثر الحروب والثورات التي ما انقطعت سلسلتها الرهيبة منذ ١٩١١ . ولم ينحصر هذا الانحلال ضمن نطاق معين . بل تجاوزه الى الامانة والصدق وحسن المعاملة وغير ذلك من المقومات الاخلاقية .

عوامل التفرقة واسباب الفساد في البلاد

ولربما كان حب المال والتفاني في سبيل اقتناصه اكبر سبب في هذا التدني ، اذ ان متطلبات الحياة ازدادت كثيرا بعد انتها الحرب العالمية الاولى وتضاعفت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . فتكاثرت المستلزمات وبات الناس بحاجة اكبر للمال يجابهون به هذا التدفق المتزايد من جيوبهم . فكيف يستطيعون مواجهة هذه الازمة ؟ ابالوقوف متفرجين على غيرهم ينفقون على البهج والمسرات وهم يتظلمون ؟ ام بالحصول على المال باية وسيلة كانت ليعيشوا شهواتهم مثل غيرهم ؟ ان الانسان يجب ان يكون ذا اعصاب قوية وعزائم صابرة حتى يرى هذا البحر من اللذائذ يسبح به غيره وهو على الشاطىء لا يشاركهم فرحاتهم .

ثم ان وسائل الترف والتسلية ازدادت اضعاف اضعاف ما كانت عليه في الماضي ، واساليب الاغراء تنوعت ولم يخترع احد علاجا قادرا على مقاومة هذه الاساليب الفتاكة كما اخترعت الادوية المتعددة لمقاومة الجراثيم بانواعها واشكالها .

ومن جهة إخرى ادرك اصحاب السلطان ان الشباب هم الفئة التي لا يستطيعون مقاومتها اذا ما هاجت وخرجت الى الشارع ، فهي كالسيل لا يرد له هدير . ولذلك عكفوا على اغراء كثير من الشبان بالمال يوزعونه عليهم راتبا شهريا او مكافاة او قرضا ، وراحوا ينظمون لهم الرحلات المغرية الى شتى البلاد . وهكذا وقع الكثير من شبان الجامعة في هذه الحبائل وانصرفوا عن الاهتمام بشؤون بلدهم الى الاستعداد للرحلات والى التزاحم على عضويات اتحادات الطلبة . ثم عملت بينهم الدسيسة والوقيعة ففرقت بينهم وجعلتهم فئات واحزابا لا يتورعون عن ايقاع الاذى بعضهم بالبعض الاخر والمشاجرة والضرب والجرح ، فيما الدساس يتفرج ويضحك لنجاح خطته الشيطانية المبنية على قاعدة « فرق تسد » .

ولم تقتصر هذه المفسدات على الطلاب ، بل راحت تلعب دورها الخبيث في اوساط الشبان المتعلمين منهم ونصف المتعلمين ، فاغدقت عليهم الوظائف ذات الرواتب السخية في الدوائر المستحدثة . ولم يشترط عليهم حيازة شهادة علمية او اجتياز امتحان ، فكانت هذه

الوسيلة من اسباب تدني كفـــاءات الموظفين وانخفاض الانتاج الحكومي .

وكذلك دخلت فئات التجار والصنـــاعيين في دوامة الاغراء والتهديد ، فراح الواحد منهم يعمل جهده لارضاء اصحاب السلطان بالنفاق وبالتأييد حتى يحصل على فائدة مادية في تجارته او صناعته او يحمي ، على زعمه ، مورد رزقه من خطر الاستيلاء والتأميم .

ويجب ان لا ننسى ذكر عامل كان له الشأن الكبير في تفرقة الكلمة وتفتت الجماعات وتراخي الناس عن حقوق البلاد ، اعني به خيبة الامل التي شعر بها الاهلون بعد ان تسلمت الكتلة الوطنية ادارة شؤون البلاد ، سواء في الفترة بين ١٩٣٧ و ١٩٣٩ ، أم في العهد الوطني الاستقلالي الذي بدا في آب ١٩٤٣ . فقد ابلى رجال الكتلة السياسية المذكورة بلاء حسنا في قيادة الشعب بنضاله ضد فرنسا ، ، حتى ان بعضهم بذل الرخيص والغالي في هذا السبيل . ولكنهم عندما تسلموا امور الدولة بـــدت للناس مطامع بعضهم الشخصية وظهر للملأ عجزهم عن تولي الحكم واتقان فنه ، فانهار الحكم الوطني في ١٩٣٩ على يد المفوض السامي الافرنسي غبرييل بيو الذي ضرب ضربته عندما شعر بانخذال الحكم وانفضاض الناس عن الحزب القائم على ادارة البلاد . ثم انهار العهد الاستقلالي في ١٩٤٩ على يد حسني الزعيم عندما شعر بالنقمة السائدة ضد شكري القوتلي ورجال الحزب الوطني . ومنذ ذلك التاريخ لم يعد الحكم بيد المدنيين ، بل استلمه في الظاهر او بالخفاء وراء الستار فريق من الضباط باعوا انفسهم لدول اجنبية وصاروا آلة صماء في ايدي ممثليها في سورية ، يعملون حسب خططهم وتدريبهم . وكان آخر انهيارهم يوم اعلان الوحدة بين مصر وسورية ، حيث تداعى البناء وسقط فوق الرؤوس هادما كل ما كان العاملون المخلصون قد انشأوا في شتى الميادين ، خلال تلك الفترة القصيرة ، رغما عن الصعوبات والقيود التي كانت تغل ايديهم .

هذا جزء من كل ، ادى الى عجز سورية عن مقاومة كل غاز . ولنعد الآن الى متابعة ايراد كيفية تطور الامور في الفترة الاخيرة من حكم الملك فيصل .

لم يكن الفريق الاستعماري من ساسة فرنسا وقادتها ليرتاحوا الى بقاء نظام حكم قوي في سورية يلتف الشعب حوله ويعضده بشكل يجعل الحاكم السوري قويا في الوقوف ضد تحقيق مطامع الاستعماريين

وبرامجهم المالية والاقتصادية والثقافية في البلاد . وهــذا ما دعا حكومة مسيو ميلران ــ التي جاءت الى الحكم في فرنسا عقب حكومة مسيو كليمانصو ــ الى تعيين الجنرال غورو مفوضا ساميا ، وهو معروف بشدة باسه وبارتباطاته الوثقى مع حزب اليمين ، ووضعت تحت تصرفه الملايين من الفرنكات لشراء الضمائر ، وزودت قواه العسكرية بالمعدات الحربية التي قهرت بها جيش المانيا والتي لا قدرة لسورية على الصمود في وجهها .

الانذار الفرنسي وسقــوط عهد الملــك فيصل

وبعث الجنرال غورو في الرابع عشر من تموز ١٩٢٠ بانذاره الشهير الى الملك فيصل ، يطلب فيه ان تقبــل ســورية بالانتداب الافرنسي وبمعاقبة من وقفوا في وجهه ، وان تسلم سكة الحديد من رياق الى الحدود التركية للجيش الافرنسي لاستعمالها في حربه مع الاتراك ، وان يقبل النقد الذي اصدره بنك سورية كعملة رسمية في البلاد وان يعمد الى تسريح الجيش السوري .

وصحا القوم عند وصول هذا الانذار واضطربت الاوساط الســياسية ايمــا اضطــراب . امــا الملــك فدعا الحــكومة ورجال السياسة الى المشورة . وكان اعضاء الوزارة ميالين للتفاهم مع الافرنسيين لانقاذ ما يمكن انقاذه من دعامات الاستقلال ، خوفا من فقدان كل شيء وصيرورة البلاد مستعمرة افرنسية . اما رجال السياسة الذين يغلي في عروقهم دم الشباب المتحمس ويجيش في صدورهم شعور الوطنية المتطرفة ــ مع ان عقولهم كانت تخلو من ميزة تقدير الامكانيات، ووزنها بميزان التروي والتمحيص ــ رفضوا ان ينزلوا عند راي الوزراء المتئدين او يسمحوا للملك فيصل بأن يقود البلاد وفق سياسة حكيمة توفر عليها الشرور والمآسي . فثاروا عليه ، وقاموا بمظاهرات عنيفة ، وسعوا لاسقاط الوزارة في المؤتمر السوري لو لم يتدارك وزير الدفاع المرحوم يوسف العظمة الامر بتلاوة مرسوم تاجيل الجلسات .

غير ان الحكومة لم تتخاذل امام السيل الذي كان يهدد بجرفها وقررت قبول طلبات الجنرال غورو . فبعث اليه رئيس الحكومة السيد هاشم الاتاسي ببرقية رسمية تتضمن قرار الحكومة . غير ان هذه البرقية لم تصل الى بيروت . ولم يكشف حتى الآن عن سر عدم ابراق هذه الرسالة . وقد شاع ان حسن الحكيم ، وكان مديرا عاما للبرق والبريد ، عمد الى عدم ارسالها ، معارضة منه لسياسة الحكومة والملك . وقيل ايضا ان الافرنسيين انفسهم عطلوا الخطوط

البرقية لكي لا تصل الرسالة فتدخل فرنسا الى سورية فاتحة غازية. كما قيل ان ثمة سببا آخر لم يستطع احد اكتشافه . على ان واقع الامر هو ان الملك فيصل ، بعد ان تجنب دخول الجيش الافرنسي الى دمشق بقبوله شروط غورو ، عمد الى تسريح جيشه وفقا لتلك الشروط . لكنه فوجيء ببدء الهجوم الافرنسي ودخوله الاراضي السورية . وابلغه الكولونيل « طولا » ممثل غورو ان الجيش الافرنسي بدأ زحفه ، بناء على امر الجنرال غورو الذي لم يتلق برقية الحكومة السورية . فاجتمع مجلس الوزراء على الفور وقرر ايفاد ساطع الحصري وزير المعارف وجميل الالشي ممثل فيصل في بيروت للاجتماع مع غورو واعلامه بما حصل من موافقة الحكومة السورية على شروط الانذار وان رسالة القبول ارسلت ببرقية لم يعلم سبب عدم وصولها . وتوجه المندوبان فورا الى الحدود، ومعهما الكولونيل طولا ، فاخترقوا بسيارتهم سيل السيارات العسكرية والمدرعات التي احتلت سهل البقاع في طريقها الى وادي الحرير . ثم واصلت سيرها الى عاليه حيث كان الجنرال غورو في مركز قيادته . ولم تجد مساعي الحصري في اقناع القائد الافرنسي بوقف الزحف على سورية ، فرجع الى دمشق خائبا .

ولم يسع الملك فيصل ازاء ذلك الا النزول عند رأي المتطرفين. فالغى مرسوم تسريح الجيش وقرر التطوع العام واعلن حالة الحرب مع فرنسا . وعاد يوسف العظمة لجمع فلول جيشه والمتطوعين وارسالهم الى الغرب للوقوف في وجه الجيش الافرنسي . وكان المرحوم المشار اليه قانعا باستحالة مجابهة العدو والصمود امامه. فجاء الى صديق له وقال : « اني متوجه الآن الى الجبهة لاقدم للبلاد دمي استشهادا في سبيلها . واليك ابنتي الطفلة فاحمها وارعها بعنايتك . » وودعه والدموع تنسكب من عينيه . وسارت الجموع الى الجبهة — اقول الجموع لانني لا استطيع وصفها بجيش منظم . فهي شراذم من الشباب والشيوخ دفعتهم حميتهم وغيرتهم على بلادهم للاقدام على تضحية يائسة لا ينتظر لها النجاح في رد العدو ولا يطلب منها سوى التشبث بتأخير هجومه بضعة ايام ، عسى الضمير العالمي ينتبه ويقف الى جانب شعب ضعيف يدافع عن حريته واستقلاله تجاه قوى عسكرية جبارة تريد السطو عليه وفرض سلطانها واستعمارها .

لكن ، يا للاسف ، فلا الجموع قدرت على الصمود ، ولا

الضمير العالمي هب من سباته . وكيف لقوى غير منظمة وغير مسلحة الا بالايمان ، وببعض البنادق المختلفة الصنع والتاريخ ، وبمدافع كان الاتراك يستعملونها لاطلاق حشوات البارود في مواقيت الصلاة بالاعياد وبايذان الغروب والفجر في اشهر رمضان ، ان تقف في وجه الدبابات والسيارات المصفحة ، وان تسقط الطيارات الافرنسية التي كانت تغير على الجموع وتبيدها بحمم قنابلها ورشاشاتها . ولم يشأ قائد الجيش يوسف العظمة ان يختبيء بمتراس او ان يبعد عن ساحة القتال،بل ظل واقفا على ذروة رابية يتلظى فؤاده بمشاهدة فلول جيشه تتراجع ويتساقط بين صفوفها الشهيد تلو الشهيد . فاراد ان يكون في عداد الشهداء . وآثر ان لا يعود الى دمشق حيا مدحورا ومغلوبا ، بل شهيدا منصورا على عدوه بثباته ومجابهة الموت ، ولتدخل فرنسا على جثته في جبهة الدفاع . حتى لا يقال ان سورية استسلمت وخنعت ، وانما قهرت لانها كانت اضعف من فرنسا . والحرب يربحها القوي ، ولا عيب على الضعيف اذا غلب وسقط في ميدان الوغى شهيدا ، معززا ، مكرما . وقد كرمت سورية شهيدها فيما بعد واطلقتاسمه على ساحة مهمة من ساحات دمشق ، واقامت له تمثالا في حديقة وزارة الدفاع ، يشاهده كل داخل الى دمشق في وضع المدافع عن مدينته الشاهر حسامه في وجه المستعمرين . وما كان للعظمة ان يكرم بهذا الشكل لو لم يفد نفسه في سبيل بلاده ويمتشق سيف الدفاع على راس جيشه في ميسلون . رحم الله شهيدنا برحمته الواسعة . فقد كان من دعامات استقلالنا ومظهرا من مظاهر التضحية في سبيل الوطن .

معركة ميلون واستشهاد يوسف العظمة

تعاقبت هذه الحوادث المفجعة وانا مشغول البال من جراء مرض زوجتي بالحمى ، اثر ولادتها ابنتنا «علية» . وقد توفيت رحمها الله صباح يوم السبت في ٢٤ تموز . وكان يوما شؤما علي وعلى البلاد ، اذ دخل الجيش الافرنسي بنفس النهار الى دمشق . فكان حزني مزدوجا : على فقد الرفيقة التي اخذتها لمشاركتي الحياة ، وعلى البلاد التي فقدت استقلالها وحريتها .

وبهذا تمت المرحلة الاولى لحياة سورية المستقلة . وارى الرجوع الان قليلا الى الوراء ، لاذكر حادثين كان لهما الاثر الاكبر في حياتي ، وهما : زواجي المبكر ، ووفاة زوجتي اولا ووالدي ثانيا . ولا اقصد لهذه المذكرات طابعا روائيا ، لكني ارمي الى نقل شعور الفرح والحزن اللذان غمراني في ١٩١٩ الى قاريء او قارئة يشاركاني

بهجتي ولوعتي ، عساني ادخل الى هذه الذكريات طابعا غير الطابع السياسي او القصصي الجاف .

كانت الزوجة التي اخترتها بنفسي لتشاركني مستقبلي تتردد مع امها واختهـا الى دارنا ، حيث كانت والدتي وعمتي واختي يستقبلنها كأهل واصدقاء . اذ ان والدتها كانت بنت خالة والدي . وكان هذا سبب اختلاطي بهن ، عندما كن يأتن لزيارتنا في دارنا . وقد علق قلبي بحب « سنية » على الرغم من انها كانت اكبر مني بخمس سنين . اذ طغا جمالها وخفة روحها على فؤاد الشاب اليافع الذي كنته . فصرت اترقب فرص مجيء آل راشد باشا مردم بك لانعم برؤية محط آمالي ، واتحين المناسبات لنذهب كلنا الى السيران في الغوطة او دمر . كان ذلك في اواخر ايام الحرب العالمية الاولى . وذات يوم فاجاني والدي امام والدتي بالحديث عن الزواج ، مظهرا منافع الزواج المبكر — وكنت لم اتخط السادسة عشرة من عمري — من حيث صيانة الاخلاق والتعجيل بتأسيس الاسرة . وكان هو بنفسه قد تزوج في ذات السن فتوفت زوجته ثم تزوج بوالدتي. وعندما كان والدي يتكلم في هذا الموضوع ويشيد بمحاسن الزواج، كنت افكر بمن احب واسال نفسي : هل يكتب لي تحقيق آمالي والحصول على موافقة والدي على الزواج بفتاة تكبرني سنا ؟ . وفي النهاية طلب مني ، رحمه الله ، الجواب ان لم يكن فورا فبمهلة معقولة . ولشد ما كان عجبه عندما تلقى مني جوابا ايجابيا واستعدادا للنزول عند رغبته . وخالط عجبه سرور وابتهاج ظهرا على سرائر وجهه ، فقال لي : « الله يرضى عليك ياخالد ويوفقك في حياتك . » والتفت الى والدتى التى لم تقل فرحتها عن فرحة والدي وقال لها : عليك الآن ان تخطبي له احسن بنت تناسبه .

كيف تم زواجي الاول ونهايته المفجعة

وكانت العادة السائدة ان تزور والدة الفتى وقريباته دور العائلات المماثلة رتبة وجاها لترى الفتاة وتختبر خلقها وخلقتها ، ثم تنقل الى ابنها وصفا دقيقا لملامح الفتاة ، من حيث العيون والفم ولون الوجه وطوله او تدويره والقامة والهندام وطريقة المشي وكيفية تقديم القهوة ونغمة الصوت وطلاقة الكلام او الاستحياء . اما الطبع والاخلاق ودرجة التعليم والذكاء والشخصية الذاتية فلم يكن من المستطاع استجلاء خفاياها في زيارة رسمية لا تتجاوز نصف ساعة .

وكان العريس يكتفي بهذا الوصف ليكمل في مخيلته صورة للفتاة تبعد او تقرب من الحقيقة بنسبة مقدرة الشاب على التخيل

وبمقدرة الام على الوصف الدقيق الذي لا يخلو في بعض الاوقات من تجميل او تبشيع يناسبان استحسان الوالدة وموافقة الفتاة لهواها وذوقها .وكان والد الفتى من جهة ثانية يستعلم عن اخلاق اسرة الفتاة ومركزها الاجتماعي ويسرها المالي .

فاذا جاءت هذه الاستطلاعات موافقة لرغبة الوالد والوالدة والاهل ، ذهب الوفد النسائي ليخطب يد الفتاة ، فتستمهل والدتها ريثما تسال الوالد عن اسرة الخاطب — وفي بعض الاحوال عن الخاطب نفسه — من حيث المركز الاجتماعي والمقدرة المالية . فاذا كانت هذه مؤتلفة مع رغبات والد الفتاة وامها واهلها ، قيل لاهل الفتى ان يرسلوا رب العائلة ليزور اب الفتاة زيارة رسمية لطلب يدها والاتفاق بينهما على مقدار المهر المعجل منه والمؤجل ، وانواع القطع الذهبية والماسية التي ستقدم في الخطوبة وبصحبة العريس .

وكان المهر يتراوح بين عشرين ليرة ذهبية والف ليرة ذهبية بنسبة ثروة العائلتين ومركزهما الاجتماعي . وبعد ان يتم الاتفاق على الشؤون المالية ، يحدد يوم تحرير عقد الزواج في دار والدة الخطيبة ، ويدعى اليه الاصدقاء والاهـــل ووجوه القوم واركان الحـــكومة .

وتتم هذه المقدمات والعقود دون ان يتعرف الخطيب بخطيبته ، بل لم يكن يسمح له برؤيتها ولو من بعيد . اما هي فقد تقدم لها صورة خطيبها الشمسية فتكتفي بهذا الرسم الذي من شانه اظهار الوجه على اروع شكل .

واما الاختلاط بين الخطيبين قبل عقد النكاح فكان محظورا بتاتا ، مما يجعل التعرف على الطبائع والعقليات مستحيلا . وهكذا كان الزوج والزوجة كمن يشتري ورقة يانصيب .فاما ان تكون رابحة واما ان تكون خاسرة . وكانوا يعتقدون ان « النصيب » من صنع القدرة الالهية ، فيرتضون بما قسم لهم وتظل الروابط الزوجية متينة بفضل الانسجام الاضطراري الذي يحصل بين الفريقين . وكان الطلاق منبوذا في الطبقة العالية من القوم وتعداد الزوجات ايضا مستبعدا بين افراد تلك الطبقة. اما عند الطبقة الوسطى فلم يكن هذا الشعور متينـا .

ولم يكن ليدور في خلدي ان والدي سيسير على سنة غيره ، فيبعث بوالدتي تجوب دور الوجهاء لتجد فتاة تستنسب زواجي بها. ولذلك جابهته فورا بعزمي على الاقتران بالفتاة التي اخترتها دون

الحاجة الى المراسم المعتادة . فتبسم والدي وقال لي انك من العصر الحديث . وهذه الفتاة تملك من السمعة الطيبة وجمال الخلقة ، ما يجعلها في مقدمة من ارتضيه لك ، غير انها تكبرك سنا ويحسن ان يكون الفرق بالعمر لصالح العروس لا لصالح العريس . ولما رأى مني اصرارا قال : « الله يوفق » . ثم التفت الى والدتي وقال لها : « لقد اجتزنا بفضل تقدمية ابنك المراحل الاولى لمراسم الخطبة . فما عليّ الآن الا ان اذهب توا الى صديقي راشد باشا واطلب منه يد ابنته . » وهكذا فعل . فامتطى عربته وسار الى دار المشار اليه وبادهه بدون مقدمات بما هو قادم لاجله . فارتبك الباشا واجابه بأن سنية جارية في دارك ــ هكذا كانت التقاليد في الكلام المتواضع ــ ولكننا كنا وعدنا بها ابن عمنا سامي باشا لولده حيدر . غير ان ابي لم يقبل هذا العذر واصر على طلبه ، فنزل صديقه عند رغبته لان احدا لم يكن ليرفض طلبا لوالدي بسبب النفوذ الكبير الذي كان يتمتع به في دمشق . وقرأ والدي الفاتحة وعاد الى البيت . وكنت على نار بانتظار رجوعه ، لكنني لم استطع الحصول على الجواب لانه مشى في جنازة عمه اسعد باشا العظم . وتبعته مع جميع افراد الاسرة وانا اسعى لتركيز نظري على نظره . فحانت منه التفاتة نحوي في المقبرة . وتلاقت النظرات ، فعرف انني تواق لمعرفة نتيجة مسعاه . فتبسم واوما لي براسه وغمزني بعينه مشيرا بنجاح المسعى . فعلا البشر وجهي وركضت اقبل يديه والدموع تنهمر من عيني وعينيه . وظن الناس من حولنا انني اعزيه بفقد عمه ولم يدر في خلدهم اني اشكره على تحقيق اكبر امنية في حياتي .

الواقع انه لم يكن لي آباء كثيرون لاقارن بينهم ، ولكنني اجزم بأن ابي كان ارأف اب واطيب اب واحسن اب خلقه الله . ولعلي في ذلك اعبر عن شعوري الخاص . فغيري يستطيع الادعاء بمثل ما ادعي . ولكن ماذا يهمني من كل ذلك ؟ فابي احسن اب وارأف اب . وليقل غيري ما يشاء . فبالحنان والحب تغتفر الانانية .

وصرت اجتمع مع خطيبتي ــ خلافا للعادات المألوفة ــ في دارها او دارنا ، وقدمت لها خاتم الخطوبة ولم يكن شائعا . ثم دعا والدي عددا كبيرا من الوجهاء واركان الحكومة لحفلة عقد القران بدار راشد باشا . جرت مراسم العقد امام المدعوين . كان والدي وليي ووكيلي ، وكان والد الخطيبة وليها . فجلسا وجها لوجه وبينهما الشيخ الذي تولى تلاوة التعابير المصطلح عليها : هل زوجت ابنتك

فلانة الى فلان بمهر قدره كذا ، معجله كذا ، ومؤخره كذا ؟ فيقول وكيل الزوجة : نعم زوجت ابنتي فلانة الى فلان بمهر قدره كذا الخ . . ويأتي دور وكيل الزوج فيقول : قبلت زواج فلانة من موكلي بمهر قدره الخ . . ويعود الشيخ فيقول لوكيل الزوجة : زوج وانكح موكلتك فلانة الى فلان بمهر قدره كذا ، فيقول الوكيل : زوجت وانكحت الخ . . ثم يردد وكيل الزوج : زوجت موكلي وانكحته فلانة ، الى آخره . ثم يقراون الفاتحة . ويبدأ القراء بتلاوة السيرة النبوية والموشحات . وتوزع عند الختام على المدعوين صرات الملبس ــ ضمن الورق ــ الملون لا كما هو جار الآن اي وضع الملبس في علب مصنوعة من الزجاج او الخزف . ثم تقدم للضيوف البوظة او المهلبية حسب الموسم . وينتهي الحفل بالبهجة والسرور .

حفلة زواجي بحضور الامير فيصل والوجهاء

وقضينا الصيف في نعيم وهناء . وكان قد تحدد يوم العرس في ١١ ايلول ١٩٢٠ . وبوشر بالاستحضارات ، فجاء « جهاز » العروس وهو مؤلف من اثاث غرفة نوم وصالون من شغل دمشق ، اي ما يسمـــــونه « مطعم » . وهـــو مصنـــوع من الخشـــب المنزل فيه قطع الصدف والعظم باشكال هندسية عربية ، لكنه لا يؤمن راحة الجالسين عليه . وفي عصر يوم العرس لبست البزة العسكرية التي اشار الامير فيصل على والدي بان ارتديها وانتظرت حضور العروس . فلما وصلت في موكبها المؤلف من اقاربها ومدعويها استقبلتهم في الجناح الخارجي من الدار وسرت الى جانب عروستي وقد اسندت يدها على يـــدي . وانطلقت النساء بالزغاريد . ولما وصلنا الى باب الجناح الداخلي الصقت العروس قطعة من العجين على قوس الباب ، حسب العادات الجارية . غير ان هذه القطعة ما لبثت ان وقعت على الارض فاعادت لصقها ثانية . ثم جلسنا فى صدر القاعة الفســيحة على اريكة عـــالية . ووقف حولنا الاهل والصديقات ، وكلهن من الجنس اللطيف ، ما عدا والدي وانا . وراحت فرقة الغناء تعزف وتغني جلوة العروسة وهي :

اسم‌الله ، اسم الله ياعروسه   ياورد خيم علينا

وقد جئت على ذكرها كاملة فيما سبق .

وكان الجوق مؤلفا من الاخوات مكنو . وكانت كل واحدة منهن تعزف على آلة موسيقية وهن يغنين سوية . وعلا البشر وجه والدي وطفحت فرحته بما لم اكن اعهده به من اظهار شعوره . ورمى طربوشه الى العلاء حتى كاد يصل الى سقف القاعة وانطلقت دموعه

من مآقيها واختلطت مع دموع والدتي وهو يعانقها ويقبلها امام الجميع ، خلافا لما كان معهودا في ذلك العصر . وراح مع المدعوات يجود على المغنيات بالليرات الذهبية ، فيسمع رنين سقوطها في « صحن الجلوة » كلما تقدمت احدى الحاضرات لالقاء ما تجود به ، حتى تكدس مبلغ وفير من المال قابله جوق المغنيات بحماس متزايد وجود واكثار من الالحان المطربة العذبة . ثم جلا القوم من القاعة وبقيت لوحدي مع عروستي نتطلع الى بعضنا ولا نجد ما نقوله . وبعد فترة عاد الجميع يهنئونها بالعناق والقبل . وكانت هذه هي الفرصة الوحيدة التي كان يستطيع الرجل ان يشاهد عددا « غفيرا » من السيدات بدون حجاب ، وان يطبع على خدودهن قبلات كما لن يفعل ذلك مرة ثانية طيلة حياته . فكان وجود العروس الى جانبه يلبسه ثوب الطهارة والنزاهة . ام لعل النساء كن ينتهزن هذه الفرصة الوحيدة ربما في عمرهن ، ليقبلن رجلا ويلمسن كتفه !

وبعد انتهاء هذا الجزء من مراسم العرس ، توجهت مع والدي ولفيف الاهل والاصدقاء الى دار المرحوم محمود بك البارودي ، والد فخري بك البارودي ، لحضور حفلة « التلبيسة » . وكان المرحوم البارودي قد حصل على وعد والدي بأن يخصه بهذه الحفلة عند عقد قراني . واراد والدي الاستغناء عنها والاعتذار من صديقه ، الا انني رجوته ان لا يفعل . ومن كان في سني وقتئذ ، فانه يحب الظهور والحفلات التي تقام من اجله . وقد تبدلت عقليتي ، فيما بعد، وصرت اتجنب كل ما يجعلني في الصف الاول تحت الاضواء اللامعة.

وحضر الحفلة ما ينوف عن سبعمائة مدعو ، جاء على راسهم الامير فيصل ومعه اخوه الامير زيد وسائر الامراء ، والحاكم العسكري رضــا باشا الركابي واعضاء حكومتــه وموظفيها ، والاعيان والوجهاء . وضاقت الدار الفسيحة بمن فيها . وانتصبت في صدر القاعة الرئيسية على مقعد بجانب الامير فيصل ، وفقا للعادة المتبعة باجلاس العريس في صدر القاعة . وبدات الجوقة الموسيقية — المؤلفة من رجال فقط — تعزف البشارف ، ثم الموشحات ثم الادوار الرائجة اذ ذاك . ولم تكن الالات الموسيقية المستعملة على «التخت» المنصوب في صحن الدار تزيد على عود وقانون ودربكة ودف . وكان هذا العدد القليل من الالات يضفي على الحاضرين جوا من الطرب والانشراح اكثر مما تضفيه الالات العديدة في الوقت الحاضر .

وطاف الندال على المدعوين بانواع البوظة الشامية الشهيرة ،

وبالقهوة وشراب الليمون ، بينما كان شباب الحي يتفننون بترديد الاغاني الشعبية والعراضات .

وكان الامير فيصل قد اعتزم السفر الى باريز في الصباح ، فاعتذر وترك الحفلة مبكرا . وعلى الاثر عدت مع والدي الى الدار في عربة جلس معنا فيها الشيخ تاج‌الحسيني ، صديق والدي الحميم. وسرنا على راس رتل من العربات حتى وصلنا الى دارنا بسوق ساروجه وهناك غـيرت ثيابي ولبست بدلة سموكن على مرأى من الاصـدقاء الذين اخـذوا يداعبونني بوخـز الدبابيس ، كما جرت العادة ، بينما كانت اصوات العراضات والزغاريد تملأ الفضاء . ثم دخلت مع والدي الى الجناح الداخلي ، حيث اخذت يد العروس وعدنـا الى الجلوس على الاريكـة المزينة بالزهور الاصطناعية وبالانوار الكهربائية .

وذكروا لي انه اثناء غيابنا في دار البارودي ، وبينما كانت العروس والفتيات يقمن « التفتيلة » ، اي السير حول البحرة الكبيرة سبع مرات والشموع في ايديهن ، انقطع السلك الذي كان معلقا عليه المصباح الكهربائي الكبير فوق البحرة وانكسر زجاجه . وانقطع التيار الكهربائي كله فساد الذعر وسكتت الموسيقى وخاف الجميع من شبوب الحريق . ويبدو ان احدى النساء الجالسات على السطح حول الدار، سببت قطع السلك عن قصد او عن غير قصد . وراحت المتشائمات من النساء يضفن الى هذا الحادث ما جرى عند دخول العروس اول مرة الى الدار، وهو وقوع «المجينة»، ويستعذن بالله من هذا الفأل غير الحسن . وقد تحقق فيما بعد هذا التشاؤم فتوفي والدي ولم يمض على العرس شهران ، ثم توفيت العروس نفسها بعد عشرة اشهر . وانقلبت الدار التي كانت يومئذ تشع بهجة وفرحا الى دار يخيم عليها سواد الحزن ولوعة الفراق .

فجيعتي الاولى بوفاة والدي

وهكذا لم يطل بي عهد الفرح والسرور الا اشهر معدودات ، وقضي على ما كنت احلم به من نعمة الحياة الزوجية الراغدة في ظل والد حنون الى ان تتفتح عيناي كاملة في مواجهـة مصاعب الحياة روحا ومادة . ذلك انني كنت لم ازل في سن تنقصها الخبرة ومعرفة اساليب الجهاد في معترك الحياة . الا ان الله تعالى عوض عليّ بوالدة رؤوفة قاسمت والدي وشاركته المتاعب والمصاعب ،فاكتسبت خبرة ودراية واسـعتين في ادارة شؤونها لا تتناسبان مع جهلها القراءة والكتابة وهو ما كانت مع بنات عصرها تتالم وتتحسر منه .

ولم يكن والدي قد دربني على ممارسة ادارة اي جزء من موارد رزقه بل كان اول ما فكر به هو حمايتي من مواطن الفساد . فمنعني من الاختلاط مع اي شاب شك في سلوكه ، وحال دون ارتيادي المقاهي والملاهي جميعها ، حتى دور السينما . ثم زوجني ووضع اساس اسرتي العتيدة على امل اكمال نواقص تدريبي وتمريني على الحياة فيما بعد ذلك . غير ان القدر لم يمهله فمات فجاة . ولم يترك له القدر حتى فرصة المرض ليزودني بنصائحه الثمينة عن معرفته العميقة بخفايا هذا العالم واسرار النجاح فيه .

وكانت حرقتي بفقده مزدوجة : انهيار عماد الدار وفراقه الابدي ، فضلا عن انقطاع املي في الافادة من خبرته وتجربته في الحياة .

فاكملت سيري على طريق الحياة وحيدا لا تقودني يد والد حنون شفيق ، اعمل على اكتساب الخبرة واستخلاص المفيد من المضر ، والحسن من السيء بقدر ما يستنتجه عقلي . ولهذا امسيت منكمشا على نفسي، شاكا في الجميع، وفي كل ما يقال، عديم الاعتماد على احد ، سيء الظن باقرب الناس واخلصهم .

واكثر ما عانيت من مرارة هو ان والدي لم يخلف لي من اصدقائه الذين غمرهم بفضله سوى صديق واحد،تبرع بالاشراف على اشغالنا وظل وفيا لهذه المهمة حتى توفي رحمه اللــــه . وارى من واجب الاعتراف بالفضل والاقرار بوفاء هذا الرجل لذكرى والدي ان اسجل هنا اني مدين له بما اكتسبت من معرفة تسيير اشغالي الخاصة ، وبما قام به من رحلات وكرسه من وقت في هذا السبيل . وهذا الرجل هو المرحوم كامل الياسيني .

جمع هذا الرجل الى المقدرة على تصريف الامور بحنكة ومعرفة كاملتين، ميزة الحديث الحلو والروح الانيسة في المجالس الخاصة . لكنه كان يبدو في المجالس العامة لمن لا يعرفه غليظ الجسم ، كئيب الوجه ، عابسه . فهو كان يخفي ، في الواقع ، وراء نظارته السوداء عينين تسترقان من دماغ محدثه خفايا افكاره ، ويملك خلف تجاعيد وجهه روحا رغدة تطلق النكتة الناعمة او اللاذعة دون ان تتحرك هذه التجاعيد . اما مقدرته على تصريف الامور وحل المشاكل فكانت فائقة .

وعندما بعثت والدتي وراءه وطلبت اليه ان يتولى الاشراف على شؤوننا وتوجيهي الى ممارسة هذا العمل ، لـم يتردد لحظة

عن تلبية رغبتها . وهكذا بذل وقته وجهده في سبيل خدمتنا عشر سنوات ، حتى اخذ منه الكبر قدرته على العمل . لكنه ظل يرشدني بنصائحه المخلصة .

وكان منذ بدء عمله معي قد رفض ان نعين له راتبا او مكافاة سنوية . وقال للمرحوم عطا بك الايوبي — وكان المشار اليه ايضا من خلصاء والدي واصدقائه المقربين — ان لمحمد باشا فضلا علي في حياتي المعنوية والمالية ، فما حصلت عليه من الثروة كان مما قدمه لي من مساعدة ودعم.فعلي؛ ان ارد جزءا يسيرا مما حباني به ابو خالد من معروف . هكذا اجاب الياسيني على واسطة المرحوم الايوبي . وعبثا ذهبت محاولاتنا للتعويض عليه .

كان موقف الياسيني اول درس لي في الوفاء وتقدير المعروف ، تلقيته من رجل قد يكون لوالدي فضل عليه اقل مما كان له على سواه . لكن عرفان الجميل ظهر منه واختفى لدى الكثيرين .

ولم يقتصر انكار الجميل على اصدقاء والدي فحسب ، بل تجاوزهم الى من اسديت اليهم معروفا قابلوه فيما بعد بالجفاء او الاذى ، او على الاقل بالانكار والتجاهل .

ولا استطيع ان اصف الناس كلهم بعدم استحقاقهم المعروف، كما جاء في بيت شعر ماثور . لكن الواقع هو انني آسف لعجزي في صناعة الشعر ، والا لعارضت هذا البيت بما مفاده ان كل معروف يجري الى البحر لتطفو عليهالامواج وتاكله الاسماك. وازعج ما لقيت في عمري من المشاكسات والمواقف المضرة بي ، مادة ومعنى ، هي تلك التي صدرت عن من ساعدتهم ومنحتهم عطفي وتأييدي وقدمت صالحهم على صالحي . وليت الامر في بعض الاحوال اقتصر على نسيان الجميل ، فهذا اهون من الاساءة الي وايقاع الضرر بي من قبل من حميتهم من الاساءة ومنعت عنهم الاذى والضرر .

وقد لا اكون الوحيد في التذمر من هذه الحال . فقد سمعت شكاوى عديدة ممن اصابهم ما اصابني. وكنت اخفف عنهم بذكر وقائع جرت معي وجعلتني اشعر بما يشعرون من مرارة . والانسان يفرج عن كربته بذكر مصائب غيره . وقد يشمت بها لكي لا يبدو له انه وحيد في ما اصابه منها . اليس بشعا ان يرغب المرء في التفرد بالهناء والابتعاد عن المشاركة في الاحزان ؟

امضيت بين الحادي عشر من ايلول ١٩١٩ والرابع من تشرين

الثاني من العام نفســـه احلى ايام شبابي ، في جو مليء بالبهجة والفرح ، وتحت جناح اب وام يبصران نور الهناءة من خلال عيوني ويبذلان العزيز الغالي في سبيل مرضاتي ، وفي احضان اسرة حديثة العهد تعقد على المستقبل اطيب الاحلام واحلاها . وكيف لا يطيب العيش في هذا الجو ، والمرء خال من المسؤوليات ومن ثقل اعباء الحياة ، بفضل والد يؤمن للاسرة كلها ما تحتاج اليه من مستلزمات وكماليات على مستوى يتجاوز مستوى الاسر الاخرى في دمشق . صحيح ان تلك المستلزمات لم تكن لتصل في ذلك الحين الى ما هي عليه اليوم ، لكن لكل عصر مقتضياته ومستوى للعيش يختلف بمرور الايام وما يتولد فيها من مستحدثات تستوجب الزيادة في وسائل الترف ، بل حتى وسائل العيش العادي .

دامت هناءتي بعد الزفاف شهرين رفرف السعد فيهما على دارنا وسطعت شمس المرح قبل ان تأفل ليحل محل نورها ظلام الاحزان والاكدار . ومن كان يدري ان تلك الايام السعيدة سيعقبها في القريب العاجل، ليل حالك مدلهم، تعصف فيه رياح هوجاء تطفىء شمعتين كانتا تشعان على الدار ومن فيها بنورهما الحبيب ؟

كيف توفي والدي وشيع جثمـــانه

وفي ذات يوم ، كنت مع رفيقي فؤاد المحاسني ومنير العيطة عائدين من سوق الحميدية ، حيث اشتريت بعض الحوائج المدرسية استعدادا لافتتاح مدرسة الحقوق في اليوم التالي . وفيما نحن في طريقنا خالون من كل مكدر ، اذ باحدى خادماتنا تقترب مني وتقول : « عد ياسيدي فورا الى الدار . » فتشاءمت من هذا الطلب وسألتها عن السبب، فتهربت .لكنها كاشفتني في النهاية بأن والدي مريض وقد احاط به الاطباء .واسرعنا الخطى حتى دخلت غرفة والدي ، فاذا به مسجى على ديوان ، ووالدتي تحضنه ، وصديقه الصيدلي وانس ماهر يقدم له علاجا . فتعانقنا باكيين . وضمني الى صدره بشكل لم اعهده به قبلا ، وراح يقبل وجنتي والدموع تنهمر من وجهه وهو يقول : « ولدي خالد .. اين كنت ؟ .. كدت اقضي قبل ان اراك ! » فسألت والدتي عما جرى فلم تحر جوابا .وانتهزت خروج السيد ماهر الى الباحة فتبعته ، فافضى لي بان نوبة قلبية شديدة كادت تقضي على والدي الحبيب ، فاستدعى عددا من الاطباء وصفوا له العلاج اللازم . فسألته عما اذا كان الخطر قد زال ، فسكت قليلا ثم قال : « يابني ، الاعمار بيد الله ! » فتوجست خشية هذا الجواب وعدت الى جانب والدي افرك يده واقدم له ما يستطيع الحب البنوي

تقديمه من تشجيع نفساني في مقاومة الجسم لما يتهدده من خطر . ولم اجد زوجتي في الدار . وقيل لي انها ذهبت الى دار اهلها بزيارة. فارسلت وراءها لعلها تساعدني على تحمل هذه الازمة ، وتشاركني في تخفيف اثرها .

وكنت ارى على وجه والدي المسكين آثار الازمة ، واشاهد كيف كان يتنفس بصعوبة وهو مستند الى صدر والدتي التي كانت اكثرنا ضبطا لاعصابها ، مع انها لم تكن تستطيع توقيف عضلتي خديها من الاضطراب الظاهر .

وبينما كانت والدتي تقرأ وتدمدم آيات من القرآن الكريم حفظتها منذ صباها، وتشاركها في ذلك عمتي وهي تكفكف دموعها، كنت ارقب على وجه والدي تطور الازمة، وابتهل الى الله ان يزيل عنه كربتها ، وان يحفظ على راسنا هذا الوالد العظيم، واذ بي اراه قد جحظت عيناه فجاة وتلون وجهه حتى كاد يصبح ازرق غامقا . وجمدت آخر كلمة على شفتيه ، ثم ارتمى راسه الى الامام وراح يشخر ويزفر . فصاحت والدتي تطلب الصيدلي ماهر ، فجاء مهرولا . ولما رأى ما راى اشار علينا بتمديد والدي على الديوان وطلب موسى على عجل . فركضت الى غرفة والدي لعلي اجلب له موسى حلاقة او شفـرة ، فلم تجدهما عيناي بتأثير الاضطراب . وركضت الى الشارع ودخلت دكان الحلاق وطلبت منه موسى فرفض ان يعطيني واحدة ، اذ انه شاهد اضطرابي وظن بي سوءا . فعدت الى الدار مهرولا دون ان افهمه سبب طلبي او اشير عليه باحضار الموسى لتخليص والدي من يد الموت . ولما عدت الى الغرفة وجدت والدي مسجى وشخيره لا ينقطع . فركعت امامه افرك يديه ، واذ باختي تشدني من يدي الى خارج الغرفة . وظننتها تريد امرا فلحقتها الى غرفة بعيدة ، حيث اشارت على بالمكوث فيها وعدم الخروج منها ، خصوصا الى غرفة والدي . ولعلها ارادت من وراء ذلك ان تجنبني رؤية الوفاة . لكنني هربت من الغرفة وعدت الى جانب ابي ، فرايت مشهدا اليما لا انساه طول حياتي . فقد جمد والدي وانقطع شخيره وانقلبت عيناه وتبلورتا . وكانت والدتي تضرب بكفيها على ركبتيها وتبكي بلوعة وتندب زوجها ورفيق حياتها وعماد دارها . فسقطت على ركبتي ورحت اقبل يد ابي . وغبت عن الدنيا ، فلم استفق الا ويدان تجراني الى الباحة الخارجية من الدار ، وهناك اجلسوني على كرسي . تطلعت الى من حولي فلم اتعرف عليهم ، واضعت صوابي . لكن منظر والدي

الاخير ظل جاثما في مخيلتي . كنت اشعر انه مات ، لكن الدموع انسحبت من عيني ، وجمد الكلام على لساني ، وصرت لا ارى سوى ذلك المنظر المفجع ولا اسمع من الاصوات سوى الولاويل . وكان الناس يتدفقون حولي ويحدقون اليكانني انا الجدير بالعناية لا والدي المتمدد على فراش الردى. وجاء الاصدقاء يبكون والحساد يتباكون . وامتلات الدار بمن فيها . وكيفما التفت لم ار سوى رؤوس واعين متوجهة كلها نحوي . ولربما اعتقد الكثيرون اني جننت او اصابني مكروه .

وشـــق على المحبين ان ابقى في هذه الحال ، افرح المبغضين واكدر المحبين . فرفعوني عن الكرسي وحملوني من تحت ابطي وذهبوا بي الى دار شقيقتي الملاصق لدرانا . فارتميت على الفراش واخفيت راسي في الوسائد . ثم وصلت زوجتي اخيرا ، فالتجأت الى حنوها . وهكذا شعرت بدفء العاطفة الصادقة ، ونسيت نفسي وما اصابني من مصيبة . وغبت مرة ثانية عن الوعي حتى هزني عامل روحي آخر ، ففتحت عيني واذ بي في حضن والدتي الحزينة وقد بدت مجللة بسواد مخيف . ولكنها ، خوفا علي من اشتداد حزني ، لم تشأ ان تنكأ جروحي، بل اخذت تحدثني كما تحدث ام ابنها الصغير ، او تماما كما حدثتني يوم سـقطت من الشرفة وافقت فوجدتني في حضنها تقبلني وتربت على كتفي . ولولا الوضع غـير الملائم، لكانت دمدمت لي الاغنية التي كانت تنشدها لي في طفولتي لانام. وخففت والدتي وزوجتي الكثير من آلامي، فغدوت اسبح ببحر من الخيال كانني في جنـة ارضية وحولي الازهـار والطيور والمياه تنساب في جداول فضية . وعاودتني الغيبوبة وهدات اعصابي ، ثم استرسلت في غفوة متقطعة حتى الصباح .

وكان يتوجب علي القيام بدور كبير في مراسم تشييع جثمانه . الا ان حالتي الصحية وخوف اصدقائي علي خفف عني اعباء ثقيلة . وغصت الدار منذ الصباح الباكر بافواج المعزين ، منهم من بقي فيها ومنهم من ذهب ثم عاد ظهرا للاشتراك في التشييع . فلما حنا وقت سير الجنازة توجهت من دار شقيقتي الى دارنا وانتظرت وانا في حالة تشبه الذهول ، يحيط بي الاصدقــاء والاقارب . وتعالت اصوات البكاء والنحيب والولاويل من داخل الدار ، عندما اخرج النعش محمولا على الاكتاف . فلما رايته اصابتني هزة عصبية . وصرت ارتعش . وكدت اقع على الارض لولا ان تابط ذراعي رفاقي

المقربين . ثم سـرت خلف النعش ، والجموع الغفيرة ورائي ، واصوات المؤذنين تنادي بالتراتيل المعتادة . وسارت الجنازة في طريق سوق ساروجة الى الجامع الاموي ومنها الى المدفن العائلي في مقبرة الباب الصغير بحي الميدان . غير ان اصدقائي خشوا علي مغبة السير وراء النعش ، وانا على ما انا عليه من اضطراب . فنزلوا عند اشارة الاطباء واخرجوني من الموكب واركبوني العربة التي سارت بنا جميعا الى المدفن ، حيث انتظرنا الموكب .

وكانت التقاليد تقضي بان يشرف ابنـاء الفقيد على الدفن بأنفسهم ، وان يشتركوا في تنزيل المتوفي الى لحده الاخير . غير انني منعت من الاقتراب ، بحيث لم اشاهد جثمان والدي الحبيب يوارى في التراب . غير ان الله تعالى عوض علي برؤية هذا الجثمان الطاهر مرة اخرى في هذه الحياة الدنيا ، عندما بنينا له قبرا جديدا نقلنا اليه رفاته . وعندما فتحنا الصندوق وكشفنا جزءا من الكفن ، ظهر امامي وجه ابي وكانه في سبات عميق . فلم يتغير من معالمه شيء . كان الجلد كأنه من الشمع والشعر لاصق به . وقد عجب من ذلك كل من اشترك معي بالنظر الى الجسد الذي كان مضى على وفاته ١٣ عاما . ولعل للصندوق الخشبي الموضوع فيه ، او لجفاف التربة ، الاثر الكبير في حفظ الجثمان . او لعل هنالك عوامل اخرى . وعلى كل حال ، فان الله تعالى من علي برؤية جسد والدي بعد ارتحاله بمدة طويلة . وهكذا شفيت غلتي .

وقفت عند باب المدفن اتقبل التعازي ، دون سائر اعضاء اسرتنا . ذلك لانهم كانوا على خلاف مع والدي قبيل ارتحاله ، لاسباب خاصة تتعلق بوقف آل العظم ورفضه تقسيمه خلافا لاحكام الدين القويم .

وفي المساء ، ذهبت مع الاصدقاء الى الجامع الاموي لحضور « الصباحية » . وهي حفلة كانت تقام لمدة ثلاث ليال متوالية في احد الجوامع ، يقرأ فيها القرآن المجيد وترتـل الاناشيد ثم يتقبل آل الفقيد تعازي الحاضرين ، كل واحد منهم بدوره . وهم يرددون امام اعضاء الاسرة عبارات التعزية المألوفة .

ثم عدنا الى الدار ، حيث وفد الذين كانوا في الجامع وانتشروا في قاعات الدار وباحتها . واديرت عليهم كؤوس المرطبات وفناجين القهوة مع السكاير .

وكانت هذه المراسم ، على حد تفكير ابناء ذلك العصر ، ترمي

الى مجالسة اقرباء المتوفي وعدم تركهم وحدهم يتلوعون اسفا وحسرة. ولا ريب في ان هذه الزيارات والمراسم كانت تشغل الاقرباء وتنسيهم، الى حد ما ، مرارة مصيبتهم .

وقد تقلصت الآن هـذه الحفلات والمراسم واقتصرت على التعزية مساء في دار الفقيد لمدة ثلاث ليال . واستغني عن حفلتي الاربعين ومرور العام الاول ، حين كانت تقام في دار المتوفي مآدب عشاء يدعى اليها مشايخ ودراويش المولوية ، فيفتلون الساعات بتنابيزهم البيضاء .

وبينما تكون الحلقة دائرة ، كان المنشدون يرتلون القصائد بمدح الرسول الاعظم وينشدون الاغاني المالوفة في مثل هذا المقام . وبعد الانتهاء يتقبل اصحاب الدار التعازي مجددا .

ولا يستطيع المرء تفسير اسباب هذه الحفلات ولا تبريرها فان كانت لذكرى مرور اربعين يوما او عاما على الوفاة ، فالاجدى اقامة حفلة تأبين يعدد فيها الخطباء مآثر الفقيد ، ثم تقرأ الفاتحة على روحه ، ويوزع على الفقراء والمحتاجين ما تجود به نفوس الاقرباء . اما ان يقتصر الامر على اطعام الناس انواع الحلويات والفواكه والاكتفاء بتلاوة القصائد والاناشيد ذات الطابع السخيف ، وعلى رؤية اجسام المولويين تفتل في الباحة مثل راقصات « الباليه »، فليس فيه تسلية للمصابين ولا اشباع لبطون الجائعين .

اما الآن فقد استغني عن حمل النعش على الاكف ، واعتيد نقل الجثمان بسيارة تتبعها سيارات المشتركين في الجنازة . وبطلت « الصباحية » في الجامع واقتصرت التعزية في الليالي الثلاث على زيارة دار الفقيد والمكوث خمس دقائق بعد تناول فنجان القهوة المرة، بينما يقرأ المشايخ آيات من الذكر الحكيم .

واما «التنزيلة» ، اي حفلة الغداء التي كان احد اقارب المتوفي واصدقائه يدعو اليها مشيعي الجنازة ، فقد زالت تقريبا .

الفصل الثالث

مشاهداتي في تاريخ سورية

يقال ان اعذب ايام المرء هي ايام الدراسة ، وقد يكون ذلك صحيحا لكن وصف السعادة الاقرب الى الواقع هو ما سمعته ذات يوم من المرحوم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر: «السعادة هي ان نكون منسجمين مع من حولنا » فايام الدراسة بموجب هذه القاعدة، يمكن وصفها بأرغد الايام ، اذ كنا في المدرسة منسجمين مع رفاقنا ، لا تفرقنا نظرة اجتماعية او سياسية تحل البغضاء محل الوئام، ناجحين في دروسنا نؤدي الفحوص بما يساعدنا على اجتياز الصفوف الواحد تلو الاخر بدون اكمال او رسوب .

فالسعادة ، اذا ، ليست رهينة عمر معين ، ولا بيئة محدده بالذات ، ولا بلد دون اخر ، وانما السعادة في ان يكون الجسم صحيحا معافى ، وأن تكون العقلية منسجمة على قدر الامكان مع عقلية الجماعات المعاصرة ، وان تكون ذات اليد كافية لتأمين النفقات الضرورية والاضافية ، سواء برزق حلال يعيش الانسان بمورده او بنتيجة ما يصرفه من المجهود الفكري او الجسدي . واما العوامل المعنوية التي لا غنى عنها ، فمعيشة هنيئة ضمن اسرة متفاهمة متساندة لا يهز كيانها ، من وقت لاخر ، خلاف في الامزجة او شهوة بالتحكم . واما خارج الاسرة فسعادة المرء تكون في اكثر الحالات منوطة بسعادة المواطنين ، وبالاستقرار الذي يجب ان يسود البلاد لينصرف كل شخص الى عمله مطمئنا الى المستقبل ، عارفا انه سيجني بنفسه ثمرات جهوده ومتاعبه . واما النظام الاجتماعي فبصرف النظر عن محاسن هذا وذاك ، فالمهم ان تستقر البلاد على نظام معين طويل الاجل . واني لازعم ان اي فرد من مواطني البلاد ذات النظام الشيوعي مطمئن اكثر بكثير من اثرى اثرياء دول امريكا الوسطى او الجنوبية ، او البلاد العربية جمعاء . فالمرء يعتاد على كل شيء ، ولو كان بصعوبة ومرارة . فهو بعد ان يعتاد على نظام

معين ينظم حياته على موجباته ، راضيا بالامر الواقع بقطف ثمرات الاستقرار الهادىء ، ينعم بسعادة منبثقة من انسجامه مع المحيط الذي يعيش فيه .

رايي في الطور الانتقالي بين نظامين مختلفين

اما الطور الانتقالي بين نظامين مختلفين اختلافا شاسعا ، فهو كالجسر الذي يهتز تحت المرء عند مروره عليه اهتزازا يحتاج الى كثير من التعقل والتروي حتى لا تلفظه هزة خارج الحواجز الواقية . فيقع في الهاوية ويجرفه التيار . واني لاذكر اني في صباي كنت اتابع اخبار المهاجرين من روسيا ممن كانوا يلعبون بالذهب والمجوهرات كما يلعب صبيان الازقة بعظام الحيوانات « كعاب » . وقد عاشرت فتاة روسية كان خجلها مما وقعت فيه من الفاقة يمنعها من ان تسرد لي حياتها السابقة . وذات مرة وقعت بيدي رزمة من رسائل مهترئة قديمة ، فوضعتها في جيبي وقلت لها : « ساطلب من احد الضالعين باللغة الروسية ان يترجم لي ما احتوته من اخبار » . فصاحت وارتمت تحت قدمي تتوسل ان اعيد اليها الرسائل فورا وكانت الدموع تنهمر من عينيها الجميلتين ، فاشفقت عليها وراعيت شعورها . وسلمتها الرزمة ، فعانقتني وظلت تبكي مدة طويلة . وكنت اقول في نفسي : « مالي اتدخل في ماضيها بدون حق فعلى فرض انها رسائل غرام فهي على اي حال ذكريات عفى عليها التاريخ » وصرت استدرج صديقتي للتحدث عن السعادة في روسيا قبل الحرب العالمية التي نشبت خلالها الثورة الشيوعية والتي كانت هي فيها في ريعان صباها فراحت تشبع نهمي بتلك القصص التي تشابه الاساطير ، وكنت في اكثر زياراتي لها اجدها مستلقية على السرير تنظر دون ان ترى ، وعيونها مليئة بلآلىء الدموع . فاسالها ما بها ، فتحدق عيناها في عيني وتسكت عن ما يتآكل جسمها وروحهـا من ذكريات ، ومن مقارنات بين ما كانت تسبح فيه من نعم وما وصلت اليه من بؤس حملها على العمل في الملاهي الليلية . تلك ذكرى تمر في مخيلتي كلما جاء ذكر ثورة نشبت في احد اقطار العالم ، او كلما نزح الناس قسرا عن مدنهم فأصبح الميسور منهم والثري سواسية في الفقر . اليكم مثلا قريبا منا ، هم الفلسطينيون اللاجئون . فلئـن كانت مصيبة نزوحهم عن موطنهم ، تاركين وراءهم كل ما يملكون ، متأتية من احتلال بلادهم من قبل قوم اجانب ، فان مصيبة من صودرت امواله واستولى احد على اراضيه واسيئت معاملته لا تختلف بنتيجتها عن مصيبة الاولين ، من حيث انه جرد مما يملك ، سواء على يد مواطن

او غريب . هذا فضلا عن نظرة الاحتقار والكره التي يلاقيها من المسؤولين عن املاكه .

انا لا اقول بوجوب المحافظة على الانظمة التي لم تعد تأتلف مع الزمن ، ولا انادي بالعودة الى الاقطاعية والراسمالية المحتكرة ، ولا اشجع الاساليب التي ترهق الطبقة العاملة وتحرمها من ثمرات اتعابها . فانا منذ نشأتي السياسية ، وما زلت ، ارى التطور الاجتماعي امرا لا بد ولا غنى عنه ، ولكنني اكره الثورات المخربة ـ واية ثورة هي غير مخربة ؟ ـ خشية ان تهدم البناء ، فنجلس على الاطلال مغلولي الايدي لا نعرف ان نبني صرحا جديدا احسن من سابقه . واقول بأن كلفة تغيير الانظمة الاجتماعية لا يصح ان يتحملها ابناء جيل واحد اعتاد على نوع من الحياة وركز دعائمه عليها . فتأتي بيوم واحد وتهدم كل ما يملك ، تماما كما تفعل الزلازل والعواصف والسيول ، فتمسي العائلة بأسرها بين الاطلال ، هذا اذا ما عاجلها الموت .

فحرام ان يفاجأ ابناء جيل واحد بدك جميع ما بناه دفعة واحدة ، دون ان يكون قادرا على تدارك مورد جديد لمستقبل حياته . فثمة موظفون كبار في السن كانوا ضباطا في الجيش فصدر امر بتسريحهم وقطع رزقهم الا من راتب التقاعد غير الكافي،وهم ما يزالون في ريعان الصبا.ومن مارس وظيفة ما،وخاصة في الجيش ، لا يستطيع ان يغير طباعه المكتسبة فيتعلم فنونا وعلوما مضت الايام والسنون على الوقت الذي كان فيها قادرا على التعلم .

ويقال هذا عن الموظف الذي كان يأمر وينهي . فهو لم يعد قادرا ، بعد صرفه من الخدمة على استجداء العدل والانصاف من موظف اخر كان حتى الامس القريب يتلقى منه الاوامر بكل خشوع . فالقاضي ، مثلا ، لا يستطيع بعد صرفه من الخدمة الوقوف في المحاكم محاميا ، ولا تعقب مصالح الناس في الدوائر . فالعقدة النفسية الناجمة عن صرفه تجعل منه اتعس محام واعجز من يتعقب مصالح الناس في الدوائر .

وكذلك الضباط ، فبالامس القريب كانوا يصولون ويجولون ويصدرون الاوامر ، ومنهم من اشترك في انقلاب او تراسه فانحنت امامه الرؤوس واعترفت به الدول . فكيف يقدر هذا الضابط بعد تسريحه ان يعيش في البلد الذي كان لعهد قريب تحت اقدامه ؟

فان اريد بالتسريح اصلاح الجيش ــ كما يقال بأن القصد من الاحكام الاجتماعية اصلاح المجتمع ــ فبالامكان ابعاد غير الصالحين عن المراكز الحساسة ، الا اذا كان القصد ابعاد فريق من الضباط عن هذه المراكز لئلا يستغلونها ضد الفئة المستولية على الحكم .

ثم ان تسريح الموظفين المدنيين والضباط بحجة عدم انضوائهم تحت لواء الحزب السياسي القائم ، عدا عن كونه يحرم الجهاز الحكومي والجيش من عناصر صالحة قادرة على القيام باعباء المهام الموكولة اليها خير قيام ، فانه يجبر الحكومة المسيطرة على املاء الوظائف الشاغرة بمن هم دون المسرحين . وبذلك يضعف جهاز الدولة .

رايي في التأميم والاشتراكية

ورايي فيما يتعلق بالاراضي والمعامل وسائر المرافق التي تلجأ الدولة الى تأميمها ، فان من الخير تخمين قيمها تخمينا عادلا تدفع قيمته فورا ، كما هي الحال في الاستملاكات الخاصة بالمصلحة العامة ، على ان تسدد الخزينة هذه القيم بقروض طويلة الاجل تضعها قيد التداول في الاسواق بفوائد معقولة . هذه الطريقة هي اسلم الطرق المؤدية الى الغاية المنشودة اجتماعيا واقتصاديا ، لا تلحق بالثقة المالية العامة اذى . فتبقى رؤوس الاموال في البلاد ، وتكرس لما هو داخل في القطاع الخاص . وهكذا يستمر الازدهار بفضل تعاون راس مال الدولة ، مع رؤوس الاموال الخاصة . وقد طبقت هذه القاعدة في كثير من الدول ذات الطابع الاشتراكي ، كانكلترا او فرنسا ، وادت للبلاد فوائد ، سواء من حيث تسلم الدولة وسائل انتاج المواد الاساسية ، او تسلمها وسائل النقل وبيوتات المال الكبرى . ذلك لانها لم تحرم اصحاب رؤوس المال من مجال حيوي لبذل نشاطهم في توفير ارباح تعود بالتالي الى توسيع الاعمال في القطاع الخاص مما يضمن للعمال ارباحا واجورا لا تقل عن ما هي عليه في القطاع العام .

ومن الطبيعي ان لا يقبل القائلون بالمبادىء الشيوعية والاشتراكية المتطرفة والغوغائية بهذه النظرية . فالشيوعيون لا يرون مجالا لبقاء النشاط الفردي الا موجها من قبل الدولة مباشرة في جميع القطاعات . اما راس المال فيجب في نظرهم ان يكون محصورا بالدولة . وبذلك تصبح الدولة اقطاعية ضخمة ، تجعل الفرد في ظلها الة طيعة دون حافز او تفكير .

فما قصده ارباب النظرية الماركسية من اسعاد البشر لم يعط حسب رايي ، الثمرة المرجوة ، خلافا للاشتراكية المعتدلة ذات القواعد المنسجمة مع طبيعة البلد . فهي تضمن لجميع المواطنين حياة اسعد . واني اشبه الحياة في النظام الشيوعي بفيلم سينمائي غير ملون ، فلا تجد العين متعة في مشاهدة مختلف الالوان ، بل تقتصر على الاسود والابيض . هذا مع ان الموضوع هو واحد .

وما علينا الا ان ناخذ ما طبق في بلادنا من الانظمة التي اسموها اشتراكية لنرى انفسنا غير راضين عنها . فالخليط غير المنظم المنبعث من رواسب الحقد والحسد ، كما سعي اليه مدعو الاشتراكية في البلاد العربية ، قريب الشبه بتلك الانظمة الدكتاتورية المغلفة بشعارات الديمقراطية التي نسمع عن حوادثها الدامية في امريكا الوسطى واسيا وافريقيا .

ولا يمكن ان يحيا نظام يشبه الطير بجناحيه ، والحيوان المفترس بمخالبه وانيابه ، ولو علا جسمه ريش ذو الوان زاهية براقة ، او بح صوته بترديد الانغام العذبة ترديد الببغاء .

خلاصة نظريتي في السعادة

ساقني الى ابداء هذه الملاحظات في بحث السعادة ومفهومها ومداها واسبابها ، سعيي لدعم نظريتي بان السعادة في العالم تشبه السراب الذي يركض وراءه الانسان . واذا احصينا عدد الساعات التي يعيش فيها المرء بسعادة كاملة لما تجاوزت رقما كبيرا بالنسبة الى عمره . وهي بالطبع نسبية من حيث الامن والحاجة والعقلية . الا تتصورون اسعد ساعات الجائع هي التي يتناول فيها ولو كسرة خبز ؟ او السجين حين اطلاق سراحه ؟ او الساعي وراء امنية تم له الوصول اليها ؟

فالمخترع عند نجاح تجاربه ، والفارس عند فوزه بالسبق ، والتلميذ عند اجتيازه الفحص ، والعاشق عندما يصل الى محبوبه ، والسياسي عند نجاح حزبه او بالاحرى عند نجاحه ، والتاجر عندما تربح الصفقة التجارية التي عقدها ، والكاتب عندما ينهي مقالة ويرتاح لسبكها وايفائها غرضه ، والقائد عندما يعقد النصر على اعلام قطعاته العسكرية ، والطفل عندما يضم الى صدره دميته المفضلة او يقبل والدته الحنون ، كل هؤلاء واولئك يشعرون بما يسمى بالسعادة . وما هو في الواقع الا شعور متولد عن كسب معركة والظفر بها . وهو

شـعور متحدر من حب التملك الذي هو ، عـلى كل حـال، بعيد عن المبادىء الماركسية الاشتراكية التي قد تولد الغيرة والحسد بما يفوق شـعور اللــذة بالملكية في قلوب النـاس . ثم الا تسعى الاشتراكية لتمليك العمال والفلاحين معامل واراضي ، فتنتشـر في نفوسهم حب التملك وتزرع فيها روح الدفاع عن المكتسبات . ولرب معترض بان الاشتراكية لا تملك اكثر مما يحتاج اليه العامل او الفلاح ، ولا تفسح المجال امام الملكيات الواسعة ، والجواب بان ما وزع من الاراضي على الفلاحين بسورية ما زادهم يسرا ولا كفل لهم دخلا سنويا اكبر مما كانوا يأخذون من المنتوج هو بمعدل ٨٠٪ وما يزالون عند هذا الحد ، وكذلك العمال . فالارباح التي بداوا يأخذونهـا منذ ١٩٦١ لا تزال كما هي . وثمة فلاحون كثيرون يعيشـون الآن بـدون ارض. والذين سيولدون بعد الآن من اين سيؤتى لهم بارض جديدة ؟ وامـا المعامل فقد توقف انشاء ما كان منها قيد الانشاء ، كما صرف اصحاب الاموال نظرهم عن احداث معامل جديدة تجنبا للتاميم .

واذا كنا سننتظر ان تقوم الدولة بانشاء معامل جديدة تحـل محل الشركات الخاصة ، فاننا على كل حال ننتظر مستقبلا غامضا. وستقع عندئذ حتما تحت سلطان اقطاعية ضخمـة اكثر شرا مـن الاقطاعيات الصغيرة السابقة . وامامنا مثال واضح ، ولو كان على نطاق صغير ، وهو تسلط الحزب الحاكم اليوم على موظفي وعمال المؤسسات العامة ، وطرده من لم يكن منتسبـا لعضويته ، وتنزيل راتبه ، مع ان الامر لو كان صادرا من صاحب مؤسسـة خـاصة لاعتبر اخراج الموظف من عمله وتنزيل راتبه مخالفـا لمبدأ صيـانة الحقوق المكتسبة، ولعوقب صاحب المؤسسة على ذلك اشد العقاب، ولاعيد الموظف الى عمله وبنفس الراتب السابق . فاشتراكية الدولة اخطر على حقوق العمال والفلاحين وسائر الطبقات العاملة ، مـن حيث ان ليس من يحميهم من التعسف . فلا المحاكم تجرأ على اصدار اي حكم لمصلحة المغتصبة حقوقهم ، ولا البرلمان يستمع الى شكواهم ويجبر الحكومة على اعادة تلك الحقوق ، ولا المعارضة ترفع صوتها بالدفاع عنهم . فالحزب الحاكم المسيطر عـلى شؤون الدولة يعتبر المؤسسات ملكا للحزب وليست ملكا للدولة ، فيتصرف بهـا تصرف الاقطاعية الظالمة . ويسرح زيدا ويعين محله عمروا من منـاصري الحزب . ويرفع راتب بكر ويخفض راتب خـالد ، لا على قـاعدة الاستحقاق والكفاءة ، بل على موجبات الاستيلاء على مرافق الدولة

بواسطة موظفين حزبيين .

والاشتراكية تعطي اطيب الثمار عندما تكون جميع الاحزاب مشتركة في ايجادها ودعمها. اما اذا كانت وليدة حزب واحد يعارضه فيها حزب آخر ، فهي تصبح اداة مزايدة ووسيلة مكاسب حزبية تخرجها عن غاياتها واهدافها السامية .

وانا من القائلين ومن المدافعين عن تلك الاغراض الخيرة لرفع سوية الطبقة العاملة وتحسين حالها ، لكن لا اقول بالفوضى ولا بقلب النظام الاجتماعي راسا على عقب ، دون ان تفيد تلك الفئة من هذه الهزة الا خطبا رنانة ووعودا خلابة ، بينما تنحدر اقتصاديات البلاد الى ما يعود بالضرر على الجميع . وانني ازعم بانه لو ارتفعت الغايات الشخصية وزالت من القلوب الاحقاد ومن العقول الرواسب، ووضع ميثاق قومي اقتصادي اجتماعي ثقافي لتقارب الجميع وشدوا الخناصر لانشاء دولة اشتراكية تضمن حسنات الاشتراكية وتبعد مساوئها. ولكن اين لنا ان نصل الى تحقيق هذا التضامن والتعايش، والاجنبي لنا بالمرصاد. فهو كلما ارتفع راسنا وبدأ جسمنا يتعافى، انزل بنا ضربة جديدة تطرحنا ارضا وتجعل آمالنا تتبخر امام اطماعه وسياسته الاستعمارية، الرامية الى عدم السماح للعرب بأن يؤلفوا كيانا واحدا قويا يستطيع الصمود تجاه تلك السياسة وذلك الطمع وسيظل العرب يتحاربون الى ان تثبت اقدام اسرائيل وتصبح دولة يقطنها عشرة ملايين، والى ان يرتضي العرب ان يجرهم المستعمر من رقابهم كالكلاب . هذا اذا لم يُخلق موحّد للعروبة يتمتع بالاوصاف التي حباها الله لسيدنا محمد، فيتمكن من تأسيس الدولة الاسلامية العربية الكبرى ، ويرتضي بحكمه ويؤمن برسالته كل العرب . اما زعماؤنا الحاليون فينقصهم ان يسلموا بانهم عبيد الله، جاءوا لينشروا دينه وقرآنه ، لا آلهة يحفظون هم قرآنهم ويطلبون من الناس ان يعبدونهم دون عبادة الله .

قاتل الله السياسة . فكلما سعيت لكتابة موضوع بعيد عنها ارجعتني اليها دوافع اصبحت اقوى من ارادتي . فهذا القسم من الذكريات قصدت تخصيصه لحياتي غير السياسية . ولكنني اجد قلمي ينحرف عن ارادتي ويغوص في مداد السياسة ويجول في ميدانها بحرية وصراحة . فاعتذر من القارىء عن هذا الانسياق غير المقصود واعود لذكر ايام دراستي في الجامعة السورية .

افتتحت كلية الحقوق بدمشق من قبل الحكومة التي كان اميرها،

الامير فيصل بن الحسين ، وذلك في اليوم الخامس عشر من تشرين الثاني ١٩١٩ . اذكر هذا التاريخ جيدا لان المرحوم والدي توفي الى رحمة الله في اليوم ذاته ودفن جثمانه الطاهر في اليوم الذي كنت ساحضر فيه افتتاح المدرسة .

دراستي الحقوق في الجامعة السورية وذكرياتي فيها

وكان مدير المدرسة الاستاذ عبد اللطيف صلاح، وهو فلسطيني الاصل . وقد جمعته جاذبية دمشق مع من جمعت من الشبان العرب الواردين من كل قطر . وكان ثمة اربعة صفوف ، خصص الاول لمن انتسبوا للمدرسة لاول مرة ، وخصصت الصفوف الاخرى لمن سبق ان انتسب لمدرسة الحقوق في استانبول او بيروت ولم تسمح له ظروف الحرب العالمية باتمام دراسته ، فبينما كنا نحو خمسين طالبا في الصف الاول ، كان الصف الثاني والثالث والرابع لا يضم اكثر من خمسة عشر طالبا . واليكم بعض اسماء رفاقي في الصف الاول، ممن اكملت معهم الدراسة وحزنا معا شهادة الحقوق ، وممن اضطروا لمغادرة دمشق ، اثر دخول الافرنسيين اليها .

اذكر الاسماء بدون ترتيب مقصود ، وانما كما تخطر على البال:

فؤاد المحاسني ، مختار الايوبي ، موفق الحسيبي ، محمود النجار ، محمود عاصي ، عبد القادر شبل ، محمد القصاب ، عبد الحميد المارديني ، يوسف يس ، جورج شاهين ، ابراهيم الشيشكلي ، سامي البكري ، مصطفى الرحيباني ، ايليا مرقدة ، جورج ريس ، سيمون يونس ، عبد الكريم جرجس ظافر ، صادق المظم ، صبحي الرفاعي ، هاشم سلطان .

اما الاساتذة فكانوا :

الاستاذ عبد اللطيف صلاح للحقوق الاساسية ، رفيق التميمي ثم عفيف الصلح للتاريخ السياسي، عبد الرحمن الشهبندر للاجتماع، الاستاذ الشيخ سعيد مراد لاحكام المجلة، توفيق السويدي للحقوق الرومانية ، عثمان سلطان للحقوق التجارية ، ابراهيم هاشم للحقوق الجزائية .

ثم انضم اليهم للصفوف العليا ، عبد القادر المظم للاقتصاد ، فارس الخوري للمالية واصول المحاكمات الحقوقية ، الشيخ سليمان الجوخدار للاوقاف ، الشيخ امين سويد للفقه الاسلامي ، محمد كرد علي للغة العربية ، كاظم الجزائري للغة الافرنسية ، شاكر الحنبلي للحقوق الادارية ، مصباح محرم للاصول الجزائية ، الشيخ توفيق الايوبي للاوقاف .

ويتجلى في قائمة اسماء الاساتذة انهم كانوا الصفـوة المختارة بين الشخصيات البارزة في العلوم الحقوقية والاسلامية . وكـانت المهمة صعبة في السنين الاولى ، لانه لم يكن في ايدي الطـلاب كتب عربية يرجعون اليها . ولأن الاساتذة لم يضعوا بعد مؤلفاتهم. وكان من يحضر منا درسا ما يسعى لاخـذ ما يمكن اخذه من ملاحظـات ويسجلها في دفاتر خاصة . ولم نكن ممرنين على الكتابة السريعـة، واذلك كانت الدفاتر كسماء الخريف التي تسبح فيها السحب البيضاء. وكنا مضطرين للاجتماع ، بعضنا مع بعض ، لنكمـل ما نقص مـن فقرات وجمل . ان ما عانيناه من صعوبة ، هان على من اتى بعدنا، اذ بدا الاساتذة بطبع ما كانوا يلقونه علينا من محاضرات . فسهلت المراجعة ، ولو غاب الطالب عن المدرسة وقتا ما .

كان اعز استاذ علينا المرحوم فارس الخوري . فكنا نحبـه ونحب سماع محاضراته التي كان يلقيها بطلاقة وبلغة صحيحة ارفع من اللغة شبه العامية التي كان يستعملها كثـير من زملائه . هـذا التعلق بفارس الخوري ما كان يشوبه عند البعـض منا الا ما كـان يبادههم به من وخزات تخجـلهم امام رفاقهم . واذكـر على سبيل المثال ان الاستاذ الخوري كان ذات مرة يملي علينا محاضرته من غير تسرع لنستطيعَ تسجيل اقواله . فتوقف عن الكلام فجاة وسال زميلنا الطالب صادق المظم كيف كتب كلمة « عبء » ، ولم يكن ضالعا باللغة العربية شأن اكثرنا الذي تلقى دروسه باللغة التركية. فارتبك صادق وقال « عبيء » ، فسخر منه الخوري وقال : « الم تتعـلم قواعد اللغة العربية ؟ » فاحمر وجه صادق وظهر عليه انفعال نفسي واجاب : « لقد اخذت شهادة المدرسة الاعدادية بمدارس الترك ولم يكونوا يعنوا باللغة العربية » . واضاف : « هـل جئت يا استـاذ لتعليمنا اللغة ام لالقاء محاضرة في علم المالية ؟ » وادرك الخوري ان الامر قد وصل الى حد يخشى عنده مغبة ملاسنة كلامية تضعف هيبة الاستاذ في اعين الطلاب . فتلافى الامر وضحك وقال له : « الحـق معك . لكن لا باس من ان تصحح ما كتبت بازالة حرف الياء فيستقيم الامر » . وراح يلقي على مسامعنا ما كان يفعله الاتراك لمحو كـل اثر عربي بقصد تتريك العرب وجعلهم ينسون قوميتهم. فحول بذلك مجرى الافكار . وعاد الصفاء يخيم في انحاء الصف . وقام صـادق واعتذر من الاستاذ على جوابه الحاد وانتهى الامر بسلام .

ومن الاساتذة من كان يدخل ويعتلي المنصة ، فيغمض عينيه

ويتكلم بلا توقف ودون ان ينظر الى احد ، وذلك حتى ينتهي وقته فيسكت فجاة ويتوجه الى الباب بعد القاء تحية عثمانية على الطلاب الواقفين له اجلالا . هكذا كانت عادة الاستاذ مصباح محرم رئيس محكمة التمييز . واني ما ازال اذكره وهو يرتدي معطفا سميكا ويلف حول رقبته شالة كشميرية الصنع ويستند الى عصا غليظة ويسير منحني الظهر . فاذا ما اراد القاء التحية مد يده حيث تكاد تلمس الارض ثم رفعها الى راسه . اما المصافحة ، فكان لا يعرفها كثيره من الذين عاشوا في العهد العثماني . وكنا نحن الطلاب نحتار كيف نرد تحيته ؟ انقلده ام نقبل على مصافحته وتقبيل يده ، كما كانت العادة سائدة بين الكبير والصغير . فاما ان يتسامح معنا بتركنا نطبع على ظاهر يده قبلة التبجيل والاحترام ، واما ان يسحب يده قائلا استغفر الله . . . حسب تواضعه والمقام الذي يجيز له مد يده برسم التقبيل . هكذا كانت قواعد التحية بين الناس : الصغير يضم ازرار سترتهوكذلك يضم يديه الىصدره وينحنيانتظارا لتحيةالكبير . وعندها يهرع الى تقبيل الايدي وتلقي قبلات الكبير على وجهه او على كتفه. ونحن المخضرمين نذكر جيدا انه اذا دخل احد الى مجلس ما، اقدم على تقبيل المتصدر اذا كان ذا مقام رفيع ، بعد ان يلقي في طريق وصوله اليه عدة تحيات من الارض حتى الراس ، ثم يجلس . و عند ذاك يحيي بيده وقوفا او جلوسا سائر الحاضرين . اما المصافحة بالايدي التي جرت العادة على اتباعها الان ، فما كانت معروفة ولا مستعملة . وقد تفشت بعد الحرب العالمية الاولى . فيدخل الضيف ويصافح الحاضرين واحدا واحدا ولو بلغ عددهم الخمسين ، بينما ينتظر الجميع وصول دور المصافحة اليهم . وهذا امر مزعج فعلا . وهلا يمكن الاكتفاء بالتحية العربية الاصيلة ، اي السلام عليكم، ثم الجلوس في اي مكان خال ليجنب الناس الوقوف والمصافحة وقطع الحديث وتحري المحل المتناسب مع مكانة الداخل .

وكان الاستاذ عبد اللطيف صلاح ثقيل الظل، متمجرفا، مقطوع الصلة مع الطلاب ، لا تعرف شفتاه الضحك ، ولا التبسم . وذات مرة كنت جالسا الى جانب سامي البكري ، فراح من ضيق صدره من محاضرة الاستاذ صلاح يهمس في اذني قصص الاولين والآخرين، فلاحظ الاستاذ ذلك . فقطع حديثه وسال البكري اذا كان يعتبر المحاضرة غير مستحقة للانتباه. فاجابه بانه كان يقول لي انني لا افهم ما يقوله الاستاذ ، لان له جيوبا في انفه تجعل صوته خفيفا . وربما

الاستاذ ان يعمل عملية جراحية لازالة هذه العوارض ليصبح صوته جليا واضحا . فضج الطلاب بالضحك ، بينما اكتفى الاستاذ بشكر البكري على ملاحظته ، بكل لؤم وانزعاج .

وكنا لا نحب سماع محاضرات الاستاذ شاكر الحنبلي لسبب ليس له اية صلة بطول باعه في الحقوق الادارية التي كان يدرسها. فكنا اذا شاهدنا قامته الطويلة قادمة الى المدرسة ، لجأنا الى غرفة وراء باب المدرسة واحنينا ظهورنا حتى لا يرانا الاستاذ وهو داخل الى الصف . فحدث ذات مرة ان دخل الاستاذ على غير انتظار الى الغرفة التي كنا مختبئين فيها ، وظهورنا منحنية . فرآنا على هذه الحال وعاتبنا قائلا : هذا اذا سبب عدم حضوركم محاضراتي ، افلا تعجبكم ؟ فخجلنا منه اي خجل ، لا سيما انه كان رقيق المعشر . واعتذرنا منه وتابعنا حضور محاضراته كلها منذ ذلك اليوم .

اما استاذ المجلة ، الاستاذ سعيد مراد ، فكان عالما متبحرا ولا شك . الا انه كان يعوزه اسلوب افهام الدروس لطلاب مثلنا يتلقون هذه العلوم لاول مرة في حياتهم ، ولربما كان مرد ذلك الى انه قادر على المناقشة مع زملاء في سويته العلمية . وكنت اضيق صدرا من الجلوس لسماع اقواله التي كانت بعيدة عن ادراكي وتفهمي، حتى قطعت الامل وصرت اجلس في الحديقة ريثما يتم الاستاذ درسه. وقد حقد علي الاستاذ وكتم غضبه حتى كان موعد الفحص، فاسرع بمبارحة القاعة عندما دخلت اليها . فاديت الفحص امام الاساتذة الآخرين واجدت الجواب . ولم يعد الاستاذ الا حينما تحقق انني انتهيت وتركت القاعة . فوضع لي علامة دنيئة لا تتناسب مع اجادتي التي لمسها زملاؤه . فسألوه عن سبب كسر معدل علامتي فقال : مهما كانت اجوبته صحيحة ، فانه لم يكن يحضر محاضراتي !

وكان الاستاذ عثمان سلطان لطيف المزاج محبوبا ، وخاصة انه كان يضحكنا عندما يبحث الفتحة ، فيذكر الساحب ويشير بباهمه الى تحت ، اما اذا ذكر المسحوب عليه فيرفع بباهمه الى فوق مستعينا بيده الثانية وباهمها لتصوير المبلغ المسحوب ، فكان ذلك حوارا بين باهميه ، بخفض الواحد ورفع الآخر . وكان يغلط احيانا بالاشارات ، فيتطلع الى الباهمين كانه يستوحي منهما الواقع . وكنا احيانا ندعي اننا لم نفهم جيدا ، فنأخذ بباهمينا ونقلده بحركاته . فيجيب هو من اعلى منصته بحركات مماثلة ، مما كان يسبب انفجار الجميع بالضحك . وكان يضحك هو معنا ولا يأخذ دعابتنا معه على

سبيل المزاح او السخرية .

وخطر على بال الاستاذ محمد كرد علي في اثناء توليه المعارف في ١٩٢١ ، ان يخلق لنفسه بمدرسة الحقوق كرسيا جديدا لتعليم اللغة العربية . وكان الكثيرون منا ، بالفعل ، بحاجة لاتقان لغتنا ، ولكن الامر صعب علينا بعد ان وصلنا الى الجامعة دراسة « نصر ينصر نصرا » الى آخره. وشق الامر كثيرا على زملائنا الذين اتموا دراستهم الاعدادية في المدارس العربية الخاصة التي كانت موجودة في زمن الاتراك فراحوا يطرحون على الاستاذ اسئلة محرجة اعلى من سوية معرفته الخاصة باللغة العربية . فكان يتجادل مع الطلاب وهم يقيمون عليه الحجة فيضطر بنهاية الامر الى التسليم . واستمر الامر على هذا المنوال مدة من الزمن الى ان شعر الاستاذ بحرج موقفه فنزل عند ارادة ادارة المدرسة والغى الدرس وذهب في حال سبيله .

وكانت المدرسة تشغل الجناح الغربي من البناية المخصصة الآن لوزارة المعارف . فكانت الغرف السفلية الثلاث للصفوف الاولى والثانية والثالثة والغرف العلوية الثلاث تحت تصرف المدير والكاتب، والاخيرة للفحوص . ولم يزد طلاب المدرسة حينما اكتمل افتتاح الصفوف الثلاث على مئة وعشرين طالبا. فأين هذا الرقم مما وصل اليه عدد المنتسبين لكلية الحقوق ، وهو ما يزيد عن خمسة عشر الفا على وجه التقريب ! واحتلت الجامعة السورية ابنية القشلة العسكرية بردهاتها الفسيحة ، التي كانت من قبل تستعمل كمضاجع للنوم وكصالات للطعام تتسع لجميع افراد الجيش الخامس الذي كان مركزه بدمشق .

كنا ستة رفاق : صادق المظم ومحمود النجار وفؤاد المحاسني وموفق الحسيبي ومختار الايوبي وانا ، نؤلف حلقة مسيطرة على صفنا ، وبالتالي على شؤون المدرسة . فنزور مدير المدرسة السيد عبدالقادر المظم، الذي حل محل عبد اللطيف صلاح بعد تركه دمشق هو وسائر العاملين بالحقل السياسي ، عقب دخول الافرنسيين سورية في تموز ١٩٢٠، وقلما كان المدير يرد لنا طلبا او اقتراحا . والجدير بالذكر اننا ، طيلة السنين الثلاث التي تضيناها في المدرسة ، لم تحصل اية مظاهرة ولم يضرب احد من الطلاب . اذ كانت الفترة بين ١٩٢٠ و ١٩٢٢ هادئة، لم يظهر فيها سوى انتفاضة واحدة، هي عندما زار المستر كراين مدينة دمشق وقام الشهبندر مع من بقي

بدمشق من العاملين في الحقل السياسي باظهار معارضتهم للانتداب. غير ان مدرستنا لم تشترك في هذه الحادثة . وقضي على الحركة دون ان ينال الطلاب اي اذى . ويعود ذلك الى ان عهد الملك فيصل لم يرافقه سوى حزب الاستقلال الذي ركز جهوده على المظاهرات والبرقيات والاجتماعات التى كانت تعقد في الاحياء ، معتمدا على وجهاء الاحياء من الارستقراطيين او البرجوازيين. ولم يدخل الطلاب كعنصر من عناصر الحركات التي كان يتولي خلقها وتوجيهها . باعتبار مجموع الطلاب في دمشـــق منتسبين الى المدارس الابتدائية او الاعدادية لفقدان الجامعة ، فقد كان صغر سن التلاميذ احد الاسباب الرئيسية في تجنبهم الاشتراك باعمال السياسة . اما الحزبيات فكانت معدومة لدى التلاميذ ولدى العامة ايضا ، لانه لم يمكن ثمة غير حزب واحد كما ذكرنا . فعندما لجأ الرؤساء الموجهون الى الاردن ومصر هاربين من وجه القوات الافرنسية ، اصبح الشعب كالجسم المشلول راسه . فانحلت الروابط ولجأ كل فرد الى مهنته، مبتعدا عن السياسة والميدان العام .

وكان عددا وفيرا من رفاقنا في مدرسة الحقوق من المنتسبين سابقا للنادي العربي الذي تألف لجمع شمل الشباب . لكنهم بعد تموز ١٩٢٠ ، صـــار الواحد منهم ينكر هذا الانتساب ويتهرب من الحديث في الشؤون العامة . وحينما زار الجنرال غورو مدرستنا في احد ايام ١٩٢١ ، وقف الطلاب جميعهم للتحية ولم تبدر منهم اية حركة معادية . وهذا يدلنا بوضوح على ان الشعب ، اذا لم يكن له زعماء تسير الجماعات خلفهم وتنفذ الخطط التي يضعونها ، فلا رجاء لمقاومة شعبية لمحتل اجنبي او ديكتاتور محلي . والشعب بمجموعه قوة كامنة ، اذا لم تدفعها قوة متحركة ، تبقى السنين الطوال في محلها . والثورات التي نشبت في انحاء العالم هل كانت وليدة ارادة الشعب او الجماهير ، ام ان زعماء سياسيين او عقائديين رفعوا اصواتهم واثاروا حماس الافراد ووجهوا مطامحهم نحـــو هدف استقلالي او اجتماعي،ولوحوا امامهم بمستقبل زاهر زاخر بالخيرات والبركات ، فسار الشعب وراءهم في ثورة جرفت كل ما وجدته امامها بدون تفكير ؟ والحركة الناجحة تسمى ثورة مباركة ، والفاشلة توصف بالعصيان . فينال القائمون بها انواع الاذى ، بينما يرفل اصحاب الحركة الناجحة بالنعم والمناصب وتسجل اسماؤهم في لوائح المجد في تاريخ الامة .

كان قرب موعد الفحوص السنوية حافزا للرفاق الستة الذين ذكرت اسماءهم للاجتماع يوميا لمراجعة الدروس . وكانت دارنا محل الاجتماع الدائم طيلة شهرين . كان كل منا يدرس وحده ثم يلتئم العقد ظهرا . ونبقى حتى الصباح ، يجيب كل منا على ما يطرحه عليه زميلنا محمود النجار من الاسئلة . وكان محمود المجلي في صفنا كله ، فكان يصحح الاغلاط وينبه الى ما ينسى احدنا ذكره . وكانت تتخلل ذلك كله نكات يطلقها هو ، او صادق ، او مختار ، او موفق ، او فؤاد ، فيطفى على اجتماعنا المرح والغبطة ، مما خفف من اعباء الدرس الثقيلة . وكانت الاغاني الرائجة هي تلك التي وضعها سيد درويش . وقد حفظها محمود النجار كلها كما لو كانت جزءا من مواد الفحوص . وصرنا نردد معه كالكورس « سلمى ياسلامه » وغيرها من الاغاني السخيفة ، حتى اذا انتهت فرصة الاستراحة عدنا للدراسة بجدية ، وظللنا هكذا مدة ساعة ، ما لم يصرخ فجاة مختار او موفق ويبدا اغنية من الاغاني ، وذلك عندما يعسر على احدهما فهم الموضوع المبحوث ، مثل « يا بو الكشاكش . » فيحتد محمود ، لكنه سرعان ما ينضم الينا في الفرفشة والغناء والتصفيق .

وتلك الاغاني السخيفة في اقوالها ، الركيكة في موسيقاها ، كانت على النمط الآتي :

يابو الكشاكش ايه جرا ياهل ترى
دقنك شابت بالمسخرة وامور الفشوره

رأيي في الموسيقى العربية والاغاني الشائعة

ويفخر المصريون بان بلادهم انجبت سيد درويش الذي قلب الموسيقى العربية والاغاني الشائعة رأسا على عقب ، وكانت له فتوحات وغزوات في عالم الموسيقى الحاضرة . وانا لا افهم مطلقا كيف ان اغنية كالتي ذكرتها يمكن ان يفخر بها موسيقيو العصر الحديث . والحقيقة ان سيد درويش ضرب الموسيقى العربية الرائجة حتى لم يبق لها اثر . فجاء في اعقابه من شيدوا الموسيقى المصرية على قواعد فنية تطرب في الحانها ومعانيها . وفي مقدمة هؤلاء الاستاذ محمد عبد الوهاب والسنباطي في النغم ، ومحمود طه واحمد رامي في صياغة الكلمات . وذلك بالاضافة الى القصائد الغراء التي وضعها الاستاذ احمد شوقي ولحنت لام كلثوم ، فزادتها بعذوبة صوتها ورخامته ، رقة وتاثيرا على المستمعين. وبعد الفترة القصيرة ، نسبيا ، التي تصدر فيها عبد الوهاب وام كلثوم عرش

الغناء ، اي بين ١٩٢٥ و ١٩٤٥ ، جاءتنا قافلة جديدة من الملحنين الجدد والمغنيين الذين اكتسبوا عن غير استحقاق شهرة لا يستحقها فنهم ، امثال فريد الاطرش وعبد الحليم حافظ ومحرم فؤاد .

الطرب والغناء والموسيقى بين الامس واليوم

وقد تعلق عامة الشعب بهذه الاغاني ، لا لانها تعبر عن روح موسيقية رفيعة ، بل لان في مقدور اي من الناس ان يفتح فمه ويتلفظ كلمات اغاني عبد الحليم حافظ مثلا ، مع شيء بسيط من النغم ، ليشبه اليه انه من سويته وعبقريته . ناهيك بالدعاية الواسعة التي التي ترافق مطربينا الجدد في الصحف والاذاعة والتلفزيون ، والوله والاعجاب حتى العبادة ، تظهرهما فتياتنا الكواعــب نحو المغني الشـاب ، او يظهرهما شبابنا الصاعد نحو المغنية الفتية ، لا سيما اذا كان الله حبا اولئك المطربين والمطربات بمسحة من الجمال العصري والجاذبية الجنسية . ومن يقلب صفحات الكتيبات المطبوعة المنتشرة الآن ، والحاوية كلمات الاغنيات العصرية ، لا يجد فرقا بينها وبين اغاني ما قبل الحرب العالمية الاولى ، مثل « عصفوري يما » او « على الروزنه » .

واعود فاذكر ان الموسيقى والغناء العربيين ، بعد ان تخلصا من السخافات التي كانت شائعة حتى عام ١٩٢٥ ، عادا اليوم الى ما يدانيها . ولم تكن فترة العشرين سنة (١٩٢٥ — ١٩٤٥) الا كصحوة الموت ثم لم يلبث الذوق العام ان عاد الى سباته ورقدته .

ولم تستطع النوادي الموسيقية في مصر ، على الرغم من امكانياتها الواسعة ، الوقوف تجاه التيار الجارف . وذلك تماما كما حصل في تقهقر الموسيقى الكلاسيكية وقلة الانتاج التي تشكو منها تجاه موسيقى الجاز الصاخبة . على ان هذه الاخيرة ، لو لم تكن مستندة الى الرقص الذي يستجلب وحده الشبان والشابات ، لما كان ليكتب لها النجاح والاستمرار . واظن ان سبب هذا الشيوع والبقاء هو في طباع الجيل الحاضر الذي لم يعد يعجبه كل ما هو بطيء . فلا ركوب الخيل او السير على الاقدام يستهويانه ، بقدر النشوة التي يشعر بها وراء مقود السيارة التي تسابق الريح ، او في ركوب الطائرة التي توصله في ساعة واحدة الى بلده . والاكل لم يعد يلذ الا خلف موائد السناك بار . واستبدلت الخيل والبغال والحمير التي كان يستعملها الفلاحون بدراجات نارية او عادية . فالسرعة والايجاز هما من مقومات الحياة العصرية ، فلا يصح استغراب عزوف الشباب عن الادوار القديمة او مقطوعات ام كلثوم التي تستغرق ساعة

وربع الساعة على الاقل . فهم بحاجة الى الغناء ، فيجدون في الاغنية المصرية كلمات سهلة الحفظ ولا يشعرون باي عناء في اداء اللحن . ثم انها تنتهي بسرعة . فاللهجة العامية واللحن البسيط والسرعة تضمن للاغاني المصرية نجاحا كاملا في الاوساط الشعبية ومحيط الشباب الذي نشأ في عصر تسوده هذه الموسيقى ، لا سيما ان كثيرا منها مقتبس من الاغاني الافرنجية ، او هو بنفس الايقاع الذي تتميز به الموسيقى الراقصة . حتى ان اغاني أم كلثوم الشيقة لا تبعث في الشباب سوى الملل والازدراء ، بعكس فيروز التي لا ننكر حلاوة صوتها ومقدرتها على اداء الاغاني التي يلحنها لها الرحباني ، وهي مزيج من اغاني محمد عبد الوهاب القديمة واغاني الفولكلور اللبناني . اما سميرة توفيق ، ذات الوجه الحلو ، فمع قلة التنويع في اغانيها ، فهي تلاقي استحسان الجمهور من المسنين والشباب لجمالها اكثر من فنها الموسيقي . واذكر بهذه المناسبة ان ضابطين من اصحاب المقام الرفيع تزاحما على هذه المغنية ، فسمح لها إحدهما بدخول سورية لاحياء حفلة في فندق بلودان . لكن الثاني اصدر امره بمنعها . وكادت تحصل مشاجرة بينهما ، الا ان اصدقاء الطرفين تدخلا في الامر فسوي ، ودخلت المغنية الى سورية . لكن الجفاء والحقد بقيا في قلب الضابطين حتى نمكن احدهما من ازاحة الاخر عن منصبه .

ومن بين المطربات ذوات الصوت الرخيم والوجه البسيم ، نستطيع ان نذكر المرحومة اسمهان التي لمع اسمها خلال الحرب العالمية الثانية كعميلة انكليزية ، وكمطربة وممثلة سينما . ولكنها انطفأت فجاة بحادث سيارة قيل انه كان مفتعلا . وعلى اي حال ، فاني على يقين من انها كانت ستحتل مركزا مرموقا في الغناء ، لو امد الله بحياتها ، رحمها الله .

اما المغنين القدامى الذين استمعت الى صوتهم ، فمنهم الشيخ سلامة حجازي . وقد حضرت في صيف ١٩١٣ احدى الروايات التي قام بتمثيلها مع جورج ابيض في مدينة زحلة . وما يزال صوته يتردد في اذني ، لا لانه اعجبني ، لكن لنوع من الغناء اختص به واشتهر ، في عهد كان المستمعون يطربون فيــــه لرجفة الصوت المفتعلة ويعتبرونها قمة الفن .

وكذلك استمعت الى ابي العلاء ، وهو يغني مع ام كلثوم في ١٩٢٦ والى جانبهما عدد من المرددين دون ان ترافقهما اية آلة

موسيقية . وكان الشيخ سعيد الصفطي يغني الادوار القديمة فيثير حماس الجمهور بشكل لا يقل عن حماس جماهير اليوم لعبد الحليم حافظ مثلا . ومنيرة المهدية وفتحية احمد من المطربات اللاتي تبوان عرش الشهرة حتى ١٩٢٥ ، ثم جاءت ام كلثوم مباشرة فانحسرت اسماء كل مطرب امامها وانزوت .

وفي ١٩١٩ جاء دمشق جورج ابيض وفرقته . فكان فيها من غنى مونولوجات بدأت بالانتشار منذ ذلك العهد ، منها « انا رايت نفسي ببستان » .

ثم بزغ نجم محمد عبد الوهاب في مصر ، بفضل احمد شوقي الشاعر الشهير ، وراح اسمه يذكر على كل لسان . واذكر ان اول مرة سمعته فيها كانت في ١٩٢٩ على مسرح العباسية . كان صوته رفيعا كجسمه النحيل . وهو ، والحق يقال ، ذو عبقرية موسيقية واسعة ، رغم ان اكثر اغانيه كانت مقطوفة من زهور الموسيقى الافرنجية . الا انه كان يقتبس تلك الالحان الافرنجية ويمزجها باللحن الشرقي ، فيكسب هذا اللحن عذوبة من جراء ابتعاده عن الترديد على وتيرة واحدة. واعتقد ان عبد الوهاب هو اعظم موسيقي شرقي في العصر الحاضر ، كما كان احمد شوقي اكبر شاعر معاصر .

وتبع عبد الوهاب في الشهرة فريد الاطرش . وهو سوري من جبل الدروز ، وشقيق اسمهان . وكانت اول اغنية اندفع بها الى الامام « يفرتني طير » ثم تابع طريقه كملحن ومغن ونجم سينمائي. واكثر عشاق صوته من الفتيات .

ومن المطربات القدامى « ليلى » وكانت تزوجت عبده الحمولي. وقد كانت لاسرتي معها صداقة متينة،فلما زرتها في١٩٢٥ في القاهرة، آنستني بلقائها واعتذرت عن اسماعي بندة من غنائها لانها كانت وصلت الى الكهولة ولم يعد لها طاقة على الغناء . انما كانت معجبة بام كلثوم التي بدأ اسمها يتدرج صعدا في سلم المجد الغنائي . وقد تنبات لها بمستقبل براق .

حياة اللهو والمرح في صباي

وكان لي صديق اسمه رضا جوخدار ، رحمه الله ، معجب بالموسيقى وذو صوت رخيم ، طالما سمعناه مع رفيقه العواد الماهر شفيق شبيب ، وكان لدى جوخدار مجموعة نادرة من الاسطوانات القديمة ، وكلها من نوع الادوار التي كان يلعبها الصفطي ، وابو العلاء ، وعبد يحي حلمي ، وزكي مراد . كما كان لوالدي صديق اسمه مصطفى بك سليمان بك ظل محافظا على وداده ، فياتي كل

مساء لنسهر معه وبعض الاصدقاء ، كالاستاذ المرحوم حسن التغلبي، وفؤاد الهاسني ، ومنير العيطة ، وكامل الياسيني ، وكان مصطفى بك ماهرا بالعزف على العود ، وهو الذي دربني على ما اعرفه من الموسيقى الشرقية والحانها . فصرت اذا سمعت لحنا اعرف فورا اذا كان من مقام البيات او الرصد او السيكاه مثلا . وكم ليلة كنا نذهب انا واياه الى دمر وحدنا ، فيمسك بعوده ويسترسل في العزف حتى بزوغ النهار ، وانا ممدد على مقعد امامه استمع اليه واغفو في بعض الاحيان . وعندما يبلغ به التعب مبلغه ، يقول لي : « قم لنأخذ قسطا من النوم » ، ويذهب كل منا في حال سبيله . كان محبا للموسيقى الى درجة انه يفضل ان يكون وحده فيعزف الساعات العديدة دون كلل او ملل ، ولا يستعين الا بلفائف التبغ يستهلك منها كل ليلة اربعين او خمسين سيكارة ، وبالقهوة الحلوة ايضا . وكان لا يذوق الشراب اطلاقا . رحمه الله هو والتغلبي والياسيني ، فهم الذين كانوا يلازمونني كل ليلة نسهر فيها مع غيرهم من الاصدقاء . فابعدوني عن طريق المقاهي وملاعب القمار ، اذ كانت سهراتنا مقتصرة على سماع الموسيقى والاناشيد والنكات وقصص التاريخ . وكنا في ايام الاعياد نذهب الى دمر او القواص حيث نقضي ايام العيد ولياليه بالمرح والسرور البريئين .

فلئن كان لهذا المحيط فائدة من حيث تجنيبي الملاهي غير المحتشمة، فقد كان له ، من جهة ثانية ، اثر في انكماشي عمن اتعرف اليه وانكفائي ضمن حلقتي الخاصة . ومن ذلك نشأ جمودي وبرودي في مصادقة الناس ، بينما ارى اناسا كثيرين سهلي المعشر ، تقوم بينهم وبين من يتعرفون اليهم صداقة منذ اللحظة الاولى . اما انا فقد ترعرعت في هذا المحيط المنعزل وصرت ، اذا ما تعرفت الى شخص ، بقيت علاقاتي معه سطحية ، غير صميمة . فانتهى الامر الى اتهامي بالتكبر والعجرفة ، في حين ان الحقيقة لا تخرج عما ذكرت . فاني رجل غير اليف، لا يحب رفع الكلفة بينه وبين الناس ، ويظل منكمشا عنهم . وهو طبع صقله محيطي في مطلع عمري . اذ كان والدي، رحمه الله لا يريد ان اعاشر احدا ، خوفا عليّ وعلى اخلاقي ان يفسدها رفيق غير مشهود له بسويته الاخلاقية . ولا اذكر ان المرحوم والدي اوصاني بصداقة احد غير السيد شكري القوتلي . وقد كان والده صديقا حميما له ، غير ان اية صداقة لم تتوطد بيني وبينه ، دون ان اعرف لذلك سببا . وكذلك اوصاني

المرحوم والدي بمصادقة نجلي المرحوم حسين حلمي باشا الذي كان صدرا اعظم . لكن برغم كوننا منتسبين الى مدرسة واحدة،وهي غلطه سراي باستنبول ، فقد ظلت علاقاتنا باردة جامدة . وكذلك ربيت في حجر والدتي وصـرت اذهب معها في زياراتها لصديقاتها كما لو كنت بنتا . واستمر الحال الى ان انتسبت الى مدرسة الحقوق وتوفي والدي ، فاخترت لنفسي شلة من الاصدقاء الذين ذكرتهم . وكنت موفقا في هذا الاختيار . على انني بعد ان توفي منهم من توفي ، وانصرف الاخرون الى اعمالهم التي لم تعد تسمح لهم بملازمتي ، بقيت وحيدا ولم اعقد صداقة جديدة ، فيما عدا الرفاق الذين لم تتمكن بيني وبينهم الصداقة الى الحد الذي خصصته للاولين .

ولربما كان هذا الطبع موروثا عن والدي فانه ايضا — مع مباشرته جميع الناس واتصاله بهم كزعيم شعبي — لم يصادق غير نفر قليل كانوا يلازمونه ليل نهار . وهم مصطفى بك سليمان بك ، وكمال الياسيني اللذان ذكرتهما فيما سبق ، وعاطف فوق العادة ، جارنا في حارة داور اغا ، والشيخ توفيق المنيتي ، والمرحوم سليم نصاب حسن ، وكان شاعرا مهذبا وذا حظوة كبيرة لدى والدي . حتى انني اذكر انني دخلت مرة عليه ، وكان يصلي فهمست بأذن والدتي ان خبرا ورد الآن ان سليم قد توفي بحمى التيفوس خلال الحرب العالمية الاولى ، فشهقت والدتي . وادرك الامر والدي فنفرت الدموع من عينيه وقطع صلاته وقعد يندب رفيقه ويبكي عليه، وقد بلغ منه التأثر اكبر مدى .

واعتاد والدي استقبال ضيوفه كل يوم ، من الصباح حتى الظهر . فياتيه المئات من وجهاء القوم واصحاب المصالح يرجونه التوسط لحل مشاكلهم . فكان يشير الى احد الاصدقاء بأن يرافق صاحب المشكلة الى المركز المختص ليوصي به . وعندما يحين وقت صلاة الظهر ، كان المرحوم والدي يرمي بنربيش اركيلته ارضا فيقوم جميع الزوار فورا وينصرف كل منهم في سبيله . ويدخل الى « الجواني » ، وهو القسم من الدار المخصص للسيدات ويتناول معنا طعام الغداء . وكان المرحوم يجلسني الى يساره ، ثم يجلس والدتي وشقيقتي الكبرى . وتجلس على يمينه شقيقتاه وشقيقتي الصغيرة . ولم يتغير هذا الترتيب البروتوكولي حتى لو كان ثمة مدعوة من الاقرباء . واستمر الحال هكذا حتى تزوجت في ١٩١٩ فحرت بامري ، هل اترك زوجتي تجلس في آخر المائدة وحدها وابقى انا محتفظا بمقعدي قرب والدي ؟ فاخترت ان اجلس الى جانبها في

المؤخرة ، فارتاحت هي رحمها الله لرقتي في مجاملة شعورها . ولم يطل هذا الترتيب الجديد اكثر من شهرين اذ انتقل والدي الى اعلى عليين وصرنا نتناول طعامنا في غرفة اخرى صغيرة نجلس فيها على الارض . وكان الطعام يقدم لنا بصحون عادية موضوعة في منتصف الحلقة . وذلك وفقا لقواعد الحزن الذي فرضته والدتي على حياتنا الجديدة . وقد لبست السواد هي وكل من في البيت . وصرنا نجلس في غرفة مفروشة بمقاعد حول الجدران ، مغطاة باقمشة سوداء . وكان على الارض سجادة مقلوبة على وجهها وعلى الشبابيك قماش اسود . وهكذا انقلبت حالة الفرح ، على اثر زفافي ، الى حالة الحزن المبكية . واصبحت دارنا كانها مهجورة نجتمع كلنا في احدى غرفها . وكان يسود البيت سكون وهدوء مخيفان .

وكان والدي المرحوم ياخذ قسطا من النوم بعد الغداء ، ثم يقوم لصلاة العصر ويقعد في مدخل الدار القديم من حارة داوراغا . فياتي لعنده جاراه مصطفى بك وعاطف افندي . وبعد ان ينتهي من نفس الاركيلة التي كان مولعا بها ، يمتطي مركبته وبرفقته احد اصدقائه وانا ، ونذهب حسب الموسم الى دمر او بستان القواص بالغوطة ونبقى هنالك حتى قرب المغرب . واذا لم يقم بهذه النزهة ، كان يتوجه مشيا حتى مخزن صديقى منير العيطة ويجلس فيه ساعة من الزمن . هكذا كانت عادة الوجهاء . اما النزهة بالمركبة او الجلوس في احد المخازن في سوق الحميدية او السنجقدار ، اذ لم يكن بدمشق ناد راق يستطيع من كان بمقام والدي ارتياده . اما الزيارات للاصدقاء فلم تكن مالوفة فيما عدا قبل الظهر او ليلا .

وكانت مركبتنا من اجمل المركبات الخاصة ، يجرها جوادان ازرقان جميلان اعجب بهما الشريف حيدر عندما جاء دمشق في مطلع الحرب العالمية الاولى . فطلب من والدي ابتياعهما فلبى والدي طلبه . فشكره الشريف وارسل مع احد مرافقيه ثلاثمائة ليرة عثمانية ذهبا ، تمنع والدي عن قبولها . لكنه نزل عند اصرار الشريف وقبضها . فسالته : «لماذا تبيع الجوادان ونحن لسنا بحاجة لقيمتهما ؟ وانى لنا ان نعثر على غيرهما في هذه الايام التي صادر الجيش التركي جميع الخيول ؟ » فاجابني : « ان حيدرا ياتي مقامه في الدولة بعد الصدر الاعظم ، باعتباره شريفا لمكة المكرمة — وكان قد عين في هذا المقام اثر ثورة الشريف حسين — فكيف نخالف له رغبة ؟ »

وهكذا كان القوم ، يحترمون الكبير ولا يردون مشيئته .. وقد استحال الحصول على جوادين ، فجلب والدي من القرية كديشا وبغلا ، الاول ابيض والثاني احمر . وكان المضحك ان الحوذي لم يستطع تعليمهما الاقلاع بالمركبة ، اذ كانا يحرنان ، فينزل اليهما ويجرهما مسافة ثم يسرع لامتطاء المركبة . وكنت في اثناء ذلك امسك بمقودهما حتى لا يجنحا . وكثيرا ما كنت اعاني من هذه المشكلة عندما اخرج من المدرسة لامتطي المركبة ، فيضحك رفاقي الذين تجمعوا لجر الحيوانين ، الى ان ضقت بالامر ذرعا . فطلبت من والدتي ، وكان والدي مسافرا في استنبول ، ان تستبدلهما . فاشتريت جوادا انكليزيا اسود ، وراح الحوذي يكدنه مع فرسي الانكليزية . فتحسن [illegible] ، لا سيم[illegible] عد ان اشترى والدي بعد الحرب مركبة جديدة ذات دواليب من المطاط . فكنت تسمع الجوادين دون صوت الدواليب . وعندما بدت عجرفة الحوذي واعتزازه بمركبته الجميلة وبجواديه الاسودين ، فصار يقود المركبة وكانها مركبة ملك الانكليز . وعاد نشاطه ومرحه ، بعد ان مر في فترة الكديش والبغلة المنحوسة التي قصمت ظهره وانزلت عليه الكآبة . وكان يعتريه الاستحياء من عبور الطريق وهو يقود هذين الحيوانين البشعين .

وبعد عودة والدي من نزهة بعد الظهر وتناول العشاء ، يجلس مرة اخرى في قاعة الاستقبال في القسم البراني من الدار . فيتوارد الاصدقاء الاخصاء الى جلسة مرح ومزاح لا يحضرها غريب . وتدوم السهرة الى نحو منتصف الليل ، حين يرتمي نربيش الاركيلة مرة اخرى ، فينصرف الزوار . وفي تلك السهرات كان والدي يتلقى من رفاقه اخبار البلد اليومية ، فيضع الخطة للعمل بعد ان يتشاور مع جماعته في اليوم التالي ، فيتوزعون العمل . وهؤلاء كانوا وجهاء البلد واصحاب النفوذ والكلمة المسموعة ، كل في حيه . اذكر منهم : الشيخ تاج الحسيني ، عبد القادر الخطيب ، يحي الصواف ، مسلم الحصني ، احمد القضماني ، محمدالمجتهد ، الياس عويشق ، ناصيف ابو زيد ، يحي لينادو ، وغيرهم . فكانوا يؤلفون مجموعة متراصة يتزعمها والدي ، اشبه ما تكون بالحزب السياسي . وكانوا يدافعون عن مصالح البلد المحلية ، دون ان يمسوا سياسة الدولة العثمانية العامة ، بل كانوا يساندونها تجاه الجماعات التي كانت تتصل بالافرنسيين وبالانكليز وتعمل لفصل البلاد العربية عن الكيان

العثماني . وكان والدي شديد الايمان والعصبية للاسلام . وكان يردد ان العرب لم يصلوا بعد الى مستوى يستطيعون فيه ايجاد كيان مستقل يقف تجاه المطامع الاجنبية . فكان من هذه الجهة ضد الاستعمار .

اما الاتراك ، فما كان يعتبرهم مستعمرين لبلادنا بل يعدهم قوما يجب عليهم التفاهم مع الاقوام الاخرى الداخلة في الامبراطورية العثمانية ، كالارمن والاكراد وغيرهم .

ويتبين الآن صدق حدس والدي، عندما نشاهد ما هو قائم الان بين العرب من عداء واعتداء على السيادة ، وما انحدرت اليه اوضاع الدول العربية التي اقتطعت من جسم الامبراطورية العثمانية .

والدي ولمحة عن سيرة حياته السياسية

لم اكن حتى مجيء الامير فيصل الى دمشق اعنى بالسياسة حتى من بعيد . لكن المحيط والجو الذي خلقه فيصل ، وارتيادي النادي العربي ، وسماعي المحاضرات والخطب الحماسية التي كان يلقيها الخوري اسطفان او الدكتور شهبندر ، طور تفكيري وجعلني من المتحمسين للعروبة والديمقراطية . وكنت انقل الاقوال التي اسمعها الى والدي وادافع عنها . لكنه كان يهز براسه شكا في المستقبل الذي كنت اتصوره زاهيا براقا ، اما هو فكان يقول لي ، وخاصة في اواخر ايامه ، ان لا بد من مجيء الافرنسيين الى هذه البلاد فتصبح كالجزائر والمستعمرات الافرنسية الاخرى . وكان منقبض الصدر كثيرا ويردد اللوم على الزعماء السياسيين الشباب، مثل مردم والشهبندر والشيخ قصاب ، ويقول : « لقد استبدلنا بالافرنسيين الاتراك .. وعلى اي حال ، فالدولة العثمانية كانت دولة اسلامية . »

واذكر ، انه في اليوم الذي سبق وفاته ، قال لي : « اشهد علي ، يابني ، باني سوف لا اشتغل في السياسة منذ الساعة . » وذهب صبيحة اليوم التالى الى البستان هربا من الاجتماع مع الناس . وعاد ظهرا وتوفي قبيل الغروب . رحمه الله ، واسكنه اعالي جناته .

وكان رحمه الله زعيم دمشق وسورية غير المنازع . حتى أن الامير فيصل جرب ان يعاكسه بالانتخابات للمؤتمر السوري ، ففاز والدي وجميع افراد قائمته ولم ينجح واحد من المعارضين له . وكذلك عندما اجتمع المؤتمر السوري ورشح الامير فيصل هاشم الاتاسي للرئاسة تغلب عليه والدي وفاز بها . وبعد وفاته انفرط عقد جماعته



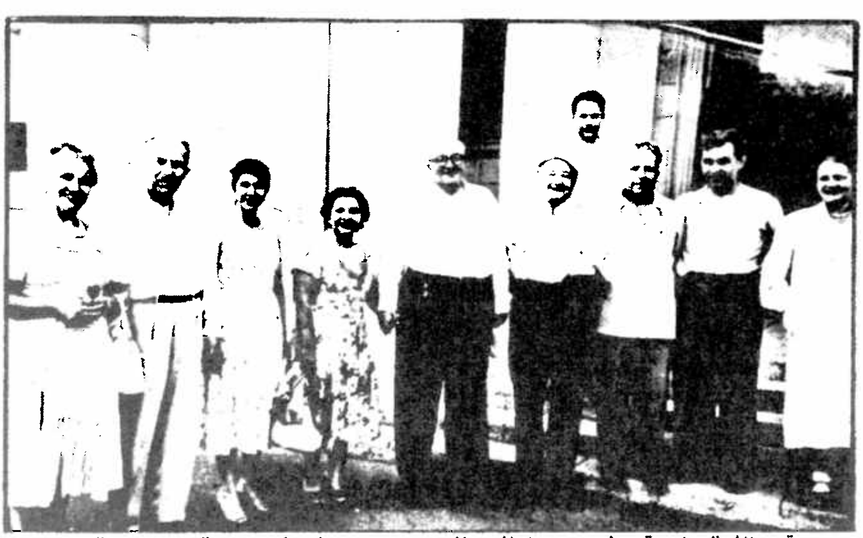
محمد فوزي باشا العظم ،والد صاحب المذكرات، وكان من كبار اعيان دمشق، ووزيرا للاوقاف في اواخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني.



خالد العظم في طفولته.

خالد العظم مع شلة من رفاق صباه في دمشق. وهو يتحدث عن تلك الايام تحت عنوان «ذكريات خاصة» في هذه المذكرات.





صورة عائلية نادرة يظهر فيها الى اليمين بعض افراد جوقة موسيقية روسية استقدمها فخـري البارودي الى دمشق. والى يسار خالد العظم في الوسط تظهر عقيلته ليلى، ثم فاخـر الكيالـي وزوجته.



مع عقيلته ليلى وابنة بالتبني.

ولم يتمكن احدهم من الاستيلاء على زمام الزعامة . وانتقم منهم الزعماء الشباب وصاروا يشاكسونهم حتى استحكم العداء بين الطرفين لدرجة انه عندما انسحب الملك فيصل ، اثر فشل قواه في ميسلون وابعاده عن سورية ، هرب جميع الذين كانوا يعملون الى جانبه . فخلا الجو لمناوئيهم الذين تعاونوا مع الافرنسيين ، ان لم يكن جميعهم فاكثرهم . فتبؤوا المناصب وظلوا يمارسون الهيمنة حتى عاد الوطنيون الى استلام الحكم في ١٩٣٦ . وكان اكثرهم مهارة واقدرهم الشيخ تاج الحسيني ، فجمع حوله الكثير من الجماعة . وبفضل سمعة والده الحسنة وبالاساليب المختلفة ، توصل الى تبؤ رئاسة الحكومة من ١٩٢٨ حتى ١٩٣١ ثم من ١٩٣٣ حتى ١٩٣٦، ثم رئاسة الجمهورية من ١٩٤١ الى ١٩٤٣ ، حين انتهت اعماله السياسية بوفاته .

وكم كنت اود لو استطعت نشر كتاب تذكر فيه الاعمال المجيدة التي تولاها المرحوم والدي في خدمة بلاده . وقد كلفت صديقه المحامي ناصيف ابا زيد ، وكان يدعي الشعر ، ان يضع هذا المؤلف وسلمته ما وجدته من وثائق ومراسلات تصلح ان يرجع اليها عند تاليف الكتاب . ومضت الايام والسنون والاستاذ يعدني بالانجاز . ثم ارتحل الى عالم الابدية وضاعت المستندات .

وبهذه المناسبة اذكر ان والدي تلقى دروسه في المدرسة الاعدادية بدمشق ، فبرع باللغة التركية . ثم عين كاتبا في قلم الولاية بمعاش شهري قدره ثمانون غرشا . ثم تدرج بما كان يمتاز به من ذكاء ورفعة بين اقرانه ، فعين عضوا في مجلس ادارة ولاية دمشق ، ثم خلف اخاه خليل باشا برئاسة البلدية . فبقي في هذا المنصب سنين عديدة تولى خلالها انشاء المستشفى الوطني،وكان المستشفى الوحيد في هذه البلاد. ثم ساهم مساهمة فعلية في استجرار مياه الفيجة بالقساطل الفولاذية الى دمشق وتوزيعها بالمناهل العامة على انحاء البلد . فصار الاهلون يشربون ماء عذبا نقيا ، بدلا من مياه الانهر القذرة او مياه الآبار التي كان يندر ان تخلو دار واحدة منها . ثم كلف بادارة مصلحة السكة الحديدية الحجازية ، فقام بادارة المؤسسة من اول اعمالها حتى وصول الخط الى المدينة المنورة . وقد لا تبدو هذه المشاريع عظيمة في اعين الجيل الحاضر ، الا انها بالنسبة لذلك الزمن كانت اعمالا جبارة افادت اهالي دمشق فوائد صحية كبيرة ، وتجارية واسعة .

وكان ولاة دمشق الاتراك يعتمدون كلهم علىَ والدي ، فيستعينون بخبرته ومقدرته على حل المشاكل وتسويتها . وكان مركزه المقرب لدى ولاة الامور حافزا له لخدمة بلده وسكانها ، فحاز بذلك ثقة الناس وارتباطاتهم به . ومن هنا نشأت زعامته لدمشق .

ثم انتخب مرتين لعضوية مجلس النواب العثماني عن ولاية دمشق، فكان يسافر الى العاصمة في مطلع تشرين الاول من كل عام ويعود في شهر نيسان . وتولى نيابة رئاسة المجلس وكان مسموع الكلمة في دوائر الدولة في العاصمة ، نظرا لترؤسه كتلة النواب العرب الذين كانوا يقربون الثمانين نائبا .

وفي تموز ١٩١٢ ، اشترك كوزير للاوقاف في وزارة المشير احمد مختار باشا التي ضمت فحول رجال الاتراك ، فضلا عن الصدور السابقين ، كسعيد باشا وحسين حلمي باشا وفريد باشا وغيرهم . ولم تعمر هذه الوزارة طويلا ، اذ استقال رئيسها على اثر هجوم طلاب جامعة استانبول على الباب العالي ومطالبتهم باعلان الحرب على دول البلقان ، وما تبع ذلك من تقهقر الجيش العثماني ورجوعه حتى ابواب العاصمة .

ثم عاد لمزاولة عضوية البرلمان العثماني ، فكان يضطر للسفر من دمشق الى استانبول عن طريق البر ، بعد ان اشتركت تركيا في الحرب وانقطعت البواخر عن ارتياد المرافىء التركية . ولم يكن الخط الحديدي قد انجز بين دمشق والعاصمة ، فكان الركاب يتركونه ويمتطون عربات تجرها الخيول لاجتياز جبال طوروس الشاهقة مرتين ، حتى يصلوا الى شواطىء البوسفور .

واذكر جيدا اننا كنا نقضي ايام عيد الاضحى في احدى القرى التي كنا نملكها في حماة ، واسمها خطاب . وكنت ارافق والدي مع ابن عمته بديع بك المؤيد ، نائب دمشق ، وبعض الاصدقاء . وعندما جاءتنا الصحف تخبر بوقوع الحرب بين تركيا ودول الائتلاف المثلث، وهي روسيا وفرنسا وبريطانيا ، ظهر الكرب على وجه والدي وقال لنا : « هذا بدء انهيار الدولة . »

وخلال الحرب ارسل جمال باشا كلا من والدي وعبد الرحمن باشا اليوسف والشيخ اسعد الشقيري بقطار خاص الى المدينة المنورة ليعملوا على استجلاب العشائر الى جهة الدولة ، واقناعهم بعدم فائدة التحاقهم بالشريف حسين الذي كان اعلن الثورة العربية .

ذهب والدي غصبا عن ارادته ، اذ كان يخشى ان ينفيه جمال باشا الى بلاد الاناضول كما نفى سائر الاسر الشامية . ثم عاد من المهمة وعرض على الباشا الوضع في الجزيرة العربية ونصحه بان يجد طريقة يعيد بها الحسين الى حظيرة الدولة ، والا فالبلاد العربية كلها ستنفصل عنها عند اول هجوم يقوم به الانكليز على سورية . ولم يأخذ الباشا بهذا الراي ، واستمر على طغيانه وبطشه بالامة العربية حتى ضاق صدر اولياء الامر في استانبول ، مما كان يحمله اليهم النواب العرب من اخبار الظلم والتعسف ، فاضطروا بنهاية الامر الى اعادة جمال باشا الى وزارة الحربية ورفع يده عن البلاد العربية .

والدي يزور الامير فيصل ويعد بتأييده

وعندما تدهور الموقف العسكري في جبهة فلسطين وباتت سورية كلها على وشك السقوط اخيرا في يد الجيش البريطاني ، عاد زعماء جمعية الاتحاد والترقي التي كانت تمسك بزمام الامر في تركيا الى الصواب وارسلوا الوالي السابق تحسين بك ليتفق مع العرب على منحهم لامركزية ادارية . لكن ذلك جاء متأخرا

ولم يكد تحسين بك يصل الى حلب حتى دخل الامير فيصل دمشق وتبعه الجيش البريطاني . فسارع والدي بالسفر الى استانبول تجنبا لمساوىء الفوضى التي تعقب دخول الجيوش المعادية الى بلد ما .

لكن اصدقاءه اقنعوه في حمص بعدم متابعة سفره الى العاصمة التركية ، لا سيما ان الفوضى كانت تذر قرنها على اثر هروب اعضاء الحكومة والحزب ، مثل طلعت باشا الصدر الاعظم ، وانور باشا وزير الحربية وقائد الجيش العام ، وجمال باشا ، وجميع زملائهم.

فانتظر والدي دخول الجيش العربي والبريطاني وهدوء الحالة وعاد الى دمشق بمركبة ومعه عبد الرحمن باشا اليوسف الذي كان عائدا من استانبول ، ولفيف من ابناء عمنا القاطنين في حماه

واثر وصول والدي الى دمشق زار الامير فيصل وكان بينهما معرفة سابقة ، فرحب به واكد له انه يريد التعاون مع سائر المواطنين بدون تمييز بين من التحق بالثورة او من بقي في البلاد. فارتاح والدي لهذا التصريح ووعده ببذل كل نفوذه لدعمه ومقاومة نوايا الدول الاجنبية السيئة بحق البلاد العربية . وصارا يجتمعان باستمرار ويتشاوران .

وقد اخلص المرحوم والدي لفيصل خاصة انه كان ينتسب الى الرسول الاعظم ويمثل فكرة اسلامية كانت تطغى عند والدي على فكرة العروبة التي لم يكن يعتبرها رابطة قوية يمكن الاعتماد عليها . بل كان يرى ان فكرة الوحدة الاسلامية هي اوثق رباطا واكثر متانة . وعلى ذلك كان ينظر الى تفكك الامبراطورية العثمانية كضربة قاصمة للوحدة الاسلامية .

غير ان محيط الامير فيصل،المؤلف من شباب متحمسين للعروبة، كانوا يدسون ضد والدي لدى الامير فيصل ويظهرون نظريته هذه كانها خيانة للفكرة العربية . وكان رضا باشا الركابي يخشى مزاحمة والدي له في منصبه ، ولذلك كان يغذي هذه الدسائس ، يعاونه فيها جميل مردم وشكري القوتلي واحمد قدري ومعين الماضي وغيرهم ممن كانوا يجتمعون سرا ويقررون سياسة البلاد ، حتى اطلق عليهم اسم « العشرة المبشرة » . وزاد حقدهم على والدي عندما نجح على راس قائمته بالانتخابات التي جرت في تموز ١٩١٩ للمؤتمر السوري، بينما لم ينجح احد منهم ، مما ابعدهم عن ذلك المجلس الذي صار تحت نفوذ والدي .

ولم تستقر لهم الامور في المجلس حتى توفي والدي ، فانتخبوا محله هاشم الاتاسي ، ثم الشيخ رشيد رضا ، فكانا رئيسين مطواعين وجها اعضاء المؤتمر الى ما تريده الحكومتان المؤلفتان في عهد الملك فيصل .

واشد ما اندم عليه هو اني ، بسبب صغر سني ، لم استطع الافادة من خبرة والدي . فقد توفي رحمه الله ولم اتجاوز السادسة عشرة من عمري . وكان والدي ينظر الي نظرته الى شاب لم يكتمل نضوجه ليفاتحه او يبحث معه الشؤون العامة . وهكذا لم يحظني منذ شبابي الا كأب رؤوف يرشدني ويدلني الى الصراط المستقيم ويجنبني مواقع الخطأ .وهذا ما جعلني ارتاب من كل امر واتوجس فيه الشر ولا اقدم عليه حتى يطمئن قلبي تمام الاطمئنان .

وبقيت هذه العادة مستحكمة على عقليتي. فحالما اسمع بخبر ما التعليقات السيئة والشبهات فاحسب للامر الف حساب بروح تراودني متشائمة .وقد حال مركب النقص هذا دون افادتي من كثير من النصائح والارشادات التي كان يقدمها لي حتى اقرب المقربين الي .

وانفرط عقد رفاقي الاول بوفاة احدهم وبانهماك الآخرين

بمعلمهم او بوظيفتهم فعاشرت لمدة قصيرة ابناء عمي جواد وتحسين وسعيد اليوسف واخاه . وذهبنا سوية الى بيروت ، فقضيت معهم بعض السهرات في المطعم الافرنسي ، حيث كانت الفنانات الروسيات والافرنسيات يطربن الحضور باغانيهن الافرنجية ويمتعن عيون المتفرجين برقصات وهن شبه عاريات . ولم آلف هذا النوع من التسليات التي كانت طابع سهرات بيروت الغالية . وقد عزفت عنها بعد ان جرى بيني وبين احدى الفنانات الروسيات حادث ازعجني حتى طفح كاس تحملي ، فقطعت كل صلة لي بذلك الوسط وانزويت اقضي الصيف وحيدا في دمر ، اقرأ الكتب التاريخية الحديثة واستمع الى الموسيقى الشرقية والغربية على الاسطوانات، حتى قامت ثورة ١٩٢٥ ، وقذفت دمشق بقنابل الافرنسيين فاحترق الكثير من البيوت . وهرب الناس الى حي الصالحية، تلتجىء فيه كل اسرة عند اسرة صديقة . فتركت دمشق على النحو الذي ذكرته في مطلع هذه الذكريات وذهبت الى القاهرة ، حيث مكثت اربعة شهور .

اقامتي في مصر ابتعادا عن اخطار الثورة السورية

وكانت القاهرة والاسكندرية في ذلك العهد ، تطفح كل منهما بالازدهار والخيرات . فترى الشوارع مكتظة باغلى انواع السيارات والمخازن مليئة بالبضاعة النفيسة ، والمسارح تعج بالمعجبين بفن الريحاني ويوسف وهبي ، والمقاهي تكاد تتصدع من وفرة عدد المستمعين الى منيرة المهدية وام كلثوم في مطلع حياتها الفنية . كما كانت الفرق الاجنبية تاتي، الواحدة تلو الاخرى، وتظهر على مسرح الاوبرا او الكوميدي الافرنسية . وكان المتفرجون يتبارون بلبس اجمل البدلات ، مما جعل مشاهدتهم لا تقل بهجة عن مشاهدة المسرح والممثلين .

اما المطاعم ، فكان منها الافرنجية كمطعم سان جيمس بشارع فؤاد ، وشليتو بشارع الفي بك، وهما من الدرجة الممتازة، الى جانب مطاعم الفنادق الكبرى ، مثل شبرد وكونتيننتال وسميراميس . اما المطاعم العربية فكان في مقدمتها تلك التي تقدم اللحم المشوي . وكان الحاتي ، بالموسكي ، في رأس المطاعم الشهيرة التي تكاد لا تجد فيها مكانا . اما المقاهي الافرنجية ، فكان في مقدمتها محلات عزولي والليمونيا . واما المقاهي المحلية ، فما كانت تدانيها ، لا من حيث الزبائن ولا من حيث ما يقدم فيها من مشروبات .

وكانت نزهاتنا في القناطر الخيرية وفي الجزيرة والاهرام .

وتمركزت قيادة الثورة السورية في القاهرة ، وكان يراسها الامير ميشال لطف الله ، ومن اعضائها شكري القوتلي والشهبندر وفوزي البكري والحاج اديب خير وغيرهم. وما لبث ان دب الخلاف بينهم ، فألف الشهبندر لجنة تستوحي خطتها منه ، والف شكري القوتلي لجنة اخرى . وهكذا ظل الخلاف يستحكم حتى انتهت الثورة وعاد السياسيون الى دمشق في ١٩٢٨ . وفي ١٩٣٧ انكشف النزاع بشكل ظاهر وعلني ، فراح الشهبندر يخطب ضد الكتلة الوطنية ويعمل ضدها حتى فرضت عليه الاقامة الجبرية في بلودان . وانتهى الخلاف باغتيال المرحوم الدكتور شهبندر واتهام جميل مردم وشكري القوتلي واطفي الحفار بتدبير هذا الامر ، فهربوا الى العراق . غير ان المحكمة الخاصة التي الفها الافرنسيون برات ساحتهم وحكمت بالاعدام على شاب من آل عصاصة واثنين آخرين . ونفذ الحكم فيهم .

وبقيت في اثناء اقامتي بالقاهرة بعيدا عن هذا المحيط السياسي. واكتفيت بتقديم بعض المساعدات المالية للوفد السوري الفلسطيني الذي كان يعمل في جنيف برئاسة الامير شكيب ارسلان يعاونه رياض الصلح واحسان الجابري .

رايي في المظاهرات الشعبية لاستقبال الزعماء

وذات مرة شاهدت في الشوارع تجمعات كثيرة استوضحت عن غايتها فقيل لي بان الملك فؤاد سيعود اليوم من الاسكندرية الى القاهرة . فذهبت مع احد ابناء البكري الى فندق كونتيننتال وجلسنا على سطيحته المطلة على ساحة ابراهيم باشا . وكانت الجماهير مزدحمة بين المحطة والقصر ، على النمط الذي تزدحم به اليوم لمشاهدة موكب الرئيس جمال عبد الناصر . فما ان اطل الموكب الملكي ، تتوسطه مركبة مكشوفة يجلس فيها الملك فؤاد والى جانبه رئيس وزرائه زيوار باشا ويحيط به الجنود والفرسان ، حتى دوت الساحة بالتصفيق وارتفعت اصوات تنادي : « يعيش الملك .. ويحيا سعد .. » وكانت زعامة سعد زغلول لا تدانى ، لكن الملك كان يرفض دعوته لتاليف الحكومة . وهذا الحماس والهتاف كنت اذكره عند مشاهدة مثيله في استقبال عبد الناصر . فكان ينادى به زعيما ، تماما كما كان ينادى بالملك فؤاد وسعد زغلول ، ثم بالملك فاروق والنحاس باشا . ولذلك كنت ، وما ازال ، لا اقيم وزنا للمظاهرات الشعبية التي يدعى بانها تمثل اتجاه الجمهور وتعلقه بالزعيم الفلاني او بغيره .

وفي دمشق شاهدت من المظاهرات الحماسية ما لا انساه . فجمال باشا وانور باشا مع انهما شنقا نحـــو ثلاثين زعيما وطنيا واضطهدا العرب قوبلا بزغاريد النساء وحشود الاهلين تحت زخات المطر المتواصلة ، ثم لقي الامير فيصل استقبالات منقطعة النظير ، لا سيما عنـــد عودته من فرنسا لاول مـــرة . فكانت السيارات والمركبات تؤلف مع المشاة سيلا عارما وصـــلت مقدمته الى قصر الامارة في الصالحية ، بينما ظلت مؤخرته في دمر تنتظر دورها لتدخل في المسيرة . ثم استقبل الجنرال غورو فاتح دمشق بشكل غريب غير منتظر. اذ هجم شباب آل الطباع على مركبة الجنرال وفكوا رباط الخيل وجروها ثم حملوها ، والجنرال ينظر الى هذا المشهد وعيناه لا تصدقان ان دمشق التي حاربته نحو سنتين تستقبله بهذا الترحاب والحماس . ولم يدر في خلده ان الجماهير تسوقها الزعماء . فلما خلا جو دمشق من الزعماء الوطنيين انفرط عقد التنظيم والتوجيه ، وصار زعيم كل عشرة اولاد يقود مظاهرة ، فتندفع الجماهير خلفه بالانسياق الغريزي لا بالتفكير والتعقل .

ثم اذكر ان دمشق اضربت بحجة غلاء سعر الكهرباء . فسارت المظـــاهرات في الشوارع وكاد زمام الامور يفلت من يد موظفي الانتداب . فاعتقلوا بعض الزعماء السياسيين كفخري البارودي ونسيب البكري وابعدوهم الى الجزيرة . فلما هدات الحالة وسمح لهم بالعودة الى دمشق كان لفخري البارودي استقبال ضخم لا يقل عن استقبال الامير فيصل الذي ذكرته آنفا . اذ سارت الجموع من بلدة دوما الى دمشق ، والبارودي محمول على الاكتاف يحيي الجماهير ويخطب فيهم حتى بح صوته وتشققت ثيابه ووصل الى داره منهوك القوى . وكذلك استقبلت دمشق الوفد السوري عند عودته من باريس ، حيث ذهب لعقد معاهدة تحالف مع فرنسا . وعلى الرغم مما حوته تلك المعاهدة من شروط مجحفة ، كان استقبال الوفد بالغ الذروة في الحماس وكثرة الجماهـــير المتدفقة لتحيته وتاييده .

ثم حظي شكري القوتلي بمهرجانات صاخبة في جميع البـــلاد السورية ما كانت اقل اهمية مما سبقها . وحينما جاء عبد الناصر تدفقت الجموع نحو قصر الضيافة تنادي باسمه وتردده ، ثم تواكب سيارته . وقد تعلق بها المتحمســون من الشبــــاب حتى انكسرت السيارة واضطر لتغييرها . وقوبل الرئيس عبد الناصر في رواحه

ومجيئه في البلدان السورية بحماس مماثل ظن انه انفرد به ولم يحظ بمثله احد في الماضي ، فاعترته هزة التعالي ونشوة الظفر . وخيل اليه ان سورية ارتمت تحت اقدامه وتعلقت بذيول وحدته ، فكان هذا الشعور ، بل الاعتقاد الراسخ ، اول خطأ وقع فيه . ولو انه طلب من احد المعمرين ان يروي له قصص الاستقبالات والاحتفاءات التي قوبل بها من جاء قبله ، لما انخدع بهذا السراب ، ولهان عليه الامر عندما انفصلت سورية عنه ، ولخفف من غلوائه واستماتته للعودة الى دمشق حاكما ، ولترك اهل هذه البلد يتخبطون فيما بينهم دون ان يشغل باله وينفق من اموال الخزينة المصرية ما انفقه. وهو لو فعل لارتاح واراح .

عودتي من مصر الى بيروت وسكناي فيها مع والدتي

بقيت في مصر حتى منتصف شهر آذار ١٩٢٦ ، ثم عدت الى بيروت التي كانت والدتي استأجرت فيها دارا لسكناها ، بعيدا عن شرور الحركات العسكرية الافرنسية في سورية ، وما كان يقوم به بعض زعماء الثورة من رؤساء الاحياء من خطف الاثرياء من دورهم ليلا لقاء فدية تتناسب مع ثروة المخطوف . وهكذا هرب من دمشق كل من خاف ان يلقى هذا المصير . فاكتظت بيروت والقرى المجاورة باللاجئين السوريين على اختلاف نزعاتهم . فاخترع بعض الزعماء من الثوار طريقة جديدة لابتزاز الاموال ، هي تهديد اصحاب الاراضي في الغوطة بقطع اشجارها اذا لم يفتدوها بالمبلغ الذي يفرضونه عليهم ، وبدأ التذمر يدب في النفوس من هذه المعاملة السيئة . اما الاموال اللازمة للثوار فما كان اهل المدينة يقصرون في ادائها تاييدا لعمل قومي ذي شأن . لكن فرض الاتاوات وخطف الشبان في الليالي الحالكة وتسييرهم المسافات الطويلة مشيا على الاقدام ، وعيونهم معصوبة وحياتهم مهددة ، ما كان ليلقى ردة فعل ايجابية لدى الناس . وذلك خصوصا عندما تفرقت كلمة الزعماء وصار بعضهم يحتفظ لنفسه بما كان يجود به المهاجرون السوريون واللبنانيون القاطنون في امريكا وسائر البلاد . فزالت في عيون الناس تلك الهالة المقدسة التي كانت الثورة محاطة بها في مطلعها ، وانكشفت عيوب الزعماء ومطامعهم ومزاحماتهم وكيد بعضهم لبعض . حتى ان منهم من استسلم للافرنسيين ، ومنهم من خلق اية حجة للسفر وترك ميادين العراك ، كما هو شأن العرب دائما . ومنهم ، يا للاسف ، من يبدأون بداية حسنة ، لكنهم لا يلبثون ان يتفرقوا فيتقاتلون ويتركون الساحة للغريب .

وعندما كنت في بيروت قامت الفرق العسكرية الافرنسية بهجوم شامل على جبل الدروز فاحتلت السويداء وسائر المدن . ولجأ زعيم الثورة الى قريات الملح في الاردن ، وخضع غيره ، فكادت الثورة ان تنطفىء . واصدر المفوض السامي امره بتعيين الداماد احمد نامي بك رئيسا للدولة ، وبتأليف حكومة ، نصف اعضائها من الزعماء الوطنيين ، وهم فارس الخوري ولطفي الحفار وحسني البرازي ، والنصف الاخر من يوسف الحكيم واثنين آخرين من المعتدلين . ولم تنجح مساعي هذه الحكومة لانهاء الثورة بشكل يؤمن ربحا ، ولو قليلا ، للوطن . فقد قذف الافرنسيون ، ذات ليلة ، حي الميدان في دمشق بالمدافع واحرقوا الدور وهجموا على الاهلين يوسعونهم قتلا وضربا . واستقال الوزراء الوطنيون فسيقوا الى المنفى في الحسكة . ثم انتهت الثورة دون ان تنال البلاد بواسطتها اية فائدة ، سوى انها اذكت الروح الوطنية واظهرت للملأ ان سورية لا تخضع امام الانتداب الا بقوة السلاح الغالبة .

زيارتي للاسكندرية والقاهرة وانطباعاتي عنهما

قضيت صيف ١٩٢٦ في برمانا ثم عدت الى الاسكندرية عن طريق البحر في باخرة افرنسية فخمة . ولاقيت اختي في فندق سان استفانو برمل الاسكندرية وهي في طريق عودتها من فرنسا ، حيث جرى لها تركيب رجل اصطناعية بدلا من رجلها التي بترها الاطباء، اثر مرض انسداد الشرايين . وكانت المرحومة طلبت الي ان ارافقها الى فرنسا ، فلم توافق والدتي على سفري خوفا من ان تستهويني مباهج باريس . واين الآن مَن يسمع كلام امه او ابيه ، فيصرف النظر عن سفرة ممتعة ويبقى في بلده ؟ وكانت الاسكندرية كالقاهرة تبهر الانظار وتنعم بالازدهار . وعندما عدت الى القاهرة بعد ثورة ١٩٥٢ وجدتها كئيبة محزنة تسود جوها الكآبة . فالشوارع قذرة ، والمحلات التجارية خالية خاوية الا من بعض المصنوعات المحلية التي لا تشابه البضائع الافرنجية التي كانت المخازن تعرضها للبيع وهي تعج بالزبائن ، رجالا ونساء محجبات من مختلف الطبقات ، يشترون ما طاب لهم من اجمل المصنوعات . وكان شارع قصر النيل يشابه شارع الشانزيه‌ليزه في باريس ، من حيث مخازنه وما يعرض فيها من التحف الاثرية والمفروشات الكلاسيكية والبضائع التي يقبل عليها المترفون من الاثرياء . فتتداول الاموال بين الايدي وتترك في كل منها جزءا كافيا لتأمين معيشة صاحبها . اما الان فقد زالت عن هذا

الشارع تلك البهجة ، فلم يعد الثري او حتى متوسط الحال يستطيع الانفاق ما بوسعه . فاغلقت المحلات المعروفة وحل محلها بقالون او باعة المنتوجات المحلية القطنية الرخيصة .

وحل بالقاهرة ما حل بموسكو او بيتروغراد ، فاصبحت الحياة العامة ترتدي طابع التقشف او الحزن . فلا الوجوه هي تلك التي كنت تشاهدها ، ولا الجو هو ذلك الذي كان يسود عاصمة مصر . واذكر انني عندما وصلت الى القاهرة ، لاول مرة ، حللت بفندق بسيط قرب المحطة ، وبقيت ممتكفا في سريري يومين اشكو نزلة صدرية . فجاءني في مساء اليوم الثاني ابن عمي المرحوم هشام بك العظم ، ابن المرحوم الشهيد شفيق بك الذي شنق مع قافلة الزعماء العرب في عهد جمال باشا ، وقال لي : « لم انت قابع في الفراش ؟ » فوصفت له ما اشكو منه ، فقال لي : « قم فسآخذك معي لاعرفك بالقاهرة . وثق بانك تعود الى الفندق معافى . » فسرت خلفه في سيارته التي اجتازت شارع عماد الدين الذي كان يحوي مسارح القاهرة الرئيسية . واخترقنا شارع فؤاد ، ثم ساحة الاوبرا ، ثم شارع قصر النيل حتى وصلنا الى مقهى غروبي في سليمان باشا ، وكانت الاضواء المشعة في الطرقات وعلى واجهات المخازن تبهر العيون غير المعتادة على هذه الانوار الخلابة . وقد تعب عنقي من الاتجاه يمنة ويسارا والى السماء لمشاهدة الابنية الشامخة التي لم تكن معروفة بدمشق او بيروت . ودخلنا قاعة الرقص في غروبي وكانت مستديرة الشكل احتشد على موائدها الشبان والشابات . فيقومون الى الرقص ثم يعودون الى موائدهم بعد ان يكون بلغ بهم التعب مبلغه . ثم انتقلنا الى الساحة السماوية التي تجاور قاعة الرقص وجلسنا الى مائدة نتمتع بالطقس البديع وبالجو المشع بهجة وسرورا . وقد خلبتني هذه المناظر واصبحت اشبه نفسي بقروي اتى المدينة ، ففغر فاه امام مباهجها . ولم تكن المراة المصرية قد تحللت بعد من الحجاب ، ولذلك كنت لا ترى سوى السيدات المسيحيات او اليهوديات . اما المسلمات فكن يقبعن في دورهن ولا يظهرن حتى امام اقارب ازواجهن . ودعاني ابن عمي للغداء عنده في اليوم التالي حين جاء ليرافقني بسيارته حتى داره . وفجاة توقف امام مخزن ودخل اليه وخرج بعد هنيهة حاملا اكياسا تحوي انواع الفاكهة وزجاجة عرق . ووصلنا الدار فادخلني الى مكتبه . وظننت انه سوف يقدمني لزوجته ، لكنه لم يفعل بل دعاني لغرفة الطعام

حيث اكلنا وحدنا . واحتسى من زجاجة العرق ما طاب له فترنم وضحك وقال لي : « اتعرف لماذا اضحك ؟ » فقلت : « لا » . قال : « زوجتي تمنعني من شرب الخمر على انواعه ، غير اني انتهز فرصة وجود مدعو عندي لأدعي انه هو الذي افرغ الخمر في جوفه فتنطلي عليها الحيلة . » واسترسل بالضحك طويلا . فقلت له : « هكذا ادركت الآن تمسكك بحجب النساء عن معاشرة الرجال ! » فقال : « ان الامر لا يحتاج الى كثير من الذكاء . فلــو كانت زوجتي غير محجبة لاضطرتني الى مرافقتها الى الملاهي والى دور الاصدقاء ، وعندها تحول دون قضاء وطري في الشراب ! » واردف مبتسما وملتفتا الى الباب قوله : « وفي مغازلة النساء ! » وكـــان المرحوم هشام من احلى الناس معشرا ، خفيف الدم ، لطيف المزاج ، يحب المزاح والمرح . وكان الى جانب ذلك حائزا على شهادة دكتوراه في الحقوق من باريس ، امتهن المحاماة في القاهرة وتبوأ مركزا مرموقا بين زملائه . ثم تزوج وخلف ابنتين ، لكنه لم يكن مرتاحا في حياته الزوجية لانه نشأ في اوروبا وترعرع فيها واعتاد على طراز الحياة السائدة فيها . ولم تكن زوجه في مثل طباعه . اذ نشأت في محيط ارستقراطي متحفظ ، لا تساير زوجها ، ولا تسعـــى للتوفيق بين طباعهما وعاداتهما ، ولتكييف حياتهما بما يؤمن لكل منهما قسما مما يرضيه ويطيب له . فاخذت الكآبة تحل في صدر هشام محل المرح ، والصمت محل الثرثرة الحلوة ، وصار يعمل على التهرب من الدار ليجد في الخمرة او المقاهي ما ينسيه شقاءه وبؤسه . وكان كثير الورد ، كثير الانفاق ، يأتي كل صيف الى ضهور الشوير في لبنان فيهتف لي ولبعض اصدقائه فنتراكض للاجتماع بـــه ومرافقته في فرحته . وتوفي رحمه الله ولم يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، فبكيناه واحتفظنا بذكراه حتى الان ، وبصورته مطبوعة في قلوبنا وهو يزهو في جلوسه وسيره كأنه ممثل سينمائي شهير . وكان يحب الاناقة في اللباس ، والرقة في الكلام ، والبذخ في الحياة ، ذا تربية راقية ، وذكاء مفرط ، ووجه وسيم ، وابتسامة دائمة ، واوضاع وحركات يدوية يتمنى الكثير من الممثلين لـــو يستطيعون تقليدها . وكان كريم النفس ينفق بدون حساب ، حلو الحديث رقيقه ، يراعي شعور مخاطبه ويتواضع امامه بكل عذوبة . وخلاصة القول اني اعده مثالا للشاب الكامل الذي اتصوره .

وكان له اخ يكبره سنا ، هو المرحوم واثق بك المؤيد . وكانت

تجمعهما كثير من الخصال الحميدة ، لكنه كان مفتقرا الى النعومة والرقة اللتين يمتاز بهما هشام . على ان واثقا كان اميل الى فرض ارادته ، بعناده اللامتناهي وبجرأته على الحكام ، حتى الافرنسيين منهم . وكان عفيف اليد ، مات في حالة من البؤس المادي لا تتناسب مع ما خلفه له والده من الثروة ، ومع ما كان يستطيع ان يحصل عليه لولا استقامته وعفته وكرهه الرشوة . وقد بدأت معرفتي به منذ ١٩٢٨ ، حين توليت وزارة الداخلية برئاسة احمد نامي بك . واستمرت اتصالاتي اليومية به حينما عين حاكما اداريا لمدينة دمشق (امينا للعاصمة) وعينت انا عضوا في المجلس البلدي ، وذلك من ١٩٢٩ حتى بداية الحرب العالمية الثانية . وكنت مع الاستاذ سامي الميداني والدكتور يحيى الشماع نؤلف جبهة تختلف في اكثر القضايا مع واثق بك، فيشتد النقاش ويصل الى ما يقرب الخصام الشخصي، فيلجأ المرحوم الى اخـــذ راي سائر الاعضاء وكانوا كلهم تقريبا امبين . فيبدأ بمطالبة العضو سليمان بك العظمة برايه ، فيتمتم هذا بعض العبارات الغامضة لانه في الواقع يستصــوب راينا ، لكنه يخشى الوقوف في وجه الحاكم . ويشدد عليه هذا الاخير ويقول له : « رايك . . . رايك ؟ » فيخضع المسكين امام الضغط ويقول بصوت يكاد لا يكون مسموعا : « من رايكم سيدي ! » ويلتفت نحونا كأنه يشهدنا على الضغط الذي اضطره للموافقة . فنضحك كلنا والحاكم معنا ، فنقول له : « قبل رايكم بالاكثـــرية ، فلا حاجة للتصويت والاحراج . » لاننا كنا نعلم ان سائر الاعضاء لا يقلون عن سليمان بك رعبا ومسايرة . وساكمل رواية عضويتي في بلدية دمشق، حينما يأتي دورها بالتسلسل الزمني .

عودتي الى دمشق في السنة التالية ونشاطي الاجتماعي

عدنا الى دمشق في ١٩٢٧ وكنا نقضــي سهراتنا ، اما عند جارنا محمد علي بك العابد الذي ارتقى الى رئاسة الجمهورية في ١٩٣٢ ، واما عندنا حيث كان يوافينا ابن عمـــي صادق والمرحوم عارف الخطيب والمرحوم عبد الوهاب المالكي . والاول جاء ذكره في سرد حياتنا المدرسية في كلية الحقوق ، وكان لطيف المعشر كثيرا . اما الثاني ، فكان من خريجي المدرسة الملكية باستنبول ومن اوائل تلاميذ صفه . وكان يجيد اللغة العربية ويحفظ الشعر العربي ، وله طراز خاص في الكلام الذي يغلب عليه الطابع الفصيح . وقلما كان يستعمل اللهجة العامية . وكان يتصف بخفة دمه ، ولطيف حديثه ، وتأنقه باللباس على زي شباب ما قبل الحرب العالمية الاولى ،

وبالذكاء المفرط ، واطلاعه الوفير على الشؤون القانونية والادارية .
وكان من عيوبه حبه للعب القمار الذي كان يجيد منه لعبة البوكر فيربح فيه اكثر مما يخسر، وميله الى المشروب لدرجة تفقده توازنه، وعناده في الدفاع عن رايه والتمسك به مهما اقيمت ضده الحجج الصحيحة . اما القمار فكان رفقاؤه فيه صادق العظم ، ومحمد علي العابد ، وعبد الوهاب المالكي ، وكذلك في احتساء الشراب . واما جلسات المباسطة وتبادل الآراء فكنت اشاركهم فيها . وكنا نذهب للنزهة في دمـــــر .

ولم يكن عبد الوهاب اقل منهما لطفا ومعشرا طريفا ، غير انه كان حاد المزاج ، لا يطيق الجدل . فكان يتركنا وينصرف بـــدون ســـــبب .

مشاركتي في انشاء النادي السوري الفرنسي والغرفة الزراعية

وفي تلك الفترة من الزمن اراد الافرنسيون ان ينشئوا ناديا سوريا ـــ افرنسيا يشترك فيه كبار موظفيهم وضباطهم مع وجهاء المدينة وكبار موظفيها ، فدعيت الى دار المستشار بورتاليس الذي كان يتقن العربية ويقطن في دار البارودي الكبيرة لحضور اول اجتماع نعقده اللجنة التحضيرية المؤلفة من محمد علي العابد ، وواثق المؤيد ، ومستشار البلدية المشار اليـــه ، ومسيو دافيد مندوب المفوض السامي بدمشق ، وقنصل بريطانيا المستر هول . فوافق الجميع على الفكرة وباشرنا بتحقيقها على اساس اصدار اسهم يشترك فيها المؤسسون من اعضاء اللجنة وغيرهم . فجمعنا نحو عشرة آلاف ليرة سورية ، واستاجرنا دارا في حي الشهداء على طريق الصالحية . وتولى احد المهندسين الافرنسيين مسيو ايكوشار شؤون التاثيث على الطراز العربي . وانتسب للنادي مئتا عضو مع عائلاتهم . وصرنا نرتاد النادي كل مساء لنلعب البريدج ونرقص على انغام الغراموفون . وتوطدت علاقات حسنة بين السوريين والافرنسيين ، لكن حلقات الافرنسيين ظلت لا تجالس حلقـــات السوريين ، فلم يكن الامتزاج كاملا بين العنصرين .

غير ان ارتياد النادي بدأ يخف تدريجيا ، الى ان صفي نهائيا ولم تمض على افتتاحه سنتان .

وفي ١٩٢٧ سعيت لدى الداماد احمد نامي بك، رئيس الحكومة، للحصول على موافقته بتـــاسيس غـــرفة زراعيـــة تعنى بشؤون المزارعين . فوافق واصدر مرسوما اسند بموجبه عضوية الغـــرفة لكل من السادة عارف القوتلي ، وامين الدالاتي ، وشمسي المالكي،

ونسيب حمزه ، وكامل الياسني ، وسعيد اليوسف، وجورج شاوي، وصبحي الحسيبي ، وسعيد حمزه ، وانا . واخترنا للرئاسة عارف التوتلي، ولنيابة الرئاسة سعيد اليوسف، ولامانة الصندوق شمسي المالكي . واختارني زملائي لامانة السر . فاستاجرنا مكتبا في زقاق البوص ، خلف سوق الحميدية . وعنيت بتاسيس الغرفة وتنظيم اعمالها . وقد قامت الغرفة بمراجعات ادت الى فوائد حسنة . غير ان اقبال المزارعين على تسجيل اسمائهم بها ودفع الاشتراك السنوي لم يكن كافيا لتوسيع دائرة نشاطها كما كنت ابغي ، فظلت مستمرة على اعمالها ضمن حدود امكانياتها .

وقد عقدنا مؤتمرا زراعيا عاما اشترك فيه مندوبون عن سائر البلاد السورية . فتناولنا بالبحث شؤونا هامة تتعلق بهذا الشأن . وبهذه المناسبة عرفني صديقي فخري البارودي بالشاب نجيب الريس وكان في مطلع حياته العامة ، فنسق لنا القرارات وصحح عباراتها. ثم زرنا رئيس الدولة وقدمناها له . وتكلمت امامه باسم المؤتمرين ، فوعدنا بدرس مطالبنا وتحقيق ما يقتضي تحقيقه بسرعة ، الا انه لم يف بوعده وذهبت جهودنا مع الريح .

وكنت اتردد من حين لآخر على الداماد واسهر عنده واتفرج على لعبة الشطرنج وكان بارعا فيها . وكان الداماد ذا مطامع واسعة ، في مقدمتها تبوء عرش سورية . وكان من وزرائه الاستاذ يوسف الحكيم فيتملق له ولا يخاطبه الا بكلمة اميري . واقمت للداماد حفلة سمر ليلية في باحة داري بسوق ساروجه ، حضرها وزراؤه: يوسف الحكيم ، ونصوحي البخاري ، وشاكر الحنبلي ، وعبد القادر العظم، وغيرهم . وطرب لسماع الموسيقى الشرقية وتصدر حلقة المدعوين، وراح يختال تيها وقد تصور انه اصبح اميرا يجلس حوله الندماء والشعراء . وكان مطواعا للافرنسيين ، ياتمر بأمرهم ولا يعصاهم. وتسلط عليه الحكيم والحنبلي ، بفضل ذكائهما، وراحا يسيران دفة الامور على هواهما . لكن هذا لا يمنعني من القول بأنه لم يبد من حكومة الداماد ما يسيء الى البلاد ، كما انها لم تترك اي اثر تحمد عليه ويذكر لحسابها .

ثم جاء لرئاسة الحكومة الشيخ تاج الدين الحسيني ، ومعه في الوزارة حمد الالشي ، وسعيد المحاسني ، ومحمد كرد علي، وغيرهم .وباشرت الحكومة بالانتخابات للجمعية التأسيسية. فتكتلت العناصر بزعامة المرحوم فوزي الغزي باسم الكتلة الوطنية . وجمعت

جميع العاملين في الحقل الوطني ، كفخري البارودي ، وجميل مردم، ولطفي الحفار ، وشكري القوتلي ، وفارس الخوري واخيه فائز الخوري ، وزكي الخطيب .

وتالفت القائمة التي تسندها الحكومة وسلطات الانتداب برئاسة الشيخ تاج ، من سعيد المحاسني ، وشاكر الحنبلي، وفوزي البكري ، وعبد القادر الخطيب ، وسعيد اليوسف . واشتد الزحام بين القائمتين . وهنا لعب الشيخ تاج لعبة ماكرة ، فاتفق سرا مع فوزي الغزي على مهادنة شخصية ، فلا هو يماكس قائمة الكتلة الا في الجهر ولا هم يماكسونه . وبنتيجة الاقتراع فاز الشيخ تاج وسائر اعضاء القائمة الوطنية ، عدا اربعة . فجرى البالوتاج ، فتدخلت السلطة الافرنسية بكل قواها عندئذ ، ففاز سعيد الغزي، وفوزي البكري ، وعبد القادر الخطيب .

وعندما اجتمعت الجمعية التاسيسية لم يكن للوطنيين اكثر من ١٧ مقعدا من اصل ٧٠ . ومع ذلك فقد سيطروا على الموقف وفازوا برئاسة الجمعية لهاشم الاتاسي ، والفوا لجنة للدستور برئاسة فوزي الغزي ، وضعت نصا لم يعجب الافرنسيين ، فطلبوا شطب ست مواد . فرفضت الجمعية ذلك رغم خطاب القاه فيها الشيخ تاج داعيا لقبولها ، فما كان امام الافرنسيين الا حل الجمعية واصدار الدستور مضافا اليه المادة ١١٦ التي احتفظ فيها الافرنسيون بكل ما اولتهم اياه جمعية الامم في شرعة الانتداب من حقوق وصلاحيات . وهكذا انتهت التجربة الثانية للتفاهم بين الوطنيين وسلطة الانتداب، دون اية نتيجة ايجابية .

وعندما جرت الدورة الاولى للانتخابات ــ وكانت تجري بين الناخبين الثانويين الذين ينتخبهم من لهم حق الانتخاب ــ كنت عضوا في البلدية ومدعوا للاشراف على صندوق الانتخاب الذي جرى في بهو البلدية الكبير بحضور سائر اعضاء البلدية والمرشحين ، وكان من بينهم زميلنا سامي الميداني . فلما سألناه عن حظه بالنجاح ، اكد ان ما يقرب منخمسماية ناخب ثانوي اقسموا له اليمين بانتخابه وهوبذلك ضامن للنجاح ، باعتبار ان مجموع الناخبين في دمشق كان نحو ٨٠٠ ناخب . وعندما فتحت الصناديق وبوشر بقراءة الاسماء ، لم نسمع اسم سامي ولا مرة . فسألناه الخبر فقال : « سيظهر اسمي في القريب بين الاوراق الباقية » . وتم فرز الاصوات وتعداد ما نال كل مرشح فيها ، ولم يكن لسامي سوى صوتين . فغشينا من الضحك

عندما قال لنا : « الصوت الواحد هو صوتي ، اما الثاني فصوته احدكما ، اي خالد والدكتور شماع ، فمن منكما لم يصوت لي ؟ » فقلنا: « اتحاسبنا على صوت وقد ضاع عليك الخمسمائة صوت التي اقسم اصحابها بانتخابك ؟ » وكان يرغي ويزبد ولا يتمالك بنفس الوقت من مجاراتنا في الضحك حتى جلبنا انتباه مجموع الحاضرين. وراحوا يسالوننا عن السبب ، فما كان منا الا ان هربنا من القاعة وذهبنا الى فندق امية ، حيث طلبنا من سامي ان يدعونا الى العشاء. فقال : « الا تكفيني مصيبتي الواحدة ؟ » وقضينا السهرة كلها في الحديث عن هذا الموضوع الذي كانت العبرة فيه أن هناك من يقسم لك الايمان وهو عالم سلفا بانه سيحنث بها .

مدينة دمشق عندما كنت عضوا في البلدية

كان زملائي في مجلس البلدية سامي الميداني ، والدكتور يحيى الشماع ، وزكي سكر ، وزكي الكزبري ، وسليمان العظم ، وعمر شمدين ، ويوسف لقباد ، وعزت الشاوي ، وابو انور قصاب باشا ، والياس عويشق ، وزكي المهايني . ولم يكن هؤلاء الاعضاء ، ما عدا الميداني والشماع وانا ، حائزين اية ثقافة او اختصاص . وكانت وجاهة كل واحد منهم في حيه السبب في اختياره . ولذلك كانت المناقشات محصورة بيننا وبين الحاكم الاداري ، واثق المؤيد. فكان يصل النقاش في بعض الاحيان الى حد بعيد والى ارتفاع اصواتنا الى خارج بهو الاجتماع . ورغما عن ذلك ، فحينما كانت تنتهي الجلسة ، كنا نحن الاربعة نركب فيسيارة واثق بك ونذهب سوية الى النادي وكأن شيئا بيننا لم يحصل ، مما كان يثير استغراب سائر الاعضاء ، ويحملهم على الظن بان مناقشتنا لم تكن جدية بل مبيتة.

لقد هدم الآن بناء البلدية وكان قائما بين سراي الحكومة وساحة المرجة ، وذا طبقة واحدة . وكان كله مبنيا من الخشب. وقد شيده المرحوم والدي قبيل ستين عاما ونيف ، حينما كان يتولى رئاسة البلدية . فجاء آية في الجمال ، بحسب العرف المعماري السائد عندئذ ، وبالنسبة الى ان دمشق لم تكن تحوي من الابنية العصرية سوى دار الحكومة والمستشفى الوطني ، وهما ايضا من آثار والدي الانشائية . وابناء جيلنا يذكرون ان ساحة المرجة التي سميت فيما بعد باسم ساحة الشهداء تخليدا لذكرى من شنقهم جمال باشا من الزعماء السياسيين الوطنيين ، كانت محاطة من الشمال ببنايتين عتيقتين ، احداهما لادارة البرق والبريد والى جانبها الدوائر

الفضائية كلها . واما في الجهة الشرقية ، فكانت ثمة بناية قديمة خشبية مستعملة كمسرح وصالة سينما باسم « الزهرة ». وكانت الى الجنوب بناية قديمة تحتها دائرة حكومية . وقد اشتراها عزت باشا العابد وهدمها واشاد محلها البناية القائمة الان ، والمعروفة باسم المنزل (اذ ان الجيش التركي كان يستعملها خلال الحرب كدائرة للاعاشة والاسكان) . وكانت الى جانب هذه ابنية خشبية واطئة . واما الى الغرب فكانت هنالك دائرة البلدية تحتل جانب مجرى نهر بردى الذي كان مكشوفا ، ثم غطي في عام ١٩٦١ . وكان يتفرع من هذه الساحة شارع السنجقدار ، وهو الطريق المكتظ بالمارة والذي فيه الفنادق العربية ذات الساحة السماوية الوسطى، مع بركها ونوافيرها ، والمخازن والمطاعم الجيدة . وكان الى شمال هذا الشارع سوق علي باشا ، الموصل بين الساحة وساحة التبن، وهو سوق مسقوف مخصص للدكاكين التي تبيع الفواكه، وفيه بعض المطاعم . وكان الى شمال الساحة زقاق يؤدي الى البحصة، وعلى ناصيته فندق الشرق القديم الذي احترق في ١٩٢٠ وشيد محله فندق امية . واما الى الجنوب فكان هنالك زقاق اسمه « طلعة رامي » (شارع رامي حاليا) يوصل الساحة بشارع جمال باشا الذي فتحه الاتراك خلال الحرب ، وكان ساحة كبيرة امام قيادة الجيش يدخل اليها من قنطرة امام سوق الحميدية . وكان مركز القيادة يسمى المشيرية استعمله الافرنسيون خلال عهد الانتداب كمركز لدوائر مندوب المفوض السامي ، ثم هدم وشيد مكانه قصر العدل الحالي. اما شارع سعد الله الجابري ، فقد بديء به خلال الحرب وانتهى بانتهائها ، ولم يكن على جانبيه اية بناية . ثم انشأ شخص بيروتي اسمه ابو عباس منيمنة مقهى ارضيا تعلوه صالة مسرح وسينما اسماها « العباسية » . وظل هذا الاسم مطلقا على البنايةالجديدة التي شيدت لحساب الخط الحديدي الحجازي ، وفيها فندق سميراميس وسينما العباسية . وكان هنالك جسر ضيق اسمه جسر فيكتوريا فوق نهر بردى ، يوصل ما بين مركز الحكومة وطريق الصالحية . وقد زال اثره اليوم بعد تغطية النهر . وكنا اذا قطعنا هذا الجسر نلقى الى يميننا فندق قديم اسمه «اوتيل فيكتوريا » المشاد تمجيدا لاسم ملكة بريطانيا الشهيرة ، ثم الى جانبه فندق المشرق او فندق خوام ، باسم صاحبه السيد خوام . واستعمل الفندق الاول كمركز لقيادة الجيش الرابع واقام فيه جمال باشا طيلة وجوده في دمشق . اما فندق خوام ، فكان ذا طابع شرقي تتوسط غرفهوباحاته

ساحة سماوية في وسطها بحرة من الماء . وكان هذا الفندق يتقاسم المركز الاول مع اوتيل « داما سكومي » الكائن في البحصة ، لكنه احترق قبل سنتين . واذا تابعنا مسيرنا راينا الى يسارنا صفا من الدكاكين يقطنها صانعو سرج الخيل الافرنجية ومصلحو المركبات وبائعو ادواتها ، وذلك الى ان نصل الى بوابة الصالحية ، ساحة يوسف العظم حاليا ، التي لم تكن تحوي من الابنية سوى بناية المستشفى العسكري الذي هدم وانشأت محله بناية تشغلها بعض الوزارات والدوائر .

اما طريق الصالحية ، فكان في مطلع القرن الحالي خاليا من الابنية ، تقطعه بين البساتين حتى تصل الى محلة الجسر الحالية ، حيث تجد بعض الدور ، ثم تتدرج صعدا في طريق المهاجرين دون ان تجد على جانبي الطريق دارا . واما حي المهاجرين فقد انشأه الاتراك حينما جاء اللاجئون من الاراضي التي احتلها الروس في القفقاس . وكانت دوره مؤلفة من طابق واحد وغرفتين من الطين (الدك) ، ولم يكن في ذلك الحي من الابنية سوى دار الوالي ناظم باشا التي اصبحت فيما بعد قصرا جمهوريا ، ودار مصطفى باشا العابد التي تبعد عنها قليلا .ثم انشئت الدور عندما اسست شبكة خطوط الترامواي وسهل النقل . فبدأ سكان دمشق يتركون المدينة القديمة ويسكنون في احياء الصالحية ، والمهاجرين ، والشيخ محيي الدين الجديدة . ثم زاد اتساع هذه الاحياء بفتح الشوارع الجديدة خلف طريق الصالحية ، حتى وصل الى الحد الحالي بشارع المالكي .

وكان من واجب بلدية دمشق ان تعنى بتوجيه توسع المدينة ورسم مخطط الطرق الحديثة حتى لا تسود هذه الاحياء الجديدة فوضى العمار كما حصل في المدينة القديمة . فاستقدمت البلدية المهندس التخطيطي الشهير دانجه ومعه المهندس ايكوشار ، فوضعا مخططا عاما للمدينة ، وحددا طراز البناء واوصافه بحيث تشاد الحدائق حتى لا تلتصق الدور بعضها ببعض ، كما حصل في الابنية التي شيدت ما بين ١٩١٩ ــ ١٩٢٨ . وبفضل مخطط دانجه اصبحت مدينة دمشق تزهو باحيائها الحديثة ، وبحدائقها العامة ، وبحسن تنسيق شوارعها ، والاشجار المغروسة على جنباتها ، مما تحسدها عليه مدن الشرق العربي كله .

وعندما تقدم واثق بك الى مجلس البلدية طالبا التصديق على الاتفاق المعقود بينه وبين مسيو دانجه،عارضناه خشية ان يكون الامر

مدبرا لنقلح مهندس افرنسي . وبقينا على معارضتنا مدة طويلة حتى اخذ القرار بالاكثرية من دوننا . لكن النتيجة كانت ولله الحمد على غير ما خشيناه .

اهتمامي بالحركة التمثيلية والرياضية

وفي ١٩٢٩ جاءني بعض الشبان المتحمسين لفن التمثيل والتمسوا مساعدتهم على انشاء جمعية تضم الهواة والمحترفين . فدرسنا الموضوع مليا ، لكننا وجدنا ان عدم تقبل المحيط ظهور السيدات بدون حجاب على المسرح ، لا يمكننا من اخراج تمثيليات كاملة ، فصرفنا النظر عن المشروع .

ثم اتصل بي لفيف من الشبان الرياضيين طالبين مساعدتي لتاسيس فريق للعبة كرة القدم . وكان في مقدمتهم سامي الشمعة، وروحي الخياط ، وغيرهما . فاسسنا ناديا استاجرنا له ملعبا بشارع بغداد ، وانفقت عليه من جيبي مبلغا غير قليل . وجرت اول مباراة بين فريقنا الذي سميناه بفريق معاوية وبين فريق نادي بردى الذي كان يراسه البكري . وكم كان استغرابي عندما لاحظت انه لم يحضر لمشاهدة المباراة سوى عدد لا يتجاوز العشرين شابا ، بحيث لم يصل دخل الحفلة الى ما كنا ننتظره لتامين مورد يكفي حاجة الفريق .

وكانت الغلبة لفريقنا، فربحنا الكأس الذي كنت تبرعت بتقديمه للفريق الفائز . غير ان حماس الاعضاء بدأ يخف بعد ما لمسوه من عدم اقبال الناس . وانتهى الامر بانفراط عقد النادي وذهاب كل عضو في سبيله .

وعندما نشهد الآن مباراة تجري في ملعب دمشق واقبال الناس، شيبا وشبانا ، على الحفلة اقبالا شديدا ، ونقارن بين نوع المتفرجين وعددهم في الحفلة التي اقامها نادي معاوية ، نلمس التطور الكبير في الاقبال على الرياضة . وفي زمن شبابي ، لم يكن في البلد اي ناد رياضي عدا نادي بردى للفوتبول . اما الان فعدد الاندية يكاد لا يحصى . وتنوعت الالعاب وتعددت ، حتى بلغ المنتسبون لهذه النوادي وللكشافة عددا ضخما . وهذا التضخم بدأ يظهر منذ ١٩٤٣، اي من بداية الحياة الاستقلالية .

واستمرت وزارة الشيخ تاج حتى ١٩٣١ ، حينما عزم الافرنسيون على اجراء انتخابات نيابية ، ولكن بنية تزوير نتائجها ليتسنى لهم جمع مجلس نواب يقر معاهدة مع فرانسا وفق اغراضها . وكنت قد مللت المشاحنة مع واثق بك في اجتماعات مجلس البلدية ولم اعد احضرها . فلما اعلن موعد الانتخاب ، وكان كالعادة يجري

تحت اشراف مجلس البلدية ، عزمت على الحضور الى البلدية عند فتح الصندوق وفرز الاصوات . وكان قد شاع ان الافرنسيين اتفقوا مع واثق بك على استبدال الصندوق بصندوق مماثل محشو باسماء من يريدون انجاحهم ، مثل حقي العظم ، ورضـا الركابي ، ومحمد علي العابد .

فما كان مني الا ان اتصلت هاتفيا بمستشار البلدية وشكوت اليه عدم ابلاغي موعد اجتماعات مجلس البلدية ، مما دعاني الى عدم الاشتراك في الجلسات . فوعد باجراء اللازم ، ولكنه ادرك انقصدي هو عزمي على حضور جلسة الانتخاب ، فـاخبر واثـق بك ، فجن جنونه وهدد وتوعد بانني ، اذا حضرت الى البلدية ، فانه سيطـلق علي رصاص مسدسه .

ولم اعر تهديده اي اهتمام . وفي اليوم التالي دعاني بديع بك المؤيد ـــ وكان يراس الوزارة بالوكالة بعد ان انسحب منها الشيخ تاج ، وهو ابن عمة والدي وصديق حميم له ولنا ـــ وقال لي بطريقة النصيحة ان اعدل عن الذهاب الى البلدية. فتجاهلت ما كنت سمعته من التهديد وسالته عن السبب ، فجرب عدم ذكر الحقيقة . ولكنه في الاخير اضطر للبوح بها . وعندها قلت له : « اشكرك على اهتمامك بي وحرصك على ان لا يصيبني سوء ، ولكنني عـازم على حضـور الجلسة مهما كلفني الامر . وسابرق للمفوض السامي والى جمعية الامم بهذا التهديد الذي يؤيد صحة الاشاعات الرائجة بان الحكومة ستزور الانتخاب ... وليكن ما يكون » . فارتبك بديع بك واصفر لونه وراح يسايرني ويرجوني ان لا اوصل الامر الى هذا الحد وان لا اقف في وجه الافرنسيين هذا الموقف السلبي . وكنت في الواقع اشعر بانني لا اقوم باي عمل لخدمة بلدي ، ولا اشارك المجاهدين والعاملين في سبيله ، فاحببت ان ادخل المعترك ووجدت تلك المناسبة فرصة قيمة . فاصررت على رايي وبارحت غرفة بديع بك وهو يشدني من زندي ويرجوني التريث وعدم التهور . لكني افلت منه وانصرفت .

ولم تشا الحوادث ان ارى ما سيكون في يـوم الانتخاب . اذ قامت مظاهرات عنيفة في سائر انحاء البلاد ، حملت الافرنسيين على تاجيل الانتخاب في دمشق . لكنهم اجروه في سـائر المدن والقرى، فنجحت في حلب قائمة صبحي بركـات والشيبـاني تؤيدها سلطـة الانتداب ، وفشل سعدالله الجابري والدكتور كيالي ورفاقهما .

فلما هدات الافكار ، ابعد واثق بك عن البلدية وجرتانتخابات

دمشق . ففاز بها علي العابد ، وحقي العظم ، وجميل مردم . وكان الاتفاق قد حصل مسبقا بين الكتلة الوطنية والمندوب الساميفوضعت قائمة مشتركة نجحت على الشكل الذي ذكرت . وابعد رضا باشا الركابي بموجب الاتفاق نفسه .

واجتمع مجلس النواب في حزيران ١٩٣٢ ، وكان مرشحا لرئاسته صبحي بركات، تؤيده مجموعة نواب حلب واقضيتها ويسنده المندوب الافرنسي .

اما نواب دمشق وحمص وحماه واقضيتها فقد انقسموا كتلتين ، الاولى يراسها هاشم الاتاسي ،وهي تضم النواب الوطنيين، والثانية يراسها حقي العظم مرشح مسيو دافيد المندوب الافرنسي في دمشق . وبالتصويت ، فاز صبحي بركات باكثر الاصوات التيتفرقت على ثلاثة مرشحين . فشعر المندوب بدمشق ان انتخاب رئاسة الجمهورية الذي كان موعده في اليوم التالي سيجري على النمط نفسه ، فيفوز فيه صبحي بركات مرشح عدوه المندوب في حلب . فجرت اتصالات في الليل بين كتلتي دمشق ، لعب فيها جميل مردم دورا هاما وحمل محمد علي العابد على تخصيص مبالغ طائلة ودفعها باسم النواب . وعندما عقدت جلسة المجلس لم يكن بركات قد علم بالمؤامرة التي جرت في الليل ، فكان يبتسم من فوق سدة الرئاسة التي كان يشغلها ويوزع اللفتات ذات اليمين واليسار كمن هو مطمئن الى النتيجة اطمئنانا كاملا . غير ان هذا المرح ما لبث ان حل محله الكدر ، ثم الغضب ، عندما بديء بتلاوة الاوراق الانتخابية وهيتحمل احد اسمين فقط ، اسمه واسم محمد علي العابد . فادرك عندئذ ان ثمة لعبة جرت في الخفاء ، لكنه لم يعد قادرا على تلافيالفشل . وفاز العابد باكثرية الاصوات واضطر بركات لاعلان النتيجةبنفسه. وهنأ الفائز غصبا عنه . وامتطى محمد علي العابد سيارة الرئاسة في موكب اوصله الى دار الحكومة في المرجة ، حيث تلقى تهنئةالموظفين وسائر المهنئين .

وتالفت الوزارة ، في اليوم التالي برئاسة حقي بك العظم . واسندت وزارتان لممثلي الكتلة الوطنية ، هما جميل مردم ومظهر رسلان . وكان هذا التلاقي تشبثا جديدا من الكتلويين بالتفاهم مع الافرنسيين . الا ان هذا العهد لم يطل ، فاضطر مردم ورسلان للاستقالة . فجاء الشيخ تاج كرئيس للوزارة ومعه جميل الالشي وغيرهما . وظلت هذه الوزارة في الحكم حتى كانون الاول ١٩٣١ ،

عندما سمحت لاجراء انتخابات نيابية . فثارت الجماهير بدمشق ووقع عدة جرحى ، مما اجبر سلطة الانتداب على تأجيل الانتخاب . وتولى الحكم مؤقتا وكيل المندوب السامي بدمشق،بمعونة بعض الوزراء في الحكومة السابقة .وعندما استقرت الامور ،جرت الانتخابات بدمشق ثم اجتمع مجلس النواب ، فانتخب صبحي بركات رئيسا ، ثم محمد علي العابد رئيسا للجمهورية ، كما ذكرت آنفا .

واراد المندوب السامي مسيو بونسو ان يخطو خطوة فيتسوية الاوضاع بين سوريا وفرانسا بمعاهدة ثنائية الطرف تحل محل المفروض فرضا . ووضع بذلك مشروعا عرضه على وزارة حقي العظم فقبلته صاغرة ،وعرضته على مجلس النواب الذي لم يكن عدد النواب الكتلويين فيه يتجاوز سبعة عشر نائبا . وكانت الجلسة صاخبة انتقم فيها رئيس المجلس صبحي بركات من الافرنسيين الذين خذلوه بانتخاب رئاسة الجمهورية ، فساند النواب الوطنيين عندما قام احدهم جميل مردم الى المنبر وتلا مضبطة وقع عليها ما يقارب الخمسين نائبا برفض مشروع المعاهدة اصلا وفصلا .

وكان وكيل المندوب السامي ادرك المؤامرة ، فاعتلى المنبر من سلمه الثاني وراح يتلو قرار المفوض السامي بحل مجلس النواب . وكان ذلك منظرا عجيبا : خطيبان على المنبر ، اولهما يتلو مضبطة النواب بالرفض ، والثاني يقرأ قرار المفوض السامي بحل المجلس . وعندما انتهى كل منهما من تلاوة الوثيقة التي في يده ، اعلن صبحي بركات ان مجلس النواب رفض مشروع المعاهدة . واحتج مندوب المفوض وتمسك بقرار المفوض ، فاجابه الرئيس بان المضبطة قرأت قبل تلاوة القرار . وهكذا ساد الهرج والمرج بين النواب ورفعت الجلسة .

واستمرت المظاهرات الشعبية ، التي بدات قبل الجلسة ، عدة ايام . ثم انتهت باعلان الزعماء الكتلويين ان مشروع المعاهدة قد رفض، ولو انحل مجلس النواب بعد ذلك .

ثم استقال حقي العظم وخلفه الشيخ تاج مرة ثانية . وظلت حكومته تعالج القضايا العادية دون التطرق الى بحث المعاهدة . واستمر محمد علي العابد برئاسته ، رغم كل ذلك ، حتى مطلع ١٩٣٦ .

وفي ذلك التاريخ بدات حركة شعبية ترمي الى التحرشبالسلطة تحت ستار المطالبة بتنزيل سعر التيار الكهربائي . فالفت في كل حي

لجنة لتشرف على مقاطعة الشركة ، سواء في ركوب قاطراتها او في استهلاك النور . ثم تطورت الامور الى مظاهرات شعبية تصادم فيها الشبان والاطفال بالجيش الافرنسي الذي رابط في انحاء المدينة. وسقط جرحى كثيرون في المعارك التي كانت فيها الحجارة سلاح المتظاهرين ، يقذفون بها افراد الجيش والشرطة الذين كانوا يردون عليهم باطلاق رصاص بنادقهم .

واعتقلت السلطة عددا كبيرا من مثيري الاضطرابات ، مثل فخري البارودي ونسيب البكري وغيرهما ، ونفتهم الى الحسكة . غير ان المقاطعة استمرت ، وكذلك المظاهرات والمصادمات الدموية، الى ان دعا المفوض السامي هاشم الاتاسي الى بيروت ، واتفقنا على ارسال وفد يمثل الحكومة والكتلويين لعقد معاهدة تسوى فيها الاوضاع . واعلن هذا الاتفاق في ١ آذار ١٩٣٦ ، فقوبل بحماس الشعب ، مما زاد في علو مكانة الكتلويين . واستقال الشيخ تاج وخلفه عطا الايوبي. وتألف الوفد من هاشم الاتاسي رئيسا، وفارس الخوري وجميل مردم وسعد الله الجابري عن الكتلويين، ومن ادمون حمصي والامير مصطفى الشهابي عن الحكومة التي كانوا قد اشتركوا فيها . وسافر الوفد الى باريز محاطا بدعم الشعب كله، وحاملا آماله بعقد معاهدة تنهي الانتداب وتنال بها سورية استقلالها.

وعندما بدات جلسات المفاوضة لم يجد المندوبون السوريون تحمسا واهتماما منْ الجانب الافرنسي لعقد معاهدة تقبلها سورية. وكانت الانتخابات النيابية الافرنسية وشيكة الحصول ، فانتظر الوفد حتى ظهرت النتائج الدالةُ على فوز الجبهة الشعبية المؤلفة من الراديكاليين والاشتراكيين والشيوعيين .

المعاهدة السورية الفرنسية في ١٩٣٦ ومحتوياتها الاساسية

وكانت هذه الاحزاب ميالة الى التفاهم مع سورية وانهاء تسلط الجنرالات والقواد العسكريين.وظهر ذلك اثر التبدل الوزاري في اول جلسة عقدها المتفاوضون ، اذ وجدوا عند رئيس الوزارة ليون بلوم — اليهودي — وعند مسيو فينيو ، رئيس الوفد الافرنسي ، استعدادا حسنا ونوايا طيبة . فسارت المفاوضات بخطى سريعة، رغم العقبات التي كان يقيمها في الطريق ، المتصلون بالاحزاب اليمينية وضباط الجيش . وانتهت الامور باتفاق يتضمن المعاهدة الاصلية وعدة ملاحق وكتب متبادلة .

ورغم ان النصوص ليست الآن تحت نظري ، فاني اذكر النقاط الاساسية مع ملاحظاتي على بعضها :

١ ــ تعترف المعاهدة باستقلال سورية وسيادتها .

٢ ــ تتضمن المعاهدة تحالفا عسكريا بين سورية وفرانسا مدته ٢٥ سنة ، تضع سورية بموجبه جميع وسائل النقل والمطارات والمرافىء تحت تصرف الجيش الافرنسي ، طول مدة الحرب. وعلاوة على ذلك ، فهي تعطي الدولة الافرنسية الحق باقامة قاعدتين عسكريتين طيلة مدة التحالف .

٣ ــ يبقى النظام النقدي الذي اوجده الانتداب سائدا ويبقى التعادل الحالي بين الفرنك والليرة السورية كما هو ، اي بمعدل ٢٠ فرنكا مقابل ليرة سورية .

٤ ــ تحتفظ الشركات الافرنسية بامتيازاتها وفي مقدمتها البنك السوري .

٥ ــ تسعى حكومتا لبنان وسوريا للتفاهم على كيفية ادارة المصالح المشتركة (الجمرك ، المرافىء ، وغيرها) . فاذا توصلتا الى ذلك استلمتا تلك المصالح ، والا فهي تبقى بادارة الافرنسيين .

٦ ــ تبقى الامتيازات الاجنبية .

٧ ــ يمثل فرانسا في سورية سفير ويمثل سورية في باريز وزير مفوض ، وتتولى فرانسا تمثيل سورية في سائر الدول الاجنبية.

٨ ــ تبقى خاضعة للقيادة الافرنسية ، التطعات المؤلفة من سوريين ولبنانيين بالتعاقد ، وتكون هذه القوى نواة الجيش السوري في المستقبل .

٩ ــ تسقط فرانسا مطالبها بنفقات الانتداب ، وتسقط سورية مطالبها بالتعويض عن الاضرار التي خلفتها الثورة السورية .

هذه اهم البنود التي كانت تحتويها تلك النصوص . وهي في جملتها بعيدة كثيرا عن آمال الشعب بالحصول على استقلاله وسيادته ، لا سيما في قضية التحالف العسكري وبقاء القواعد ، وفي ابقاء التعادل النقدي وحقوق الشركات الافرنسية (ومنها البنك السوري الذي كان محصورا فيه حق اصدار النقد السوري).

وكذلك بقيت المصالح الاقتصادية الجوهرية تحت سلطة الانتداب ، كالجمارك وغيرها . اذ لم يكن ثمة شك بان الحكومة اللبنانية خاضعة دائما لسيطرة الافرنسيين وتوجيهاتهم . فهم لا يتركون سبيلا للتفاهم بين سورية ولبنان ، لتبقى هذه المصالح تحت يدهم .

وكذلك القطعات العسكرية ، فان بقاءها تحت قيادة الافرنسيين يحرم الحكومة السورية من قوة تعتمد عليها .

وعلى الرغم من هذه النواقص التي كان اكثرها مذكورا في معاهدة بونسو — حقي العظم ، فان الكتلويين استعملوا سلاح الدعاية الواسعة لاظهار محاسن هذه المعاهدة . ووصل الامر باحدهم ، وهو فارس الخوري ، الى نعتها بأنها « معجزة القرن العشرين » .

وتهيات جماعات الكتلة لاستقبال الوفد العائد من باريز باكثر ما يمكن حشره من المواطنين . وبدات المظاهرات الترحيبية منذ وصول الوفد الى محطة حلب . وانتشرت اللافتات كلها تنادي بنيل سورية استقلالها وبتمجيد الوفد الذي حقق المعجزة . وكذلك كانت عشرات الالوف تنتظر في المحطات مرور قطار الوفد لتحييه وتمجد المعاهدة . وفاق استقبال دمشق اي استقبال جرى في بلد آخر . وكاد اعضاء الوفد يقضي عليهم من جراء ضغط المستقبلين حولهم لمعانقتهم ومصافحتهم . وعندما وصل الوفد الى دار الحكومة، استقبله فيها مسيو دومارتيل . وكان هاشم الاتاسي يحيطه بالترحيب والاهتمام ويناديه باسم حضرة السفير .

وفي اليوم التالي القى فارس الخوري محاضرة عن المعاهدة في قاعة الجامعة السورية، ففصل بنودها واشاد بها كانتصار ساحق احرزته سورية على الانتداب . وخرجت الجماهير من قاعة المحاضرات بعد ان تعبت ايديها من التصفيق .

وعندما هدأ الحماس نوعا ما وعاد فارس الخوري الى مزاولة رئاسة مجلس ادارة شركة الشمينتو — وكنت مديرها العام — تسنى لي ان ابدي له ملاحظاتي على المعاهدة ومآخذي عليها . وذكرته بكل ما كنت اكتب اليه وهو في باريز، من ان اهم قضية يجب تسويتها هي استلام مصلحة الجمارك لتستطيع سورية رعاية اقتصادياتها وحماية منتوجاتها الزراعية والصناعية . وصرحت له بان عدم الاتفاق مع الافرنسيين على استلام هذه المصلحة فورا ، وتعليق الاستلام على الاتفاق مع لبنان ، لا يمكن الاعتماد عليه ، لان الافرنسيين لا يدعون الحكومة اللبنانية تعقد معنا اتفاقا .

وكان الاستاذ الخوري صريحا في جوابه وهو انهم لم يستطيعوا الحصول على اكثر من ذلك ، وانهم كانوا بين قبول النصوص كما هي او الرجوع الى سورية بدون تفاهم . واضاف بان المعاهدة لا تخلو

من بعض المحاسن ، وانها على كل حال خطوة يمكن الانتقال منها الى ما هو احسن في المستقبل .

والحقيقة ان خطــة الكتلويين كانت تماثل الخطة التي انتهجها الرئيس بورقيبه عندما عقد مع الافرنسيين اول اتفاق لا يختلف كثيرا عن روح المعاهدة السورية ــ الافرنسية ، فقد قبل ان تبقى قاعدة بنزرت البحرية تحت تصرف الافرنسيين ، وتنازل عن مطالب عديدة رغبة في استلام زمام الامور وتثبيت قواعد الحكم الوطني ، ثم العمل على الغاء امتيازات الاستعمار رويدا رويدا.

وهذه السياسة تتطلب لنجاحها توفر ظــروف دولية تساعــد الدول الصغيرة في مطالبها ، وبدون تلك العوامل الخارجية فاني لا اكون مغاليا اذا قلت ان الامل في انسحاب فرانسا كليــا من سورية ولبنان كان كالسراب،لو دام الهدوء في العالم ولم تقع الحرب العالمية، التي كان من نتائجها فشل فرانسا وقبولهــا الهدنة مع جيش هتلر وخضوعها له طول الحرب .

اما حركة ديغول ، فهي وان كانت مدعومة من قبــل الحلفاء في اثناء الحرب لاسباب تتصل بابقاء حركة المقاومة ضد النازية ، فانها لم تعد بعد انتهاء الحرب يراعى خاطرهــا ، حتى انهــا لم تدع الى الاشتراك في المؤتمرات التي عقدها روزفلت وتشرشل وستالين في طهران ويالتا وبوتسدام وغيرها من البلدان . فتصوروا لو انفرانسا انتصرت منذ بدء الحرب على المانيا وارغمتها على القاء السلاح، فهل كان معقولا ان تصل سورية الى امانيها بالاستقلال التام والسيــادة المطلقة على اراضيها ، بدون معاهدة تبقي لفرانسا بعض الامتيازات؟

ومع ما اصاب فرانسا من التردي ، فقد ظــل تشرشل رئيس وزارة بريطانيا يطلب من السوريين ان يعقدوا معها معاهدة تبقي لها بعض المميزات . لكن الحــكم الوطني الذي استــلم دفة الامور منذ ١٩٤٣ ، وعلى راسه شكري القوتلي ، رفض اقتراح تشرشل ولــم يعترف بكتاب « لتلتون » الموجه الى الجنرال ديغول ، وفيه اعتراف لفرانسا بمركز خاص في سورية ولبنان .

والحقيقة التي لا شك فيها ان سياسة الولايات المتحدة الرامية الى ازالة الاستعمار الذي تمارسه غيرها من الدول في العالم ، هي التي ادت،بمعونة الانكليز،الى انزال العلم الافرنسي من سماء سورية ولبنان . وبالطبع لم تكن سياسة الولايات المتحــدة هــذه لوجه الله ومجردة من الغرض . فقد كانت ترمي الى ازاحــة غيرها والحلول

محلها ، لا بالاسلوب الاستعماري القديم ، لكن بمعاهدات تعقدها مع الدول التي وفرت لها الاستقلال ، فتكفل بذلك لها في كل بلد قواعد استراتيجية تطوق بها المحيط الشيوعي ، وحكومة محلية صديقةتتبع سياستها وتخضع لمشيئتها وتوجيهها . حتى اذا رفضت حكومةمحلية ما الخضوع ، اثار عملاء الولايات المتحدة ضدها انقلابا عسكريا يتعهد منفذوه سلفا باتباع سياسة الموالاة لامريكا . وتتهم الولايات المتحدة الاتحاد السوفيتي بانه يسعى لخلق دول تابعة له ، سواء في اوروبا او في آسيا وافريقيا وامريكا ، وتقدم مثالا على ذلك جمهورية كوبا التي ثارت ضد النظام الذي خلقته واشنطن ، واعلنت ولاءها وصداقتها لروسيا . اما الدول التي تريد البقاء على الحياد فتصفها امريكا بالتبعية للاتحاد السوفيتي، مثل سورية عندما رفضت التوقيع على معاهدة الدفاع المشترك مع ممثلي واشنطن واضطرت لشراء الاسلحة وعقد اتفاقية اقتصادية مع موسكو ، بعد ان سدتفي وجهها ابواب الدول الغربية كلها . وهكذا ظلت ايدي العملاء الاميركيين تلعب حتى نجحت في انقلابات عديدة ، سواء في سورية او غيرها .

سقوط الليرة السورية يكشف احدى مساوىء المعاهدة

كانت عودة الوفد السوري من باريز في حزيران . ولم تمض فترة طويلة حتى اعلنت الحكومة الافرنسية تخفيض سعر الفرنك ، فتبعته الليرة السورية. واصبحت الليرة التركية الذهبية تساوي ٧٥٠ قرشا سوريا بعد ان كانت ثابتة على ٥٥٠ قرشا. واضطربت اسواق سورية المالية واصيبت شؤوننا الاقتصادية بضربة قاسية ــ ذكرتها بالتفصيل في القسم الخاص بالشؤون المالية والاقتصادية منمذكراتي ــ وانكشفت بذلك احدى مساوىء المعاهدة الافرنسية ــ السورية، « معجزة القرن العشرين » ! وقد سعيت اذ ذاك لازالة الاضرار الناجمة بابقاء قيمة الليرة السورية كما كانت قبل تخفيض الفرنك ، على ان تتحمل الخزينتان السورية واللبنانية الفرق بين المعدلالسابق والمعدل الجديد . وقد وافقت حكومتا عطا الايوبي واميل اده على اقتراحي ، غير ان المفوضية الافرنسية رفضت رفضا باتا هذا الاقتراح لانه يتعارض مع احد بنود المعاهدة الجديدة ويحرم فرانسا من الفوائد الاقتصادية التي تجنيها من تجارتها مع سورية.

وفي شهر كانون الاول جرت الانتخابات النيابية ففاز مرشحو الكتلة فوزا ساحقا . وكان اول ما عملوه هو اجبار محمد عليالعابد

على الاستقالة ، فنزل المشار اليه عند مشيئتهم ، فانتخب هاشم الاتاسي محله . وتالفت الوزارة برئاسة جميل مردم ، من سعد الله الجابري وشكري القوتلي والدكتور كيالي . واستقبلت البلاد العهد الجديد بالهتاف والارتياح، ووضعت آمالها كلها في عنق الذين استلموا الحكم . ولم يشذ عن هذا الاجماع الا القلة من الزعماء الكتلويين الذين صعب عليهم اقصاؤهم عن الوزارة ، فراحوا يكيدون ويدسون السموم في الخفاء .

ليس لي ان اذكر سجل الحوادث التي جرت في هذا العهد ، فتلك هي مهمة المؤرخ . ولست الا رجل اشتغل في خدمة بلاده، نيفا وخمسة وثلاثين عاما ، واراد تقديم بيان الى مواطنيه عما قام به من الخدمات . هذا مع اضطراره الى ربط العهود ، بعضها ببعض، لان كلا منها يتاثر بما سبقه. وعلى ذلك اراني مضطرا ان لا امر على عهد لم اشترك فيه مرور الكرام ، بدون تدوين حوادثه الهامة على الاقل، حتى يتسنى للقارىء ان يتابع احداث سورية ، فلا يكون امام انظاره صحائف خالية خاوية .

سياسة الكتلويين الحزبية الضيقة قادت البلاد الى الاسوأ

اتبعت الحكومة الجديدة سياسة الحزبية الضيقة ولم تفتح صدرها لغير المنتسبين اليها . فلما قام عبد الرحمن الشهبندر بجمع الناس حوله واعلان نواقص المعاهدة ، عادت الى ذهن الكتلويين ذكريات خلافاتهم في القاهرة ايام الثورة السورية ، فبدأوا بمناوأة الشهبندر ومطاردته، حتى وصل بهم الامر الى فرض الاقامة الجبرية عليه في بلودان ومنع الناس من دخول الدار التي كان يسكنها .

ثم عكفت الكتلة الوطنية على تاليف منظمة شبه عسكرية دعتها باسم « القمصان الحديدية » ظنا منها انها بهذه الوسيلة تستطيع الاعتماد عليها بدلا عن الجيش الذي كان ولا يزال تحت امرة الافرنسيين .

اما المعاهدة ، فقد اسرعت الحكومة الى تقديمها الى مجلس النواب وراحت تكيل لها المدح والاطراء . وسار النواب على نفس الخطة ، فلم يبق حرف من النصوص لم ينل نصيبه من المديح والثناء، حتى كاد يظن من يسمع تلك الخطب بان سورية حصلت على الاستقلال التام ، وان الانتداب قد انتهى . واتضح خطأ هذا الاتجاه الذي لم يقصد به في الاصل سوى دعم مركز الكتلة ، عندما بدأت ترد من فرنسا اخبار غير مطمئنة، خلاصتها ان العسكريين يعترضون على المعاهدة ويطلبون تعديل بعض نصوصها ، وان اصحاب الاتجاه

الاستعماري كذلك ينادون بتعديل بعض احكامها حفظا لاغراض الانتداب بالتدخل في كل شيء .

ومع ان مجلس النواب السوري اسرع الى اقرار المعاهدة ، فان الحكومة الافرنسية لم تعرضها على البرلمان الافرنسي خشية رفضها .

ومن جهة ثانية ، قدمت الجمهورية التركية مذكرة الى باريز تقول فيها بانها قبلت النظام المشترك الخاص في لواء الاسكندرونه، وذلك حينما كان الانتداب سائدا في سورية. ولكنها لا تقبل باستمرار ذلك النظام بعد ان تخلت فرانسا عن مسؤولياتها بموجب المعاهدة الافرنسية ـ السورية ، وطلبت الحاق اللواء بتركيا. ثم راحت تهدد وتتوعد .

وتجاه المماطلة البادية من الافرنسيين بتقديم المعاهدة الى البرلمان ، لم يكن من الحكومة السورية الا ان اوفدت رئيسها مردم، ووزير الخارجية الجابري ، الى باريز بقصد الاستطلاع . فبقيا مدة في باريز ، دون ان يحصلا على وعد قاطع .

وفي اواخر ١٩٣٨ ، ظهرت نوايا الافرنسيين علانية ، اذ انهم اوعزوا للموالين لهم من الاشوريين بالعصيان في محافظة الجزيرة. فقامت تلك العشائر باعمال استفزازية ضد الحكومة حتى كادت ذات مرة تلقي القبض على المحافظ السيد حيدر مردم بك ، ابن عم رئيس الوزارة . وكذلك كان الامر ، وانما على سوية ادنى في محافظتي اللاذقية وجبل الدروز . فقد طورد المحافظان احسان الجابري ونسيب البكري واضطرا للعودة لدمشق . وساءت الاحوال في جميع الانحاء . وفي الفترة نفسها قامت مظاهرات الاتراك في محافظة الاسكندرونة مطالبة بالالتحاق بتركيا ، واتفق الافرنسيون مع الحكومة التركية على اجراء استفتاء في تلك المحافظة . وحمي الوطيس بين الفريق المنتمي للاتراك من جهة ، والفريق الذي يطالب بابقاء الحال كما هو ، وهو مؤلف من العناصر العربية المسلمة والمسيحية ومن الارمن الذين كانت تركيا ابعدتهم الى اللواء في اثناء الحرب العالمية الاولى .

وبذلت الجهود سخية ، غير ان المندوب الافرنسي هناك كان يعمل لصالح الاتراك . وانتهت عمليات الاستفتاء ، فحاز الاتراك على اربعين بالمئة من الاصوات ، وتقاسم الاصوات الباقية السوريون والارمن . ومع ان المنطق كان يقضي باعتبار الاكثرية

تريد بقاء الحال ، فان الاتراك ادعوا بانهم حصلوا على اصوات تفوق عدديا اصوات كل فريق من العرب والارمن . واستمرت المفاوضات بين الاتراك والافرنسيين ، فثارت مشاعر السوريين في جميع المدن السورية . وتظاهر القوم وطالبوا بالتمسك بلواء الاسكندرونة، وبتنفيذ احكام المعاهدة السورية ــ الافرنسية . وبدأ العراك داخل الكتلة نفسها . وعقدت اجتماعات عديدة في مصيف جميل مردم بقدسيا قرب الهامة ، ظلت طيّ الكتمان ولم يبد من نتائجها سوى ادخال لطفي الحفار وفائز الخوري على الوزارة . وكان قد استقال منها شكري القوتلي احتجاجا على توقيع رئيس الوزارة مردم على تجديد اتفاقية البنك السوري ، خلال وكالته عن وزير المالية ، حين كان القوتلي مسافرا الى الحج .

ومن النكات التي تثبت الفوضى التي كانت سائدة على المجتمعين في قدسيا وعدم اتفاقهم،يروى ان عفيف الصلح كان يطلب من الحاضرين قطع الحديث كلما دخل الخادم ليقدم القهوة او الماء حتى لا يطلع على الابحاث.فتضايق الاستاذ فارس الخوري وقال له : « يا عفيف بك نحن بين بعضنا لا نفهم على بعضنا ، فكيف يستطيع الخادم ان يفهم شيئا مما نقوله ؟ »

وبدات الامور تسير من سيىء الى اسوأ . وكادت تفلت الدفة من يد الحكومة ، فقرر رئيس الوزارة ان يسافر مرة ثانية الى باريز ليقوم بالمحاولة الاخيرة ، بينه وبين اركان الحكومة . وكانت حكومة بلوم الاشتراكية قد تركت الحكم وجاءت محلها حكومة برئاسة دالاديه ، المعروف عنه انه من المسايرين لآراء اركان الجيش الافرنسي .

وجرت الابحاث في مطلع ١٩٣٩ واستمرت الى ان راى مردم ان لا مجال للتمسك بنصوص المعاهدة كما هي ، فاضطر لقبول تعيين مستشارين افرنسيين ، احدهما في وزارة الداخلية ، وللنزول عند راي الاركان ببعض النقاط كبقاء الجيش مدة خمس سنوات . ووقع على ملاحق تتضمن هذه التعديلات وعاد لدمشق ، ظانا ان الحكومة والمجلس سينظران الى الامور بعين الحكمة وعلى ضوء الواقع والامكانيات . لكن ظنه خاب منذ الاجتماع الاول الذي عقدته الحكومة . فقد رفضت الملاحق وتقرر عدم نشرها . اما في الجلسة التي عقدها مجلس النواب للنظر في سياسة الحكومة العامة ، فقد طلب رئيس المجلس فارس الخوري من رئيس الحكومة الادلاء ببيان

عن اعماله في باريز واطلاع النواب على الملاحق .

فلم يشأ جميل مردم اطلاع المجلس عليها ، وكانت اجوبته مصبوغة بالتسويف والماطلة . فما كان من الرئيس الخوري الا ان اعلن ان المجلس لا يستطيع ازاء موقف الحكومة الا ان يبدي رفضه كل تعديل للمعاهدة ، فايدته الاكثرية بالتصفيق .

ويقال ان سبب موقف الاستاذ الخوري العدائي نحو الحكومة يرجع الى انه اراد ان يذهب الى فرنسا في اواخر ١٩٣٨ ليسند جميل مردم الموجود هنالك في مساعيه للتصديق على المعاهدة . الا ان هذا الاخير لم يرتح لهذا التدخل الذي قد يؤدي الى عرقلة تفاهمه مع الافرنسيين ، فطلب من الحكومة الافرنسية سرا ان لا تمنح سمة دخول للاستاذ الخوري . ولم يعلم احد بالامر ، طبعـــا ، وسافر الخوري بقطار الشرق السريع الى باريز . وودعته في رياق . فلما وصل الى استانبول وجلس في محطة سيركجي ينتظر موعـــد قيام القطار باتجاه اوروبا ، جاءه السفير الافرنسي وابلغه ، بعد التحية والاكرام ، ان حكومته ترجوه صرف النظر عن المجيء الى باريز . فلما اصر الخوري على السفر اضطر السفير لمكاشفته بانه لا يستطيع اجتياز الحدود الافرنسية ، اذ ان الاوامر اعطيت للمخافر بعدم السماح له بدخول الاراضي الافرنسية .فرضخ عندئذ الاستاذ وتوجه الى فندق بيرا بالاس وهو قانع بان جميل مردم هو الذي سعى لمنعه من الوصول الى باريز . وحقد عليه حقدا اسود ، وانتقم منه عندما عاد مردم بك الى دمشق حاملا الملاحق . فجرى في المجلس ما ذكرناه من رفض تلك النصوص بدون الاطلاع عليها .

انقسام الكتلويين بصدد المعاهدة واستبدال مردم بالحفار

وانقسمت الكتلة الى قسمين ، قسم يساند مردم بالتساهل مع الافرنسيين وابقاء ما يمكن ابقاءه من نصوص المعاهدة والاستمرار في الحكم ، والقسم الآخر يرى رفض الملاحق وتخيير الافرنسيين بين الاستمرار بالتفاهم النزيه وبين الانسحاب من الحكم والعودة الى المعارضة . وكان الاعضاء القائلون بهذا الراي اكثر من مساندي راي رئيس الوزراء ، مما ادى الى قيام مظاهرات عدائية له وضد سياسته . فتولت زمام الامن السلطة الافرنسية واوقفت الكثير من البارزين في الكتلة ، العاملين في تهيئة تلك المظاهرات ، ونفتهم الى النبك . فافلت الامر من بين يدي جميل مردم ، فلم يسعه سوى تقديم استقالته ، خاصة ان رئيس الجمهورية هاشم الاتاسي انحاز الى الفريق المخاصم لرئيس الوزراء وراح يؤنبه ويؤنب سعدالله

الجابري على تصرفات الحكومة التي اوصلت الحالة الى هذا الدرك.

وتولى الحفار، احد البارزين في الكتلة، تأليف حكومة تسعى، كآخر محاولة، لرتق الخرق واعادة الصلات الحسنة مع ممثلي الانتداب واشترك بالوزارة نسيب البكري وفائز الخوري وسليم جنبرت وغيرهم.

ولم يكن الرئيس الجديد حائزا على المهارة السياسة التي كان يتميز بها سلفه. حتى انه، بسبب جهله اللغة الافرنسية، كان مضطرا لمن يترجم احاديثه مع ممثلي الانتداب، فيفقد بذلك مفعول الاتصال المباشر. وظل لطفي الحفار على الرغم من نيته الطيبة في الخروج من المازق، يتخبط بين متطرفي الكتلة وعمال الانتداب، حتى فرغ صبره. فاضطر تحت ضغط حزبه لتقديم استقالته، بعد ان قررت الكتلة عدم التعاون مع اية وزارة لا تضمن تنفيذ المعاهدة بنصوصها الاصلية.

صحيح ان المعاهدة لم تكن في نظري ونظر اكثرية المفكرين الحياديين شيئا يبكى عليه. لكنها كانت اصلح، على كل حال، مما ستكون عليه عندما تنضم اليها الملاحق المشؤومة.

وكنت طيلة هذه الفترة في اوروبا لا اتلقى من الاخبار سوى المقتضب الذي تنشره صحف فرنسا، او المتاخر اسبوعا الذي اطالعه في صحف دمشق. وكنت على وشك العودة الى سورية، عندما بلغني خبر استقالة الحفار وتعثر تأليف حكومة جديدة.

وكان رئيس الجمهورية، يبذل جهده لاقناع رفاقه الكتلويين بتأليف حكومة تسعى للمرة الاخيرة لحفظ مصالح سورية. لكن قرار الكتلة كان صلبا لا يسمح لاحد اعضائها، لا بتأليف وزارة جديدة، ولا بالاشتراك باية وزارة، قبل الحصول على عدول الافرنسيين عن الملاحق وتصديق المعاهدة بنصوصها الاصلية. لكن من يستطيع البحث مع الافرنسيين على هذه الاسس غير حكومة منبثقة من المجلس وحائزة على ثقته؟ ولعل اعضاء الكتلة، بعد ان تفرق شملهم في اواخر عهد وزارة مردم بك، وانسحب منهم من انسحب، شعروا انهم اضاعوا الثقة التي كانت البلاد تمنحهم اياها بسبب فشلهم في الادارة وتسببهم — على قول البعض — في تصلب الافرنسيين بداعي حماية المسيحيين. ولذلك كان الانسحاب الى صف المعارضة اهون كثيرا من الاستمرار في الحكم وادعى لاستعادة

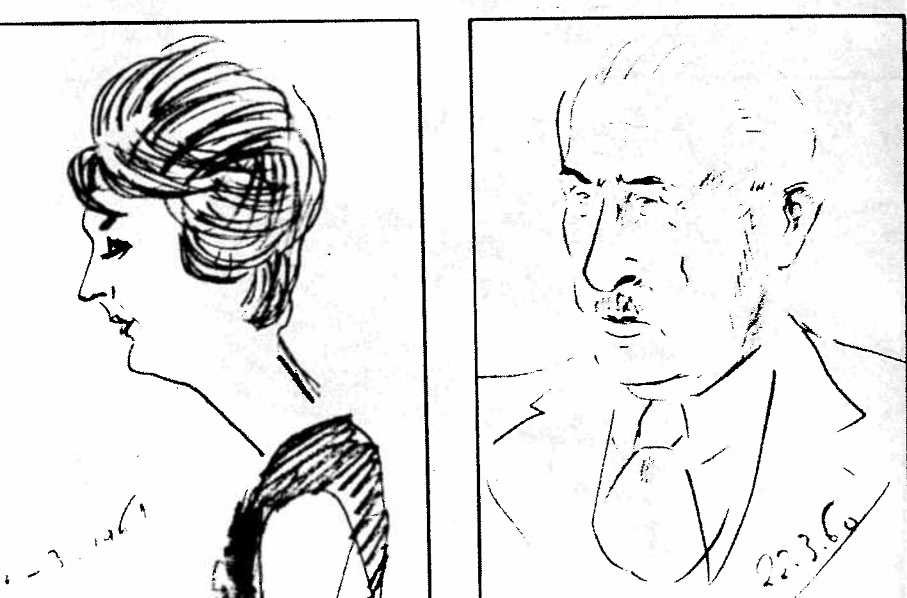


... ويتأمل في احضان الطبيعة.

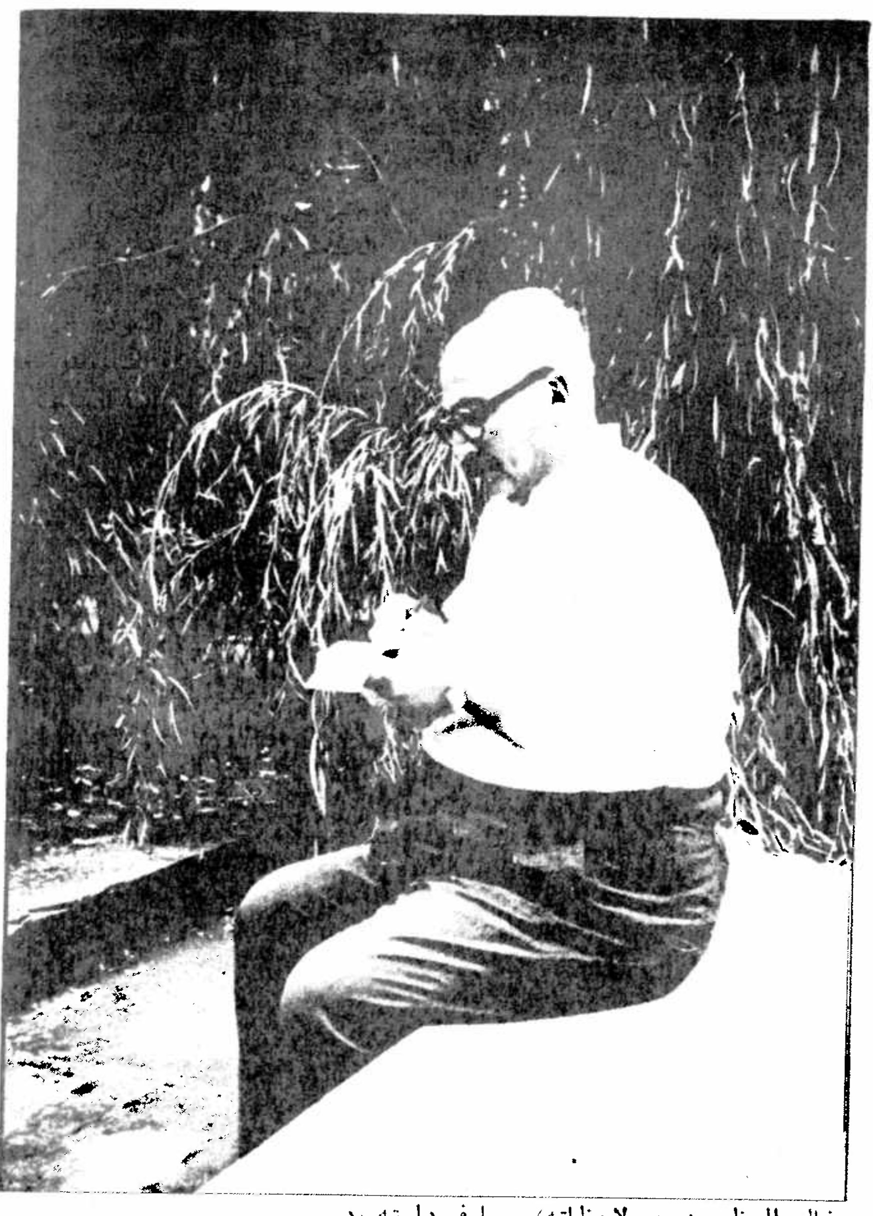


يقول في مذكراته انه يعشق هذا المكان في سوق الغرب، في لبنان، ويعتبره اجمل بقعة في العالم. وهذه الصورة مهداة الى «سوسو» اي سوسن، ابنته بالتبني.





كان خالد العظم يهوى التصوير والرسم. وهذان الرسمان نموذجان من الرسوم العديدة التي كان يتسلى بها في المجتمعات والمؤتمرات.



خالد العظم يدون ملاحظاته، ربما في دارته بدمر.

ثقة الجماهير مجددا ، فكان موقفهم السلبي ناشئا عن هذه الاعتبارات وعما يمكن ان يضاف اليها من الحسد والغيرة بين الاعضاء ، وتذمر بعضهم من عدم اشراكهم بالوزارة او نيلهم ما كانوا يصبون اليه من منافع . ولا ينكر ان اية حكومة تبقى اكثر من سنتين على راس العمل ، لا بد من ان ترتكب بعض الاخطاء المقصودة او العفوية . ولم يتعود الشعب السوري ، في عهد تتجلى فيه الحرية بكل معانيها ، ان يتقبل بقاء حكومة ما اكثر من ستة شهور ، فكيف اذا طالت هذه المدة الى سنتين وشهرين ؟ هذا اذا تركنا جانبا القول المشهور بأن العرب يتفقون في التخريب ويختلفون في الانشاء . ذلك ان الانشاء يتطلب قيادة ماهرة ، وخططا مرسومة سلفا ، وتعاونا كليا بين العاملين ، وانصياعا لامر القائد . في حين ان التخريب لا يحتاج الى كل هذا ، بل يكفي ان يتناول كل عامل معولا ويضرب به ناحية من البناء لكي ينهار .

اما في السياسة ، فالمعارضة تتطلب ايضا قيادة حكيمة ، وتوجيها صحيحا وفق برامج مدروسة ، واخلاصا وتفانيا لدى العاملين . ونحن في سورية وفي كثير من البلاد العربية برعنا في المقاومة السلبية ومناهضة كل محتل وكل حكم مستبد . ولا ادعي بأن براعة الكتلويين هي التي اوصلتنا الى نيل استقلالنا ، فما كان ذلك ليكفي لو لم تشاندنا في نيل امانينا بريطانيا والولايات المتحدة ، كل منها لغرض خاص بها طبعا . لكن لولا الكتلة الوطنية والتفاف الشعب حولها لما كانت تلك الدول تمهد امانة الاستقلال والقيام بتاليف حكومة وطنية تستلم المسؤوليات ؟ ولو اننا استطعنا ان نعالج قضايانا بمهارة ومقدرة ، ولو لم تعاجلنا قضية فلسطين ولم يمض على استلامنا الحكم اكثر من ثلاث سنين ، ولو بقي التضامن بين العاملين كما كان في اوائل عهد المقاومة التي تولتها الكتلة الوطنية ، ولو لم تتغير سياسة امريكا نحونا بعد ان قاومنا سياستها الصهيونية وخططها الستراتيجية في الشرق العربي ، لكنا الان اسعد شعب يتمتع بما حبا المولى ارض بلاده من خيرات ونعم . لكن ، يا للاسف ، لم تات الايام كما كنا نرجو ، فظلت بلادنا منذ ١٩٤٨ ترتفع وتهبط كالسفينة فوق الامواج .

عدت من اوروبا في نهاية آذار ١٩٣٩ بقطار الشرق السريع . ولما وصلنا الى استانبول ، قرانا في صحفها نبأ تكليف السيد نصوح البخاري بتاليف الوزارة . ووصلت الى دمشق ، فاتصل بي فورا

يطلب مني قبول احدى الوزارات ، فقبلت بعد تردد . ويجد القارىء في مذكراتي السياسية بحثا مستفيضا للحوادث التالية ، فلنرجع اليها لوصل الماضي بالحاضر .

سفري مع زوجتي الى استنبول ومشاهداتي فيها

والان لنرجع قليلا الى الوراء لمتابعة مذكراتي الخاصة ، فاذكر ان والدتي رحمها الله ما كانت تسمح لي بالسفر الى اوروبا خوفا علي من محيطها ومما هو مشهور عن باريس خاصة من التحلل الخلقي . وسايرت والدتي ولم ابرح دمشق الا في شهر ايلول ١٩٣٤ ، حين ابحرت ومعي زوجتي على باخرة رومانية لقضاء شهر في ربوع استنبول التي كانت ذكرى سفري اليها في ١٩١٢ ما تزال مسيطرة علي خيالي . وكانت الباخرة ، على الرغم من صغرها ، على غاية من النظافة والاناقة . وكانت هي الباخرة ذاتها التي سافرنا عليها في ١٩١٢ من الاسكندرية الى استنبول . وعندما وصلنا الى بيره ، المرفأ اليوناني المعروف ، نزلنا الى اليابسة وتوجهنا بالسيارة الى اثينا حيث زرنا معالمها التاريخية كالاكروبول .. لست من عشاق العادات القديمة ، لذلك لم اجد في هذه الزيارة ما يبهجني. وفي المساء عدنا الى الباخرة التي اقلعت بنا واوصلتنا ظهر اليوم الثالث الى استنبول ، فاثارت مناظر مدخل هذه المدينة البديع ذكريات زيارتي الاولى ، ووجدت بذلك متعة لا تطالها متعة .

كان فندق بيره بالاس اشهر فندق حتى يوم نزولنا فيه ، لكنه بدا لي كعجوز تتغنى بشبابها السالف ومباهجها الزائلة . فعلى الرغم من فخامة ابهائه واتساع غرفه وعلو سقوفها بشكل خاص ، لم يكن فيه من اسباب الراحة والترف ما هو موجود الان في الفنادق حديثة العهد . فالاسرة كانت من النحاس الاصفر تعلوها «الناموسيات»، والمقاعد كانت كالعجائز اللواتي ضممن في احضانهن العديد من الاطفال والشباب في ماضيهن البراق . اما السلم ، فكان خشبيا تترنح درجاته تحت ثقل الصاعدين فتسمع لها صوتا كانين المتقدم في السن وهو يحمل اثقالا لا قدرة له على حملها . وكان ثمة مصعد يرجع تاريخ صنعه الى خمسين سنة خلت . فكنت اخاف من استعماله واتحمل مشقة الصعود على السلم .

وكان صاحب الفندق من اسرة مخيش اللبنانية ، تعرفت اليه في بار الفندق حيث كان يجلس من الصباح حتى المساء ويده لا تخلو من كاس وسكي ، دون ان تنتابه اعراض السكر . وظل على هذه الحال حتى انقضى اجله ودفن في استنبول .

وسارعت بعد استراحة قصيرة الى السير في شارع « بك اوغلو » . ووقفت طويلا امام مدخل مدرسة « غلطة سراي » اطيل النظر خلال قضبان بابه الحديدية الى ساحته الواسعة ، حيث كنا نلعب ونمرح ، والى غرفة البواب التي كنت اجلس فيها منتظرا الخادم الذي كان يرسله والدي لمرافقتي الى البيت .

وكثيرا ما سعيت للعثور على الدارين اللتين سكنا فيهما ، الاولى في « اورطة كوي » ، والثانية في « شيشلي » ، لكنني لم اجد لهما اثرا ، فلربما هدمتا وقام محلهما بناء جديد . وكنا نركب البواخر الصغيرة التي تتنقل في البوسفور مارة بكل حي من الاحياء المؤلفة من دور خشبية تلاطم الامواج اساساتها وسط قصور فخمة تسمى « يالي » كان اثرياء الاتراك والروم يقضون فصل الصيف فيها الى جانب قصور بعض السفارات . وكانت ثمة فنادق منها « سامار بالاس » و « طوقاتليان » وهما من الدرجة الاولى ، يرتادهما كبار الوزراء والموظفين واعضاء السلك السياسي الاجنبي واثرياء البلد ووجهاؤها . ولم يكن الاختلاط بين النساء والسيدات معروفا ، حتى ان السيدات لم يكن يخرجن خارج دورهن الا برؤوس مغطاة بعصبة من الحرير او التول .

ولم يبهر نظري في حياتي اكثر من مشاهدة المجوهرات المنوعة والالبسة المزركشة والاواني الذهبية المزخرفة بالماس والياقوت والسيوف والخناجر الذهبية المرصعة بانواع المجوهرات في قصر « سراي بروني » . وكان هذا القصر مقر السلاطين حتى منتصف القرن الثامن عشر، وهو يطل على مضيق الاستانة من فوق هضبة عالية تمكن المرء من مشاهدة البلد القديمة والجديدة والمضيق واكبر القرى المصطفة على شاطئيه وعلى الجزر وبحر مرمره . وهو مقسم الى قسمين متلاصقين ، الاول مخصص لزوجات السلاطين واولادهم وبناتهم وجواريهم ومحظياتهم ، والثاني مقر السلطان ومركز الحكومة المركزية .

ومهما حاول الانسان احصاء ما يحتويه هذا القصر من كنوز، فانه يبوء بالفشل . ولعل اكثرها قيمة ذاتية وتاريخية هو عرش احد ملوك الفرس . فهو ذو قواعد ثخينة مرصعة بالماس والياقوت واللؤلؤ . اما طراريحه ومخداته فهي من المخمل الاحمر الذي تكاد لا تراه من كثرة ما ثبت عليه من الاحجار الكريمة . وثمة عرش آخر يقل عنه زخرفة ، الا ان فيه زمردة بحجم البيضة معلقة

بسلسلة ذهبية مدلاة من وسط السقف بحيث تلامس راس السلطان . وعلى الجدران اطباق من الصيني الملون المذهب ، تختلف الوانها باختلاف الغرف . وفي وسط القاعات الفسيحة موائد مغطاة بالزجاج ، مليئة بادوات الطعام الذهبية المرصعة بالياقوت والماس . اما السيوف الذهبية المرصعة ، فلا يقل عددها عن المئة . وثمة قاعات تمثل فيها السلاطين بالشمع وعليهم الاثواب المتعددة الالوان ، المزركشة بخيوط الذهب والفضة ، يتوسطها خنجر الى جانبه سيف مرصع بانواع الاحجار الكريمة . اما التيجان ، فهي طاقيات من الفرو والمخمل تحمل في وسطها حجرا كريما من الياقوت او الزبرجد ، وقد سورت باللؤلؤ الثمين الذي لا تقل حباته عن حبة الفول . وثمة خزائن تحوي العجائب مما صنعته ايدي الاخصائيين في المجوهرات والنقش ، واخرى تحوي الاوسمة المحلاة بالماس وغيره ، وهي التي كان يهديها الملوك الاجانب للسلاطين الى جانب هداياهم النفيسة .

ولا يستطيع انسان ان ينكر ما يعتريه من اعجاب بما هو محفوظ في ذلك القصر من تحف لا تقدر بثمن . وقد قال لي احد الادلاء ان ما نشاهده هو جزء مما كان محفوظا في هذا القصر وفي قصر ييلدز وطولمه باغجه . فالباقي نهب اثر الانقلاب العثماني في ١٩٠٨ .

وزرت متاحف وقصورا عديدة في اوروبا وآسيا ، فلم اجد فيها ما شاهدته في هذا القصر من مجوهرات . ففي لندن رايت التيجان والاسلحة والاوسمة البريطانية ، وهي غنية بالماس ، وخاصة بالماسة الكبيرة ذات ٣٠٠ قيراط التي تعلو التاج الملكي ، غير ان التحف المعروضة في استنبول تزيدها عددا وتنوعا وجذبا للانظار . وانطبعت في مخيلتي هذه الصور كما انطبعت من بعد صور اللوحات الزيتية المحفوظة في متحف اللوفر في باريز ، ومتحف البرادو في مدريد ، وهي آيات في الفن رسمها كبار الرسامين العالميين كرافائل ، وليوناردو دي فينشي ، وموريللو ، وتيسيان، وغويا ، وآنغر ، ودافيد ، وفراغونار ، ورنوار ، وغيرهم من العباقرة .

وفي روما ونابولي وفيينا وبرلين ولندن وباريز وموسكو ولينينغراد متاحف عظيمة تحوي من اللوحات النفيسة ما لا يستطيع الانسان المرور بها مرور الكرام ، وربما اتيت على ذكرها في حينه.

وتمتاز جزيرة « بيوك آطه » عن الجزر القريبة منها باتساعها، وبغابات الصنوبر التي تكسو اديمها ، وبما يفوح في جوها من روائح تلك الاشجار .

وقد مللت البقاء في فندق بيره بالاس ، فانتقلت الى فندق في ناحية « فنار باغجه » ، وهو فندق قديم مبني من الخشب لا يعتبر من الدرجة الاولى . لكن ميزته كانت في نظري وقوعه على الشاطىء وقربه من دار خالتي واولادها . فكنا نتنزه سوية ونقضي الايام والليالي برفقتهم . وكان برنامجي البقاء في استنبول خمسة عشر يوما آخر ثم العودة الى دمشق ، الا ان برقية وردتني ذات يوم من ادارة شركة الشمينتو تعلمني فيها انها قررت توسيع المعمل وايفاد وفد الى اوروبا لدراسة العروض محليا ، وان الادارة اختارتني مع السيدين امين دياب ويوسف بوس لعضوية هذا الوفد . وبعد اسبوع وصل الزميلان المشار اليهما وبقيا في فندقي يومين حتى تداركنا بطاقات السفر بالقطار الى براغ .

شركة الشمينتو توفدني الى اوروبا لدراسة عروض توسيع المعمل

وتركنا الفندق واتجهنا نحو محطة « سيركجي » ليلا وانتظرنا موعد سفر القطار ، واذ بأحد الموظفين يأتي صوبنا ويسألنا اذا كان معنا عملات اجنبية . فاجبناه بالايجاب وابرزنا له جوازاتنا التي اشر عليها مقدار ما كنا نحمله حين دخولنا تركيا . واعلنا عن ان الموجود معنا الآن هو طبعا اقل من تلك المبالغ ، فراح الموظف يقلب صفحات الجوازات ثم قال انكم لم تحصلوا على اذن بالخروج ومعكم هذه النقود . فاستغربنا ان يكون ثمة حاجة لذلك ، كما ان احدا لم يخبرنا لا عند الدخول ولا في الفندق عن ضرورة الحصول على اذن خاص . وبينما نحن في اخذ ورد مع الموظف ، تجمع حولنا عدد من الناس واخذ كل واحد يبدي رايا . ثم جاء رئيس القطار وسألنا اذا انتهينا مع الموظف فقلنا كلا . فاخذ احدنا جانبا وقال له هامسا : « ارضوا المامور بمكافاة مالية وهو يتسامح معكم . » غير ان الجمع الذي احاط بنا جعل قضيتنا معروفة بحيث لم يعد الموظف قادرا على الرجوع عن طلبه . وعند ذاك جاءنا رئيس القطار وقال ان موعد قيام القطار قد حان وهو لا يستطيع التاخر، لا سيما ان لا فائدة من مساومة الموظف بعد ان تكاثر القوم حولنا. ثم نصحنا بتسجيل تاخرنا عن موعد السفر حتى لا تسقط قيمة بطاقات السفر ، ففعلنا . وعدنا الى استنبول ونزلنا في فندق متواضع قرب بيره بالاس وقضينا يومين اضافيين اتممنا فيهما

المعاملات اللازمة وبارحنا استنبول بقطار الشرق السريع الى براغ .

كان السفر في القطارات ذوات الاسرة وغرف الطعام ابهج انواع السفر ، سواء من حيث مشاهدة مناظر البلاد التي يمر بها القطار ، او من حيث ان ركوبها اكثر سلامة من ركوب البواخر .

واخذ القطار ينساب تارة في سهول مسطحة ، وتارة وسط غابات كثيفة يكاد الضوء لا يتخلل اشجارها . وبدانا نشعر بتغير في المساكن الفردية والقرى والمدن كلما تغلغلنا الى الامام . فبلاد البلقان لا فرق بينها وبين بلادنا او بلاد الاناضول ، بعكس اوروبا الحقيقية التي تبدأ منذ الساعة التي يعبر فيها القطار بلاد المجر . فهناك تزداد معالم الرقي والتقدم كلما سرنا شمالا ، اذ تأخذ مناظر البلدان تتغير . فبدلا عن مآذن المساجد وابراج الكنائس ، ترى المداخن تشير بعلوها وبالدخان الذي يتصاعد منها الى كون الصناعة ، وهي دليل التقدم الاقتصادي ، قد اثبتت وجودها . وقررنا ان ننزل في بلدة « برتو » من الجمهورية التشكوسلوفاكية ، لانها كانت مركز احدى الشركات التي تصنع الآلات التي نحن في طلبها . وفي طريقنا اليها مررنا قرب سهل « واغرام » التاريخي الذي انتصر فيه نابليون على جيش النمسا .

الجزء الثاني : من الانتداب إلى الاستقلال

الفصل الاول

سورية تحت الانتداب

كنت عائدا من المانيا بقطار الشرق السريع . وعندما وصلت الى استنبول اشتريت بعض الصحف واذا بها تنشر اخبار الازمة الوزارية الناشبة في سورية على اثر استقالة السيد لطفي الحفار وتذكر ان رئيس الجمهورية السيد هاشم الاتاسي كلف السيد نصوح البخاري بتاليف الوزارة .

وزارة نصوح البخاري واشتراكي فيها وزيرا للمدلية والخارجية

كان منشأ الازمة انحراف الافرنسيين عن الخطة التي كانوا قبلوها وعقدوا على اساسها مع الحكومة السورية معاهدة ١٩٣٦ . فذهب السيد جميل مردم رئيس الوزراء الى باريز مرتين ، ساعيا لاقناعهم بعرض المعاهدة على البرلمان . لكنه عندما يئس من امكان الوصول الى بغيته اتفق مع وزير الخارجية مسيو جورج بونه على اضافة ملاحق على المعاهدة من شأنها السماح للافرنسيين بابقاء جيشهم ومطاراتهم في شمال سورية ومنح مستشار الداخلية صلاحيات واسعة . وعندما عاد المشار اليه الى دمشق لم تلق هـذه الملاحق ارتياح حزبه واعلن رئيس مجلس النواب السيد فارس الخوري ان البلاد لا تقبل بتعديل المعاهدة الاصلية ، فاضطر مردم لتقديم استقالة حكومته فخلفه السيد لطفي الحفار وبقي في الحكم مدة شهر تقريبا واضطر هو بدوره على الاستقالة ، لان الكتلة الوطنية قررت عدم الاستمرار في تحمل اعباء الحكم ما لم يرجع الافرنسيون عـن التشبث باضافة الملاحق . وعند ذلك استدعى رئيس الجمهورية السيد نصوح البخاري وعهد اليه بتاليف الحكومة . ولم يكن المشار اليه من انصار الكتلة الوطنية ، بل من اخصامها الذين حاربتهم في الانتخابات النيابية ، وهو من كبار رجال الجيش تدرج في العهد العثماني حتى وصل الى رتبة زعيم وتولى في عهد الملك فيصل مديرية الشؤون العسكرية ثم عهد اليه في زمن الانتداب بوزارة الزراعة فوزارة المعارف وبقي في الحكم طويلا . وصفتاه البارزتان النزاهة والحزم .

في مساء يوم وصولي الى دمشق زارني السيد نجيب الارمنازي مدير مكتب رئيس الجمهورية، وابلغني تحياته واردف قائلا ان السيد نصوح البخاري لم يتمكن حتى الآن من تأليف وزارته ، وان الرئيس في حالة فشل المشار اليه يفكر بتكليف السيد سليم جنبرت ، وهو يريد ان يستطلع رايك فيه وفيما اذا كنـــت توافق على الاشتراك معه بالوزارة . فأجبت بأني لا ارى ان السيـد جنبـرت جدير بترؤس الحكومة . فهو رجل طيب ولا شك وسمعته حسنة جدا ولكنه لا يتصف بالصفات التي تتطلبها رئاسة الوزارة وان الافضل الاصرار على البخاري وتشجيعه . واما اشتراكي معه او مع غيره فلا يدخل في تفكيري مطلقا ، اذ اني اصرف جهدي في توسيع معمل الشمينتو ولا ارغب في الاشتغال بالامور السياسية . فاجاب الارمنازي بان الرئيس لا يقبل لك عذرا وهو يصر على دخولك الوزارة القادمة وهو يحبك ويعتمد عليك كثيرا . واسر الي بان الرئيس صرف نظره عن جماعة الكتلة وهو متالم من مواقف جميل مردم وسعد الله الجابري ، بصورة خاصة ، ويريد ان تضم الوزارة الجديدة عناصر قوية محايدة تستطيع مجابهة الكتلويين بما تتحلى بها من السمعة الطيبة والمقدرة على ادارة شؤون البلاد بهذه الآونـــة العصيبة . وبعد انتهاء المحادثة زارني السيد البخاري مسلما وروى لي تكليفه بالوزارة واضاف انه لم يعط جوابه القطعي بانتظار عودتي والتشاور معي ، فشجعته على المضي بدون تردد فاشترط اشتراكي معه بالحكم ولم يقبل المعاذير التي قدمتها له . فسألته عن الشخصيات التي يفكر بادخالها الوزارة فقال : حسن الحكيم وسليم جنبرت ومحمد خليل المدرس . وكان اولهم من جماعة الدكتور شهبندر المناوئين للكتلة الوطنية ، والآخران حياديين . وكان لثلاثتهم مـــاض ناصع وسمعة طيبة .

وكانت تربطني بالسيد البخاري صلة قربى ، باعتباره زوجا لابنة خالي ، وصداقة متينة منذ مصاهرته اياي . ولم اشأ برفضي الاشتراك معه بهذه المحاولة ان اجعله ينصرف عن قبول تأليف الوزارة فسألته عن خطته في قضية الملاحق . فاجابني انه اتصل بالمفــوض السامي مسيو بيــو واخذ منه موعدا بصرف النظر عنها وتقديم المعاهدة كما هي الى البرلمان الافرنسي . وكان تأكيد السيد البخاري في هذا الموضوع حافزا لي على الاقدام ، فاعلمته بموافقتي.

وفي اليوم الثاني دعانا رئيس الجمهورية اليه وجاء الوزراء المرشحون . فعرض علي تولي وزارة الداخلية فابنت للرئيس رغبتي في عدم البدء باعمالي الحكومية في وزارة لها شأن كبير ، واكتفائي بوزارة العدل التي لا تتعدى اعباؤها انتقاء القضاة الطيبين . فنزل الرئيسان عند رغبتي واضافا على اعبائي وزارة الخارجية التي كانت شؤونها حتى ذلك العهد بيد الافرنسيين وليس لدى خارجيتنا سوى ثلاثة موظفين بمرتبة سكرتير وهم عدنان الاتاسي وعون الله الجابري واسعد هارون .

وابدى السيد حسن الحكيم رغبته بتولي وزارة الداخلية ، الا ان السيد الاتاسي خشي تصادمه فيها مع الكتلة ففضل ان يتولاها رئيس الحكومة . وعلى ذلك تالفت الوزارة على الشكل الآتي :

نصوح البخاري : رئيس الوزراء ووزير الداخلية ووزير الدفاع الوطني

خالد العظم : وزير العدلية والخارجية

حسن الحكيم : وزير المعارف

محمد خليل المدرس : وزير المالية

سليم جنبرت : وزير الاشغال العامة والزراعة

ووقع الرئيس على المراسيم بتعيين الوزراء .

ثم بحثنا علاقة الحكومة بمجلس النواب الذي كان جميع اعضائه من الكتلة الوطنية ، وما اذا كنا نستطيع الحصول على ثقتهم فيما لو تقدمنا امامهم. وابدى الرئيس رغبة في استدعاء رئيس المجلس السيد فارس الخوري لاستشارته . وحين حضر ، ابلغه خبر تأليف الوزارة فابدى رئيس المجلس ترحيبه الشخصي بها ، ولكنه لم يعطنا اي ضمان بامكان الحصول على الثقة لان جماعة حزبه لا يتقبلون تاليف وزارة يراسها وتشترك فيها شخصيات سبق لهم معارضة الكتلة .

فذكرت للسيد الخوري ان رئيس الوزارة يعتقد امكان الوصول الى تصديق المعاهدة استنادا الى حديثه مع المفوض السامي ، فيجدر بالمجلس ان يترك له الفرصة لتحقيق هذا الهدف الذي هو في الواقع هدف رجال الكتلة . وعلى فرض الفشل ، فالحكومة تستقيل وتعود الحالة لما هي عليه الآن ، فلا نكون خسرنا شيئا ، بل قمنا بتجربة

اخيرة على غير ايدي الكتلويين الذين قد يكون وجودهم هو العائق الحقيقي لتصديق المعاهدة وتنفيذها .

ولم يكن خافيا علينا عقلية جماعة الكتلة ، وهي انها لا تتقبل بارتياح تحقيق آمال البلاد على ايدي سواهم . فهم انانيون من هذه الناحية . وقد يفضل الكثير منهم العودة الى السلبية على ان يروا غيرهم ، وبالاحرى اخصامهم ، ينجحون في الوصول الى ما لم يصلوا هم اليه .

وبعد ان تناولنا هذا البحث من جميع نواحيه اتفق الراي على اصدار مرسوم بتأجيل مجلس النواب شهرا واحدا . وبما ان مدة الدورة النيابية تنتهي بانتهاء ذلك الشهر ، فلن يجتمع المجلس في هذا الصيف ، فيكون امام الحكومة مجال طويل لمعالجة الموقف السياسي، فاما اتفاق مع الافرنسيين وعندها يدعى المجلس لدورة استثنائية ، واما اخفاق فتستقيل الحكومة .

وقد قوبلت الوزارة بالترحاب والارتياح لدى الاوساط . اما النواب فانصرفوا ، كل الى بلده . وهدأت المدينة بعد الاضطرابات التي قامت في اواخر ايام وزارة مردم .

وانحصر جهد رئيس الوزراء بتحقيق ما ظنه واصلا اليه في المضمار السياسي. وانتظرنا عودة المفوض السامي من باريز لنطلع على ما تحويه جعبته من المشاريع وما يحمله من الخطط . ووصل المشار اليه الى دمشق في الثاني عشر من شهر ايار والقى في الاذاعة خطابا استمعنا اليه في دار رئيس الوزراء ، بينما كان مندوب المفوض السامي ، مسيو دوهوتكلوك ، يطلع الرئيس على نص الخطاب بمذكرة خطية . فجاء الخطاب المذكور قاضيا على الآمال التي كانت تراودنا لحل الازمة السياسية ، اذ ورد فيه ان المعاهدة لا بد من ادخال بعض الاضافات عليها لتستطيع الحكومة الافرنسية عرضها على مجلس النواب . فاستاء السيد نصوح البخاري مما اعتبره تراجعا من المفوض السامي عما كان وعده به ولذلك قبل رئاسة الحكومة . واعلن السيد البخاري عن رغبته في الاستقالة لموافقته على رغبته هذه. وفي اليوم التالي استقبل المفوض السامي اعضاء الوزارة بمجموعها وكان الى جانبه مندوبه في دمشق مسيو دوهوتكلوك وكبار موظفيه . وبدأ المفوض السامي حديثه بما لا يخرج عن مضمون خطابه ، وهو انه مستعد لبحث الاضافات بدون بيان كنهها ومداها . فاجابه الرئيس البخاري بانه

تأزم العلاقة السورية ـ الفرنسية واستقالة حكومة البخاري

قبل مهام الحكم على اساس ابرام المعاهدة كما هي ، وانه لا يوافق مطلقا على اي تعديل . فعاد المفوض السامي يشرح استحالة تنفيذ هذه الفكرة ، نظرا لموقف البرلمان وكبار قواد الجيش الافرنسي المعارض لعدم التعديل . ورغبت في ان اطلع ، ولو بصورة سطحية ، على الاضافات التي يتطلبها الجانب الافرنسي ، فسالت المفوض عن محورها ودائرة اتساعها . ولكن الرئيس البخاري لم يدع مجالا للجواب ، اذ انتصب واقفا وقال بلهجة حازمة : لا اوافق مطلقا على الدخول في اي بحث بهذا الشأن ، ومد يده للمفوض السامي وصافحه مستودعا وخرج من البهو . فلحقناه وسرنا راسا الى القصر الجمهوري ، حيث اطلعناالرئيس على ما جرى وقدمنا له استقالة الحكومة .

واذا اردنا التعمق في بحث الموضوع وجدنا ان الافرنسيين ، بعد ان كانوا تحت ضغط الحوادث وبفضل حكومة اشتراكية على راس الحكم ، قبلوا بمعاهدة ، مهما قيل عن مساوئها من الوجهة السورية ، فهي على كل حال تنهي انتدابهم وسيطرتهم على بلادنا ، تراجعوا — بعد ان انسحبت الحكومة الاشتراكية من الحكم وتسلمه مسيو دالاديه — عن رغبتهم في التفاهم النزيه مع السوريين . وهكذا استطاع كبار المستعمرين الحؤول دون عرض المعاهدة على البرلمان . وقد دعمهم بذلك رؤساء اركان الجيش وفي مقدمتهم الجنرال كاترو الذي نشر عدة مقالات ضد المعاهدة في صحيفة لها وزنها ونفوذها في الاوساط السياسية . ومما يؤسف له ان الشيخ تاج الدين الحسيني الذي كان مقيما في باريز عمل كثيرا هو وانصاره في مقاومة المعاهدة ، لا اعتقادا منه بضررها على سورية ، بل نكاية بجماعة الكتلة الوطنية بدمشق ، لانهم اقصوه عن الحكم .

مطالبة الاتراك بلواء الاسكندرون

ومن جهة ثانية ، فقد كانت الحكومة التركية ، اثر عقد تلك المعاهدة ، تقدمت الى الحكومة الافرنسية بمذكرة طالبت فيها بلواء الاسكندرون ، مدعية انها اذا كانت قبلت في عهد الانتداب الافرنسي بالوضع الخاص الذي يتمتع به ذلك اللواء ، فانها لا توافق على استمرار ذلك الوضع عندما تتخلى فرنسا عن انتدابها وتسلم الى السوريين بموجب تلك المعاهدة ادارة شؤون بلدهم ، بما فيها اللواء ، بدون اشراف الافرنسيين . وكانت هذه الحجة سخيفة بحد ذاتها ، ولكن الاتراك كانوا عالمين برغبة الانكليز والافرنسيين في الاتفاق معهم وعقد معاهدة تحالف يجلبون بها تركيا الى جانبهم . وكانت

المحادثات الرسمية وشبه الرسمية دائرة بين وزير خارجية تركيا رشدي آراس وبين ساسة الانكليز والافرنسيين . فتمسك الجانب التركي بضم الاسكندرونة. وآزرهم الانكليز فضغطوا على الافرنسيين بقبول ذلك الالحاق . ولم يستطع الساسة الافرنسيون ، رغم صك الانتداب الذي يمنع الدولة المنتدبة من التنازل عن اراضي الدولة المنتدب عليها ، الصمود امام ضغط الانكليز . ثم انهم اعتقدوا من جهة ثانية انهم بتنازلهم عن اللواء المذكور قد امنوا بقاءهم في سورية مطمئنين الى عدم تحرش الاتراك بهم في الشمال. وهكذا عقد وزير خارجيتهم ، مسيو جورج بونه ، مع السيد آراس اتفاقا تقضي على اللواء بالانضمام الى تركيا نهائيا .

ولم يخف على الافرنسيين استحالة تنفيذ هذا الاتفاق بظل المعاهدة وبوجود حكومة وطنية في سورية ، فكان ذلك هو السبب الحقيقي لعدولهم عن المعاهدة وسعيهم لاحراج موقف الحكومة السورية باعلان رغبتهم باضافة الملاحق التي لم تكن البلاد لتقبلها . وهذا هو الباعث ايضا لاثارة الافرنسيين نعرة الطائفية والعنصرية في محافظة الجزيرة ، مما اوقع الحكومة السورية بمآزق حرجة اسهمت في حملها على الانسحاب من الحكم .

ولما استقالت حكومتنا وفشل رئيس الجمهورية في مساعيه لتاليف حكومة اخرى ، سافر المفوض السامي الى باريز واستحصل على الصلاحيات المطلقة لاتخاذ ما يرتأيه من تدابير تؤمن تنفيذ خططه، ولما عاد اعلن فك ارتباط محافظتي الاسكندرونة وجبل الدروز عن الحكومة السورية ، فتازمت الحالة اكثر مما سبق كثيرا .

استقالة هاشم الاتاسي وايقاف الحياة الدستورية

وعلى اثر ذلك كتب رئيس الجمهورية السيد الاتاسي كتاب استقالته وبعثه الى مجلس النواب واعلن عزمه على السفر الى حمص . فاجتمعنا فورا بدار الرئيس البخاري بحضور السيد فارس الخوري رئيس مجلس النواب واتفقنا على ان يدعى مجلس النواب للاجتماع بدورة استثنائية ليتبلغ كتاب استقالة رئيس الجمهورية . وذهب الوزراء الى السراي بعد ان كانوا انقطعوا عنها . واعلن رئيس الوزراء ان استقالة الحكومة لم تقبل بعد ، وانها ستتقدم الى مجلس النواب باعلان ما تم معها ، خلال فترة استلامها زمام الامور ثم تتفاهم مع النواب على ما يجب عمله تجاه موقف الافرنسيين ، وخاصة تجاه سلخ اللواء . ولم يترك الافرنسيون المجال لاجتماع النواب في جلسة تؤدي حتما الى توحيد الصفوف واتخاذ قرارات

معاكسة لسياستهم ، فاسرعوا الى تدارك الموقف واعلنوا في المساء ايقاف الحياة الدستورية ، واغلاق مجلس النواب ، وتعيين حكومة مؤلفة من المديرين العامين للوزارات لتسيير الشؤون الادارية ، ريثما يساعد الحال على اعادة الحياة الدستورية . وتذرعوا لتنفيذ هذه الامور بخلو الحكم بعد استقالة رئيس الجمهورية والحكومة . وعهدوا الى السيد بهيج الخطيب ، مدير الداخلية العام ، برئاسة مجلس المديرين العامين ، وسموا السادة خليل رفعت للعدلية ، وحسني البيطار للمالية ، ويوسف عطاالله للزراعة ، وعبد اللطيف الشطي للمعارف . وكان ذلك في اليوم الثامن من شهر تموز ١٩٣٩ .

والمؤسف ان ايقاف الحياة الدستورية وسلخ اللواء وتعيين حكومة المديرين لم تلق لدى الاوساط الشعبية الاكتراث والمعارضة المنتظرة ، فلم يرتفع في البلاد اي صوت بالاحتجاج على ما جرى ولم تسر في الاسواق اية مظاهرة ولم تغلق الاسواق على عادتها في احوال اقل شأنا في حياة البلاد ومستقبلها . ولم يكن سبب هذا الوجوم تبول الناس ما حصل او ارتياحهم اليه ، بل تفرق الكلمة والنقمة كانت استفحلت ضد الكتلة الوطنية من جراء تصرفات وزارة جميل مردم غير الحميدة ، وتسلط اتباعه على الناس وضربهم ، مما لا يدخل في نطاق هذه المذكرات .

ولم تقم وزارتنا خلال الاربعة والتسعين يوما التي قضتها في الحكم بعمل هام يستحق الذكر ، نظـرا لحصر رئيسها اهتمامه في الناحية السياسية وعزوفه عن كل ما هو غير متصل بها . ولم افد بوزارتي هذه سوى المران على ادارة الشؤون العامة ، مما افدت منه في المستقبل عندما توليت وزارات اخرى او رئاسات للحكومة .

دعوتي للاشتراك في حكومة الداماد احمد نامي

يوم السبت في ٢٢ اذار ١٩٤١ كنت في بيروت لمتابعة بعض المصالح العائدة لشركة الشمينتو . وبينما كنت متأهبا لدخول غرفة النوم بلغت ان احدا يطلبني بالتلفون . فلما حادثته عرفت انه مدير الاذاعة اللاسلكية في بيروت . وطلب مني هذا ان اجتمع به للبحث في امر هام . فقلت له اذا كان الامر لا يقبل التأخير للغد ، فبوسعه ان يحضر للفندق فورا . وعندها اعلمني انه يحادثني من شتورا ، وكنت ظننته في بيروت . فقلت له انني متعب ولا يسعني انتظاره ريثما يصل من شتورا ، اذ تكون الساعة قد تجاوزت منتصف الليل . فتواعدنا على الاجتماع في الغد . ولما ازفت الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي،حضر المومأ اليه ومعه شاب آخر . فباداني بالحديث

قائلا ان الازمة السورية قد تفاقم امرها واستعصى حلها بعد ان انقطعت المخابرات مع عطا بك الايوبي بسبب اصراره على المطالبة بالوضع الشرعي ، نزولا عند راي الكتلة الوطنية . وهذا ما كان رفضه المفوض السامي . وقال ان المفوض السامي استدعى الداماد نامي احمد بك وكلفه تسلم الحكم،وان المداولات التي جرت بينهما ادت الى تفاهم على امور هي في مصلحة البلاد ، وان الداماد ارسلهما لتكليفي بالتعاون معه، على ان اتولى رئاسة الوزارة. فقلت لهما ان امورا هامة كهذه لا استطيع بت الراي فيها قبل الاجتماع مع الداماد والاطلاع على كنه مذاكراته مع المفوض السامي . فاقترحا علي الاجتماع به فورا ، فقبلت واجتمعت به واطلعني على حديثه مع المفوض السامي واتفاقه على عدة امور ، منها اشتراك الحكومة السورية في ادارة امورا الاعاشـــة واطـلاق سراح المسجونين السياسيين وايجاد مجلس استشاري ومجلس شورى يناط به درس المراسيم الاشتراعية ، وغـير ذلـك مـن الامور لتحديد سلطة المستشارين . فاجبته بان الاعاشة يجب ان تستلمها الحكومة لا ان تشترك فيها فقط . وبينما نحن في اخذ ورد جاء رسول يستدعي الداماد لعند المفوض السامي ، فاجابه بانه مجتمع معي ويرجو تاجيل الطلب قليلا . ولكن المفوض السامي اصر عليه بالحضور حالا وطلب مرافقتي للدامـــاد . فذهبنا واستقبلنا مـــع مدير الغرفة الدبلوماسية ، مسيو كنيتي .

وعرفني الداماد هكذا : « اقدم لفخامتكم وزيري الاول » . وهـــذا التعبير له معنيان : اما الاشارة الى اني رئيـس وزرائه باعتباره طامعا برئاسة الدولة ، واما الاشارة الى اني اول وزير يقبل التعاون معه . ولكنني ارجح الاحتمال الاول . فبدأ المفوض حديثا طويلا عن الازمة وعن رغبته في انهائها . وقال ان رفض الكتلويين التعاون معه ، الا على اساس اعادة رئيس الجمهورية والمجلس النيابي والحياة الدستورية ، ادى الى قطع الاتصال معهم ومع عطا بك الايوبي ، وانه كلف الداماد باستلام الحكم على اساس برنامج وقرار اعطاني مشروعهما . فلما قراتهما اجبته بان استلام امور الاعاشة شرط اساسي لقبولي مبدئيا بالتعاون . وبعد مناقشة قصيرة عـــدلت احدى فقـرات البيان بحيث تصبـــح ادارة الاعاشة عائدة للحكومة في سورية ، اما الامور التي تتناول لبنان وسورية (كقضية القمح مثلا) فتشترك الحكومة السورية فيها . ثم بحثنا

كيفية سن المراسيم التشريعية . وكان المشروع المقدم لي يقضي بأن يدرس مجلس الشورى المشاريع التي تبعث بها الحكومة اليه فيقرها ، ثم تصدر بمراسيم . اما اذا اختلف المجلس مع الحكومة ، فيعود البت في الخلاف الى تحكيم المفوض السامي . فرفضت هذا الحل . وبعد الجدل الطويل وضع النص بشكل يؤمن هيمنة مجلس الوزراء الذي له الحق بطلب اعادة المذاكرة عند الاختلاف ، فاذا اصر مجلس الشورى على رايه اصبح رئيس الحكومة حرا بالتصرف على الشكل الذي يرغب فيه .

وبعد ان استعرضنا بقية الامور التي كان جرى الاتفاق عليها مع الداماد ، اخذت وعدا من الجنرال بتسليم ادارة الشرطة الى الحكومة ، وبجعل مرجع الدعاوى النهائي في جبل الدروز وبلاد العلويين محكمة التمييز السورية . وسالني المفوض اذا كنت ارغب في اعلامه برايي في امر بهيج الخطيب . فقلت له ان الموما اليه عمل ما استجلب له سخط الراي العام وانني لا استطيع التعاون معه بشكل من الاشكال . فدافع عنه الجنرال دفاعا شديدا ، مبينا ان الخطيب صديق فرنسا ومخلص لها وانــه لا يسعه التخلي عنه . فاخذت المناقشة زمنا غير قصير ، وبالنتيجة اتفقنا على ان يجاز السيد الخطيب مدة ثلاثة اشهر وبعدها ينظر في امره .

وبعد ان انتهى بنا الكلام في جميع هذه الامور قلت للمفوض والداماد اني ساذهب الى الشام وادرس الحالة وآتيهما بالجواب وانصرفا .

وبعد الظهر زارني الداماد في الفندق فتحادثنا في امر الوزارة، فبين لي رايه الذي يتلخص بجعلها خماسية ، فياخذ وزيرين من الهيئة الشعبية ، بناء على ترشيحهما ، ووزيرين من معتدلي الكتلة الوطنية ينتقيهما هو . وقد لاحظت من حديثه انه على اتفاق مع الهيئة الشعبية . وكانت هذه الهيئة قد تالفت برعاية الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وخطتها معارضة الكتلة الوطنية .

وفي صباح اليوم التالي عدت الى دمشق . واول من اجتمعت به كان السيد حنين صحناوي ، ثم السيد بدر الدين دياب . وقد قبل الاول التعاون واصر الثاني على الاعتذار بداعي اشغاله الكثيرة . ولحظت منه ان وجود الداماد هو السبب الاساسي في رفضه .

وفي صباح اليوم التالي زارني المحامي الاستاذ فؤاد القضماني فبدانا حديثا طويلا خلاصته انه هو وجماعة الهيئة الشعبية سعوا

لاجل الداماد ، وانهم هم الذين رشحوني لتاليف الوزارة ، وانهم مستعدون للاشتراك بها على النمط الذي كان الداماد صرح لي به . وقال ان الهيئة قد اجتمعت ورشحت اربعة اشخاص لنختار اثنين منهم . فلما سالته عن اسمائهم اجاب : درويش العجلاني ، والدكتور عبد القادر زهرا ، ونصوح بابيل، وفؤاد القضماني (وهو المتكلم) . واشار بطريقة لبقة الى ان ترشيح العجلاني وزهرا ليس الا صوريا، وان الآخرين هما المرشحان الاصليان . ولما سالته عن رايه بمرشحي الكتلة قال لا لزوم لاستشارتها ، بل ينتقي منها اثنان اكثر اعتدالا من غيرهما .

ولما صارحته برايي في جعل الوزارة حيادية ، اذ ان الوقت لا يسمح بتاليف وزارة قومية (كما اسماها) نظرا لان الآراء غير متفقة ولان القلوب ما برحت ممتلئة بحزازات الماضي ، لا سيما ان دعوى مقتل الشهبندر كانت حديثة العهد ، ظهر على مخاطبي علائم التعجب وعدم الرضى وناقشني كثيرا . ولما سالته كيف يتصور موقفي في مجلس الوزراء بين جماعة كانوا بالامس يكيلون لبعضهم الشتائم ، وكيف لي بادارة شؤون الدولة ، والخلاف بين اعضاء حكومتها قائم على هذا الشكل ، اجابني باننا في الوزارة لا نختلف . ولما طال الجدل وتيقنت من عدم فائدة المناقشة معه ارجات البت في الامر الى ما بعد اتمام استشارتي .

واجتمعت على الاثر بشخصيات عديدة كانت جميعها لا تؤيد حكومة يقوم على راسها الداماد . وكان الداماد يواصل سؤالي تلفونيا عن نتيجة المساعي ، فاجيبه باني لا استطيع الجواب قبل اتمام التشاور . وخلال هذه المحادثات مع مختلف الشخصيات حصلت على وعد بالتعاون من قبل السيد نسيب البكري وحنين صحناوي .

ولما تمت مباحثاتي زرت مندوب المفوض السامي بدمشق، مسيو لافاستر ، واعلمته بنتيجتها واطلعته على هذه النتائج . وحددنا موعد الاجتماع بالساعة السادسة مساء السبت في ٣٠ اذار ١٩٤١ . وكنت افهمت موسيو لافاستر باني افضل ان يكون الاجتماع قاصرا على المفوض ومندوبه وانا .

وفي الوقت المعين توجهت الى قصر الصنوبر في بيروت . ولما دخلت مكتب المفوض وجدته مع الداماد وموسيو كونتي . فكانت مفاجاة غير منتظرة .

وبادرني المفوض بالسؤال عن نتائج مساعي ، فاجبته بان واجبي ابداء الراي بصراحة قد لا تعجب البعض . واوضحت ان الاستشارات العديدة التي قمت بها لدى الشخصيات المختلفة المبادىء والافكار دلت على ان الداماد ليس برجل الساعة . وطلب مني الداماد ان اذكر اسماء الشخصيات التي اجتمعت بهم ففعلت . فاضطرب الداماد وسالني عن الاسباب التي تجعله غير مرغوب فيه ، فاجبته باني افضل عدم ذكرها . ولما الح ، سردت له ان الشعب السوري لا يزال يذكر اسمه مقرونا بحوادث مؤلمة جرت في سورية في عهده اثناء ثورة ١٩٢٥ ــ ١٩٢٦ ، وانه هو شخصيا من الماسونيين الذين تناهضهم حكومة فيشي ، وانه ليس سوري الجنسية . وكانت علائم الانقباض ظاهرة على وجهه . ولما انتهيت قال انه يرغب في الاجتماع بي على انفراد . وطلب من المفوض السامي ان يستقبلنا صباح الغد . فذهبنا سوية الى الفندق حيث بحثنا طويلا وانتهينا الى الاتفاق على ان نذهب الى المفوض غدا ونعتذر عن قبول المهمة التي عهد بها الينا . وكان حديثنا على غاية الود ، بحيث زال انقباض الداماد وبدأ يستعيد مرحه . وخرج من عندي ونحن على اتم وفاق وود .

وكنت استغربت موقف مسيو لافاستر في الاجتماع ، اذ بقي ساكتا ولم ينبس ببنت شفة . ولم يؤيدني قط في بياناتي، مع انه كان موافقا عليها عندما تحادثنا بالشام . فرايت من اللازم الاجتماع به والاستفسار منه عن سبب هذا الموقف واطلاعه ايضا على الاتفاق مع الداماد . فخابرته تلفونيا ، وكان يتناول طعام العشاء في فندق السان جورج . فدعاني للأكل معه ، فذهبت . فلما سألته عن السبب في عدم مساعدتي ، اجاب بانه لم يعتقد ان الداماد سيكون حاضرا وان وجوده منعه عن ابداء الراي بحضوره . على انه ايد اقوالي للمفوض السامي بعد مبارحتنا الاجتماع . ثم اطلعته على حديثي الاخير مع الداماد ، فاظهر ارتياحه .

وبينما كنت انتظر حلول موعد الاجتماع بالمفوض ، هتف لي الداماد قائلا ان لا لزوم لمجيئي اليه للذهاب سوية ، وانه سيأتي راسا الى المفوضية . فتعجبت لاننا كنا اتفقنا ان نذهب سويه . وتنبات بتحول الجو . وفي الوقت المعين وصلت الى قصر الصنوبر وكان الداماد لم يحضر بعد . فلما حضر دخلنا سوية مكتب المفوض وكان هناك مسيو لافاستر ومسيو كسونتي . فبدأ الداماد حديثه

قائلا : « انني اجتمعت مع خالد بك ، فاصر على رغبته في عدم قبول المهمة . اما انا فانني سافكر في الامر . » وكان هذا الموقف مفاجئا لجميع الحاضرين ، لعلمهم بان هذا القول مخالف لما اتفقت معه عليه بالامس . وفكرت فيما يجب علي عمله : هل اكذب الداماد او اسكت؟ وبعد التفكير منعني ادبي عن تكذيبه ، واكتفيت بالسكوت.

فشل الداماد في تاليف الحكومة ودعوتي لتاليفها

وكانت الملائم على وجوه الحاضرين تدل على عدم ارتياحهم لهذا التغيير . واحتار المفوض فيما يجب عمله . وبينما كان السكوت مخيما ، عاد الداماد وقال : « ارجو من فخامة المفوض ان يمهلني للغد ، لانظر في الامر » . فنزل المفوض عند طلبه ونهض دلالة على انهاء الاجتماع . فودعه الداماد . ولما اقتربت لمصافحة المفوض ، طلب مني ان آتي في الساعة الواحدة الى القصر لتناول طعام الغداء . ونزلنا السلم ولما وصلنا الى حيث كانت السيارات واقفة صافحني الداماد قائلا انها كانت فرصة سعيدة ، مهما كان الامر . فاجبته : « ارجو لك حظا سعيدا » وافترقنا . وحين عدت في الساعة الواحدة، قال لي المفوض انه متعجب من موقف الداماد ، وهو يتساءل عن سببه . فقلت له : « علمت بان عددا من اعضاء الهيئة الشعبية حضر الى بيروت ليلا ، ولا بد ان يكون لذلك علاقة بتبدل راي الداماد » . فقال : « مهما كان الامر فاني ملزم ادبيا بانتظار ما سياتي به». وتواعدنا على الاجتماع في الساعة العاشرة من صباح الغد ، اي بعد مقابلة الداماد التي كانت محددة في الساعة التاسعة . وجئت القصر في الوقت المعين ، فقال المفوض ان الداماد قدم له اقتراحا لا يمكن قبوله ، فاعتذر له وشكره وصرفه . ثم كلفني بتاليف الوزارة ، فاجبته باني افضل ان تقبل يا فخامة المفوض باعادة الحياة الدستورية للبلاد واستدعاء هاشم بك الاتاسي لرئاسة الجمهورية التي لم يبت بامر استقالته منها بعد . وطال البحث كثيرا ، وكان رايه انه لا يستطيع الآن قبول هذا الحل ، لان فيشي تعارض معارضة شديدة رجوع هاشم بك الاتاسي والكتلة الوطنية الى الحكم . فقلت له : « على فرض قبولي تولي الحكم ، فلا تنتظروا مني ان احارب الكتلة وغيرها من الهيئات السياسية ، لانني شخص حيادي ولا ارغب في ان يصيبني ما اصاب غيري ممن تولوا الحكم وسايروكم في مناهضة الوطنيين فاصبح مصيرهم كما هو معروف . » وزدت على ذلك قائلا بانني ، على اي حال ، قبل اعطاء الجواب بالقبول او بالاعتذار ارى لزاما علي

الاجتماع مع هاشم بك واستطلاع رأيه . فاذا لقيت لديه تأييدا او تحبيذا اقدمت، والا اعتذرت. وعدت مرة اخرى لاقتراح اعادة الحياة الدستورية ، وقلت انني مستعد لازالة العقبات التي حالت دون التفاهم مع هاشم بك . فاصر المفوض قائلا : « هذا ما لا استطيع عمله باي شكل » .

وقد تأكدت عند ذلك من استحالة التفاهم بين الافرنسيين والكتلويين . وعلى ذلك استودعت الحاضرين وانصرفت . وفي صباح اليوم التالي بارحت بيروت قاصدا حمص . فاجتمعت مع هاشم بك في داره، من الساعة الحادية عشرة حتى الساعة الثالثة .

ولما فاتحته بما انا قادم من اجله اتخذ موقفا جديا وبدأ يكثر من التدخين على خلاف عادته . واخذنا نستعرض الحالة من وجوهها المتعددة، وكان هاشم بك يحلل الامور على عادته تحليلا دقيقا مفصلا لا يشوبه غير التطويل. وبعد ان كان في بداية الحديث متحفظا قليلا برايه ، انتهينا الى وفاق تام عندما تبين له اني سعيت كثيرا لاعادة الحياة الدستورية فلم افلح ، واني اعتبر هذا الدور دور انتقال ، واني ساسعى جهدي للحصول على مـــا لم استطع الحصول عليه حتى الآن . وانتهى بنا البحث الى قوله لي : «ما دام ان استقلال البلاد ومعاهدة ١٩٣٦ لا يمكن الحصول عليهما في ظروف الحرب الحاضرة ، فمن المناسب ان تتولى انت ادارة امور البلاد الداخلية ، لـــا اعهده فيك مـــن الخبرة والنزاهة . واني مستعد لمؤازرتك . » وعلى الاثـــر استدعى نجله عدنان بـــك وقال لـــه : « اذهب الى الشام برفقة خالد بك وبلغ الاخوان — ويعني بهم هيئة الكتلة — باني راض عن استلامه دفة الامور الآن، وان عليهم ان يؤازروه. » وبعد ان تناولنا طعام الغداء على مائدته ، شكرته على ما لقيته من حسن الوفادة والتشجيع ، وبارحت حمص ومعي نجله عدنان .

وصلت الى دمشق في الساعة السادسة مساء ، فعلمت ان الخبر سبقني اليهم ، وان زعيم الكتلة الوطنية شكري بك القوتلي معارض اشد المعارضة لاستلامي الحكم ، حتى انه صرح بان ادارة امور البلاد ليست كبيع كيس من الشمنتو . فشعرت بأن الكتلويين سيعارضون تأليف الوزارة بكل ما لديهم من قوة . وبالفعل وردت علي الاخبار عـــن حركاتهم ومســاعيهم لدى الشخصيات التـــي قد تشترك معي في الحكم لحملهـــا على رفض التعاون معـــي . وكانت اول بادرة ان ارسل لي نسيب بك البكري يعتذر عن الاشتراك معي

ويسحب وعده لي بالمؤازرة . كان ذلك على اثر اجتماع عقد في دار شكري بك ، رفض فيه اقتراح هاشم بك الذي نقله للمجتمعين ابنه عدنان بك . وكان اشد الناس معارضة لي فائز بك الخوري ونجيب بك الارمنازي ولطفي بك الحفار والسيد محمد خير ديلب ، حتى ان هذا الاخير سعى بواسطة قريب له ليحمل حنين صحناوي على الانسحاب من جبهتي . وكان السبب الذي انتحلوه لمعاكستي هو ان البيان الذي اصدره المفوض السامي في اليوم ذاته لم يحو، على زعمهم،ما تطالب به البلاد، مع ان ما طلبوه بواسطة عطا بك الايوبي لا يزيد عما كنت حصلت عليه الا بما يتعلق باعادة الحياة الدستورية. ولكنني كنت حصلت على امور احسن من التي رضوا بها ، بخصوص ادارة امور الاعاشة التي كانت هي في الحقيقة سبب تذمر اهل البلاد نظرا لسوء ادارة الافرنسيين الذين تولوا امرها منذ بداية الحرب . ولم تكن حوادث آذار ١٩٤١ ناشئة عن التعطش الى الحياة الدستورية وانما عن سوء ادارة الحكومة المحلية التي تذمر الناس منها تذمرا استطاع رجال الكتلة استثماره وجعله حركة وطنية .

وأما عن الحياة الدستورية واعادة الجمهورية والمجلس النيابي فان رئيس الجمهورية نفسه كان راضيا عن تسلمي الحكم . ثم أن البلاد لم تكن ساعية وراء اعادة المجلس النيابى الذي خيب آمالها ، ما عدا نفرا قليلا كان يجد في عودة المجلس فائدة خاصة له .

تصميمي على تاليف الحكومة بعد تردد

تجاه هذا الموقف العنيد لم يكن امامي سوى مسلكين ، الاول هو الانسحاب من المهمة التي كلفني بها المفوض ، والثاني هو الاقتحام وتاليف وزارة مهما كلف الامر . اما المسلك الاول ، فكان فيه قتل لعزة النفس ونزول عند راي جماعة وقفوا في الماضي في سبيلي وقفات عديدة كانوا في كل منها يرمون الى ابعادي عن الامور العامة ، لما يعتقدونه فيّ من امكان مزاحمتهم والتفوق عليهم . هكذا كان الامر عندما عاكسوا ترشيحي للنيابة في ١٩٣٦ ، مع أن موقفي خلال حوادث ربيع ١٩٣٦ كان في جانبهم . حتى انني اسمعت المفوض السامي مسيو ديمارتل كلاما لم يجرؤ المنتسبون اليهم مباشرة ان يتلفظوا به . ثم ساندتهم طيلة وجود وفدهم في باريز للمفاوضة على المعاهدة ، بالرغم من انهم ابعدوني عن النيابة وعن وزارة عطا بك الايوبي وعن الوفد . وانا اعتقد انه لو عهد الي باحد هذه الامور الثلاثة لكنت ابرزت فيها مقدرة تفوق تلك التي اظهرها من رشحوهم . وكنت اقابل هذا العمل منهم بقلب صاف وخال من

كل نقمة . وكذلك كان موقفي ازاء قيامهم ضدي عندما رشحني اعضاء مجلس ادارة شركة المغازل والمناسج لرئاسة ذلك المجلس فاحتكمنا الى جميل مردم بك الذي كان رئيسا للوزارة ، فقضى بأن يترأس المجلس السيد شريف النص ، مع ان بين المشار اليه وبيني من الفوارق مـا لا ينكر ، رغـم انني كنت انـا صـاحب فكرة المشروع والعامل الحقيقي في اخراجه الى حيز الوجود . ولكن الحزبية العمياء التي كانت دائما تعمي ابصارهم وتقود حركاتهم دفعتهم تلك المرة ايضا الى الوقوف تجاهي ذلك الموقف المعاكس . وكانت الدوافع هذه لم تبرح عقيدتهم . وكان موقفهم ايضا هذه المرة كمواقفهم السابقة . وقد صعب علي الامر كثيرا وقلت لنفسي انني ان رضخت لهم هذه المرة ايضا فقد انتهى امري في هذا البلد ولم يعد امامي سوى الرحيل عنها . واحمد الله على انه قدر لي رفاقا اوفياء لم يثنوا من عزيمتي ، بل كانوا يزيدونني تشجيعا .

واما المسلك الثاني اي اقتحام الصعاب وتأليف الوزارة ، فمع انه مخالف لطبيعة خلقي — اذ اني احب الابتعاد عن المشاكل وارجح المسالمة في كل امر حتى لو كـان فيه شيء من الضرر لمصلحتي — الا انني فكرت باني لو تركت الامر وانسحبت لما بقي امام المفوض سوى الاحتفاظ بمجلس المديرين الحالي او استدعاء الشيخ تاج الدين الحسيني الذي كان وصل الى دمشق قبل يومين مرسلا من فيشي بطيارة خاصة ومزودا بمال وامر . وكنت اعتقد ان كلتا الحالتين تضر بمصالح البلاد . وكنت اسأل نفسي كيف يجوز لجماعة من الناس يغارون على بلادهم ومصالحها ان يعرقلوا مسعى رجل مثلي لا يضر البلاد ان لم ينفعها ويسدوا جميع المسالك في وجهه وفي وجه غيره من المخلصين حتى ينتهي الامر حكما الى رجل كالشيخ تاج الدين او بهيج الخطيب وكل منهما ناواهم مناواة شديدة اجبرتهم مرتين متواليتين على اشعال نار الفتنة في البلاد لاقصـائهما ؟

وفي اليوم التالي توافدت علي وفود كثيرة تطلب الي قبول الحكم والسير في العمل ، فشجعني ذلك تشجيعا غير قليل .

واجتمعت الى جماعات عديدة فتأكد لي ضرورة الاستمرار على خطتي الاصلية وعدم المبالاة بما هنالك من معارضة قد تزول رويدا رويدا . وكان بـين زواري فريق من التجار اكدوا لي استعدادهم لاعادة فتح متاجرهم اثر اعلان تعييني .

ورغبت في الاجتماع بشكري القوتلي سعيا للتفاهم معه ، او على الاقل لايضاح الموقف . وحصل الاجتماع بدار فارس بك الخوري حضرناه نحن الثلاثة فقط .

وبعد ان اوضحت رايي في الموضوع مفصلا ، قال شكري بك القوتلي انه يعتقد انني اذا اعتذرت اضطر المفوض السامي للقبول باعادة الحياة الدستورية . فاجبته بأن ما لدي من المعلومات الراهنة لا يؤيد رايه هذا ، بل يؤكد انه سيستدعي الشيخ تاج . فقال ليكن ذلك . وفي النهاية صرح لي قائلا : « اننا ، نحن الكتلويين ، لا نستطيع تأييدك حتى ولا الوقوف موقفا حياديا . »

وعند ذلك انبرى له فارس الخوري وقال له انه على غير هذا الراي ، وانه يفضل قبولي الحكم ، وان على الكتلويين ان ينتظروا نتيجة اعمالي ، فان كانت حسنة ايدوني والا فلا . فاضطرب شكري بك لموقف زميله فارس بك وقال : « لا يجوز ان نختلف انت وانا . » فاجابه بأن الامر لم يبت به حزبيا حتى تمنع عنه حرية الراي وبانه هو شخصيا يؤيد خالد بك ويسانده .

وقد انفض الاجتماع على هذا الشكل . وكنت مسرورا من هذه النتيجة لانها ، وان لم تكن طبق المرغوب تماما من حيث التفاهم مع شكري بك ، لكنها على الاقل اثبتت ان موقف الكتلويين اصبح مثلوما .

وكان بين المؤيدين لفكرتي صبري بك العسلي . فكان يشجعني ، مع انه اعتذر عن قبول التعاون معي عمليا . ولكن ، باعتباره ذا راي راجح عند شكري بك وتاثير عليه ، كان لتأييده اياي اثر محمود .

وكان الشيخ تاج مرتاحا الى موقف الكتلويين ، يشيع بين الناس باني ساعتذر ، وبانه سيدعى لتاليف الوزارة . وتجاه هذه المواقف كلها ، قررت نهائيا عدم التراجع . فذهبت الى المسيو لافاستر في الساعة السادسة مساء ، وكنت لم اره منذ اجتماعي معه في بيروت ، وابلغته بقبولي تولي الحكم . فلما سالني عن اسماء الوزراء ،لم اشأ ان اصارحه بانني لم اتفق مع احد بعد ، ما عدا السيد صحناوي ، وذلك خشية من ان يستضعف موقفي . فاجبته بانني بعد تعييني اختارهم من بين الراغبين . وفي الحال اتصلنا هاتفيا بالمفوضية العليا في بيروت وطلبنا منها اصدار قرار بتعييني فورا .

وبالفعل ما ازفت ساعة نشرة الاخبـــار في اذاعة بيروت اللاسلكية حتى اعلن عن ذلك . وتلي قرار تعييني رئيسا لحكومة دولة سورية وقرار تاسيس مجلس الشـورى ، وكانت الساعة الثامنة من مساء يوم ٢ نيسان ١٩٤١ . وبعد ذلـك بنصف ساعة جاءني السيد صبري العسلي وقال لي ان شكري بك طلب منه ان يكتب له بلاغا للاهلين لكي يفتحوا المتاجر . وتلا علي ما كتبه . فقلت له : « كيف عول شكري بك على ذلك ؟ »

فقال : « عندما تأكد من انك سائر حتما ، غير مكترث بموقف الجماعة ، خشي ان تفتح المدينة غدا وان يفهم ان سبب هذا الفتح هو تعيينك . ففضل ان يطلب هو بنفسه انهاء الاضراب حتى يحفظ مكانته وحتى يقال انه هو الذي فتح البلد ، لا انت . »

قلت : « لا باس ، هذه هي عادة الجماعة ، يريدون ان يحتكروا لانفسهم المنافع . اما هذا البيان ففيه تناقض صريح ، اذ ان مبتداه يقول بان البلاد لم تحصل على شيء من طلباتها ، بينما منتهاه يدعو الناس الى فتح المخازن . فان كان هنالك غير ما طلبت البلاد فلم الفتح ؟ والا فليقل ان البلاد حصلت على شيء مما تطلبه على الاقل . وهكذا يكون البلاغ منسجما وموافقا للمنطق والمعقول . »

فاجاب : « هذا الذي سينشر . » فقلت له : « ليكن ذلك . »

وفي الصباح الباكر كان اول زائر جاء لتهنئتي هو شكري بك نفسه . وتوالت بعد ذلك ، اي في اليومين التاليـين ، الخميس والجمعة زيارات الوفود والشخصيات ، من الصباح حتى منتصف الليل . وكانت الوفود مؤلفة من طبقات مختلفة ، منها الموالي ومنها المعادي . وكنت ارد على الخطب والاستيضاحات بهدوء واعتدال وصبر وسعة صدر اعجبت جميع الحاضرين .

ثم بدات استشاراتي لاختيار الوزراء . وكنت عازما على ان ابتعد عن الطابع الحزبي ، والا ادخل في الوزارة اشخاصا اشتغلوا في السياسة من اي فريق كانوا ، وان اقصر اختياري عـلى رجال الاعمال من اقتصاديين واخصائيين. وفي جملة من رغبت في التعاون معهم السيد عدنان الاتاسي ، نجل الرئيس هاشم بك الاتاسي ، لكنه اعتذر واشار علي بالدكتور محسن البرازي ، وكنت لم اتعرف عليه بعد . فاستدعيته من حماه فقبل الاشتراك معي في الوزارة . ثم زارني السيد نسيب البكري واعلن عن استعداده لمؤازرتي بعد

ان كان قد اعتذر قبل يومين ، فلم ار بدا من اجابته الى رغبته . ثم اخترت من بين كبار رجال القضاء السيد صفوت قطراغاسي ، الرئيس الثاني لمحكمة التمييز . وهكذا انتهت استشاراتي واصدرت مرسوما بتعيين الوزراء على الوجه التالي :

خالد العظم : رئيسا للوزراء ووزيرا للداخلية ، نسيب البكري : وزيرا للزراعة ، صفوت قطراغاسي : وزيرا للعدلية ، حنين صحناوي : وزيرا للمالية ، محسن البرازي : وزيرا للمعارف .

وكانت الوفود والهيئات التي تأتي لزيارتي وتهنئتي تسأل عن مصير المعتقلين في النبك ، فكنت اطمئنهم واعدا بقرب صدور الامر بالافراج عنهم . وبالفعل ، لم يمض على تعييني اسبوع واحد حتى اصدر المفوض السامي ، بناء على الحاحي ، امرا باطلاق سراحهم .

وكانت المدينة قد فتحت متاجرها وعم السرور بانفراج الازمة وخروج المعتقلين . وعادت المياه الى مجاريها الطبيعية ولم يعد ثمة من يطالب بعودة الحياة الدستورية سوى جماعة الكتلة الوطنية الذين استمروا ينادون عند كل فرصة سانحة بعودة الاوضاع السابقة ، دون ان يتوصلوا الى اثارة الشعب واغلاق المخازن ، كما فعلوا في شهر آذار السابق عندما تمكنوا من الاستفادة من سخط الشعب ومن عبث حكومة المديرين في مصالح البلاد وتشبثها بزيادة ثمن الخبز ، فحرضوا الناس على اغلاق المتاجر احتجاجا على ذلك . ثم طوروا الامور وصوروها بانها ثورة البلاد ضد الوضع السياسي ورغبة في العودة للحياة النيابية .

عودة الهدوء الى البلاد بعد تأليفي الوزارة

وباشرت اعمالي بتعيين اعضاء مجلس الشورى الذي عهد اليه بدراسة مشاريع المراسيم الاشتراعية . واخترت له رئيسا الاستاذ عبد القادر العظم ، من كبار رجال الادارة والرئيس السابق للجامعة السورية . وعينت لعضوية المجلس الاستاذ سعيد حيدر ويوسف روكس .

ثم بدات اتصالاتي مع المفوضية العليا لاستلام دوائر الاعاشة التي كان الافرنسيون يتولون شؤونها مباشرة . وانتهت تشبثاتي باصدار مرسوم تشريعي يقضي بتاسيس دائرة خاصة للاعاشة مربوطة برئاسة الوزراء . ثم عينت مديرا لها السيد حسن جبارة . اما قضية تامين الحبوب للبنان فعهدت بها الى لجنة مؤلفة من مندوب سوري ومندوب لبناني تجتمع تحت رئاسة مندوب من المفوض السامي . واستطعنا ، بفضل اشتراكنا في هذه اللجنة ، الحد من

جور سياسة المفوض التي كانت ترجح دائما مصلحة لبنان المستهلك على حساب سورية المنتجة . واصدرت مرسوما تشريعيا يقضي بتخمين حاصلات القمح لدى المزارعين ووجوب بيعهم للدولة ما يعادل ربعها بسعر معتدل ، على ان تبقى لهم الحرية في بيع الباقي بصورة حـــــرة .

اما المجلس الاستشاري الذي صرح المفوض السامي ، اثر تعييني ، بقرب ايجاده ، فكنت ارغب في جعله مجلسا تمثيليا على قدر المستطاع وكما تسمح به الظروف ، وبما لا يتعارض مع نية المفوض باستبعاد اجراء انتخابات عامة خلال الحرب . ووصلت بدراساتي الى ايجاد مشروع بتعيين سبعين عضوا يمثلون الفئات المتعددة من الشعب ، من سياسيين واداريين ومهندسين واطباء ومزارعين وتجار وصناع . وكانت نيتي ان اختار لهذه العضوية اطيب العناصر التي تستطيع العمل الجدي النافع دون التقيد بمظاهر الوطنية فحسب . وحبذا لو كانت الظروف سمحت بتأليف مجلس كهذا ، فلعله كان احدى التجارب . لكن دخول الحلفاء الى سورية بشهر حزيران ، وتمسك الانكليز بنظرية الحـــكم النيابي ، ورغبة الافرنسيين في اسناد الحكم الى الشيخ تاج الدين الحسيني الذي كانوا يعتمدون عليه لاستبقاء انتدابهم ونفوذهم ، قضى على مشروع المجلس الاستشاري .

ولرب معترِض يقول بأن المجالس الاستشارية لا تخرج عن كونها مجالس يعين اعضاءها رئيس الحكومة وزملاؤه الوزراء ، مما يجعلها تحت سيطرة الحكم القائم ، باعتبارها غير مدينة بتشكيلها لراي عام انتخبها .

واني اجيب على ذلك بأن المجالس النيابية لا تختلف كثيرا من هذه الناحية عن المجالس الاستشارية . فاذا كانت الحكومة هي التي تعين اعضاء المجلس الاستشاري ، فالمجالس النيابية وخاصة في بلادنا لا تخرج من كونها مؤلفة من نواب يختارهم الحزب الذي يتولى الحكم ويفرض انتخابهم على البلاد بشتى الطرق والاساليب التي لا تخفى على احد . واما الفرق بين المجلسين من حيث الصلاحية ، وخاصة منح الثقة من الحكومة من قبل المجلس النيابي ، فان جميع الحكومات التي تعاقبت على الحكم بين ١٩٣٧ و ١٩٣٩ ومن ١٩٤٣ حتى الان كانت كلها تنال الثقة من المجلس عنـد تأليفها وتستمر محتفظة بها حتى تقع احداث خارجة من رغبات المجلس ، فيستقيل

رئيس الحكومة ، والمجلس غير مطلع في معظم الحالات على اسباب تلك الاستقـــالة .

اما المجلس الاستشاري المؤلف من خيرة الاخصائيين في شتى الامور ، والقائم على سن القوانين ومراقبة اعمال الحكومه ، فيوجه شؤون البلاد الى ناحية الصواب . فهو خير الف مرة من مجلس نيابي مؤلف من رجال الاحزاب السياسية ، او بالاحرى التكتلات الحزبية الحالية ، اذ لا يجوز لنا تسمية هـذه الجماعات بحزب سياسي ، لان برامجهم ليست واضـحة ، ولان تكتلهم مبني على الانسجـام الشخصي ومؤلف من ممثلي الاقضية واكثرهم اميون لا ياتون الى المجلس الا لتمشية مصالحهم الخاصة او متابعة قضايا ناخبيهم . واما سن القوانين ودراسة اوضاع الـدولة العمرانية والاقتصادية والصحية وغيرها ، فقد دلت التجربة ، بالعدد التافه الذي اصدرته مجالسنا النيابية ، على مدى اهتمام النواب بهذه الشؤون العامة ، كما اثبتت بأن الانتقادات غير البريئة ، والتهجمات على القائمين بالعمل الحكومي ، والاكثار من الخطب الرنانة بقصد كسب الشعبية الرخيصة ، كل ذلك هو خلاصة ما شهدته البلاد بمرارة خلال السنين التي قضتها تحت الحكم النيابي .

لكن الحكم النزيه العادل الذي لا يبتغي سوى خير البلاد و الذي يتمتع بالصلاحيات الكاملة لاصدار المراسيم بعد استشارة هيئة اخصائية تعالج الشؤون العامـــة من سياسية وادارية ومالية واقتصادية وزراعية وعمالية وغيرها دون ان تكون كل يوم عرضة لعرقلة اعمالها من قبل فريق من النواب ــ اللهم ، ان هذا الحكم هو الوحيد الذي يستطيع تسيير الامور على جادة الصواب وايصال البلاد الى ما تتوق اليه من رفعة وسؤدد .

جهودي في سبيل تخفيض اسعار الطحين والخبز

من جملة الاعمال التي قمت بها ما يتعلق بأسعار الطحين والخبز ، اذ كانت هناك جماعة اصحاب المطاحن الذين احتكروا هذه الصناعة والفوا « سنديكا » . وهكذا اغلقوا اكثر المطاحن ، لقاء مبلغ مقطوع ، واستولوا على بقية المطاحن وصاروا يفرضون سعر القمح بالشراء وسعر الطحين في بيعه للمخابز . وقد دلت الاختبارات العديدة التي توليتها بنفسي ، منذ كنت عضوا في مجلس البلدية في دمشق ، على ان الارباح الفاحشة التي كان يجنيها اصحاب المطاحن هي السبب في غلاء ثمن الخبز . وحاولت افهام القائمين على هذه « السنديكا » وعلى راسهم انطون الجلاد ومنير المهايني ،

ضرورة الحد من اطماعهم والرفق بالمساكين . ولكني لم افلح في اعادتهم الى الصواب ، فجزمت بأن اية حكومة تأتي الى الحكم لا تستطيع فرض ارادتها على اصحاب المطاحن ، ان لم يكن في يدها تشريع يجيز لها وضع اليد على العدد الكافي من المطاحن لتأمين حاجة البلد من الطحين بسعر معتدل . فوضعت مشروع مرسوم تشريعي يجيز للحكومة ان تضع يدهـا على المطاحن ، لقاء اجر مقطوع تعينه لجنة من الخبراء . وارسلت هذا المشروع الى مجلس الشورى لاقراره . ولما بلغ ذلك مديري « السنديكا » جن جنونهم وبذلوا ما يستطيعون لعرقلة عملي . وبالفعل بدأت اشعر بأن اعضاء مجلس الشورى يماطلون في دراسة هذا المشروع الذي تقضي الضرورة بسرعة انجازه . فاستدعيت رئيس المجلس وطلبت منه ان يعمل على الاسراع ، فاجابني بأن المشروع ما يزال عند المدعي العام لذلك المجلس ، وهو مستشار افرنسي . وقد طلب منه ارساله الى هيئة المجلس فاجابه بانه لم ينته من درسه .

وكان القرار بتاليف مجلس الشورى يجيز لرئيس الحكومة الا يعتبر بقرار المجلس اذا كان مخالفا للمشروع المقدم اليـه . ولكـن الخطة التي اتبعها المستشار هي عدم ارسال المشروع الى المجلس حتى لا يصدر قرارا ايجابيا او سلبيا . وبذلـك يمنـع عني حـق استعمال صلاحيتي باصدار المشروع ولو بمخالفة مجلس الشورى. ولم يكن قرار المفوض السامي بتاليف مجلس الشورى ينص عـلى وجوب اعطاء قرار المجـلس بمدة معينـة ، حتى اذا انقضت صح لرئيس الحكومة ان يصدر التشريع . وهكذا اصبحت عاجزا عـن متابعة فكرتي . فذهبت الى بيروت وقـابلت المفوض السامي وبينت له الامر بوضوح قائلا له : « ان مستشارك يعرقل عملي ويحول دون تنفيذ خطتي بتخفيض سعر الخبز ، وانت تعـلم ان حـوادث آذار الماضي نشبت بسبب ذلك ، واني لا استطيع الدوام على ممارسة الحكم اذا كنت اجد لدى مستشاريك هذه المعارضـات ». فاجابني بانه في هذه القضية يستصوب خطتي ، ولكنه لا يكتم عني ان تقارير مستشاريه العديدين تاتي اليه تباعا وكلها تشكو اليه انني اسـاير الوطنيين واختار لكبار الوظائف اشخاصا ينتمون اليهم . فاجبته بان هذا صحيح لا اريد ولا احاول انكاره ، واني كنت اشترط حين قبولي الحكم ان لا يطلب مني معاكسة الوطنيين او التنكيل بهم ، ولأن خطتي هي اعطاء الحق لصاحبـه ايا كان . واما مسـايرة الكتـلويين

وارضاؤهم ببعض المناصب فغايتي اجتناب تشويشهم ومعاكستهم، وتسيير امور الدولة بدون ضوضاء . اما المستشـــارون فيظنون ان استقرار الحكم رهن بتحدي اهل البـــلاد ومعاكسة مصـــالحهم ولو كانوا على حق . واما ابعاد الكتلويين عن المناصب ، حتى الصالحين منهم للادارة والعمل ، فهذه خطة ليست خطتي . وقلت : « فماذا كنته يا سعادة المفوض تفضل خطتهم على خطتي التي ترمي الى هــدوء البلاد والقضاء على المظاهرات والمعارضات باسلوب ليس فيه ضرر على المصلحة العامة ، فلك ان تختـــــار غـــــيري لينزل عند رأي مستشـاريك . ولكن لا بد لي ان الفت نظـــرك الى مساوىء تلك السياسـة التي بريدون اقحامك فيها ولا تعود عليك الا بالمتاعب وعلى البلاد بالقلاقل ، وانتم في حالة حرب يلزمكم السعي وراء الهدوء في هذه المنطقة الحســاسـة من العالم . »

فاجابني المفوض بانه لا يقصد باطلاعي على رأي مستشـــاريه مطالبتي بالسير على غير خطتي ، وبانه شخصيا مرتـــاح لما اقوم به من اعمال ، وبانه يشكرني على وصولي الى تهدئة الافكار العامة. واضاف على ذلك مؤكدا انه لو استجابت باريز الى اقتراحاته لكان اوصل سورية الى اهدافها السياسيةومنحها الحقوق الممنوعةعنها، خلال الحرب ، من حياة دستورية وحرية كاملة في جميع النواحي. وتمنى لو تسمح له الظروف القادمة بتسليم اهل البلاد مقــدراتهم ليقوموا بادارة شؤونهم ، مع الاكتفـــاء باســداء النصح والارشاد لخيرهم وصالحهم .

وقد كبر الرجل بعيني اثر هذه التصريحات التي لم يكن لي ان اشك بصدورها عن نية طيبة وصدق واخلاص لسورية وبلاده. ولم يسعني الا اظهار شعور الارتياح وابــداء الشكر العميق . وعدت لمطالبته بحل قضية المشروع الذي انيت لبحثه معه ، فقال لي : «وماذا تريد مني ان افعل ؟» قلت : « ان تصدر قرارا بتحديد المدة التي يستطيع مجلس الشورى الاحتفاظ بمشاريعي قيد الدرس ، حتى اذا انتهت اعتبرت ذلك استنكافا يجيز لي اتخاذ التدبير اللازم واصدار المرسوم التشريعي في القضايا العاجلة والهامة . » قال : « ومن يقدر ضرورة الاستعجال؟» فقلت: «انا.» فسال: «او لا تترك لي حق المصادقة على هذا التقدير ؟» فقلت : « بلى.» وكنت قانعا بانه، على سلامة طويته، لا يعارضني في المستقبل اذا طلبت منه هذه الموافقة . وهكذا اصدر المفوض السامي في اليوم نفسه قرارا يجيز لرئيس الحكومة، بموافقة

المفوض ، ان يبلغ مجلس الشورى استعجال احد المشاريع ، فيتحتم عند ذلك على المجلس ان يعطي قراره خلال يومين من تاريخ استلامه المشروع . وتبعا لذلك اعطى مجلس الشورى قراره بالموافقة على مشروعي وصدر المرسوم التشريعي فخضع اصحاب المطاحن وطلبوا مني عدم تنفيذه واعلنوا موافقتهم على سعر الطحين الذي افرضه عليهم. فانتخبت لجنة خاصة درست الاسعار ونفقات الطحن وحددت سعر كيلو الطحين باقل من سعره النافذ حينئذ . فنزلت اسعار الخبز الى ما يتوافق معها وانتهت هذه المشكلة بما يعود على البلد بالخير ، واصبح لدى البلديات صلاحيات تستطيع ممارستها اذا ما تكتل اصحاب المطاحن ورفضوا الخضوع للاسعار التي تحددها لهم بلدياتهم ، بعد ان كانت عاجزة عن اتخاذ اي تدبير زجري للوقوف في وجه اطماعهم واحتكاراتهم .

واما استقالتي ، فكانت بتاريخ ١٤ ايلول ١٩٤١ . وقد ذكرت تفاصيلها في ما يأتي تحت عنوان « دخول الحلفاء الى سورية ». وهكذا بقيت في الحكم هذه المرة ١٦٥ يوما .

قضية هبوط الطائرات الالمانية في سوريا بطريقها الى العراق

في اليوم العاشر من شهر ايار ١٩٤١ ، كان المفوض السامي دانز مدعوا عندي في دمر لتناول الشاي . وبينما كنت ابحث معه مذكرة كان قدمها اليه بالامس كل من فارس بك الخوري وشكري بك القوتلي بالمطالبة باعادة الوضع الدستوري ، سمعت ازيز طائرات تمر فوق رؤوسنا . ولم ابال بالامر لولا اهتمام الجنرال . فشاهدت سربا من الطائرات متجها نحو المزة . وكان لونها اسود لا يماثل لون الطائرات الافرنسية : فسالت المفوض عن سبب اهتمامه ، فقال لي: « يجب علي ان اعلمك بأمر على غاية من الخطورة ، وهو انني تلقيت برقية من فيشي تنبؤني بان طائرات المانية ستمر من سورية قاصدة العراق، حيث قامت فيها الثورة ضد الانكليز منذ مدة قصيرة ، وبانها ستحط في الرياق والمزة ». وبالحال ادركت خطورة الامر ، فاجبته : « تعلمون يا حضرة الجنرال ان السماح بنزول هذه الطائرات في المطارات السورية وتزويدها بالبنزين يؤدي حتما الى استغلال الانكليز هذا العمل والتحرش ببلادنا سواء بضرب هذه المطارات واصابة المدن القريبة منها كدمشق ، او التشبث باحتلال سورية نفسها ؟ » فاجابني : « نعم اني مدرك كل هذه النتائج السيئة، ولكن ما العمل ؟ » قلت : « تستطيعون مصارحة فيشي بالامر لرفض هذه المساعدة » . فاجاب : « وهل باستطاعتها ذلك ؟ » فقلت : « سواء

استطاعت او لم تستطع ، فانني بصفتي رئيسا للحكومة لا يسعني السكوت تجاه هذه الحال ولا ان اغض النظر عما يمكن ان يلحق ببلادي من الاذى لهذا السبب . فارجوكم يا فخامة المفوض ان تبلغوا فيشي بان الحكومة السورية تستغرب عدم الاكتراث بمصالحها، وبانها لا ترغب في ان تذهب ضحية المصالح المتضاربة في هذا العالم، وبانها تريد ان تخرج من الحرب وهي في منجى من مصائبها. وارجوكم بصفة خاصة ان تتداركوا الامر بحنكتكم ». فاجاب : « انيوحكومتي نقدر هذا الشعور حق قدره ونود تجنب كل ما يؤذي بلادكم التي نحبها . وقد طلبت من حكومتي ان تصر، بحالة عدم استطاعتها رفض المشروع كله، على ان يكون المرور بدون هبوط فيالمطارات السورية، او على الاقل بان يكون الهبوط ليلا وفي المطارات البعيدة عن العمران ، كتدمر مثلا ، اذ يعسر شيوع الخبر ». وانتهت المحادثات باصراري على ما ذكرته سابقا .

ولم يتمكن الجنرال من منع هبوط الطائرات ، فوصلت اسراب منها الى مطارات المزة وحلب والرياق . وشاع الخبر واحتجالقنصل البريطاني . وبعد مدة وجيزة اجتمعت مرة ثانية مع الجنرال، فقال لي : « اظن ان القضية قد سويت ، وان الانكليز اكتفوا بالاحتجاج عندما اكدنا لهم انه لن يسمح بمرور الطائرات». الا ان هذا السكون لم يكن في الواقع الا كالسكون الذي يسبق العاصفة كما سيأتي.

كانت قضية تأمين القمح اللازم للبلاد السورية اهم القضايا التي عالجتها حكومتي . وكنا اصدرنا مرسوما اشتراعيا يقضي بان يؤخذ من الزراع قسم من الحبوب الناتجة في اراضيهم ، فقررت ان اقوم بجولة في البلاد لاشاهد الحالة بنفسي واراقب كيفية تطبيق هذا المرسوم . واعددنا برنامجا للسفر يتناول زيارة حمص، فحلب، فالجزيرة ، ثم حماه .

هجوم الجيش البريطاني على سورية

وفي يوم الجمعة ، ٦ حزيران ١٩٤١ ، بارحنا دمشق الى رياق بالسيارات ومعي وزير المالية السيد حنين صحناوي ، ومستشار الداخلية مسيو فوكنو ، ومدير الاعاشة العام حسن بك جبارة ، والامير كاظم الجزائري مدير الغرفة الخاصة ، وعدد من الكتبة والمرافقين . وفي رياق ركبنا القطار . وكانت ادارة السكة اعدت لنا صالونين خاصين . ووصلنا الى حمص قرب منتصف الليل . فاستقبلنا على المحطة المحافظ حيدر بك مردم بك وقائد الدرك. وبتنا في القطار. وفي الصباح الباكر دخلنا البلد فتوجهنا راسا الى السراي،

حيث عقدنا اجتماعا بحضور رفقاء السفر والمحافظ ومستشار حمص مسيو برتلو، ورئيس البلدية فيضي بك الاتاسي ، وبحثنا قضية تطبيق المرسوم وقررنا الخطة الواجب اتباعها . ثم استقبلنا الزائرين وتغدينا عند المحافظ . وكان فخامة هاشم بك الاتاسي حاضرا الوليمة . ثم عدنا ليلا الى القطار وبارحنا حمص متوجهين الىحلب فوصلناها صباحا . وكان الاستقبال بديعا . وبعد ان استرحنا قليلا في مقر المحافظة عقدنا اجتماعا بحضور المحافظ ورئيس البلدية غالب بك قطراغاسي . وخلال الاجتماع اقبل نحوي الامير كاظم واسر في اذني قائلا : « لقد دخل الانكليز درعا هذا الصباح . » فوجمت وسالته مزيدا من الايضاحات ، فقال : « ربما لدى المسيو فوكتو اخبار مفصلة وهو ينتظركم في الغرفة المجاورة ». فاسرعت اليها وسالته عن الخبر فاكده لي بدون تفصيل . فاتصلنا بالمندوب المسيو دافيد وطلبنا منه الحضور الى السراي ، فحضر وقال بانه تلقى تلك الساعة هاتفا من مسيو لافاستر ينبؤه فيه بأن الانكليز دخلوا درعا باكرا هذا الصباح ، وبأن المفوض السامي طلب منه ان يبلغني لزوم العودة حالا الى دمشق. فقلت له انني ارغب فيان اعلم، قبل ذلك، ماذا قرر الجنرال ، وهل هنالك حرب واقعة ؟ فاجاببنعم، وبأن المناوشات بدات في جميع المناطق المجاورة لفلسطين . فسعيت للاتصال هاتفيا بوزير الداخلية بالوكالة ، محسن بك البرازي. وبعد مدة طويلة اتصلت به ، فشعرت باضطراب يسود جميع الوزراء والاهالي . فطلب مني باصرار ان اعود حالا الى دمشق للاشرافعلى الموقف . وبعد المذاكرة مع مسيو دافيد ومسيو فوكتو والسيد صحناوي ، قررنا العودة الى دمشق بالسيارات ، والغينا الحفلة التي كان دعا اليها المحافظ لتناول طعام الغداء . وكان الخبر لم يشنع بعد في حلب ، حتى ان كثيرا من الذين جاؤوا بعد ذلك الى السراي للسلام علي ، كانوا يطلبون ان تطول اقامتنا فيها للاحتفاء بنا، فكنت اعتذر ولا اصارحهم بشيء .

وبعد ان تناولنا الطعام في نزل بارون ، بصورة مستعجلة، ركبنا السيارات وتوجهنا الى دمشق حيث وصلنا اليها في منتصف الليل .

واطلعت فياليوم التالي على كيفية الهجوم المفاجيء على درعا، ووصول الانكليز ومعهمالافرنسيون الاحرار الىالصنمين، واجتيازهم الحدود في الناقورة ومرجعيون والقنيطرة . وكان الافرنسيون

الفيشيون يعملون ما باستطاعتهم تجاه هـذا الهجوم المفاجيء ـ الا ان قواتهم ومعداتهم كانت اقل مما لـدى خصومهم . وبعد ثلاثة او اربعة ايام بدانا نسمع اصوات المـدافع ونشـاهد في الليل اضـواء تذائفها . وكان الافرنسـيون يعلمون ان الدفاع غير يسير ، الا انهم على غير المنتظر التفوا جميعا حول الجنرال دانـز ولم يشذ منهم الا نفر يعد على الاصابع هرب الى فلسطين والتحـق بالاحرار منهم. وكان الموقف عصيبا . وكنت كلما امعنت النظـر في الحالة ادركت خطورة وجسامة المسؤوليات الملقاة على عاتقي . وكان مما يستدعي الانتباه الزائد هي الحرب القائمة في بلادنا والمصائب التي ستجرها عليها من قتل نفوس ، وتهديم املاك ، وتعطيل مزروعات ، وتـلف اموال ، ثم ما يحصل في اكثر الاحوال المشابهة من اختلال في الامن وتعدي الرعاع على الدور والمخازن والنفوس . واكثر من ذلك كلـه ، المجاعة التي بدات تهدد الشام بشكل محسوس ، اذ انقطع ما كان يرد من الحبوب من جهات حوران . واستاثر الجيش بشاحنات سكة الحديد ، فتعطل استيراد القمح من الشمال وصادرت السلطة جميع سيارات النقل الموجودة بدمشق ، فلم يعد يتيسر ايضا نقل الحبوب بهذه الواسطة . فقلت في نفسي : ما اسعد حظ اولئك الذين تسنموا مقاعد الحكم في امرح الاوقات ، فقضوا وقتهم بغير عمل مجد، وقل من ناواهم . وها انني قد تسلمت مقاليد الامور في اتعس الظـروف التي لم يسبق ان مر على البلاد شبيهها منذ مئات السنين ، الا دخول الانكليز في ١٩١٨ ودخول الافرنسيين في ١٩٢٠ على ان الظروف لم تكن حينئذ مثل ما هي عليه الآن . وتوكلت عـلى الله العزيز القدير وتجلدت بالصبر والحكمة ، عازما على عمـل كـل ما في المستطاع للخروج من هذه الازمة باحسن حال ، مع ما كان ملحوظا من المصاعب والاخطار ، اقلها انه لو وقع اي حادث بالشـام من نهب او قتل، لالصق بي هذا الحادث وقرن باسمي كل ما ذكر .

وفاتحت ذوي السلطة وصارحتهم بعقيدتي وهي عقم الدفاع، وان علينا ان نتخذ الاحتياطات لدرء كل سوء والاستعداد للظروف. وبعد البحث الطويل اتفقنا على ان يعطيني الجنرال دانز صلاحيات غير محدودة . وكتب بذلك كتابا على ان يسلم الي عندما يقرر اخلاء المدينة ، اي مدينة دمشق . ووضعنا مشروع مرسوم اشتراعي رقم ٩/س يقضي باستعمال منتهى الشدة في حالة اختلال الامن. وهذه صورته :

ان رئيس الحكومة السورية

بناء على قرار المفوض السامي رقم /٧٠/ ل.ر، تاريخ ٢ نيسان ١٩٤١، الخاص بتنظيم وممارسة السلطتين التنفيذية والتشريعية في سوريا ،

وبناء على قرار المفوض السامي رقم ٧١/ل.ر، في ٢ نيسان ١٩٤١ ، المتضمن تسميته للحكومة السورية ،

وبناء على الصلاحيات المعطاة من قبل المفوض السامي بتاريخ ١٨ حزيران ١٩٤١،

وبناء على قرار مجلس الوزراء المؤرخ في ١٩ حزيران ١٩٤١ ، رقم ٨٩ ،

وبناء على الحاجة الماسة التي تستدعيها الظروف الحاضرة من المحافظة على الامن العام ،

يرسم ما يلي :

١ ــ تستمر حالة الحصار في الدولة السورية .

٢ ــ تكون جميع قوى الدرك والشرطة عامة تحت امرة قائد قوى الامن الداخلية الذي يعين بمرسوم خاص .

٣ ــ يمنع كل اجتماع في الشوارع العامة وكل مظاهرة وتوزيع نشرات ويلقى القبض على الاشخاص الذين يذيعون اخبارا كاذبة .

٤ ــ يمنع التجول اعتبارا من الساعة العشرين والدقيقة الثلاثين حتى الساعة الخامسة صباحا وتقفل جميع المؤسسات العامة والمقاهي والمطاعم ودور السينما والنوادي خلال المدة المذكورة ، ويستثنى من ذلك الاشخاص الذين يحملون اذنا خاصا بالتجول ، معطى لهم من قائد قوى الامن الداخلية .

٥ ــ ان السفر على الطرقات العامة وعلى الخطوط الحديدية يخضع لاجازة تعطى من قبل قائد قوى الامن الداخلية او من ينيبه .

٦ ــ يحظر تبادل المراسلات البرقية والهاتفية الخاصة بين البلدان . اما في الاحوال الاستثنائية فيعرض امرها على قيادة قوى الامن الداخلية .

٧ ــ كل شخص يخالف الاحكام المتخذة استنادا الى اعلان حالة الحصار يحال الى محكمة الدرك العسكرية .

٨ ــ كل من يرتكب عمل نهب او سلب او تعد على النفوس او على الاملاك الخاصة او املاك الدولة ويرى في حالة الجرم المشهود يعدم فوراً .

٩ ــ كل شخص يرتكب احد الاعمال المذكورة في المادة الثامنة من هذا المرسوم او يشترك فيها اصلا او فرعا وقبض عليه فيما بعد يحال حالا الى محكمة الدرك العسكرية ليحاكم فيها باسرع ما يمكن . وعند ثبوت ارتكابه العمل المنسوب اليه يحكم عليه بالاعدام وينفذ هذا الحكم فور صدوره وتصديقه من قبل رئيس الحكومة .

١٠ ــ يعتبر هذا المرسوم الاشتراعي نافذا منذ تعليقه على باب دار الحكومة في دمشق ، وعلى قائد قوى الامن الداخلية تنفيذ احكامه .

دمشق في ١٩ حزيران ١٩٤١ .

رئيس الحكومة السورية

خالد العظم

وفي اثناء معالجتنا هذه الامور ، بلغنا ان مصرف سورية نقل من دمشق الى زحله جميع ما لديه من عملة ذهبية واوراق نقدية ، وضمنها الستة ملايين ليرة سورية المودعة لديه من الدولة .

اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمجابهة خطورة الموقف

فاستشطت غضبا واستحضرت مدير المصرف ، فيليب سودا ، وعنفته تعنيفا شديدا وقلت له ان عملا كهذا لا يسمى الا سوء استعمال الامانة . كيف يجوز للمصرف ان ينقل اموال الدولة بدون استشارة رئيسها واخذ موافقته ، لا سيما في هذه الظروف التي قد تنجلي عن احتلال دمشق وعزلها عن سائر المناطق السورية ؟ وكيف يتم لنا ، ونحن بدون مال ، ان نؤمن ادارة الدولة ودفع الرواتب ؟ وخابرت المندوب محتجا احتجاجا شديدا ، مهددا بالاستقالة ، اذا لم تعد الاموال الى الشام فورا . وبعد الاخذ والرد ، وافق المفوض على ذلك ، فارسلنا سيارتين مع مدير المالية العام ، حسن بك جبارة ، الى زحلة . فاعيدت الاموال وحفظت في صناديق المصرف ، حيث ختمناها وحفظنا مفاتيحها لدى وزير المالية ومديرها العام . وحضر لعندي في احد هذه الايام مدير الشرطة الكولونيل كويتو وقال لي : « طلب مني الكابتن دانجلي ان اسلمه مئة بندقية من مستودع الشرطة ففعلت » . فقلت له : « كيف يجوز لك ان تخلي مستودع الشرطة ونحن بظروف احوج ما نكون فيها للاستعداد ؟ » فأجاب : « لقد اعطاني بدلا عنها مئة بندقية افرنسية ، لان البدو الذين سلحهم لا يقبلون الا بندقيات موزر ولا يوجد منها الا لدى الشرطة » . فاحتججت لدى المندوب على هذا العمل ، لكن بدون جدوى . وبناء على المحادثات الدائرة بيني وبين رجال السلطة ، اتفقت معهم على انه في حالة توقع الاحتلال يجب ان يكون مدير الشرطة سوريا لا افرنسيا . وابلغتهم بانني ارغب في تعيين الزعيم تحسين العنبري في هذا المنصب فوافقوا . فحضر الزعيم العنبري من حلب وابلغته انه مرشح لاستلام الشرطة والدرك ، وعينته معاونا للكولونيل كويتو مؤقتا حتى يستعد للعمل . ولكن كويتو لم يكن مرتاحا لتعيينه ، مع انه كان ابلغني انه اذا اشتدت الازمة فانه يبارح دمشق مع الجيش الافرنسي الراحل .

اما عن قضية اعاشة البلد ، فكانت مصلحة الاعاشةالافرنسية لم تزل قابضة على زمامها ، لا تتركها لنا فنتدبر امرها ، وذلك رغم كل التشبثات الملحة التي كنا نقوم بها . وكانت هذه المصلحة تقدم لبلدية دمشق ما يلزمها لتامين الخبز بكميات لا تتجاوز استهلاك يومين او ثلاثة ، مما كان يشغل بالنا ويقلقنا ، لا سيما بعد انانقطع الوارد من حوران . على ان اصرارنا وملاحقتنا المتكررة ادت الىعدم انقطاع الوارد من الجهات الشمالية ، بحيث كان لدى بلديتها، عندما تم احتلال دمشق ، ما يكفي الحاجة ثلاثة ايام تقريبا .

وكانت الجيوش الافرنسية المدافعة تتراجع رويدا رويدا حتى وصلت الى الكسوة من جهة ، والى المعضمية من جهة ثانية. وكنت كلما سالت المندوب لافاستر عن الحالة يقول لي : « لا خطر هذه الليلة ». ولم يكن بوسعه ان يتنبأ باكثر من ذلك. وبلغني ان الكابتن دانجلي يعمل لتجنيد الاكراد ، ويغريهم باعطائهم سلاحا . فاعترضت على ذلك مبينا ان هؤلاء القوم لا يمكن ان ينتظر منهم اية فائدة عملية في الحرب ، سوى ان اعطاءهم السلاح يؤدي الى خطر في المستقبل، اذ يبقى السلاح في يد هذا الفريق، فيستعمله في النهب والسلب. ولم تفد اعتراضاتي . واستمر قبول التطوع وتوزيع السلاح والمال. وفي هذه الايام كرر الإفرنسيون طلبهم الي بارسال برقية الى الجنرال دانز اصرح فيها بان السوريين لا يبغون عنهم بديلا ، وانهميستنكرون تعدي الانكليز على سورية . وكانوا قد طلبوا مني الطلب نفسه ، ولكن بشكل آخر، قبل ان تبدا الحركات ، فاجبتهم باني لا اوقع اية برقية ولا اصرح باي تصريح يفهم منه ان السوريين منحازون الى احد الفريقين المتحاربين في العالم، وباني اسعى جهدي لابقي سورية والسوريين بمعزل عن كل المخاصمات ، وباني لا استطيع ان اعمل ما يؤدي الى حشرهم الى جانب احد الفريقين ، وذلك تجنبا للنتائج السيئة التي يجرها على البلاد انضمام سورية او تحزبها لاحد المتحاربين . وعلى الرغم من ان رئيس حكومة لبنان كان قد صرح بما يرضي الافرنسيين ، فاني ظللت على موقفي ولم اعط اي تصريح ولم ابرق اية برقية . فاستاء الافرنسيون من هذا التمنع ولكنني اعتذرت قائلا لهم : « ضعوا انفسكم مكاني ، فان تصريحا يصدر مني بصفتي رئيسا للحكومة يجرها الى المهالك » . فسكتوا جميعا وصرفوا النظر من هذه الملاحقة .

وهكذا دام الحال الى ان اتت ليلة الخميس الواقع في ١٩

حزيران ١٩٤١ . ففي الهزيع الاخير من الليلة المذكورة بدات اصوات الرصاص تسمع من المهاجرين حيث كنت ساكنا . فلما انبلج الصبح واستطلعت الخبر علمت ان فرقة هندية تسربت ليلا الى المزة ومنها الى طريق دمشق — بيروت بالقرب من مخفر كيوان ، وان اصوات الرصاص المسموعة صادرة من هنالك ، حيث يشتبك الهنود مع الجركس. وبلغني بعد ذلك ان الافرنسيين بداوا يرحلون عن البلد ، وان دائرة اركان الحرب تنقل اوراقها ومعداتها بالسيارات نحو حمص . وقد اجتمع لدي منذ الصباح الباكر الوزراء ومحافظ دمشق ومحافظ الشام وكثير من الموظفين والاصدقاء . وكان الخوف شديدا بسبب الانذار الذي كان اعلن عنه تلك الليلة في الراديو ، وكان موجها من الجنرال ويلسون قائد الحملة الانكليزية الى الجنرال دانز يطلب فيه منه اعلان دمشق مدينة مفتوحة والا فانه يضربها صباح الخميس . فقلقت الافكار اشد القلق واستمر الهاتف ينقل لي استيضاحات كثيرة من الناس عن صحة الخبر . فلما سالت المندوب عما يعلمه بهذا الشأن ، وكان ذلك ليلا ، اجاب بانه لا يعلم شيئا . واستفسر من اركان الحرب فاجيب كذلك نفيا . ولم يكن بوسعي الا تهدئة خواطر الناس قائلا : « ان الانكليز لا يقدمون على ضرب مدينة كدمشق لها مكانة عظيمة في العالم الاسلامي والعربي ، وان الجنرال دانز وعدني بانه ، مهما كان الحال ، فان الدفاع عن مدينة دمشق لن يكون من داخلها ، وبانه لا يسمح بحرب في الشوارع ، وبانه اذا توترت الحالة فانه يخلي المدينة وينسحب الى ما وراءها » . فلما بلغ الناس قرار الانسحاب صباح الخميس اطمأنوا وهدأ قلقهم .

وفي الساعة السادسة صباحا حضر لعندي مسيو مونو معاون المندوب ، وكان الاضطراب باديا على وجهه ، وسلمني مظروفا ففتحته واذا فيه كتاب من المفوض السامي بتسليمي الصلاحيات الكاملة . وهو القرار الذي اتفقت معه على اصداره حينما يتقرر اخلاء دمشق . فقلت له : « هل قررتم الاخلاء ؟ » فاجاب : « نعم . وسابقى مع مسيو لافاستر وكافة المستشارين ، ما عدا الضباط والجنود » .

وهذا نص الكتاب المؤرخ في ١٩ حزيران ١٩٤١ .

حضرة صاحب الدولة رئيس الحكومة السورية

بناء على امر حضرة الجنرال دانز المفوض السامي لفرانسا في سورية ولبنان القائد الاعلى لقوى الشرق اتشرف بابلاغكم ما يلي :

« اذا ادت الظروف الى جلاء السلطة العسكرية من دمشق بحيث لا تعود قادرة

على تولي قوى الشرطة والامن ، فهذه السلطة تنتقل عندئذ الى الحكومة السورية وبذلك يصبح رئيس الحكومة السورية ذا صلاحية — بمجرد تبليغه هذه المذكرة — ليتخذ مع مجلس الوزراء جميع الاحكام والتدابير التي تستلزمها الظروف بدون استشارة اية دائرة وخاصة مجلس الشورى » .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

التوقيع : الجنرال دولا ماالاد

يبلغ الى دولة رئيس مجلس الوزراء
لدولة سورية مع الموافقة

فبلغت ذلك الى الوزراء . ونزلنا الى السراي واجتمعنا فورا واذعنا المرسوم رقم / ٩ س المدرج سابقا والقاضي بحالة الحصار وباعدام المتجرئين على النهب والسلب والتعدي على النفوس فوراً . واستدعيت الزعيم تحسين العنبري لتسليمه قيادة قوى الامن الداخلي فجاء متأخرا والنوم ملء جفنيه . فعجبت كيف ينام في هذه الاوقات من هو مدعو لتسلم منصب خطير كبير كهذا .

وبهذه الطريقة اعيد ارتباط الدرك والشرطة بالحكومة المحلية بصورة فعلية ، بعد ان كانت تلك القوى بيد الافرنسيين منذ ربيع ١٩٣٩ . ونشرت بيانا على الناس بعنوان « بلاغ وتحذير » ، هذا نصه :

« في هذا الظرف الدقيق يملي الواجب على الحكومة اتخاذ التدابير اللازمة لحماية جميع السكان في ارواحهم واموالهم من كل اعتداء داخلي .

« وعلى ذلك لقد اصدرت الحكومة اليوم مرسوما تشريعيا رقم/٩س يفرض عقوبة صارمة اقصاها الاعدام فورا على كل من تسول له نفسه الاعتداء على الانفس والاموال .

« انني انصح الاهلين كافة بوجوب الاخلاد الى السكينة ولا سيما عند وصول الجيش الداخل واوصيهم بالا يتعرضوا له بشيء ما .

« واطلب الى اهالي دمشق الكرام الذين يقدرون معي حرج الموقف تلبية هذا النداء والتقيد باحكام المرسوم المذكور بكل دقة وانتباه حرصا على مصالح البلاد » .

دمشق في ١٩ حزيران ١٩٤١ .

رئيس الحكومة السورية
خالد العظم

فاطمأن الناس عند صدور المرسوم / ٩ س بعد ان كانوا

يخشون ان يحل بدمشق ما حل ببغداد قبيل شهر واحد، عندما انسحبت حكومة رشيد عالي الكيلاني ودخل الانكليز مدينة بغداد . فقد استمر النهب والسلب والقتل فيها مدة اربع وعشرين ساعة ، فقتل ما يزيد عن مئتي شخص ونهبت دور ومخازن عديدة . الا ان الصرامة التي توعدنا بها من يخل بالامن حالت دون حدوث ما يعكر الحال . واني لسعيد بان فترة الاحتلال مرت ولم يحدث اي حادث على الاطلاق .

ظللنا حتى الظهر بالسراي نرتقب دخول الانكليز . وعهدت الى محافظ مدينة دمشق السيد توفيق الحياني ان يذهب للقاء الجيش الداخل على سيارة تحمل علما ابيض ، ويبلغ القادمين ان بوسعهم الدخول الى البلد بدون ان يلاقوا اية مقاومة .

واصدرنا من جهة ثانية مرسوما بربط شركة التليفونات بالحكومة المحلية وكلفنا مدير البرق والبريد اسعد البكري باستلام ما بقي من المقاسم التي حطمها الجيش المنسحب ، وبأن يعين موظفين لادارة العمل ويختم بخاتمه مستودع التليفونات ففعل .

وقبيل الظهر جاءني مسيو فوكنو وقال لي : « ان الحالة تبدلت » . فقلت : « كيف ؟ » قال : « يبدو ان التخوف من هجوم الانكليز لم يكن مستندا على اساس ، اذ ان القوة الانكليزية التي دخلت المزة وظنوها مقدمة الجيش ليست الا شرذمة قليلة ضلت الطريق فدخلت المزة واحتلتها . ولكن قوة افرنسية احاطت بها فاسرتها . اما الجيش الذي توجه الى دوما في طريقه الى حمص منسحبا ، فقد تلقى الامر بالعودة الى دمشق » .

فقلت في نفسي ما ابرد دم الانكليز . فالبلد فتحت امامهم وهم عنها لاهون . والخلاصة ، فقد انقضى ذلك اليوم بعد ان عادت كل القوى الافرنسية الى مراكزها وبدأت تحفر الخنادق في شارع الميدان وتنصب الرشاشات وتقيم الحواجز استعدادا للحرب في الشوارع . وكنت على اتصال دائم مع مسيو لافاستر مذكرا اياه بوعد الجنرال دانز بعدم اللجوء الى هذا الاسلوب من الحرب . واني اقول خدمة للتاريخ ان الجهود التي كان مسيو لافاستر يبذلها في حمل القواد العسكريين على تجنب الحرب في الشوارع انقذت دمشق من الدماء والخراب . فكان ، بسبب انقطاع خطوط الهاتف بين مكتبه ومركز القيادة ، يذهب بنفسه مرات متعددة ليقابل القواد ويصر عليهم بالكف عن عملهم . وبهذه

الواسطة ابعد عن دمشق خطر هذه المناوشات المحلية التي لا يخفى عظيم اضرارها . ويجـــدر بالدمشقيين عموما ان يحفظوا للمومأ اليه ذكرى حميدة على حسن تصرفه في تلك الايام العصيبة .

العمل على اعلان دمشـــق مدينـــة مفتوحة ومـــوقف فـــارس الخوري

مرت تلـــك الليلة بهدوء نسبي . وفي صبـــاح الجمعة نزلت الى داري بسوق ساروجه ومكثت هنالك . وقرب الظهر بدأت اصوات القنابل تلعلع في الفضاء فاستعلمت عن ذلك ، فبلغني ان القنابل تسقط على المدينة من نواحي مختلفة وتنزل بالناس اضرارا. فتأكدنا ان الانكليز بداوا ينفذون وعيدهم بضرب المدينة اذا لم تعلن دمشق مدينة مفتوحة فكلمت المندوب بالهاتف وقلت له : « ان وضع الدبابات والرشاشات بقصد الدفاع عن البلد يسبب هذا الضرب، وان الاهالي قلقون على مصيرهم » . فأجابني بأن المعلومات التي لديه تفيد ان الاهالي مرتاحون للدفاع عن بلدهم ، وان ليس ثمة قلق من وجود الجنود في الشوارع. فسألته عن مصدر هذه المعلومات فاجابني بأن الكولونيل كويتو اعلمه ذلك . فاجبته بأن هذه الاخبار غير صحيحة ، لاني اعلم شعور هذا البلد اكثر منه ولان الاهالي يراجعونني شاكين ولا يراجعونه ، فلم استطع ازالة اعتقاده . فخطر لي ان استدعي فارس بك الخوري لاحمله على الذهاب على راس وفد ليقابل المندوب ويعبر له عن عدم الارتياح لهذه الاعمال فيقتنع المندوب بصحـــــة كـــلامي . فكلمـــت فارس بك الخوري هاتفيا واقترحت عليه ان يذهب هو وشكري بك القوتلي وآخرون لعند المندوب . فأجابني بأن سيارته معطلة . فقلت لـــه : « اذهب بسيارة شكري بك » . فأجاب بأنها معطلة ايضا . فعجبت من هذا العطل وقلت له ان الامر من الاهمية بمكان وان في استطاعته ان يتحمل مشقة الذهاب الى دار المندوب مشيا على الاقدام ، ان لم يستطع استئجار سيارة . فاجاب ايضا متعللا باعذار وهمية. فقلت له : « انني مرسل اليك سيارتي لتحضر لعندي فورا » . فحضر وكان الوزراء كلهم مجتمعين عندي .

فقلت لـــه : « انك رئيس المجلس النيـــابي وعليك كمـــا على غيرك ان يقوم بمـــا يستطيعه انقـــاذا للبلد مـــن المصائب التي تتهدده » . وكانت اصوات القنابل مـــا تزال تنفجر وهي تصيب البلد . فاجابني بأن الامر يمكن حـــله بشكل واحد . قلت : « فما هو ؟ » قال : « يمكنك ان تبرق الى الجنرال ويلسون قائد الجيوش الانكليزية فتقول لـــــه بأن البلاد لا تـــريد استبدال الافرنسيين

بكم ، وان عليـــك ان تنسحب ، انت وجيـوشك ، وتعود الى فلسطين » . فبهت لهذا الاقتراح . كمـا بهت جميـع الحاضرين فسألته اذا كان هازلا ، والحالة لا تستدعي الهـزل . فأجاب : « بالعكس ، اني جاد » . فلم اجبه . وظللت ساكتا . فعاد وقال: « اما عن الافرنسيين الذين يقيمون المتاريس في شوارع الميدان ، فاستنادا الـى الصلاحيـات الواسعة التي اعطاك اياها الجنرال دانز ، يمكنك ان تمنعهم من اقامتها . » فاسقط في يدي ، وظللت افكر كيف ان رجالا يصلون الى اعلى المراتب وتضع البلاد باجمعها ثقتها فيهم وتسلمهم قيادها يبدون في وقت الشدائد آ راء عـلى هذا الجانب من السخافة . ثم شكرته على مجيئه وودعته ، بعـد ان تيقنت من ان لا فائدة من البحث معه في هذه المواضيع .

واستعرضت الموقف مـع الوزراء فقررنـا ان يذهب وزير المعارف باسم الحكـومة لمقابلة المسيـو لافاستر وابلاغه مـا لحق بالبلد مـن الاضرار وما اصاب الاهالي من قتل بسقوط القنابل ، والاصرار على طلب اعلان مدينة دمشق مفتوحة من جديد . وذهب محسن البرازي وبلغ المسيو لافاستر وهيئة اركان الحرب قرارنا . ولما يئسنا من حمل السلطات العسكرية على اجابة طلبنا ، قررنا ان نتوجه الى قناصل الدول الاجنبية الموجودين في دمشق طالبين اليهم باسم الحكومة السورية والشعب السوري ان يطلبوا بدورهم من حكوماتهم ان تتداخل في الامر لدى الانكليز للكف عن ضرب الشام بالمدافع . وابلغت المندوب عن عزمي وقلت له : « لقد وقعنا بين نارين ، فانتم لا تخلون الشام ولا تعلنونها مدينة مفتوحة ، والانكليز يضربونها بمدافعهم . واني سارفع الشـكوى الى جميع الدول المتمدنة ضد عملكم وعمل الانكليز » . فطلب مني ان اتمهل ريثمـا يخابر المفوض ويستجلي منه الامر نهائيا من حيث اعتبار مدينة دمشق مفتوحة فوافقت على ذلك .

وقرب الظهر اتاني محافظ مدينة دمشق واعلمني ان ليس لديه من القمح لتأمين حاجة البلاد الا الى يوم الاحد . فأوجست خيفة من انقطاع السكة الحديدية وانعزال دمشق فابرقت الى الجنرال دانز اعلمه بذلك .

وفي المساء هتف لي المندوب قائـلا : « لا بأس من مخابرة القناصل» . فعرفت بان لا امل في اقناع الافرنسيين باعتبار دمشق مدينة مفتوحة ، واوفدت وزير المعارف السيد محسن البرازي الى قناصل

العراق وتركيا والمملكة العربية السعودية طالبا اليهم تدخل دولهم. وقد قام السيد البرازي بمهمته ، والقنابل تتساقط فوق المهاجرين، وقابل كلا من قنصل تركيا والمملكة العربية السعودية فرحبا بمسعاه وابرقا حالا الى دولتيهما بتأييد مطالبنا ، فشكرتهما . امـا قنصل العراق فكان متغيبا .

وانقطع الضرب ليلا بعد ان سقط على المدينة ما يقرب من خمسين قنبلة ، لم يكن اثرها عظيما . وقد قتل عشـر نفوس او خمس عشرة نفسا ، وجرح عدد مماثل .

وقرب منتصف الليل جلت البلد كلها وتفقدت المخافر فوجدت ان بعض المفوضين متغيب عن مركزه . فاستدعيتهم ونبهت عليهم بلزوم التيقظ ، لا سيما في هذه الايام . وقد ساءني ما شاهدته لدى بعضهم من عدم الاهتمام ، كأن الامر لا يعنيهم ولا همبمسؤولين عما يمكن ان يحصل من اضطراب في الامـن . ولا بد لي بهذه المناسبة ان اذكر ان روحية معظم الموظفين ، ان لم يكن كلهم ، هي واحدة من حيث عدم اكتراثهم بالامور وعـدم ادائهم وظيفتهم باهتمام فعلي . ومما يذكر انه في يوم الخميس السابق الذكر، عندما حضرت الى السراي ، لم اجد من الموظفين الا عددا قليلا جدا . وظللت في السراي حتى بعد الساعة الثانية ولم يزد هذا العدد . وهكذا كانت الحال مع بقية الموظفين في الدوائر الاخرى ، حتى من كان منهم ذا اتصال بالامـن كنـائب المركز وغيره . وبعثت خلفهم فوجدت اكثرهم مختبئـا في غير داره . فاستدعيتهم الى السراي ووبختهم على تغيبهم ، فذهبوا الى مراكزهم وهم يظهرون الضجر ويحملون بدون شك على رئيس الحكومة الذي لا يتركهم في دارهم ، بل يجبرهم على القيام بوظيفتهم في هذه الاوقات الحرجة. ثم امرت بقطع راتب ثلاثة ايام عن كل موظف تغيب عـن عمله . الا ان الدوائر المختصة لم تنفذ هذا الامر ، نظرا لتضامن جميع الموظفين معا في رفع الحيف الذي يقع باحدهم مهما كان السبب . وقد شعرت اذ ذاك بعدم استحقاق اكثر الموظفين للمرتبة التي يجب ان ينالوها ، كما تأكدت من اهمـال الموظف السوري عمله بما يخجل . فتراهم — ان لم يكن كلهم فمعظمهم — يتبؤون الكراسي والمقاعـد ويتناولون القهوة والمرطبات صيفـا ، والشاي شتاء ، ويستقبلون ضيوفهم ويعتبرون غرفهـم غرف استقبـال خـاصة، يمزحون ويتكلمون فيها بما هو خارج عن عملهم . وان انت اشرت

الى اخذهم بعمل يعمله او بكتاب يكتبه اهمله للغد . وكذلك فان معاملات المراجعين تدور من دائرة لدائرة ، محالة من موظف لآخر ، فيبلغ بها المطاف الى رئاسة الدولة . ولا يهتم احد بالاسراع في الاجابة ، اكان سلبا ام ايجابا . فالكسل والخمول مستوليان على الدوائر الحكومية بشكل فظيع لا يمكن ان يقضي عليه الا حكومة جريئة وفي اوقات ملائمة .

الافراج عن جميع المعتقلين السياسيين

نزلت صباح السبت كالمعتاد الى السراي ، في تمام الساعة الثامنة . واجتمع مجلس الوزراء لدرس الحالة . وفي اثناء ذلك خاطبني المندوب بالتليفون قائلا : « لقد تقرر اخلاء المدينة نهائيا ، فعليك تدبير الحال . » فبعثت في طلب المحافظ الحياني وقلت له بان يذهب حسب القرار لاستقبال قائد الحملة الانكليزية ويعلمه بالاخلاء . فظهرت على وجه الحياني علائم الخوف والتردد ، فقلت له : « ما بك ؟ » قال : « الجيوش ما تزال تتحارب ، واني ان ذهبت الآن الى الميدان عرضت نفسي للخطر . » فقلت له : « لا يمكننا اعادة ما حصل يوم الخميس من اخلاء ثم عودة الجيش الافرنسي . فالبلد لا تتحمل هذه الاوضاع ويجب علينا تخليصها من هذا المازق . » لكنه ظل يتردد حتى انبرى الامير كاظم الجزائري وقد اخذته العصبية المغربية وقال له : « ان كنت تخاف فانا اذهب محلك . » وكان موقف الامير حميدا ومشكوراً . واظهر مسيو غروله مستشار بلدية دمشق ، استعداده ايضا للذهاب . فعاد الحياني وقبل بمرافقتهم . وذهبوا هم الثلاثة على متن سيارة تحمل العلم الابيض ومعهم دراجتان ناريتان على متن كل واحدة منهما دركيان . وخطر لي في هذه الاثناء امر المحكوم عليهم بقضايا سياسية والمعتقلين في سجن دمشق ، وقلت لنفسي : هذه فرصة سانحة ، للوفاء بالعهد الذي اخذته على عاتقي يوم استلمت الحكم ، وهو اخراج جميع المعتقلين . فعرضت الفكرة على الوزراء فوافقوا واتخذنا في الحال مرسوما اشتراعيا باطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين ، سواء كانوا محكومين ام لا . واستدعيت النائب الجمهوري السيد فؤاد المحاسني واعطيته التعليمات اللازمة ، فذهب فورا الى السجن ودقق اضبارات المسجونين وافرج عما يزيد عن سبعين مسجونا ، منهم من كان محكوما منذ ثلاث سنين او اكثر ، كشاب من بني الطباع حكم عليه في ١٩٣٩ بالسجن المؤبد وهو لم يتجاوز السابعة عشرة من العمر لحمله السلاح الممنوع ،

وكان لهذا العمل صدى استحسان لدى جميع الطبقات . وبتنا ننتظر دخول الجيش ونتنبأ عن كيفية المواجهة الاولى مع المنتصرين.

وقرب الساعة الحادية عشرة سمعنا ضجيج سيارات قادمة الى السراي ، فتطلع البعض من النوافذ وقال : « ها هم قد اتوا » .

استقبال المنتصرين في دار الحكومة

وظللت في مقعدي يحيط بي الوزراء وكبار الموظفين ، ففتح الباب ودخل الحياني ومعه ضابط افرنسي وخلفهما عدد من الضباط الانكليز والافرنسيين . فوقفت مسلما ، فوجه الضابط واسمه الكولونيل « كازو » الخطاب الي قائلا : « لقد جئنا سورية لامرين : الاول طرد الالمان ، والثاني اعلان استقلالكم . » فقلت له اني آخذ علما برغبتكم في اعلان استقلال بلادي ، وفقا للمنشور الذي كان اذاعه الجنرال كاترو بالطائرات يوم ٨ حزيران ، واعلان زوال الانتداب . واني اطلب منكم احترام النفوس والاملاك . »

فقال : « اننا فاعلون ». وانصرف. وقد علمت من الامير كاظم انهم عندما خرجوا من المدينة لم يجدوا امامهم سوى قوة ضئيلة من الجنود غير مستعدة لدخول البلد ، فطلبوا اليهم ارشادهم الى مكان قائدهم . فاخذهم ضابط الى حيث كان ذلك الكولونيل قاعدا ، فصرحوا له بالمهمة التي اتوا من اجلها . وبعد الاستشارة مع رفاقه ركب الجميع السيارات ودخلوا المدينة . ويظهر انهم لم يكونوا يأملون الدخول بهذه السهولة ، فلما وصلوا الى قرب مركز البنك السوري اشار مسيو غروله على السائق بالاتجاه الى دار المندوب اولا ، فاصر الامير كاظم على المجيء اولا الى السراي لمواجهة رئيس الحكومة . ووقف موقفا جريئا وقال له ان رئيس الحكومة السورية هو صاحب الحق باستقبال الداخلين الى بلاده قبل غيره . وهكذا حول الامير الاتجاه نحو السراي،وكان استقبالهم من قبلي على ما ذكر اعلاه . وفيما بعد توجه الكولونيل لزيارة المندوب . وبعد هذه الزيارة حضر جمع غفير من مخبري الصحف الانكليزية والامريكية الذين كانوا يرافقون الجيش ، فامتلأ بهو الرئاسة بهم وبمن كان يدخله عفوا .وبداوا يستوضحون عن الحالة وياخذون الصور ويلقون الاسئلة الغريبة التي اعتاد الصحفيون الامريكيون طرحها . وكان كل واحد من الحاضرين يجيب على تلك الاسئلة بما يعن له . وهكذا اورد بعض الجرائد الاجنبية تصريحات عن لساني لم اكن صاحبها ، مع اني لم اشأ ان اصرح بشيء ما على الاطلاق ، نظرا لخطورة الموقف من جهة ، ولانقباض

صدري من دخول الصحفيين وغيرهم الى البهو بعدد لا ينقص عن مئة شخص ، بحيث اصبح البهو مشبعا برائحة السيكارات الانكليزية واشبه بقهوة عامة منه ببهو رئيس الحكومة . وفيما نحن كذلك واذا بالمرافق ينبؤني بانه تلقى هاتفا من مخفر الميدان ينقل اليه رغبة الكولونيل كوله في زيارتي بعد ساعة وفي ان استقبله في مدخل السراي . فاجبته بصوت مرتفع ان رئيس الحكومة السورية لا يستقبل احدا عند مدخل السراي حتى ولا المفوض نفسه الا في اعلى السلم امام البهو في السراي نفسها . وبالفعل ، حينما وصل المذكور استقبلته في منتصف البهو ورحبت به نظرا لمعرفتي به من قبل. وبعد ان سلم على الحاضرين ادخلته غرفتي الخاصة بجانب البهو وخلوت به. فبدا يصف خروجه من «ازرع» وما جرى معه حتى الآن باسهاب مستفيض وممل ، وسالته عن نيتهم بشأن الحكومة ، مبينا انني ارغب في الانسحاب من الحكم . فقال ان الجنرال كاترو الذي عين مفوضا ساميا سيتناول هذا البحث معكم حين حضوره . فقلت لا باس من الانتظار . وسالني عن الشيخ تاج ، فاجبته ان السلطة العسكرية اخذته الى لبنان منذ عشرة ايام . وسالني عن مسيو لافاستر مظهرا سخطه واستياءه منه حتى انه كان يستعمل تعبيرا غير لائق . فاجبته بأن موقف مسيو لافاستر ، وخاصة في هذه الايام الاخيرة ، كان اشرف المواقف واحسنها بالنسبة لمدينة دمشق اذ سعى لرفع الحيف عنها . فقال انني سأذيقه مرارة السجن ، هو وهذا الخائن دانجلي .

وهكذا استمر الحديث بشكل لم يظهر لي تمسك المذكور باساليب اللباقة بحق مواطنيه الافرنسيين . وقد يكون له بعض العذر بانه خارج من مغامرات الحرب باعصاب لم تهدأ بعد .

وانصرف بعد ذلك الى دار مسيو لافاستر واحتله واوعز اليه بمبارحة الدار فورا . وقد علمت فيما بعد انه اشتبك معه بحديث ليس فيه شيء من المجاملة ، وانه اركبه سيارة نقل وارسله الى فلسطين . فتكدرت من هذا العمل واظهرت اسفي له جهارا -

وفي الساعة الرابعة بعد الظهر ذهبت مع الوزراء والمحافظ الحيباني والامير كاظم الجزائري لزيارة الجنرال لوجانتيوم الذي عين قائدا لمنطقة دمشق،فاستقبلنا بحفاوة وكان رابطا ساعده الايسر بضماد - وقد علمت انه اصيب بشظية . ولاحظت في اثناء الزيارة قلة النظام بين الجنود الافرنسيين ، فكانوا وهم جالسون في الحديقة المجاورة

الغرفة التي كنا فيها يتحدثون باصوات عالية . وكان الجنرال يقوم بنفسه ويطلب منهم السكوت او على الاقل تخفيض صوتهم . لكنهم لم يرتدعوا .

وبدأ الجنرال حديثه باعادة مـا ذكره الكولونيل كوله صباحا بخصوص الغاء الانتداب ، مظهرا محبته لسورية وللسوريين . وكان كلامه لطيفا وجالبا لارتياحنا . فاجبته شاكرا شعوره ومبينا ان حكومتي ليست الحكومة ذات الصفة الشرعية لانها غير منبثقة عن برلمان شرعي ، وانها ما استلمت الحكم الا لتسيير الامور الداخلية .

وكان احد الضباط يدون حديثي بالاختزال . وكان لتصريحي هذا محبذ ومستنكر . وقد اتخذه ، قبل مبارحتي الحكم ، بعض اصحاب الصحف المأجورة حجة علي لعدم بقائي في الحكم . ولكن فاتهم انني قصدت بذلك حمل اولي الامر على اقامة حكومة شرعية ترضى بها البلاد ، بخلاف ما ادت اليه الحالة عند استقالتي . فلم يعد بوسع اولئك الصحفيين ذكر الصفة الشرعية للحكومة التي تألفت وفقا لرغباتهم ولكنها لا تملك اي صفة شرعية بالمعنى المفهوم .

وظهر من حديث الجنرال ان المرغوب فيه هو بقاء الحكومة الحاضرة الى ان يستتب الامر على الاقل . ثم سألني عن حالة الاعاشة من حيث الخبز ، فاخبرته بالواقع فوعد بالاهتمام وطلب من الضابط الانكليزي الذي كان حاضرا الجلسة ان يعنى بذلك .

وكررت له طلبي بان يتحاشى افراد الجيش التحرش بالناس او بالمخازن والدور ، فصـرح بانه اصدر الاوامر الشديدة في هذا الشأن ، وهـي تحول دون ذلك . ثم انصرفنا وفي نفوسنا ارتياح لهذه المقابلة الدالة على رقة الجنرال وتهذيبه العالي .

وفي صباح اليوم التالي علمت بان الكولونيل كوله اتخـذ مكتب المندوب مسيـو لافاستر مـركزا له ، وبانه عين مندوبا محله ، وبانه استدعى الصحفيين وابلغهم ان لا رقابة عليهم منذ الآن ، مع ان المرسوم الذي اصدرناه في ٩ حزيران ١٩٤١ رقم / ٩ س قضى باخضاع الصحف لمراقبة وزارة الداخلية بعد ان كانت دوائر البعثة وحدها تقوم بهذا العمل منفردة . ولم يكن خافيا ان السيد ميشال ابي راشد الذي كان يقوم بالمراقبة في البعثة قد استاء لنزع هذه الصلاحية منه واعطائها وزارة الداخلية ، فتداخل لدى كوله وحمله

على اعلان رفع الرقابة . ولما بلغني ذلك استأت له ولمست بداية التصادم مع الكولونيل المذكور . فحادثته هاتفيا وقلت له ان المرسوم مرعي الاجراء ولا اقبل بتغيير الوضع الحاضر . فأسرع بقبول طلبي واوعز بابلاغ الصحفيين بأن يستمروا على عرض صحفهم على وزارة الداخلية . ولكنه عاد في اليوم التالي عن رايه وامر باطلاق حرية الصحافة وتركها تكتب ما تشاء ، مع تهديد اصحابها باغلاق صحفهم اذا نشروا اخبارا غير مرضية .

مقابلتي للجنرال كاترو وحديثي الطويل معه

وفي اليوم الثالث من دخول الانكليز حضر الجنرال كاترو الى دمشق ودعانا للحضور اليه . فذهبت مع الوزراء ومحافظ المدينة والامير كاظم وكان الاستقبال لطيفا والحديث وديا . فكرر الجنرال وعوده بخصوص الاستقلال وانهاء الانتداب وعقد معاهدة مع سورية تشبه المعاهدة المعقودة بين بريطانيا ومصر .وقال ان حكومة سورية تمثل البلاد تمثيلا صحيحا وشرعيا ستستلم الحكم لتحقيق هذا الاستقلال وعقد المعاهدة . فاجبته بان البلاد ترحب بهذا التصريح وتتمنى قرب تحقيقه . فطلب مني ان استمر بالعمل حتى يحين ذلك الظرف . فكررت له رايي بخصوص الحكومة الشرعية ، فاجاب لا يمكن مواجهة ذلك قبل ان يتم احتلال جميع الانحاء ، او كما قال بالحرف « تحرير البلاد » . فاجبته بقبولي البقاء في الحكم بنفس الصلاحيات الممنوحة لي ، ريثما تتحقق وعوده . فشكرني واظهر ارتياحه من موقف الحكومة في فترة الانتقال التي مرت بالبلاد .

وما قلته له اثناء الحديث الطويل معه : « انك ياحضرة الجنرال عليم باحوال هذه البلاد ، اذ سبق لك ان تسلمت فيها مناصب سامية . وانت تعرف ان بعض صغار النفوس قد يلتمسون هذه الفرصة ، فرصة تبدل المحتلين ، للتشفي من خصومهم واظهار ميولهم تجاهكم بالصورة الملائمة لمصلحتهم . فالوشاة غير قليل عددهم . فهم يلتمسون بذلك التقرب اليكم ، والمنافقون غير معدومين في هذا البلد . فارجوكم الانتباه لما قد يقدمونه اليكم من تقارير مغرضة . واني على يقين من ان حنكتكم وحسن درايتكم وتبصركم تقف حائلا منيعا دون هذه الصغائر » .

فاجابني : « اني اشكرك على حسن ظنك بي ، واعدك بأن اطلعك على الوشايات . » فذكرت له بهذه المناسبة ما بلغني من ان محمد سعيد بك اليوسف ، وهو من زعماء الاكراد ، قد طلب منه

الكولونيل كوله ان يعيد جميع السلاح الذي كان تسلمه الاكراد من الكابتن دانجلي ، وان الكولونيل هدده بالحبس اذا لم ينفذ ذلك خلال اربع وعشرين ساعة . واضفت الى ذلك ان الوشاة بدأوا اعمالهم واثاروا غضب الكولونيل الذي لا يعلم موقف سعيد بك البريء من هذا العمل الذي لم يتداخل فيه مطلقا . فاجاب الجنرال : « طالما انك تشهد له هذه الشهادة الحسنة فاني سوف امهله المهلة الكافية ليسعى لدى الاكراد ليحملهم على اعادة السلاح . » فشكرته وقلت له : « انني متاكد من ان سعيد بك سيسعى جهده لاعادة السلاح ، مع انه ليس له يد في توزيعه » .

ثم صرح لي الجنرال بانه يرغب في اعادة دائرة الامن العام وتعيين احد الضباط الافرنسيين رئيسا لها . فقلت له ان الامن مربوط بوزارة الداخلية حسب المرسوم الذي اصدرته عطفا على الصلاحيات الممنوحة لي ولا اقبل باعادته . وانه اذا كان يشك باقتداري على حفظ الامن فبوسعي الانسحاب من رئاسة الحكومة . فقال : « لا . لا . لا . ان مديرية الامن العام ستعالج الامور التي تهمنا مباشرة كتعقب الجواسيس والاجانب ومساعدة الجيش فقط» . فقلت له : « اذا كان المقصود مراقبة الاجانب ، لا سيما المشبوهين منهم وتسهيل مهمة الجيش من هذه الناحية ، فلا باس من ذلك بشرط ان لا كون أسم هذه المصلحة مديرية الامن العام تحاشيا للالتباس في الاسماء . » فقبل بذلك .

وفي النهاية قال لي بانه سيكتب الي رسميا طالبا بقائي في الحكم بموجب الصلاحيات التي كنت اتمتع بها في ١٩ حزيران ١٩٤١ ويجدد وعوده بخصوص الاستقلال وزوال الانتداب واقامة حكومة دستورية عندما يتم تحرير البلاد ، فوافقته على ذلك . وودعناه وفي قلوبنا شعور طيب من هذه المقابلة . وكنا نلهج بذكر لباقة الجنرال وانسه ولطفه .

ومر يومان على هذه المقابلة ولم يردني الكتاب المنتظر . ورأينا ضرورة الحصول على هذه الوثيقة النافعة للبلاد ، اذ ان المناشير الملقاة من الطائرة لا يمكن ان تكون مثل وثيقة سياسية رسمية حاملة توقيع الجنرال نفسه . وبعد المذاكرة في مجلس الوزراء كتبت له مذكرا بوعوده ، فتلقيت منه جوابا لا يخرج عن نص المنشور الذي اذاعه في ١٩٤١/٦/٨ . ولا بد لي من الاشارة الى ان احدى فقرات كتاب الجنرال كاترو نصت صراحة على ان الشعب السوري سوف

يمتلك حق اختيار الشخصيات التي يجدها اكثر كفاءة لتسلم مقدراته وتحقيق رغبـــــاته .

ولم يكن يخطر بالبال انه سوف لا ينقضي على هذا الوعد الصريح شهران ونصف الشهر حتى يدعو الجنـــرال كاترو نفسه الشيخ تاج ويسلمه مقدرات البلاد ويعينه رئيسا للجمهورية . وكأن الشيخ تاج منبوذا من الناس كما هو معروف لدى العامة والخاصة ، لا يميل اليه الا نفر قليل من اتباعه المتعممين الذين انضم اليهم في المدة الاخيرة جماعة الشعبيين عندما شعروا ان النية متجهة لاعادة السيد هاشم الاتاسي الى رئاسة الجمهورية واقامة حكومة حيادية لا تشفي غليلهم ولا تؤمن اطماعهم . وكل ذلك سيجيء بحثه .

الجنرال كاترو يخلف بوعوده ويسلم الحكم للشيخ تاج

فلما نشرت الحكومة بيان الجنرال ولم تنشر نص الكتاب الذي كنت ارسلته اليه ، قام البعض مستفسرا عنه وطلب نشره . فلم نشأ ذلك لعلمنا بأن الكتاب ليس به ما يستحق الذكر ولم نرسله الا لكي نحصل على جـوابه .

على ان البعض الاخر بدا يدقـــق في كتاب الجنرال وكلماته بالمجهر ويفسر كل كلمة ويفندها ويقدم ملاحظات على ما جاء فيه من ان المعاهدة سوف تكون معاهدة استقلال وضمان ، وان الضمان يناقض الاستقلال ، الى اخر ما جاء هنالك من الابحاث النظرية ، مبينا انه غير راض عن هذا التصريح . ولم يكن هذا الفريق ليتنبأ بما ستؤول اليه الحال ، ولا الى التصريح الذي اعطاه الجنرال فيما بعد الى الشيخ تاج لما ولاه الحكم ، ذلـــك التصريح المبهم الذي لا ينطوي على شيء من آمال البلاد واهدافها .

وفي اليوم الثالث من دخول الحلفاء دمشق علمت بأن الشرطة اوقفت شابين ، بناء على طلب الافرنســـيين ، هما الدكتور منير السادات وعبد القادر الميداني ، وبأنها تتعقـــب سبعة اخرين . فاستدعيت في الحـــال العنبري واستوضحته فقـــال : « طلب الي الكولونيل كوله ان اوقف هؤلاء الاشخاص ففعلت . » فقلت لـه : «انت مربوط بالكولونيل كوله ام بوزير الداخلية؟» فقال : «بالثاني» . فقلت : « هل استشرتنى في العمل ؟ » فقال : « لا . » قلت : « الم يخطر في بالك اعلامي على الاقل ؟ » قال : « لقد تلقيت الامر قرب منتصف الليل فلم استنسب ازعاجك . » فبدات بتأنيبه وتوبيخه وقلت له : « اني آمرك الوحيد ، بصفتي وزيرا للداخلية ورئيسا للحكومة ، وليس عليك ان تنفذ اوامر غيري . وان اعدت الكرة صرفتك من

عملك . الا تعلم بأن الحكومة بتعيينها اياك لم تقصدك بالذات ، بل قصدت جعل قيادة الدرك والشرطة بيد موظف سوري لتكون هاتان الدائرتان بمعزل عن تدخل الافرنسيين في شؤونهما ؟ »

وادركت خطيئتي بتعيينه في هذه الوظيفة الرئيسية ، ولمت من اوصاني به من زملائي الوزراء . وقد ندم اكثر مني على توسطه بتعيينه وانقلب من مدحه الى ذمه . وكان تاثري من هذه الحادثة عظيما ، لا لتوقيف شخصين بدون سبب فقط ، بـل ايضا للنية الظاهرة لدى الكولونيل بالتدخل في امور الدولة واصداره الاوامر الى رئيس الشرطة راسا بدون علمي . وقلت لنفسي ان لم نضع لهذه التدخلات حدا من بدايتها ، فسوف يفلت الامر من ايدينا وتعود الحـال الى مـا كانت عليه في عهود الحكومات السابقة ، حين كان الافرنسيون لا يقيمون لها وزنا ويسيرون الامور على هواهم،والحكام ساكتون وراضون بمقاعدهم كأنهم خشب مسندة .

ابداء استنكاري للجنرال كاترو وعدوله عن توقيف المعارضين

وكان ذلك اليوم موعد رد زيارة الجنرال كاترو للحكومة . فما ان وصل وبدات الحديث معه حتى جئت على ذكر هـــذه الحادثة واستنكرتها فقال لي : « نعم ، يوجد لدينا قائمة بسبعمائة شخص نريد توقيفهم ». فوجمت وقلت له : « وما الداعي لذلك ؟ » قال : « لانهم من محبي خصومنا الالمان ومن المتعلمين في معاهدهم » . فقلت له : « اسمع يا حضرة الجنرال ، ليس لكم ان تؤاخذوا الناس على ميولهم ولا على اعمالهم ما لم تكن مؤذية لكم . ولنفرض وجود اشخاص درسوا في المانيا فاصبحوا محبين لها كما يحب كل امرىء القوي الذي يدرس في بلاده . فاذا كان الدرس في المانيا غير مرغوب فيه فلم لم يمنعه اولو الامر قبلكم ؟ فمن شبابنا من درس في تركيا ومنهم من درس في المانيا وفرنســـا وانكلترا وامريكا وسويسرا وغيرها من البلاد الاجنبية . واذا كان الدرس في احدى هذه البلدان جريمة يعاقب عليها المرء ، فهذا امر مستغرب . اما اذا صدر من الان فصاعدا من اي شخص امر يؤذيكم فعلا ، فما عليكم الا ان تجلبوا نظري اليه وانا مستعد لمساعدتكم في رفع الاذية وتوقيف المؤذي عند حده . ولكن اذا كان ثمة اشخاص تظاهروا ضدكم قبل مجيئكم لهذه البلاد ، فليس لكم ايضا ان تحاسبوهم على افعالهم او اقوالهم او كتاباتهم السابقة للاحتلال بوجه عام . واذا سلكتم غير هذا السبيل فانكم تجعلون الناس تعتقد انكم جئتم للتشفي منهم وان وعودكم بالاستقلال والحرية ما هي الا وعـــود من النوع الذي

تقتضيها السياسة في بعض الاحيان » . وكنت اكلمه بصوت خافت لا يستطيع سماعه حتى من كان يجاورني من الحاضرين ، لعلمي بان الامر اذا اصبح علنا، فمن الصعب عليه الرجوع عنه .

وبالفعل اجابني الجنرال بانه يوافقنـــي على جميع اقوالي ووعدني باطلاق سراح الموقوفين وعدم الاصرار على توقيف الباقين . فشكرته وحمدت المولى على التخلص من هذا المازق . وطويت هذه المسالة طيلة بقائي في الحكم ولم تفتح مجددا الا بعد ان جاء الشيخ تاج الى الحكم . فأوقف من اوقف وعذب من عذب ولم تبدر من الشيخ اية بادرة لاغاثة هؤلاء الناس ولافراج كربتهم . واني اعتقد انه لو وقف موقفا حازما كالذي وقفته لتمكن من الافراج عنهم . لكنه لم يفعل . ولا اقول ذلك على سبيل التبجح او لمدح نفسي ، بل اقوله تحدثا بنعم الله عز وجل . لقـــد استلمت الحكـــم وتركته ومررت في ادوار عصيبة لا شبيه لها في العصر الحاضر ولم يؤذ احد ، ولم يسجن احد ، بل ما تركت الحكم الا ونفذت جميع العهود التي اخذتها على نفسي من اطلاق سراح المسجونين السياسيين حتى من كان منهم محكوما منذ زمن بعيد . وكان عهدي عهد امان واطمئنان كما وصفه لي احد المشتغلين في السياسة الذين قضوا في السجن اشهرا عديدة . فقد قال لي : « كنا في زمانك ننام الليالي ملء جفوننا ونقضي الايام دون خوف من اي اذى قد يلحق بنا ، وذلك لعلمنا بأنك وانت على راس الحكم ، لا تلحقنا فرية ولا يصيبنا مكروه » .

ويخطر في البال قول الاحوص في عمر بن عبد العزيز :

وأرى المدينة منذ صـــرت اميرهـــا   امن البريء بها ونام الاعزل

وصول الجنرال ديغول الى دمشق واحاديثي معه

وفي هذه الفترة وصل الى دمشق الجنرال ديغول رئيس القوى الافرنسية الحرة . فاجتمعت اليه مرارا وتداولنا في شؤون عديدة منها ما يتعلق بحالة البلاد الحاضرة وقضايا الساعة ، ومنها ما كان متعلقا بمستقبل العلاقات بين بلاده وسورية . واكد لي الجنرال المشار اليه عزمه على اعادة الحياة الدستـــورية ورغبته في عقد معاهدة شبيهة بالمعاهدة المصرية ــ البريطانية ، وكنت الح عليه بضرورة الاتفاق مع السيد هاشم الاتاسي ليعود رئيسا للجمهورية ، ثم تؤلف حكومة تدعو المجلس النيابي السابق او تدعو البلاد لاجراء انتخابات نيابية جديدة . وبعد ان تتم كل هذه الخطوات يبحث مع الحكومة الجديدة امر العلاقات بين البلدين . وقد ابدى الجنرال

استغرابه التزامي فكرة دعوة غيري لاستلام الحكم ، بينما كان ينتظر ان اجر الرئاسة نحوي . وقلت له باني انظر الى مصلحة البلد العامة قبل النظر الى شخصي ، وبان اعـادة الرئيس الاتاسي تسهل الامور وتثير الاطمئنان في النفوس . واوضحت له بصراحة ان ليس ثمة حزب او كتلة سياسية تقدم على عقد معاهدة مع فرنسا سوى الكتلة الوطنية ، باعتبارها حائزة ـ رغم ما تعثرت فيه خلال استلامها الحكم بين ١٩٣٧ و ١٩٣٩ ـ على ثقة اكبر عـدد من المواطنين . فاذا كان حريصا على التفاهم مع اهل البلاد ، فليس امامه سوى هذا السبيل .

وقد لمست اثر هذا الكلام لدى الجنرال . وقال انه يقدر الشعور الطيب الذي يدفعني الى مصارحته ، ولكنه لا يستطيع البت في الموضوع قبل ان ينتهي احتلال كافة الاراضي السورية واللبنانية. وتتالت اجتماعاتي مع الجنرال ديغول في المرات الثلاث التي اتى بها الى دمشق ، قبل استقالتي من الحكومة . وكنا كل مرة نستعرض شؤون الساعة وابين له بوضوح حالة البلاد وما يتطلب منه القيام به . ويبدو ان هذه الاجتماعات والمباحثـات تركت في نفسه اثرا حميدا . وقد روى لي الاستاذ فائز الخوري انه رافق الجنرال في احدى زياراته لدمشق ، بعد تولي الشيخ تاج رئاسة الجمهورية ، فساله الجنرال عني واستمر يحادثه بشاني ويمتدحني من الحدود السورية حتى دمشق ، مما اثار استغراب السيد الخوري .

وبعد ان انتهت الحرب في سـورية ولبنان بين الفيشيين والديغوليين وعقدت الهدنة في عكا بتاريخ ١٤ تموز ١٩٤١ بدأ الجنرال كاترو اتصالاته لتاليف حكومة جديدة . وعقدت اجتماعات في شتورا حضرها السيد هاشم الاتاسي . وتباحثـا في الامر فحصل بينهما التفاهم على ان يعود الاتاسي رئيسا للجمهورية ، بناء على كتاب يوجهه اليه كاترو وعلى جواب له من الاتاسي ينص على انه يرغب في تنفيذ المعاهدة التي كان عقدها الافرنسيون مع الوفد السوري في ١٩٣٦ ، دون اعتبار الملاحق التي قبـل باضافتها السيـد جميل مردم في ١٩٣٨ . وبالفعل وضع الرئيس الاتاسي نص الكتاب وارسله في نفس الوقت الى الجنرال كاترو والى اعضاء الكتلة الوطنية بدمشق، فاثار هؤلاء اعتراضات جمة ، اهمها عدم موافقتهم على العودة الى نصوص تلك المعاهدة ، ولزوم ترك الامر معلقا حتى انتهاء الحرب العالمية . ويغلب علي الظن بان الانكليز هم الذين سعوا بوسائل

متعددة لاحباط فكرة التعاقد مجددا مع فرنسا . ولعلهم كانوا ينوون انهاء وضع فرنسا في سورية ، ومنحها الاستقلال التام، مؤملين بسط نفوذهم المعنوي في المستقبل على هذه البقعة من الشرق العربي التي كانت ، مع لبنان ، خارج دائرة نفوذهم . وكان الشيخ تاج الدين يسعى جهده لابعاد الاتاسي والوصول الى الحكم ، بمعونة صديقه الحميم وسنده القديم الكولونيل كوله . وكان من دهائه ان استطاع اجتذاب السيد جميل مردم . فاتفقا على ان يكون الشيخ رئيسا للجمهورية ومردم رئيسا للوزارة . فتورط هذا الاخير معه وترك جانب رفاقه القدماء . لكنه ، رغم كونه لا يقل دهاء عن الشيخ ، فقد استطاع هذا الاخير الاستفادة من مناصرته مؤقتا . ثم ابعده وتولى الامر وحده . فبقي مردم خارج الحكم واضاع من مكانته قسما وافرا .

وفي جملة ما قام به الجنرال كوله من المناورات لاقصائي عن رئاسة الحكومة،ان جاءني ذات يوم وقال لي بأن اسعار الخبز متدنية جدا ، وبان البلديات تخسر مبالغ وافرة لم تعد تستطيع تحملها . واشار علي بلزوم زيادة اسعار الخبز بما يسد العجز الواقع على عاتق البلديات .

فادركت فورا انه لا يقصد تخفيف الاعباء عن البلديات ، ولكنه يرمي الى اثارة نقمة الطبقة الفقيرة في البلد ضدي ، كما ثارت ضد بهيج الخطيب ، حتى اذا ما حصلت اضطرابات او اغلقت المدينة احتجاجا تمكن من اقناع الجنرال كاترو بضرورة ابعادي عن الحكم .

استقالة حكومتي وعودة الشيخ تاج الى الحكم

فاجبته : « انك تذكر يا حضرة الجنرال انني ، عند وصولك الى دمشق في حزيران الماضي ، ابنت لك وضع البلديات السيء وصارحتك برأيي في ضرورة تعديل اسعار الخبز وتلافي الخسارة ، وانك رفضت ذلك رفضا قاطعا وقلت لي : « اتريد ان يعتقد الناس ان مجرد دخولنا سورية ادى الى ارتفاع الخبز ؟ » اما الآن ، فما دمت قنعت بضرورة اللجوء الى الحد من خسارة البلديات ، رغم ما يلحق بي شخصيا من اذى ونقمة في الاوساط ، فانني ساعالج الامر واتخذ ما يجب من التدابير . » ثم استدعيت محافظ المدينة وطلبت اليه اتخاذ قرار بزيادة اسعار الخبز بما يعادل الخسارة التي تتحملها البلدية . فبادر فورا لتنفيذ هذه التعليمات ورفع سعر كيلو الخبز ثلاثة قروش . فقام على اثر ذلك بعض

المظاهرات المفتعلة واغلق بعض المحـــال التجارية ، فأوعزت الى المحافظ بأن يدعو مئة من وجهاء الاحياء لحضور اجتماع يعقد لديه لبحث الموضوع . فلما اكتمل الجمع دخلت البهو وقلت للحاضرين ان البلدية لم تعد تستطيع تحمل الخسائر المستمرة من جراء بيع الخبز باسم خبز الفقراء بسعر ادنى من كلفته . فما دام الامر يتعلق بالفقراء فقط ، بينما سائر الناس لا يصيبهم ضرر لان اسعار الخبز الذي يتناولونه لم تعدل ، فاني اقترح تأليف هيـــئة منكم تجمع التبرعات لتأمين الخبز وتوزعه مجانا على الفقراء الذين يثبت لديكم فقرهم وعوزهم . واني افتح قائمة التبرعات بمبلغ الف ليرة سورية شهريا ، وليتفضل كل واحد منكم بتسجيل مقدار تبرعه الشهري لنباشر فورا بهذا العمل الخيري . فشعر الحاضرون بأن المبالغ التي كانت تتحملها البلدية سوف يتحملونها هم انفسهم بدلا عنها . فقال احدهم : « الاوفق تأليف لجنة لتحضير المشروع على ان يعمد الى التبرع بعد انجاز نظام هذه الهيئة. » فقلت له : « لا بأس. » وانتخب الحاضرون عشرة منهم لعضوية هذه اللجنة ، على ان تجتمع في الغد . ثم انصرفوا وعادوا الى احيائهم يحثـــون الناس على انهاء الاضراب وعلى العودة الى فتح المخازن . وانتهت الازمة ونفضت البلدية عن كاهلها عجز خبز الفقير الذي لم يكن في الحقيقة ليستفيد منه المعوزون ، بل وجهاء الاحياء واصحاب النفوذ فيها . وهكذا لم يظفر الجنرال كوله بما اراد ان يوقعني فيه ، فلم يستمر الاضراب . وفتحت الاسواق ، فلم يعد مجال للادعـــاء بأن الشعب يريد تغيير الحكومة ليتخذ الجنرال كوله من ذلك حجة لجلب الشيخ تاج لرئاســة الحكم . على انه ظل مثابرا على خلق المشاكل . فقنعت باستحالة دوام الحال . وجمعت الـــــوزراء واستشرتهم في الاستقالة فوافق رايهم رأيي ، فكتبت نص الاستقالة كالآتي :

يا صاحب الفخامة ،

لي الشرف ان اعلم فخامتكم باني اطلعت مجلس الوزراء بجلسته المنعقدة بتاريخ ١٣ ايلول ١٩٤١ على الحديث الذي دار بيننا في ١٢ ايلول ١٩٤١ والذي شرحت لفخامتكم فيه الصعوبات التي تلاقيها الحكومة في عملها ، فقرر المجلس ان اتقدم لفخامتكم بما يأتي :

في الاجتماع الذي ضمنا اثناء زيارتنا الاولى لفخامتكم تفضلتم فاعربتم لنا عن عزمكم على تنفيذ تصريحكم بشأن الغاء الانتداب وتحقيق استقلال سورية . وطلبتم

الينا البقاء في الحكم الى ان يتم تحرير سائر المناطق السورية الذي يمكنكم من الشروع بتنفيذ تلك التصريحات . وقد ابدتم بناء على طلبنا حديثكم هذا بكتاب بعثتم به الينا بتاريخ ٢٥ حزيران ١٩٤١ ، اذعناه بالاتفاق واياكم آنئذ على الراي العام .

فلبينا طلبكم بالاستمرار على تحمل اعباء الحكم مؤقتا على اساس الصلاحيات التي كنا نتمتع بها في ٢٠ حزيران ١٩٤١ .

ولما تم تحرير جميع المناطق ، ذكرت لفخامتكم في اجتماع آخــر بانتهاء مهمة الحكومة، فالححتم علي بطلب المثابرة على الاضطلاع بالحكم، ريثما يتم الاعداد لتنفيذ التصريح القائل بتحقيق استقلال البلاد ، فنزلنا من جديد عند رغبتكم .

لا نخفي على فخامتكم اننا اصبحنا منذ برهة نشعر من جانب السلطة باتجاه يرمي الى انتقاص هذه الصلاحيات ، ونحس في بعض اوساطها بجو لا يلائم تسهيل عملنا ، ولا سيما في ميدان الاعاشة .

انعمنا النظر فيما تقدم ، فراينا انه لم يعد هناك ما يجيز استمرارنا على تحمل تبعة الحكم ومعاناة الصعوبات التي تعترض اعمالنا ، بعد ان حان تنفيذ العهود التي اعلنتموها بتحقيق استقلال سورية واقامة نظام حكم مستند الى ارادة الامة .

واسمحوا لي في الختام ان اعرب عن شكرنا الجزيل للعواطف السامية التي اظهرتموها فخامتكم شخصيا تجاهنا ، منذ قدومكم الى هذه البلاد .

وتفضلوا يا صاحب الفخامة بقبول اسمى الاحترام .

دمشق ١٤ ايلول ١٩٤١

رئيس الحكومة السورية

خالد العظم

وتوجهت الى قصر المفوضية حيث اجتمعت مع الجنرال كاترو وناولته كتاب الاستقالة بنصه العربي وترجمته له شفهيا . فأظهر اسفه على تــركي الحكم وابدى شكره لمــا قمت به من الاعمال . ولم يسعني الا ان ابدي له رايي في الحالة السياسية . ونصحته بعدم استدعاء الشيخ تاج لان التفاهم مع الكتلة الوطنية يصبح امرا مستحيلا في عهده . والححت عليه بالاتفاق مع هاشم بك الاتاسي ، فلم يحر جوابا ، واكتفى بالاصغاء لاقوالي ثم ودعته وانصرفت .

وعــلى الإثر استدعي الشيخ تاج الدين الحسيني . فاتفق معه على تعيينه رئيسا للجمهورية وعلى اصدار بيان من قبــل الجنرال كاترو .

وقد دونت ملاحظاتي على هذا البيان كما ياتي :

١ ـــ التصريح بالاستقلال المعطى في ٢٧ ايلول ١٩٤١ لا ينص

صراحة على الغاء الانتداب ، كما انه لا يشير الى الغاء وظائف المستشارية ولا الى تسلم الحكومة السورية جميع المصالح التي هي اليوم تحت سيطرة المفوضية مباشرة ، كدوائر الجمارك ومراقبة الشركات وغيرها ، بل هو يقضي باعادة قوى الدرك والشرطة تحت امر السلطة بداعي الظروف الحربية مع انه بالامكان بقاء تلك القوى تحت امر الحكومة مع تعيين مستشارين مؤقتا ، نظرا للظروف الحربية ، تستطيع السلطة بواسطتهم الاطلاع على ما يهمها الاطلاع عليه ، والذي له علاقة مباشرة بالحركات الحربية .

ومن جهة اخرى ، فقد جاء في ختام التصريح ما يشير الى ان ثمة معاهدة ستعقد بين فرنسا وسورية ، تكرس نهائيا ذلك الاستقلال . فاذا كان الاستقلال حقيقة صريحة ، فما الداعي الى عقد معاهدة ؟ وان كانت المعاهدة ستثبت امورا تتعلق بعلاقة فرنسا مع سورية ، فسيصبح ذلك الاستقلال مثلوما ، اذ لا بد ان تنتقص تلك المعاهدة مما يدخل في نطاق الاستقلال .

ومن جهة اخرى ، فان هذا التصريح جاء خلوا من اعلان اعادة الدستور السوري ، كما انه لم يلغ ما كان صدر من القرارات المتعلقة باستقلال جبل الدروز وجبل العلويين .

٢ ــ الجمهورية ، عرفا ، نوع من اصول الحكم يختار رئيسها بانتخاب الشعب سواء كان ذلك الانتخاب مباشرا او عن طريق مجلس نيابي او مجلس خاص . ولم يسمع ان ثمة قاعدة في الاصول الدستورية تقضي بان يكون رئيس الجمهورية معينا او مدعوا بكتاب بسيط لتسلم مهام الرئاسة . كما ان ذلك مخالف للدستور السوري .

ورئيس الجمهورية المعين لم يقسم بالمحافظة على الدستور ، كما تتطلبه احكام الدستور السوري . واذا كانت النية متجهة الى اجراء ذلك القسم فأمام اية هيئة ؟

جاء في الدستور السوري ان الوزراء لا يتجاوز عددهم السبعة . وقد صدرت اخيرا مراسيم بتعيين تسعة وزراء . وهذه مخالفة دستورية اخرى .

الدستور السوري لا يمنح رئيس الجمهورية حق اصدار القوانين او المراسيم الاشتراعية الا بعد موافقة البرلمان عليها . فكيف يجوز لمجلس الوزراء ان يتخذ لنفسه صلاحية اصدار المراسيم الاشتراعية بعد موافقة رئيس الجمهورية بدون ان يكون هنالك

برلمان ؟ وهل تعتبر هذه القوانين او المراسيم العادية التي تصدرها الحكومة المؤلفة على غير وجه قانوني وشرعي خالية من شائبة ؟

ان هذه الاساليب في الحكم بعيدة عن الاساليب الدستورية والديموقراطية بعد الارض عن السماء . وهي بالعكس اقرب الى الاساليب الاستبدادية التي تحاربها الان اكبر ديموقراطيات العالم .

٣ ــ جاء في الكتاب الذي وجهه الجنرال كاترو الى الشيخ تاج ان الجنرال ، بعد الاستشارات التي اجراها ، اتضح له ان هذا الاخير هو الشخصية الوحيدة التي تتمتع بالميزات الجديرة بتسلم مقام الرئاسة الاولى ومقدرات البلاد .

لكن في الاحاديث التي دارت بين الجنرال وبعض الشخصيات السورية ضمن جدران اربعة ، عدا انها لا يمكن ان تكون قانونية وشرعية ، لم يوافق معظم هؤلاء ، باستثناء ثلاثة منهم هم الشيخ نفسه وآخران مؤيدان له ، على تسليم الامور الى الشيخ . ومن جهة ثانية فان الجنرال كاترو صرح في كتابه المرسل الى الحكومة السورية ، بأن مقتضيات هذا الاستقلال هي ان يتمتع الشعب السوري بسن الدستور الذي يختاره ، وبدعوة الاشخاص الذين يراهم اكفأ من غيرهم لادارة امور البلاد .

فالاكتفاء باستمزاج راي بعض الشخصيات لا يتفق مع المبدأ المعلن في ذلك الكتاب . وهل يعقل ان تقبل البلاد بوجود شخص نبذته الامة مرتين متواليتين ، وكان خروجه من الحكم في كل منهما اثر اضطرابات دامية اجبرت السلطة على اقصائه واستدعاء من توليهم البلاد ثقتها الحقيقية ؟

وهل يجوز ان يفرض على البلاد رئيس جمهورية عاش على موائد الانتداب خمس سنين ، وهو فار من بلاده التي لم تعد تستطيع السماع باسمه ؟ حتى عاد اخيرا مزودا بعشرة آلاف ليرة سورية دفعتها له وزارة فيشي ، ثم قيدتها على حساب الحكومة السورية من واردات المصالح المشتركة ؟

وهل يعقل ان تقبل البلاد بأن يعود الى الحكم شخص كبهيج الخطيب الذي اطلق الرصاص بيده على الجماهير المطالبة بحقوقها المشروعة ؟ ذلك الرجل الذي اخرج من الحكم اثر اضطرابات دموية تشبه التي قلع على اثرها الشيخ مرتين من الحكم ؟ وهل تنسى البلاد مواقف ذلك الرجل الحزبية وتداخله في القضاء ورميه الابرياء في غياهب السجون ؟ وهل تنسى البلاد اعماله الحكومية التي كان

يجر بها الغنائم الى نفسه (تعيين مندوب سورية في مجلس ادارة شركة البترول واقتسامه معه عائدات تلك العضوية ، والقرار الذي اصدر خصيصا من اجله ومن اجل رفاقــه المديرين ، بخصوص رواتبهم التقاعدية كما نصت اتفاقية البنك السوري) ؟

وصدر المرسوم الجمهوري باسناد رئاسة الوزارة الى السيد حسن الحكيم ، واشترك فيها كل من السادة :

حسن الحكيم : رئيس الوزراء ووزير المالية ، بهيج الخطيب : وزير العدلية ووزير الداخلــية بالوكالة ، فائز الخوري : وزير الخارجية ، محمد العايش : وزير الاقتصـــاد الوطني ، فيصل الاتاسي : وزير المعارف ، عبد الغفار باشا الاطرش : وزير الدفاع الوطني ، منير العباس : وزير الاشغال العامة والبريد والبرق ، حكمت الحراكي : وزير الاعاشة والتموين .

ثم احتفل باليوم السابع والعشرين من ايلول ١٩٤١ بالتوقيع على ما اسموه صك الاستقلال لسورية ، مع انه لم يكن جديرا بهذه التسمية . ثم استمر الشيخ تاج الدين الحسيني على رئاسة الجمهورية والف وزارتين اخريين . الاولى برئاسة السيد حسني البرازي ، والثانية برئاسة السيد جميل الالشي . وقد اقال الشيخ تاج وزارة حسن الحكيم ، ثم اجبر حسني البرازي على الاستقالة بعد ان اعلن المشار اليه في حفلة رسمية ان ليس ثمة استقلال ، وان الجنرال كوله هو صاحب الكلمة العليا في الدولة . ثم توفي الشيخ تاج في ٨ كانون ثاني ١٩٤٣ ، خاتما حياة سياسية مليئة بالحوادث والمغامرات ، ولم يترك له اثرا حميدا سوى انشاء بعض الابنية الرسمية ، من مدارس ودور حكومة ومخافر ومصحات .

ومن المؤسف ان رجلا كالشيخ تـــاج تحلى بميزات كثيرة ، ابرزها الذكاء المفرط ، والحيلة الواسعة ، والصدر الرحب ، وتولى الحكم ما يقرب من ستة اعوام دون ان يكون الـــى جـــانبه مجلس نيابي يعكر مزاجه او يعرقل عمله ، لم يؤد لبلاده الخدمات التي كانت تستحقها . وفي تلك السنين العديدة ، منذ ١٩٢٨ حتى ١٩٤٣ حين توفي ، كان امره بين اثنين : اما رئيس للحكومة ، وهو في واد والشعب في واد ، واما معزول مقيم في باريس ، بعيدا عن وطنه واهل بلده . وقد كان المرسوم المشار اليه عقبة في سبيل نيل بلاده استقلالها . ولم تظفر به الا بعد وفاته . رحمه الله وغفر له . انه ارحم الراحمين .

الفصل الثاني

عهد الاستقلال في سورية

على اثر التصدع الذي اصاب الكتلة الوطنية في صفوفها في الاشهر الاولى من ١٩٣٩ ، بسبب فشلها في ادارة حكم البلاد وتراجع الافرنسيين عن ابرام معاهدة ١٩٣٦ وانسحاب وزرائها من الحكم ثم استقالة رئيسها السيد هاشم الاتاسي من رئاسة الجمهورية وحل مجلس النواب وتعيين حكومة مؤقتة رئسها السيد بهيج الخطيب الذي قام بسياسة التنكيل برجال السياسة والصحافة، تذرع اعضاء هذه الكتلة السياسية بنشوب الحرب العالمية واعلنوا وقف جهودهم في سبيل الاستقلال .

غير ان الحقيقة لم تكن كذلك ، بل كان مرد انسحاب الكتلويين من الميدان السياسي هو تفرق كلمتهم ، وشعورهم بان البلاد انصرفت عنهم ولم تعد مستعدة لتاييدهم والسير خلفهم على العمياء ، كما كانت تفعل منذ ١٩٢٨ .

ولا ارغب ، في ذكرياتي هذه عن تلك الحوادث ، في دخول هذا الباب ، لا لانني لم اكن اتعاطى السياسة اذ ذاك فحسب ، بل ايضا لان في البلاد من هو اعلم مني بدقائق الامور وتفاصيل الحوادث . وانني اترك لهم ان يدلوا بما لديهم ليكتمل تاريخ سورية الحديث بفضل ما ينشرونه من مذكرات عن تلك الحقبة من الزمن . واني لمكتف هنا بقدر بسيط يربط تلك الحوادث بما لحقها . ففي النصف الثاني من ١٩٣٩ وفي ١٩٤٠ ، فقدت البلاد قادتها الذين كانوا يوجهونها في معترك الحرية والاستقلال ، ولم يتقدم للميدان لشغل مركز القيادة الشاغر احد ، اذا استثنينا المرحوم الدكتور عبدالرحمن الشهبندر الذي انفرد في عمله السياسي عن رفاقه السابقين اعضاء الكتلة الوطنية ، ولف حوله زمرة من الشباب الجدد ، وبدأ يناوىء الكتلويين ويناوؤنه ، حتى انتهى الامر في عهدهم الى ان فرضوا عليه الاقامة الجبرية في بلودان ، ثم اضطروه لمغادرة البلاد .

ولم يعـد الشهبندر الا خلال الحرب . وخفف نشاطه ، لكن الوقت لم يطل به ، اذ اغتيل في شهر تموز ١٩٤٠ على يد جماعة حكم عليها بالاعدام ، دون ان يظهر للملأ من الذي اوحى بهذا العمل الاجرامي المنكر .

اما عن زعماء الكتلة ، فان جميل مردم هرب الى العراق على اثر اتهامه بالاشتراك في اغتيال الشهبندر . فاخذ ينتقل بين بغداد والقاهرة وبيروت . واما فارس الخوري ولطفي الحفار وسعد الله الجابري ، فقد لزموا دورهم بانتظار الفرج .

تصدع الكتلة الوطنية وبزوغ نجم القوتلي

لكن شكري القوتلي لم يخضـع كغيره . وبـدأ يتصل بزعماء الاحياء ويدعوهم للطعام عند صبري العسلي ، جماعات وفرادى . فالتف حوله من بقي مؤمنا من مناصري الكتلة . وتدرج في استجلاب القلوب واعادة الثقة الى النفوس حتى توصـل في بداية ١٩٤١ الى منصب الزعامة الوطنية السياسية في دمشق . واستفاد من رفـع اسعار الخبز في شهر آذار ١٩٤١ وما انتجه ذلك من نقمة في بعـض النفوس ، فوجه الناس الى التظاهر واغلاق المتاجر ، كما جاء ذكره في البحث الخاص بحكومتي الاولى المؤلفة في شهر نيسان ١٩٤١ .

ثم عاد جميل مردم الى البـلاد ، لكنه انضوى تحت لواء القوتلي كما فعل سائر افراد الكتلة ، وعلى راسهم فارس الخوري ولطفي الحفار وغيرهم .

وفي عهـد رئاسة الشيخ تـاج الدين الحسيني ، اي منذ ١٩٤١/٩/٢٧ حتى وفاته في ١٩٤٣/١/٨ ، التزم القوتلي السكينة في الداخل . وسافر الى العراق فجرى بينه وبين الانكليز من الابحاث ما كان له اثر بارز في مطلع حكمه .

واقتصر الجهد السياسي في زمن الحسيني على اتصالات رؤساء الوزارات السابقين ، بعضهم ببعض ، لايجاد جبهة متحالفة يشتركون فيها مع القوتلي وجماعته . وقد انتج هذا التفاهم خير النتائج . اذ لم يتمكن الافرنسيون ، بعد وفاة الشيخ تاج الدين الحسيني ، من العثور على شخصية سياسية تقوم بالدور الذي لعبه الشيخ تاج ، بل وجدوا امامهم جبهة متراصة قوامها رجال السياسة البارزين ، تدعمهم قوة شعبية استطاع القوتلي استعادة مؤازرتها ، ولم تكن تدري بطبيعة الحال ان الفرصة ستسنح قريبا لوضع هذه الجبهة امـام التجربة العملية ، وهي عودة الحياة

الدستورية النيابية . فعلى اثر وفاة الشيخ تاج الدين الحسيني المفاجئة ، حار الافرنسيون بامرهم . ولم يكن للسيد جمال الالشي الذي كان يراس الوزارة بذلك التاريخ ، ولا للسيد عطا الايوبي وغيره ، ممن كان مفروضا قربهم من الافرنسيين ، ان يتركوا الصف الذي كنا واياهم فيه . فاضطر الجنرال كاترو وبتأثير هذا العامل وتحت ضغط الانكليز ، لاعلان عودة الحياة النيابية وتعيين موعد للانتخابات .

ثم استقال جميل الالشي وتلاه في الرئاسة السيد عطا الايوبي الذي الف حكومة مؤقتة للاشراف على الانتخابات النيابية . ودعاني للاشتراك بهـا فاشترطت اشتراك وزير من الكتلويين . لكنهم رفضوا ، فاعتذرت .

ولا شك في ان شكري القوتلي ، وقد تزعم الامور ، ابرز في هذه الحقبة مهارة سياسية جديرة بالذكر والاعجاب . فقد اوهم الافرنسيين انه معهم ، وتوصل الى ابعاد الحذر عن عقولهم ، فلم يقفوا ضده في الانتخابات التي جرت في المدن الرئيسية ، واكتفوا بدعم بعض مناصريهم القدامى في بعض مراكز الاقضية . ولا جدال في انه لو كشف للافرنسيين ما كان يخفيه في ضميره مـن رغبة في التخلص منهم نهائيا، لكانوا تداخلوا في الانتخابات وامنوا لجماعتهم الاغلبية في المجلس العتيد.وكانت اجتماعاته وخلواته مع الافرنسيين، وما دار بينهوبينهم من البحوث،سرا لا يطلع عليه احد.وبدات المعركة الانتخابية ، وصار السيد شكري القوتلي يؤلف قوائم الانتخابات في المدن ويفرض ارادته على المرشحين ليجعل منهم كتلة قوية ، ويامر بانسحاب من لا يريده . وقـــد كان النجاح رفيقه في تاليف القوائم ، عدا قائمة حلب . اذ انه لم يتمكن من حمل رشدي الكيخيا وناظم القدسي على الانضمام الى قائمة سعد الله الجابري ، فكان لهذا الانفصال اسوا الاثر في تاريخ سورية الحديث ، كما سياتي ذكره فيما بعد .

اما انا ، فكنت قد ارتضيت بوصول البلاد الى بغيتها في العودة الى الحياة الدستورية . فاعتزلت العمل الايجابي ، تاركا لغيري ان يتقدم الى النيابة ومواصلة الجهود . وتمت انتخابات المنتخبين الثانويين ، دون ان اتقدم اليها . وفتح باب الترشيح للنيابة فلم ابعث بترشيحي. واقمت في دمر مبتعدا ، حتى اتاني السيد صبري

العسلي ، قبل موعد اقفال باب الترشيح بساعة واحدة ، وسألني عن سبب عدم تقدمي للميدان ، فاجبته باني اترك النيابة والسياسة لغيري واكتفي بالمؤازرة اذا اقتضى الامر . فالح علي ، فاصررت حتى انتهى الامر به الى الاعتراف بانه موفد من قبل شكري القوتلي لحملي على ترشيح نفسي والاشتراك بالقائمة التي سيؤلفها برئاسته . فاجبته ان ذلك يتطلب اتفاقا وتفاهما على مبادىء ونقاط عديدة ، ولم يعد الوقت فسيحا . فقال: « قدم الترشيح فورا قبل مضي الوقت ، ثم تجتمع مع القوتلي ، فاذا اتفقتما سرتما سوية ، والا سحبت ترشيحك . » وما زال يصر حتى نزلت عند رغبته . وذهبنا الى المحافظة وقدمت ترشيحي. وعندما نشرت الصحف الصباحية اسماء المرشحين ، ذهل اصدقائي لقراءة اسمي بينهم ، وكانوا يحسبونني معتزلا . وتساءلوا عما اذا كنت متفقا مع القوتلي ، فاجبتهم بان الامر سيتضح عندما يعلن قائمته . وبعد يومين اتصل بي المشار اليه وطلب الي الحضور لعنده . فاجتمعنا وتحدثنا ما يقرب من الساعتين في شؤون المستقبل وتبادلنا الراي في الخطط المثلى للحصول على استقلال البلاد التام . واكد لي القوتلي عزمه على التعاون مع رجال البلاد ، بصرف النظر عن انهم من جماعته وحزبه ام لا ، وعرض علي الموافقة على ادخال اسمي في قائمة المرشحين التي سيضعها لانتخابات دمشق ، دون أن يطلعني على ما يريد اضافته . فقلت له : « اني مؤمن بانك خير من يتزعم البلاد ويقودها الى شاطىء السلام والاطمئنان ، وبانك الوحيد الذي لم تلوث سمعته بين رفاقه في الدور الماضي ، كما اني اعتقد انك تتحلى بمزايا وصفات تؤهلك لتسلم اكبر مركز في البلاد . ولذلك اقبل بكل امتنان وراحة ضمير ان انضوى تحت لوائك وان اسير الى جنبك في المعركة القادمة ، حتى نحقق للبلاد ما تتوق اليه من تحرر وانطلاق من الانتداب واقامة حكم صالح لا يستمد سلطانه الا من الشعب ولا يستهدف الا خدمة الشعب باخلاص وتجرد . » فاجابني : « اني اعاهدك على ذلك وارغب في ان تكون يدي اليمنى ، اذ اني اقدر ايضا المواهب التي تتحلى بها واريد ان امهد لك طريق الزعامة في المستقبل . »

وهكذا وضعت يدي في يد ذلك الرجل الذي كان — مع ما لديه من هفوات لا يخلو منها بشر — افضل من يمكن الاعتماد عليه للقيادة والرئاسة . ولم يخب ظني به ، فقد اوصل بلاده الى الذروة،

حين حققت جلاء الجيوش الاجنبية عن سورية في ١٩٤٥ ، وانتفضت من تحت نير الانتداب البغيض ، فاصبحت دولة مستقلة بكل ما في الكلمة من معنى ، دون ان تقيد هذا الاستقلال او تحده معاهدة او محالفة مع اية دولة اجنبية .

وبراعة القوتلي تتجلى ، حسب ما اراه ، وبصورة لا تدع مجالا للمنافسة ، في امرين :

الاول : تمكنه من نيل استقلال سورية دون عقد معاهدة مع الانكليز ، بالرغم من ان دعمهم اياه لم يكن بريئا .

الثاني : تصلبه في رفض التفاهم والتعاقد مع الافرنسيين، بالرغم من نصح الانكليز وضغطهم الشديد لحمله على ذلك .

رايي في القوتلي والجابري والخوري

واننى اجزم بأن لا احد من رجالنا السياسين كان قادرا على الوقوف هذا الموقف العنيد الصلب في ظروف قاسية كالتي مرت على القوتلي ، وابرزها يوم العدوان الافرنسي في اواخر ايار ١٩٤٥ ، حين قذفوا مدينة دمشق بقذائف مدافعهم وطياراتهم واحتلوا مراكز الحكومة واوشك الامر ان يستتب لهم . وكان لعناد القوتلي — وهو طريح الفراش وحيدا في داره،عديم الاتصال بوزرائه ورفاقه — ورفضه الاعتراف بالامر الواقع ، الفضل الاكبر في اجتياز البلاد هذه العاصفة الغاشمة . ولئن وجب علينا ان نذكر فضل سير ونستون تشرشل ، رئيس وزارة بريطانيا ، في الانذار الذي وجهه للجنرال ديغول بلزوم سحب جيوشه من سورية ، فلا بد من القول بأن حزم تشرشل ما كان ليؤثر ، لو ان القوتلي تساهل وقبل التفاهم مع السلطة العسكرية الافرنسية في دمشق . فموقفه الجريء العنيد ، جرأ تشرشل على اتخاذ التدبير الحازم تجاه ديغول ، دون الالتفات الى الصداقة الانكليزية — الفرنسية والزمالة في الحرب التي لم تكن بعد قد وضعت اوزارها .

وكما صدقت نبوأتي بالسيد القوتلي ، وهي انه ارجح شخصية لتولي الزعامة ، فان ظني لم يخب بالمرحوم سعد الله الجابري الذي يشابهه في التصلب والحزم . وعلى سبيل الاستطراد اذكر حادثا جرى قبيل انتخاب القوتلي رئيسا للجمهورية : كنا مجتمعين ليلا بدار القوتلي في السادس عشر من شهر آب ١٩٤٣ ، بحضور كل من سعد الله الجابري ، وجميل مردم ، وفارس الخوري ، ولطفي الحفار ، والدكتور الكيالي ، ومظهر رسلان ، ونجيب البرازي ، فاقترح القوتلي الموافقة على ان ينتخب فارس الخوري

رئيسا لمجلس النواب ، وان يتولى سعد الله الجابري رئاسة الوزراة . فابدى الحاضرون موافقتهم ما عداي ، اذ قلت بان يتولى الخوري رئاسة الوزارة والجابري رئاسة المجلس . فعجب الحاضرون وسالوني عن السبب في هذا الترجيح ، فاجبتهم بان الخوري اقدر من الجابري في ادارة شؤون الدولة واكثر منه علما وتجربة وخبرة، وله من سعة الصدر ما تحتاج اليه رئاسة الوزارة. اما الجابري ، فانه اصلب منه عودا واكثر منه جراة على تحمل المسؤوليات ، ونحن قادمون على معركة مع الافرنسيين ، ولا يستبعد منهم ان يلجأوا الى العنف والى اغلاق مجلس النواب وحله . فاذا كان الجابري رئيسا له ، فانني اجزم بانه يقف في وجههم وقفة حازمة . اما الخوري فاني لا المس فيه هذا الحزم . فجدير بنا ، اذا ، ان نضع كل منهما في المنصب الذي ينسجم مع خلقه وطبيعته ومؤهلاته .

فتبرم الخوري من صراحتي وبدا يناقشني مدعيا البأس والشدة ، بينما كان الحاضرون يسعون لاخفاء ابتساماتهم وامارات ارتياحهم للمقارنة الصحيحة التي ابديتها . اما القوتلي ، وقد كان مبيتا الامر في نفسه ، فلم يعجبه اقتراحي . لكنه ، على عادته ، قال لناخذ الآراء . فايد البرازي ورسلان نظريتي ، فاحتد الخوري وقال بانه اذا لم ينتخب رئيسا للمجلس فهو يقبع في داره . فخشي القوتلي تطور الامر ، فاضطر الى تلافي الحرج واعلن بانه مصر على اقتراحه الاول . واردف قائلا : « لم يعد ثمة مجال للمناقشة ، فالنواب ينتظرون حضورنا الى المادبة التي اقمتها تكريما لهم ، ولا يصح تاخرنا. فلنتكل على الله ولنسر بهديه وارشاده » . واجتذبني وركب معي في سيارتي وتوجهنا الى فندق الشرق ، حيث كانت الوليمة. وقال لي في الطريق : «لماذا لم تبد لي رايك قبل الآن؟» قلت : « هل استشرتني انت او اطلعتني على رايك ؟ » قال : « انك محق فيما ذهبت اليه ، ولكن لم يعد بالامكان تبديل الامور مع فارس الخوري.لقد لمست تمسكه، ولا نريد خلق ازمة قد تفسر باننا اقصينا مسيحيا . » قلت : « انني لا اقصد اقصاءه ، بدليل ترشيحي اياه لرئاسة الحكومة . » فقال : « واذا قبع في داره كما زعم الا تخشى تصدع جبهتنا بانسحابه منها ؟ » قلت : « طبعا ، لا اريد ذلك . ولكن الا تخشى بدورك ان يتحقق حدسي فلا يبدر من الخوري الموقف الحازم المنتظر ؟ » فسكت قليلا ، ثم قال : « اكراما لخاطري ، دع

معارضتك له ، وسايرني بهذا الامر. » فقلت له : « لسنا في معرض المسايرة او الاكرام ، فرأيي لم يزل كما ابديته . وانت تشاركني فيه. ولو لم تعترف بذلك صراحة . اما وانت الزعيم الموجه ، فاني انزل عند رايك مع التحفظ بتذكيرك يوما ما بعدم اصابتك في اختيارك . » فتبسم القوتلي وشد على يدي قائلا : « بارك الله ! » ثم مر على ذلك ما يقرب السنتين ، فكان العدوان الافرنسي ، واحتلال البرلمان من قبل افراد جيشهم،وقتلهم حراسه ،وتطويق فندق الشرق ، حيث كان الجابري مقيما بعد انتخابه رئيسا لمجلس النواب . وكان فارس الخوري رئيسا للوزارة ومندوبا لسورية في سان فرانسيسكو . فتمكن الجابري من الافلات من التطويق وبارح الفندق بسيارة اجنبية تحت وابل الرصاص وسافر الى بيروت ومنها الى القاهرة حيث اثار اهتمام الحكومة المصرية . فدعا النحاس باشا رئيس وزرائها مجلس جامعة الدول العربية للاجتماع وادلى بتلك التصريحات القوية التي هزت الاوساط الاجنبية هزة قوية . وكان الفضل في هذه الوقفة الجبارة لسعدالله الجابري ولسفره الى مصر ، ولمسعاه الملح ، ولاثارته قضية سورية بتلك الحماسة والشدة .

هذا ما كان من امر سعدالله الجابري . اما فارس الخوري، فماذا كان موقفه في ظرف مماثل ؟ لقد قام حسني الزعيم بانقلابه ليلة الثلاثين من آذار ١٩٤٩ والقى برئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وبعدد من النواب والموظفين وغيرهم في سجن المزة ، وطوق بناية المجلس النيابي بجنوده ، ومنع النواب من الدخول اليها ، ثم توجه الى دار فارس الخوري واختلى به نصف ساعة وخرج من هناك ، وحل مجلس النواب وبعثر النواب كلا الى بلده ... فهل احتج فارس الخوري على حل المجلس الذي هو رئيسه ؟ وهل بدت منه بادرة بالاعتراض او السخط ؟ او لم يشجع حسني الزعيم على السير قدما في خطواته ؟ او لم يمدح حسني الزعيم بتصريحات صحفية ؟ الم يقبل بالتعاون مع رجل داس الدستور ورفس مجلس النواب ، حين وافق على تمثيل الحكومة السورية في اجتماعات هيئة الامم المتحدة ، فدعم بذلك عهد حسني الزعيم الاستبدادي المقوت ؟

تلك هي مقارنة بين موقفي الجابري والخوري في ظرفين مماثلين، قضي، او سعي فيهما للقضاء، على حياة البلاد الدستورية والحريات العامة.ولا سبيل الى القول بان العدوان الاول صادر عن

اجنبي ، وبان الثاني صادر عن ابن الوطن . فكلاهما ينبىء عن نية سيئة واساءة بينة ورحم الله الشاعر الذي قال :

وظلم ذوي القربى اشد مرارة
على النفس من وقع الحسام المهند

وفي سجن المزة ذكرت القوتلي بتنبؤاتي فقال : « والله ، انك كنت المصيب وانا المخطىء . » رحم الله الجابري واصلح الله حال الخوري .

ولنرجع بعد هذا الاستطراد الى حوادث الانتخابات النيابية. فبعد ان انقضت الايام الاولى على انتهاء مدة قبول الترشيحات ، بدأ القوتلي بعقد الاجتماعات الشعبية في الاحياء ويخطب في الجماعات خطابات حماسية قوية . وكنا نرافقه في هذه الاجتماعات مظهرين تكاتفنا معه .

وعندما ذاع ان اعلان قائمة القوتلي سيكون في اجتماع كبير يعقد في جامع دنكر ، حضرت الالوف العديدة من الناس . وقبل ان يتوجه القوتلي الى منصة الخطابة لاعلان القائمة ، اقترب من لطفي الحفار وكنت جالسا الى جانبه وقال له بصوت منخفض : « سأقرأ الاسماء بدون ذكر اسمي ، وعندما انتهي من التلاوة ، قم انت واعلن للجمهور ان القائمة ناقصة لانها لا تتضمن اسم القوتلي » . وهكذا تلا القوتلي الاسماء بعدد المراكز الا واحدا . فانبرى الحفار وصعد الى المنبر بحركة تكاد تكون تمثيلية وقال باعلى صوته : «لا نرضى بأن تتوج القائمة الا باسم الزعيم القوتلي.» واخذ القائمة منه وسجل اسمه على راسها ، فدوى صحن الجامع بالهتاف والتصفيق الشديدين وارتفعت الاصوات بالتأييد ، ما عدا الذين اغضبهم اقصاءهم عن القائمة ، مع انهم من الكتلويين القدامى ، وعتبوا على القوتلي ترشيحه عددا من المستقلين كنصوح البخاري وخالد العظم وسعيد الغزي والشيخ عبد الحميد الطباع . وهكذا برهن القوتلي عن حصافته السياسية بعدم حصر النيابة عن دمشق بأعضاء حزبه ، فادخل في قائمته اولئك المستقلين وضمن لها الفوز الباهــر .

فوزي بالنيابة عن دمشق

وجرى الانتخاب ، ففاز بالنيابة عن دمشق السادة : شكري القوتلي ، وسعيد الغزي ، ونصوح البخاري ، وجميل مردم ، ولطفي الحفار ، وخالد العظم ، ونجيب الريس ، وعفيف الصلح ، واحمد الشرباتي ، والشيخ عبد الحميد الطباع ، ونعيم الانطاكي ، وجورج

صحناوي ، ويوسف لينادو .

وعند فرز الاصوات ، ظهر ان سعيد الغزي نال عددا يفوق ما ناله شكري القوتلي ، فكانت مفاجاة غير سارة. ولم ترتح اللجنة لاعلان النتيجة الصحيحة . فكيف يصح ان ينال رئيس القائمة وزعيم البلاد اصواتا اقل من احد افراد قائمته ؟ فاضطر الاعضاء لانقاص عدد اصوات الغزي بما يجعلها تلي عدد اصوات القوتلي . وبالطبع ، فان هذا التعديل والتبديل لا يجوز تسميتهما تزويرا ، بل تجميلا يشبه تجميل العروس يوم عرسها حتى لا تفوقها غيرها جمالا وحسنا ، فتزوغ عين العريس عنها وتنصرف الى اوجه المدعوات الحسان .

اما نتائج الانتخابات في سائر المدن الكبرى فكانت مؤاتية للقوتلي ، ما عدا حلب حيث انتخب رشدي الكيخيا وناظم القدسي من غير قائمة الجابري ، زعيم الشمال . اما الاقضية ، ففاز عنها وجهاؤها واصحاب الكلمة فيها ، منهم الكتلوي ، ومنهم المستقل ، ومنهم من كان يتعاون مع رجال الانتداب .

وفي الفترة الواقعة بين انتهاء الانتخابات ودعوة المجلس للاجتماع ، حاول الافرنسيون تأخير موعده ، لكنهم لم يفلحوا . ودعي النواب للاجتماع في اليوم السابع عشر من شهر آب ١٩٤٣ ، فانتخب فارس الخوري رئيسا له ، وشكري القوتلي رئيسا للجمهورية ، بما يقارب الاجماع . اما الوزارة ، فعدا اسم رئيسها المرتقب سعد الله الجابري ، لم يكن يدري احد ممن ستؤلف .

وجاءني السيد صبري العسلي الى دمر واستمزجني بالاشتراك في الوزارة . فقلت له : « ان كان من اشتراك فليكن بتسميتي وزيرا للداخلية ». فقال : « اظن ان الرئيس وعد بها غيرك ». فقلت له : « لا بأس ، وانا ازاول اعمال النيابة فحسب . » واصررت على رايي فما كان من العسلي الا ان عاد لمشاورة القوتلي . ثم رجع ملحا علي بقبول وزارة الاقتصاد الوطني فرفضت .

وفي اليوم التالي اقام الجنرال كاترو وليمة تكريم للرئيس القوتلي، دعا اليها رؤساء الوزارات السابقة . وبعد الطعام، امسك الرئيس بيدي فانتحينا موضعا قصيا في الحديقة . وبدا الرئيس يحاول الحصول على قبولي بوزارة الاقتصاد . وقال انه يريد ان تكون الحكومة العتيدة مؤلفة من خيرة العناصر ، وان يتولى كل من اعضائها الوزارة التي تتصل بخبرته واختصاصه وان تكون الحكومة

براقة كالكأس المملوءة ماء قراحا او كالآنية الصينية ترن رنينا صافيا اذا ما طرقتها . وامسك بيده كأسا وبدأ يدق عليه بظفره . وكان المدعوون الاخرون يتطلعون الينا ويحسبون اننا غارقون في بحث يتناول الاواني الزجاجية ويعجبون لذلك . ولكني كررت اعتذاري ، واعدا بتأييد الحكومة وتكريس وقتي للعمل البرلماني . واستمر الرئيس — والكأس في يده يديرها يمنة ويسرى وينظر اليها نظرة المعجب — في الضغط علي حتى شعر بانه لم يعد مستحسنا تركه سائر المدعوين وانفراده معي . فقال : « فكـــــر في الامر واجبني غدا . » ثم انصرفنا .

تعييني وزيرا للمالية في وزارة عهد القوتلي الاولـــى

وفي اليوم التالي عاود العسلي مسعاه ، فقلت له : « وجدت حلا وسطا . » وقال بلهفة : « ما هو ؟ » قلت : « تسند الي وزارة المالية . » فقام لفوره وشكرني وذهب يحمل الجواب . وبعد الظهر ذهبت لحضور حفلة اقامها احد الاصدقاء ، فقابلني العسلي وقال : « نقلت الامر للرئيس ، فاجابني بانه كان عازما على اسناد وزارة المالية للسيد مظهر رسلان ، لكنه قال اخيرا انه سينظر في الامر . » وبعد قليل جاء السيد جميل مردم واعلن ان الوزارة قد تألفت ، ولم يشأ التصريح بأكثر من ذلك . فسأله العسلي خلسة عـــــن اسم وزير المالية فاجابه : « صديقك خالد بك . » فجـــاء فرحا ينبؤني بالخير .

واجيز لنفسي التوقف قليلا عن سرد الوقائع ، لاذكر شيئا عن صبري العسلي ، المجاهد والمناضل والنائب والوزير . فهو في مقدمة الشباب البارزين الذين عملوا في ميدان النضال الثوري والسلمي ، فكان من المجلين . ثم انه كان صديق القوتلي وبيت سره ، فاصدق له الوفاء ونـــاصره في كربته . وكـــان همزة وصل بينه وبين سائر الناس ، كلمته مسموعة عنده وقوله راجح . وهو يمتاز ، الى جانب الوفاء ، بمزايا عديدة في طليعتها الحزم والوطنية الصادقة وسعة التفكير والحيلة . وهو لطيف المعشر ، محبب الى القلب ، قوي الحجة ، طلق اللسان ، يتحمس لما يعتقد صحته الى اقصى درجات التحمس والافراط . واذا احب شخصا فدى نفسه لاجله . ولكنه اذا كره ، لا يترك للصلح بابا . وكانت نفقاته تتطلب اكثر مما يدر عليه عمله . ويا ليته كان اوفر مالا !

عرفته في مدرسة الحقوق في ١٩٢١ . ولكن صداقتي له لم تبدأ الا في ١٩٤١ ثم زادت متـــانة عـــلى مـــر الايام . سعى الى

مصلحتي وقابلته بالمثـــل . وهو من القلائـــل الذين لم تنقطع عرى صداقتي معهم . فما ازال اعتقد انه من اصلح رجالنا السياسيين الذين يفيدون بلدهم ويحسنون اليها .

اشترك في ثورة ١٩٢٥ وحارب الافرنسيين وهو يافع . ورافق النضال القومي السلمي من اوله ، وسجن مرارا ، وبرز في مجلس النواب كخطيب مفوه بصوته الجهوري وحماسته في تأييد فكرته . وتولى وزارة الداخلية مرارا فبدر منه نشاط كبير وفكر سديد ، لولا حزبية كانت تطغى بعض الاحيان على تصرفاته وتجبره على مسايرة النواب وذوي القوة الانتخابية في البلد وعلى تمشية مصالحهم الخاصة دون مراعاة المصلحة العامة .

ولنعد الآن لمتابعة سرد الحوادث . فبعد انتهـــاء الدعوة ، توجهت الى القصر الجمهوري فوجدت هناك من كان مدعوا للاشتراك بالوزارة . ولم يجر بين الحاضرين اي بحث ، اذ كان توزيع المناصب الوزارية جاهزا . وهكذا تألفت الوزارة الاولى في العهد الجديد ، وفق ما اراده لها الرئيس من تشابه بينها وبين الآنية الصينية التي ترن رنينا صافيا . ووقع الرئيس على المراسيم وتمنى لهـــا النجاح والتوفيق .

وها هي المناصب كما وزعت :

سعد الله الجابري ، رئيسا للوزراء ، جميل مـــردم ، وزيرا للخارجية ، لطفي الحفار ، وزيرا للداخلية ، نصوح البخـــاري ، وزيرا للدفاع الوطني والمعارف ، خالد العظم ، وزيرا للمـــالية ، مظهر رسلان ، وزيرا للاعاشة ، عبد الرحمن الكيالي ، وزيرا للعدل ، توفيق شامية ، وزيرا للزراعة .

ويلاحظ ان في الوزارة اربعة رؤساء وزارة سابقين وواحدا تسلم رئاسة الوزارة في شرقي الاردن ، وهو السيد مظهر رسلان . اما السيدان سعد الله الجابري وعبد الرحمن الكيالي فقد توليا الوزارة في العهد الوطني ، ما بين ١٩٣٦ و ١٩٣٩ . واما السيد توفيق شامية فقد تولى الوزارة في عهد الانتداب مرارا .

وقد روعـــي في تاليف الوزارة ان تمثل مدينة حلـــب برئيس الوزارة وباحدى الوزارات ، وان يمثل العنصر المسيحي في البلاد بشخص السيد توفيق شامية ، رغم انه ليس من النواب بل كان مرشحا للنيابة وحمله السيد القوتلي على سحب ترشيحه ليفوز محله السيد نعيم انطاكي . وقد تناول السيد شامية كرسي الوزارة ثمنا لكرسي النيابة ، وكانت بنظره صفقة رابحة .

كما يلاحظ ان بين اعضاء الوزارة ثلاثة مستقلين وخمسة من حزب الكتلة .

وارتاحت الاوساط لتاليف الوزارة على هذا الشكل . وعندما مثلت امام المجلس لنيل الثقة ، اجمع النواب على منحها الثقة ، ما عدا نائبين استنكفا عن ذلك ، وهما السيدان رشدي الكيخيا وناظم القدسي . وكان موقفهما هذا بداية المعارضة التي ازدادت توسعا على مر الايام ، ولم يكن منشؤها سوى الخلاف المحلي بين هذين النائبين والسيد سعد الله الجابري .

وليس لي ان اكتب تاريخ هذه الوزارة مفصلا ، ولكني اذكر باختصار بعض ما قامت به في النواحي العديدة من شؤون الحكم .

بعض ما قامت به هذه الوزارة من نشاط

كانت سياستنا الخارجية يوجهها ثلاثة : رئيس الجمهورية ، ورئيس الوزارة ، ووزير الخارجية . ولم يكن سائر الوزراء مطلعين على القليل او الكثير مما يعمل في هذه الناحية ، سوى ما يقرارنه في الصحف او ما ينبؤهم به وزير الخارجية بعد حدوثه . وكنت لا احبذ هذه المغـالاة في التكتم تجاه زملائهم بطبيعة الحـال . فهم مسؤولون معهم بالتضامن . لكنني لا اقول ، من جهة ثانية ، بان تبحث جميع شؤوننا الخارجية في مجلس الوزراء ، بل ارجح بيان الخطط العامة وتقريرها مع سائر الوزراء واطلاعهم على ما يجوز اباحته لكي لا يجد الزملاء انفسهم يوما ما تجاه الامر الواقع ، دون ان يكون في وسعهم تلافي الخطر مسبقا .

والامران البارزان اللذان عالجتهما وزارة الخارجية في ذلك العهد هما التفاهم مع الافرنسيين على استلام المصالح المشتركة ، والمشاورات التي دعي اليها النحاس باشا رئيس وزراء مصر بشان الوحدة العربية .

ففي الامر الاول اشتركت في المباحثات التي ادت الى تسلم الحكومتين السورية واللبنانية ادارة المصالح المشتركة ، كالجمرك ومراقبة السكك الحديدية وشركة حصر التبغ وسائر الادارات التي كان الافرنسيون يديرون شؤونها مباشرة . وقد اوضحت تفاصيل تلك الابحاث ونتائجها في جزء خاص من هذه المذكرات .

على ان الابحاث الدائرة بشان استلام الجيش والتي اشترك فيها ايضا السيد نصوح البخاري وزير الدفاع الوطني ، فلم تعط اية ثمرة . وظل الافرنسيون متمسكين بعدم اناطة قيادة الجيش بضابط سوري ، طيلة مدة الحرب . وهكذا بقيت هـذه القضية بين المد

والجزر حتى انتهت بحوادث العدوان في اواخر ايار ١٩٤٥ . حين انسحب الافرنسيون من الاراضي السورية وانتقلت القطاعات السورية بطبيعة الامر الى وزارة الدفاع الوطني .

اما المشاورات في القاهرة ، فقد سافر اليها السيدان الجابري ومردم فاوصلا صوت الحكومة السورية ، دون ان تكون هذه قد تداولت بالامر واقترحت خطة ما بتأييد فكرة الوحدة العربية . ولكن تلك المشاورات تحولت عن اتجاهها الاصلي ، فاتفقت الدول العربية السبع على انشاء جامعة سميت « جامعة الدول العربية » علق العرب عليها الآمال الكبار عند مولدها ، لكنها حين اينعت لم تعط الثمار الطيبة التي كان يؤمل ان تجنى منها .

ولم اتتبع آنذاك تلك الابحاث ليصح لـــي ان اخوض فيها مفصلا ، فاكتفي بذكر ما عرفته . وهو ان البرتوكول الذي عقد في الاسكندرية كان اوثق رباطا لعلاقاتالدول العربية ، بعضها ببعض، واوفى غرضا . وقد نقضت روحه وتبدلت نصوصه بالاتفاقية التي وقع عليها مندبو الدول العربية ، ثم ابرمت من قبلها ودخلت في دور التنفيذ . وكان لموقف مندوب لبنان السيد هنري فرعون ، وزير الخارجية ، الاثر الاكبر في هذا التقمص . ولم يثبت السيد عبدالحميد كرامي، رئيس وزارة لبنان، مقدرته الا على العمل دون اكتراث برأي فرعون ، مع انه كان في مقدمة العاملين في ميدان العروبة . ومرجع ذلك ، على ما اظن ، تمسك كرامي بعدم التخلي عن تأييد فرعون وجماعة الموارنة في موقفه السياسي الداخلي وعدم التفريط بمركزه كرئيس للوزارة ، بينما انظار السيد رياض الصلح شاخصة الى ذلك المركز ، يترقب اية هفوة تبدو من كرامي .

ولئن كان للعـــامل المذكور نصيبه في تجمد وجه النتائج ، فحري بنا الا ننسى ان فكرة الوحدة العربية لم تزل في دور التمخض، لا يشد ازرها سوى راي عـــام يتمسك في غالب الاحيان بنظريات ومبادىء حلوة ، دون ان يجد الوسائل المؤدية الى تحقيقها . واما الوزراء الذين لا ينتظرون ان يكون لهم في الدولة العربية الموحدة ما لهم من النفوذ وما يتمتعون به من امكانيات الاستمرار في حكم بلدهم، فغير مستبعد منهم ان لا يتحمسوا لدمج دولتهم في الدولة الموحدة .

وما بالك بملوك العرب ورؤساء دولهم وهم معرضون لاقصى التضحية الشخصية بالتنازل عن عروشهم ورئاساتهم ؟ وبخلد من

يدور ان ينحني عبد العزيز آل السعود امام فاروق ، او ان ينحني عبد الله امام فيصل ، او ان ينسحب الخوري من طريق القوتلي ؟ ليس هذا الا خيالا في خيال . اما اقصاء هذه الرؤوس المتوجة وانتخاب رئيس دولة موحدة من غير كل هذه الاسر والاوساط ، فيتطلب وجود شخصية قوية تستطيع فرض احترامها ومحبتها الاجماعية او القوية على الشعوب العربية . واننا نحتاج الى مصباح ديوجن للتحري عن تلك الشخصية ... وسوف لا نجدها في الوقت الحاضر على الاقل . ومن جهة ثانية ، يتوجب ان تنال مصر والعراق وشرقي الاردن الاستقلال الناجز ، وان تتحرر من قيود المعاهدات التي هي مرتبطة بها ، وان تخرج من اراضيها الجيوش الاجنبية المرابطة فيها ، والا فلا يؤدي انضمام الدول العربية ، بعضها الى بعض ، الا الى تفشي الاحتلال وتوسيع مدى النفوذ الاجنبي بسبب تلك المعاهدات . على اني لا اقول ذلك تثبيتا لهم ، ولكن تثبيتا لوقائع لا فائدة من نكرانها ، بل الفائدة كلها في العمل على تنمية هذه الفكرة في الاذهان وتركيز دعائمها ، رويدا رويدا ، حتى يأتي يوم تصبح فيه في متناول اليد .

هذه هي ابرز العوامل التي جعلتني اتخذ موقفا معاكسا لفكرة سورية الكبرى ، او الاتحاد السوري ــ العراقي . اذ كنت وما ازال اخشى ان تضيع سورية استقلالها الناجز ، حينما تنضم الى العراق او الى الاردن وهما يرزحان تحت وطأة المعاهدتين المعقودتين بينهما وبين بريطانيا .

•

رأيي في برامج ساطع الحصري التربوية

اما وزارة المعارف ، فقد تجلى نشاطها في تنفيذ ما اختطه السيد ساطع الحصري من برامج . ولا احد ينسى خطب النواب واصرارهم على وضع تلك البرامج موضع التطبيق ، وهي تتلخص في الغاء تعليم اللغة الافرنسية في الصفين الرابع والخامس ، والبدء به من الصف السادس فقط ، وفي انقاص سني الدراسة الى احدى عشرة بدلا من اثنتي عشرة .

وعندما عرضت هذه البرامج على مجلس الوزراء ، اظهرت عدم استحساني انقاص سني الدراسة وعدم تعليم اللغة الاجنبية منذ الصف الرابع . ولكن الحصري اصر على رايه وكان مدفوعا ببغضه للافرنسيين الذين اقصوه من سورية في ١٩٢٠ وراغبا في تطبيق المنهاج الانكليزي النافذ في العراق. ويعتبر سعدالله الجابري

مسؤولا بالدرجة الاولى عن تنفيذ آراء الحصري بدعمه اياه دعما شديدا كاد يحدث قطيعة بيني وبينه . واني اذكر اجتماعيمرة عند فارس الخوري وكان رئيسا للوزراء ، بالجابري وكان رئيسا لمجلس النواب . فاستوضح الجابري من الخوري عما اذا كان صحيحا ان ساطع الحصري قدم استقالته . فاجابه الخوري بالايجاب . فبدأ الجابري يثني عليه ويبين ان النشء الجديد سيصاب بكارثة عظيمة اذا ما حرم من مربيه الكبير ومرشده الخطير . فلم ننبس ، الخوري وانا ، ببنت شفة . فالتفت الجابري الي وقال : « الا ترى رايي ؟ » فاجبته : « لا . » فقال : « اذا لو كنت وزيرا للمعارف لقبلت استقالة الحصري ؟ » فاجبت : « فورا بدون تردد . » فغضب وقال : « انك لا تقدر الرجال . » فقلت : « بل اقدرهم حق قدرهم . » فقام على الفور وخرج من الغرفة دون ان يودعنا .

وفعلا كانت برامج الحصري كارثة على شبابنا . اذ اصبحت معرفتهم باللغة الاجنبية ضعيفة ، او بالاحرى معدومة بتاتا . وكان كل من ذهب الى فرنسا لاستكمال علمه يشعر بهذا النقص ويستحيل عليه فهم ما يلقيه الاستاذ من دروس ، مما كان يجبره على البقاء سنة اضافية لتعلم اللغة والتمرن عليها قبل ان يلتحق باحدى الجامعات . وقس على ذلك ما يعانيه طلاب الجامعة السورية من جهلهم احدى اللغات الاجنبية ، فيضطرون للاكتفاء بالكتب العربية القليلة العدد، دون التمكن من مراجعة الكتبالافرنسية او الانكليزية لزيادة اطلاعهم في سائر العلوم . وكنت اقول في معرض مناقشة برامج الحصري اننا نسعى للتخلص من النفوذ الافرنسي في بلادنا، ولكننا نخطىء اذا اقصينا لغة فرنسا من برامج تعليمنا او اضعفناها، لاننا بذلك لا نحاربالافرنسيين بل نحارب شبيبتنا ونحرمهم من منهل غزير .

ولكن ، بمزيد الاسف ، ذهبت معارضتي سدى . وسادت النعرة السياسية ، فنفذت برامج الحصري وادت الى النتائج السيئة التي بدأنا نلمسها . ولم يمض اكثر من ثلاثسنين حتى اضطرت الحكومة في ١٩٥٢ الى التراجع ، فاعادت تعليم الفرنسية الى الصفين الرابع والخامس والغت البكالوريا الموحدة التي خلقها الحصري لتعود البكالوريا الى ما كانت عليه في السابق. وهكذا انحصر الضرر بأولئك الشبان الذين قضى عليهم نحس طالعهم ان يصادف عهدهم الدراسي ، عهد تنفيذ تلك البرامج السخيفة .

والناحية الثانية التي اولتها وزارة المعارف اهتمامها هي زيادة المدارس ليكثر عدد المتعلمين . فلا تقاس مدنية امة بعدد من يتقن الجبر والكيمياء من افرادها ، بل بنسبة ما يلم به هؤلاء من بقية الفنون والعلوم والمهن . وما هي فائدتنا اذا اصبحت اكثرية السوريين مطلعة على خفايا العلوم الطبيعية والفلسفية ولم يكن لدينا من ممتهني الحرف العديدة ذلك العدد الكافي لحاجاتنا؟ واني لا اقول بالعودة الى ما كنا عليه في حالتنا السابقة ، من انتساب الولد الى المهنة التي يتعاطاها والده ، فيكون ابن النجار نجارا ، وابن الحداد حدادا ، بل اقول بان التعليم الذي يجب ان نجعله اجباريا هو التعليم الابتدائي فقط . اما الدراسة المتوسطة فيجدر بنا ان نحد من عدد روادها حتى لا نضطرهم ، بطبيعة الحال ، الى مواصلة التعليم العالي ، فيصبح لدينا من خريجيه عدد لا تستطيع البلاد ، وخاصة دوائر الحكومة، ايجاد عمل لهم يتناسب مع علمهم . فدوائر الدولة مشبعة بالعدد الزائد من الموظفين . والاعمال الحرة ، كالمحاماة والهندسة ومثيلاتهما ، ضيقة المجال لا تتسع للعدد الوفير من اصحاب الشهادات . وكثيرا ما سمعنا ان المتقدمين لمسابقة تجريها احدى الدوائر لتعيين كاتب واحد يبلغ مئة او اكثر .

ولذلك ، فان احداث مدارس مهنية يرتادها حاملو شهادة الكفاءة من شأنه ان يفتح امامهم سبلا عديدة تؤمن لهم في المستقبل مجالا للعمل وكسب العيش ، دون الاضطرار الى ولوج ابواب الحكومة واستعطاف اولي الامر لتعيينهم بوظيفة كاتب على الآلة او ما شابه ذلك . والخطر الذي المسه هو اننا ، بعد مدة ليست بعيدة ، سوف لا نجد شابا يحترف مهنة حرة ، بل جيشا عرمرما من طلاب الوظائف الحائرين في مصيرهم .

ولا باس من زيادة سني الدراسة الابتدائية سنة واحدة او سنتين فيرتفع قليلا سوية شهادة الكفاءة ، على ان يحدد عدد المقبولين في مدارس التجهيز وينحصر في من ينال الدرجات الاولى في المرحلة الابتدائية .

والى جانب ذلك لا بد من رفع سوية الاساتذة وتقوية التعليم في دور المعلمين . ولا غنى لنا عن تقوية شبابنا في اللغات الاجنبية في المدارس الابتدائية والتجهيز . ولا يقولن قائل بان اللغة غير لازمة للشبان في مهنهم ، فان التقدم لا يقتصر على الصناعات بل

يتناول ايضا سائر المهن الصغيرة . وانى لصاحب المهنة ان يتطلع الى تطور مهنته في البلاد الاجنبية اذا كان عاجزا عن قراءة جريدة مهنية لمعرفة ما يكتب فيها ، او في الكتب الجديدة التي تنشر في تلك البلاد ، من معلومات ودراسات خاصة بتلك المهنة .

وكنت كلما انسلم رئاسة الوزارة اطلب من زميلي وزير المعارف ان يدرس فكرة ما تزال في مخيلتي،دون ان يقدر لي تحقيقها. وكان اولئك الوزراء يستصوبون اقتراحي ويعدون بتكليف خبراء وزارتهم بدرسها . ولكن الوزراء كانوا يتبدلون قبل ان تنتهي الدراسة ، فتموت الفكرة قبل بزوغها . واساس هذه الفكرة هو الرغبة في ايجاد طبقة من الشباب تستحق لقب « ارستقراطية العلم » بان تنشأ مدرسة خاصة تتميز عن المدارس الاخرى بما يأتي :

١ — ينتسب اليها ، سنويا ، عدد لا يزيد عن الخمسين تلميذا من المجلين الاول في المدارس الابتدائية الذين يشهد اساتذتهم ومديرو مدارسهم بتفوقهم واستعدادهم الطيب .

٢ — يكون التعليم باللغات الثلاث : العربية والافرنسية والانكليزية، فتعطى دروس التاريخ والجغرافيا والآداب العربية، بالعربية ، وتدرس العلوم الرياضية بالانكليزية ، وتخصص اللغة الافرنسية للعلوم الطبيعية ، فتقوى عند التلميذ معرفة هاتين اللغتين الاجنبيتين لاضطراره الى درس العلوم بهما ، فيفيد اكثر مما لو كان يتعلمهما كلغة فحسب .

٣ — ينتقى الاساتذة الافرنسيون والانكليز لتعليم الدروس والعلوم المذكورة في الفقرة السابقة من خيرة الاساتذة في فرنسا او سويسرا او انكلترا او اميركا .

٤ — يقضي التلاميذ اوقاتهم جميعا ضمن المدرسة وفي حدائقها ولا يسمح لهم بالخروج منها الا في الايام التي تعطل فيها المدارس العامة عادة في الاعياد . ويرسل التلاميذ في جولات رسمية برفقة اساتذتهم الى البلاد العربية والاوروبية خلال العطلة المدرسية السنوية ، فيكسبون من مشاهدة تلك البلدان وينعمون بالاصطياف والنزهة على حساب الدولة .

وبعد ان تنتهي هذه الدراسة يوفد الناجحون الى البلاد الاجنبية للانتساب الى جامعاتها والحصول على الشهادات العليا في الحقوق والعلوم السياسية والمالية والاقتصادية والهندسة

بفروعها المتعددة،كهندسة المعادن والطرقوالابنيةوالعمرانوالتعليم.

ثم يدرب في البلاد الاجنبية من يحتاج تخصصه الى تدريب وتمرين في الامكنة المناسبة . واني لاجزم بانا اذا استطعنا الحصول سنويا على ثلاثين شابا مثقفا ومتمرنا على الاصول التي ذكرت ، نكون خلقنا مجموعة من الشباب تستطيع تسلم ادارة الشؤون الاساسية في دوائر الدولة ، فنطمئن الى حسن سيرها بفضل ما اكتسبته تلك النخبة من علم ناجح وتمرين عملي . اما الاخلاق الطيبة التي لا ينفع العلم بدونها فاننا ، بالحصار الذي نطوق به تلاميذ تلك المدرسة ، نكون ابعدناهم عن مهاوي الفساد في المدن ، مما يزيد في الضمانات التي يمكن ان نعول عليها في المحافظة على حسن خلقهم . هذا عدا ما يتلقونه في المدرسة نفسها من دروس في الاخلاق الحسنة .

شؤون وشجون وزارة العدلية

اما عن وزارة العدلية، فبدلا من ان يولي الوزير جهوده لدراسة القوانين التركية القديمة التي يستوجب الحال تبديل نصوصها لجعلها اكثر انسجاما مع التطور الحديث ، فقد حصرها في الحصول على موافقة مجلس النواب على منحه سلطةرفع الحصانة عن القضاة ليسرح من يعتقد عدم صلاحهم علما وخلقا ومقدرة . ولئن كانت نظريته لا تخلو من وجاهة ، من حيث عدم فائدة تعديل القوانين وتحسينها اذا لم يكن القضاة المدعوون لتنفيذها صالحين وقادرين ، فان الاجدر بنا ان نسير في المضمارين بنفس الاقدام والحزم . لكن الوزير الكيالي ، يدفعه الى ذلك السيد عارف النكدي ، اكتفى برصد اعتماد مالي في الموازنة لدفع تعويضات لاعضاء لجنة كلفها بالدراسات القضائية . وانتهت مدة ولايته دون ان تنتج شيئا ما .

ولم يكن زملاء السيد كيالي من الوزراء شديدي التحمس لمشروعه . لكنه اصر على تقديمه للمجلس ، حيث دافع عنه دفاع الابطال . وقد تمكن في النهاية من اقراره ، بعد ان ادخل عليه النواب ـــ بتأثير سعد الله الجابري الخفي ـــ مادة اشترطت موافقة مجلس الوزراء على مراسيم التسريح . فبدأ الوزير بتقديم اسمين او ثلاثة في كل اجتماع . وكنا نطلب اليه ان ينهي الامر كله دفعة واحدة ، فكان يعد بذلك ولا يفي .

وانتهت مراسيم التسريح باخراج عدد غير قليل من القضاة

استحق جلهم هذا الاقصاء . على ان عددا من الذين اقترح الوزير تسريحهم ايضا توصل ، باللجوء الى المقامات العليا ، الى النجاة من ذلك السيل الجارف . فبقي في القضاء الى ان جرفته موجة اخرى بعد مدة من الزمن .

وعلى سبيل المثال اذكر ان سبب تخلص احدهم من الغرق كان لانه شقيق طبيب رئيس الجمهورية . وعبثا حاولت حمل وزير العدلية على تبني مشروع انشاء قصر العدل وانجازه ، تخلصا من البناء الرث الذي كان مقرا لبعض المحاكم في ساحة الشهداء . واضطرت الوزارة لاستئجار غرف في بناية العابد لأيواء القسم الاخر من المحاكم ، بحيث تشتت مركز المحاكم واضطر المحامون للانتقال من بناية الى اخرى حاملين تحت ابطهم لباس المحاماة واضبارات القضايا .

وكانت بناية العدلية في ساحة الشهداء بحالة من القذارة والتداعي للانهيار ، حملت الحكومة على منح القضاة اجازة وإغلاق ابواب تلك المحاكم ، حتى لا يشاهدها المحامون العرب الذين عقدوا مؤتمرهم بدمشق في صيف ١٩٤٤ .

وهكذا بقيت قوانيننا الاساسية كما خلفها لنا الاتراك ، الى ان جاء السيد اسعد كوراني وزير العدلية في عهد حسني الزعيم واستصدر ، بمراسيم اشتراعية ، القانون المدني وقانون الجزاء وقانون الشركات المساهمة . كما صدرت فيما بعد ، بمراسيم اشتراعية ايضا ، قوانين اصول المحاكمات الجزائية والحقوقية وغيرها من القوانين الضرورية .

اما بناية قصر العدل فظلت اضابيرها تنتقل بين الدوائر ، دون ان تصل الى ميدان التنفيذ ، حتى استلمت وزارة العدلية في ١٩٤٦ وتابعت الامر بالحاح واستعجال . فوضعت المخططات النهائية وبديء بالانشاء الى ان انتهت ، فانتقلت المحاكم الى القصر الجديد في ١٩٥٢ .

وزارة الاعاشة هي الطامة الكبرى

اما وزارة الاعاشة والتموين ، فهنالك كانت الطامة الكبرى والثلمة التي افسحت للمعارضة في مجال ابراز وجودها وتهديم الوزير السيد مظهر رسلان ، بحيث ادت فضائح دوائر الاعاشة الى تضعضع جهاز الدولة وفقدان الثقة في الطبقة الحاكمة .

وليس لدي ما يحملني على الشك في نزاهة الوزير . فالتحقيقات

التي جرت لم تتناوله بالذات،بل تناولت بعض الموظفين. ورغم كون التقرير الذي رفعته اللجنة المكلفة بالتحقيق لم يشمل الا بعض القضايا التي ثارت حولها التقولات والشبهات ، فلم تاخذ الحكومة بذلك التقرير ولم تدن احدا من الموظفين الذين آخذهم ذلك التقرير على سوء تصرفهم .

على ان الامر الذي لا يمكن لاحد انكاره ، هو ان توزيع الكوتا بين التجار المستوردين ، وكثيرا من الصفقات التي عقدتها وزارة الاعاشة ، لم تخل من الريبة ومن سوء التصرف . وقد استغل كثير من موظفي تلك الدائرة ما كانوا يتمتعون به من سلطات لا يحاسبهم عليها ولا يستطيع ردعهم عنها سوى رئيسهم الوزير . وقد اثرى بعض التجار بفضل ما كانوا يحصلون عليه من منح وامتيازات تجود بها عليهم وزارة الاعاشة ، في وقت كان التصدير والاستيراد منوطا بسبب الحرب العالمية ، برخص خاصة تمنحها تلك الوزارة لمن كان مقربا لدى الرئيس او الوزير او الموظف ، او كان لا يتورع عن سلوك اساليب غير شريفة للعب من ذلك المنهل .

واذا اضفنا الى ذلك ما كانت وزارة الاعاشة تقوم به من منح القطع النادر للمحاسيب والانسباء والانصار من التجار والنواب وغيرهم ، ومن منعه عن غيرهم ، دون ان تكون ثمة قاعدة ثابتة تعطي بموجبها الرخص والمنح ولا تدع مجالا لسوء الاستعمال والتحيز والنفع الخاص، لوجدنا للساخطين عذرا في رفع اصواتهم احتجاجا واعتراضا ، سواء كانوا في صفوف النواب اصحاب الحق في مراقبة اعمال الحكومة ، او من التجار اصحاب الحق في المطالبة بتطبيق العدالة والتساوي في الحصول على ما هم بحاجة اليه من رخص استيراد او قطع نادر .

وكما كان الرئيس الجابري يشد ازر ساطع الحصري في متابعة تطبيق برامجه ، فانه كان يسدل ستار حمايته على وزارة الاعاشة بوزيرها وسائر موظفيها ويستنكر كل صوت يرتفع محتجا او مطالبا بتحقيق واصلاح . وكثيرا ما كان النقاش يشتد في مجلس الوزراء بيني وبين الوزير المسؤول ، فيتداخل رئيس المجلس بشتى الوسائل ليوقف الجدال وتهدئة الخواطر دون ان يأخذ بناصري او يعير اهتماما للتقارير التي كنت اضعها بذكر ما يصل الى علمي من المفاسد وبطلب اصلاح الحال .

واريد ان اثبت هنا بشكل لا يدع سبيلا للتاويل وسوء التفسير

ان سعد الله الجابري كان شخصا فوق اية شبهة من حيث النزاهة وطهارة اليد . ولا يخطرن ببال احد ممن يقراون هذه الاسطر انني اشرك المرحوم الجابري ، كثيرا او قليلا ، بمساوىء وزارة الاعاشة، او ان امسه بتهمة او حتى بشبهة . ولكنني لا ابرؤه من نقيصة يشاركه بمثلها الكثيرون ممن تولوا الحكم في بلادنا ، وعلى راسهم الرئيس القوتلي . فهم مصابون بداء الحزبية وبعلة « أنصر أخاك ظالما او مظلوما » ، اذ كانت الروح الحزبية الضيقة تجعلهم مدينين بمناصرة اخوانهم في الحزب ورفاقهم في الجهاد الوطني وترويج اعمالهم ومساعدتهم في اغراضهم ، سواء كانوا على حق ام لا ، وسواء كانت خدماتهم سابقة او مرتقبة في المستقبل . وكذلك كانوا يرون لزاما عليهم ان يمنعوا الاذى عن رفاقهم ولو كان الاذى مستحقا . وكانت هذه العقلية سبب النزاع المستمر بيني وبينهم في جميع الادوار ، ليس لانني غير منتسب لاي حزب فحسب ، ولكن لانني لو كنت حزبيا لما كانت الحزبية لتعميني عن رؤية الحقائق كما هي ، وعن مؤاخذة المسيء بسيئاته ، وعن ايصال الحق الى صاحبه ايا كان . تلك هي خطتي في جميع الوظائف التي وليتها . وقد سبب لي هذا التمسك بالمبدأ متاعب كثيرة ومشاكل عديدة وابعادا عن الوزارة ورئاستها مرارا . ولكنني لست نادما ولا لائما نفسي . فان اية خسارة في هذا السبيل لا تعادلها ، في قليل او كثير ، راحة الضمير التي اشعر بها لاعتقادي اني ارضيت الحق والعدل وخدمت المصلحة العامة ، غير مكترث باضاعة الفوائد على غير مستحقيها ولو عمدوا الى اضراري وازعاجي . وخير مكافاة التمسها هي ان يقول احد الناس عني انني عادل ومعط الحق لصاحبه دون التحيز لصديق او نسيب او زميل . وهذه الثقة لدى الناس هي اغلى ما يقبضه الحاكم اجرا على عمله وجهده . وهي لا تقوم بمبلغ من المال . فالمال زائل والجسم فان . لكن السمعة الطيبة باقية يفتخر بها المرء طيلة حياته ، ويورثها اولاده واحفاده غير مجزاة فيما بينهم ، ودون ان يدفعوا ضريبة الارث عنها .

بقي علي ان اذكر ما قمت به من الاعمال في وزارة المالية .

نشاطي في وزارة المالية

لقد كان استلام دوائر المصالح المشتركة من قبضة الافرنسيين واقامة دوائر سورية محلها ، العمل الابرز في عهد وزارتي . وقد

تناولت هذا البحث مفصلا في قسم خاص من هذه الذكريات . وكذلك فقد افردت بابا خاصا لذكر كل ما يتعلق بالنقد السوري وفك ارتباطه عن الفرنك الفرنسي ، فليراجع في محله . وكان في طليعة الامور التي اخذت القسم الكبير من وقتي ، والقسم الاوفر من جهودي وعنائي ، تحضير ميزانية الدولة لعامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ . فقد كانت ميزانية عام ١٩٤٣ ، الذي استلمنا الحكم بمنتصفه الثاني ، لا تزيد ارقامها عن ٤٩ مليون ليرة سورية . وعندما انجزت وضع ميزانية ١٩٤٤ بلغت ارقامها ٧٠ مليون ليرة سورية . كانت اول ميزانية للدور الاستقلالي ، فأراد بعض النواب ان يظهروا وجودهم ويبرهنوا على بأسهم وسلطانهم . فاقترحوا رد الميزانية اجمالا قبل الدخول في درسها لدى اللجنة المالية ومناقشة ابوابها وارقامها . وحجتهم في ذلك ان الميزانية عادة هي برنامج الحكومة في اعمالها للسنة القادمة ، وان ما قدمته لم يكن الا متابعة للماضي ولا جديد فيه . وعبثا حاولت اقناعهم بالعدول عن رايهم ، مبديا اننا لم نستلم الحكم الا في اواخر شهر آب بحيث لم يمض على حياة الوزارة اكثر من شهرين لا نستطيع خلالها وضع برنامج جديد ، الا اذا جاء مبتسرا غير مدروس درسا وافيا . فالمجال امامنا وسيع في السنة القادمة للقيام بهذه الدراسات ، حتى اذا تمت ووافق عليها المجلس رصد لها اعتمادات خاصة . واضفت الى ذلك ان رد الميزانية بمجموعها على هذا الشكل غير دستوري ولا يمكن ان يفهم منه سوى عدم الثقة بوزير المالية والحكومة كلها . ولكنني لم اشأ ان اطرح الثقة بشكل جلي ، قبل استشارة رئيس الحكومة الذي كان مع اكثر الوزراء في دار الحكومة . فهتفت له بما يدور في مجلس النواب ، فهرول مسرعا لنجدتي واشترك في النقاش مؤيدا اقوالي . وانتهى الامر بطرح اقتراح رد الميزانية فرفضته الاكثرية . وتنفسنا الصعداء لاجتياز الحكومة اول صدام بينها وبين فريق من النواب كان رشدي الكيخيا اجتذبه لجانبه واتخذه نواة للمعارضة التي سمت نفسها فيما بعد بحزب الشعب .

ولئن انتصر الجابري في هذه الجلسة بما كان حائزا عليه من ثقة اكثرية النواب ، فان انشغاله بمهام الرئاسة والشؤون السياسية العامة في الداخل والخارج استوعب وقته واشغله عن الالتفات الى شؤون المجلس والحيلولة دون تفشي روح المعارضة

بين النواب وازدياد عـــدد المناوئين للحكومة . وسأفرد لهذا الموضوع بحثا خاصا عند الانتهاء من ذكـــر خلاصة اعمال كل وزارة .

وكان مشروع ميزانية ١٩٤٤ يزيد عن ميزانية ١٩٤٣ بما يعادل ٢١ مليون ليرة ، اسبابها الزيادات التي لم يكن بد عـــن اضافتها على ميزانيات الوزارات .

ولذلك اضطررت للاعتماد على زيادة نسب بعض الضرائب والرسوم كالتبغ . وكذلك كانت الحال في مشـــروع ميزانية ١٩٤٥ اذ بلغت ارقامها ١٢٠ مليون ليرة سورية. وزيدت نسب الضرائب لمقابلة توسيع ميزانية النفقات . والجدير بالذكر في هذا العرض ان النواب عنـــد مناقشة الميزانية كانـــوا باكثريتهم يتقدمون باقتراحات ترمي الى زيادة النفقات دون ان يشيروا الى الناحية التي يطلب منها تسديد الفرق ، سواء كانت بموارد جديدة او بطي بعض النفقات . وكانت اجتماعات لجنة الموازنة ميدانا للنزاع بين النواب من جهة ، وبين وزير المالية ، من جهة ثانية . وكانت تبلغ المجادلات والمناقشات حدا عاليا . ولو ان وزير المـــال اصغى لاقتراحات النواب وطلباتهم لتضاعفت ارقام الميزانية . واغرب ما في الامر ان النائب او اللجنة ، عندما كان يعجز عن تدبير مورد جديد يسد العجز الناشىء عن الزيادات المقترحة في النفقات ، كان يجد الملجا الوحيد هو زيادة تقدير موارد الضرائب والرسوم عما جاء في مشروع الميزانية ، استنتاجا مما دخل الى صندوق الدولة من ذلك الباب . وكنا نرفض هذه التقديرات غير المستندة على ادلة صحيحة . لكن اللجنة كانت تصر وتقدم تقريرها عـــلى اساس تقديراتها هي لا تقديرات وزارة المالية .

وكان مدير المالية العام ، السيد حسن جبـــارة ، سندي ومحل اعتمادي في تلك المناقشات . وكانت خبرته وسعة اطلاعه تثيران التقدير والاعجاب . وكنت لا استطيع ضبط اعصابي من التوتر حينا ، ومنع نفسي عن الضحك حينا آخر ، تجاه الجدال العنيف الذي كان يسيطر في الاجتماعات .

وكان موقف السيد جبارة في الدفاع عن خزينة الدولة دفاع البخيل من ماله ، يثير شعورا يتراوح بين الاعجاب والضحك . وكان النواب يجهلون قوانين الدولة، وخاصة ما كان له علاقة بالضرائب والرسوم ، فيسود جبارة عليهم بغزارة علمه وبوفرة مسرائه

واختصاصه . وكانت حججه قوية في رد مساعي النواب ونظرياتهم . أما الاجوبة والاحصاءات المالية التي كان يعطيها لهم ، فلم تكن خالية من المواربة وبعض التضليل والتحريف . وقصده من ذلك قطع السبل امام النزعات الطائشة الرامية الى زيادة النفقات واظهار استحالة تلبية تلك الطلبات .

والطريف في الامر انني في بعض الحالات كنت اصدق ما يجيء على لسان السيد جبارة من الارقام والاحصاءات ، فاندفع في مساندته بشدة وارفض بحزم الموافقة على اقتراحات النواب. فيتأزم الموقف ، وعندها يهمس لي السيد جبارة بامكان التساهل قليلا فاضحك لاكتشافي مواربته، كما كنت اكتم الضحك في الحالات التي كنت فيها مطلعا سلفا على ما سوف يحاوله من ذر للرماد في عيون النواب ، والادلاء بارقام بعيدة عن الحقيقة . وكان صوته يرتفع بالاعتراض على طلبات زيادة التقديرات ويحمر وجهه وتنتفخ عروق رقبته ويتظاهر بالرغبة في الانسحاب لعجزه عن تمشية الامور على الوجه المقترح. والخلاصة، فان الجبهة التي كانت مؤلفة مني ومن المدير العام السيد حسن جبارة كتب لها النجاح الباهر في ادارة شؤون الميزانية ، سواء بالوقوف امام الكثير من نزعات النواب او بالتوفيق في ادارة امور الدولة المالية والحفاظ على مصلحة خزينتها ، بحيث تراكم فيها ، اواخر ١٩٤٥ ، ما يقرب من خمسين مليون ليرة وفرا صافيا .

والحقيقة الواجب اعلانها هي ان وزارة المالية كانت محظوظة بكبار موظفيها وعلى رأسهم امناؤها العامون المتعاقبون السادة حسن جبارة ، وهنري رعد ، وعزت الطرابلسي ، سواء في تخصصهم وعلمهم ومرانهم وحسن ادارتهم ، او في طهارة يدهم واستبسالهم في الدفاع عن مصلحة الخزينة لحد قد يوصف ، في بعض الظروف ، بالامساك والتقتير .

زيارتي للرياض مع جميل مردم

قال لي ذات يوم السيد جميل مردم ، وزير الخارجية ، انه سيسافر الى الرياض لزيارة عاهل المملكة العربية السعودية ، الملك عبد العزيز . فقلت له اني تواق للتعرف الى تلك البلاد ومليكها وأسرته . واخبرت رئيس الجمهورية فلم يظهر ارتياحا لسفري الى الرياض . ولعله كان يقصد ان يحتكر لنفسه معرفة الملك السعودي بالشخصيات السورية . لكنه ازاء اصراري لم يسعه

الا ان يتمنى لي سفرا سعيدا . وبارحنا دمشق بالسيارات الى رياق حيث اجتمع المسافرون معنا ، وهم السيد فخري البارودي وبعض موظفي وزارة الخارجية . وركبنا القطار وتوجهنا الى حلب ومنها الى بغداد ، حيث زرنا سمو الوصي الامير عبد الاله، ومنها ركبنا القطار الى البصرة . وهناك امتطينا السيارات التي كان الملك عبد العزيز ارسلها لتوصلنا الى عاصمة الحجاز . فمررنا بالكويت وتابعنا سيرنا بصحراء موحشة واجتزنا منطقة اسمها (الدهناء) ، تربتها رملية توشك السيارات ان تغوص فيها في كل لحظة ، فلا تقدر على التخلص الا اذا نزل ركابها ودفعوها حتى تخرج من الرمل . واذا اضفنا الى ذلك ما يشعر به المسافر عندما تقفز السيارة وتهبط بالحفر الكثيرة فيرتطم راسه بسقفها ثم يرتمي فوق جاره ، بدت لنا مشقة الرحلة هذه . على انه لم يكن ثمة وسيلة اخرى للوصول الى الرياض ، أذ ان السفر بالطائرة في ١٩٤٤ لم يكن معروفا . وفي المساء وصلنا الى المحل المقرر ان نبيت ليلتنا فيه . ولم تكد السيارات تقف حتى قفز العبيد الذين آرسلوا من الرياض لمرافقتنا في الطريق والعناية بخدمتنا ، وبداوا باقامة صيوان كبير وصيوان آخر اصغر منه . وأشعلوا الحطب وذبحوا الخرفان واعدوا لنا عشاء مؤلفا من الارز واللحم، فاكلنا بشهية جيدة . وكم كان منظر الصحراء الواسعة جميلا ، ونحن حول النار المتقدة ، جالسين على طراريح ممدودة فوق السجاد البديع ، تقدم لنا القهوة والشاي على التوالي ، ونور القمر يلمع في السماء ويسبل على المنظر اشعته الفضية فيبعث الخيال حتى في صدور غير الشعراء ، فما بالك بمن كان مثل فخري البارودي الذي اخذ ينشد الشعر ويتحفنا بحديثه السلس العذب .

وكان السيد جميل مردم قد شعر بانحطاط في جسمه فانزوى في خيمته ، حيث استلقى على السرير . وارتفعت حرارته وقضى ليلته مريضا . اما انا فقد خشيت ان انام في السرير فتلدغني العقارب التي كانت تتجول بيننا بدون وجل ، فتبعث فينا الخوف. لذلك فضلت ان اقضي الليلة ضمن السيارة حيث استرسلت في النوم بدون رغبة .

وفي الصباح تابعنا السفر فوصلنا الى الرياض بعد الظهر والتقينا بالدكتور مدحت شيخ الارض الذي جاء لاستقبالنا ورافقنا

الى القصر ، حيث دعينا للمثول امام الملك للسلام عليه .

والقصر الملكي مؤلف من فسحات واسعة وغرف عديدة وابهاء كبيرة . لكن طراز بنائه المشاد من التراب لم يكن ليدل على عظمته ، لولا ما يشاهده الزائر من الاثاث الغالي والسجاد الفاخر .

وكان القصر دائما يعمر بالامراء وكبار الموظفين والمراقبين والجنود والعبيد ، وكل منهم ممنطق بسيف وخنجر وكأنه في ساحة الوغى .

مشاهداتي في السعودية وانطباعاتي عنها

ودخلنا البهو الكبير فرأينا الملك جالسا على مقعد وثير بزاوية الصدر اليسرى ، والى جانبه منضدة فوقها آلة الهاتف . وتقدمنا اليه فانتصب واقفا بقامته الطويلة ورحب بمقدمنا واجلسنا الى جانبه . وجلس رفاقنا وحاشيته على سائر المقاعد الموجودة حول البهو . وقد جلب انتباهي ان الامراء ابناء الملك لم يجلسوا بجانبه ، بل قعدوا بجانب الباب بعيدين عن سائر الحاضرين ، اصغرهم سنا ملاصقا للباب والى جانبه اخوانه ، بحسب تقدمهم في السن . كما ان احدا منهم لم يشترك بالحديث بل ظلوا كلهم صامتين متفرجين . وهذه الاصول شاهدتها عند كل امير قمنا بزيارته . فكان صاحب الدار يجلس في احدى زوايا صدر البهو والى جانبه زواره . اما اخوانه فكانوا يجلسون الى جانب الباب ولا ينبسون ببنت شفة . وانهم يعتبرون ذلك من واجبات التأديب التي يتقيد بها الصغير تجاه الكبير . ولا يشذ عن هذه القاعدة حتى الامراء الصغار الذين لا يتجاوز عمرهم العشرين . فكانوا بمجلسهم يتصدرون القاعة ، واخوانهم يلتزمون جانب الباب ولا يشتركون بالحديث مطلقا . ولئن كانت دلائل الاحترام هذه موضع تقدير الزائرين ، فهي تظهر كذلك روح الالفة الصميمة التي يستحسن ان تسيطر على علاقات الاخوان الذين لا يزيد عمر الواحد منهم عن الآخر اكثر من بضعة اشهر او حتى بعض ايام .

ولم تدم مقابلتنا للملك اكثر من ربع ساعة . فاستأذنا منه وتوجهنا الى قصر الربيعة المعد لاقامتنا . وهذا القصر يبعد عن الرياض نحو عشرين كيلومترا . وهو مبني كسائر القصور باللون الترابي . وكان التراب تحتنا وعلى جوانبنا الاربعة وفوق الخشب الذي يعلو رأسنا . والقصر مؤلف من عشر غرف تحيط بباحة سماوية . اما بهو الاستقبال فهو الممر الذي يوصل الى هذه

الغرف حول الباحة . واثاث الغرف لا يتناسب بأي حال مع ما يجب ان يحويه قصر اعد لكبار زوار الملك . وكانت غرفتي لا تحوي سوى سرير حديدي ومنضدة وكرسي . وكانت الغرفة المجاورة فارغة ، في وسطها طنجرة كبيرة تملا بالماء الساخن للاستحمام . وكان في احدى نواحي الغرفة مرحاض ، وهو فتحة تعلو بئرا عميقة ذات رائحة غير طيبة .

وظل السيد مردم طريح الفراش خمسة عشر يوما قضيناها في شرب الشاي والقهوة ، في القصر ، وفي التجول في المدينة متفرجين . وكنا كلما تجولنا في الازقة نلمس بؤس الاهلين وفقرهم وحالتهم المزرية ونشاهد الاوساخ والقاذورات في الشوارع والساحات ونخترق اسراب الذباب المتطاير ونأسف لهذه الحالة التي لا تطاق ولا تأتلف مطلقا مع ما يجب ان تكون عليه عاصمة المملكة ، والتي لا تشاهد الا في صغرى القرى السورية . أما حجة القائمين على الامر بأن المملكة غيرموفورة الموارد — اذ لم تكن آبار الزيت قد اعطت ثمارها بعد — فانها حجة لا تتفق مع ما يشاهده الزائر من الاسراف الواسع في قصور الملك على المآدب العديدة ، او مع الهبات التي كان يمنحها الملك بسخاء غير محدود لمن ينال منه حظوة او يلتمس منه مآربا .

وفيما عدا الايام التي كنا ندعى فيها للولائم عند الامراء ، فاننا كنا نتناول طعامنا في قصر الربيعة ، فنشاهد في الصباح ورود الخروف المعد للذبح وكيس الارز وتنكة السمن لتأمين اكلنا نحن والعبيد الكثيرون الملتفون حولنا . ولكن حظنا من الطاهي كان سيئا . فالطعام الذي كان يطهيه لم يكن شهيا ، مما دفع احد رفاقنا ، وليد صبحي العظم ، الى دخول المطبخ للاستطلاع ومعرفة اسباب عدم جودة المأكل . فعاد قائلا : « احمد الله على انكم لم تشاهدوا ما شاهدت من حالة الطباخ والمطبخ » . وعكفنا بعد ذلك على الاكتفاء بعلب الكونسروه المسخنة .

اورد هذه المشاهد للمقارنة بين الحالة التي كانت سائدة في ربيع ١٩٤٤ وبين الحالة التي شاهدتها عندما عدت الى الرياض في ١٩٥٠ ، حين لمست البون الشاسع في الترف والاتقان وطيب المأكل ، اذ كانت الدولارات قد فعلت مفعولها وزودت القصور بوسائل الراحة والترف. واستجلبَ الطهاة الامريكيون، واصبحت الموائد تجمع بين الوان المآكل العربية والافرنجية بما يفتح الشهية

ويرغب المدعو في الاقبال على الطعام بنفس مطمئنة .

وبعد ان استعاد السيد مردم صحته ، تجددت المآدب احتفالا به . لكنه لم يستطع مقابلة الملك لانه كان قد غادر الرياض الى الفسحة الربيعية في الصحراء . فودعنا الامراء وتوجهنا الى روضة التنهاد حيث مقر الملك . وهذا المقر مؤلف من مئات من الخيم موزعة في ساحة طولها نحو عشرين كيلومترا ، وعرضها لا يقل عن ذلك . اما مركز اقامة الملك فهو مؤلف من عشرات الخيم الكبيرة ، منها ما هو معد لسكنه هو وزوجاته واتباعه ، ومنها ما هو معد للاستقبال والولائم وهي مفروشة بالسجاد وعلى جوانبها الاربعة مقاعد وثيرة مغطاة ايضا بالسجاد والمساند . اما الطعام في الخيمة الخاصة فموضوع في عشرات الصحون على الارض ، فيجلس المدعوون حوله القرفصاء ويتناولون بايديهم ما يختارون من الانواع التي لا تحصى . وكان الملك يجلس على كرسيه ذي العجلات ينظر من اعلى الى جميع مدعويه ويؤانسهم بالكلام ويتحفهم بيده الكريمة بقطع اللحم الكبيرة التي يقطر منها الدهن والسمن فيتلقفونها كمنحة سخية . وبعد الانتهاء من الطعام يغادر المدعوون المكان ويعودون الى خيمة الاستقبال ، حيث يستمعون الى اخبار الساعة يتلوها عليهم ثلاثة موظفين يركعون امام الملك ، اولهم لنقل اخبار القاهرة ، والثاني لنقل اخبار لندن ، والثالث لنقل اخبار برلين . فكان الملك يوقف القارىء بين الفترة والاخرى ليعلق على الخبر ذاكرا ملابساته ونتائجه ويستعين بندمائه وكبار حاشيته (كالسيد خالد القرقني ويوسف ياسين وغيرهما) لتذكيره باسم شخص او بلد ياتي الى خاطره دون ان يسعفه لسانه بذكره . وكان يفتش باصابعه ويقول لاحدهم : « اشنو اسمه يا خالد ... او يا ياسين » . وعندئذ ترى اضطراب المخاطب وتلعثمه ، اذ لا يكون سياق الكلام يدل على الاسم المطلوب فيدفعون باسم تشرشل وروزفلت وستالين وهتلر وموسوليني عفوا ... او يقذفون باسم لندن او واشنطن او برلين او روما احتياطا ، لعلهم يصيبون المرمى وتؤاتيهم الصدفة الى اكتشاف الاسم الذي يفتش عنه الملك وهو مستمر على فتش اصابعه والنظر الى مجاوريه شزرا كلما طال الامد ... فاذا ما عثر احدهم على الاسم ، انفرجت الاسارير وعاد الصفاء الى وجوه حملة العرش .

عادة الملك السعودي في استقبال زائريه

ثم يؤتى بالفاكهة وانواع الحلويات ، وبعدها يطوف احد العبيد بحنجور العطر الشديد الرائحة فيصب في يدي كل زائر كمية قليلة منه يبقى شذاها بضعة ايام . والطواف بالعطر اشارة للزائرين بالانصراف لم اكن اعرفها . وصدف انني كنت عند الملك في الرياض مدعوا الى العشاء . وعندما طاف علينا صاحب العطر ، لم يخطر في بالي انها الاشارة بانتهاء المجلس ، فظللت اتحادث مع الملك منتظرا ان يقف لاستأذن منه بالانصراف ، وفقا لما اعلمه من التقاليد المتبعة لدى الملوك او الكبار . فعاد صاحب العطور بعد ربع ساعة وصب في ايدينا وجبة جديدة حسبتها زيادة في التكريم . وحانت مني التفاتة الى صديقي الدكتور شيخ الارض فاوما الي بلزوم الاستئذان من الملك فقمت عندها وبارحنا البهو وجاء الي الدكتور وقال لي : « لماذا لم تستأذن عندما طيف علينا بالعطور للمرة الاولى ؟ » فاجبته : « وما علاقة العطور بالاستئذان ؟ » فاعلمني العادة المألوفة فضحكت وضحكنا كلنا للهفوة التي بدت مني وصرت اذا ما دخل موزع العطور على البهو الذي نكون فيه اتنحنح في مجلسي ولا ادعه يكمل طوافه ، حتى اقوم واستأذن بعجلة ظاهرة والملك يبتسم . وكان الدكتور قد روى له قصتي ، فضحك كثيرا وقابل مخالفتي لقواعد البروتوكول المعمول به في بلاطه بدون غضب .

وكان الملك يختار كل سنة منطقة يقضي فيها شهرا او اكثر من اشهر الربيع . وقبل ان ينتقل العاهل الى المكان المختار كانت سيارات النقل الكبيرة تروح وتجيء من ، والى ، الرياض وتنقل الاثاث وادوات المكتب ومعدات الطبخ وغيرها من الامتعة وتنصب الخيام في المراكز المقررة لكل اسرة . وكانت الكهرباء تنار بمحرك خاص ، والمياه تضخ من البئر ، ثم تأتي سيارات العائلة المالكة ، الفخمة منها والعادية . فكان بعضها ذا سدائل داخلية محكمة لحجب السيدات عن اعين الناس . ثم يصل موكب الملك وحاشيته الخاصة فيكتمل الجمع . ويبلغ سكان تلك المدينة بين العشرين والثلاثين الفا فتصبح عاصمة الملك المتحركة التي منها يتصل بامرائه وعماله بواسطة اللاسلكي . وكان الملك مولعا باللاسلكي ولعا كبيرا ويعتمد عليه لمخابرة عملائه يوميا في كل قرية ليطلع على حالة الامن وانتقال العشائر وما يجري في سائر انحاء مملكته ، كما كان يعتمد على السيارات ويقتني منها

الالوف يستعملها للهدايا ولتأمين المواصلات في بلاده . وكان محقا في اعتماده على هاتين الواسطتين السريعتين ، اللاسلكي والسيارة ، فلولاهما لما تيسرت له السيطرة التامة على انحاء مملكته الواسعة الارجاء .

وكانت الخيمة المخصصة لي في روضة التنهاد مفروشة بأثاث يستغرب وجوده في هذه الصحراء . كان احسن من مفروشات قصر الربيعة في الرياض . فالسرير مغطى بناموسية ناعمة ، والخزانة مفصصة ، والمقاعد مكسوة بالقماش المخملي ، والمرآة كبيرة ، والسجاد العجمي فاخر . وكان الى جانب هذه الخيمة ، خيمة اخرى اصغر حجما ، في وسطها وعاء كبير من النحاس يمكن استعماله كمغطس للاستحمام .

في هذا الجو وعلى هذا الشكل كان يعيش الملك ابن سعود ، محاطا بحاشية لا يقل عددها عن المئة ، وبجيش من الخدم العبيد يحصون بالمئات . وكان يدير شؤون مملكته بنفسه، ويستقبل السفراء والزوار وافراد رعيته . وكانت لذته في هذه الحياة الدنيا ، العطر والنساء والقنص .

وكنا بعد الاستئذان من الملك والخروج من خيمته ، نجتمع في الخيمة المعدة لنا كصالون . فياتي لزيارتنا كبار حاشية الملك وهم السادة : خالد القرقني ، ورشيد عالي الكيلاني ، وخير الدين الزركلي ، والشيخ يوسف ياسين ، والدكتور شيخ الارض . وقد جاء كل واحد منهم من احدى البلاد العربية . فتجمعوا حول الملك يعيشون بكنفه وهو يستشيرهم بأموره ويعهد اليهم معالجة بعض الشؤون . وقد اصاب في استجلاب الكثيرين من ابناء العرب ، كالشخصيات التي ذكرتها وغيرهم ممن يخطر على البال اسمهم ، كرشاد فرعون واسعد الفقيه ، ومن لا يخطر . ولولا هؤلاء السادة لما استطاع ان يدعم اسس ملكه مستعينا بالخبرة التي يتحلون بها . وقد كانت المراكز التي تبواها السادة المشار اليهم ، مجلبة لنفع عميم ، ما كانوا يحلمون بجزء منه لو بقوا في ديارهم الاصلية . على ان الحياة في تلك الربوع القاسية لم تكن محتملة بدون تلك النعم المغرية . وقد اعطوا الملك زهرة شبابهم وكرسوا وقتهم لخدمته ، فليس مستغربا ان ينالوا منه ما نالوا .

لم يكن الغرض من السفر الى الرياض سوى تمتين عرى الروابط بين المملكة العربية السعودية وسورية . ولم تدر ، على ما

اعتقد ، ابحاث في مواضيع معينة بين الملك والسيد جميل مردم ، بصفته وزيرا للخارجية ، رغم انهما انفردا في اجتماع خاص . وكانت زيارة مردم خاتمة مطافه في العواصم العربية . وبعد ما قابلنا الملك مستأذنين بالسفر ، بعث الينا بهداياه . فخصني ، كما خص السيد مردم ، بسيف طليت بعض اجزاء غمده بالذهب ، وبعباءة وكوفية وعقال وسروال وقنباز . وكان نصيب سائـــر الرفاق الخناجر والساعات اليدوية والعباءات واللباس .

وليس في المملكة السعودية اوسمة ، على ان السيوف المهداة والخناجر تقوم مقامها . وهذه السيوف انواع ، ارفعها قيمة، تلك المطلية بالذهب والمرصعة بالاحجار الكريمة . وهي تهدى للملوك . وما يليها مطلي غمدها بالذهب ، وهي تمنح لرؤساء الحكومات . وقد كان نصيبي احدها عندما زرت الملك ثانية في ١٩٥٠ . ثم يلي ذلك السيوف المحلى بعض غمدها بالذهب وهـــي تعطى للوزراء . اما الخناجر فكذلك تختلف في طلائها وترصيعها بالاحجار الكريمة . وهي تأتي بالترتيب البروتوكولي بعد السيوف . واما الساعات اليدوية فتعطى لكل زائر . ويقال ان ما يستورده الملك من انواع الساعات يقدر بعشرات الالوف سنويا .

واما مرافقو كبار الزوار فيعطى لهم عدد من الجنيهات الذهبية، بالنسبة الى مركزهم .

واما الهدايا التي يمنحها لزوجات كبار زواره ، فهي عقود من اللؤلؤ او غيره من الاحجار الكريمة ، والاقمشة الحريرية الثمينة وعطاءات مالية متناسبة مع مكانة الزوجة . ولا تقتصر هذه المنح على زواره ، فهو يبعثها لزوجات رؤساء الدول وكبار الوزراء ، ولو لم يقمن بزيارته .

والمالوف ان يستصحب الملك او الوزيـــر الذي يأتـــي الديار المقدسة لزيارة عاهل المملكة السعودية ، هدايا تتناسب مع مركزه، في مقدمتها الجواهر والخيول المطهمة ، ومنها العطور والحلويات والفاكهة . وكانت السيارة التـــي ملأناها في رحلتنا ، حاوية انواع الفواكه والخضار ، الى جانب صناديق الروائح العطرية والصابون الفاخر وعلب الحلويات الشامية والملبس وامثالها . وتقتسم حاشية الملك تلك الهدايا فلا يرى ولا يذوق منها شيئا .

ومن لطيف ما علق بذهني في تلك الرحلة اننا كنا في حضرة المليك فساله السيد مردم عما يقدره لي من عمر ، فحملق الملك في هنيهة

واجاب : « ان عمر خالد يبلغ الخامسة والستين . » فقلت للملك : « لا تحكم يا طويل العمر بمجرد النظر الى راسي الشائب وذقني البيضاء . » فاسترسل الجميع بالضحك . والتفت السيد مردم وقال لي : « لا تعد تقول لنا بدمشق انك اصغرنا سنا . فها هو حكم جلالته لا مرد له . » فقلت للملك ان مردم يكبرني بعشر سنين ، واني اعرفه ذا شارب طويل عريض منذ صغري . فابتسم الملك وقال : « انكم معشر الشوام تصغرون سنكم . » ولم يشأ تصديق قولي باني اكملت العقد الرابع منذ سنة واحدة فقط ، وبان شعر لحيتي الذي ارسلته منذ بارحت دمشق اكسبني في مدة العشرين يوما هذه، لحية بيضاء احاطت بوجهي واتصلت بشعري الشائب فجعلتني ابدو كابن ستين . وانهيت هذا الحديث بقولي للملك : « ارجو من الله ان يسعدني بلقياكم مجددا عندما ابلغ العمر الذي قدرتموه ، وانتم تتمتعون بالعافية والهناء . » وكان ذلك احسن تخلص من هذه المداعبة اللطيفـــة .

ولم يكن لي نزعة لاطلاق اللحية لولا ان قواعد المجاملة المالوفة تقضي بان يتزيا زوار الملك بزيه ، فيرتدون اللباس العربي ، من قنباز وعباءة وكوفية وعقال ، ويطلقون لحاهم اسوة بجميع سكان تلك المملكة الذين يحتفظون بهذا النوع من اللباس في جميع رحلاتهم الى البلاد الاجنبية ، الا عندما يرتادون محلات اللهو والسلوى فيخلعون تلك الثياب ويرتدون اللباس العادي حتى لا يستلفتوا الانظار .

وكانت الوفود السعودية محط الانظار في جميع الاجتماعات الدولية . ومن يشاهد الامير فيصل السعود ، بقامته الطويلة ، ووجهه المملوء بشرا ، وبردائه العربي البديع ، يخيل اليه انه امام صورة حية للمسيح عيسى بن مريم ، صلوات الله عليه .

وثمة قصة طريفة حصلت مع رفيقنا السيد فخري البارودي، وذلك عندما وصلنا الى البصرة . فقد ذهب وحده الى السوق واشترى كوفية مطرزة بخيوط حمراء . ولعله اختار اللون الاحمر اللامع تفضيلا على اللون الاسود القاتم التي تطرز به سائر الكوفيات . وعندما وصلنا الاراضي السعودية ولبس كل منا ما كان جلبه معه من اللباس العربي ، خرج علينا البارودي بكوفيته تلك التي انفرد بها دوننا كلنا . فقلنا له : « ماذا صنعت ، وهل انت تريد ان تخلق لنا مشكلة دولية ، ام انت مستغن عن حياتك ؟ »

فحملق فينا وادلى شفته الدنيا وقال : «تضربوا شو ساويت؟» فقلنا له : « ان هذا اللون من الكوفيات لا يلبسه الا الشيعة وهم

مكروهون في المملكة السعودية . فتقليدك اياهم يعرضك للهلاك ، اذ لا يستبعد ان يتجرأ احد الرعاع فيقبل عليك ويهوي على راسك بسيفه فيمزق الكوفية ويحرمنا من ابي الحسن ؟ » وجسمنا له الخطر وكبرناه فخاف سوء العاقبة وقال : « دخيلكم ، اعطوني كوفية مليحة فورا . » فلبسها وقال : « تصوروا فخري البارودي يخرج فجاة في الرياض وعلى راسه الكوفية الحمراء ... » ! وكان ينفجر ضاحكا بين الآونة والاخرى عندما يستعيد هذا المنظر .

والقصة الثانية التي حصلت مع البارودي ايضا هي انه عندما وصلنا الى بغداد في طريق العودة ، ابلغنا السيد نور السعيد انه تلقى برقية من دمشق بان والدة البارودي قد توفيت الى رحمة الله، وان اهله يطلبون عودته بسرعة ليحضر جنازتها . فتشاورنا فيما يجب عمله . ولم يكن ميسورا وصول البارودي الى دمشق في الوقت المناسب ، كما ان اخفاء الخبر عنه يؤدي الى حضوره الحفلات التي ستقام احتفاء بنا ولا يجمل به حضورها وامه مرتحلة لدار البقاء ، ولو لم يكن عالما بالخبر . فقررنا احاطته علما . فاخذناه جانبا وبدأنا حديثنا بذكر العالم الفاني ، وان كل امرىء على آلة حدباء محمول ، الى آخر ما هنالك من المقدمات . فقال البارودي بلهجته المشهورة : « تضربوا ، خوفتوني . مين مات ؟ » فعدنا الى المداورة وكنا خشينا ان يصاب بنوبة عصبية عند تلقيه الخبر المشؤوم . وما زلنا نداوره وهو يحاول معرفة اسم الميت حتى وصلنا بيت القصيد وارفقنا كلامنا بعبارات التعزية والدعوات الطيبات لروح الفقيدة . فقال لنا : « عين تطرقتكم . فهموني بقى . الله يرحمنا ويرحمها اجمعين . » فاشرنا عليه بلبس بذلة غامقة اللون ، فامتثل للامر واضاف الى حلته ربطة عنق سوداء . ولكنه رفض عدم حضور الولائم مدعيا بانه موفد في مهمة رسمية، وبان واجب المهمة مقدم على العواطف الشخصية . وعندما وصل بنا القطار الى محطة حلب وشاهد البارودي جموع المستقبلين استمطر من عينيه الدموع واخذ يكفكفها ويمسحها بمنديله ، واتخذ موقفا جديا واستعد لتقبل التعازي ! ولكن ... وهنا المفاجاة : فبدلا من عبارات التعزية ، استقبله الحاضرون بعبارات التبريك والتهنئة ! فاسقط في يده وبدت عليه امارات الذهول ، فقال لنا : « اجن الناس ام انا جننت؟ » فاجاب مردم بك : « اما انت فمجنون من زمن بعيد ! » ولم يذهب ذهوله وذهولنا معه الا عندما عرفنا السبب . ذلك ان والدة البارودي

اصيبت بنوبة شديدة وظن الاطباء انها فارقت الحياة . فاسرع احد ذويها الى دائرة البرق وارسل الى بغداد خبر الوفاة . على ان الله تدارك المريضة بواسع فضله ، فعادت الى الحياة وزال عنها المرض وهي الآن على فراشها في دور النقاهة . فقلع البارودي ربطة عنقه السوداء والقاها ارضا وتظاهر بعودة المرح اليه في حين انه لم يبارحه منذ تركنا بغداد . وانتهز هذه المناسبة لضم المستقبلين الى صدره وتقبيلهم اجمعين ، شبابهم ، وحتى شيوخهم !

وكان رئيس الجمهورية السيد القوتلي قد وصل قبلنا الى حلب فذهبنا فورا الى دار المحافظ للسلام عليه وابلاغه تحيات الملك عبد العزيز . فمكثت يوما في حلب ، ثم عدت الى دمشق ، وقد تركت هذه الرحلة في نفسي اطيب الذكريات .

وقبل ان انهي تسجيل ما قامت به وزارة الجابري تلك لا يسعني الا بيان ناحية كان لاهمالها نتائج سيئة على الوزارة ،وبالتالي على طراز الحكم في سورية .

وذلك ان الجابري اعتد بقوة الشخصيات التي ضمتها وزارته واعتمد على ثقة رئيس الجمهورية ، وبان هذين العاملين كفيلان باستمرار الوزارة في الحكم وبتسيير شؤونها في المجلس . ولم يدر بخاطره ان النواب ، ولو كانوا مؤيدين في الاصل ، فهم بشر من طبيعتهم الاعتزاز بكرامتهم. فلا غنى لمن يريد ضمان استمرار تأييدهم وموافقتهم على المشاريع المعروضة عليهم عن محادثتهم ومشاورتهم بها واظهار الاهتمام علنا بما يبدونه من آراء واقتراحات ، سواء كان هذا الاهتمام على سبيل المسايرة او بنية الاخذ بالصالح منها .

اما ترك الحبل على الغارب وعدم الاتصال بهم ، بين حين وآخر ، فمن شأنه افلات النواب من يد الحكومة والسماح للفئة المعارضة بان تحيط بهم وتضرب على وترهم الحساس فتجذبهم الى طرفها.وكان واجبا على زعيمي ذلك الدور،شكري القوتلي وسعد الله الجابري ، ان لا يفترا بزعامتهما وان يقدما على تأليف حزب يضم اغلبية النواب الساحقة لبحث جميع الشؤون قبل عرضها على المجلس ليتخذ نواب الحزب موقفا غير الموقف الذي كنا نجابهه عندما كنا نتقدم بأي مشروع فنسمع من الموالين الخطب المعاكسة وتفلت الاكثرية من يدنا . ولو كان النواب الموالون يجتمعون مع اركان الحكومة قبل ذلك فيطلع الفريقان على النظريات المتقابلة ، لسهل التفاهم على خطة موحدة . فلا تعود البلبلة التي كانت تسود جلسات

المجلس ، تظهر فقدان الروابط بين الحكومة وانصارها .

لكن رئيس الجمهورية ظل حتى ١٩٤٧ مصر على رايه في عدم تاليف حـزب يضم جماعة الكتلـة الوطنية ومن آزرهم فيما بعد .

سوء سلوك القوتلي وحزبيته الضيقة

ولم يكن سبب عناد القوتلي ناشئا عن سبب معقول ، بل كان مردودا الى حبه تفريق الكلمة بين البارزين في الميدان السياسي والى تخوفه مـن ان تدور الدائرة عليه اذا تـوحدت القلوب واجتمعت الكلمة . ولذلك عكف طول مدة رئاسته على ايجاد التفرقة بين كل من الجابري والخوري والحفار ومردم وغيرهم . ولم انج من هذا الاسلوب . وقد نجح القوتلي فيما رمى اليه وابتعد هؤلاء ، بعضهم عن بعض . ولكنه ، خلافا لما كان ينتظره هو ، اصبح موضع نقمة الجميع عليه . فتوفي الجابري وفي نفسه مرارة. وبلغ الحقد لدى الخوري مبلغا حمله على مناصرة حسني الزعيم. اما الحفار ومردم فقد ابتعدا عنه غاضبين. ولم يدرك القوتلي ان اقصاء تلك الشخصيات عنه وابعادهم الواحد تلو الاخر من الحكم يفقده دعامات زعامته ويجعله وحيدا ومعرضا للانهيار بسهولة ، بعكس ما لو كـانوا محيطين به يدفعون عنه الهجمات ويصدونها بصدورهم متحملين مسؤوليات عثرات الحكم دونه .

ولكنه ، اصلح الله حاله ، كان يستاثر برايه ويريد فرضه على الكبير والصغير ، ويتدخل في شتى الشؤون ولا يترفع عن التوسط لتعيين جلواذ او كاتب . ولو انه قصر تدخلاته على شؤون البلاد الاساسية ، واغلق بابه بوجه المنافقين والمستغلين اسمه ، وترك للوزراء تسيير سائر الامور على مسؤوليتهم الخاصة ، لتجنب النقمة التي امست اجماعية ضده في اواخر حكمه ، ثم تجلت عند حدوث انقلاب اذار ١٩٤٩ في انصراف جميع الناس عنه . فلم يرتفع صوت بالدفاع عنه ، لا سرا ولا علنا ،حتى اصوات الذين ترعرعوا في حضنه ايام حكمه ونالوا من عطفه وماله ما لا يحصى .

فبينما كان رئيس الجمهورية والوزراء غارقين في مهام الدولة ومعالجة الشؤون السياسية الهامة وادارة مصالح الحكومة ، كان النواب المعارضون يزدادون عددا ويحكمون امرهم لعرقلة اعمال الحكومة ويشنؤن على الوزراء الحملات القاسية ، بنسبة ما كانوا يجدون في اعمالهم من الهنات التي يتخذونها وسيلة لتركيز هجماتهم عليهم . وكان المرحوم مظهر رسلان عرضة لاعنف الحملات . فكانت الجلسات العديدة تنتهي دون ان يدور البحث في اية مادة من مواد جدول الاعمال ، والنواب المناصرون ساكتون يتفرجون ويستمعون

الى ما يناله اصدقاؤهم الوزراء من توبيخ وتجريح واتهامات عنيفة ، دون ان تظهر من احدهم بادرة للدفاع عن ذلك الوزير المهاجم ، بحيث يضطر رئيس الوزراء والوزراء لحمل عبء الدفاع لوحدهم. فيتراءى لمشاهدي هذه الجلسات وسامعي هذه المناقشات ان النواب بمجموعهم في جبهة،وان الوزراء في جبهة اخرى. وينتقل هذا الشعور الى افراد الشعب بالاطلاع على ما تنشره الصحف في اليوم التالي ، من وصف الجلسات وذكر ما جاء على لسان النواب المهاجمين . فيتبادر للذهن ، بطبيعة الحال ، ان المجلس باجمعه ضد الحكومة ، وبانها تسيء في اعمالها الى مصلحة البلاد ، بدليل عدم قيام واحد من النواب لتاييدها والدفاع عنها .

والمرة الوحيدة التي احكمت الحكومة خطتها ودافعت عن كيانها لم تكن في عهد وزارة الجابري هذه ، ولكن في عهد وزارة الخوري الثالثة التي تالفت في آب ١٩٤٥ . كنا اثنين وخمسين نائبا اجتمعت كلمتنا وهاجمنا وزارة الخوري الثانية بشخص احد افرادها، السيد جميل مردم . وقدمنا لرئاسة المجلس عريضة موقعة من قبلنا اعلنا فيها عدم ثقتنا بالوزارة ، فاضطرت للاستقالة . فالفنا وزارة جديدة برئاسة الخوري ، رغم ارادة رئيس الجمهورية شكري القوتلي ، فتوقعنا بطبيعة الحال هجوما عنيفا من نواب المعارضة ، كالكيخيا والملقي، الذين التفوا حول مردم. فنظمنا مؤيدينا وواجهنا المجلس في جلسة الثقة . وبدأ المعارضون هجومهم ، فقابله النواب المؤيدون بالهجوم المعاكس . ولم يكتفوا بالدفاع عنا ، بل تحدوا المعارضين واظهروا مساوئهم . وكانت خطب الفريقين من اعنف ما سجلته محاضر الجلسات القاسية الجارحة . وهكذا اضفنا الى فوزنا بالثقة نصرا آخر باثبات موجوديتنا وعدم الخنوع امام المعارضين ، بل القينا عليهم درسا لم ينسوه . ولو كان الجابري عمل على تنظيم علاقات حكومته بالمجلس ووحد كلمة مناصريه من النواب وعهد لاحد وزرائه احكام الامر واعداد العدة لصد هجمات النواب المعارضين بهجمات مقابلة تعدد مخازيهم وعيوبهم ، لما كانوا استولوا على ساحة المجلس والصحف والشارع ، ولاضطروا لحصر معارضتهم ضمن حدود اللباقة واللزوم .

في اليوم الثاني عشر من ايلول ١٩٤٤ كانت جلسة مجلس النواب منعقدة بحضور جميع اعضاء الوزارة ، واذ برئيسها السيد سعد الله الجابري يعتلي المنبر ويلقي ، طوال ساعة من الزمن ،

خطبة اشبه بخطبة الوداع ، عدد فيها اعمال حكومته ، ثـم انتهى باعلان عزمه على التوجه الى القصر الجمهوري لابـلاغ الرئيس استقالة الحكومة . ثم نزل عن المنبر وخرج مسرعا الى سيارته . فلحقناه ونحن غير قادرين على اخفاء معالم الاستغراب والاستياء التي علت وجوهنا ، لما بدر من الجابري دون اطلاعنا مسبقا .وعندما اكتمل عددنا في القصر ، قدم الجابري استقالته الشفهية للرئيس الذي لم يبدر منه الا استغراب مصطنع . فشكر الحكومة على ما قامت به من جليل الاعمال — حسب العادة المتبعة — وطلب الى اعضائها الاستمرار في ادارة الاعمال ، ريثما تؤلف الوزارة الثانية . فاجابه الجابري بما يناسب المقام ، من عبارات المجاملة واستأذن بالانصراف دون ان يبدي الاسباب التي دعته للاستقالة ودون ان يساله رئيس الجمهورية عنها ، حتى خيل الينا انهما متفاهمان على ذلك قبيل جلسة المجلس . اما الوزراء فكانوا ينظرون الواحد الى الآخر مستطلعين ، ولكن احدا منهم لم يكن يدري من الامر شيئا . وخرجنا خلف الجابري فسألناه — وهو على وشك امتطاء سيارته — عن الدواعي والمسببات فاجابنا : «هكذا احسن... هكذا احسن..» واستودعنا وركب السيارة واسرع في الرحيل. وكان موقفنا، ونحن على باب القصر وموظفوه حولنا،ادعى الى الهزء منه الى الجد. ولم يتملك بعض الوزراء من اعلان استيائهم من عدم المبالاة وقلة اللياقة اللتين ظهرتا من الجابري في الاستقالة دون التشاور مـع زملائه واعداد خطة تجنب الوزارة ذلك الموقف المضحك الذي وجدت نفسها فيه عندما كان الرئيس يعلن على المنبر عن عزمه على الاستقالة وهم يتطلعون اليه مستغربين والى بعضهم متسـائلين ... ونواب المعارضة يمسكون ضحكات الاستهزاء وعلائم الارتياح .

وحتى هذه الساعة ، لم استطع ادراك الاسباب الحقيقية لانسحاب الجابري من رئاسة الوزارة . فلا هو اسر بها ، ولا رئيس الجمهورية صرح بها ، ولا اخوانه والمقربون اليه افصحوا عنها . وبقيت الدوافع طي الكتمان في صدور المطلعين .

وفي اليوم التالي تناول رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء طعام الغداء عندي في دمر . ولم يدر اثناء الطعام ولا بعده اي حديث يتعلق بالازمة الوزارية ، بل كان الحديث حديث مباسطة بين اصدقاء لا يتحمل احدهم اي عبء من اعباء الدولة الثقيلة . وعندما ودعت رئيس الجمهورية ، اسر في اذني ان آتي في المساء .

فلما وصلت الى القصر وجدت السيد فارس الخوري والسيد جميل مردم . ثم حضر السيد عبد الرحمن كيالي ، فاعلن الرئيس تكليفه السيد فارس الخوري بتاليف الوزارة، وبأن النية منصرفة الى جعل عدد اعضائها اربعة فقط وهم الحاضرون ، على ان يتولى السيد الخوري وزارة المعارف والداخلية بالاضافة الى رئاسة الوزراء ، والسيد جميل مردم وزارتي الخارجية والزراعة ، والسيد عبد الرحمن كيالي العدلية والاشغال العامة ، وان اتولى انا وزارة المالية والاعاشة .

ويظهر ان هذا التوزيع كان مبيتا قبل حضوري ، فابديت رغبتي في الاكتفاء بوزارة المالية دون الاعاشة . ولكن الرئيس اصر اصرارا شديدا لم يسعني في النهاية مخالفته الا بشرط تعيين السيد عارف النكدي مديرا عاما للاعاشة ، وان يطلق يدنا في تنظيف دوائرها من الذين اساؤوا استخدام وظيفتهم ، وفي اتباع خطة مستقيمة والقضاء على الالتماسات وسوء التصرف .

استقالة حكومة الجابري واشتراكي في حكومة الخوري الاولى

وصدرت المراسيم بتسمية اعضاء الحكومة الجديدة في ١٤ ايلول ١٩٤٤ . وتقدمت الحكومة الى المجلس ببرنامجها ونالت الثقة على اساسه . ثم استدعيت السيد النكدي وعرضت عليه المديرية العامة لوزارة الاعاشة. فاشترط صدور قانون بايجاد محكمة خاصة تنظر في جميع الشؤون المتعلقة بها ، سواء من حيث المخالفات او من حيث معاقبة الموظفين وغير ذلك ، على ان تكون مؤلفة من حاكم فرد ، لا اعتراض ولا استئناف ولا تمييز لاحكامه . فوافقته على رايه ، وقلت له اني باختياري اياه اظهر رغبتي في ان تكون ادارة هذه الوزارة في يد نزيهة صارمة تضرب المسيء ايــا كان وتوزع الكوتا بحسب الاستحقاق ، لا ارضاء لزيد وعمرو ، واني اطلق له اليد في كل هذه الامور على ان يستشيرني في الشؤون الاساسية الهامة . فاعلن النكدي قبوله هذه الوظيفة ، ثم ارسل الي فيما بعد مشروع القانون الخاص بالحاكم الفرد فعرضته على مجلس الوزراء . وبعد موافقته ، بعثته الى مجلس النواب مع طلب الاستعجال .

وقد اثار هذا المشروع معارضة بعض النواب ، خارج صفوف المعارضة المؤلفة من السيد رشدي الكيخيا ورفاقه ، الذين ارتاحوا لاستلامي وزارة الاعاشة ولتعيين عارف النكدي مديرا عاما لها . واظهروا اغتباطهم بالمسلك الذي سلكناه في تنظيف الدوائر باخراج الموظفين المشبوهين ، وابدوا اطمئنانهم الى الايدي النظيفة التي

سلمت اليها هذه الوزارة .

والقى كل من السيدين سعيد الغزي وصبري العسلي خطابا ضد مشروعي متحججين بأن نظام الحاكم الفرد غير موجود في قضائنا، وبانهما يخشيان صدور احكام جائرة لا سبيل للاعتراض عليها لانها مبرمة . وشعرت بان فريقا كبيرا من النواب سوف لا يؤيد المشروع ، سواء كان ذلك مسايرة لفكرة ضرورة تمييز احكام الفرد ، او مشايعة للسيد مظهر رسلان الوزير السابق للاعاشة ولبعض من كان يجني من الطرق الملتوية ارباحا كبيرة .

وعندما ادركت حراجة الموقف وامكان رد المشروع برمته ، وقفت خطيبا وقلت باني لم اقبل تولي وزارة الاعاشة الا لتحسين اوضاعها والضرب على ايدي المستغلين ، موظفين كانوا ام تجارا ، وان الفائدة لا تحقق الا بسرعة انجاز القضايا لدى حاكم فرد تنفذ احكامه فورا بدون التطويل الذي يفضي اليه الاعتراض والاستئناف والتمييز . واردفت ذاكرا ما تتذمر منه البلاد من تصرفات سابقة ورد كثير منها على السنة النواب انفسهم ، فضلا عن الرغبة الاجماعية في اعادة الثقة الى النفوس وجعل الاستحقاق والعدالة اساسا لتسيير شؤون الوزارة وتوزيع الكوتا ومراقبة التقيد بالاسعار المحددة للسلع . واعلنت عن قبولي تعديلا واحدا في المشروع يتضمن تمييز الاحكام . وفي ختام كلمتي صرحت باني اطرح الثقة الخاصة في شخصي على المجلس ، فان وافق على المشروع بقيت وزيرا للاعاشة وان رفضه قدمت استقالتي منها فورا .

وكانت هذه هى المرة الوحيدة في تاريخ مجالسنا النيابية التي طرح فيها احد الوزراء الثقة بنفسه واشترط لبقائه وزيرا موافقة المجلس على مشروع تقدم بـه .

فطلب احد النواب رفع الجلسة للاستراحة ربع ساعة ، فرفعت . وبدا بعضهم يلتف حولي لحملي على تعديل موقفي والبحث في تغيير بعض مواد المشروع وفقا لما كانت اللجنة القضائية للمجلس اقرته في تقريرها . فاصررت على عدم ادخال اي تعديل سوى تمييز الاحكام . وعدنا إلى الجلسة ، وطرح الرئيس تقريرا للجنة وفيه تطلب رد المشروع ، فوافقت اكثرية النواب على الرد ، واعتبر ذلك اقرارا ضمنيا لمشروعي . فاجلت الجلسة للغد ، لتتمكن اللجنة من الاتفاق على ادخال نص جواز التمييز ، وهكذا اقره المجلس ، كما هو ، في الجلسة اللاحقة .

وقال لي بعض النواب الذين عارضوا المشروع : « انك ،والله، احرجت موقفنا احراجا ما بعده احراج ! » قلت : « كيف ذلك ؟ » فقالوا : « والله ، ما كنا لنتردد في التصويت ضد المشروع فنتخلص منه ومنك ، لولا ما حسبنا له حسابا كبيرا من نقمة الناس علينا لاسقاطنا وزيرا يريد اصلاح دوائر الاعاشة واقصاء عناصرها الفاسدة فيعتبروننا من جماعة المفسدين الحائلين دون تسيير الامور على وجهها الصحيح .ولكننا سنتحين الفرصة المناسبة وننتقم منك.» فشكرتهم على صراحتهم وقلت لهم : « اذا وجدتم فيّ انحرافا او تحيزا فلكم ذلك . » وبالفعل ، فقد تضافروا على اقصائي عن الوزارة في شهر نيسان اللاحق ، على ما سيأتي ذكره فيما بعد .

الحملات ضدي ومرقلة مشاريعي الاصلاحية

وكانت اول حملة وجهوها الي هي تقديم استجواب للحكومة عما اذا كان رئيسها ووزير المالية فيها قد قدما استقالتهما من عضوية شركة الشمينتو وشركة المغازل والمناسج ، وفقا للمادة الدستورية التي تحرم الجمع بين عضوية الشركات المساهمة والوزارة . وكان موقفنا غير مشوب باية شائبة ، اذ كان انسحابي من العضوية المذكورة قد جرى منذ دخلت وزارة الجابري . وكذلك كان الرئيس الخوري الذي ترك العضوية منذ صدور المرسوم بتعيينه رئيسا للوزارة. فاعلن المشار اليه ذلك في الجلسة بحدة ظاهرة. وتلا رئيس مجلس النواب كتابي شركتي الشيمنتو والمغازل الموضحين بانني انفككت عن العضوية منذ ١٩ آب ١٩٤٣ ولم اقبض اي تعويض من ذلك التاريخ . فاستوضح النواب المغرضون — وكانوا من جماعة الجابري الحلبيين — عما اذا كنت قد قدمت استقالة خطية ام تركت العضوية تركا عمليا فحسب . فاجبتهم على الحاحهم غير اللبق بانه، سواء كانت الاستقالة خطية ام شفهية ، فليس ثمة مآخذ عليها من حيث توافق مسلكي مع نص المادة الدستورية التي تحرم الجمع وتمنع الممارسة . فلم يستطع اولئك النواب الا السكوت والرضوخ امام الحقائق الراهنة .

ولم يكف النواب عن التحرش بي واعلان استنكارهم الصلاحيات الواسعة التي تمنحها لوزير الاعاشة ، المراسيم الاشتراعية النافذة المفعول ، ويطلبون الحد منها . في حين انهم لم يكونوا يستكبرون تلك الصلاحيات عندما كان سلفي متوليا شؤون الوزارة .

ويلغ الامر باحد النواب الى حد قبض مبالغ شهرية من احدى الشركات الصناعية الكبرى بحلب ليعمل في المجلس على معارضة

وزير الاعاشة ومضايقته حتى يغض النظر عن مخالفاتها المتكررة للتسعيرة الرسمية .

وكنت رغم هذه المعارضة المستمرة وتلـك المشاحنات المملة سائرا في سبيلي ادرس كلفة الانتاج وافرض تسعيرة البيع واراعي فيها فائدة المنتج المعتدلة ومصلحة المستهلك المضطر ، بسبب الحرب القائمة وصعوبة استيراد البضاعة المماثلة ، الى شراء تلك المنتوجات المحلية ولو باسعار باهظة . وقضيت على الجشع الـذي اعترى اصحاب معامل الغزل الذين رفعوا اسعار الربطة الى مائة وستين ليرة سورية ،وذلك بتخفيض السعر الى ثلاثين ليرة سورية واجبارهم على بيع الكميات التي تطلبها معامل النسيج على هذا الاساس .

اما عن الانسجة الشعبية التي كـــانت اللجنة المختصة في القاهرة خصت بها سورية ، فقد دعونا جميع تجار هذه الاصناف والفنا منهم شركة خاصة استوردت هذه الكميات من البلاد الاجنبية، ثم باعتها الى الاهلين بالاسعار المقررة ، بينما كـان القائمون على شؤون الاعاشة قبلا ، يمنحون هذه الكوتا الى من يختارونهم من التجار المتمسين ، ولا يراقبون بيع تلك البضاعة باسعار متهاودة . فجنى اولئك التجار الارباح الطائلة ، ودفع المستهلك المغلوب على امره اسعارها اضعاف اضعاف كلفتها .

وآخر صدام جرى بيني وبين كتلة النواب الغاضبين ، كان بسبب صفقة من الحرير الاصطناعي استوردها احد تجار حلب ، وكان هو نفسه نائبا . ولما وصلت البضاعة الى حلب امرت بتنفيذ معاملات الشراء الجبري التي كانت القوانين النافذة تجيزه ، فتدفع وزارة الاعاشة لصاحب البضاعة ثمنها الاصلي مع اضافة ربح معتدل .

وكانت الصفقة كبيرة جدا تدر على صاحبها ارباحا عظيمة ، فيما لو لم تاخذها وزارة الاعاشة ، او لو اكتفت باخذ قسم منها فقط . وجاءني ذلك النائب صاحب البضاعة وبدا يطلب صرف النظر عن قرار الشراء الجبري ، فرفضت . فاخذ يحاول حملي على قبول طلبه برمته او الاكتفاء بقسم منه . فظللت مصرا على تنفيذ القرار كما هو . فانصرف الى زملائه النواب ، فصاروا يلاحقونني جماعات وفرادى ويوسطون اصدقـــاءهم من الوزراء . ولما يئس صاحب البضاعة من الوصول الى غرضه ، جاءني عارضا دفع مليون ليرة سورية لتخليص بضاعته من يد الاعاشة . فلما سالته لمن تريد دفع

هذا المبلغ ، اجاب متلعثما : « تبرعا الى الجيش . » فاجبته بان ليس لدى الحكومة حتى الآن جيش تنفق عليه . وبفرض وجوده فان ميزانية الدولة كفيلة بتامين حاجاته دون ان يكون ثمة داع لقبول هذا التبرع لقاء مخالفة القوانين. واضفت على ذلك قولي بأن الدولة لا تريد الاثراء عن طريق بيع البضاعة باثمان عالية ، بل تريد توزيعها على المعامل بسعر معتدل حتى تبيعها بدورها الى المستهلك باسعار مقبولة . ولهذا فان عرض التبرع غير مقبول ، ولا بد من الاستيلاء على صفقتك بسعر كلفتها مع اضافة ربح قانوني لقاء جهودك في استيرادها . وصرفته وهو غاضب حانق .

وذهبت لمقابلة رئيس الجمهورية ورويت له ما جرى . ففكر قليلاً وقال : « ان المليون ليرة مبلغ لا يستهان به . فلو اخذناه منه لسددنا فيه ثغرة في ميزانية الدولة » . فقلت له : « اذا اردنا السير في هذه الخطة فاننا نكون قد عملنا كما يعمل اولئك التجار الجشعون، فيثرون على اكتاف المستهلك المسكين ولا يبقى عندئذ اي لزوم لوزارة الاعاشة ولا اي مبرر لما ندعي من رغبة في تخفيض اسعار المعيشة على قدر الامكان والحؤول دون ارتفاع الاسعار . »

واصررت على الاستمرار بخطتي ، فسكت الرئيس .

واشتدت على الإثر حملات النواب على الوزارة (في الكواليس) وطاش سهم ذلك الفريق المؤلف من صاحب صفقة الحرير الاصطناعي ورفاقه . ولم تكن الاسباب التي تذرعوا بها في هذه الحملة السبب الحقيقي المذكور اعلاه ، لكنهم ادعوا بان الحكومة لم تعد متمشية مع رغبات المجلس ، وبان لا بد من تعديل في الوزارة ليشترك فيها ممثلو الاكثرية فتصبح اكثر انسجاما مع روحية النواب . وكان رئيس الوزراء السيد فارس الخوري ذا طبيعة لا تحب المصادمة والاخذ والرد ، فلا يتمسك براي يبديه او بشخص يسانده اذا ما بدت ضد ذلك الراي او الشخص معارضة . فكان يقول دائما « هيك بيصير .. وهيك بيصير . » اي سيان لديه هذا الامر او ذاك ، او هذه الخطة او تلك .

فلما شعر بان كثرة من النواب سيعملون ضد الوزارة اظهر رغبته في الاستقالة ، تخلصا من المشاحنات في المجلس . فاصررت بالاتفاق مع السيد جميل مردم على مواجهة الموقف بدون تخاذل ، ومجابهة النواب بدون وجل . ورأينا ان ليس في خطتنا ولا في اعمالنا ما نستحي من الدفاع عنه ، واننا مستعدون لمقارعة الحجة بالحجة ،

ويدنا ولله الحمد نظيفة وجبهتنا ناصعة . فليس من داع للتهرب امام بعض النواب المغرضين ، لا سيما اننا نستطيع ان نوضح الامور ونطلع بقية النواب وافراد الشعب على اسباب الحملة الحقيقية ، فيندى جبين المفتري ويبيض وجهنا . لكن الخوري ظل على رايه مفضلا تجنب المشاحنات والمصادمـــات وقدم لرئيس الجمهورية استقالته .

اعادة تشكيل الـــوزارة واقصائي منها

ولما بدا رئيس الجمهورية باستشاراته لتاليف الوزارة الجديدة، ابلغه اولئك النواب انهم يرفضون منح الثقة لاية وزارة اشترك فيها. فحسب الرئيس لهذا الموقف حسابا . وخشي فارس الخوري أن لا تنال الوزارة التي كلف بتاليفها مجددا ثقة اكثرية المجلس ، فوافق على اقصائي منها واختار السادة :

جميل مردم : وزيرا للخارجية والدفاع الوطني ، سعيد الغزي: وزيرا للعدلية ووزيرا للاعاشة بالوكالة ، نعيم الانطاكي : وزيرا للمالية ، صبري العسلي : وزيرا للداخلية ، حكمت الحكيم : وزيرا للاشغال العامة ، احمد الشرباتي : وزيرا للمعارف .

(ملاحظة : استقال السيد سعيد الغزي من وكالة الاعاشة فعين السيد حسن جبارة وزيرا لها بتاريخ ٢١ / ٤ / ١٩٤٥ .)

وكنت منذ استقالة الوزارة اعتكفت في منزلي بالغوطة ، فلم ابارحه حتى تالفت الوزارة الجديدة . وطلب الي رئيس الجمهورية الحضور اليه ، فزرته في اليوم الثاني . وبدا على عادته حديثا طويلا تضمن الاسف على حرمان الحكومة الجديدة من جهودي . واطنب في اعمالي كثيرا وختم حديثه راجيا ان لا يكون تركي الوزارة داعيا الى عدم استمرار جهودي في العمل العـــام ، لا سيما اني كنت اظهرت رغبتي في الاعتذار عن الاشتراك في الحكم ، وان الايام القادمة ستراني مجددا في المناصب العالية ، الى آخر ما هنالك من الكلام المعسول الذي الف استعماله في المواقف المماثلة . فاجبته باني لست غاضبا على ترك الوزارة ولا آسفا ، ولكنني اريد تصحيح ما جاء على لسانكم من انني اظهرت رغبتي في عدم الاشتراك في الوزارة الجديدة ، اذ ان احدا لم يكلفني لارفض . ولو كان عرض علي امر الاشتراك ، لفكرت في الأمر من حيث خطة رئيس الحكومة تجاه النواب. واردفت قائلا بانني اعلم سبب اقصائي،وفخامتكم تعلمونه. فانتفض الرئيس قائلا بانه لا يعلم شيئا» . واضاف : «ماذا كان الغرض من اقصائك ؟ فالوزارات المتعاقبة لا يشترط فيها ان تضم جميع

اعضاء الوزارة المستقيلة ! » قلت له : « هذا القول الاخير صحيح.. لا استغربه ... واما جهلكم سبب حملة النواب علي واشتراطها على السيد فارس الخوري عدم اشتراكي في الوزارة ليمنحوها الثقة، فامر استبعده ، لا سيما اني كنت عرضت عليكم قضية صفقة الحرير الاصطناعي وما رافقها من ملابسات وما ادت اليه من تكتل اكثرية النواب ضدي . »

وتمسك الرئيس بانه خالي الذهن من انباء تلك المناورات . فقلت له : « على كل حال ، فالامر انتهى الآن . وتألفت الوزارة الجديدة بدوني . فان كان ثمة امر آسف له ، فليس اني ابعدت عنها، بل لان وزارة الاعاشة بالوكالة سلمت الى محامي ذلك النائب صاحب البضاعة المعهودة ! » قال : « كيف ذلك ؟ » قلت : « قبل ان تستقيل الحكومة زارني نائب دمشق السيد سعيد الغزي وقدم لي باعتباره وكيلا للسيد سامي صائم الدهر ، عريضة طلب فيها الغاء قرار الاستيلاء والسماح له باستلام بضاعته ، فرفضت الطلب . وها هو الآن وزيرا للاعاشة بالوكالة بعد ان كان وكيلا لسامي صائم الدهر. واني اجزم بان قرار الاستيلاء سوف يلغى في القريب العاجل وتعود المياه الى مجاريها والبضاعة الى صاحبها ... » فانتفض الرئيس وقال : «لن يكون هذا. اني لا اعلم بان الغزي وكيل صائم الدهر..ما كنت لأعينه في الاعاشة لو كنت مطلعا على ذلك . انك لم تقل لي انه محاميه ...» فاجبته :«انك لم تستشرني قبل تعيينه.» فعاد الرئيس يردد « لا ... لا ... لا . هذا لا يصير ... لا يصير ابدا .» لكن ذلك صار . اذ لم يمض على استلام الغزي وزارة الاعاشة قليل من الوقت حتى الغي قرار الاستيلاء واستلم صائم الدهر بضاعته خالصة من اي عبء وانفرد بارباح الصفقة . وضاعت المليون ليرة سورية ضحية الحزبيات والمنافع الخاصة ، قربانا على مذبح التساند بين النواب ، ليقضي كل منهم وطره وينال اربه .

صفقة الحرير الاصطناعي من اسباب النقمة علي

اما مجلس النواب ، فكانت الجلسة التي عقدها لسماع بيان الحكومة صاخبة على غير المنتظر . وخطب سبعة عشر نائبا كانوا كلهم يعلنون عن عدم ارتياحهم باساليب ، وان كانت مختلفة في الشكل ، الا انها كانت متفقة من حيث الاساس . وعندما طلبت الحكومة الثقة لكي يتمكن رئيسها من البقاء على راس الحكم والذهاب الى سان فرانسيسكو لحضور اول اجتماع تعقده الامم المتحدة ، اعلن اكثير من النواب انهم مضطرون الى منح الثقة لكي لا تحدث

ازمة وزارية يستحيل معها تمثيل سورية في ذلك الاجتماع . وهكذا قبض فارس الخوري اول دفعة من فوائد تمثيله سورية في الامم المتحدة . فسافر في اليوم التالي واستلم السيد جميل مردم وكالة رئاسة الوزراء خلال غيابه .

تفصيل الاعمال التي تمت في عهد وزارة الخوري الاولى

وظل السيد الخوري يراس الوفود السورية في كل اجتماع من اجتماعات تلك المنظمة ، منذ ١٩٤٤ حتى ١٩٥٢ ، اي في جميع الادوار السياسية التي كانت سورية تعيش في ظلها — من عهد القوتلي الى عهد حسني الزعيم الى عهد حزب الشعب الى عهد الشيشكلي ! وكان ينتقل كالبلبل الغريد من دمشق الى سان فرانسيسكو ، ومن نيويورك الى باريس ، ليمثل سورية في تلك البلاد الاجنبية اسوأ تمثيل من حيث التقتير في المعيشة والمنزل ، قانعا بالاسترسال في النوم على وسائد محشوة بالدولارات التي يقبضها لقاء انتدابه ، بديلا عن الوسائد المحشوة بريش النعام في الفنادق اللائقة التي كان يبتعد عنها ، الى غير ذلك من التوفير والتقتير اللذين لا يليقان بمن يمثل بلاده في الديار الاجنبية .

وقبل ان ننتقل الى سرد الحوادث التالية ، نورد فيما يلي الامور الهامة التي جرت برئاسة الخوري الاولى وهي :

١ — اعلان الحرب على المانيا
٢ — دعوة سورية للاشتراك في منظمة الامم المتحدة
٣ — توقيع ميثاق جامعة الدول العربية
٤ — استلام السكة الحديدية الحجازية

وفيما يلي ما يتعلق بالامور الثلاثة الاولى . اما استلام السكة، فبحثه وارد في بحث السكك الحديدية في سورية .

عندما اجتمع الثلاثة الكبار ، اي المستر روزفلت رئيس الولايات المتحدة الامريكية ، والمارشال ستالين رئيس حكومة اتحاد الجمهورية الاشتراكية السوفياتية ، ومستر تشرشل رئيس وزراء بريطانيا العظمى ، في مالطه عام ١٩٤٥ واقروا نهائيا ميثاق الامم المتحدة ، حصروا عضويتها بالدول الكبرى التي تكون في حالة حرب مع المانيا في اليوم الاول من آذار ١٩٤٥ . ولكنهم لم يعلنوا ذلك على الملا ، الا ان وزير الولايات المتحدة بدمشق ، مستر وودورث ، ابلغ هذا القرار سرا لاالى رئيس الجمهورية . فدعي مجلس الوزراء الى الاجتماع فورا لبحث الموضوع ، فرؤي ان مصلحة سورية تقضي ان تكون عضوا في منظمة الامم المتحدة لتكرس بذلك استقلالها. فتقرر أن

يقدم لمجلس النواب مشروع قانون يقضي بقيام حالة الحرب بين سورية والمانيا ، وان يعمل على اقراره في الوقت المناسب حتى يعلن ذلك رسميا قبل دخول شهر آذار . وتقدمت الحكومة بالمشروع وجرت اتصالات مع النواب لافهامهم السبب الداعي لهذا الموقف الذي اضطرت الحكومة لاتخاذه ، على الرغم من ان لا سبب آخر يستوجب اعلان الحرب على المانيا ، نظرا للصلات الطيبة التي كانت سائدة بينها وبيننا قبيل الحرب العالمية الثانية . ورجونا النواب الا يناقش هذا الموضوع حتى لا تصبح الحكومة في موقف حرج ، اذا ما هي سمت للتحري عن سبب وهمي يستوجب اعلان الحرب وحتى لا تضطر لابداء السبب الحقيقي التي وعدت مخبرها بعدم اعلانه . وقد بر النواب بوعدهم ولم يتكلم في الجلسة سوى رئيس الوزراء طالبا اقرار مشروع القانون . فوافق المجلس بالاجماع دون ان يبدي احد النواب اية ملاحظة . وكنا في الواقع نخشى أن يسألنا احد النواب عن القوة العسكرية التي هي تحت امر الحكومة وعن الجبهة التي ستبعث بها اليها لتنفيذ قرار اعلان الحرب عمليا ، الى غير ذلك من الاسئلة المحرجة . ولكن الجلسة انتهت بكل هدوء.

والطريف ان هذا القانون لا يزال حتى الساعة نافذ المفعول ولم يصدر قانون آخر بالغائه . ولذلك فان كل علاقة بين سوري والماني ، تجارية كانت او غير تجارية ، تعتبر بنظر قانون العقوبات جناية تستوجب محاكمة صاحبها بتهمة التعامل مع الاعداء فيحكم عليه بالاعدام او الاشغال الشاقة ! ومن جهة ثانية ، فعلى الرغم من نفاذ قانون اعلان الحرب على المانيا وعدم الغائه فان الحكومة السورية عينت ممثلا سياسيا لها في بون عاصمة المانيا الغربية وقبلت اوراق اعتماد وزير المانيا المفوض لديها ... ولم تعقد معاهدة صلح بين الدولتين . وهاتان الحالتان هما من نتائج الحرب العالمية الاخيرة التي ابطلت التقيد بالشكليات في العلاقات بين الدول وغيرت كثيرا من الاصول والانظمة والتقاليد التي كانت مرعية قبل ذلك .

وعلى اثر اعلان الحرب من قبلنا على المانيا اصبحت سورية في عداد الدول التي يجوز اشتراكها في مؤتمر سان فرانسيسكو . الا ان فرنسا لم تكن مشتركة في مؤتمر يالطه الذي اقر هذا الشرط ، ولكنها اعتبرت كاحدى الدول التي توجه الدعوات لحضور مؤتمر منظمة الامم المتحدة . فخشينا ان تقف معترضة على دعوتنا ، فيما لو اقترحت ذلك دولة اخرى كالولايات المتحدة او بريطانيا . ذلك لان

الخلاف كان بيننا وبينها لا يزال قائما بشأن استلام الجيش . وكانت تتمسك بضرورة عقد معاهدة تحالف معها ونحن نرفض ذلك .

ولما كان اشتراكنا كاعضاء في منظمة الامم المتحدة هو المظهر الاساسي لاستقلالنا ، فقد عنيت الحكومة بحمل الولايات المتحدة وبريطانيا على دعوتنا الى سان فرانسيسكو . وايدها بمسماه كل من ممثلي هاتين الدولتين بدمشق، وساعدتها في ذلك سياسة الولايات المتحدة التي كانت ترمي الى تحرير دول الشرق الاوسط املا في جعلها الى جانبها في المستقبل ، وسياسة بريطانيا التي كانت تستهدف قلع جذور فرنسا من هذه المناطق لعلها تستطيع الحلول محلها وجعل بلاد العرب جميعها تحت نفوذها .

ويغلب على الظن ان الحكومة الافرنسية شعرت بتلك الرغبة الاكيدة فارادت تجنب مواجهة الامر الواقع . فبادرت الى توجيه دعوتها الى سورية للاشتراك في مؤتمر سان فرانسيسكو . وقد استقبلنا هذه الدعوة بابتهاج لان صدورها عن فرنسا نفسها التي كانت منتدبة علينا تاكيد لاستقلالنا وقطع لأية رابطة تريد فرنسا ربطنا بها .

وفي الوقت نفسه ، دعيت مصر والملكة العربية السعودية والعراق ولبنان واليمن ، فصار للعرب في تلك المنظمة العالمية ستة اصوات . وهو عدد غير ضئيل لو ظل العرب متمسكين بوحدة الراي والاتفاق في الخطة . وتألف الوفد السوري من السيد فارس الخوري رئيسا ، والسيد نعيم الانطاكي نائب دمشق ، والسيد ناظم القدسي نائب حلب ووزير سورية المفوض في واشنطن .

وفي ذلك الاجتماع الذي عقده ممثلو اثنتين وخمسين دولة ، وقع الوفد على ميثاق منظمة الامم المتحدة ، ثم عاد رئيس الوزراء من فرانسيسكو في منتصف شهر آب .

اما ميثاق جامعة الدول العربية ، فقد وقع عليه بالنيابة عن سورية كل من السادة فارس الخوري وجميل مردم ، وذلك بتاريخ ٢٢ آذار ١٩٤٥ . وهكذا افتتح عهد الاجتماعات العديدة والمشاورات الكثيرة التي عقدها ممثلو الدول العربية لبحث ما له علاقة بمصالحها، تارة باسم مجلس الجامعة او اللجنة السياسية ، وتارة باسم مؤتمر انشاص الذي اشترك فيه ملك مصر فاروق ،وعاهل الاردن عبد الله، وولي عهد المملكة العربية السعودية الامير سعود ، ووصي العراق

الامير عبد الإله ، وسيف الاسلام عبد الله نائبا عن ابيه ملك اليمن ، ورئيس الجمهورية اللبنانية الشيخ بشارة الخوري ، ورئيس الجمهورية السورية السيد شكري القوتلي .

اسباب اساسية لخيبة الامل بالجامعة العربية

وقد علق العرب ، باديء ذي بدء ، الآمال الجسام على جمع كلمة المسؤولين في الدول العربية السبع وتضامنهم في السير المشترك في سبيل المصلحة العربية العامة ، ولكن الآمال ما لبثت ان تحطمت عندما بدأت الحقائق تتجلى امام العيون النابهة . وظهر ان تلك الاجتماعات لم تكن سوى جعجعة بدون طحن ، وكان الباعث الاكبر انقسام الجبهة العربية الى معسكرين : المعسكر العراقي ويضم العراق والاردن — وسمي بالمعسكر الهاشمي نسبة الى الاسرة التي ينتمي اليها كل من ملكي العراق والاردن — والمعسكر السعودي ، نسبة الى الملك عبد العزيز بن سعود ، وهو يضم ملك مصر وملك اليمن ورئيسا جمهوريتي لبنان وسورية . وقد ادى هذا الانقسام الى تفرق الكلمة بدلا من توحيدها. فكان انهزام صفوف الجيوش العربية امام اليهود في حرب فلسطين ، وانحطاط سمعة العرب في الاوساط العالمية بعد ان كان يظن ان هذه المجموعة المؤلفة من اربعين مليون نسمة قادرة على فرض ارادتها وعلى رد اي عدوان يقع على بلادها . وتبين ان الجيوش العربية التي يطنطن بها الزعماء العرب فقيرة بالعدد والاسلحة لحد الكفاف المخجل . فبدأ متعبو الدول يقفزون بالطائرات من بلد الى بلد ليشتروا الاسلحة والمعدات فيجدون الابواب موصدة في وجههم فيرجعون بخفي حنين .. اما السماسرة الجشعون فقد طاب لهم اللعب في هذا الميدان ، فاستوردوا من الاسلحة والمعدات الفاسدة ما لا تزال قصصه تتردد على الاسماع ، سواء في سورية او مصر ، وكل ذلك ناشيء عن ان المسؤولين في البلاد العربية لم يعدوا للامر عدته ولم يعملوا على تزويد جيوشهم بما يلزمها ، قبل ان تمتنع الدول الكبرى من بيع المواد الحربية ، اثر بدء حوادث فلسطين .

وهكذا انجلت اعمال المندوبين في اجتماعات الجامعة العربية عن مآدب سخية يأكلون فيها الطعام الفاخر ، وعن خطب رنانة تهتز منها آلات التقاط الاصوات اكثر من اهتزاز الافئدة ، وعن تصاريح منمقة يتبادر الى الذهن فورا ضعف صاحبها لكثرة ما يتبجح به من القوة والبأس الشديدين . واطلق على امين الجامعة العام السيد عزام باشا لقب « ابو الكلام عزام » .

وسيرد في بحوث لاحقة ذكر بعض الشؤون العائدة للجامعة وتعليق عام عليها .

مشاكل الجيش والسكك الحديدية والعلاقات الاقتصادية والسياسية بين سورية ولبنان

عندما فرض الافرنسيون انتدابهم على سورية ولبنان قسموا البلاد الى خمس مناطق اسموها دولا ، وهي :

١ ــ دولة لبنان الكبير . وهو لبنان الصغير الذي كان متمتعا باستقلال اداري باسم متصرفية لبنان ، مضمومة اليه الاقضية الاربعة التي سلخت عن ولاية دمشق العثمانية وولاية بيروت التي تضم طرابلس وصور وصيدا ، عدا حيفا .

٢ ــ دولة دمشق . وقد تنازلوا عن جزء منها فاصبح فيما بعد امارة شرق الاردن .

٣ ــ دولة حلب

٤ ــ منطقة جبل الدروز .

٥ ــ منطقة العلويين .

وعينوا لدولة لبنان الكبير حاكما افرنسيا ، ولكل من دولتي دمشق وحلب حاكما سوريا ، ولمنطقتي جبل الدروز والعلويين حاكمين افرنسيين .

وبذلك قضوا على الوحدة السياسية والاقتصادية التي كانت تجمع بين هذه المناطق العربية ، رغم الروابط الصميمة التي كانت بينها . ولئن استطاعوا ان يجعلوا الشؤون المحلية لهذه المناطق الخمس تدار تحت اشرافهم، فلم يغفلوا عن ضرورة ايجاد مركز واحد لادارة الشؤون التي لا يمكن فصمها ، بعضها عن بعض .

فلم يكن مستطاعا فصل الجمارك وشؤون السكك الحديدية وادارة حصر التبغ ودوائر المحاجر الصحية وغيرها . لذلك ربطوا هذه المصالح بالمفوضية الافرنسية مباشرة . واتخذ المفوض السامي لنفسه مركز الحاكم العام عليها وصار يصدر التشريع في هذه الشؤون وينظم موازنتها السنوية .

وعندما تخلى الافرنسيون عن ادارة المصالح المشتركة وسلموها الى حكومتي سورية ولبنان تحت ضغط الحوادث في ١٩٤٤ ، لم يكن ليدور بخلدهم التخلي بصورة نهائية عن وضعهم الاساسي كدولة منتدبة حليفة تشرف على بعض المصالح ، فتؤمن بذلك استمرار نفوذها في الدولتين . وانحصرت جهودهم للاحتفاظ بنفوذهم وسلطانهم في ثلاث نواح : الاولى ، الجيش . والثانية ، الامور الاقتصادية

والمالية ببقاء المصرف السوري واللبناني المؤسس برؤوس اموال افرنسية . والثالثة ، المدارس الافرنسية . وبذلك اعتقدوا انهم ، رغم تنازلهم عن ادارة شؤون البلاد الداخلية والجمركية ، فهم احتفظوا بالقوة المسلحة التي تؤمن بقاءهم وتحول دون حيازة سورية ولبنان على قوة مسلحة تتشابك مع قواهم العسكرية ، واستبقوا اشرافهم المالي والاقتصادي على البلاد بواسطة المصرف المذكور ، الى جانب النفوذ الثقافي في ناحية التعليم .

ومن هنا انبعث الخلاف الشديد بين حكومتي سورية ولبنان من جهة ، وبين الافرنسيين من جهة اخرى ، في قضية استلام القطعات العسكرية المؤلفة من ضباط وجنود متطوعين سوريين ولبنانيين تحت قيادة الافرنسيين . وكان المندوب العام الافرنسي الجنرال كاترو وخليفته الجنرال بينه يشترطان قبول سورية ولبنان بعقد معاهدة تحالف مع حكومة فرنسا ليتنازلوا عن الجيش مع بقاء قيادته بيدهم طول ايام الحرب .

ولما فشلت الاتصالات بين الفريقين ، بدأ التذمر في سورية يتجلى في مقالات الصحف وفي المظاهرات الشعبية الداعية الى استلام الجيش . واراد الافرنسيون ان يظهروا قوتهم وان يتجنبوا مخاطر التحاق الضباط والجنود السوريين بالحكومتين المحليتين ، فبداوا يجلبون قطعات عسكرية مع لوازمها المتعددة وينزلونها في بيروت . فاحتجت الحكومتان على ذلك بمذكرات شديدة اللهجة . وجرت في المجلسين النيابيين مذاكرات القيت فيها الخطب الحماسية القاسية، سواء من قبل الوزراء او من قبل النواب ، كما حصلت حوادث فردية بين الافراد والجنود الافرنسيين تحجج بها الجانب الافرنسي ، فاقام حول مراكز القيادة وغيرها متاريس وعبأ فيها الجنود السود . ثم وزع وكيل المندوب بدمشق، الجنرال اوليفا روجيه، تعميما على الضباط والموظفين الافرنسيين يذكر فيه حوادث التعدي على الجنود ،ختمه بقوله : لقد حان موعد الانتهاء من هذا الوضع ، فانتظروا ساعة الانتقـــام .

ولما وصلت نسخة من هـــذا التعميم ، بطريقة خاصة ، الى الحكومة السورية نشرتها على الملأ وقدمت احتجاجها عليها . فساد الاضطراب على البلاد ، وخاصة دمشق ، واصبح الجميع يتوقعون حصول حوادث ذات بال .

ويوم الثلاثاء في ٢٩ ايار ١٩٤٥ ، ذهبت الى الندوة النيابية

لحضور الاجتماع المقرر عقده في الساعة الرابعة . وانتظرت مع لفيف من النواب قرع الجرس ايذانا باكتمال النصاب لعقد الجلسة ، لكن الاكثرية لم تكن قد حضرت. وظللنا ننتظر في الحديقة الى ان بلغت الساعة الخامسة والنصف ، فقطعنا الامل بامكان الاجتماع وسرنا الى السرايا لاستطلاع اخبار الازمة .

ضرب دمشق بالقنابل واحتلال المجلس النيابي

وجدنا نائب رئيس الوزراء جالسا في بهو الرئاسة وحوله بعض النواب والموظفين . وبدأ السيد جميل مردم يدلي بآخر ما لديه من اخبار الازمة ، والنواب يناقشونه فيما يجب عمله . وفي الساعة السادسة تماما سمعنا اصوات طلقات نارية فخرجنا الى الشرفة لمعرفة المصدر . واشتد ازيز الرصاص بشكل مزعج ، فعدنا الى البهو لنتقي الرصاصات الطائشة . وعبثا ذهبت محاولات نائب الرئيس للاتصال هاتفيا بمراكز الشرطة والدرك ، اذ كانت الخطوط الهاتفية مقطوعة .

وبعد برهة جاءنا من يخبرنا بان الجنود الافرنسيين المرابطين امام مركز رئاسة اركان الجيش الافرنسي طلبوا من حرس المجلس النيابي ان يصطفوا لتحية العلم الافرنسي في موعد انزاله فما كان منهم تجاه رفض الحرس هذا الطلب الا ان بدأوا باطلاق الرصاص عليهم . فقابلهم الحرس بالمثل ، ولكنهم ما لبثوا ان هجموا على المجلس ودخلوه عنوة وقتلوا ذبحا جميع افراد الحرس واستولوا على بناية المجلس . وبعد هنيهة بدأ اطلاق الرصاص على السرايا من الجهة الخلفية . وعلمنا ان مصدره هو الجنود الافرنسيون المرابطون الى جانب بناية الهاتف التي تشغلها الآن دائرة الاذاعة في شارع النصر . واخترقت هذه الرصاصات نوافذ السرايا وصارت تتساقط في الممر . وكان الليل قد ارخى سدوله وانقطع التيار الكهربائي ، فبتنا في الظلام الدامس . ولجا كل خمسة او ستة اشخاص الى غرفة مستندين الى جدار بعيد عن الرصاص الداخل من النوافذ . وخيم السكوت على الجميع واشتد قلقهم . ولم يكن داخل السرايا الا سبعة من رجال الدرك ، سلاحهم الوحيد هو البنادق . فامر نائب الرئيس باغلاق ابواب السرايا ووضع الكراسي والمناضد خلفها لاحكام سدها والحيلولة دون اقتحامها من الخارج . واصبح الموقف حرجا للغاية . فرئيس الوزراء وزملاؤه غير قادرين على الاتصال باحد ، وقوة الحرس غير كافية لدفع اي هجوم على السرايا . وكان ازيز الرصاص يملأ الفضاء ورهبة الظلام تضاعف

الرعب . وكان الجميع يوجسون خيفة من مصير مماثل لمصير حرس المجلس ، اذا عمد الجنود الافرنسيون الى الهجوم على السرايا لاحتلالها والتخلص نهائيا من اعضاء الحكومة وما يقرب من ثلاثين نائبا .

ودب الياس الى القلوب . وعكف الجميع على الصلوات والادعية حيث لم يعد ثمة ملجا غير العناية السماوية لانقاذنا من هذا المازق واخراجنا من السرايا ، حيث كان الخطر جاثما . وبعد مضي ما يقارب الساعتين ، جاءنا شخص مؤتمن سمح له الحرس بالدخول مطمئنين اليه وقال : « يجب عليكم الخروج من السرايا فورا » . فسالناه عن الطريق الاسلم فقال : « تخرجون من الباب الجانبي المواجه لبناية البلدية وتقطعون المسافة بينها وبين فندق امية متسللين خلف حاجز النهر ، ومن هناك تدخلون طريق البحصة وتنتشرون في الازقة التي ليس فيها جنود افرنسيون » . فاجبناه بان الافرنسيين يطلقون النار من فوق بناية العباسية على ساحة المرجة ، كما يطلقونها عبر شارع رامي على الساحة نفسها. فكيف ننجو من هاتين النارين ؟ فقال : « ليس امامكم غير هذا الطريق اما سواه فمكتظ بالجنود . واما الثلاثين مترا بين البلدية والفندق ، فليس لكم الا اجتيازها ركضا وظهوركم منحنية خلف الحاجز النهري . والعمر بيد الله . ولكنكم اذا تاخرتم اضعتم آخر فرصة قبل احتلال السرايا المرتقب » .

فتشاورنا مع بعضنا بعض في الامر وارتاينا اختيار اهون الشرين وهو اخلاء السرايا . وارسلنا ذلك الشخص لاحضار سياراتنا الى طريق البحصة ليسير بها كل الى وجهته . فقال السيد جميل مردم « ولكن الى اين نذهب وطريق الصالحية مليء بالجنود » ؟ فحرنا بامرنا الى ان اقترح المشار اليه ان نذهب كلنا الى داري بسوق ساروجة ، حيث ننتظر الفرج . فوافق الجميع وبدات عمليات التسلل التي رافقها لحسن الحظ توقف اطلاق الرصاص للمدة الكافية لعبورنا منطقة الخطر . وبعد ربع ساعة التقينا في داري التي اكتظت باللاجئين اليها ، من وزراء ونواب وموظفين وحرس وفضوليين ، حتى اربى عدد الجميع على المئة شخص . وكان اول ما قام به السيد مردم ان تناول آلة الهاتف واخبر اهله بانه سليم ، وانه في داري . وحذا حذوه الكثيرون ، فعلم الافرنسيون ، باستراق السمع ، الملجا الذي لجات اليه الحكومة والنواب . فصوبوا مدافعهم من المزة علينا ، فتساقطت القذائف على الدور المجاورة وانهارت على ساكنيها الآمنين

ولست اعلم ما اذا كانت نجاة دارنا من القنابل ناشئة عن جهل الرماة من الرماية ، ام عن رغبة في انزال الرعب في قلوبنا لحمل اعضاء الحكومة على مبارحة المكان وملاحقتهم اينما كانوا . وانحصر الخطر على مبارحة المكان وملاحقتها اينما حطت ركابها . وانحصر الخطر في سقوط الشظايا ، فاتقينا شرها بالالتجاء الى الغرف والاقبية ذات السقوف الحجرية ، اعتقادا منا ــ قد يكون خاطئا ــ انها اقوى على مقاومة القذائف من السقوف الخشبية . وكانت الاهتزازات الارضية التي تعقب وقوع القنابل تؤدي الى تساقط الاتربة والغبار علينا من تلك السقوف العتيقة ، فيصبح جو الغرف مليئا بذرات التراب ويزيد في وحشته نور الشموع القليلة . وامام هذا الخطر الجديد ــ خطر قذائف المدفعية من المزة وقنابل الطيارات التي كانت تحوم في السماء ــ بحث الحاضرون مرة اخرى امر الانتقال الى منطقة اكثر هدوءا. فقال البعض بضرورة خروج الحكومة من دمشق والالتجاء الى عمان، حيث تواصل جهودها ضد العدوان . اعترض البعض الاخر على ذلك واصفا اياه بالانهزام واخلاء الجو امام الافرنسيين ليعملوا ما يشاؤون متحججين بهرب اعضاء الحكومة وضرورة استلام زمام الامر لقمع الفوضى . وكان كل ما علمناه عن رئيس الجمهورية انه لا يــزال مريضا لا يبارح داره . ورغـــم موافقة الحاضرين على انتهاج الخطة المذكورة ، فقد عمد السيد مردم الى اعداد العدة للسفر الى عمان بصحبة الحكومة . وارسل ابن عمه السيد حيدر مع بعض الموظفين الى شرق الاردن لاعلام حكومتهـــا بقرب وصول رئيس الحكومة واعضائها ، على ان كل هذه المخاوف ، سواء كانت على حياتنا او على مصير البلاد،لم تكن لتحول دون شعورنا بالجوع عندما قـــارب الليل منتصفه . وصار بعض الحاضرين يعملون على تدارك قطع الكعك او الخبز لسد هذه الحاجة الملحة ، مما ادى بالطباخ الى اعداد طعام يكفي الجميع .ولم تمض ساعة حتى ادركنا بصحون اللحم مع الارز واشبع شهوتنا من الطعام الذي وجدناه في هذا الوقت العصيب اطيب من اية اكلة لذيذة في وقت هنيء . ولعل كثرة القنوط واليأس تجعل المرء غير حافل بما يحيطه من الاخطار ، فيستسلم الى القدر تاركا الامور تجري الى مستقر لها . ومن النـــاس من تثور اعصـابه فيصبح يقظا متحفزا،ومنهم من يستطيع التغلب على توترها. وكان السيد جميل مردم من هؤلاء الآخرين ، اذ استرخى على مقعد والتف بعباءة وطلب الى الجالسين معه في الغرفة ان يرحلوا عنها او ان يكفوا عن الكلام ليأخذ حاجته من النوم .ففضل الحاضرون النزوح

عن مجلسه ،فاستسلم الى الرقاد كان ليس في الامر ما يعنيه .وتفرق الآخرون في الغرف العديدة جماعات ، جماعات .

اما انا فآويت مع عائلتي الى ما يسمونه بدمشق بيت المونة ، اي الغرفة التي تخزن فيها انواع اللوازم البيتية ، من قمح وعدس وسمنة وما يماثلها. والقينا على ارضها الحجرية الفراش والوسائد سعيا وراء النوم وتناسي الحال . وبقينا هكذا حتى الصباح الباكر ، تزعجنا اصوات الطيارات الحائمة فوق رؤوسنا واصوات انفجار القنابل والقذائف ، وتضحكنا حركات الفئران التي كانت تمد رؤوسها من ثقوبها المتصلة بالحديقة للتفرج على الزوار الجدد ثمتنطلق بسرعة البرق الى ملاجئها لنشر خبر احتلال الغرفة من قبل مخلوقات غريبة.

وانتشر في الحي خبر التجاء اعضاء الحكومة وبعض النواب الى منزلي . فجاءت وفود تطلب من السيد مردم التكرم بالانتقال الى حي آخر يتخذه مركزا لحكومته حتى يخف الضرر عن حيهم وتتوزع سائر الاحياء شرف ضيافة اصحاب السلـــطان . ولئن كان هذا المسعى غير مؤتلف مع واجبات الضيافة العربية وصادرا عن انانية شخصية ، فلم يكن بحد ذاتـــه ناشئا الا عن الخوف من التعرض لمصائب الحرب مع حكومة تنحصر جهودها بانتظار الفرج ، دون بذل اي مسعى ايجّابي . وقال بعض الوافدين بأن الحكومة لو امرت بمناهضة العدوان وتسليم الاسلحة للرجال وهي على راسهم ، لما ترددوا في الجهاد . ولكنهم لا يجدون في بقـــاء الحكومة في الحي مكتوفة الايدي سوى مجلبة للاذى والضرر .

فوعدهم الرئيس باعداد العدة للرحيـــل في اول فرصة ، دون تعريض النفوس الى الخطر ، الى حي الصالحية الذي بقي خاليا من الجيش الافرنسي .

وفي الهزيع الاخير من الليل جاءنا السيد فخري البارودي بلباسه العسكري — اذ كان برتبة عقيد — رابطا عنقـــه بلفائف الشاش . وبدأ يتناول الجميع بالشتم والتقريع بالفاظه المالوفة .

واشار بيده الى رقبته وقال : « كاد اسمي ينضم الى اسماء الشهداء . » قلنا : « لا سمح الله . . » قال : « كنت في قلعة سوق الحميدية مع الدرك عندما بداوا باطلاق النار والقذائف علينا . فاصابتني شظية قرب الحلقوم . ولولا لطف الله لكانت قاضية على حياتي . » فقال له السيد عفيف الصلح : « لقد قتل عشرات من

الجنود في قاعة البرلمان واصيب الكثيرون غيرهم في مراكز وظائفهم .. فما بالك تقيم الدنيا وتقعدها لخمش بسيط في عنقك ؟ » وكان بين الاثنين مداعبات دائمة ولاذعة في اكثر الاحايين . فأجابه البارودي منفعلا : « انكم قاعدون هنا ... تأكلون وتشربون وتدخنون بينما الناس يقتلون ويشردون ... والبلاد سائرة الى الاستعمار . فما هي التدابير التي اتخذتموها لدفع العــــدوان ، وما الخطة التي اعتزمتموها للدفاع عن الاستقلال ؟ » فاجبناه : « عليك برئيس الوزراء ! » فقال : « وصلنا ! وعلى كل حال ، اين هو ؟ » فأشرنا الى القاعة وقلنا له : « انه ها هنا وهو مستلق ليأخذ نصيبه من الراحة ... » فما كان من البارودي الا ان انبرى واقفا وتركنا بدون وداع وخرج ... وفهمنا بعد ذلك انــــه التحق بالوفد الذي سافر الــى الاردن بعد ان خلــع ثيابه العسكرية .. ومكث في عمان حتى انتهــاء الازمة .

الحكومة تلجــا الى حي الصالحية وتجتمع بــرئيس الجمهورية

بعد ان استيقظ نائب رئيس الوزراء وتناول طعام الافطار ، عكف على معالجة الموقف بتحري اسبــاب الوصول مع اعضاء الحكومة سالمين الى قطاع الصالحية . فتعهد البعض بمرافقته وحمايته ، فامر بارسال السيارات بعيدا الى جهة حي العمارة . وخرج هو ورفاقه الوزراء وبعض النواب والموظفين من باب الدار الخلفية الى حي السمانة ومن هنالك الى حيث كانت السيارات بانتظاره . فاتجهوا الى قرية القابــون ومنها الى حي الاكراد فالصالحية . واجتمع هناك الى رئيس الجمهورية . وقد طمأننا عن وصول السيد مردم ورفاقه احد سائقي السيارات التي اوصلتهم . وبقيت في الدار مع خمسة من الرفاق والنواب الذين كانوا ساكنين في فندق الشرق وامية فلم يعد لهم مأوى يلجأون اليه ، وكان بينهم السادة مظهر رسلان وميخائيــل اليــان وعفيف الصلح . فقضينا النهار بطوله والليلة بوحشتها دون ان نتمكن من الاتصال بأحد لمعــرفة تطور الامــور . وفي الصبــاح المبكر ورد الينا الخبر بأن الافرنسيين بدأوا باطلاق القذائف المحرقة على الدور الكائنة في مدخل سوق ساروجه ، فاشتعلت النيران في الدور وانتشر الحريق بشكل مخيف . فخرجنا الى الشارع وشاهدنا الناس آتين من جهة موقع الحريق يحملون ما خف من الثياب والامتعة ، وامامهم الطنــابر مشحونة بالصناديق والاثاث هربا من المنطقة المصابة . ثم اعقبتهم جموع الساكنين بجوار تلك المنطقة ، الهاربين مـــن خطر تسرب الحريق الى دورهم . وانتشر الذعر بين سكان الحي وساد الاعتقاد

ان الحي كله سيكون فريسة النيران . اذ ان القذائف الملتهبة كانت لا تزال تنهال ، وليس ثمة فرقة اطفائية قادرة على الحضور او يسمح لها الجنود الافرنسيون بالقيام بواجبها . وامام هذا الخطر المحدق واحتمال نشوب النـــــار والفوضى والنهب ، عزمنا على النجاة بانفسنا ، فركبنا سيارتنا وسلكنا الطريق الذي سلكه مردم والحكومة قبلنا ونزلنا ضيوفا بحي المهاجرين ، لدى صديق . وكذلك لجأ النواب الى دار إحدهم بحي الرئيس .

الرئيس القوتلي يرفض تهريبه الى الاردن

وكان حي المهاجرين وحي الصالحية هادئين نسبيا ، لا يسود سكانهما الا القلق على الاحياء الاخرى وعلى ما سيحل بالبلاد . واستطعنا هناك الوقوف على تسلسل الحوادث خـــــلال اليومين السابقين . فعلمنـــــا ان رئيـــــس الجمهورية استدعى وزيـــر بريطانيا المفوض ، فجاءه داخل دبابة انكليزية . فاستقبله الرئيس بسرور وبلغه احتجاجا شديدا على اعمال الجيش الافرنسي وطلب منه تدخل حكومته لوقف هذا الاعتداء ومعالجة الامر بسرعة . فاقترح عليه مستر شون ان ينتقل الـــى حيث يكون اقل تعرضا لاي تشبث افرنسي بالقبض عليه. والمح الى امكان نقله الى عمان بحماية الدبابات الانكليزية فرفض الرئيس باباء وشمم ترك المجال فسيحا امام الافرنسيين . واضاف علـــى ذلـــك قوله : « اذا كنت سأخرج من داري ، فبسيارة الصحة الى سرايا الحكومة حيث امكث هناك . وليأت الافرنسيون ليقبضوا علي هناك اذا تمكنوا من اخذي حيا » . ثم هدد الوزير البريطاني بانه سيفعل ذلك اذا اعيته الحيلة ولم تبادر انكلترا الى التدخل في الامـــــر . فتحمس الوزير وعاد الى مفوضيته وارسل برقية الى حكومته واصفا اعمـــال الافرنسيين بالطيش والحمق . وذكـــــر عدوانهم على مجلس النواب وقتلهم حراسه ، وقذف المدينة بالمدافع والطائرات ، ولجوئهم الى اشعال الحريق في الدور وكسر ابواب المخازن ونهبهـــــم البضائع واطلاق الحرية لجنودهم العبيد السنغاليين للاعتداء على الناس. واكد الوزير ان كل هذه الاعمال العدوانية لم يكن لها ما يبررها ولا هي متفقة مع شـــرائع الحرب ، اذ افترض ان ثمة حربا بين سورية وفرنسا . ثم طلب من حكومته العمل على ايقاف هذا التعدي الصارخ على دولة معترف باستقلالها من قبلهم . ولقد كان من حسن حظ البلاد وجود مستر شون وزيرا مفوضا لبريطانيا ، اذ ان تقريره لقي آذانا صاغية من قبل حكومته ، باعتبار انه لم يسبق ان ظهر منه موقف معارض للافرنسيين .

اما الجنرال سبيرس الذي كان سلفنا له ، فكان معروفا عنه عداوته الشديدة للافرنسيين . فلو ان العدوان الافرنسي هذا حصل وهو في دمشق لكان مستر تشرشل وزملاؤه حملوا تقريره محمل التغرض ، ولما كانوا صدقوه ، ولما عملوا بنصحه . اما رئيس مجلس النواب السيد سعد الله الجابري ، فكان في غرفته في فندق الشرق عندما بدات حوادث العدوان . ولم يستطع الخروج منه ، لما كان يطلقه الافرنسيون من الرصاص على الفندق ، وخاصة على مدخله . فبقي مع من كانوا في الفندق معتصمين في الملجأ حتى جاء وزير روسيا المفوض بسيارته ، يرفرف عليها علم دولته . فتوقف اطلاق النار فترة من الزمن . فانتهز الجابري الفرصة وطلب الى الوزير مرافقته بسيارته ، وخرجا معا . وتابع الجابري سيره الى بيروت حتى يطلع حكومة لبنان علي ما حصل بدمشق . وامتطى طائرة الى القاهرة واثار القضية على الملا . فادلى الرئيس مصطفى النحاس بتصريح رسمي احتج فيه على موقف الافرنسيين وهددهم بمصالحهم في مصر . ثم اجتمع مجلس الجامعة العربية واشترك فيه السيد الجابري عن سورية .. وفيه تقرر الاحتجاج والسعي لانقاذ سورية .

واما الحكومة ، فبعد ان بارحت سوق ساروجه اجتمعت لدى الرئيس القوتلي وابلغت احتجاجها ممثلي الدول الاجنبية . وصارت تعقد الاجتماعات الدائمة بدار الرئيس السيد مردم . ولم يشذ عن الحضور الى هذه الاجتماعات سوى وزير المالية السيد سعيد الغزي الذي بارح دمشق واعتصم بالزبداني تاركا وظيفته وواجباتها .

وبوصولي الى المهاجرين ، اجتمعت الى السيد حسن جبارة وسألته عن الاخبار . فقال لي ليس ثمة اخبار جديدة . غير ان الحكومة قلقة من استمرار الحال ، لا سيما ان بعض صغار النفوس بداوا ينشرون الاشاعات بأن الخبز سوف يفقد من الاسواق اذا ظل الامر على ما هو عليه ويدعون الناس الى تأليف الوفود للاتصال بالجنرال اوليفيا روجيه للتفاهم معه على انهاء الوضع بتعيين حكومة جديدة من غير القائمين على الامر . وقال ان بعض الاعلام البيضاء ارتفعت في بعض الاحياء تشير الى الاستسلام . واضاف على ذلك ان الحكومة اصبحت تخشى ان يتشتت الناس وتتفرق الكلمة ، بحيث يؤدي الامر الى الرجوع الى وضع الانتداب وضياع الاستقلال . وكان حديثه مملوءا بالتشاؤم . وهو بالطبع انعكاس لما

يشعر به اعضاء الحكومة كلهم . فسألته عما قررت الحكومة اتخاذه من تدابير لانقاذ البلاد . واشرت عليه بضرورة دعوة مجلس النواب للمذاكرة في الحال ، لعلهم يجـــدون طريقة مجدية بعد التشاور والاطلاع على ما يجري في سائر انحاء البلاد وما نستطيع الحصول عليه من معاضدة الدول العربية ومؤازرة الدول الاجنبية . فاعلمني بسفر الرئيس السيد سعد الله الجابري الى القاهرة ، وبان رئيس الجمهورية مريض في فراشه وهم يخشون عليه من الانزعاج المتزايد، وبان رئيس الوزراء والوزراء حائرون من امرهم . فتركته واليأس وامهله مدة قصيرة لسحب جيشه من سورية.وابلغه ان قائد الجيش مستول عليه كل الاستيلاء .

الانذار البريطاني وخـروج القوات الفرنسية من دمشق

ولم يمض على هذا الاجتماع بضع ساعات حتى هتف لي السيد جبارة وقال لي : « لك البشرى ، هل استمعت الى الراديو؟ » قلت : « اي راديو ؟ » اجاب : « راديو لندن . فقد اذاع قبل هنيهة ان مستر تشرشل ارسل انذارا الى الجنرال ديغول بايقاف العدوان وامهله مدة قصيرة لسحب جيشه من سورية.وابلغه ان قائد الجيش البريطاني المقيم في لبنان تلقى امرا منه بأرسال قوة عسكرية الى سوريـــة . »

وكـــانت بالفعل بشـــرى لا تفوقها بشـــرى ، احيت الآمال بعد انهيارها . وفي صبيحة اليوم التالي ، اي يوم الجمعة في اول حزيران ، شاهدت مـــن الدار التي اقمت فيها في حـــي المهاجرين الدبابات الانكليزية تجوب الطرق . وقد مرت امامي وسط عاصفة من التصفيق والابتهاج . وظهـــــرت على الوجوه امارات الفرح والسرور بدلا عن علائم القنوط واليأس التي كانت تبدو على كل وجه . وعندما دخل الجيش الانكليزي مدينة دمشق ورابطت دباباته في الشوارع الرئيسية ، اختفى الجنود الافرنسيون بلمحة بصر وعادوا الى اوكارهم حانقين ساخطين . وبدأ ضباطهم المقيمون في المدينة والموظفون المدنيون يرحلون عنها بما خف حمله ، بحيث لم تمض بضع ساعــــات حتى زال عن دمشق الكابوس وخلت من الشياطين . وانزلت الاعلام المثلثة الالوان بعد ان رفرفت خمسة وعشرين عاما . ولا يقابل الاسف لعـــدم قدرة السوريين وحدهم على اجلاء الافرنسيين عن بلادهم ، الا كـــون الافرنسيين انفسهم لا يستطيعون التبجح بقهر جيشنا في ميسلون . فكما كنا ضعفاء عندما غلبنا على امرنا وقتئذ فدخلوا علينا ، كذلك كانوا ضعفاء عندما غلبوا على امرهم ورحلوا عنا . وكما كان الفضل في احتلالهم سورية عائدا

الى مساعدة الانكليز لهم ، كذلك كان الفضـــل في خروجهم للانكليز انفسهم . فهم متموهم بسورية وهم منعوهم عنها .

وجلست اعيد الى الذاكرة صفحـــات الماضي . فمرت بالتسلسل ذكرى ايام دخول الفاتح الفرنسي على راس جيشه ، ثم قدوم الجنرال غورو ووقفته امام ضــريح السلطان صلاح الدين الايوبي وقوله « ها نحن نعود » ملمحا الى عودة الصليبيين على يده ، ثم هروب رجالات العهد الفيصـــلي وعودة الملك فيصل من الكسوة الى قصره في جسر الصالحية وسعيه للاحتفاظ بعرشه ، ثم انذار الجنرال غورو له بلزوم مغادرته دمشق فورا ، فوداعه للمرحوم علاء الدين الدروبي الذي كان عينه رئيسا للوزارة يوم ٢٥ تموز ١٩٢٠ في محطة الحجاز حيث ركب القطار الخاص ، ثم سلخ الكرك وعمان عن سورية وخلق امارة شرق الاردن فيها ، ثم تجزئة البلاد الى دويلات ، ثم مجيء مستر كراين رئيس بعثة الاستفتاء الامريكية في ١٩١٩ والمظاهرات التي قامت في دمشق تحية له واظهارا لتمسك البلاد بطلب الاستقلال ، ثم احالة الشهبندر ورفاقه الى المحاكمة والحكم عليهم بالحبس لاثارتهم هذه المظاهرات .

اما ثورة ١٩٢٥ ــ ١٩٢٦ فتبدو في كل روعتها وجلالها . وتمر بالذاكرة حوادثها الاولى في جبل الدروز ، ثم قذف دمشق بالمدافع واحراق الاحياء وقتل الابرياء ، ثم تلك الليالي التي قضيناها تحت خطر القنابل والحريق كتلك التي مرت علينا ايام العدوان الاخير ، ثم فرض غرامة على المدينة قدرها مئة الف ليرة ذهبية وعشرة آلاف بندقية حربية ، ثم انتشار الحركات الثورية في جميع انحاء الغوطة واقاليم البلاد والوقائع الحربية التي ابلى فيها المجاهدون الدروز وابناء غوطة دمشق بلاء حسنا وانزلوا بالاعداء الخسائر الكبيرة ورفعوا اسم سورية عاليا واعادوا لابنائها الثقة بانفسهم بعد ان كادوا يفقدونها بعد معركة ميسلون المشؤومة .

وراح الفكر يسبح في ذكريات ما جرى في القاهرة من اجتماع مع مسيو دوجوفنيل لم ينتج عنه شيء ، وما كان العاملون في الحقل الوطني يقدمونه لهذ الثوار بما يلزم من المال والعتاد .

ثم تنتهي الذكريات الجميلة لتحل محلها السيئة المحزنة ، وهي تفرق كلمة الثوار وكبار الوطنيين واستسلام بعض كبار المجاهدين ، ثم تاليف حكومة الداماد احمد نامي بالاشتراك مع ثلاثة من الوطنيين هم فارس الخوري وحسني البرازي ولطفي الحفار ، ومساعيهم لحل

المعضلة استنادا الى وعــود المفوض السامي الافرنسي الجديد ، ثم جنوح القادة العسكريين الى احراج الموقف بضرب حي الميدان ، وما تلاه من استقالة الوزراء الثلاثة المشار اليهم والقاء القبض عليهم مع المرحوم فوزي الغزي وغيره من زمـــلائه ونفي الجميع الى الحسكة ، ثم دخول الجيش الافرنسي الى السويداء وانسحاب الدروز وابناء الغوطة من البلاد والتجـائهم الى المملكة العربية السعودية وانهيار الآمال المعسولة التي علقها الناس على الثوار ، من حيث انهاء الانتداب او التخلص من الكثـــير من اعبائه على الاقـــل .

ومن هذه المرحلة تعود الذاكرة الى الحكومة التي الفها الشيخ تاج الدين الحسيني في اوائل ١٩٢٨ ، ودعوة البلاد الى انتخاب جمعية تاسيسية لوضع الدستور ، وفوز الوطنيين فيها واختلافهم مع الافرنسيين على المواد الستة ، مما ادى الى تأجيل الاجتماعات ، ثم الى حل الجمعية ، ثم استمرار حكم الافرنسيين وراء ستار الحكومة المحلية الى ان عاد المفوض السامي مسيو بونسو الى دعوة الناخبين وانتخاب مجلس النواب ثم ما حصل من مظاهرات دموية ارغمت الافرنسيين على اقالة الشـــيخ تاج الدين وابعاده الى باريس ، ثم ارجاء الانتخابات حتى ١٩٣٢ ، حين سيطر الوطنيون على المجلس رغم قلّة عددهم وتاليف حكومة فيها اثنان منهم ، ثم جنوح الافرنسيين الى عقد معاهدة مع سورية ورفضها من قبل المجلس اثر المظاهرات الصاخبة .

ثـم انني اتذكر حوادث شباط ١٩٣٦ التـي بدأت بمقاطعة شركة الكهرباء ، ثم تطورت الى مظاهرات سياسية اغلقت فيها المخازن طول ذلك الشهر مما حمل الافرنسيين على التطويح مرة ثانية بالشيخ تاج واستدعاء هاشم الاتاسي الى بيروت والاتفاق معه على اجراء مفاوضات في باريس لعقد معاهدة جديدة ، ثم تاليف الوفد المفاوض وسفره الى العاصمة الافرنسية وبقاؤه مهملا الى ان جرت الانتخابات النيابية الفرنسية التي رفعت اليساريين الى مناصب الحكم ، فمجيء مسيو بلوم اليهودي الـى رئاسة الوزراء واظهاره الميل الى الاتفاق مع الوفد السوري ، ثم انتهاء الامر بعقد مشروع معاهدة ادعى الوطنيون انها فوز باهر فيحين انهـا كانت استمرارا للنفوذ الافرنسي بجيشه ومصرفه وعملائه ، طول خمس وعشرين سنة ، ثم اسراع مجلس النواب السوري الى ابرامها ، بينما تلكأ الجانب الافرنسي في تقديمها الى البرلمان .

وتتالى صفحات الحوادث التي ادت الى استقالة الحكومة الوطنية في ١٩٣٩ بعد ما حصل في محافظتي الجزيرة وجبل الدروز من اثارة للمشاكل الطائفية ، ثم اعلان الافرنسيين توقيف الحياة الدستورية وتسليمهم الحكم الى احد الموظفين المسايرين لهم ، ثم تنازلهم للاتراك عن لواء الاسكندرونة ، ثم نشوب الحرب العالمية الثانية واندحار الجيش الافرنسي وعقد الهدنة مع المانيا ، ثم اغتيال الدكتور المرحوم عبد الرحمن الشهبندر واتهام الوطنيين بالجريمة ومحاكمتهم،ثم استلامي الحكم ودخول الجيوش البريطانية والديغولية الى سوريةولبنان بعد انسحاب الفيشيين منها،ثم اسناد الحكم مجددا الى الشيخ تاج ، ثم اعتقال فريق من الوطنيين ونفيهم الى راشيا ، ثم انفراج الازمة بموت الشيخ تاج واعلان الافرنسيين موافقتهم على عودة الحياة الدستورية ، ثم الانتخابات التي جرت في تموز ١٩٤٣ واستلام القوتلي ورفاقه الحكم ، ثم حوادث لبنان التي اعتقل فيها الافرنسيون رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وافرجوا عنهم ، ثم المباحثات التي جرت لاستلام المصالح المشتركة والخلاف على استلام الجيش الذي ادى الى العدوان الذي نحن في صدده ...

تلك الذكريات مرت في خاطري كما يمر فلم سينمائي امام العين ، وكانها حلم موحش استيقظت منه وما يزال شعور الالم والاسى يملأ قلبي رهبة ووحشة .

وفي الحقيقة لم يترك الافرنسيون خلفهم اي اثر طيب يمحو الكثير او القليل من مساوئهم . وكانت اعمالهم سلسلة من التعدي على الحريات العامة ، من حبس ونفي وتشريد ولجم للافواه وللاقلام ومنع للاجتماعات وقمع للمظاهرات بالدبابات والرشاشات وقذف للمدن بالمدافع والطيارات وقتل للابرياء من اهل القرى وحرق لبيوتهم وذبح لمواشيهم . اما الموظفون الافرنسيون فكانوا ، الا قلة منهم ، حثالة قومهم ، افسدوا الاخلاق العامة بسوء الادارة وتعاطي الرشوة . ولم يصلحوا في البلاد شيئا يذكر سوى شبكة الطرق ، ولم ينشئوا مشروعا مفيدا سوى مشروع صغير في حمص . اما في الناحية الاقتصادية فكانوا يقصدون الحيلولة دون نشاط العاكفين على انشاء مصانع ومعامل ، خاصة تلك التي يمكن ان تنتج ما تصدره فرنسا الى سورية . وثابروا على ابعاد الشخصيات الطيبة عن الحكم . لكن عندما كانوا يضطرون الى الخروج من مأزق ،

يمهدون به اليهم الى حين ، ثم يقيمون العثرات في طريقهم ويصرفونهم بشتى الوسائل .

ولكنهم بهذه السياسة الحمقاء خدموا سورية من حيث لا يشعرون . فلو انهم احسنوا خطتهم واستنكفوا عن اثارة الشعور الوطني بصورة مستمرة ، لاستقر بهم المقام في البلاد ولحالوا دون نمو الحركة الوطنية التي لا يغذيها سوى الظلم والقسوة ، ولظلت بلادنا حتى الساعة راضخة تحت نفوذهم .

وبعد ان استتبت الامور بجلاء الافرنسيين عن البلاد كلها وانسحاب الموظفين منهم ، وعودة الحكومة الى مزاولة سلطتها ، بدأ بعض النواب يجتمعون ويتحدثون في ما جرى ويتنادون الى بحث مسؤولية الحكومة في اهمالها الاستعداد لمجابهة تلك الحوادث التي لم يكن بد من وقوعها بعد ان تحرج الموقف بين الجانبين السوري والافرنسي . كما اخذوا يبحثون في ما اذا كانت حكومة مؤلفة بهذا الشكل قادرة على تحمل الاعباء الكبيرة وتوطيد اركان الدولة ، بعد ان اصبح الجيش تحت امرتها . فقادهم التفكير وامعان النظر في المستقبل الى تاليف كتلة قوية من النواب تطلب دعوة مجلس النواب الى الاجتماع لمحاسبة الحكومة عن تقصيرها ، والعمل على تاليف حكومة جديدة اقدر على مواجهة الوضع الجديد ، واتخاذ العدة اللازمة لاقامة حكم قويم .

وتقرر ان يقدم الى رئاسة مجلس النواب كتاب يوقع عليه اكبر عدد ممكن من اعضائه ، يطلبون فيه دعوة المجلس لدورة استثنائية . ولما شعرت الحكومة بأن هذه الفكرة لاقت استحسان عدد كبير من النواب ، وبانه لم يعد امامها سوى دعوة المجلس من قبلها مباشرة ، اصدرت مرسوما بدعوة المجلس الى الاجتماع . ثم قدمت للمجلس مشروع قانون بتخصيص مبلغ (٤٠) مليون ليرة سورية لتامين نفقات الجيش الذي استلمته ، اثر حوادث حزيران . ورمت بذلك الى اشغال المجلس بهذا القانون ، وارجاء الابحاث الاخرى المتعلقة بها مباشرة ، الى اجل ابعد .

وتجاه هذه المحاولة لاستبقاء الحكومة الحاضرة ، راينا ان نبدل في صيغة الكتاب المقرر تقديمه الى رئاسة المجلس بجعله يؤكد عدم ثقة النواب بالوزارة وعدم جواز اقرار النفقات المطلوبة للجيش ، ما دامت الحكومة غير موثوق بها . وبعثنا بهذا

الكتاب الى النواب للتوقيع عليه ، فبلغ عدد تلك التواقيع اثنين وخمسين توقيعا . وتتابعت اجتماعاتنا التي كان يحضرها العدد المتزايـد من النواب .

ولم تلاق تشبثاتنا ارتياح رئيس الجمهورية الذي ما اعتاد على تغيير الحكومات بناء على رغبة النواب . وصعب عليه ان ينزل عند طلبهم وان يعين رئيسا للوزارة ووزراء على غير ارادته ، فسعى جهده لحملنا على الرجوع عن قرارنا . ولما يئس عمد الى تفرقة الكلمة بين كتلة النواب فلم يفلح ايضا .

وكان رئيس الوزارة السيد فارس الخوري قد عاد الى دمشق قبيل موعد اجتماع المجلس ، فاطلعناه على ما جرى في غيابه وابلغناه بعزمنا على استبدال الوزارة .

واما رئيس مجلس النواب السيد سعد الله الجابري ، فمع ان كتلة النواب المناهضة للوزارة كانت تضم جماعته وانصاره ، فلم يبد منه تأييد لها . بل وقف موقفا اقرب الى دعم الوزارة منه الى الحيـاد .

وفي الجلسة الاولى التي عقدها المجلس في قاعة الجامعة السورية ــ اذ كانت قاعة المجلس قد اصابها ضرر وتلف في مبناها واثاثها ــ ادلى السيد فارس الخوري ببيان عما قام به في مؤتمر سان فرانسيسكو . وجرته رغبته في ايضاح الامور بجميع تفاصيلها الى اطالة خطابه اكثر من ساعتين ، مما جعل النواب يتململون ويتبرمون ، لا سيما انهم لم يسعوا وراء اجتماع المجلس الا لاسقاط الحكومة .

ولما انتهى رئيس الوزارة من خطابه ، اعلن رئيس مجلس النواب عن رغبته في رفع الجلسة وتأجيل الاجتماع اللاحق ، ريثما تجتمع لجنة الشؤون الخارجية وتبحث مشروع القانون الذي قدمته الحكومة بابرام ميثاق منظمة الامم المتحدة . فقام السيد ميخائيل اليان نائب حلب وقال للرئيس : « ان بعض النواب يريدون البحث في امر اخر ، وهو مذكور في التقرير الموقع عليه من قبل اثنين وخمسين نائبا » . ثم قدم التقرير للرئاسة فامرت بتلاوته . فتضعضعت صفوف الوزراء وانصارهم . ولم يكن من رئيس المجلس الا ان اعلن رفع الجلسة .

واثر انفضاض الاجتماع ، اجتمعت الوزارة واعلن رئيسها انه لا يستطيع الاستمرار في الحكم واكثرية النواب لا تثق

بالحكومة . وقدم الى رئيس الجمهورية استقالته ، رغم اعتراض السيد جميل مردم والحاحه عليه بمواجهة الموقف .

وكان السيد لطفي الحفـــار هو المرشح الذي اتفقت عليه الكتلة النيابية التي اسقطت الوزارة . الا ان رئيس الجمهورية لم يكن مرتاحا الى هذا العمل ولا راغبا في ايجاد هذه السابقة التي قد تؤدي الى خروج امر تاليف الوزارات واسقاطها من يده في المستقبل، فقرر في قــرارة نفسه مناهضة حركتنا وبــذل جهوده لمعاكستنا . فسعى لحمل السيد فارس الخوري على العدول عن الاستقالة . لكنه عندما يئس من هذه المحاولة ، عمد الى تكليفه بتأليف الوزارة الجديدة ليحول دون تسنم السيد الحفار مقام الرئاسة ، باعتباره مرشح كتلتنا . واعلن انه لا يغير رايه مهما كان .

فاضطررنا ازاء هذا التعنت الى قبول التنازل عن مرشحنا للرئاسة . فاجتمعنا الى السيد الخوري وابلغناه اسماء المرشحين للوزارات ، فحملها الى رئيس الجمهورية الذي اعترض على اسناد وزارة الخارجية الى السيد مخائيل اليان . واستمرت المذاكرات بدون جدوى حتى نزل الرئيس عنــد طلبنا وتالفت الوزارة على الوجه الآتي :

فارس الخوري يعيد تاليف وزارة جديدة

فارس الخوري : رئيسا للوزراء ، لطــفي الحفار : وزيرا للداخلية ، خالد العظم : وزيرا للمالية والدفاع الوطني ، صبري العسلي : وزيراً للعدلية ، ميخائيل اليان : وزيرا للخارجية ، حسن جبارة : وزيرا للاقتصاد الوطني ، حكمت الحكيم : وزيرا للاشغال العامة ، احمد الشرباتي : وزيرا للمعارف .

وفي اول جلسة عقدها البرلمان اثار بعض النواب حملة ضد الوزارة واتهمها بمخالفة الدستور لان عدد اعضائها تجاوز العدد المنصوص عليه في الدستور . وطلبوا احالة الموضوع على لجنة الدستور لتعطي رأيها فيه . فاجتمعت اللجنة فورا وعادت بتقرير ايدت فيه نظرية المعارضين . وطرح الامر على المجلس فادلى كل فريق من النواب بما يراه . وكانت حجة الوزارة قائمة على ان الدستور ينص على ان عدد الوزراء سبعة ولم يذكر بينهم رئيسهم ، وان الوزارة الاولى التي تالفت في هذا العهد برئاسة السيد سعد الله الجابري ضمت سبعة وزراء غيره ، كالوزارة الحالية ، وان مجلس النواب نفسه منحها الثقة . فيجب اعتبار هذه السابقة تفسيرا للمادة الدستورية . وبعد ان طال النقاش بين النواب ، مؤيدين

ومعارضين ، طرح الرئيس تقرير اللجنة فرفضته اكثرية النواب ، مؤيدة جواز بقاء عدد الوزراء كما هو . فثارت ضجة بين الاكثرية والاقلية انهاها رئيس الوزراء بتصريحه بانه ، على الرغم من ان المجلس اظهر موافقته على استمرار الحكومة بعدد وزرائها ، فانه سيعمل على ارجاع النصاب الى سبعة ورفعت الجلسة .

وعلى الاثر قدم احمد الشرباتي استقالته من الحكومة ، فاصبح عدد الوزراء مع رئيسهم سبعة . وعندما تقدمت الوزارة ببيانها الى المجلس طالبة الثقة على اساسه ، ظهر التكتل الذي سعى اليه السيد جميل مردم لمناهضة الحكومة ، وكان مؤلفا من رشدي الكيخيا ورفاقه . وبذلك اعطى برهانا قويا على عدم اكتراثه بمن ينصر او يعارض ، وعلى انه مستعد للاتفاق مع اي كان .

كانت الجلسة من اعنف الجلسات التي عقدها البرلمان السوري ، استمرت نحو عشر ساعات ، تتابع فيها الخطباء مؤيدين بشدة وحماس ومعارضين بقساوة والفاظ نابية . فكنت تسمع التهم تكال جزافا والعبارات المرة تنطلق من الحناجر بقوة القذائف . وانفردت هذه الجلسة ايضا في تاريخ المجلس النيابي ، بعدد النواب المؤيدين بخطبهم للحكومة بحماس مساو لحماس المعارضين ، على عكس ما جرى في الماضي وما سيجري في المستقبل من جمود المؤيدين واضطرار اعضاء الحكومة للدفاع عن انفسهم بأنفسهم تجاه هجمات المعارضين .

وعلى الرغم من هذه الحملات القاسية كان الوزراء مغتبطين بتاييد المؤيدين من النواب وصد هجمات المعارضين على هذا الوجه المطمئن الى استمرار العمل الحكومي بمساندة اكثرية متماسكة لا تنهزم امام الاقلية ولا تتبلبل كما كان يحدث سابقا .

وكان بين الخطباء الذين هاجموا الحكومة واعلنوا عزمهم على حجب ثقتهم عنها ، السيد احمد الشرباتي ، وقد كان بالامس احد اعضائها . فناله من مؤيدي الوزارة بعض اللذعات الساخرة .

وانتهت الجلسة بنيل الحكومة الثقة باكثرية تزيد على الاثنين والخمسين نائبا ، الذين كانوا قدموا العريضة بحجب الثقة عن الحكومة السابقة .

وكان المنتظر من رئيس الجمهورية ان يمد للوزارة يد المساعدة والتاييد ، سواء من حيث مقدرة اعضائها او من حيث دعمها في المجلس باكثرية متراصة . ولكنه ، بحقده المعروف ، لم يشأ ان

يتناسى انها جاءت خلافا لارادته . فظل يعمل طيلة بقائها في الحكم حتى ازاحها عنه ، كما سيرد .

ثم وافق المجلس على ميثاق منظمة الامم المتحدة ، كما اقر الاعتمادات المطلوبة للجيش . وفضت الدورة وذهب النواب الى مناطقهم ، بعد ان قامت اكثريتهم بزيارة رئيس الجمهورية ورئيس الوزارة معلنة تاييدها للوزارة ورغبتها في تسهيل اعمالها وعدم اقامة العثرات في سبيلها . واول اسفين دقه رئيس الجمهورية في اساس هيكل الوزارة لزعزعته كان حمله السيد لطفي الحفار على الاستقالة ثم حمل السيد صبري العسلي على التخلي عن منصبه . ولم تثمر الجهود التي بذلناها لدي هاتين الشخصيتين لاقناعهما بعدم صواب الاستخذاء امام رغبات الرئيس ، فاضطر السيد الخوري للاستغناء عنهما . واقترح عدة اشخاص لتولي وزارتي الداخلية والعدلية ، ولكن السيد القوتلي كان يستدعي المرشحين اليه ويوصيهم بالاعتذار فيعودون عن الموافقة التي كانوا ابدوها للخوري عند تكليفهم . واستمرت المهزلة مدة : فرئيس الوزارة يرشح وزراء ، ورئيس الجمهورية يحملهم على الرفض او يعترض على من لا يسايرونه منهم . ثم عكف القوتلي على انهاء الرواية ، فاستدعى الوزيرين حسن جبارة وحكمت الحكيم واستحصل على كتابين باستقالتهما ، فاصبح عدد الوزراء المستقيلين اربعة وعدد الباقين ثلاثة ، بما فيهم رئيسهم .

الرئيس القوتلي يسعى لاسقاط الوزارة وينجح في مسعاه مخالفا احكام الدستور

وكان السيد الخوري مريضا مرضا شديدا وخطرا . وكان مستلقيا على فراشه عندما قدم لزيارته السيد محسن البرازي ، الامين العام للقصر الجمهوري ، وطلب منه مقابلته فورا . فاستقبله المشار اليه وهو بحالة اعياء شديد . فاعلمه السيد البرازي باستقالة السيدين جبارة والحكيم ، ولم يكن كتاب استقالتهما وصل الى رئيس الوزارة . واضاف بأن الوزارة اصبحت بحكم المنحلة بعد انسحاب اكثرية اعضائها منها ، وان الاوفق ان يقدم رئيسها كتاب استقالته .وكان السيد البرازي يحمل تحت ابطه كتابا الفه مسيو اجن بيير ، وقد وضعت ورقة ضمنه للاشارة الى المقطع الذي يقول فيه المؤلف باعتبار الوزارة التي يستقيل اكثرية اعضائها منحلة .

وكانت مفاجاة للرئيس الخوري زادت في سوء حالته الصحية .

وحمل السيد البرازي رسالة شفهية الى الرئيس القوتلي لانما ،

بصورة خاصة ، قلة ذوقه بارساله هذا التبليغ وهو بحالته المرضية الخطرة . وقال له « قل لرئيسك بان الاليق ان ينتظر اما شفائي واما موتي فيتخلص مني اذ ذاك في الحالتين ! » وفي نهاية الحديث قال السيد الخوري بانه سيستدعي الوزيرين الباقيين على الاخلاص ليبحث معهما الامر قبل البت فيه .

فلما حضرنا ، بناء على طلبه ، ابرز لنا السيد الخوري كتابا بالاستقالة ، ضمنه عبارات قاسية ضد رئيس الجمهورية ووصم تشبثه بالخروج عن الدستور . ثم روى لنا ما دار بينه وبين البرازي ، فاصررنا عليه بعدم الاستقالة وبدعوة المجلس النيابي للانعقاد فورا ليعرض عليه الواقع ، ليفعل عندئذ المجلس ما يراه مناسبا . فاجاب الخوري بانه يتمنى لو ان صحته تساعده على سلوك هذه الخطة ، ولكن ضعف قلبه لا يسمح له بالمجادلة مع النواب المعارضين ، لا سيما انه لم يبق في الحكومة غير وزيرين ، والرئيس يراوغ في املاء المناصب الشاغرة . فكيف تساس الدولة برئيس وزارة مريض وبوزيرين فقط ؟ فاجبته باننا لا نهدف الى البقاء في الحكم ، بل اعلان الموقف على الملا وابلاغ مجلس النواب انه امام مخالفة دستورية لا لمادة من مواده ولكن لروحه ومبادئه ، اذ لا يصح عزل حكومة حائزة ثقة النواب ، كما لا يجوز رفض تعيين وزراء جدد يقترحهم رئيس الحكومة . واما اغواء الوزراء وسحبهم من الوزارة فعمل يجب ان يسمو عنه قطب الدولة اذا ما اراد الاكتفاء بمهامها الاساسية دون التدخل الفعلي في شؤون الحكم ، وترك الامور تجري على مسؤولية الوزراء امام الهيئة التشريعية التي لها وحدها حق تبديل الحكام . اما ان يفرض راس الدولة ارادته على الحكومة ، وان يعين من يشاء ، فهو شان الحكام المستبدين الذين لا يقيمون وزنا لحكم الشورى ويعملون في الحكم شانهم في الدكتاتورية الفردية التي يكون مستقبلها شؤما وويلا على البلاد . واضفنا قائلين بأن مجلس النواب سوف يؤيدنا ويوقف رئيس الجمهورية عند صلاحياته الدستورية فتنجو البلاد من الاستئثار والاستبداد في الحاضر والمستقبل . الا ان كل هذه المقويات لم تنفع في شد اعصاب الرئيس الخوري المنهارة ، فظل متمسكا برايه ، معتذرا بمرضه الذي لا يسمح له ان يركب هذا المركب الخشن ، وهو الدخول مع رئيس الجمهورية في معركة تحتاج الى صحة جيدة واعصاب متينة وشجاعة ادبية لم يعد حائزا عليها لمحاربة حاكم مستبد .

وعندما انهارت آمالنا في رفع معنويات رئيسنا الضعيفة ، تركناه يكتب استقالته الرسمية واستودعناه . ثم ارسل استقالته الى السيد القوتلي فاستدعاه المشار اليه وخفف عنه المه بالعبارات المعسولة المالوفة وصرفه .

تلك كانت هي المرة الاولى التي اقدم فيها السيد القوتلي على ازاحة حكومة رئيسها طريح الفراش دون ان يحترم المرض ، بل مستفيدا منه ومن ضعف المقاومة ، ليصل الى مبتغاه . والمرة الثانية كانت مع السيد سعد الله الجابري الذي كان يتداوى في مستشفى المواساة بالاسكندرية من علة في كبده اودت بحياته قبل مضي ستة اشهر . وهكذا كان الدستور العوبة بيد حارسه ، وقواعد الحكم الديموقراطي النيابي معطلة مهملة . وكان رئيس الجمهورية يعتبر البلاد السورية من جملة مخلفات المرحوم والده ، فيصعب عليه ان يدعي احد بمشاركته في ادارتها او ان يقف بوجهه معارضا عندما يريد نقل احد عماله من مركز الى مركز او عزله او تعيينه . وكان ، بتواضع واستحياء ، لا يجابه المعارض وجها لوجه فيقول له : « ما شأنك بمزرعة ابي ؟ » بل كان يدور ويلف ويناور ليصل الى غرضه بالقضاء على العقبة التي تحول بينه وبين ما يريد .

ولو كنا ندرك ما يريد ، او كان يطلعنا على غاياته ، فلربما كنا نقتنع بصواب خطته . ولكن ما معنى اقصاء الجابري وتعيين فارس الخوري ، ثم اقصاؤه والعودة الى سعد الله الجابري ، وما هو السبب في هذه التنقلات على مسرح السياسة العليا التي لم يدرك كنهها المتفرجون او اللاعبون او الكورس ؟ لقد تراس الحكم في عهد القوتلي اربعة اشخاص هم الجابري والخوري ومردم وانا ، وكان نصيب الثلاثة الاقصاء بفعل رئيس الجمهورية . لكنه لم ينجح في هذا التعسف . الى ان انتهت فصول الرواية باقصائي مع الرئيس نفسه على يد حسني الزعيم في ١٩٤٩ . وكان البادىء بالشر اظلم.

الجابري يؤلف الوزارة ونجاحي في عدم الاشتراك فيها

لم يكد يخرج السيد فارس الخوري من القصر الجمهوري مستقيلا حتى دخله السيد سعد الله الجابري . وكلفه الرئيس بتاليف الحكومة ، فعمد الى السرعة حتى لا تتأزم الامور ، اثر استقالة الحكومة الجبرية . واستدعيت الى القصر بصحبة السيد مخائيل اليان ، زميلي الوحيد الباقي في الوزارة السابقة ، فعرض علينا السيد الجابري الاشتراك بحكومته فاعتذرنا . لكنه اصر وواصل

اصراره بشكل اربك موقفي ، اذ اني احترم شخصيته واقدر فيه نبله وترفعه واخلاصه ولباقته . وما كنت لارغب في صده شخصيا والوقوف تجاهه موقف المتعنت ، فاضطررت الى استعمال الحيلة والمواربة للتخلص من الدخول في الوزارة الجديدة . وهكذا طلبت اليه اختياري لوزارة الخارجية عندما قال لي : « خذ ما تشاء من الوزارات ، وانتق ما تختـــاره منها » ، وكنت اعلم بانه لا يتنازل عن وزارة الخارجية لغيره . فلم يوافق على اختياري وظهر بذلك كانه هو الرافض لطلبي فتخلصت من الحاجه بهذه الصورة . وبعد ان اعتذر السيد ميخائيل اليان ايضا متحججا بي ، عمد الجابري الى تاليف وزارته على الوجه الآتي :

سعد الله الجابري : رئيسا للوزراء ووزيـــــرا للخارجية ، لطفي الحفار : وزيرا للداخلية ، نعيم الانطاكي : وزيرا للماليــة ووكالة الاشغال العامة ، صبري العسلي : وزيـــرا للعدلية والمعارف ، حسن جبارة : وزيرا للاقتصاد الوطني والاعاشـة .

نص الاتفاق الفرنسي — الانكليزي على سحب القوات من سورية ولبـنان

ثم استقال السيد نعيم الانطاكي في ٣١ كانون الاول ١٩٤٥ فعهد الى السيد جبارة بوكالة وزارة المالية . وسمي السيد فتح الله اسيون وزيرا للاشغال العامة بتاريخ ٨ كانون الاول ١٩٤٦ . ولا يدخل في برنامج هذه الذكريات ايراد جميع ما جرى في عهد هذه الوزارة ، ولذلك فانني اكتفي بذكر ما يتعلق بالحادثتين التاليتين :

١ — الاتفـــاق الفرنسي — الانكليزي بخصوص سحـــب جيوشهما من سورية ولبنان .

٢ — بلاغ الحكومة الافرنسية بايقاف بيع الجنيهات بصورة حرة في سورية ولبنان .

ففي اليوم الثالث عشر من شهر كانون الاول ١٩٤٥ ، اعلن في لندن وباريز الاتفاق الثنائي الذي عقد يومئذ بـــين الحكومتين الافرنسية والبريطانية وهذا نصه :

« ان الحكومتين البريطانية والافرنسية ، رغبة منهما في ان تتجنبا بصورة دائمة كـل تباين في السياسة مـن شانه ان يهـدد مصالح كل منهما او ان يعكر حسن التفاهم الذي تنويان توثيقه بينهما ، قد لاحظتا ان من مصلحتهما المتبادلة ان تسهلا ازدهار شعوب الشرق الاوسط الاقتصادية وان تؤمنا سـلامتهما ضمن نطاق التعاون الدولي .

« ومن جهـــة ثانية ، رغبة منهما ايضا في ان تمكنا سورية

ولبنان من ممارسة استقلالهما التام قد قررتا ان تدرسا معا شروط تجميع قواتهما وجلاء تلك القوات عنهما . وسيجتمع البريطانيون والافرنسيون لهذه الغاية ببيروت في ٢١ كانون الاول ١٩٤٥ وتكون احدى مهامهم الاساسية تحديد تاريخ الشروع في اولى عمليات الجلاء . »

وقد هللت الحكومة اللبنانية لنبأ عقد هذا الاتفاق . وعقد مجلس النواب اللبناني جلسة خاصة حضرها رئيس الجمهورية ووزير الخارجية ، وقف فيها النواب عندما تلا الوزير نص الاتفاق المذكور وانشدوا النشيد الوطني اللبناني فرحا وابتهاجا .

ومن يدرس هذا النص مليا يرى انه يحوي في طياته مقاصد واهدافا تدك استقلال سورية ولبنان دكا ، خلافا للنص الظاهر. ويكفي المرء ان يلاحظ هذه العبارات الواردة في النص ليتحقق من صدق المخاوف التي اعترتنا عندما اطلعنا عليها : « كل تباين في السياسة من شأنه ان يهدد مصالح كل منهما » ، « ان تسهلا ازدهار شعوب الشرق الاوسط الاقتصادية » ، « وان تؤمنا سلامتهما » ، « سيجتمع البريطانيون والافرنسيون في بيروت... وتكون احدى مهامهم الاساسية تحديد تاريخ الشروع في اولى عمليات الجلاء » .

فالاتفاق اذا معقود لحفظ مصلحة البريطانيين والافرنسيين، وللتدخل في شؤون سورية ولبنان الاقتصادية ، ولفرض الحماية عليهما لتأمين سلامتهما ، بدليل ان ثمة مهام عديدة سيقوم بها الخبراء ومنها تحديد موعد الجلاء .

كل هذه الاشارات والتلميحات شاءت الحكومة اللبنانية ان تجهلها او بالاحرى ان تتجاهلها ، فلجأت الى اسلوب الاخراج السينمائي لتغطية الحقائق واخفائها عن الراي العام . من ذلك انها عمدت الى التظاهر بالابتهاج مع مجلس النواب . وشاءت الحكومة السورية ايضا ان لا تكون اقل من زميلتها اللبنانية في اظهار الفرح والارتياح — تمشيا مع السياسة العامة التي كانت الحكومتان السورية واللبنانية في ذلك العهد تتمشيان عليها ، وهي السير في ركاب السياسة البريطانية .

ولم يكد ينشر نبأ هذا الاتفاق في دمشق حتى بادر وزير الداخلية السيد لطفي الحفار الى اعلان ارتياحه له والى اصدار

الاوامر باقامة معالم الزينات ابتهاجا به . ولست ادري كيف فات المشار اليه ان ذلك الاتفاق مضر بالمصالح السورية واللبنانية ، من حيث استمرار الاحتلال الاجنبي مدة طويلة ، ام انه اراد ستر هذه الحقيقة المرة بالتظاهر بالفرح والسرور . ومهما كان الامر من جهته ، فان الحكومة تعرضت لهجوم قاس من النواب في جلسة ساد الهرج والمرج فيها ، الى حد وصلت الجراة عنده بالنائب السيد رئيف الملقي الى قذف رئيس الوزارة بقوله : « كذاب ... كذاب ... » فارغد الرئيس وازبد وطرح الثقة بحكومته وهو بحالة عصبية شديدة . وكان الاجدر ان يجنب المجلس منحه الثقة بعد ان بدا من وزيره الحفار ما لا يأتلف مع المصلحة القومية باعلان ارتياحه للاتفاق المذكور .

ولكنه اراد ان يكسب الفرصة السانحة وهي اشمئزاز النواب مما بدر من النائب الملقي من عبارات نابية . وهكذا تخلص من ضعف موقف الحكومة بشأن الاتفاق ، وخرج من المجلس مدعوما بثقة اجماعية .

واحيل الموضوع بعد ذلك الى لجنة الشؤون الخارجية التي كنت اراسها . فاجتمعت بحضور السيد الجابري واتخذت قرارا شجبت فيه ذلك الاتفاق ودعت الى عدم تنفيذه .

وكان مجلس الامن مجتمعا بلندن لبحث شكوى سورية ولبنان ضد فرانسا بشأن جلاء جيوشها عنهما . وكادت الامور تفلت من ايدي مندوبينا عندما صوت المندوب الروسي مستعملا حق الفيتو ضد الاقتراح الرامي الى الجلاء . ولولا ان اعلن وزير الخارجية الافرنسية مسيو بيدو ان حكومته ستنفذ ذلك الاقتراح، رغم عدم اقراره ، لبقيت قضية الجلاء عن الاراضي اللبنانية واعتراف فرنسا بالجلاء عن سورية معرضة للتاخير والماطلة . والله اعلم ماذا كان سيؤول اليه مصيرها .

وعلى الاثر ، عقد الجانب اللبناني مع الجانب الافرنسي اتفاقا يقضي بجلاء الجيش الافرنسي عن لبنان . لكن الحكومة السورية لم تشترك مع الحكومة اللبنانية بمفاوضاتها مع الجانب الافرنسي ، باعتبار ان الجلاء تم فعلا ، واكتفت بتوكيل المندوبين اللبنانيين للاتفاق مع الافرنسيين على قيمة مخلفات الجيش من عتاد وذخيرة .

اما القضية الهامة الثانية فهي ان الافرنسيين ابلغوا

الحكومة السورية بكتاب انهم اوقفوا عمليات استبدال الليرات السورية واللبنانية بجنيهات استرلينية . فاحتجت الحكومتان على هذه المخالفة الصريحةلاحكام اتفاق كانون الاول ١٩٤٣ . ولم تثمر هذه الاحتجاجات شيئا . وقد اوردت في بحث النقد السوري من هذه المذكرات ما يمكن الرجوع اليه هناك . وقررت الحكومتان ان تحتفلا بجلاء الجيش الافرنسي ، فاختارتا اليوم السابع عشر من شهر آذار ١٩٤٦ ، وهو اليوم المقرر في الاتفاق اللبناني الافرنسي لانتهاء جلاء الجيش عن لبنان . واقيمت احتفالات عظيمة اشترك فيها الامير فيصل بن الملك عبد العزيز آل سعود ووفود عن سائر الدول العربية . وجرى عرض عسكري ، واعتبر ذلك اليوم عيدا قوميا تحتفل فيه البلاد سنويا ، حتى جاءت حكومة الشيشكلي فالغته واستبدلته باليوم الثالث من كانون الاول ، وهو ذكرى يوم ١٩٥١/١٢/٣١ ، الذي اصدر فيه الزعيم فوزي سلو قرارا اتخذ لنفسه فيه لقب رئيس الدولة ورئيس مجلس الوزراء ، بعد ان قام الشيشكلي بسجن السيد معروف الدواليبي واعضاء وزارته يوم ٢٨ / ١١ / ١٩٥١ ثم اوقف الحياة الدستورية وحل البرلمان .

ولئن كان السابع عشر من آذار لا يشير الى حادثة تتعلق بسورية جرت في ذلك اليوم نفسه — اذ ان الجلاء الفعلي كان في اول نيسان ١٩٤٥ ، فلا يصح كذلك ان يعتبر عيدا قوميا يوم قضت فيه القوة على الحياة الدستورية واقامت حكما ديكتاتوريا فرديا . وكان الاجدى بزعماء هذا العهد ان يستحوا من فعلتهم، كما كان الافرنسيون يستحون ويتجنبون الاحتفال بيوم دخولهم دمشق وتثبيت سيطرتهم على سورية كما فعل الشيشكلي بتثبيت حكمه في ذلك التاريخ بقوة السلاح ايضا . واذا كانت الامة تحتفل سنويا بيوم ميسلون في الرابع والعشرين من تموز فتنثر الزهور على قبر المرحوم يوسف العظمة كذكرى لتضحيته بحياته انقاذا لشرفه العسكري ، فيجب ان يكون للامة يوم تحتفل به مبتهجة كعيد قومي يحمل ذكرى حادث محا اثر ذلك اليوم البغيض ، حين انتصر الشعب على الطغاة المستعمرين . فهل اليوم الثالث من كانون الاول هو ذلك اليوم المنشود يا ترى ؟ ام ان العكس قد صح فيه .

تتابعت على رئيس الجمهورية النصائح بضرورة اقامة صرح الدولة على اسس متناسبة مع ما نالته البلاد بعد الجلاء من استقلال

تام في جميع النواحي . ولم تكن الحكومة القائمة اذ ذاك مؤلفة من عناصر قوية تستطيع تحمل هذا العبء . وانتهت المداولات باستقالة سعد الله الجابري بتاريخ ٢٥ نيسان ١٩٤٦ وتكليفه وزارة جديدة . فاستدعينا الى القصر وكان بين الحاضرين السيد ادمون حمصي المنتسب الى كتلة آل المدرس بحلب . وكان الجابري قد اصلح ما بينه وبينهم من نزاع قديم ، رغبة منه في التغلب هو وكتلته ، بالاتفاق مع كتلة آل المدرس ، على كتلة الكيخيا والقدسي .

اشتراكي في وزارة الجابري الجديدة

وتالفت الوزارة على الوجه التالي ، بتاريخ ٢٦ / ٥ / ١٩٤٦ :

سعد الله الجابري : رئيسا للوزارة ووزيرا للخارجية ، خالد العظم : وزيرا للاقتصاد الوطني والعدلية ، صبري العسلي : وزيرا للداخلية ، نبيه العظمة : وزيرا للدفاع الوطني ، ادمون حمصي : وزيرا للمالية ، احمد الشرباتي : وزيرا للمعارف ، مخائيل اليان : وزيرا للاشغال العامة .

وباشرت الحكومة اعمالها بوضع برنامجها الوزاري ، فجعلته مفصلا متضمنا جميع القضايا التي ترمي الى معالجتها كل وزارة . وجاء البرنامج طويلا جدا ، حتـى ان النائب عبد الرحمن الكيالي احصى حرف (س) وكلمة (سوف) الواردة بالبرنامج مثل « ستعمل الوزارة » ، او « ستقوم الوزارة » ، فبلغت اثنتين وخمسين . وقال في خطابه ان الحكومة لو قامت بنصف او بربع ما ذكر في البرنامج من الاعمال لكفاها فخرا . وكان على حق ، اذ ان تحقيق تلك الامور كلها يتطلب استقرارا في الحكم ودوام الوزارة على رئاسته مدة طويلة ، وكان ذلك بعيد الاحتمال .

ثم قرر مجلس الوزراء ، في بحثه العوامل المؤدية الى تنظيم شؤون الدولة الاساسية ، ان تدرس كل وزارة شؤون موظفيها فتقترح ملاكا يحوي عدد الوظائف وتقسيم الدوائر وصلاحيات كل دائرة وموظف . ووجدنا بعد التعمق بالدراسة ان اقرار ملاك عشرة وزارات يتطلب في مجلس النواب مدة تتراوح بين السنة والسنتين على اقل تقدير ، مما يؤدي الى تأخير الاصلاح والتنظيم اللذين لا بد منهما لجعل جهاز الدولة منسجما مع الوضع الجديد وما يتطلبه من دوائر محدثة . وثبت لدينا ان الطريقة الوحيدة لسرعة انجاز هذا المشروع هي ان تصدر هذه الملاكات بمراسيم اشتراعية فتنفذ فورا على ان تقدم الى المجلس لاقرارها او تعديلها اذا شاء . فنكون بذلك حصلنا على السرعة في التنفيذ وتركنـا المجال للمجلس ليطيل قدر

ما يشاء وقته في الدراسة والبحث والنقاش .

على ان هذه الخطة كانت بحاجة الى موافقة مجلس النواب والى تجنب العاصفة المنتظر اثارتها من قبل نواب المعارضة ضد صلاحية التشريع المطلوب منهم اقرارها . فبدانا بجمع النواب المناصرين للحكومة واطلعناهم على خطتنا وطلبنا اليهم ان يقفوا صفا واحدا بتاييد مشروع الحكومة مهما حاولت المعارضة التشبث به من مماطلات ومشاكسات . فلبوا طلبنا ووعدونا بالتأييد المطلق . ثـــم عكفنا على التحدث الى نواب المعارضة لاقناعهم بصحة مسلكنا حتى نخفف من غلوائهم ونتجنب الخطب القاسية والتهم الجارحة بمحاولة سلب صلاحيات المجلس التشريعية . ودعوناهم للاجتماع عندي في مزرعة القواص بعد ان كنا مهدنا السبيل في المحادثات الفردية مع اكثرهم . وطال البحث مدة ساعتين او اكثر ، فظهرت النتائج الطيبة لمحاولات الاقناع التي كنا لجأنا اليها قبل الاجتماع ، بحيث ناصرنا السيد رئيف الملقي وبعض النواب الآخرين . فلم يبق امام السيد رشدي الكيخيا زعيم المعارضة الا ان يحمل رفاقه المسؤولية على حسب عادته . وانتهى الاجتماع على ان يعارض بعض النواب مشروعنا ولكن بلهجة معتدلة ، من حيث منح الحكومة صلاحيات التشريع فحسب ، وان يستنكف عند التصويت من يشاء منهم . وهكذا ساد جلسة مجلس النواب هدوء واعتدال . واقر المجلس بالاكثرية مشروع الحكومة بمنحها سلطة التشريع لوضع الملاكات ، ثم عكفت كل وزارة عـــلى وضع ملاكها الخاص . وبعد مضي شهرين تقريبا على الدراسة ، بدأ مجلس الوزراء بدرس كل ملاك على انفراد، ثم استصدار مرسوم تشريعي خاص .

تنظيم ملاكات الدولة بمراسيم اشتراعية

وكنت اقترحت على زملائـــي الوزراء ان نصـــدر المراسيم التشريعية كلها دفعة واحدة بعد ان يعاد النظر فيها كلها اجمالا ، رغبة في الانسجام والتنسيق بينها . لكن الرئيس الجابري خالف هذا الراي واصر على رايه المخالف لرايي . وهكذا فقدت هذه المراسيم صفة الانســـجام في ما تشابه منها . وفي ما ياتي الشؤون البارزة في كل ملاك وخلاصة ما احتوته تلك المشاريع .

أ ــ وزارة العدلية : (١) ــ الغاء المحاكم المختلطة . (٢) ــ الملاك والغاء بعض المحاكم . (٣) ــ الدوائر العقارية وقـــد فك ارتباطها بوزارة المالية والحقت بوزارة العدلية .

وفيما يلي ما يتعلق بالغاء المحاكم المختلطة (ثم بحث الغاء بعض المحاكم) :

كانت الدولة العثمانية تنوء — في جملة ما تنوء به — تحت نير الامتيازات الاجنبية ، اي الامتيازات القضائية التي كان السلاطين الاتراك منحوها لرعايا بعض الدول الافرنجية ، بتواريخ متعددة .

ولا نريد هنا ذكر تاريخ منح هذه الامتيازات ولا تعدادها بالتفصيل ، بل نكتفي ببعضها . وهي الا الاجانب في البلاد العثمانية كانوا معفيين من الضرائب ومصونين شخصيا من تدخل السلطة القضائية والادارية في شؤونهم ، حيث لا يجوز توقيف احدهم ولا محاكمته اذا ارتكب جرما الا بحضور ترجمان قنصليته . اما الدعاوى بين الاجانب التابعين لدولة واحدة فكانت من خصائص قناصلهم ، الى آخر ما هنالك من الامتيازات التي كانت تجعل الاجانب في البلاد العثمانية غير خاضعين للقوانين المحلية . وظلت هذه الاوضاع قائمة حتى ١٩١٤ حينما انتهزت تركيا فرصة اعلان الحرب العامة الاولى وانشغال دول اوروبا بها . فاعلنت الغاء تلك الامتيازات ، رغم احتجاج الدول الاجنبية . ثم دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا وانتهى الامر الى الفشل . وعقدت معاهدة سيفر في ١٩٢٠ فاعيدت تلك الامتيازات .

وكانت سورية ، باعتبارها جزءا من تركيا ، رازحة تحت ذلك النير . فعندما دخل الافرنسيون بلادنا في ١٩٢٠ اعادوا تلك الامتيازات الى ما كانت عليه قبل ١٩١٤ . ولكنهم ، رغبة في التخلص من المحاكم القنصلية ، لجأوا الى طريقة اخرى تؤمن لهم الغاية الاصلية من احتفاظهم بالسيطرة على القضاء الخاص بالاجانب . وهي انهم في ١٩٢٤ اوعزوا الى مجلس الاتحاد السوري باصدار قانون تقضي بجعل الاجانب تابعين من حيث القضاء الى محاكم اسموها « المحاكم السورية الناظرة بقضايا الاجانب» . واشترط القانون تعيين رؤساء تلك المحاكم والنيابات العامة من القضاة الافرنسيين . ولم يكن بالطبع للاعضاء السوريين في تلك المحاكم المقدرة على السير وفقا لضمائرهم . ومع ان القانون كان الاصل في الاحكام ، الا ان تلك المحاكم كانت تستند الى الفقه الافرنسي في الاحكام التي كانت تصدرها المحاكم الافرنسية في فرنسا وتعتبرها مرجعا .

وكانت الاحكام تصدر بالافرنسية والمرافعات واللوائح كلها بتلك اللغة . فاستأثر بعض المحامين السوريين الذين يتقنون الافرنسية ، وخاصة المسيحيين منهم ، بتلك المحاكم . وكان لاكثرهم تداخلات خاصة لدى الحكام الافرنسيين توجه سير الدعاوى لمصلحة موكليهم ، بنسبة ما يكون بين المحامي والحاكم من صداقة او ما يقدمون لهم من عطايا وخدمات خاصة .

وكانت البلاد السورية كلها تضج بالشكوى والتذمر من هذه الحال . وكانت الاصوات ترتفع بالاحتجاج والمطالبة بالغاء تلك المحاكم دون اي جدوى . وجدير بالذكر ان مشروع المعاهدة الافرنسية الذي وضع في ١٩٣٦ بين الكتلة الوطنية والحكومة الافرنسية جاء خلوا من الغاء تلك المحاكم .وعندما كنت وزيرا للعدلية في ١٩٤٦ بوزارة السيد سعد الله الجابري استدعاني رئيس الجمهورية وقال لي بان ثمة حديثا بينه وبين الانكليز بشأن الغاء المحاكم المختلطة ، وطلب مني متابعة هذا الامر وانجازه .

و في اليوم التالي زارني المستر باجت ، زوج السيدة لمة العابد كريمة المرحوم عزت باشا العابد . وكان بين السيدة لمة وبين اخوتها دعوى ارث طال النظر فيها امام الحكام الافرنسيين . واعلمني المستر باجت انه علم من وزارة الخارجية البريطانية انها استندبت احد كبار موظفيها للحضور الى سورية والبحث معنا بهذا الشأن .

فرحبت بحضوره واستدعيت الدكتور السنهوري باشا الى مكتبي، وكان اذ ذاك في دمشق مكلفا من قبل الحكومة السورية بوضع مشروع القانون المدني . فادليت له بما اعلمه في الموضوع ، قائلا ان الفرصة سانحة لالغاء المحاكم المختلطة . فقال اذا توصلتم الى الغاء هذه المحاكم كان ذلك نصرا عظيما . فمصر لم تصل حتى الآن الى ذلك . فقد قبلت في معاهدة منتروان بان تبقى تلك المحاكم قائمة حتى ١٩٥١ . وبعد المذاكرة وضعت معه مشروع اتفاق لنعرضه على مندوب وزارة الخارجية البريطانية . فلما حضر ذلك المندوب اتضح لي انه موافق مبدئيا على الفكرة . وحين اطلعته على المشروع طلب الرجوع الى حكومته لاطلاعها على الصيغة المقترحة . وكان المستر باجت يعمل من جهته بما له من نفوذ في الدوائر الرسمية البريطانية ، لا سيما لدى حزب المحافظين، على الاسراع في البت بالامر . وبعد ايام قليلة جاءنا المندوب بجواب حكومته التي طلبت ادخال بعض التعديلات على

النص . وبعد الاخذ والرد اتفقنا على نص كتب يجري تبادلها بين الوزير المفوض الانكليزي ورئيس الحكومة السورية .

وعلى اثر حوادث العدوان الافرنسي في ايار ١٩٤٥ ، تعطلت المحاكم المختلطة بسبب سفر الرؤساء والنواب العامين الافرنسيين الاضطراري . وظلت الدعاوى متراكمة دون ان تنظر فيها اية حكومة سورية اخرى لعدم صلاحيتها في ذلك . وكان مضى على هذا التعطيل ما ينوف عن العشرين شهرا تقريبا . وكانت من مصلحة المستر باجت ، بطبيعة الحال ، ان لا يستمر تعطيل سير دعوى زوجته الى ما شاء الله . وكان يعلم ، هو وحكومته ، ان سورية لا تقبل استبدال الحكام الافرنسيين بحكام اجانب من دول اخرى .

فاحجامها ، اذا ، عن قبول الاستبدال يؤدي الى استمرار تعطيل مصالح الاجانب ، ما دام التشريع السوري القائم آنئذ لا يسمح للمحاكم السورية العادية برؤية تلك الدعاوى . كما ان السياسة الانكليزية خلال عامي ١٩٤٥ و ١٩٤٦ كانت ميالة الى استجلاب الراي العام السوري . فكما انها ساعدت على اخراج الافرنسيين من سورية ، بعد انذار تشرشل الى ديغول بوجوب ايقاف عدوانه على دمشق ، فقد قدمت لنا المساعدة في الغاء المحاكم المختلطة التي لم يكن للانكليز فيها قضاة ، بعكس الافرنسيين الذين كانوا مسيطرين عليها كل السيطرة . فاراد الانكليز ، اذا ، رمي عصفورين بحجر واحد : ارضاء السوريين والتخلص من نفوذ الافرنسيين في القضاء الاجنبي في سورية .

ومن جهة ثانية ، فلم يكن للانكليز في بلادنا مصالح ذات بال . فالافراد الانكليز المقيمون في سورية كادوا يعدون على الاصابع . والشركة الوحيدة التي كان للانكليز فيها نصيب كانت شركة النفط العراقية التي تمر انابيب زيوتها في سورية . على ان امتيازها ينص على وجوب التحكيم في الخلافات التي قد تحدث بينها وبين الدولة .

فجميع هذه الاعتبارات حملت الحكومة البريطانية على مؤازرة سورية في الحصول على استقلال قضائها والتخلص من قيود الامتيازات التي يتمتع بها الاجانب عندنا .

وقبل ان اسرد تتابع الحوادث بهذا الشان،لا بد لي من ان اذكر ان الولايات المتحدة الامريكية ، في كتاب اعترافها باستقلال سورية ، تحفظت باستبقاء التشريع القائم بشان المحاكم المختلطة . وقبلت الحكومة السورية هذا التحفظ وظل الشرط طي الكتمان فلم تعلنه

الولايات المتحدة عندما نشـــر التشريع السوري القضائي عـن الغاء المحاكم المختلطة . وهكذا كان الامر مع سائر الدول الاجنبية الاخرى. فنفذ التشريع والغيت المحاكم المذكورة واحدثت محكمة للنظر في الدعاوي غير المنجزة ، دون ان تحرك اية دولة اجنبية ساكنا .

ولنعد الان لسرد تتابع الامور . فبعد ان تبادل رئيس الوزراء السيد الجابري مع الوزير المفوض البريطانـي الكتب المتفق عليها وتلقيت تهنئة رئيس الجمهورية واعضاء الوزارة على جهودي ، عدت لدراسة كيفية تنفيذ ذلك الاتفاق .

كانت حكومتنا اذ ذاك حصلت من مجلس النواب على صلاحية التشريع لوضع ملاكات جديدة للموظفين تحدد فيها الوظائف وعدد الموظفين وصلاحيتهم ، فادخلت في صلب المرسوم التشريعي المعد لملاك وزارة العدلية نصا يقضي بالغاء المحاكم المختلطة . وبذلك اطحنا باحدى قواعد الاستعمار والاستبداد الاجنبي ، وبنينا قاعدة متينة من قواعد استقلالنا .

لا شك في ان ما توصلنا اليه كـان نصرا مبينا يستحق اقامة التظاهرات والافراح . ولكننا اردنا تجنب احداث ما من شأنه اثارة حفيظة الاجانب دونَ فائدة ، فاثرنا عدم الطنطنة بهذا الظفر وامرار القضية دون ضجيج او تبجح ، خشية ان تقوم احدى الدول الاجنبية بالاعتراض فتحصل بيننا وبينها مشكلة دولية نحن في غنى عنها .

واحمد الله على ان الامر مر بسلام ولم نتلق من اية دولة اي احتجاج او اعتراض . اما الملاحظات التي ابداها بعض ممثلي تلك الدول ، فكنت اجيب عليها باننا ، بحكم انتسابنا الى هيئـــة الامم المتحدة ، لا يجوز الانتقاص من استقلالنا ولا يليق بمن هو عضو في مجلس الامن ان يكون استقلاله مشوبا باية شائبة ، الى غير ذلك من الحجج والبراهين على صدق نوايانا وعلى صلاح حكامنا للحكم في اية دعوى ، دون النظر الى تابعية المتحاكمين .

وما كانت تلك الحجج لتدفع عنا اعتراض تلك الدول وتحمينا من مواقفها المعادية لو لم تكن الشؤون العالمية في تلك الآونة اقرب الى الفوضى. فكان كل من يقدم، حتى على التجاوز على حقوق غيره لا يخشى المعارضة، وكان يفترض ان يعرض ذلك المرسوم التشريعي

على مجلس النواب اسوة بغيره من المراسيم التي كانت حكومتنا اصدرتها في تلك الفترة . وكنت امني النفس بالحصول لحكومتنا على تهنئة المجلس للخطوة المهمة التي اقدمت عليها . ولم يكن يخطر في بالي ان يمر مرسوم خطير كهذا ، كأي مرسوم عادي يتعلق بالغاء وظيفة بسيطة .

ورغم انني في خطاب لي في المجلس اشرت الى هـــذه الناحية والى مـــا نالته سورية في هـــذا المضمار فقـــد قوبلت اقوالي بلامبالاة مخجلة .

والسبب الذي يفسر هذا الوجوم،دون ان يبرره،هو ان مجلس النواب كان ساخطا ، بل ثائرا ، ضد المرسوم التشريعي الذي كنا اصدرناه والمتعلق بملاك وزارة الداخلية . وكان عدد كبير من النواب ياخذون على حكومتنا تجاوزها صلاحياتها وادخالها احكاما تحد من الحريات العامة في صلب المرسوم التشريعي رقم /٥٠/ . وليس في نيتي ان اخوض في بحث هذا المرسوم الآن ، ولا بيان مـــا اذا كان النواب مسيرين في موقفهم هذا باهوائهم الخاصة ام انهم كانوا جادين في الدفاع عن الحرية . ولكن لا بد لي من ذكر الآية الكريمة « ولا تزر وازرة وزر اخرى » ومعاتبة النواب لعدم ابدائهم تاييدهم للحكومة في موقفها من الغاء المحاكم المختلطة ولاغفالهم شكرها على ما فعلته . لكننا اعتدنا ، مع الاسف ، في هذا البلد على تناسي الحسنة وعدم الاعتراف لذي فضل بفضله .

ومهما كان الامر ، فقد استقل قضاؤنا واسدل الستار على الامتيازات الاجنبية والمحاكم التي كانت تدعى سورية ولكنها كانت في الواقع افرنسية اجنبية .

ب ــ **وزارة الاقتصاد الوطني** : احدثت هذه الوزارة في الملاك دوائر جديدة ، فيما يتعلق بالشؤون الزراعيـــة ، ووزعت الاعمال بينها على الوجه الصحيح .

ج ــ **الدفاع الوطني** : كان السيد نبيه العظمه استقال مـــن الحكومة في ١٧ حزيران ، اي قبل الشروع بوضع ملاك وزارته ، وسمي السيد احمد الشرباتي وزيرا للدفاع الوطني بـــدلا عنه . وتضمن الملاك نظام الدوائر وصلاحياتها .

د ــ **وزارة المعارف** : على اثر تسمية وزير المعارف السيـــد

احمد الشرباتي وزيرا للدفاع الوطني دعي الامير عادل ارسلان لتسلم تلك الوزارة . وجاء ملاكها على الوجه الذي كان نافذا تقريبا .

هـ ــ المالية : كذلك لم يتضمن ملاك المالية شيئا بارزا .

و ــ الاشغال العامة : احتدم النقاش بيني وبين الوزير السيد ميخائيل اليان بسبب الخلاف بيننا على ارتباط بعض الدوائر . فكنت ارى ان تدمج مصلحة الري مثلا ، بوزارة الاقتصاد الوطني ، نظرا لعلاقاتها الصميمة بالشؤون الزراعية . الا ان اكثرية الوزراء لم تساندني في طلبي ، فبقيت تلك الدوائر ضمن ملاك وزارة الاشغال العامة والمواصلات .

ز ــ وزارة الداخلية : اثار ملاك هذه الوزارة نقاشا شديدا في مجلس الوزراء حول قضيتين ، اولاهما عقوبة الابعاد التي منح مشروع الملاك صلاحية انزالها لوزير الداخلية ، وثانيتهما حرية الصحافة . وكنت بالاتفاق مع السيد ميخائيل اليان نرى عدم التطرق الى هاتين المسألتين في المشروع تجنبا لاثارتهما والاعتراض عليهما من قبل النواب . لان الصلاحية الممنوحة للحكومة بوضع الملاكات لا تبيح لها وضع احكام لا صلة لها بملاك الموظفين . واضفنا الى ذلك ان ثمة قرارا صادرا عن المفوض السامي في عهد الانتداب يجيز للحكومة ابعاد من ترى فيهم خطرا على امن البلاد وسلامة الدولة ، وان الحكومة الحاضرة ذات حق في تنفيذ ذلك القرار لانه لم يصدر حتى الساعة ما يوقف مفعوله . فلا لزوم اذاً لاحداث ضجة في المجلس قد يكون لها صدى في الراي العام غير مستحب . لكن الوزير اصر على رايه وايده الرئيس الجابري تأييدا شديدا ، وكذلك كان موقف سائر الوزراء . وعندما تحقق لدينا ان المشروع سينال موافقة مجلس الوزراء اذا طرحه الرئيس على التصويت ، طلبنا تاجيل البت للجلسة القادمة فوافق الرئيس . فاتصلنا برئيس الجمهورية بواسطة السيد محسن البرازي الذي كان له حظوة كبرى لدى الرئيس وابدينا له راينا ، فجاءنا الجواب بأن السيد القوتلي يستحسن راينا وبانه لا يوقع على مشروع يتضمن ما اعترضنا عليه ، فزال قلقنا .

وفي الجلسة الثانية تمسكنا باعتراضنا ، فاجاب الرئيس بان الامر معروض على مجلس الوزراء ان شاء قبله بالاكثرية وان شاء رفضه . فجرى التصويت وكان الموافقون جميع الوزراء ، ما عدانا

نحن الاثنين . فطلب السيد الجابري التوقيع على نص المشروع ، فابينا باعتبارنا مخالفين . ولكنــه أصر علينـــا قائلا بان التضامن الوزاري يحتم صدور المرسوم حاملا تواقيع الموافقين عليه والمخالفين له ، وانه لا يجوز لنا الامتناع عن التوقيع الا اذا اردنا الانسحاب من الحكومة . فتشاورنا نحن الاثنين في الامــر ، فاتفق راينا على عدم الاستقالة ما دام رئيس الجمهورية سيمتنع عن الموافقة على المشروع ويرفض التوقيع عليه كما وعد. وبذلك لا يكون لتواقيعنا قيمة. فعدنا الى الجلسة ووقعنا على المشرع ونحن نضحك في الصميم، معتمدين على انه سيعود غير مصدق عليه من قبل رئيس الجمهورية .

وقام الرئيس الجابري على الاثر وتوجه الى القصر الجمهوري.

وما لبث ان عاد ومعه المرسوم مذيلا بتوقيع فخامة الرئيس ، فكانت صدمة ومفاجاة غير منتظرة . ولما عتبنا على رئيس الجمهورية اجاب : « لقد رايت توقيعيكما على المشروع فصدقت عليه . » ولم نتميز ما اذا كان قصد بذلك اجتناب ازمة وزارية فورطنا ليصدر المرسوم بدون ضجة ، ام انه كان صادقا بقوله انه وقع بعد ان شاهد توقيعينا فظن اننا رجعنا عن معارضتنا وقبلنا بالمشروع .

ومهما يكن الامر ، فقد كان المشروع خطيئة سياسية ارتكبها الجابري فافادت معارضيه واكسبتهم تاييدا شعبيا قويا . ولم يقتصر المرسوم المذكور على هذه الناحية ، بل انه حوى مواد تتعلق بحرية الصحافة وتعطيلها الاداري ، مما حمل الصحف على الانضمام الى المعارضة النيابية والبدء بحملة قاسية ضد المرسوم وضد الوزارة التي وضعته ، وخاصة ضد وزير الداخلية السيد صبري العسلي . وحينما قارب موعد اجتماعات مجلس النواب ، انتــــاب رئيس الوزارة مرض اضطره للدخول الى مستشفى المؤاساة بالاسكندرية. فصدر مرسوم اناط بي الرئاسة بالوكالة ، فاصبحت بحكمها مدعوا للدفاع عن ذلك المرسوم امام النواب ومواجهة عاصفة غضبهم . وكانت الحملة ضد الوزارة قد بلغت اشدها في الاجتماعات التي كانت تدعو اليها المعارضة ، وفي المقـــالات القاسية التي كانت الصحافة تنشرها دون انقطاع . اما رئيس الجمهورية فكان يقول لنا : « اصلحكم الله ، اما كنتم بغنى عن هذا المرسوم ؟ لا حول ولا قوة الا بالله . دبروا الامور . عالجوها بالحكمة . لا حول ولا قوة الا بالله ! » وكنت انظر اليه وهو يردد هذه الكلمات باستغراب

وسكوت حتى طفح الكيل وقلت له : « يا فخامة الرئيس ، اما جلبنا نظرك الى النتائج قبل صدور المرسوم ، فوعدتنا بعدم المصادقة عليه ثم وقعته ؟ » فأجاب : « نعم ، وقعت عليه عندما رأيت توقيعيكما . وانا غير مسؤول . الوزارة هي التي تضع المراسيم وتوقيعي لا يعني موافقتي الشخصية عليها . فهي المسؤولة ! » الى غير ذلك من الاقوال التي لا تتفق مطلقا مع حقيقة الوضع ولا مع ما اعتاد عليه الرئيس من التدخل في الشؤون حتى التافهة منها ، ولا مع حرصه على ان لا يتم امر في الدولة دون رضائه وموافقته .

فعزمت على اقتحام الازمة ، لا بالاصرار على استبقاء المرسوم، لكن بالغاء جميع ما احتواه هو وغيره من البنود التي اعترض عليها النواب ، فاعلنت عن عزمي هذا في جلسة المجلس ، فذهل المعارضون ، اذ انهم ما كانوا يرغبون في الواقع الا في مشاحنة الحكومة والتشنيع بها . اما الآن فوجدوا ان سلاحهم قد استقط من ايديهم . وعلى الفور استصدرت قانونا يوقف تنفيذ تلك الاحكام المعترض عليها ، والتي كنت في الاصل غير راغب فيها اطلاقا .

وقد لجمت الحزبية السنة النواب ، فلم يبادر احد منهم الى التنويه بما قامت به الحكومة من عمل عظيم الفائدة على البلاد ، الا وهو الغاء المحاكم المختلطة التي كانت تنظر في الدعاوى بين الاجانب والسوريين . وبذلك انتهى عهد الامتيازات الاجنبية . وعندما خطبت في النواب واشرت الى هذه الناحية التي هي ركن من اركان استقلالنا لم تتحرك يد بالتصفيق . وجاء هذا الجمود دليلا على ان النواب يعتقدون ان مهمتهم قاصرة على انتقاد اعمال الحكومات ، لا الحكم عليها اذا اساءت ، وتقدير عملها اذا احسنت.

اثار استمرار مرض الرئيس الجابري قلقنا على صحته وتساءلنا عن موعد عودته . ولما كان الاتصال به مباشرة غير متيسر، اوفدنا احد الاصدقاء للاطمئنان عن حالته واطلاعه على سير الامور، والتحقق من موعد عودته . فرجع الموفد بعد ثلاثة ايام وذكر لنا انه لم يستطع الاجتماع بالرئيس في غرفته بالمستشفى الا دقائق معدودة ، وانه لم ير مناسبا وهو متمتع بصحة طيبة ان يذكر له شيئا غير الاستفسار عن راحته ، وانه لم يتمكن من معرفة نوع المرض الذي يشكو منه . وسيرد فيما يلي ما كان لمرض المرحوم الجابري من اثر ، اضطرت معه الحكومة للاستقالة .

نشاطي في تنظيم شؤون مصلحة الميرة وخلافي مــع القوتلي

احدثت مصلحة الميرة ، خلال الحرب عام ١٩٤٢ ، بقصد تأمين الحبوب اللازمة للاستهلاك المحلي في سورية ولبنان ، وتجنب ما حصل في الحرب العالمية الاولى من ارتفاع فاحش في اسعار الخبز بسبب خزن المحتكرين القمح الفائض على المقادير التي كانت الحكومة التركية تأخذها عينا من المنتج وتبيعها لحسابها .

وقد عادت طريقة الشراء الجبري التي اتبعتها المــيرة بفائدة كبرى على لبنان ، من حيث توفير ما تحتاجه البلاد من القمح بسعر معتدل ، فلم تحصل فيه المجاعة التي اصابته في سنين الحرب العالمية الاولى . وابى اللبنانيون ان يعترفوا بفضل سورية عليهم ، وذلك بتوفيرها ، باسعار اقل ، حاجاتهم من الحبوب التي كانوا يشترونها قبــل الحرب مــن الاسواق الخارجية ، كأستراليا وكنــدا . وكانوا لا يلتفتون الى الاسواق السورية الا عندما تهبط اسعارها الى ادنى من الاسعار الاجنبية . ونحن لا نلوم التجار والمستهلكين اللبنانيين على تفضيلهم الارخص من المواد الغذائية . لكننا ، من جانبنا ، لنا حق رفع اسعارنا حينما تحين الفرص . ومع هذا ، فان سورية جرت على تحديد اسعار بيع القمح من لبنان علــى نفس الاساس المحدد لبيعه من سورية مع اضافة بسيطة قدرها احدى عشرة بالمئة، لقاء قيام موظفي الدولة السورية بتنفيذ خطط مصلحة الميرة ومنــع تهريب الحنطة والدقيق الى الاسواق السوداء . وحدد سعــر طن القمح بمئتين وخمسين ليرة سورية، ثم ارتفع الى ٣٥٠ ليرة سورية. وهذا على كل حال لا يرتفع عما وصلت اليه اسعار بقية الحاجات خلال الحرب . وهو من جهة ثانية ، اذا حسبناه بالعملة الذهبية ، اقل مما كان عليه قبل الحرب .

وكان يشرف على مصلحة الميرة ويوجه سياستها، مجلس مؤلف من رئيس سوري وثلاثة اعضاء : لبناني وافرنسي وبريطاني .

وعندما استلمت وزارة الاقتصاد الوطني ، كــانت مصلحة الميرة مرتبطة بها . فاستدعيت السيد ليون مراد وانطت به مديريتها العامة، نظرا لما اعهده فيه من النشاط المنتج، ومن الدأب على العمل المتواصل ، ومن المقدرة في ادارة مصلحة كالميرة تحتاج لخبرة وصلابة وفكر متقد . وفي جملة الموظفين الذين عهدت اليهم بمناصب رئيسية في الميرة ، السيد راتب العابد الذي اسندت اليه مديرية مركز حلب. ولم يكن يخطــر في بالي ان رئيس الجمهوريــة سيستاء مــن هذا

الاختيار ، فارسل الي السيد محسن البرازي طالبا نقله . فسألته عن السبب ، فاجاب بأن ثمة اشاعات عن سوء سمعته حينما كان موظفا في بلدية دمشق. فاجبته بأني اجهل ذلك، واضفت قولي بأنه لا يجوز اخذ امرىء باشاعات قد تكون صحيحة وقد تكون مغرضة وكاذبة. فاذا ما ثبت عليه ما يدينه، فليس لدي مانع من نقله وعزله. واستمر الرئيس على التشبث بعزله واصررت انا على عدم التعرض للموظف الموما اليه ما لم يتحقق لدي ما يوجب ذلك . وحقد علي الرئيس القوتلي وكبت حقده حتى تسلم السيد جميل مردم رئاسة الوزارة بعد استقالتنا، فأمر بعزل السيد العابد. ثم أمر بالقاء القبض عليه واحالته على المحكمة بتهمة اساءة استعمال وظيفته . ولكن المستنطق اصدر قرارا بمنع محاكمته لفقدان الادلة ، فخرج من السجن بعد ان قضى فيه ما يقرب من ثلاثة اشهر ونيف . ولم يكتف السيد القوتلي بالانتقام من الموظف المذكور بحبسه وتلويث سمعته — بمعاونة السيد مردم الحاقد علي من جراء تبليغه بانتهاء رئاسته لمجلس الميرة في شهر آب ١٩٤٥ ، اذ كان يرغب في الاستمرار في تلك الرئاسة ، رغم توليه لها بصفته عضوا في الحكومة فلم يعد ثمة مبرر لاحتفاظه بها بعد استقالته من الحكومة — بل حمل بعض الصحف على اثارة الراي العام باخبار اختلاسات وهمية اشيع حدوثها في مصلحة الميرة في عهد رئاستي . وقد ارادا بذلك ، هو ومردم ، أن يوهما الناس بأني سكت عن تلك التصرفات السيئة ، اما صداقة او التماسا للنفع . ولكن احدا لم تنطل عليه هذه الاحابيل ، لما يعلمه الكل عني من عدم مراعاتي الصداقات في معرض المصلحة العامة ولا التماس النفع الخاص ، بأي وجه كان .

نجاحي في انشاء مستودعات لخزن الحبوب

ومن الامور الاساسية التي عالجناها، قضية انشاء مستودعات خزن الحبوب في منطقة الجزيرة ، حفظا لها من الامطار . اذ تأكدت لنا الحاجة الى مستودعات كافية لحفظ ما يقرب من مئتي الف طن على الاقل . وكان هذا الامر يحتاج الى مبالغ كبيرة من المال لا تملكه مصلحة الميرة ولا تستطيع موازنة الدولة العادية ان تتحمله . فاضطررنا لحصر العمل مؤقتا في انشاء اربعة مستودعات تتسع لخزن عشرين الف طن . وبوشر بالعمل فورا وانجز بعد ان كنا قد تركنا الوزارة . ولا تزال هذه القضية على الرغم من اهميتها في ادارج مكاتب الموظفين ، دون ان تصل الى مرحلة تنفيذ

البرنامج الواســـع .

والمستودعات الملحوظة تؤمن للمزارعين فائدة اخرى . وذلك ان اكثرهم يضطر في موسم الانتاج لبيع قسم منـــه لسداد مـــا هـــو مطلوب منه مـــن ذمم ونفقات ، وغالبا مـــا تكون الاسعار في البيـــدر رديئة . ولو تمكن من خـــزن منتوجه في المستودعات العامة ، لاستطاع الاقتراض مـــن المصارف لقاء تسليمها ايصالات ايداع حبوبه في تلك المستودعات ، فلا يضطر عندئذ لعرضها على الاسواق بقصد البيع ، مما يؤدي الى انهيار الاسعار بسبب كثرة العرض . ولتحقيق هذه الغاية ، لا بـــــد من ادارة خاصة لهذه المستودعات ، تابعة للمصرف الزراعي الذي يؤمن رؤوس الاموال اللازمة لعمليات الاقراض المذكورة . ولا بد ايضا من بناء المستودعات على الطراز الفني الحديث ومن فرز المواد الغريبة من الحبوب قبل وضعها في هذه المستودعـــات .

القوتلي يخـــطط لتجديد رئاسته بابعاد الجابري عـــن الحكـــم

بدا رئيس الجمهورية ، منذ اواخر شهر تشـــرين الثاني ، يلح علينا بضرورة الاستقالة ، مدعيا بأن مرض رئيس الوزراء لا يسمح له بتعاطي مهامه ، وبان لا امل بقرب شفائه واستعادته قوته اللازمة لاشغال منصبه مجددا . لكن السبب الحقيقي لرغبة السيد القوتلي في التخلص من الوزارة لم يكن مرض الجابري فحسب ، بل ايضا خلافه معه في قضية يعتبرها القوتلي ذات اهمية عظمى . وهي انه كان يطمع في تجديد مدة رئاسته ، خلافا لما يجيزه الدستور . ولم يوافقه الجابري على تعديله ، فنشب الخلاف بينهما . فولى الرئيس وجهه عنه والتفت الى السيد جميل مردم الذي ابدى موافقته على تعديل الدستور وتجديد انتخاب القوتلي ، لقاء ان يعهد اليه برئاسة الوزارة .

ولربما كان القوتلي على حق في اعتقاده انه اليق من يتسلم رئاسة الجمهورية اذا خلا الميدان من الجابري وبقي مردم المرشح الوحيد لها . على ان الجابري كان يتطلع ايضا الى هذا المنصب غير عابىء بالمرض الذي انتابه وهو عديم الشفاء .

وعندما قطعنا الامل من امكان عودة الجابري الى الحكم وبدانا نشعر بصعوبة القيام باعباء وزارة فاقدة الراس ، نزلنا عند رغبة الرئيس القوتلي وابلغناه بموافقتنا على الاستقالة . فارسل السيد محسن البرازي الى الاسكندرية ليجتمع بالسيد الجابري ويأخذ منه

كتاب الاستقالة . الا ان المشار اليه قابل الموفد باشمئزاز وحمله رسالة شفهية شديدة اللهجة للقوتلي تتضمن معاتبته لانه استعجل في طلب الاستقالة ، معتبرا ذلك دليلا على القنوط من شفائه ، مما يؤدي الى انهيار مقاومته المعنوية للمرض . ومع ذلك ، فقد اعلن انه يضع الامر تحت تصرف الرئيس ، ان شاء اعتبره مستقيلا وان شاء امهله . فاسرع رئيس الجمهورية الى اصدار بلاغ رسمي باستقالة الجابري وقبولها .

جميل مردم يتفق مع القوتلي ويؤلف وزارة جديدة

واثر عودة البرازي من رحلته صدر بلاغ من القصر الجمهوري بان السيد الجابري قدم استقالته لرئيس الجمهورية وانه بدأ بالاستشارات لتاليف الحكومة الجديدة . وكانت رئاسة الوزارة بيني وبين السيد جميل مردم . فاستمع الرئيس لآراء من دعاهم لاخذ رايهم ، ثم رجع الى ما كان قد اتفق عليه مع مردم وهو اقتسام المركزين : فله الرئاسة تجديدا ولمردم رئاسة الوزارة . ولم يكترث القوتلي برأي الكثيرين من النواب وغيرهم من الذين حذروه من دعوة مردم لتسلم الحكم ، سواء لعدم اطمئنانهم اليه او لان حكومته لا يمكن ان تنال الثقة في المجلس اذا لم يدعمها المعارضون الحاليون من جماعة رشدي الكيخيا . وانتهت مشاورات الرئيس بتكليف مردم بالرئاسة . فاخبرني ليلا ودعاني للحضور اليه . فاعتذرت منه واعدا بالحضور في الصباح . وحينما دخلت عليه في صبيحة اليوم التالي وجدت مردم عنده . فطلب الي الاشتراك في الحكومة كوزير للخارجية . ولم اشأ اجابتهما بالرفض الذي كنت مصمما عليه ، قبل ان استدرجهما لمعرفة العناصر التي يعتمدان عليها في المجلس . فسالتهما عن اسماء بقية الوزراء فذكرا سعيد الغزي ونعيم الانطاكي . فاستوضحت عن رايهما في العسلي واليان ، فكان الجواب بعدم امكان التعاون معهما . فادركت انهما يقصدان التفرقة بيني وبينهما . وعند ذلك ابديت اعتذاري ، واصررت عليه رغم الحاح الرئيسين . ثم عدت الى داري ، فجاء رفاقنا النواب وبحثنا معهم الموقف تجاه الحكومة الجديدة . فكانوا متفقين معنا على عدم مناصرتها . واصروا علي بضرورة جمع اكبر عدد ممكن من النواب والتضامن معهم على منع الثقة عن الحكومة عند مثولها امام المجلس .

وكان السيد مردم يسعى لتاليف وزارته ، فجمع النواب حوله

لنيل الثقة . وكنا من جهة ثانية نستدعي النواب الى داري لتمتين التكتل ضد الفريق الآخر. فلما وجد مردم انه مخذول حتما في المجلس من قبل اكثرية النواب الذين كانوا يناصرون الحكومات المتعاقبة منذ عام ١٩٤٣، اضطر للتفاهم مع اركان المعارضة. فاشرك في الوزارة احد اعضائها البارزين السيد عدنان الاتاسي ، واعلن تاليف الحكومة على النحو التالي :

جميل مردم : رئيسا للوزراء ووزيرا للداخلية ، نعيم الانطاكي : وزيرا للخارجية ، احمد الشرباتي : وزيرا للدفاع الوطني ، سعيد الغزي : وزيرا للمالية ، عدنان الاتاسي : وزيرا للعدلية والاشغال العامة ، عادل ارسلان : وزيرا للمعارف ، حكمت الحكيم : وزيرا للاقتصاد الوطني .

وما ان نشر مرسوم تاليف الوزارة حتى اشتد حماس رفاقنا النواب ضدها . وتتالت الاجتماعات بداري لتقوية كتلتنا واحكام الخطة لاسقاط الوزارة عند طلبها الثقة .

اما رئيس الجمهورية فقد اشتد به الغيظ من مساعينا والخوف من احباط خطته الرامية الى ايجاد حكومة يرتاح اليها لتجديد رئاسته ، ويعتمد عليها في التدخل في الانتخابات القادمة لانجاح المؤيدين لفكرته . فدخل المعركة بيننا وبين مردم ، مناصرا اياه بكل وسيلة ، سافرا عن تأييده المكشوف ، غير عابئ بمبادئ الحياد التي يقضي العرف بالتزامه بها بين الحكومة والنواب. وبدأ يستدعي النواب فرادى وجماعات ويلحف عليهم بضرورة مؤازرة الحكومة . وكان يستعمل مع كل واحد منهم الاسلوب المجدي وعدا ووعيد . وكان يبعث الي بالسيد محسن البرازي معتمدا على صداقتي معه ليطلب الي العدول عن موقفي . فيعود المشار اليه ناقلا للرئيس رفضي وانباء اجتماعات النواب عندي ، وعددهم الآخذ بالازدياد . وكلما اوجس الرئيس خيفة من نجاحنا ، ازداد ضغطه علينا .

وقبل موعد جلسة الثقة وضعنا تقريرا يتضمن، اولا : عدم الثقة بالحكومة المؤلفة خلافا للقواعد والاصول الدستورية، وثانيا : ضرورة اسناد رئاسة الوزارة الى احد اعضاء الاكثرية في المجلس ليدخل فيها رفاقه اصحاب تلك الاكثرية . وصار النواب المتكتلون معنا يوقعون على التقرير ويقسمون على عدم منح الثقة لحكومة مردم . وبلغ عدد التواقيع خمسة وستين توقيعا .

وفي الجلسة المخصصة للثقة ، ناقش النواب بيان الحكومة

فاعلن احدنا ، السيد صبري العسلي ، بأن كتلتنا سوف لا تمنح الثقة . فتصدى له السيد رشدي الكيخيا متسائلا عما بدا مما عدا ، حتى اصبح المناصرون الدائمون اخصاما للحكومة الحاضرة . واشار الى المرسوم التشريعي رقم /٥٠/ ، فاجابه العسلي مهاجما اياه وسائلا عما بدا مما عدا حتى اصبح المعارضون الدائمون مناصرين للحكومة الجديدة . وكان النقاش شديدا استمر مدة طويلة .

ولمسنا في هذه الفترة ان بعض النواب الذين وقعوا على تقريرنا قد تغيب عن الجلسة ، كما اعترف لنا البعض الاخر باضطراره لمسايرة رئيس الجمهورية وعزمه على الاستنكاف عن ابداء الراي . وعند فرز الاصوات بعد طرح الثقة تبين ان عدد الموافقين خمسة وستون وان عدد المخالفين سبعة وثلاثون فقط ! اي ان رئيس الجمهورية ، بتدخله الخاص ، استطاع ان يسلب كتلتنا ثمانية وعشرين نائبا لحسوا امضاءاتهم وحنثوا بيمينهم مرضاة لصاحب السلطان الاعلى . اما التقرير الذي يحتوي تلك التواقيع فلم نقدمه اشفاقا على هؤلاء المساكين الذين لم تمكنهم اعصابهم ومصالحهم الخاصة من الصمود تجاه ضغط الرئيس وتهديداته .

واني ، بعد سرد الحوادث المتعلقة بتاليف وزارة مردم ، اكتفي بايراد ما يتعلق بتعديل قانون الانتخابات ، ثم بانتدابي لمفوضية باريس . واترك لغيري ذكر سائر الشؤون التي عالجتها الوزارات الثلاث التي ترأسها السيد مردم ، من ٢٦ كانون الاول ١٩٤٦ حتى ١٢ كانون الاول ١٩٤٨ .

قضية تعديل قانون الانتخابات النيابية

في جملة مخلفات عهد الانتداب وجد الحكم الوطني قانون الانتخابات الذي جرت على اسسه انتخابات ١٩٤٣ . وشاءت حكومة السيد جميل مردم ان تحضر مشروعا جديدا تقدمه الى مجلس النواب لا يختلف في اسسه العامة عن القانون النافذ . ولكن جماعة المعارضة السابقة ومؤيدي الوزارة الحاضرة انتهزت هذه الفرصة وطالبت بجعل الانتخابات مباشرة ، خلافا لما تضمنه المشروع من الابقاء على اصول الانتخاب عن طريق المنتخبين الثانويين . وكانت حجة المعارضة تستند على ان هؤلاء المنتخبين الثانويين تستطيع الحكومة التأثير على ضمائرهم بشتى الوسائل . فتحملهم على انتخاب مرشحيها ، لا سيما ان قلة عددهم تسهل لها غرضها . اما اذا اشترك جميع الناخبين بالتصويت فلا تستطيع الحكومة

التأثير على تلك الجموع الغفيرة . فلا ينجح بالانتخاب سوى من ترتضيه الامة في صميمها . واما الفريق المخالف لهذا الاتجاه ــ وكنت في عداده ــ فكان يرى ان الشعب لم يصل بعد في التقدم الفكري الى درجة التمييز بين المرشحين للنيابة لانتقاء اجدرهم ، لا سيما انه اكثر اختلاطا بزعماء حيه من اختلاطه برجال السياسة المتقدمين الى النيابة . فلا يستبعد ان يقدم على انتخاب اولئك الزعمـــاء اعتقادا منه انهم اليق من ينوب عنه . كما ان الانتخابات المباشرة لا يستطيع تحمل نفقات الاشتراك فيها ومتاعبها الا احزاب منظمة يقوم كل فرد من افرادها بقسط من الجهود اللازمة . اما الفرد فليس بوسعه ان يخوض معركة يحتاج فيها الى دعاية فردية واسعة والى انصار عديدين يتولون مهامها ويشرفون عـــلى صناديق الانتخابات العديدة ، وما الى ذلك . واذا اضفنا ان تعدد مراكز الانتخاب يسهل عمليات التزوير ، سواء بالقاء بطاقات مهياة او بتبديل الصناديق ، وجدنا ان هذا الاسلوب لا يمتاز على الاسلوب الاخر ، اذ ان تمركز صندوق الانتخابات في دائرة البلدية ووضعه امام لجنة مؤلفة من عشرين شخصا او اكثر وحضور مندوبي المرشحين ، يحول دون القاء اوراق مزيفـــــة . اما حرية الانتخابات فيمارسها المنتخب الثانوي ، دون ان تستطيع الحكومة التأثير عليه . فهو يكتب على ورقته منفردا وبمعزل عن المراقبين ويضعها في الصندوق امام ذلك العدد الغفير من الحاضرين . فلا مجال اذن للتخوف من الضغط على الحرية . وبهذه المناسبة اذكر ان صديقا لي كان قد رشح نفسه للنيابة في ١٩٣٦ وسعى لدى المنتخبين الثانويين سعيا حثيثا ، فاكد لي بأن ما ينوف عن نصفهم وعده وعدا اكيدا بانتخابه واقســم له بذلك . ولما انتهى فرز الاصوات لم ينل صديقنا سوى ثلاثة اصوات من ثمانمائة صوت .. كان احدها صوته ، والثاني صوتي ، والثالث لم نعرف صاحبه على الضبط ، لان عددا كبيرا من المنتخبين كان يؤكد انه هو صاحبه .

وهذا دليل على ان المنتخب الثانوي قد يعد المرشح بصوته ، وقد يؤكد للحكومة انه سيدعم قائمتها ، ولكنه عندما يخلو لنفسه لا يكتب سوى اسماء الذين يختارهم هو لا سواه .

وقد جاءت التجارب والحوادث ، فيما بعد ، شاهدة على ما يقترف في الانتخابات المباشرة من مهازل وفضائح ــ فكان يحال بين الناخب وبين وصوله الى صندوق الانتخاب ويـراقب وهو يكتب

قائمته فيفقد حريته . وكانت اكداس القـوائم الانتخابية تلقى في الصناديق بدون حساب ، والاموات يعطون اصواتهم قبل الاحياء ، وصناديق الانتخاب تستبدل بصناديق مملوءة بالقوائم المزورة.وعندما استمزجنا راي رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء في هذا الامر ، اكدا لنا انهما يتمسكان بمشروع الحكومة ولا يقبلون بفكرة الانتخابات المباشرة مطلقا . ولم يخطر في بالنا انهما سيتراجعان عن هـذا القـول ، فواصلنا جمـع النواب المناصرين لفكرتنا لتوحيد الكلمة والخطة . ونحن في ذلك ، اذ برئيس الـوزارة يدعو النواب الى الاجتماع عنده للمذاكرة في هذا الشأن، فلبينا الدعوة.وجلس مناصرو مشروع الحكومة الى يسار السيد مردم والمعارضون الى يمينه . وطلب السيد مردم من الفريقين ان يدليا بحججهما ونظرياتهما قبل ان يجتمع مجلس الوزراء للمرة الاخيرة لاعطاء قراره النهائي . فتكلم السيد صبري العسلي عن فريقنا وادلى بما لديه من براهين وحجج على فساد نظرية الانتخابات المباشرة . وعندما طلب السيد مردم من الفريق الاخر بيان نظريته استنكف عن ذلك ولاذ بالسكوت . فانسحب اعضاء الوزارة الى بهو اخر ولبثوا مجتمعين ما يقرب من الساعة ونحن في الانتظار . وجاء في هذه الفترة السيد محسن البرازي من القصر ودخل الى حيث كان الوزراء مجتمعين . وما لبث ان خرج واقترب مني واسر لي بأن الوزراء رجحوا النزول عند راي المعارضة . فوجمنا لهذه المفاجاة غـير المنتظـرة وطلبنا اليه ان يسرع بحمل النبأ الى رئيس الجمهورية . فبادر الى الهاتف ونقل اليه ما كان يدور من الاحاديث بين الوزراء وطلب اليه باسمنا ان يستدعي رئيس الوزراء الى القصر ليعدل عن نيته . ولا اعلم بماذا اجاب الرئيس القوتلي على هذا الاقتراح ، الا ان السيد البرازي ابلغنا ان الرئيس لا يريد التدخل بين النواب والحكومة . فأجبناه ساخرين : « ايه ، نعم ... الرئيس يتمسك بأهداب الدستور ولا يتدخل فيما لا يجيزه له ... ولا يضغط على النواب ليحولهم عن رأيهم ... ولا يفرض عليهم ارادة ! » وخرج السيد مردم من مجلس الوزراء وعاد الى حيث كان ينتظره النواب . فأخذ كل منهم مجلسه بانتظار سماع بيان الحكومة . وقال مردم : « لقد درست الحكومة الموضوع على ضوء الابحاث والمـداولات وقررت تبني نظرية الانتخابات المباشرة . وستعمل على تعديل مشروع القانون على هـذا الاساس » .

فدوت القاعة بتصفيق المعارضين . واخذ مردم يصافح النواب الذين اقبلوا ليهنئوه ويشكروه . وكان يتقبل عواطفهم المتدفقة بابتسامته المعهودة ، كأنه خارج من المعركة ظافرا . ولعله بابتسامته كان ينم عن فرح في صميمه ، اعتقادا منه انه بانتقاله من برج الى برج قد ضمن تأييد فريق من النواب يستطيع معه الاحتفاظ بكرسي الرئاسة ، ولو كان ذلك على حساب التذبذب في الاقوال والافعال ، والسير يمنة ويسرة مثل السكير الذي يترنح في اواخر الليل وينتقل من رصيف الى رصيف مواجه ، معانقا اية شجرة او عامود كهرباء يسنده ويمنعه من السقوط على الارض .

ولعله ، من جهة ثانية ، كان فرحا بما تؤدي اليه حركته الالتفافية من انتقام من جانب النواب الذين منعوا عنه الثقة ، وذلك باتفاقه مع نواب المعارضة وتسهيل السبل امامهم في الانتخابات القادمة .

وبعد ان بارح السيد مردم سرايا الحكومة محاطا بنواب المعارضة ، قلت لرفاقي ونحن ننزل السلم : « اشهدوا علي باني لن اتقدم الى اية انتخابات تشريعية تجري في البلاد بعد الآن . »

وصدر قانون الانتخابات بعد ايام قليلة كما ارتضته الوزارة ، نزولا عند راي المعارضين .

ابعادي الى باريز وزيرا مفوضا

جاءني ذات يوم السيد محسن البرازي وبدأ بحديث تناول فيه نواحي عديدة . فادركت انه يضمر غرضا يريد الوصول اليه عن طريق ملتو ، فقلت له : « لم هذا اللف والدوران ؟ ادل بما تريد قوله بدون مواربة . » فضحك وقال : « لقد بعثني رئيس الجمهورية لتكليفك بالذهاب الى باريز مفوضا » . فاجبته بأنه يقصد ابعادي من دمشق في الصيف القادم حينما تجري الانتخابات ويعرض على المجلس تعديل الدستور ليصح تجديد انتخابه رئيسا للجمهورية . فتظاهر البرازي باستبعاد هذه الغاية وقال : « ان الرئيس يحبك كثيرا ويقدر فيك مواهب كبيرة . وقد طلب منك الاشتراك بوزارة مردم فرفضت «رغما عن اصراره . فهو يرغب والحالة هذه ان تفيد البلاد منك . » فقلت له : « ماذا تفيد البلاد من وجودي في باريس ؟ » فاجاب : « انك الوحيد الذي يستطيع معالجة الخلاف الحاصل بيننا وبين الافرنسيين بشأن النقد السوري . فانت وضعت

الاتفاق معهم ، فمن اجدر بك لتولي المفاوضات معهم وانهائها على احسن سبيل ؟ » فقلت له : « اني اقبل بكل سرور ان ابذل جهدي لاعادة الافرنسيين الى تنفيذ الاتفاق الاصلي ، ولكن لم لا تكون هذه المحادثات بدمشق مع وزيرهم المفوض ؟ » فقال : « ان الامر اصعب مما تتصور . ولا يستطيع وزير فرنسا المفوض بدمشق ان يحل المشكلة ما لم يرجع الى مركزه . فالقرار النهائي بيد وزير ماليتهم . فاذا لم تكن المفاوضات في باريز حيث يستطيع المفاوض السوري بذل المساعي لدى الهيئات المتعددة ذات الصلة بهذا الموضوع ، فلا امل بالوصول الى انهاء القضية كما نريد . فانك بوجودك في باريز تتهيأ امامك السبل للاجتماع مع جميع الوزراء والنواب والهيئات الاقتصادية فتطلعهم على مساوىء نقضهم الاتفاق المالي وما سيؤدي اليه هذا النقض من تعقد المسائل الاخرى واتساع هوة التباعد بينهم وبين السوريين » . فقلت له : « اني اسلم معك بأن وضع الحكومة السورية ، من حيث انها هي المطالبة بحق سليب ، يحتم عليها ان تمهد له . كما اني شخصيا اميل الى السفر الى باريز والاقامة فيها . فجوها يطربني . وانك مع الرئيس قد اصبتما لدي وترا حساسا بتكليفي بالذهاب الى باريز . وليس لديّ من حيث المبدأ مانع من القبول لولا ما يخالجني من الشك في ان وراء غاية الرئيس الظاهرة رغبة في اقصائي عن دمشق . فقد سبق ان كلفني الرئيس بالسفر الى نيويورك لتولي رئاسة الوفد السوري في منظمة الامم المتحدة وتمثيل سورية في مجلس الامن التي هي عضو فيه ، فاعتذرت منه بدعوى عدم الالمام باللغة الانكليزية . وها هو يعود اليوم الي بتكليف جديد يماثل الاول من حيث انه يقضي عليّ بالاغتراب ويخلي له الجو لتنفيذ خططه الشخصية . على انني ارغب منك ، يا محسن ، ان تنقل الى الرئيس بانني لا اتطلع الى مركزه ولا اجد في الوقت الحاضر انسب منه لتولي مقام الرئاسة العليا ، رغم بعض الخطيئات التي ظهرت منه . فاذا كان يقصد تجنب معارضتي له في تجديد انتخابه ، فليطمئن بالا . اما اذا كان يرمي حقيقة الى حل الخلاف القائم بيننا وبين الافرنسيين وتمثيل سورية تمثيلا لائقا في احدى عواصم اوروبا الكبرى ، فاني اقبل مبدئيا على شرط ان يكون امر توجيه المفاوضات وعقد الاتفاق والامتناع عنه منوطا برأيي لا برأي وزير المالية او رئيس الوزراء . اذ اني اعتقد اني اقدر منهما على معالجة الموقف والبت فيه سلبا او ايجابا » .

وابدى المرحوم البرازي ارتيـاحه لحديثي ورغبته في ان اجتمع مع الرئيس لانجـاز الامر . فاستدعاني الرئيس بعد عودة البرازي اليه ، فأوضحنا جميع النقاط واعلمته بمواقفي النهائية .

وتاخر وصول موافقة الحكومة الافرنسية على ترشيحي حتى اواخر شهر ايار . وعند تبليغه الى وزير الخارجية صدر مرسوم بتسميتي وزيرا مفوضا في باريس وبروكسل وبرن . ثم باشرت بالاستعداد للسفر وبارحت بيروت على ظهر الباخرة بروفيدانس ، مساء يوم الثلاثين من شهر ايار ١٩٤٧ ، مستصحبا معي عائلتي وصناديق عديدة مملوءة بالسجاد وبعض الاثاث الذي اخترت اخذه لفرش دار المفوضية التي علمت بأنها تكاد تكون خالية .

سفري الى باريز بحـرا بطـريق الاسكـندرية

وبوصولنا الى الاسكندرية ركب معنا على الباخرة الامير محمد علي توفيق . فطلبت منه بعد اقلاع الباخرة تحديد موعد لمقابلته وتقديم التحية له ، باعتباره وليا للعهد بالمملكة المصرية الشقيقة . واجتمعت اليه في اليوم التالي في البهو الكبير ما يقرب الساعة دون ان تترك المحادثة معه اثرا طيبا في نفسي ، لما لمسته من فقدان المزايا التي يجب ان يتصف بها رجل دولة مدعو لتسلم اكبر مقام في الدول العربية . وقلت بنفسي : ما اتعس مصر حين يتسنم اريكة عرشها رجل اقرب الى الهبل والخرف منه الى الاتزان والرشاد ، اذا ما هي تخلصت من مليكها الحالي فاروق المشـهور بالفساد والانحطاط الخلقي والتمادي في السلوك السـيء . وفكرت فيما تؤول اليه الجامعة العربية اذا ما تربع على اريكة مصر امير كهذا الامير ، معروف باتصاله الوثيق ببريطانيا العظمى . وتوضحت بخاطري المزية الوحيدة التي يتصف بها الملك فاروق ، وهي تمسكه بالجامعة العربية ومؤازرته لها ، معارضا بذلك رأي البارزين من وزرائه ، وفارضا عليهم ارادته العليا لسلوك خطة متماثلة مع سائر الدول العربية . وقد صح ظني عندما ارغم الملك فاروق حكومة النقراشي على الاشتراك مع الدول العربية في محاربة اليهود بفلسطين .

وصلت باخرتنا الى مرسيليا صباح الجمعـة في ٦ حزيران ، فعلمنا ان عمال السكـك الحديدية مضربون عن العمل ، واننـا مضطرون للانتظار بمرسيليا حتى تعود القطارات للسير . وكـان هذا الاضراب اول ما شاهدته بفرانسا من الاضرابات التي تعددت في المستقبل .

ومكثت منتظرا يومين دون ان ينتهي الاضـــراب . وعند ذلك اصررت على السفر بسيارتي التي كنت اخذتها معي . ووصلنا مساء اليوم العاشر من ذلك الشهر الى باريز .

وبعد يومين من وصولي زرت مسيو بيدو ، وزير الخارجية ، وقدمت له صورة عن كتاب اعتمادي . ثم حدد لي موعد تقديمه الى رئيس الجمهورية في اليوم السابع عشر من حزيران .

تقديم اوراق اعتمادي في باريز وبروكسل وبرن

اما مراسم تقديم كتاب الاعتماد فكانت بسيطة للغاية . فقد حضر الى المفوضية مدير المراسم في وزارة الخارجية فركبت معـــه السيارة المرسلة من قصر الرئاسة ، وركب موظفو المفوضية السيارة الثانية . وسار امامنا اربعة من الحرس على الدراجات النارية . وعندما وصلنا الى قصر الاليزه ، عزفت الموسيقى النشيد الافرنسي، ومررت امام مفرزة من الحراس ، ثم دخلنا القصر وتوجهنا توا الى احد الابهاء ، حيث كان رئيس الجمهورية واقفا والى جانبه موظفو الرئاسة . وكان الرئيس يرتدي بدلة سوداء عادية ، وفوقها الرداء الرسمي المعروف باسم « جاكت آتاي » . ولفت نظـــري ان احد الموظفين الواقفين الى جانب الرئيس كان يرتدي بدلة عادية ، لونها اصفر . ولم يكن وزير الخارجية حاضرا هـــذه المقابلة . فقدمت للرئيس موظفي المفوضية وقدم لي بدوره موظفيه . ثم ناولته الظرف الحاوي على كتاب الاعتماد ، فسلمه لمدير مكتبه وكان ابن الرئيس نفسه . فصافحني مسيو اوريول وحادثني حديثا وديا مختصرا . فاجبته بما يناسب المقام . ثم مد يده مصافحا ومودعا . وخرجنـــا من البهو عائدين بالاسلوب نفسه الـــى المفوضية . وفي الطريق سالت مدير المراسم عن سبب غياب وزير الخارجية ، فاجاب بأن البروتوكول عندهم يقضي بوجود الوزير عنـــد استقبال السفراء فقط . اما عن اللباس العادي الذي كان يرتديه الرئيس وموظفوه، فقد فسره رئيس المراسم بعـــزوف رجال الحكومة في باريز عـــن ارتداء الملابس الرسمية وميلهم الى التخلص منها .

وفي الايام التالية قمت بالزيارات التقليدية للامين العام لوزارة الخارجية ، مسيو شوفل ، ولرئيس المراسم ، ولبعض السفـــراء والوزراء المفوضين الاجانب ، وتركت لبعضهم بطاقتي . وقد زارني على حسب التقليد العربي سفير مصر السيد احمد ثروت بك ، ووزير العراق السيد تحسين قدري ، ووزير لبنان السيد احمـــد الداعوق . وكانت تـــربطني بالآخرين صداقة قـــديمة ، فسررنا

بالاجتماع سوية في باريز .

وبعد مدة سافرت الى بروكسل لتقديم اوراق اعتمادي وزيرا مفوضا . فاستقبلني الامير شارل ، الوصي على العرش ، ببساطة مماثلة لما شاهدته في باريز . ثم اجتمعت مع مسيو سباك ، وزير الخارجية ، وتابعت طوافي في العواصم الاوروبية حيث قدمت الى رئيس الاتحاد السويسري كتاب اعتمادي وزيرا مفوضا في برن . وكان قصر الرئيس واسعا ، فسرنا في ابهاء عديدة ثم صعدنا على درج طويل . وعندما وصلت الى البهو الذي كان الرئيس ينتظرنا فيه ، كنت متعبا بسبب المرض الذي اشكو منه ، وهو تقلص شرايين رجلي وانحباس الدم عنهما ، بحيث يضطرني الحال الى التوقف المرة تلو المرة للاستراحة . ودخلت على الرئيس لاهثا وقدمت له كتاب الاعتماد . وبدأ يطرح علي الاسئلة المتعددة عن حالة بلادنا والعلاقات الاقتصادية التي يمكن تمتينها بين البلدين . وكنت اجيبه في اول الامر واللهثة تقطع الجمل الجوابية . وعندما رايت ان الرئيس يرغب في اطالة الحديث ، اوضحت له ما اشكو منه ، مما لا يسمح لي بالوقوف مدة طويلة واستأذنته في الجلوس . فاعتذر عما ظهر منه من ارغامي على ما يزعجني ، بسبب عدم اطلاعه على حالتي الصحية . ثم جلس ودعاني للجلوس الى جانبه، فشكرته وقلت له مازحا : « خذ الآن محاضرة عن سورية على قدر ما تستطيع ان تتحمله اذناك . » فضحك وابدى تلهفه للوقوف على ما يتعلق بسورية وبعلاقاتها مع سويسرا . واستمرت هذه المقابلة ما يقرب الساعة ، كان الرئيس يصغي فيها باهتمام ، وانا ، بعد ان استويت على مقعد وثير وهدأ تقلص شراييني ، اتحفه باروع الصور عن بلادنا وتقدمها ومستقبلها الزاهر . وانتهزت استعداد الرئيس للاستماع فبدأت بتجربة التكلم طويلا ، وهي الصفة المطلوبة في الممثلين السياسيين عندما لا يكون بين المخاطبين ما يخشى من التورط فيه من الابحاث الدقيقة .

وبهذه المناسبة يخطر في بالي ما قراته في مذكرات احد السفراء الافرنسيين ، اذ يقول فيها انه عندما تقدم للفحص في مسابقة الانتساب للسلك السياسي ، طرح عليه سؤال لم يكن واقفا على جوابه تماما . فانبرى للكلام مطولا دون ان يمس الموضوع . بل اطال التحدث من امور اخرى ما يقرب العشرين دقيقة . وعندما انتهى،شكره رئيس اللجنة الفاحصة، ثم قال لزميله : « اني ساعطيه

العلامة الكاملة . » فعجب زميله وقال له : « ولكنه لم يجب على السؤال مطلقا وتحدث عن كل شيء ما عدا ما طلب منه . » فأجاب الرئيس : « هذا هو ما يدعوني لاعطائه العلامة الكاملة . » فازداد عجب العضو ، فاوضح له الرئيس ان في مقدمة ما يجب ان يتميز به الموظف في السلك الخارجي ان يتكلم مطولا فيما لا يعلمه وان يتجنب مس النقطة الدقيقة المحرجة . وهذه نكتة حلوة تمثل بوضوح ما يجدر بالدبلوماسيين اللجوء اليه في الاحوال التي تتطلب تجنب الجواب القاطع ، سلبا او ايجابا ، وعدم الافصاح عما في ضميرهم . اما اعتصامهم بالصمت امام السؤال المحرج ، او تحججهم بعدم تلقيهم التعليمات من حكوماتهم ، فهو اضعف الايمان واسهل السبل . ولكنه غير مقبول على الاكثر .

ولم يكن آنئذ دار للمفوضية في برن ، وانما كان القائم بالاعمال السيد عمر الجابري مقيما في فندق « بلفو » ، جاعلا احدى غرفه مركزا لاعماله . وكذلك كان الحال في بروكسل ، اذ كان القائم بالاعمال مقيما في فندق بلاتسا . وقد عملت على نقل هاتين المفوضيتين الى دارين استؤجرتا في كل من العاصمتين . اما دار المفوضية في باريز ، فقد كان استاجرها مع اثاثها سلفي السيد عدنان الاتاسي . وهي كائنة في احد احياء باريس الجميلة المطلة على غابة بولونيا . لكنها ، مع زخرف ابهائها ، لا تصلح لسكن الوزير ولاعمال المفوضية والقنصلية معا ، فضلا عن ان الاثاث كان في حالة مزرية ، مما اضطرني الى فرش السجاد الذي احضرته معي من دمشق في ابهائها ، وشراء المقاعد الاثرية من مالي الخاص لكي تصبح الدار لائقة بحفلات الاستقبال .

بقيت في هذه الوظيفة ثمانية عشر شهرا على الضبط . فقد وصلت باريس في العاشر من شهر حزيران ١٩٤٧ ، وبارحتها نهائيا في العاشر من شهر كانون الاول ١٩٤٨ . وفي هذه المدة عالجت شؤونا عدة اذكر منها على سبيل التعداد ، لا على سبيل الحصر ، الامور التالية :

١ ــ الخلاف بين سورية وفرانسا بشان ضمان قيمة النقد السوري .

٢ ــ شراء الاسلحة للجيش السوري .

٣ ــ المدارس الافرنسية بسورية .

٤ ــ شؤون الرعايا السوريين وبصورة خاصة الطلاب .
٥ ــ تدارك المعالجات الواقية للهيضة عند استفحال خطرها عام ١٩٤٨ .
٦ ــ قضية فلسطين .

الخلاف بين سورية وفرنسا حول ضمان النقد

وقد اوضحت في الجزء الثالث من هذه المذكرات جميع ما له صلة بالخلاف القائم بيننا وبين الحكومة الافرنسية بسبب تراجعها عن تنفيذ الاتفاق المعقود مع الجنرال كاترو بشأن ضمان قيمة النقد السوري عند تنزيل قيمة الفرنك الفرنسي . وقد بدأت المفاوضات الثلاثية بين ممثلي سورية ولبنان وفرانسا في اول تشرين الاول ١٩٤٧ ، وانتهت بموافقة الممثل اللبناني على المشروع المقدم من قبل الجانب الافرنسي ورفضي الاشتراك معه في ذلك . ثم عادت المباحثات بصورة غير رسمية في شهر تشرين الاول من العام اللاحق وانتهت الى وضع مشروع جديد يختلف كل الاختلاف عن المشروع السابق . فاتفقت مع السيد حسن جبارة على قبوله ، فتم التوقيع عليه بدمشق في ٧ شباط ١٩٤٩ . ثم ابرم بمرسوم تشريعي اصدره حسني الزعيم بعد انقلاب ٣٠ اذار واصبح مرعي الاجراء منذ ذلك الحين .

وعندما تأزمت المباحثات بيني وبين الافرنسيين لدرجة ادت الى انقطاعها بيننا ، وجدت نفسي في مركز حرج تجاه وزارة الخارجية الافرنسية ، اذ ان الصلات بيننا كان يشوبها شيء من التنافر لا سيما بعد صدور تصريحي لمراسل جريدة الاهرام المصرية بانني لا اريد لبلادي انتدابا اقتصاديا يحل محل الانتداب السياسي الذي قضيت في محاربته ربع قرن . وكنت اعني بالانتداب الاقتصادي ، الاتفاق المالي الذي رفضته وقبله مندوب لبنان . وقد ترك هذا التصريح اسوأ الاثر لدى وزارة الخارجية وموظفيها . لكنه ، من حيث قصدي افهام الافرنسيين بصورة قاطعة باننا لا يمكن ان نقبل مشروعا متناقضا مع مصالحنا الحيوية ، فقد كان لهذا التصريح النتيجة المطلوبة . اذ ان الامر انتهى الى ما يتوافق مع مصلحتنا بتراجع الافرنسيين عن اصرارهم وتمسكهم اللذين مهد لهما السبيل موقف ممثل لبنان الرخو .

وباتت علاقاتي مع وزارة الخارجية الافرنسية على هذا النحو جامدة مدة شهر تقريبا ، الى ان عادت الى مجراها الطبيعي، بفضل مسيو بونو ، مدير شؤون الشرق الادنى ، الذي توطدت

بيني وبينه صلات حسنة ازالت رويدا رويدا هذا الجفاء والتباعد .

ولي على هذه المحادثة تعليقان : الاول ان الاجانب لا يقدرون الا الرجال الذين يحترمون انفسهم ويظهرون من التمسك بمصالح بلدهم والترفع والاعتداد ما ينحنون امامه احتراما . امـــا الذين يرتضون الذلة والمسكنة فيطلون عليهم ويهزاون بهم ولا يحققون لهم طلبا . وبقدر مـــا يبدو من السوري اعتزاز بقوميته ، فهو يفرض على الاجنبي احترامه ويكتسب تقديره واجلاله . واذكـــر لهذه المناسبة حادثا ــ ولو كان غير ذي علاقة بموضوع الاتفاق المالي ــ حصل بيني وبين وزير بلجيكا المفوض بدمشق في ١٩٥٠ ، ارويه على سبيل المثال . فقد كانت الحكومة طلبت مرارا من شركة الكهرباء بدمشق ، وهي شركة بلجيكية ، ان تزيد في توليد الكهرباء بمـــا يتناسب مع الاستهلاك المحلي . لكنها لم تصل الى نتيجة . فقرر مجلس الوزراء ، بناء على اقتراح وزيـــــر الاشغال السيد محمد المبارك ، توجيه انذار للشركة المذكورة ، معتبرة تقاعسها عـــن تحسين وضعها سببا لفسخ الامتياز الذي تتمتع به . وكان عقد تجديد ذلك الامتياز المبرم زمن الانتداب يقضي بأن يكون الاتصال بين الحكومة والشركة عن طريق اعلى سلطة سورية . ولذلك اشار علينا الخبراء القانونيون بأن يكون الانـــــذار موجها بتوقيع رئيس الجمهورية ، باعتباره اعلى سلطة في البلاد ، حتى لا يتيسر للشركة الادعاء بأن الانذار غير قانوني اذا لم يكن بتوقيع الرئيس . ولذلك اضطررنا الى ارسال الانذار على هذا الوجه .

وبعد اسبوع ، طلب وزير بلجيكا المفوض مقابلتـــي بوزارة الخارجية ، فاستقبلته . وبدأ بالتحدث عن وضع شـــركة الكهرباء المالي ، فقال بأن تأخرها عن زيادة القوة الكهربائية ناشيء عن رفض وزارة الاشغال العامة النزول عند طلباتهـــا المكررة بزيادة اسعار الكهرباء . فأجبته بأن الاسعار لا يمكن ان تعدل ما لم تثبت الشركة خسارتها ، بعد ان تكون قد قامت بما يترتب عليها من تأمين القوة الكهربائية وتوزيعها على المستهلكين بحسب حاجتهم . وكنت بحديثي معه اراعي اصول مخاطبة ممثلي الدول الاجنبية باللطـــف والانس . لكنه ظن ان ليونة حديثي تسمح لـــــه بالتشدد وسلوك سبيل الهزل والتجريح . فقال لـــي فجاة : « الاهبل الذي ارسل للشركة الانذار لم يكن مطلعا على نصوص الامتياز » . ولم يكن قد اتم الجملة بعد ، حتى انتصبت واقفا امامه والانفعال الزائد ظاهر

على ملامح وجهي . فقلت له : « يا حضرة الوزير ، انـي امهلك دقيقة واحدة لسحب كلامك والاعتذار عما بدا منـك تجاه رئيس جمهوريتنا ، او تخرج فورا من هذه القاعة . » فوجم الوزير من هذه المفاجاة وارتخت يداه وتدلتا على جانبي مقعده . وفغـر فاه وجحظت عيناه وتلعثم قائلا : « لم اقصد اهانة رئيس الجمهورية مطلقا . » وتمتم عبارات اعتذار واسف على ما احتواه حديثه من عبارة لم يقصد بها إهانة رئيس الدولة . فهو لم يذكره ولم يخطر في باله التعرض له . فأجبته : « ان صاحب التوقيع على الانذار هو رئيس الجمهورية . فاما انك لم تره ، وهذا دليل على اطلاعك السطحي على الانذار ، واما انك عالم بمـن وقعه وهـذه قحة لا توصف . » واشرت بيدي الى الباب ، فوقف الوزير وبدأ ينحني امامي عدة مرات كأنه دمية . وامتقع لون وجهه واخذ لسانه يعيد كلمات الاعتذار : « آسف ... ارجو غض النظر . » الى آخر ما هنالك من هذه العبارات .

واشفقت على الوزير ، اذ ايقنت انه لم يدر بخلده ان رئيس الجمهورية يوجه بتوقيعه انذارا الى الشركة . ولم تجر العادة على ذلك في اية دولة . لكنه مؤاخذ على كل حال على استعماله لفظا غير مهذب تجاه موظف سوري ، كبيرا كان أم صغيرا . وقلت لنفسي : « لقد كسبنا المعركة مع شركة الكهرباء بعد هـذا الحادث الذي سيخرج الوزير على اثره يلعن الشركة على ما حصل معه بسببها ، ولا يعود يتدخل في شؤونها . »

وعندما تأكد لي ان الدرس كان كافيا ، قلت للوزير : « اقبل اعتذارك واعدك بعدم نقل ما جرى الى حكومتك . لكني انصحك بأن لا تحتقر بعد الآن احدا من اهالي البلد الذي تمثل فيه بلدك . »

فسارع الوزير الى ترديد عبارات الشكر والاسف والاعتذار ، المتداخل بعضها ببعض ، واتحفني بسيل جارف منها لم استطع ايقافه الا بسيكارة وفنجان من القهوة ، اذ امرت له بهما اشغالا لفمه . فانقطع السيل ولم يبق منه الا عبارات تقطعها شفة مـن القهوة ونفخة من دخان السيكارة .

واما التعليق الثاني فهو انه يجـدر بالحكومة ان لا تنيط بسفيرها او وزيرها المفوض لدى دولة اخرى قضية تحتاج معالجتها الى استعمال التشدد المطلق والتهديد والوعيد وقطع المباحثات . اذ ان مهمة المبعوث السياسي تقضي بأن يعمل على رتق الفروق

وتسوية المشاكل بالحسنى وتمهيد السبـــل بالوسائل السلمية والكلام المعسول لتوطيد العلاقات الطيبة بين البلدين . فاذا مــا اضطر الى اتخاذ موقف قاس واستعمال لهجة غير ودية في حديثه فهو يقضي بذلك على العلاقات الودية التي لا بد من وجودها بينه وبين القائمين على وزارة الخارجية . ولا اعني بذلك انه مضطر الى التنازل عن حقوق بلاده ، لكني اعني ان موقفه المتصلب ولجوءه الى التهديد او قطع المفاوضات يتنافى مــــع مقتضيات وظيفته الاصلية وهي ملاحقة مواضيع اخرى متصلة بها مباشرة . وكيف يتأتى لسفير ان يقصد وزارة الخارجية متابعا قضية ما ، بعد ان يكون في اليوم السابق تناقش مع الجانب المفاوض الآخر وحصل بينهما خلاف ادى الى الحدة والانسحاب من الجلسة ، مثلا .

هذه الاسباب جديرة بحمل الحكومات على انتداب شخصية اخرى للمفاوضة في الامــــور الشائكة ، تاركة لممثلـــها السياسي مساعدته في العمل على تقريب وجهات النظر والحيلولة دون توقف المباحثات وذلــك بمساعيه الشخصية لــــدى الوزراء والنواب واصحاب الجرائد وغيرهم من ذوي النفوذ . على انني ، بمخالفتي لهذه النظرية عند قبولي تمثيل بلادي في تلك المفاوضات واشتراطي حرية التصرف بها ، آثرت مغبات الوضع . اذ انني ما كنت عازما على البقاء في فرانسا اكثر مما تتطلبه المباحثات من وقت . ثم لم يكن بيننا وبين الافرنسيين من الامور الاخرى ما يوجب التساهل من اجله . واحمد الله ان الابحاث بشأن الخلاف المالي لم تجر في وقت كنا بحاجة الى مسايرة الافرنسيين به ، كشراء الاسلحة مثلا.

قضية شــــراء الاسلحة للجيش السـوري

اخذ شراء الاسلحة للجيش السوري من وقتي اكثره ، ومن جهدي اكبره . الا انني لا اسمح لنفسي بايراد كل ما له علاقة بهذا الموضوع ، حفظا على سرية بعض الشؤون المتعلقة بمصلحة بلدنا الاساسية ، كي لا يفيد منها اعداؤنا اليهود . ولذلك فانني اقتصر على ما لا ضرر من ذكره .

لم تكن الدول قد اتفقت بعد على منع بيــع السلاح للبلدان العربية عندما وصل الى باريز احد الضباط من الجيش السوري ليساعدني بخبرته في السلاح . فبدأنا نتصل بالحكومة الافرنسية لتوافق على تعاقدنا مع احد المعامل . وسرنا شوطا كبيرا في البحث مع احدها ، حينما تلقيت من وزارة الدفاع بدمشـــق برقية بابلاغ

ذلك المعمل وجوب تعيين ممثل سوري له بدمشق . فادركت ان القصد من ذلك هو ان يتناول احد المقربين عمولة على الصفقة . فاجبت ببرقية مستعجلة اوضحت فيها ان تنفيـــذ تعليمات وزارة الدفاع يكلفها ما يقرب من مليون ليرة سورية ، لان صاحب المعمل سيضطر الى اضافتها الى اسعاره كعمولة للممثل المطلوب . وقلت فيها اني لا اوافق على هذا الاسلوب . فاذا اصرت وزارة الدفاع عليه ، فاني انفض يدي من المباحثات مع المعمل ولترسل الوزارة من يتعاطى هذه الصفقة مباشرة كوسيط بينها وبين المعمل .

وفي اليوم التالي وردني الجواب برقيا بتوقيع السيد احمد الشرباتي وزير الدفاع بأن لا اعتبر ما جاء في البرقية السابقة وبأن انجز الصفقة من قبلي بدون وسيط .

وقد علمت ، فيما بعد ، ان التاجر الحمصي الذي طمع بوكالة معمل الاسلحة ليجني منها ارباحا طائلة ، انتهز فرصة غياب السيد الشرباتي ووجود السيد جميل مردم وكيلا عنه وطلب منه ان يرسل البرقية الاولى تمهيدا لقنص الوكالة . وكان السيد الشرباتي قد عاد لعمله عند وصول برقيتي ، فساءه هذا التصرف وابرق لي بالغاء ما جاء في البرقية الاولى ، كما ذكر اعلاه .

وهذه الحادثة كانت الاولى في مجموعة الحوادث التي اطلعت عليها في ذلك الوقت ، وكانت برهانا على الجشع الدنيء الذي بدا من بعض الاشخاص لانتهـــاز فرصة الحرب بفلسطين في سبيل ملء جيوبهم بالمال ، سواء بالطريق المستقيم او بالتلاعب والمداورات وتقديم الاسلحة الفاسدة ، بينما كان افراد الجيـــش السوري والمتطوعون يفدون حياتهم رخيصة في الدفاع عن كيان العرب .

وبعد استلامي برقية وزير الدفاع الاخيرة ، تابعت الاتصال مع المعمل بمعاونة بعض الضباط السوريين الموفدين لهذه الغاية ، الى ان تم الاتفاق ولم يبق غير التوقيع عليه . وعندئذ فوجئنا بزيارة المهندس الذي كلفه المعمل بانجاز مشـــروع الاتفاق . فاخبرنا بأن ثمة عقبة نشأت ، وبأن توقيع العقد سيتأخر برهة من الزمن . ولم تثمر محاولاتي لمعرفة سبب هذا التأخير . فتركته وتوجهت فورا الى وزارة الخارجية ووزارة الدفاع الوطني وغيرهما مـــن الدوائر ذات العلاقة ، ففهمت بطريق غير رسمية وسرية ان ازمة كانت تحصل بالامس . اذ طلب وزيران في مجلس الوزراء من وزيري

الخارجية والدفاع اعطاء بيان عن صفقة الاسلحة التي بلغهما بانها توشك ان تعقد بين سورية واحد المعامل الافرنسية . فأكد وزيرا الخارجية والدفاع صحة النبأ . فحصلت بين الوزراء الاربعة مشادة عنيفة . وهدد الوزيران المستوضحان ، وهما يهوديان ، بالاستقالة فورا اذا ابرم العقد . وقــد خشي رئيس الوزراء ان تؤدي هذه الاستقالة الى انسحاب الحزب الاشتراكي من الحكم ، فلا يعود ثمة مناص من استقالة الوزارة كلها لانها كانت مؤلفة من ممثلي حزبين ، احدهما الاشتراكي . وبما انه كان من الصعب تأليف وزارة من حزب واحد ، اضطر الرئيس الى اعلان ايقاف التوقيع على هذا العقد .

الاصابع اليهودية فــي مرقلــة صفقة الاسلحة

وبعد اطلاعي على ما جرى طلبت مقابلة وزير الخارجية وابنت له الاثر السيىء الذي ستشعر به الحكومة السورية من جراء تأخير ابرام العقد وتنبيذه . وقلت له ان مهمتي في باريز سوف تكون صعبة جدا بعد فشل المباحثات بشأن ضمان النقد وعدم التوقيع على صفقة الاسلحة . فاعترف الوزير بعجزه عن تنفيذ رغبته في تقديم المساعدة الى سورية في الوقت الحاضر ، واشار تلميحا الى ان زميليه اليهوديين هما المسؤولان عما جرى .

ثم طيب خاطري فوعدني ببذل جهوده في المستقبل للتعويض عن تلك الصفقة ، وطلب مني التريث والانتظار . وكذلك كان موقف وزير الدفاع الوطني الذي كان ، وزميله مسيو بيدو ، من انصار بذل المساعدة لسورية .

ولم تثمر جهودي المتواصلة بشأن هــذه الصفقة ، الا قبيل عودتي الى دمشق . اذ ابلغتني وزارة الخارجية استعداد الحكومة الافرنسية لعقد صفقة جديدة . وقد تمت هذه الصفقة بعد وصولي الى دمشق واستلامي وزارة الدفاع الوطني في الحكومة التي الفتها باواخر كانون الاول ١٩٤٨ . ووصلت الاسلحة والمعدات الى بيروت ، بحماية بارجة افرنسية حربية ، تحسبا من اية محاولة اسرائيلية للاستيلاء عليها .

وكانت هذه الصفقة اولى الصفقات التي عقدتها الحكومة السورية مع المعمل الافرنسي . ثم تبعتها صفقات متعددة جعلت الجيش السوري حائزا على المناعة التي يتمتع بها الآن .

وبعد ان امتنع علينا شراء الاسلحة من الحكومة الافرنسية ،

لم يبق امامنا سوى السوق السوداء . فبدانا نطرق ابوابا عديدة في بلجيكا وسويسرا واسبانيا . وكان ياتي الوسطاء ، منهم المحتال الذي كان يطمع بقبض مبلغ من المال ثم يختفي ، ومنهم من كان ذا نية طيبة ولكنه كان يصطدم بعقبات يثيرها في وجهه الجواسيس اليهود . فقد كانت اوروبا خلال حرب فلسطين مليئة باولئك الجواسيس والسعاة اليهود الذين يترصدون الموظفين السوريين المكلفين بشراء الاسلحة ويتابعون خطاهم ويعملون بجميع الوسائل لاحباط مساعيهم . والمؤسف ان الاوساط الاجنبية كلها كانت تخشى باس اليهود وتراعي خاطرهم ، لا سيما بعد ان قررت الدول حظر السلاح على المتحاربين . فنفذ هذا القرار ضدنا ، لكن اليهود استفادوا من عطف بعض الامريكيين عليهم ومن مسايرة البعض الآخر ، استجلابا لتاييدهم في معركة انتخاب رئاسة الجمهورية في الولايات المتحدة التي فاز بها مستر ترومان . واستطاعوا بما لديهم من سلطة ونفوذ في الدول الكبيرة من شراء اسلحة وفيرة نقلوها الى فلسطين وحاربوا بها العرب حربا غير متكافئة بالمعدات .

وكم مرة سافرت الى بروكسل وبرن ومدريد ولندن ، جاهدا في سبيل الحصول على الاسلحة . لكنني كنت اجد الابواب موصدة في وجهي اينما كان .

ولم يكن الفشل نصيبي وحدي في هذه التشبثات . فقد اصطدم جميع الموفدين السوريين الى مختلف الدول ايضا بعقبات لم يكتب لهم التغلب عليها . حتى ان الصفقة الوحيدة التي توصل العقيد فوزي سلو الى شرائها من تشيكوسلفاكيا وشحنها ، لم تكد تصل الى بريطانيا حتى انفجرت الباخرة التي كانت تحمل هذه الاسلحة والمعدات ، فضاعت الآمال المعلقة على وصولها الى سورية .

والحقيقة التي لا مراء فيها هي ان جميع الحكومات المتعاقبة ، لا سيما وزارة الدفاع الوطني ، مسؤولة عن عدم الاقدام على شراء الاسلحة قبل تازم القضية الفلسطينية ووقوع الحرب . فقد كانت الابواب قبل ذلك مفتوحة لتدارك الاسلحة دون رقيب او حسيب . فان لم يكن من بلاد الانكليز الذين كانوا دائما يمنعون بيع الاسلحة حتى للشرطة والدرك ، فمن بلاد محايدة اخرى كسويسرا والسويد وايطاليا ، حيث المعامل عديدة والمعدات جيدة وحديثة .

ولم نشعر بهذا النقص الا بعد ولوج با ب الحرب مع اليهود .

فبدات الحكومات العربية كلها ترسل البعثة تلو البعثة الى الديار الاجنبية سعيا وراء السلاح . لكن اليهود كانوا للمبعوثين بالمرصاد ، يتابعون رحلاتهم ويطلعون على حركاتهم فيقيمون العثرات في سبيلهم ، سوى بالتاثير على الحكومات او على المعامل راسا واغرائها بثمن اغلى او بتهديدها او بما هو ادهى وامر . وذلك بانهم كانوا في كثير من الحالات يرسلون وسيطا للاتصال بالمندوبين العرب . فيتعاقد معهم على صفقة من الاسلحة او العتاد ثم يسلمها لهم ، فيظهر عند التجربة فساد تلك المواد وعدم امكان استعمالها ، كما حصل في مصر وسورية .

وهكذا كتب على البلاد العربية الانحدار امام اليهود والخسارة الكبيرة في الارواح الطاهرة التي تقدمت الى الحرب والدفاع عن الوطن وضحت بنفسها في هذا السبيل الشريف المجيد . وكذلك كانت الخسارة عظيمة بضياع ذلك الجزء الغالي من بلاد العرب المسمى بفلسطين ، وارتكاز دولة اسرائيل فيه ، وتهديد مستقبل سائر الدول العربية في كيانها السياسي والاقتصادي .

البعثات العربية في الخارج وضرورة تعزيزها بالكفاءات والمعلومات

وكنت منذ وصولي الى باريز في جهل تام بما يدور في بلادنا من الابحاث والمساعي حول القضية الفلسطينية . وكانت وزارة خارجيتنا تبخل علينا بما يجب عليها من اطلاع ممثلي سورية في البلاد الاجنبية من انباء صحيحة واتجاهات وقرارات . وكانت المصادر التي نستقي منها الاخبار مقتصرة على الجرائد السورية التي تصلنا بالبريد العادي ، اي بعد صدورها بخمسة عشر يوما . اذ كانت الخارجية تضن على المفوضيات السورية حتى باجر البريد الجوي . ولم يصلح الحال الا بعد استلامي وزارة الخارجية . فصرت ابعث الى كل مفوضية توجيهات مكتوبة واضحة ، وامدها بالاخبار ، سواء بالبرقيات العاجلة او بالكتب الجوية . ثم اكملت الوزارة هذا النقص باطلاع الوزراء المفوضين على ما يدور في البلاد الاجنبية . فاحدثت نشرة دورية تحوي التقارير التي يرسلها الوزراء المفوضون السوريون في العواصم، وخلاصة ما تنشره الصحف السورية والاجنبية.

وهكذا اجتمعت جامعة الدول العربية بمجلسها ولجنتها السياسية مرات عديدة في القاهرة وعاليه . وعقدت بين ملوك العرب ورؤسائها مؤتمرات خطيرة ، وجرت بين الحكومات العربية مباحثات كثيرة قبل دخول الجيوش الى فلسطين وسائر الاقطار

العربية . كما جرت اتصالات ذات شأن بممثلي الدول الاجنبية في دمشق وسائر العواصم الشقيقة . وقد جرى كل ذلك دون ان يجد وزير خارجيتنا ضرورة تبليغ المبعوثين السياسيين شيئا من تلك الاتجاهات او القرارات ، او حاجة الى استطلاع آرائهم ومعرفة موقف الحكومات الاجنبية تجاه اي تدبير او خطة .

ولست اقصد بقولي هذا ان للوزراء المفوضين الحق بايحاء الخطة التي يجب على وزارة الخارجية سلوكها . فالحكومة باعتبارها المسؤولة تجاه البرلمان والامة والتاريخ ، ذات حق في انتهاج الخطة التي تعتقد صلاحها . لكنني ارمي الى اثبات ضرورة استشارة الشخصيات المنتدبة الى العواصم ، واخذ رايها ومعرفة استطلاعاتها لدى الاوساط الاجنبية . فيستنير وزير الخارجية ثم يطلع زملاءه الوزراء على مجموعة تلك الآراء والاخبار قبل البت في اي موضوع .

ووزارة الخارجية عائلة مؤلفة من عدد من السفراء والوزراء المفوضين ، ومن مديري الشعب ، يراسها وزير الخارجية . وما تبادل الراي مع افراد اسرته والتشاور معهم قبل الاقدام على اية خطوة أساسية واطلاعهم على الحوادث ، الا ليقوم كل منهم بما يترتب عليه ، وهو مطلع تمام الاطلاع على ماجرى وسيجري .

وليست وزارة الخارجية كوزارة الدفاع التي تصدر الى القواد اوامرها برسم التنفيذ ، فيطيعون على العمياء . لكنها تشبه هيئة الاركان العامة التي تجتمع تحت رئاسة القائد العام ، فيتناقش اعضاؤها الخطط المقترحة ، ثم يتقرر احداها ، فتصدر الاوامر الى الجيوش بتنفيذها .

ولو كان الغرض من احداث التمثيل السياسي هو ابلاغ الحكومة ذات العلاقة امرا ما او مطالبتها بشيء ما ، لكانت اكتفت وزارة الخارجية بابلاغ السفير الاجنبي رغبتها ، فينقلها بدوره لحكومته . ولكن القصد من احداث السفارات او المفوضيات هو مواصلة الجهود للوصول الى تحقيق امر ما في العاصمة الاجنبية ليس لدى وزارة الخارجية فحسب ، بل ايضا لدى سائر الوزارات والدوائر ، بخلق الجو المناسب في ذلك المحيط . لذلك فان مهمة السفير لا تقتصر على الاتصال بوزارة الخارجية فحسب ، بل ايضا بجميع تلك الاوساط ، وبصورة خاصة ، بأرباب الصحف والمحررين والمخبرين وبرجال الاحزاب ، النواب منهم وغير النواب ، وبرجال المال الذين ما برحت تداخلاتهم ذات اثر كبير في كثير من الشؤون .

وثمة اصدقاء لاولئك الوزراء والنواب والصحفيين يجب الالحاح على التعرف اليهم وكسب ودهم وتأييدهم .

وبقدر ما يستطيع السفير اكتساب صداقة اولئك الناس ، وبقدر ما يكثر من الاختلاط مع البيئة الناشطة ، سواء بالولائم التي يقيمها لهم افرادا وجماعات — وما اكثر الجماعات الذين يستدرون الدعوات للسفارات، ويتباهون بها — او بحضور الحفلات التي يقيمونها ، وبقدر ما مكون يده مبسوطة في المنح والهدايا ، وبقدر ما يحيط نفسه بهالة من الترفع والاتزان ، فهو يفرض احترامه على الجميع ويضمن النجاح لمهمته .

ولكنه ، على اي حال ، لا يبلغ اربه ولا ينجح في بث الدعاية لبلده وشؤونها وافهام تلك الاوساط اهداف حكومته واتجاهاتها ، اذا كانت محفظته خالية من المال . فكيف لي الوصول الى ما اريده وحكومتي تبخل على بالثمن ؟ فلا توجيه ولا اخبار كانت تصلني من دمشق ، لما يجب نشره في الاوساط . ولا مال منها يدعم هذا النشر .

وكانت الحكومة تبخل بالاعتمادات المالية التي يجب ان تفتحها لي للانفاق في هذا السبيل ، بينما كانت المنظمات اليهودية تنفق بدون حساب لتشتري تأييد الصحف الباريزية وتتكلف من جراء ذلك مبالغ طائلة . ذلك لان الافرنسيين باكثريتهم يضمرون البغض لليهود ، فلا يقدم صحفي علىّ تأييدهم الا بأجر كبير .

وقد ارسلت لدمشق عدة تقارير ، راجيا وملحا على ضرورة احداث مكتب للدعاية في باريز ، تقوم الجامعة العربية بتأمين ما يحتاجه من المال ، وتناط ادارته بالوزراء المفوضين العرب المقيمين في باريز .

انشاء مكتب للدعاية العربية في باريز بادارة شارل حلو

وبعد جهد جهيد تبلغت ان الجامعة العربية عهدت الى السيد شارل الحلو ، وزير لبنان المفوض في الفاتيكان ، امر احداث هذا المكتب بباريز ، واوكلت اليه ادارته ، ووضعت تحت تصرفه مبلغا من المال . وكان اسناد هذا العمل الى شخص غير مقيم في باريز ، وليس له اتصال باحد فيها ، لا يضمن النتائج المرغوب فيها . ولم نشأ ان نعترض على هذا القرار حتى لا يظن اننا نريد الاستئثار بالامر ووضع اليد على الاعتمادات المالية والتصرف بها على مشيئتنا، فاقترحنا ان تؤلف لجنة من الوزراء المفوضين العرب في باريز ، تتولى الاشراف على شؤون المكتب وتوجيه اعماله ، على ان يبقى السيد حلو مديرا له . ولكن هذا الاقتراح لم يلاق قبول دول الجامعة .

وجاء الموما اليه واستأجر مكتبا واسعا . ولما كان المحل الواسع يتطلب ، بالطبع ، موظفين عديدين ، فقد استرسل في تسمية من شاء من الشبان اللبنانيين . اما الدعاية النافعة ، فلم نسمع صداها ولم نر اثرهـا .

ولم يكن لنا ان نستغرب هذه الفوضى ، ورئس الجامعة العربية الفعلي هو عبد الرحمن باشا عزام المشهور بنشر الفوضى في كل وسط يحط ترحاله به ، وبالاستهتار في اعماله. فكان لا يصلح لتولي منصب الامانة العامة للجامعة . واليكم فيما يلي حادثا جرى لي معه :

أمثلة جرت معي على الاستهتار والفوضى في الجامعة العربية ووزارة الخارجية السورية

قررت اللجنة السياسية للجامعة العربية فتح اعتماد باسمي في خزينة الجامعة لشراء اسلحة من اوروبا . ووصل الاعتماد ، وبدأت بالسعي . واذ ببرقية مكشوفة تردني من السيد عبد الرحمن عزام يسألني فيها عما اذا كان الاعتماد وصل واشتريت السلاح ومتى سيصل . فبهت واسقط في يدي وقلت لنفسي : ما اسخف هذا الرجل وما ابعده عن تقدير ما يجب كتمه وما لا ضرر من اعلانه. وكيف اجاز لنفسه ان يبعث ببرقية مفتوحة لسؤالي عن امر يجب عليه ان يطرحه ببرقية جفرية ، او بكتاب عادي على الاقل ، او بواسطة سفير مصر في باريز ، فلا يفسح لليهود في مجال الاطلاع على برقيته المفضوحة ؟

اعترف بانني تلقيت من وزارة خارجيتنا عدة برقيات بشأن فلسطين . ولكن ، اتعلمون ماذا كانت تحوي ؟ كانت تحوي تعليمات بالاتصال بوزارة الخـارجية الافرنسية وابلاغهـا رغبة الحكومة السورية في عدم الموافقة على مشروع تقسيم فلسطين الذي وضعته اللجنة التي عهدت اليها هيئة الامم المتحدة بالسفر لهنالك ودرس الامر عن كثب وتقديم تقرير عنه . وماذا تفيد مراجعة الحكومة الافرنسية والسعي لوقوفها ضد ذلك الاقتراح ، وقليلو الاطلاع على سير السياسة العالمية انفسهم يعلمون ان فرنسا لا تستطيع الا السير في ركاب سياسة الولايات المتحدة الاميركية ، وهي اذا ما شاءت ان تحيد قليلا عن هذا الاتجاه ، فلا بد من اقتراح حل وسط تستطيع التزامه . اما الاميركيون ، وعلى رأسهم ترومان فلا يعتدون بكلام العرب ولا يخففون من تماديهم في دعم اليهود ، الا اذا رأوا مصالحهم في البلاد العربية مهددة تهديدا فعليا . وكيف يتصور ذلك وعاهل المملكة العربية السعودية ينتظر آخر الشهر ـــ كالموظف

البسيط ـــ لقبض حصته من ريع الزيت الذي تستخرجه شركة ارامكو الاميركية من الظهران ، لينفقه هو واولاده على ما لا يعود على امته وبلده بالخير والنفع ؟ ولو ان الدول العربية نفذت ما قررته في مؤتمر بلودان في ١٩٣٨ ، واسمته بالقرارات السرية لابقائها مكتومة عن الشعوب العربية ، وهو الوعيد بمنع الزيت عن الدول الاجنبية ، لكان ثمة امل بوقوف امريكا وبريطانيا وفرنسا موقفا حياديا على الاقل في النزاع العربي ـــ اليهودي .

والمصيبة العظمى هي ان الدولتين العربيتين اللتين تملكان منابع الزيت ، ليس لهما حدود مشتركة مع فلسطين ، كما لسورية ولبنان والاردن .فحكام السعودية والعراق لا يشعرون بمسؤولية قحام بلدهم ضد اليهود .وقد اقتصرت معونة المملكة السعودية في حرب فلسطين على ستماية محارب ارسلتهم الى سورية ، وهم غير مدربين وغير مزودين بما يكفي اطعامهم من المال . فاضطرت سورية لاعاشتهم واسكانهم في ثكنة قرب الحدود واكسائهم كساء يقيهم البرد الذي شعروا به من جراء انتقالهم من بلادهم الدافئة . ولم تشترك هذه السرية باية موقعة ، لانها لم تكن مدربة ولم يكن لديها سلاح كامل . وبهذه المناسبة اذكر ان وزير المملكة العربية السعودية جاء في ذات يوم الى وزارة الخارجية، بشهر اذار ١٩٤٩، وقال لي ان مليكه كلفه بتقديم مبلغ من المال الى الحكومة السورية تعويضا لها عما تنفقه على الجنود السعوديين، وبتقديم الشكر لما تبديه نحوهم من العناية. وناولني شيكا بمبلغ مئة الف ليرة سورية فحسب ! فكتمت شعوري ولجمت لساني عما اوشكت ان افوه به ، وقلت للوزير : « بلغ جلالة الملك بان الحكومة السورية تعتبر الكتيبة السعودية في جملة جيشها ، فلا مجال لقبول هذا المبلغ . » واعدت اليه الشيك وملامح وجهي تنم ، بدون شك ، عما منعت نفسي من قوله . ولم يجب الوزير بشيء ، واخذ الشك مني وانصرف . ثم ذهبت لمقابلة الرئيس القوتلي ورويت له ما جرى . وقلت له : « صاحبك هذا يملأ الدنيا بتصاريحه وبوعوده بمساعدة الجيوش العربية ، ويضغط علينا لكي نوافق على مرور زيته عبر بلادنا بدون مقابل ، ، ويرسل لنا كتيبة تكلفنا شهريا ما لا يقل عن مئة الف ليرة سورية . واخيرا يبعث الينا بهذا المبلغ التافه اشتراكا منه في حملة فلسطين التي بذلت سورية من اجلها عشرات الملايين من الليرات ؟ اتراه يهزأ بنا ام بالتاريخ الذي سيسجل له عمله ؟ » فاجاب الرئيس :

« حسنا فعلت باعادة الشيك . واني ساعمل اللازم ! »

وبقي الشيك في جيب الوزير المفوض الى ان اتى حسني الزعيم الى رئاسة الحكم، فسلمه اياه فاخذه الزعيم وناوله بدوره الى السيد نذير فنصه . فتصرفا بقيمته على ما لا يعلم غيرهما به . والمبلغ لم يدخل صندوق المالية ولا صندوق وزارة الدفاع السورية .

وكارثة فلسطين جديرة بان تملي على كل منوقف على جزء كبير او صغير من وقائعها كتابة ما يعرفه عنها ، حتى يتيسر للمؤرخين استقصاء الحوادث بتسلسلها . فيضعون للبلاد تاريخا صحيحا يفيد الشعوب العربية في استنتاج ما اضر بها وما لا يجوز تكراره في المستقبل . اذ ان التاريخ اكبر عبرة ، وفيه احسن الدروس لمن يراجعه ويدرك السيء والطيب . فقضية فلسطين لم تنته ، والجرح المفتوح في صلبنا لا يزال يتطلب اندمالا بالانتقام من مسببه . وستعود تلك القطعة الغالية الينا ، مهما طالت الايام وحلكت الليالي .

معالجتي مشكلة عدم السماح للسوريين بدخول فرنسا

وفي جملة الامور التي عالجتها بنفسي ، دون انتظار تعليمات وزارة الخارجية ، قضية السوريين الذين يراجعون القنصليات الافرنسية للحصول على سمة دخول فرنسا ، فترفض طلباتهم . وتلقيت شكاوى عديدة بهذا الشان ، حتى ان احد المراجعين اكد لي ان وزارة الخارجية الافرنسية اصدرت تعليمات الى سائر قنصلياتها برفض سمة الدخول الى البلاد الافرنسية لكل سوري ، وان معلوماته هذه تلقاها ، بصورة خاصة ، من احدى القنصليات الافرنسية .

فاتصلت بوزارة الخارجية وطلبت منهم ايضاحا عن الخبر ، فنفوه نفيا قاطعا . لكنني لم اصدق هذا النفي واصررت على اعطاء التعليمات بتسهيل منح السمات ، فوعدوني بذلك . لكن الاخبار كانت تصلني تباعا باستمرار المنع حتى ضقت ذرعا بهذه الحالة . فابلغت وزارة الخارجية بانني ساضطر لمقابلة منـع السمات عن السوريين بمنع السمات عن الافرنسيين للدخول الى سورية . ولما لم ينفع التهديد ، عمدت الى اتخاذ خطة حاسمة . فبدأت برفض السمة لكل افرنسي ينوي السفر الى سورية . وابلغت وزارة خارجيتنا بتفصيل الامر ، لكنني لم اتلق جوابا ، لا سلبا ولا ايجابا . فتحملت المسؤولية وسرت في خطتي غير عابىء بالنتائج .

وذات يوم حضر الى المفوضية احد علماء الآثار الافرنسيين

الذين كانوا يتعاطون التنقيب في سورية وطلب منحة سمة دخول . فافهمته الملابسات التي اجبرتني على التوقف عن منح السمات . فابدى استغرابه من موقف حكومته وذهب للاتصال باصدقائه . فتلقيت في اليوم التالي هاتفا من وزارة الخارجية يسألوني بــه عن صحة رفضي منح السمة لذلك العالم ، فاكدته لهم . فطلبوا مني عدم الاصرار على رايي ، مؤكدين ان القنصليات الافرنسية لا تمتنع عن منح السمة للسوريين . فاجبتهم بان لدي من الاخبار الموثوق بها مـــا يخالف هذا القول . واصررت على عــدم تلبية طلب هذا العالم الاثري .

وبعد يومين استدعيت الى وزارة الخارجية ، وكان الوزير وامينه العام في لندن . فاستقبلني مدير الشؤون السياسية وسألني عما اذا كنت ، برفض السمات ، اعمل بموجب تعليمات من دمشق. فاجبته سلبا . فقال : « هذا ما اجابتنا بــــه وزارة خارجيتكم عن احتجاجنا على موقفك . » فقلت له : « نعم ، اني لم اتلق تعليمات من حكومتي بمنع السمة عن الافرنسيين ، لكنني لم اتلق ايضا تعليمات بوجوب منحها ، بعد ان اطلعت دمشق على موقفكم ازاء السوريين الراغبين في دخول فرنسا وتبليغها انني ساقابل هذا العمل بالمثل . ولذلك فاني سأستمر على هذا النهج وليس لكم ان تتداخلوا بيني وبين حكومتي . ولن امنح اية سمة ما لم تؤكدوا لي ، بكتاب رسمي ، بانكم اعطيتم تعليمات لجميع قنصلياتكم بمنح السمات الى السوريين . هذا مع العلم بانني سأتوقف عن المنح ، اذا وصلني خبر جديد بعدم تنفيذ تعليماتكم مجددا . »

فاجاب المدير : « لكن نحن لا نستطيع منح السمة لكل سوري يطلب الدخول الى اراضينا. » فقلت : « ولماذا؟ » قال : « قد يكون غير مرغوب فيه . » فاجبته بان لدي قائمة بالاشخاص غير المرغوب دخولهم بلادي ، وهم من شتى الجنسيات . فاذا تقدم احدهم بطلب السمة ، فاني سارفضها . اما الاخرون فلا ارفض طلبهم . وكذلك تستطيعون انتم ارسال قوائم بغير المرغوب فيهم فينحصر بهم عدم المنح . » واضفت الى ذلك قائلا : « انكــم تدعون وجود اطيب العلاقات فيما بيننا ، لكن هذا المنع لا يؤيد هذا الادعاء . فاعملوا على تاكيده بعدم اقامة العثرات في وجـــه دخول السوريين الى بلادكم . » وتجاه هذا الموقف الصلب الذي وقفته اضطر الافرنسيون لاصدار تعليمات بعدم عرقلة اعمال السوريين بمنع سمة الدخول

عنهم . وانتهت المشكلة بيني وبين الخارجية على هذا الوجه .

وقامت بعد مدة مشكلة ثانية اضطرتني لاتخاذ موقف مماثل . وذلك ان شركة آرفرانس التي كانت طائراتها تؤمن السفر بين باريز ودمشق وطهران ، بدأت تمتنع عن بيع تذاكر السفر من باريز الى دمشق ، مدعية بان المسافرين الى طهران يملأون جميع المقاعد في الطائرات . فاتصلت بالشركة المذكورة وقلت لمديرها : « لا يصح ان لا يستفيد من خطكم الجوي من كان يريد الانتقال من باريز الى دمشق ، ذهابا وايابا ، فخصصوا لدمشق بضعة مقاعد على الاقل في كل طائرة . » فرفض المدير قائلا بأن اجر السفر الى طهران يعود عليهم بربح اوفى . لذلك فهو لا يستطيع اجابة طلبي .

ولما رأيت هذا التعسف قاسيا ، اصدرت تعليماتي لموظفي القنصلية بان يرفضوا منح السمة لكل مسافر على خط الشركة المذكورة حتى ولو كان عابرا من سورية . فلما جاء موعد سفر الطائرة الافرنسية الى طهران ، امتلأت ابهاء المفوضية بالمسافرين الذين يريدون الحصول على السمة التـــي لا يستطيعون ركوب الطائرة ما لم يكونوا حصلوا عليها . فبلغهم الموظفون بأن القنصلية السورية لـــن تمنحهم السمة . فذهبوا الى الشركة والغوا بطاقات سفرهم . واقلعت الطائرة بدون ركاب . وقبل ان يحين موعد سفر الطائرة الثانية ، جاءني موظف شـــركة الطيران وطلب مني حل المشكلة بالشكل الذي اريده . فقلت له : « لا بد من انتخصصوا ثلاثة مقاعد على الاقل للمسافرين الى دمشق في كل طائرة . فلا تبيعوها من المسافرين الى طهران . واذا وجد عدد اكثر من المسافرين الى دمشق ، فيجب اركابهم . فنزلت الشركة عند طلبي . وانتهت القضية على ما يؤمن السفر الى سورية بدون ازعاج .

ولم اقصد بذكر هاتين الحادثتين الصغيرتين سوى التنبيه الى ان الاجانب لا يهتمون بمصالحنا الا اذا الححنا في الطلب . وهم لا يؤمنون اغراضنا الا اذا هددنا مصالحهم وعاملناهم معاملة حازمة وصارمة . اما الرجاء والتماس رضائهم ، فلا يجدي نفعا .

من ذلك ايضا الحادثة الآتية ، وهي ان الجمعية العامة للامم المتحدة دعت لعقد اجتماعاتها بشهر ايلول ١٩٤٨ في باريز . واعد قصر شايو ليكون مقرا لاجتماعات الجمعية العامـــة ومجلس الامن وسائر اللجان .

وبلغتني وزارة الخارجية بان الوفـــد السوري سوف يكون

برئاسة فارس الخوري وعضوية كل من احسان الجابري والامير عادل ارسلان وانا . وطلبت اليّ تبليغ السيد الجابري ذلك ولزوم حضوره من سويسرا الى باريز ليشترك باعمال الوفد . وبينما كنت اسعى للاتصال به، وردتني برقية من دمشق بعدم تبليغه نبأ تعيينه، لان الحكومة صرفت النظر عنه ، وآثرت استبداله بالدكتور عبد الرحمن الكيالي . ولم اطلع على سبب هذا التبديل . وقبل موعد عقد الجمعية العامة ، وردت الانباء بمصرع الكونت برنادوت وسيط الامم المتحدة في النزاع العربي الاسرائيلي ، في القدس على ايدي اليهود . فدعا رئيس مجلس الامن اعضاء ذلك المجلس للاجتماع فورا . ولما كان السيد فارس الخوري لم يصل بعد الى باريز ، وكان لا بد من تمثيل سورية في ذلك الاجتماع باعتبارها عضوا في مجلس الامن ، فقد طلب مني الرئيس ان انوب عن السيد فارس الخوري . فاتصلت فورا بمندوبي الدول العربية الذين كانوا وصلوا الى باريز . فاتفقنا على ان نجتمع بالسفارة المصرية . وقد حضر هذا الاجتماع كل من وزير الخارجية المصرية، خشبة باشا، ومندوبها الدائم السيد محمود فوزي ، وسفيرها بباريز احمد ثروة بك ، كما حضره نائبا عن العراق وزير خارجيته ، ونائبا عن لبنان وزيره في باريز احمد بك الداعوق ، ونائبا عن المملكة العربية السعودية الامير فيصل بن السعود . فتلوت عليهم نص الخطاب الذي اعددته لرثاء الكونت برنــادوت .

وعندما انهيت التلاوة، ابدى خشبة باشا ملاحظته بأن الخطاب يتضمن اطنابا في مديح برنادوت لا يستحقه . فأجبتــه بأنني اعتقد انها فرصة يجدر بنا انتهازها للتشنيع عــلى عمل اليهود الاجرامي وتجسيم فعلتهم. فلا بد، لذلك، من اظهار الكونت برنادوت بمظهر الراحل الكبير حتى يعظم الجرم بنسبة اهمية القتيل. وبذلك نكسب ايضا عطف الدول على قضية فلسطين. واستمر النقاش طويلا بين الحاضرين . واشتد الجدل حول استعمال كلمة « قتل » في وصف الجرم . فاقترح محمود فوزي بان نستبدلها بكلمة « موت » فقلت له: « لم انت متخوف من ايراد كلمة « قتل » ، بينما لم يتورع اليهود عن استعمال القتل نفسه ؟ وما معنى قولنا مات برنادوت في حين انه قتل وصرع بالرصاص من قبل اليهود . واني لو وجدت تعبيرا اقسى من كلمة « قتل » لما ترددت في استعمالها . » فظل فوزي ، يسانده رئيسه خشبة باشا ، يماحك ويجادل حتى اعيــاني هــذا البحث

الخنفشاري . فتركت الجلسة وعدت الى المفوضية . وهناك وجدت برقية من خارجيتنا بدمشق تطلب مني تمثيل سورية في جلسة مجلس الامن ورثاء برنادوت رثاء جميلا وبيان فظاعة الجريمة وجلب انظار الامم المتحدة الى ما يرتكبه اليهود في فلسطين من تعديات وجرائم ، والقول بأن سكوت العالم عن فظائعهم قد جراهم على اغتيال مندوب الامم المتحدة نفسه . وقد ارتحت لهذه البرقية التي اكدت توافق رايي مع راي دمشق في جعل الرثاء غير مقتصر على عبارات رسمية جوفاء . فابرقت لدمشق بالنص الذي قررت قراءته في مجلس الامن .

رثائي الكونت برنادوت في مجلس الامن

وفي الساعة المحددة لعقد جلسة مجلس الامن ، جلست مع الاعضاء حول المائدة نصف المستديرة . واعلن الرئيس — وكان ممثل بريطانيا — فتح الجلسة . وبدأ خطابه بتلاوة البرقية المنبئة بمصرع الكونت برنادوت . ثم رثاه موضحا خدماته الجلى ومستكبرا قتله على ايدي آثمين معتدين . وطلب من الاعضاء الذين يرغبون في الكلام ان يعلنوا عن رغبتهم ، فطلب جميعهم الكلام . وبدأ كل واحد بدوره يرثي القتيل ويصم المجرمين بالفظاعة والوحشية . ولما جاء دوري اخذت بقراءة النص باللغة الافرنسية ، وكان المترجم ينقل كل مقطع الى اللغة الانكليزية . وكنت خلال الترجمة استطلع اثر الخطاب على الاعضاء والمستمعين الذين كانوا يملأون القاعة . وكنت المس في نفوس الحاضرين استحسانا لاقوالي ، لا سيما عندما شبهت مقتل برنادوت بمقتل المسيح ، من حيث انهما كانا ضحية شعب واحد وفي سبيل هناءة البشر واستتباب السلام على الارض . ولم يكن ذلك مستغربا ، فالناس في ضمائرهم يكرهون اليهود ويحتقرونهم . لكن السياسة كانت تفرض عليهم كتم شعورهم هذا والتظاهر بالحياد. وبعد ان انتهى الاجتماع ، هنأني عدد كبير من الاعضاء على خطابي . وتقدم الي السيد محمود فوزي مندوب مصر وصافحني . فقلت له : « اظن انك لاحظت ان جميع اعضاء المجلس استعملوا كلمة « مصرع ومقتل » في وصف الجريمة . » فابتسم وقال : « آه ! » وهكذا ذهب الرجل ضحية شرذمة من اليهود . والقيت على نعشه الورود والرياحين والخطب والمرثيات ، وتظاهرت الدول بالحزن الشديد وباستنكار الفعلة النكراء . لكن هل تبدل موقف تلك الدول نحو اليهود قيد انملة ؟ كلا ، بل ظلت حكومة الولايات المتحدة مدفوعة بممالأتها لليهود وذلك لتمتين مركزها الانتخابي الداخلي . فهي لا تزال تساندهم وتحمل سائر الدول الامريكية على السير في نفس الخطة .



كما استمرت انكلترا وفرنسا وغيرهما من دول اوروبا على الخطة ذاتهـا .

وللمرء ان يتساءل عن الموقف الذي كانت وقفته تلك الدول لو كان برنادوت قتل بيد عربي . اما كانت الدنيا قامت وقعدت ؟ اما كان انتهز اليهود تلك الفرصة لاظهار العرب بابشع الصور ولرميهم بافظع التهم ؟ لقد كان موقف العرب في جميع القرارات التي اتخذتها هيئة الامم بعد قرار تقسيم فلسطين موقف القبول والرضاء، بعكس اليهود الذين كانوا يعبثون بتلك القرارات ولا يعملون على تنفيذها البتة . ومع ذلك نرى الدول الكبرى ووراءها الدول الصغرى تطاطىء الراس امام اسرائيل ولا تقر اي تدبير زجري لاجبار اليهود على احترام تلك القرارات . بل هي تستمر في مدها بالمعونة المعنوية والمادية، فتمنحها الولايات المتحدة، مثلا، القرض تلو القرض والهبة تلو الهبة ، وتسمح للجمعيات اليهودية ان تجبي الاعانات التي بذلها لها الافراد والجماعات . اما الدول العربية فنصيبها الحرمان من تلك المنح ، ومنع السلاح عنها ولو بثمنه ، والضغط عليهـا لحملها على الصلح مع اسرائيل لفتح ابوابها امام الغزو اليهودي الاقتصادي.

هذا هو موقف الدول الكبرى من العرب ومن اليهود في حين ان شعوب امريكا وانكلترا وفرنسا وغيرها تكن لليهود البغض والكراهية ، فكيف الحال لو كانت تضمر لها الحب والاحترام ؟

اخطاء السياسة الغربية وخصوصا سياسة امريكا في الشرق الاوسط

لا شك في ان الامريكيين بصورة خاصة رغبوا في ان يكون لهم على الساحل الشامي من البحر المتوسط راس جسر ينزلون فيه قواتهم ويرسلونها منه لمحاربة اخصامهم الروس عبر البلاد العربية . لكن ، الم يكن ميسورا لهم ان يستعيضوا عن ذلك بمسايرة العرب ، فيكون لهم على طول ذلك الساحل ، من حدود تركيا حتى آخر حدود مصر الغربية ، اصدقاء خلص ينزلونهم على الرحب والسعة ويضعون تحت تصرفهم تلك الربوع الشاسعة في العراق والمملكة العربية السعودية ومصر والاردن ولبنان وسورية ؟

ولو ان ساسة امريكا وحلفاءها تبصروا بالامر جيدا عندما وقفوا من العرب وقفتهم المعاكسة ، لما كان في البلاد العربية من يقوم في وجه مشروع الدفاع المشترك الذي سعى الغرب لعقده مـع الدول العربية ، ولتم لهم ان يتفاهموا معها كما تفاهموا مع تركيا التي جعلت اراضيها حصنا في وجه الروس .

وقد اخطا الغرب في الاعتماد على تركيا وحدها . فهي مع ما حصلت عليه من الاموال والعدد الحربية لا تستطيع الصمود امام التيار الروسي ، دون ان يكون لها مسند في الجنوب ، لا سيما ان اطماع الروس ليست في الاراضي التركية ، بل في الاراضي العربية التي ينبع فيها الزيت ثم يتجه الى المرافىء اللبنانية ثم يشحن الى اوروبا . فالاراضي التركية ، اذا ، ليست المقصودة بالذات . ويكفي الروس ان يفتحوا لهم ممرا فيها ليصلوا الى الموصل،فيضعون يدهم على آبار الزيت فيها . كما انهم يستطيعون القفز فوق تركيا وانزال فرق المظلات للاستيلاء على الآبار او تخريبها . فهل الحصن التركي قادر على انقاذ تلك الآبار ومنع التعدي عليها ؟ انني لا اظن ذلك .

اننا نجد الدول الغربية تسعى لمواجهة هذا الخطر بعدة وسائل نذكر منها :

١ ــ معاهدة الدفاع المشترك التي تسعى تلك الدول لعقدها مع الدول العربيـــة .

٢ ــ حمل سورية على انشاء خطوط مواصلات برية وحديدية لربط العاصمة بمحافظتي الجزيرة والفرات وتخفيف اعباء سورية باشراك المصرف الدولي فيصرف نفقات تلك الطرق والسكك الحديدية.

٣ ــ جعل الملك سعود يوافق على اعادة تسيير السكك الحديدية الحجازية ، بعد ان كانت مملكته معارضة لاصلاح الخط المذكور،وتمهيد الوسائل لاعادته الى ما كان عليه قبل الحرب الاولى.

٤ ــ اقتراح قيام الدول العربية بانشاء طريق للسيارات يصل لبنان وسورية وشرق الاردن بمنطقة الزيت بالسعودية على الخليج العربي .

٥ ــ توسط امريكا في الخلاف بين ايران وبريطانيا ، حرصا على عدم ارتماء الايرانيين في احضان روسيا الشيوعية والسماح لها باجتياز اراضيهم ووصولها بسهولة الى جوار منابع الزيت في الموصل وعبادان والكويت والمملكة السعودية .

ويلاحظ ان مساعي الاميركيين لحمل الدول العربية ، وسورية خاصة،على احداث الطرق والسكة الحديدية المذكورة في البنود الثلاثة السابقة نشات من فكرة بناء شبكـــة مواصلات استراتيجية تؤمن لجيوش الدول الغربية وسائل التنقل السريع من اقصى شمال الدول العربية الى اقصى جنوبها ، ومن سواحل البحر المتوسط حتى

الحدود الايرانية .

ولا يستبعد ان يكون للامريكيين ضلع في الانقلاب الذي حصل في اواخر عام ١٩٥٣ واودى بحكومة مصدق الذي كان يقف حجر عثرة في سبيل الخطط الانكلوساكسونية .

وكل ما ذكرته آنفا لا يخرج عن كونه حلقة او حلقات متصلة في السلسلة التي يريد الامريكيون وحلفاؤهم تطويق روسيا بها .

دعوتي الى دمشق لتاليف الوزارة واستشارتي فارس الخوري بذلك

بينما كنت في فندق كونتيننتال اعود الاستاذ فارس الخوري في غرفته ، هتف لي احد موظفي المفوضية السورية بان برقية جفرية وصلت الآن من دمشق ، فطلبت ان ياتي بها فورا . وكنت قد جلبت معي اضبارة المخابرات البرقية من دمشق مع مفتاح الرموز لاطلاع السيد الخوري ، رئيس الوفد السوري الى مجلس الامن المجتمع عندئذ في باريز ، على ما ورد من البرقيات ، ولاحضر معه الاجوبة عليها لارسالها فورا بعد ترميزها . فعندما فككت رموز البرقية المذكورة تبين لي انها من وزير الخارجية السيد محسن البرازي ، يطلب فيها حضوري الى دمشق بالطائرة فورا لاستلام الحكم. فاطلعت الاستاذ الخوري على مضمونها ورجوته ابداء رايه ، فقال : « المعروف بان رئيس الجمهورية كان كلف السيد هاشم الاتاسي بتاليف الوزارة ، ولم نسمع انه اعتذر . اذ ان الاخبار الواردة من دمشق تقول بانه لا يزال يدرس الامر مع النواب والاحزاب . اتراه فشل في محاولته حتى ياتيك التكليف الآن ؟ » قلت : « لعل الامر كذلك . » فقال : « لا باس من قبولك واقدامك ! »

وبدأ ، حسب عادته ، بالاطراء والاطناب . لكني لم اشعر بان كلماته صادرة من اعماق قلبه . ولعله كان ينتظر من الرئيس ان يكلفه هو بتاليف الحكومة. فاجبته بعد الشكر بأني شخصيا افضل البقاء في باريز لانجاز المهمة التي اتيت من اجلها ، وهي ابرام اتفاق مع الحكومة الافرنسية لتسوية قضية النقد المعلقة . وكذلك فاني حريص على انجاز صفقة الاسلحة التي بدات الابحاث من اجلها بيننا وبين وزارة الخارجية الافرنسية.وانني اخشى ان انا ذهبت ان لا يستطيع القائم بالاعمال انهاءها على الوجه المطلوب ، لا سيما ان الحالة تجاه اليهود لا تسمح بالتهاون بشراء الاسلحة والذخيرة .

فاجاب الخوري : « اما قضية النقد ، فحسن جبارة يتولاها لوحده بعد ذهابك . واما عقد الاسلحة ، فعصام الانكليزي ينجزها

ايضا . واذا الفت الوزارة ، ارسلت من تعتمده لانجاز هاتين القضيتين وتبعث اليه بتعليماتك وتوجيهاتك . وان انت لم تشكل الحكومة عدت الى باريز واستعدت المبادهة فيها . »

فاضفت الى ملاحظاتي اني لا ارى الوضع في سورية سليما ، وان استلام الحكم في هذه الايام، والحالة على ما يحيط بها من ملابسات دولية وضغط من جانب الدول الكبرى على الحكومات العربية لانهاء حالة الحرب في فلسطين وعقد صلح او عقد محادثات على الاقل، تحمل الوزارات اعباء ثقيلة لا ترتاح النفس للاقدام عليها . ناهيك بالازمة الداخلية التي استوجبت اعلان الاحكام العرفية في حلب ونزول قطعات الجيش الى الشوارع لاحلال الامن مكان الفوضى التي انتشرت في المدة الاخيرة في حلب ودمشق . اضف الى ذلك وجود رجل مغامر كحسني الزعيم على رئاسة القوى المجندة وارتباط الامن به . وعلينا ان لا ننسى خلق رئيس الجمهورية ، وطبعه وتشبثه بالتسلط على الحكم وتسيير الامور على الوجه الذي يريد ، وقلة اكتراثه بدستورية قيام الوزارات واسقاطها . وهذه الملاحظة الاخيرة ابديتها تلميحا الى ما حدث مع الاستاذ الخوري نفسه عندما بعث اليه السيد القوتلي رسولا يطلب استقالته . وقلت للاستاذ الخوري ان كل تلك العوامل لا تخلق في النفس نشاطا وشوقا الى التقرب من مركز قيادة امور الدولة . فمن كان بعيدا عن دمشق ، مرتاحا للوظيفة التي يشغلها يعسر عليه استبدال السيء بالحسن . ولذلك فانني اميل الى الاعتذار برقيا وليكن ما يكون . فلحظ الرئيس الخوري صحة ما اتيت به واضاف : « لكنك تستطيع بعنادك وتصلب رايك المعروفين تسيير الامور حسبما تريد ، دون اي تدخل . ثم الم تر ما جاء في برقية البرازي « ولا يقبل الرئيس لك عذرا ! » فهذه العبارة تدل على ان الرئيس يدرك في قرارة نفسه ما يدور في خلدك . فهو كأنه يعدك بالمسايرة والاعتدال ، لا سيما ان مركزه الآن حرج . فلم يبق الى جانبه احد من رفاقه السابقين . فهاشم الاتاسي لا يريده رئيسا ، وسعدالله الجابري زحل عن الطريق ، وجميل مردم ولطفي الحفار اقصاهما عن الحكم ، وها انا بعيد في امريكا . وهؤلاء كلهم حانقون عليه . وحزب الشعب ضده، والحزب الوطني كذلك . فتصور الى اي منحدر قد وصل . فهو قد استنجد بحسني الزعيم وعينه مديرا عاما للشرطة ، ثم سلمه قيادة الجيش ليحمي نفسه به . واية حماية ينتظر من حسني الزعيم المعروف بطيشه واقتحامه ! » وروى بيت الشعر المشهور :

ومن يجعل الضرغام اثرا لصيده
تصيده الضرغام فيما تصيدا

فضحكت وقلت للاستاذ الخوري : « لكنك لا تشجعني بهذا الحديث. » فضحك بدوره وقال : « صحيح، ان التكليف، بحد ذاته، لا ينطوي على اي مشجع . لكن ، هل للقوتلي سواك الآن ؟ فانت آخر سهم يطلقه . » وكانه تنبأ بانقلاب حسني الزعيم الذي اطاح بعهد شكري القوتلي راسا على عقب ، بحيث كنت في الواقع آخر رئيس وزارة في عهد رئاسته هذه . ثم قال : « ليس في البلاد الآن من يستطيع القبض مثلك على زمام الامور بشدة وحكمة . فلو تسلم الوزارة سواك الآن فانه لا يروي الغليل . فانت وجه جديد ، تجر وراءك ماض ناصع . والناس يثقون بك ، والاحزاب والهيئات الإقتصادية كذلك. فسر على بركات الله، واتكل عليه. واني ازودك باصدق التمنيات واطيبها . وسوف اعود الى دمشق بعد اسبوعين ، اذ تكون الهيئة العامة للامم المتحدة قد انهت دورتها . وهنالك في مجلس النواب استطيع دعمك وتاييدك . وانت تعلم انك بمنزلة ولدي ، واني افتخر بك بين تلاميذي . فاقدم ، والله معك . »

من مثلي في هذا الموقف لا يشعر بالارتياح يدخل قلبه ودمعة التاثر تترقرق في عينيه ، من هذا الكلام الذي وثقت بانه صادق ومخلص ، تمليه عواطف سامية ونظرة صائبة الى الافق ؟ فقمت واقبلت على الإستاذ الخوري وامسكت بيديه وشكرته بحرارة وقلت له : « وعدك بالتاييد عند رجوعك كفاني . واني مسافر في اول طائرة . » وبعد تكرار الشكر ودعته وانصرفت .

حديثي الوداعي مع وزير خارجية فرنسا

حجزت فورا مقعدا في اول طائرة وهي تغادر باريز في منتصف ليلة السبت ١٠ / ١٢ / ١٩٤٨ ، اي لم يكن امامي من الوقت سوى اربع وعشرين ساعة لوداع الحكومة الافرنسية ، ولوداع الزملاء المفوضين العرب على الاقل ، وانجاز حسابي مع امين صندوق المفوضية، وتحضير حوائجي للسفر،وتنظيم اوراقي وانجاز المعاملات المتاخرة ، وغير ذلك من الشؤون التي خشيت العجز عن معالجتها قبل موعد السفر .

قضيت معظم الليل في تصفية اوراقي والاضبارات . وفي الصباح اتصلت بوزارة الخارجية واخبرتهم بالواقع . وطلبت مقابلة وزير الخارجية ورئيس الجمهورية ، ان امكن ، لوداعهما . وذهبت الى وزارة الخارجية حسب الوقت المحدد وقابلت الوزير مسيو

روبير شومان . فذكرت له نبأ البرقية التي استدعيت بموجبها الى دمشق واحتمال عودتي الى باريز .وشكرته على ما بدا لي منه من عطف على انجاز قضيتي الاسلحة والنقد . وطلبت اليه العمل على انجازهما . فوعدني خيرا وتمنى لـــي التوفيق . واكد ان فرنسا حريصة على بقاء سورية متمتعة باستقلالها الكامل ، وانها تعارض اية فكرة بضم سورية الى اية منظمة تقضي على استقلال سورية . وصرح بان حكومته تنازلت عن الانتداب وعملت على دعوة سورية الى مـــؤتمر ســان فرانسيسكو الـــذي كرس استقلالها . ولكنها لا تقبل ان يحل محل نفوذها نفوذ بريطانيا او الولايات المتحدة ولو بشكل مستتر. فاجبته بان بلادي تدافع عن حريتها واستقلالها تجاه اي عدوان وتقاوم كل المشاريع السياسية التي تؤول الى فقدانها تلك الحرية وذلك الاستقلال . وهي تشكر الحكومة الافرنسية على مدها بالاسلحة التي تستطيع بواسطتها الدفاع عن نفسها . واصررت على ضرورة عدم التزام فرانسا جانب اسرائيل ، فهي ان فعلت خسرت صداقة العرب والمسلمين .

واكد لي مسيو شومان ان حكومته تلتزم الحياد ، ومع ذلك فهي تعطف على اماني السوريين والمسلمين بصفتها دولة اسلامية كبرى. واشار الى ان سياسة حكومته كانت اقرب الينا لولا مضاعفات ليس من اليسير ايضاحها ، وعني بذلك ان الحزب الاشتراكي الافرنسي يضم عـــددا كبـــيرا من اليهود الذين يسيّرون خطاه ، بعكس سائر الاحزاب الافرنسية التي تكره اليهود . لكن خشيتهـــا من انفراط التجمع النيابي الذي يساند الحكومة يلزمها باتباع سياســـة غير واضحة تجاهنا . واعتذر الوزير عن رئيس الجمهورية الذي حالت مواعيده السابقة دون رغبته في استقبالي ووداعي . وبعد ذلك تمت بزيارة اصدقائي من كبار موظفي وزارة الخارجية . وعدت الى دار المفوضية فاستقبلت زملائي العـــرب وسائر الاصدقـــاء الذين بلغهم نبأ سفري العاجل ، وجاؤوا لوداعي .

البرازي يقابلني في مطار بيروت ويسرد اخبار الازمة

غادرت باريز في منتصف الليل بطائرة افرنسيـــة . ووصلت صباحا الى مطار الماظة بالقاهرة ، حيث اجتمعت الى بعض الاصدقاء ثم ركبت طائرة لبنانية اوصلتني الى مطار بيروت . فوجدت صديقي محسن البرازي فتعانقنا ودخلنا بناء المطار . فاسرع الـــى غرفة الهاتف وطلب القصر الجمهوري بدمشق . وسمعته يقول للرئيس : « وصلت الامانة ونحن سائرون توا الى شتورا . » ثم قال لي :

«اتيت الى هنا حسب رغبتك»، وكنت ابرقت له بذلك، «لاحيطك علما بجميع ما جرى في الازمة الوزارية . فاقترحت ان نذهب الى احد الفنادق ، حيث نستريح ويفضي لي بما عنده . فاجاب بان فخامة الرئيس لا يرغب في ان يعلم احد بحضوري ، فلذلك خير لنا ان نذهب الى شتورا فنتناول طعام الغداء،ثم نتوجه الى دمشق ، فنصلها ليلا . فقلت له : « وهل انا « فردة تنباك » تريد تهريبي عن الاعين وايصالي الـى دمشق ليلا ؟ او لست انت الذي ابرقت لي بـاسم الرئيس بالحضور لاستلام الحكم ؟ فاذا كان الرئيس قد عدل عن فكرته ، فوالله اني له لشاكر . فامكث في بيروت او في مطارها ، ثم امتطي اول طائرة عائدة الى باريز ... مع الشكر والمنة . » .

فأجاب مستنكـرا مـا ذهبت اليـه ، مقسما بكـل عزيز ان كل ما في الامر ان الرئيس دعا النواب الى الاجتماع لديه في المساء وهو يريدهم ان يقرروا تفويضه اختيار رئيس يؤلف الوزارة . فهو يخشى ان «يمنفصوا» اذا شاهدوني وسمعوا بمقدمي . فيتحقق لهم انني لم آت الا مدعوا من الرئيس لتاليف الحكومة.وهكذا يظنون ان تكليف الاتاسي ، ثم عادل ارسلان ، ما كان الا لتغطية امر مبيت ، فيحجمون عن منح التفويض للرئيس . فقلت له بأني ، والله ، بغنى عن هذه المناورات . فقال : « لا ، بل انتظر حتى اروي لك ما حصل وما تتعرض البلاد له في صميم استقلالها فتعذرنا . » ولم يترك مجالا للرد ، فدفعني الى السيارة التي سارت بنا في طريـق ملتوية الـى اوتيل مسابكي بشتورا ، حيث اتصل البرازي بالرئيس مجددا . ثم قال لي : « يهديك الرئيس تحياته ويشكرك على تلبيتك طلبه الملح وحضورك فورا. وقد نقلت له ملاحظتك، فضحك، وقال : «انتظركما في القصر غدا الساعة السادسة . » فتناولنا الطعام مع السيد عادل العجلاني الذي دهش لرؤيتي وكان من جماعة جميل مردم . فقال له البرازي : « لـن تبرح شتورا الا معنـا . واياك ان تتصل بدمشق هاتفيا . » فصدع للأمر .

وبدأ البرازي يسرد لي انباء الازمة الوزارية من اولها الى آخرها بتفصيل لم يعد بامكاني تذكره كما هو ، فاكتفي بالتلخيص ، قال : « اضطرت وزارة جميل مردم للاستقالة على اثر الحوادث الدامية التي وقعت في دمشق وذهب ضحيتها احد الشبان . فسارت مظاهرة بقيادة فيصل العسلي المنتمي الى رئيس الجمهورية،مدعيا بأن الاحزاب المعارضة قتلت شابا من جماعته . وحمل هؤلاء نعشه على

الاكتاف وساروا به في شوارع المدينة . ولامر ما لم يعلم سببه انقلب النعش ووقع على الارض ، فظهر انه فارغ لا يحوي جثة احد . فثارت الجماهير وانقلبت على فيصل العسلي فتوارى عن الانظار . وفي حلب قامت مظاهرات عنيفة حملت الحكومة على طلب نزول الجيش الى الشوارع واعلان الادارة العرفية لقمع الفتنة . واصدر حسني الزعيم منشورا قاسيا اعلن فيه توليه الحكم في حلب . وعلى اثر ذلك قدم حزب الشعب مذكرة الى رئيس الجمهورية طالب فيها بتوحيد سورية والعراق. وهذا ما يجعل المرء يظن بأن الفتنة التي عمت البلاد غير بريئة من الاتصال بزعماء العراق الذين كانوا يريدون الوحدة واقامة عرش في سورية للامير عبد الاله . ومهما كان الامر ، فان الشعب اظهر استياءه من وزارة جميل مردم ، ومن مسعى حزب الشعب بزعامة رشدي الكيخيا على اقصاء الحكومة . واقترح هذا الحزب تكليف هاشم الاتاسي بتأليف وزارة تسايـــــر اتجاههم السياسي المذكور . فاضطر جميل للتنازل عن الحكم لقمع الفتنة معللا النفس بالرجوع اليه ، وذلك بالاستناد الى الكتلة النيابية التي كان الفها اثناء توليه الوزارة . وهو بذلك قد نسي ان نوابا كهؤلاء يسيرون وراء كل حكومة ، ما دامت قابضة علـــى ناصية الحال ، توزع المنح والفوائد على مسانديها . لكنهم سرعان ما ينشقون عنها عندما تاتي حكومة جديدة ، ايا كان رئيسها او وزراؤها .

«وبدأ الرئيس الاتاسي استشاراته.ثم زار القوتلي وطلب اليه الموافقة على المذكرة التي قدمها اليه حزب الشعب لتؤلف الوزارة على اساسها . فراوغ القوتلي واخذ يتصل بالهيئات لكي تتصل هي بدورها بالاتاسي وتظهر له معارضتها لخطة حزب الشعب وتبدي عزمها على معارضة وزارة تؤلف على هذا النمط . كما اخذ القوتلي يحرض الاشخاص الذين قبلوا الاستيزار مع الاتاسي على سحب موافقتهم . وهكذا حتى ملّ الرئيس الاتاسي وذهب الى القصر واعلن فشله وانسحابه . فاظهر له القوتلي اسفه الشديد ، ريـــاء ونفاقا . وعلى الاثر ارسل البرقية باستدعائي من باريس . غير انه احب ان يضلل الناس في هذه الفترة ، فكلف الامير عادل ارسلان بتأليف الحكومة . فراح الامير يستشير زيدا وعمروا من غير النواب كعارف النكدي ونهاد القاسم ، آخذا الامر بجدية غـــير عالم بأن الرئيس لم يكلفه الا كسبا للوقت ، ريثما اصل انا من باريس . »

وهنا اكد لي البرازي ان القوتلي يتلهف للاجتماع بي. وهو يعد

بالدعم الكامل وبعدم التداخل في شؤون الدولة لانه يريد ان يستريح . وكيف له ان يستريح في هذا الظرف الحرج ان لم استلم الحكم انا؟ الى اخر ما هنالك من الجمل المنمقة المقصود منها تقريب القلوب .

فقلت للبرازي : « كل ما نقلته ما هو الا تأكيد لما اعتقده غارزا في صميم اعماق القوتلي من حبه المناورات والتظاهر بخلاف ما يبدي ، ومن اللف والدوران المتواصل حتى على الصق الناس به . وقد خبرته في الماضي . وها انك تأتيني بالامثلة والحجج الجديدة المؤيدة كلها لما اعلمه من امر الرجل . فكيف تريدني — انت اعز صديق لي — ان انزلق مرة ثانية ، فأصدق هذه الوعود الجوفاء . وقد صدقت القوتلي عندما استدعاني اليه وحملني على دخول معركة الانتخابات النيابية في ١٩٤٣ قائلا بأنه يريد ان يستخلفني من بعده . وصدقت القوتلي ثانية عندما الح علي في الاشتراك في وزارة الجابري الاولى. لكنه استمر على اساليبه كلما استمررت انا على تصديقي له وحسن ظني به ، الى ان تكشفت لي الامور . وصار يكرهني ويعمل على ابعادي عن الوزارة ، لانني ما كنت اسايره في ما كان يطلبه من وظائف لمحاسيبه الذين لا يستحقونها ومن تمشية مصالح المنتسبين اليه وهم غير محقين . ثم تراءى له اني مزاحمه على رئاسة الجمهورية فخطر له ابعادي عن البلاد والهائي بالمفوضية في باريز . وكنته انت ، يا محسن ، الوسيط في تكليفي بالسفر . وها انت الان الوسيط في تكليفي بالعودة . فقل ضميرك مرتاح ، كصديق لي ترجع صداقته الى ابعد من عهد زمالتك للقوتلي ؟ واية ضمانة لديك تنشطني بها لاقدم على هذه المغامرة الجديدة التي قد تتكسر بها اضلاعي ؟ »

فاسرع محسن الى سرد ما يكنه فؤاده من المحبة لي . واخذ يقسم الايمان المغلظة بأنه ، بالرغم من عمله لدى القوتلي وصداقته له ، فهو يعتز بصداقتي ويحفظها في مكان اسمى من اية صداقة اخرى ، وبانه امين ومخلص لي لا ينسى انني انا الذي دفعته الى الميدان السياسي وجعلت منه وزيرا حين كان القوتلي وجماعته يحاربونه ويعتبرونه جاسوسا افرنسيا . وراح يتهمني بخيانة هذه الصداقة اذا ما خطر في بالي انه ياتي بأي عمل او يساعد في اي عمل يرمي الى ايذائي . وانهى حديثه المنمق بطلب الفوز بموافقتي مبدئيا على قبول المهمة !

وعندما استعرضنا اسماء الوزراء ، سألته : « اتظن ان وزارة مؤلفة من عناصر من خارج المجلس — وكان البرازي لمح

الى ذلك ــ وتخلو من جماعة حزب الشعب والحزب الوطني ــ قادرة على مواجهة المجلس والحصول على ثقته وتاييده المتواصل ؟ » فاجاب : « لم لا ؟ فثمة عناصر من المجلس يمكن الاستناد اليها . » واضاف : « لا تنس ان حزب الشعب مرتبط بفكرة الاتحاد مع العراق ، وانه قد يشترط ادخال مذكرته في صلب البرنامج الوزاري ، فلا سبيل اذاً للتعاون معه . اما الحزب الوطني فقد فشل في حلب واصبح (زنبركه) ميخائيل اليان خارج المجلس . واما النواب المنتسبون اليه كلطفي الحفار وصبري العسلي ، فليس وراءهم اكثرية . » واردف قائلا : « لنترك بحث الاسماء الى حين الاجتماع بالرئيس . » فقلت ضاحكا : « الم تقل ان الرئيس قرر عدم التداخل بشؤون الحكومة ؟ » فاجاب : « انت تلاحقني على الدعسة ... نعم ان الرئيس يتداخل لمؤازرتك في النجاح بتاليف الحكومة ، وذلك بالاتفاق معك ، طبعا . » فقلت : « طبعا ... طبعا ... » وكانت السيارة قد اوشكت ان تصل الى دمشق ، فقال البرازي : « الا تستنسب ان تذهب الى دار ابنتك فتراها . فهي مشتاقة اليك . ثم نتصل بالرئيس ونذهب اليه عندما يدعونا ؟ » فاجبت : « انك يا محسن ، عدت الى مواربتك . فانا لن اذهب سرا الى دار ابنتي ، بل اذهب الى داري علانية وعلى المكشوف . ومن رضي فليرض ومن زعل فليشرب البحر . » وامرت السائق بالاتجاه نحو داري بسوق ساروجه . وكان البرازي قد حصل على جزء من برنامجه ، اذ اننا وصلنا الى المدينة والغروب لا يسمح برؤية من يركب سيارة تجتاز الشوارع بسرعة . وهكذا فانني لم اشاهد في الطريق احدا اعرفه . ودخلت الدار وتعانقت مع ابنتي واولادها ، ثم جلسنا ننتظر صدور الارادة السنية بالتوجه الى القصر . ولم يدر بمجيئي سوى صديقين : النائب فرزت المملوك ، والصحفي بديع الصيداوي صاحب جريدة النصر . فاطلعاني على بعض ما خفي علي من اخبار الازمة الوزارية وشجعاني على المضي وكان البرازي قد غادر الدار وذهب الى القصر .

مقابلتي للرئيس القوتلي بشأن تاليف الوزارة

وبعد ان انهيت العشاء ، جاء هاتف من القصر يطلبني . فذهبت واجتمعت برئيس الجمهورية . فاستقبلني بالترحيب والابتسامة العريضة واخذني من ذراعي وقبلني وقبلته بعناق مظهره الحب المتبادل والشوق الكبير . ثم راح يتحفني بما يحفظه عادة في حقيبته من الالفاظ المعسولة والعبارات المغرية التي قد تنطلي على غيري ممن لا يعرفونه . وابدى سروره العميق بمشاهدتي ممتعا

بصحة طيبة ، واعلن عن شكره لاسراعي بتلبية طلبه والشخوص الى دمشق في اول طائرة . ثم اكـــد لي محبته وتقديره لمواهبي ــ استغفر الله ــ واعتماده الكلي على مقدرتي على حل الازمات الشائكة والاستبسال في الدفاع عن مصلحة البـــلاد . واستشهد ــ مخجلا تواضعي ــ بمواقفي السياسية منـــــذ ١٩٤١ . واظهر ارتياحه لنجاحي في باريز، سواء في حسن اداء مهمة تمثيل سورية تمثيلا يرفع الراس ــ على حد قوله ــ او في قضية النقد وقضية شراء الاسلحة . وقد تخلل هذا كله بعض النواح ، طبعا ، على فلسطين الشهيدة وابنائها المظلومين ، وبعض الزفرات الطويلة والنظرات العديدة الى الاعلى ، ماسكا انفه بيده وهو يشده الى الاســـــفل !

ثم استرسل الرئيس بذكر الحوادث التي ادت الى الازمة الوزارية وما جرى من تكليف الاتاسي ثم انسحابه . واسف الرئيس لذلك . ثم اتى على ذكر الامير عادل واعتـــذاره صباح اليوم ، ثم تفويض النواب له بانتقاء الرئيس الجديد . وكان يروي كل ذلك بما يتناسب مع اهدافه وبما طبع بطابع القوتلي ، اي بطابع الحقيقة كما يراها هو وكما يرويها . وكنت في المقابلة اهز الراس تصديقا واستحسانا . وهل كان في الوســـع الا مقابلته باسلوب مماثل ؟ والمضحك في الامر مع القوتلي دائما ، ليس اسلوبه هذا الذي اعتدنا كلنا عليه ، وانما اعتقاده انه يخدعنا ويضحك علينا ، في حين اننا نحن الذين نعرف طريقته ونضحك عليها . ونحمد الله على ان الوقت كان ليلا وفيه متسع من الوقت للاطالة على قدر ما يريد الرئيس . فاستعرضنا مذكرة حزب الشعب ، فاوضحت له رأيي في عـــدم الموافقة على الاتحاد مع العراق وعـــدم الرضى بمشروع سورية الكبرى . فزاد انشراح الرئيس ، اذ اطمأن الى ان رئيس وزرائه الجديد سوف يسير الى جنبه في معارضة هاتين الفكرتين . وكان يثق بكلامي من حيث ان لا مواربة فيه ولا مخادعة . فما اقوله هو تعبير عما يجيش في صدري وفكري ، لا كما يعمل هو حين يتظاهر بمحبة مـــا يكـــره .

وبعد ان طال السهر ، استأذنت الرئيس في الانصراف، معتذرا بالتعب بعد السفر . وتواعدنا على الاجتماع في الصباح .

وكانت بداية العمل دعوتي السيدين ناظم القدسي وعدنان الاتاسي الى داري وطلبي اليهما الاشتراك في الوزارة باسم حزب

الشعب ، فقبلا بشرط ان يحوي البرنامج الوزاري ما جاء في مذكرة الحزب ، بخصوص العراق . فقلت لهما لا تشترطا هذا الشرط . فلما الحا ، استمهلتهما للمســـاء .

وكان خبر وصولي الى دمشق وتكليفي بتاليف الوزارة قــد شاع منذ الصباح الباكر . فامتلأت الــدار على وسعها بالزوار والمستوزرين والصحفيين والاصدقاء ، مما جعلني اقسم وقتي بين استقبال الضيوف والتحدث الى النواب والاشخاص الذين خطر في البال اسهامهم معي في تحمل اعباء الوزارة .

الصعوبات التي جابهتني في تأليف الوزارة

اما الامير عادل ارسلان ، فعلى الرغم من ان اعلان تكليفي جاءه ثقيلا بعد ان علل النفس بتسنم مقعد الرئاسة ، فقد وافق على الاشتراك في الوزارة . لكنه اشترط ان يدخل فيها عارف النكدي ونوري ابيش والنائب عارف الطرقجي . فلما اجتمعت بالنكدي وجدت لديه عنجهية غير مقبولـــة . فكان كمن يمـــن علي بدخوله الوزارة . ووضع شروطا صعبة التحقيق ، سواء من جهة اختيار سائر الوزراء او بما يتعلق بالوزارة التي ستسند اليه . ثم اجتمعت الى لفيف آخر من النواب . وكان كل منهم يسعى لنيل مقعد وزاري ولا يعد بالتأييد الا اذا كان وزيرا . وبذلك قد يصـــل عدد اعضاء الوزارة الى عدد النواب .

واستمرت الابحاث مدة يومين كدت فيهما احمل حقيبتي سرا وارحل الى بيروت ومنها الى باريس ، حيث ابعث للرئيس ببرقية اعتذار . وما ذلك الا لكثرة ما واجهت من اطماع وما عانيت من تعب في تحمل غلاظة من يدعون انهم ساسة هذا البلد وقادته وممثلوه الاكارم . ولكنني فكرت بالامر بروية وذهبت الى الرئيس وفاتحته بكل ما جرى . فقال : « لا ... لا ... لا يمكن ! عادل ارسلان لا يستطيع مواجهة الموقف السياسي الخارجي ولو كان الى جانبه ستون عارف النكدي ... لا اقبل بذلك ولا اسمح به ... نحن الذين جاهدوا منذ اربعين عاما .. وضحوا .. في السجون والبراري .. في حين ان عارف النكدي كان يصانع مستشار العدلية الافرنسي... نحن تولينا امر هذا البلد واوصلناه الى الاستقلال ... انا بطـــل الجلاء ، وانا المسؤول الاول ما دامت الامـــة انتخبتني وجددت انتخابي ... ونحن لا نزال في معركة مع اليهود .. لم ينته الامر بعد ... العراق ومن ورائه الانكليز يطمعون في بلادنا ويسعون لاقامة عرش لعبد الاله ... والملك عبد الله لا يزال يحيك المؤامرات

على بضعة كيلومترات من حدودنا .. ليصنع لنفسه عرشا في عاصمة معاوية ... لا نقبل . اذا ارادوا توحيد سورية وشرق الاردن فلتكن جمهورية عاصمتها دمشق ، والشعب ينتخب رئيسها بحرية ... لا مكان لعبد الاله في سورية .. انا هنا .. ادافع عن استقلال البلاد ولو بقيت وحدي . »

لا انكر ان هذا القول اثر فيّ اثرا كبيرا . وباركت في القوتلي تمسكه باستقلال البلاد وبنظام الحكم الجمهوري فيها ، ولو كان هذا التمسك مشوبا بشائبة المحافظة على الكرسي . فقلت له : « يا فخامة الرئيس ، اني معك في كل ما قلته ، ومستعد لبذل كل ما عندي في سبيله . فاطلب مني ما تشـــاء لتحقيق هذه الاهداف القومية العليا وانا حاضر للتعاون معك بكل اخلاص . »

فقال على حسب عادته : « بارك الله .. بارك الله .. هذا ما كنت آمل منك .. والآن لنعمل سوية على تفشيل المؤامرة ... واحكام الخطة التي تمكنك من تاليف الوزارة .. اعلن انت ، بادىء ذي بدء عن اعتذارك... وعزمك على العودة الى باريز.. ثم اكلف انا الامير عادل مجددا واهزه واضعضعه حتى يتعب فيترك الامر الى غير رجعة ... ثم تعود انت للظهور وتؤلف الوزارة بليلة واحدة ! » فسألته : « وكيف السبيل الى ذلك ؟ » فقال : « هذا شأني . اما انت فاذهب ونم مستريحا ... واقض وقتـــك في مزرعتك وانا لها . » ودق بيده على صدره . فقلت : « مرحبا ! »

وبالفعل اعلنت عن عـــزوفي عن تاليف الوزارة وعزمي على الرجوع الى باريز . وابرقت بذلك لقرينتي وذهبت الى مزرعتي مع رفاقي واصدقائي الاخصاء لنقضي الوقت بالمرح والسرور .

وكـــان الرئيس ، خلال هذه الفترة القصيرة ، اعد عدته . فاستدعى الامير عادل وطلب اليه وضع مذكرة بأسماء الوزراء الذين يعتمد عليهم . فلما جاءه بالاسماء وكانت هزيلة ومن غير النواب ، ثار النواب فانتهز القوتلي الفرصة السانحة واستدعاني ذات مساء وقال لي : « انتهى امر الامير عادل ... تعال نؤلف الوزارة فورا وانا الضمين بنيلها الثقة » . واســـتدعى ، بالهاتف ، المدعوين للاشتراك في الحكومة فهرعوا الى القصر . واعلن الرئيس اختيارهم للاسهام في العمل الحكومي وطلب اليهم الاتفاق فيما بينهم على توزيع الحقائب الوزارية . فحصل جدال بين بعضهم انهاه الرئيس بأن وزع الحقائب كما شاء بعد ان شاورني بالامر وحصل على موافقتي.

وتالفت الوزارة ، في ١٦ كانون الاول ١٩٤٨ ، على الوجه التالي :

اعضاء وزارتي الجديدة ونيلها ثقة المجلس

خالد العظم : رئيســــا للوزارة ووزيرا للخارجية والدفاع الوطني ، عادل العظمة : وزيرا للداخلية ، احمد الرفاعي : وزيرا للعدلية والصحة ، حسن جبارة : وزيرا للمالية ، محسن البرازي : وزيرا للمعارف ، محمد العايش : وزيـــرا للزراعة ، مجد الدين الجابري : وزيرا للاشغال العامة ، حنين صحناوي : وزيرا للاقتصاد الوطني .

ويلاحظ انه ، فيما عدا ثلاثة وزراء ـــ احمد الرفاعي ومحمد العايش ومجد الدين الجـــابري ـــ فالخمسة الاخرون من غير النـــواب .

ونالت الوزارة الثقة باكثرية لا باس بهـــا ، بعد ان تلوت بيان الحكومة الرسمي واشفعته برد ارتجالي على آراء النواب ، شهد بعض الصحفيين بأنه كان بارعا ومسددا . وقال احدهم : « انك بعد عودتك من باريس اصبحت اكثر برلمانية منك عن ذي قبل » . فاجبته: « لقد حضرت كثيرا من مناقشات البرلمان الافرنسي فاكتسبت خبرة ومرانا المداني في اتصالاتي بمجلسنا النيابي كثيرا » . وكنت قد بدات سياسة المسايرة هذه ببيت من الشعر القيته في المجلس واردت به امتداح النواب واظهار التواضع امام كفاءاتهم . اذ قلت :

وكم في العرس ابهى من عروس   ولكن للعروس الدهر ساعد

ازدياد خبرتي في الحياة النيابية

واني اقر بانني في اول عهـــدي بالنيابة ، كنت خشنا مع النواب ، عصبي المزاج ، انفجر كلما ظننت سوء نية عند احد الخطباء . فاخرج من الجلسة او اجيبه بكلام قاس . وعذري في ذلك حرصي على مصلحة الدولة والدفاع عنها وحراسة الخزينة من ان يمسها الطامعون . واضيف الى ذلك قلة المران على الحياة النيابية ، اذ انني منـــذ اول جلسة نيابية حضرتها كـــان مقعدي بين الوزراء ولم اجلس في صفوف النواب الا في ربيع ١٩٤٥ . ولم تدم نيابتي الفعلية سوى سبعة اشهر في تلك السنة ، وخمسة اشهر في ١٩٤٧ .

وبعد عودتي من باريز وممارستي الحكم في الوزارتين اللتين الفتهما عامي ١٩٥٠ و ١٩٥١، وفي وزارة هاشم الاتاسي في ١٩٤٩، ثم في اشتراكي بالدور التشريعي في ١٩٥٤ و ١٩٥٨ نائبا ووزيرا ، زادت خبرتي بالوسط النيابي وصرت انظر الى الامور غير نظرتي

الاولى اليها واقابل تهجمات النواب بسعة الصدر والاناة . وامست اذناي تستمعان الى الخطب الرنانة الطيبة والمغرضة والاقوال الهراء بحساسية اقل انزعاجا عن ذي قبل . واعتدت على المناورات والمداورات ضد الوزارة ومعها . وبرع لساني في الاسلوب الذي تستحسن مخاطبة النواب به ، من مسايرة عند الضعف والحاجة وصرامة عند القدرة والاستغناء . وكنت في اول عهدي بالنيابة والوزارة النيابية اشعر بشيء من الثقل على نفسي كلما ولجت باب المجلس وتجولت في اروقته او جلست في كرسي الوزارة او النيابة . وكان عيدا كبيرا يوم تختتم فيه الدورة ويعود النواب ، كل الى بلده، وعيدا اصغر يوم تنتهي الجلسة فاخرج من القاعة متمتعا بالراحة الى ان تلتئم الجلسة اللاحقة . ذلك لانني كنت التمس للحياة النيابية المثال الاعلى في القصد الحسن ، والاخلاص في القول ، والصدق في العمل . وكنت انتظر من جميع النواب الترفع عن الصغائر ، والتماس المصلحة الوطنية فحسب ، والداب على اصدار القوانين دون تقصد النفع الفردي . وكانني بتخيلي هذا في دنيا اخرى ، وكأن النواب خلقوا من نور وهدى ، لا من طينة سائر الناس ، وكأن ابواب قاعة الاجتماعات مصاف تقف عندها الاخلاق البشرية المنطوية على الطمع والكذب والخديعة ، او كأن جو القاعات تركيب كيماوي او روحي يطهر النفوس والارواح من رجسها ويبدل السيئة بالحسنة . وهكذا كنت احلم بمجلس خيالي لم يخلق في مثل طهارته مجلس اخر في اي دولة في العالم .

النظام النيابي رغم مساوئه افضل انظمة الحكم

على ان هذه المساوىء التي تشترك بها سائر المجالس النيابية في العالم بنسب مختلفة ، زيادة او نقصا ، ليست وحدها الطابع المميز للحياة النيابية . فالى جانب هذه السحب القاتمة ، انوار ساطعة تتجلى في الحرية التي ينعم بها النواب وناخبوهم في ابداء الراي والانتقاد والاعتراض على اي عمل حكومي ، ومراقبة الحكام في تصرفاتهم وفضح السيء منها ومحاسبة المسؤول عنها، والاشتراك مع الحكومة بادارة سياسة الدولة وباصدار القوانين وحراسة تطبيقها الحسن ، والحرص على اموال الناس من ان تجبى او تصرف في غير ما اقره المجلس التشريعي الذي يمثل مجموع الامة .

فاذا لم يكن سوى واحدة من هذه النعم تؤمنها الحياة النيابية للشعب ، لكفاه . اما المساوىء التي ذكرناها فهي كالشوك في غصن الورد ، وكابر النحل لا بد من تحمل لسعاتها في طلب الشهد ...

وقد جربنا في سورية انواعا من الحكم : النيابي والدستوري والرئاسي والانتدابي والدكتاتوري . وتوالى على الحكم فيها انواع من البشر ، ملوكا ورؤساء جمهورية ، ورؤساء اتحاد ، ورؤساء حكومات ووزارات ، ومديرين عامين ... ولا ريب ان كل نظام يختلف عما يماثله باختلاف الاشخاص الذين يتولون الحكم بموجبه ، لكن الامر الذي لا ريب فيه هو ان النظام النيابي ارفع الانظمة شأنا ، واقلها ايذاء للمصلحة العامة والخاصة ، وان اسوأ العهود التي مرت بها سورية واظلمها — ظلما وظلاما — كانت تلك التي ساد فيها الفرد واحتفظ لنفسه بالسلطة المطلقة ، كعهد حسني الزعيم واديب الشيشكلي ، وكعهد الوحدة الحالي . فالامور تسيرها الفوضى بالتشريع والارتجال ، والنفوس غير مطمئنة على اجسامها من السجن والتعذيب والتشريد والقتل والغدر ،والاموال غير آمنة من المصادرة او التأميم باسم الاصلاح ، والسياسة الخارجية تتذبذب وتنتقل من غصن الى غصن حسب اهواء الحاكم المستبد ، واصحاب الوظائف يخافون من مراسيم النقل او التسريح التعسفي ، والصحافة خائفة وحائرة بين مقص المراقبة او قرار الاغلاق المؤقت او الدائم ، والطلاب يترددون بين المواظبة على مدارسهم لنهل العلم وبين الاشتراك بالمظاهرات احتجاجا على تعسف النظام القائم ، فيضيع وقتهم عليهم !

خرجت في بحث الحياة النيابية عن نطاق ما كنت في صدده من ذكر حوادث وزارتي . وعذري في ذلك انني لم استطع ، وقد لمست هذا الموضوع الخطير ، ايقاف عواطفي عن الظهور وقلمي عن الاسترسال فيه . وعلى اي حال ، فاني واثق من انني احسنت صنعا وانني لم آت بأذى .

كانت اهم القضايا التي عالجتها وزارتي هذه ما يأتي :

١ — تصديق اتفاقات امرار البترول عبر سورية وتقديمها الى مجلس النواب لابرامها .

٢ — انجاز الاتفاق المعقود مع فرنسا في ٧ شباط ١٩٤٩ بشأن النقد ، وعرضه على المجلس .

٣ — معالجة الموقف في فلسطين وعقد الهدنة مع اسرائيل .

٤ — الخبز . وتامين المال اللازم لتسديد ثمن الاسلحة المشتراة من فرنسا .

اما عن الاتفاق المعقود مع فرنسا في ١٩٤٩/٢/٧ ، على اثر المباحثات التي دارت في باريز بين الافرنسيين من جهة ، وبيني وبين حسن جبارة باسم سورية من جهة اخرى ، فقد اوردت ذكره في بحث « النقد السوري » من هذه المذكرات . فليس ثمة من داع للتكرار .

واما الاتفاق بشأن انابيب النفط ، فقد ذكرته في الجزء الخاص بالشؤون الاقتصادية من هذه المذكرات . ان اول مشروع قدمته شركة التابلاين كان ارسله الملك عبد العزيز بن سعود الى شكري القوتلي في عهد حكومة سعد الله الجابري في ١٩٤٦ . وكنت، بصفتي وزيرا للاقتصاد الوطني ، كتبت تقريرا مفصلا عن المشروع ابنت فيه اعتراضي على النصوص ومخالفتي لابرامه . ولربما كان موقفي هذا من جملة الاسباب التي حملت شكري القوتلي على ابعادي عن رئاسة الوزراء وترجيحه جميل مردم علي ، ثم على تعييني وزيرا مفوضا في باريز للتخلص مني في المعركتين : معركة تصديق الاتفاق البترولي في البرلمان السوري ، ومعركة رئاسة الجمهورية التي كان عازما على خوضها بعد تعديل الدستور بما يجيز تجديد الرئاسة .

ولا بأس من ايراد اعتراضاتي وملاحظاتي على مشروع انابيب النفط كما وردت في التقرير الآنف الذكر .

اعتراضاتي وملاحظاتي على مشروع انابيب النفط

لم يكن ليدور في خلدي ان التقرير سوف يحصل على استحسان الرئيس القوتلي . وذلك لانه كان يعلق اهمية كبرى على ارضاء صديقه الملك ابن سعود والنزول عند طلباته ، ليسدد بهذه الوسيلة الاموال الوفيرة التي كان ولا يزال العاهل السعودي — وابنه من بعده — يغدقها عليه بسخاء وكرم . اما مصلحة البلاد ، وخطر وقوعها تحت نفوذ الاجنبي ، فأمره يعالج كما عالجت البلاد مصيبة الانتداب . لكن غضب ابن سعود ، فاعوذ بالله . انقبل بأن يغور النبع الذي يغذي بقاءنا على رئاسة الحكم بعد ان غذى وصولنا اليه ؟ هذا ما كان ما يهتم به القوتلي . لقد اعترض في الماضي عندما وافق الشيخ تاج على اتفاقية مد انابيب النفط العراقي عبر البلاد السورية ووجد في الاتفاق اجحافا ليس بعده اجحاف . اما البترول الاميركي — السعودي ، فمروره عبر سورية نعمة كبرى ، حرام ان تفوتها . وكان جميل مردم وقع بالحروف الاولى على المشروع ، لكنه لم يجسر على تقديمه الى مجلس النواب ، لانه خشي ان يتهم بقبض عمولة . اما خالد العظم ، فهو فوق الشبهات وليس في المجلس

من يتهمه . ولذلك يجب ان يؤلف الوزارة هو وان يستقيل جميل مردم . هذا كله لم اسبر غوره الا بعد تاليف الوزارة والحاح القوتلي علي في تقديم المشروع الى مجلس النواب واصراره على اقالة الوزارة اذااذا تهربت او رفضت . وكنت في الواقع حريصا على تصديق اتفاق النقد مع فرنسا الذي باشرته في باريز ، وذلك لتامين ضمان النقد السوري . لكن الرئيس القوتلي صرح لي بوضوح : « اما ان نرسل مشروع التابلاين مع مشروع الاتفاق النقدي سوية الى المجلس واما ان لا نرسل شيئا ! »

وكانت اتصالاتي بالنواب اكدت لي استحالة موافقتهم على المشروع الاول وصعوبة التصديق على الثاني مع عدم الاستحالة .

فقلت لنفسي ان الاتفاق النقدي لازم لنا ومفيد لمصلحتنا ، وليس فيه اي التزام لسورية سوى احترام الامتيازات التي كانت حصلت عليها الشركات الافرنسية في زمن الانتداب ، وذلك ضمن حدود « التشريع السوري » . وكانت هذه القضية اثارت انتقاد النواب الذين اطلعوا على الاتفاق عند نشره في الصحف ، فرايت توكيد اطمئنانهم بأخذ كتاب من بسون ، رئيس المصرف السوري ، يذكر فيه صراحة ان اي تشريع سوري يصدر فيما بعد يكون نافذا على الشركات الافرنسية . وبذلك فسح في المجال امام الحكومة السورية لامكان استرداد حق اصدار النقد ، وهو اقصى ما كنا نريده . اما بقاء المصرف السوري كمصرف تجاري يتعاطى ما يتعاطاه غيره من المصارف ، فلم يكن لنا اعتراض عليه .

والاتفاق ، من جهة ثانية ، يضمن ثلثي موجودات شعبة اصدار النقد من الفرنكات . وهذا اقصى ما يمكننا الحصول عليه ، الى جانب الفوائد الاخرى التي ضمنها الاتفاق لسورية .

فلم يكن امامي سوى مناورة الرئيس القوتلي،على الشكل الذي يستطيبه هو . وذلك بان اقدم المشروعين معا الى المجلس ، وهنالك اعمل على الاسراع بابرام الاتفاق النقدي . اما اتفاق النفط ، فليرده المجلس . وهكذا اخلص انا منه دون ان يؤدي ذلك الى توتر العلاقات بيني وبين رئيس الجمهورية .

ومع ذلك لقد ذكرت للرئيس ان في الاتفاق كثيرا من الامور التي تحتاج الي ايضاح ، وان المصلحة تقضي بالتفاهم مع لبنان على مجابهة الشركة جبهة واحدة وطلب تعديل بعض الاحكام . واجتمعت لجنة مؤلفة من وزيري المالية والاقتصاد الوطني عن سورية ومن

زملائهما اللبنانيين ووضعت صيغة جديدة طلب من شركة التابلاين الموافقة عليها ، فوافقت . ووقعنا بالاحرف الاولى النصوص الجديدة وبعثنا الى مجلس النواب بمشروعي قانون بتصديق الاتفاقيتين .

واتضح للملأ ان المجلس غير مبال بتصديق اتفاقية الانابيب . وطلب النواب مني صورة عن التقرير الذي كنت وضعته في ١٩٤٦ . وكيف اطلعهم عليه وهو بجملته وتفصيله اعتراض على الاتفاق ؟ كانوا لا شك خبثاء ! لكنني لست غبيا الى الدرجة التي يتصورونها. فوعدتهم باني سأفتش عنه ، وباني عندما اعثر عليه ارسله لهم . فطلبوا مني اعطاءهم خلاصة شفهية عنكنهه ، فاكدت لهم انني نسيت مضمونه ، لكنه كان حاويا ، على ما اذكر ، بعض الملاحظات. فضحك النواب وضحكت وتغامزنا ... وانتهى الجدل .

وكان موقف النواب السلبي تجـــاه هذا الاتفاق في طليعة الاسباب التي حملت حسني الزعيم على القيام بانقلابه العسكري في الثلاثين من شهر آذار ١٩٤٩ . وليس ذلك لان حسني كان مهتما بتصديق الاتفاق ، بل لانه كان آلـــة صماء استعملها الامريكيون مباشرة ، او عن طريق الافرنسيين وعملائهم ، للاطاحة بالحكومة وبمجلس النواب وايصال حسني الزعيم الى الحكم . فلا عجب ان يعمد فورا الى اصدار مرسومين اشتراعيين ، صدق وابرم بهما كلا من الاتفاقيتين .

وقد اتيت فيما بعد على ذكر ما تم بشأن هاتين الاتفاقيتين في عهد وزارة هاشم الاتاسي ، على اثر مقتل حسني الزعيم ، وكيف ان امريكا وبريطانيا وفرنسا اشترطت للاعتراف بالحكومة السورية الجديدة ان تقر هاتين الاتفاقيتين ، وكيف ان وزير الخارجية ، ناظم القدسي ، اعطى وزراء تلك الدول كتابا رسميا بما طلبته . وهكذا تخلص حزب الشعب من تصديق مجلس النواب ومن تحمله مسؤولية ابرامهـــا .

وكذلك عدلت اتفاقيات مرور النفط في عهد وزارتي في ١٩٥٠ ، كما ورد في البحث الخاص بها .

ومما تجدر الاشارة اليه هو ان انابيب البترول العائدة لشركة نفط العراق ومراكز مضخاتها الدافعة ، قد نسفت ابان العدوان البريطاني ـــ الافرنسي على بور سعيد ، وذلك بالاتفاق بين اركان الجيشين السوري والمصري . اما انابيب شركة البترول الاميركية فلم تنسف ، رغم ان مالكها ، الشركة الاميركية ، لم تقبل بالتعديلات

التي قبلتها شركة نفط العراق في ١٩٥٦ . فهي لم تزل متعنتة ترفض دفع العائدات السنوية بموجب الاسس التي تعاقدت سورية ولبنان عليها مع شركة النفط العراقي . ومع ذلك ، فان احدا لم يمس انابيبها ولا مراكز مضخاتها . وهكذا نجحت تلك الشركة بتزييت الدواليب ، وحمت مصالحها حماية جيدة . وهي لم تزل تسوق زيوتها عبر سورية ولبنان والاردن والسعودية ولا تدفع سوى المبالغ التافهة التي جرى التعاقد عليها في ١٩٤٩ .

اما الموقف من قضية فلسطين ، فافردت له بابا خاصا يمكن الرجوع اليه .

قضية الخبز

واما قضية الخبز ، فقد ذكرت في هذه المذكرات ، في الجزء المتعلق بحكومتي المؤلفة في ١٩٤١ ، شيئا عن هذه المعضلة التي ولدتها الحرب العالمية الكبرى . وعندما تسلمت رئاسة الحكم في ١٩٤٨ ، وجدت ان الخزينة لا تزال تتحمل الفرق الناتج عن اسعار بيع الخبز وكلفته في دمشق وحلب . وتبين لي ان استمرار الدولة بتحمل هذه الخسائر التي تكبد الميزانية ملايين الليرات السورية سنويا راجع الى خوف الحكومات المتتالية من ثورة الشعب ، اذا هي امرت بزيادة سعر بيع الخبز . وكان السبب في ازدياد ارقام الخسائر هو عدم الاكتفاء ببيع الخبز الرخيص من الفقراء المحتاجين. فمع انه كان يسمى بخبز الفقر ، الا انه كان يباع من اصحاب الوجاهة من المنتخبين الثانويين في كل حي ، لكي يحتفظ بعض الساسة بنفوذهم الشعبي .

ودرست الموضوع مع السيد حسن جبارة وزير المالية ، فاتفق رأينا على الغاء خبز الفقر ورفع هذه الخسائر عن كاهل الخزينة . وذلك بأن يطلب الى كل بلدية ان تضع جدولا بالفقراء المحتاجين حقا ، وان توزع عليهم الخبز بالمجان او بسعر رخيص . اما الاخرون الذين كانوا يبتاعون خبز الفقير ويبيعونه بقصد الكسب ، فيحرم عليهم . واذا بقيت خسارة بسيطة ، فالبلديات تتحملها . وكانت العملية التي قررنا اجراءها تشبه قضية كريستوف كولومبس والبيضة .. لا اكثر ولا اقل !

وعندما وضعنا النصوص التشريعية ، عرضتها ليلا على رئيس الجمهورية وقلت له : « سأقدمها غدا صباحا الى مجلس النواب وهو يقرها فورا فتدخل في دور التنفيذ بعد غد ! » فاجفل القوتلي في سريره ، وكان مريضا ، واعتدل في مجلسه وقال : « انني

اخشى ان تقوم ثورة غدا في دمشق فتقلب الحكم ، كما حصل في زمن جميل الالشي . لا ... لا ... لا اقبل ... انتظر .. لنمهد السبيل قبل كل شيء ! » فاجبته : « لا حاجة لاي تمهيد . فانا ضمين بحسن العاقبة ! » فقال : « واذا ثارت البلد ؟ » قلت : « استقيل واذهب كبش الفداء » . فارتاح نوعا ، لكنه عاد بعد التفكير يندد بي قائلا : « لكنك لو اخبرتني ... كنا اتصلنا بالجرائد وجعلناها تمدح هذا العمل .. وتشيد بذكرنا .. فنكسب بذلك شعبية كبرى لانقاصنا اعباء الخزينة ... »

فقلت بنفسي : « يا الله ! هذا الرجل لا يفكر الا بالشعبية ، ولا يخاف الا من ثورة الشعب ضده ! » فقلت : « لا بأس من استدعاء بعض الصحفيين الآن . فجرائدهم سوف تصدر صباحا . وثمة مجال للقيام بالدعاية اللازمة ! » وهكذا كان . فقد قام الرئيس من سريره — وقد فعل الامر فيه اكثر من فعل العلاج — واستدعى الصحفيين وبدأ يشرح لهم القضية من اولها الى آخرها . ثم انتهى الى انه هو الذي اشار على الحكومة بالاقدام على حل هذه المعضلة . وهكذا صدرت صحف الصباح وهي تمدح رئيس الجمهورية الذي آلمه ان تستمر الخزينة على تحمل الخسائر ، فوجد الحل المناسب واصدر اوامره للبلديات بايجاد نوع من الخبز رخيص يقدم للفقراء ... الى غير ذلك من اسباب الدعاية والبهرجة . وكنت اضحك على هذه العقلية واشبهها بشغف الولد الصغير بالدمى ، يداعبها ويسر بها ، واقول لنفسي : « لندعه يشفي غلته .. وليتركنا نعمل ! »

وعندما قدم المشروع الى مجلس النواب تقبله الاعضاء بكل ترحيب ، لا سيما نواب حمص الذين كانوا يعتبون على الحكومات التزامها جانب مدينتي دمشق وحلب واهمالها سائر المدن .

وقد علمت ، بعد عودتي للحكم في السنين التالية ، ان البلديات لم تجرؤ على تنزيل سعر الخبز بما ينقذها من الخسارة . فظلت هذه المبالغ تسلفها الخزينة وتطالب البلديات بها .

قضية المال اللازم لشراء الاسلحة والذخائر

وثمة قضية اخرى عالجتها حكومتي ، وهي كيفية تدارك الاموال اللازمة لشراء الاسلحة والذخائر التي اشتريتها من باريز . فقد اقترح وزير المالية حسن جبارة بأن نستصدر من مجلس النواب قانونا يجيز للحكومة ان توقع سندات دين على الخزينة بقيمة خمسة عشر مليون ليرة سورية ، ثم تسلمها الى بنك سورية فيضعها ضمن تغطية النقد . فيصدر بها نقدا متداولا يسلمه للخزينة .

ولم يكن ثمة مجال آخر غــــير القرض الخارجي او القرض الداخلي ، اذ ان موارد الخزينة لم تكن تسمح بتناول هذا المبلغ من ميزانية العام الحالي . اما القرض الخارجي فلم يكن موضوع بحث لعدة عوامل ، اهمها انه لا توجد حكومة اجنبية مستعدة لاقراضنا ، بما في ذلك الشقيقات العربيات الموسرات ، كالعراق والسعودية ، التي كانت حريصة على اموالها ولا تفكر بمساعدة احد . ولم يخرج اقتراحنا عن انه نوع من القروض الداخلية . وهو بالاضافة الى ذلك لا يشعر به الناس ولا يتململون منه .

وعندما تقدمت الى المجلس بمشروع القانون هذا ، اراد حزب الشعب ان يداور كما كان يفعل تجاه كل مشروع تتقدم به حكومة لا يشترك بها . واراد خطباؤه ان يستروا معارضتهم للمشروع بشتى الاسباب المختلفة . فلم يكن لي بد من الكلام بصراحة قائلا لهم : « لو اجمع مجلس النواب على رايكم ومنع المال الذي تطلبه الحكومة لاجل تسديد ثمن السلاح المشترى ، فالنتيجة هي اني اضطر عندئذ لاعادة هذا السلاح الى فرنسا وابقاء جيشنا بدون سلاح وبدون مقاومة تجاه القوى اليهودية الرابضة في وجه قواتنا . فهل هذا ما تريدون ؟ ومن يتحمل الا انتم في المســـتقبل مسؤولية الفاجعة ... فاجعة احتلال اليهود بلادنا ؟ » واردفت قائلا : « انني لا ابقى لحظة واحدة على رئاسة الحكم ، اذا رفض المجلس هذا المشروع . وليتحمل كل منا مسؤوليته تجاه الضمير والراي العــام والتــــاريخ ! »

وشعرت بحركة غير عادية بين النواب ، نتيجة الاثر الذي تركه هذا الخطاب الذي صفقت له بحماس اكثرية النواب وعلى راسهم السيد جميل مردم بك الذي اقبل علي وصافحني بحرارة قائلا : « اهنئك على هذا الموقف الجريء ! » وقام السيد رشدي كيخيا ، رئيس حزب الشعب ، طالبا تاجيل الجلسة ربع ساعة ليتداول هــو وجماعته الامر مجددا . فاجلت الجلسة . وقال لي اصدقائي : « لقد فزت بالاجماع . اذ سيعود الشعبيون عن قرار معارضة المشروع » . وبالفعل قام الكيخيا عند التئام الجلسة واعلن ان حزبه قرر الموافقة على المشروع . وغمغم بعض جمل فهم منها ان الحزب يثق بي شخصيا ولا يريد عرقلة تسليح الجيش . وقد ارتاح سائر النواب الى انتهاء الامر على هــذا الوجه . ثم اقر المشروع بالاجماع ، فشكرت المجلس بمجموعه وحزب الشعب على ثقتـــــه .

وقد تركت هذه الجلسة اثرا مستطابا في جميع الاوساط ، من حيث ضم الجهود لمواجهة القضايا الخطيرة . وتولدت بين نواب حزب الشعب فكرة ان الاشتراك بالوزارة يجعلها قومية تجمع مختلف الهيئات والاحزاب . وبدات الاتصالات بي لتحقيق هذه الفكرة . الا ان الانقلاب حال دونها . فاضطررت لترك الحكم دون الوصول الى هذه النتيجة التـي كانت ربما غيرت مجرى الاحوال ، لا سيما ان الجو بدمشق انقلب الى الصحو وزالت حـدة التوتر التي سادت البلاد في شهر تشرين الثاني وكانون الاول الماضيين . ذلك ان الناس تنسموا عبق الحرية . وعم الاطمئنان ، وبات الامل معقودا على ان تصبح العلاقات بين الحكومة والشعب علاقات محبة وتفهم وثقة متبادلة . وهذا هو الشرط الاساسي لاستقرار الامور في اي بلد .

قضية فلسطين والعوامل التي اساءت اليها

لو كانت هذه المذكرات كتاب تاريخ ، لما جاز لي طي بحث القضية الفلسطينية . لكنها ذكريات خاصة عن اعمالي وعما شاهدته وسمعته واشتركت فيه فعلا . وحري بالذين اسهموا في كل ما جرى بفلسطين ، ان يبرزوا للراي العام ما لديهم وان يكتب كل واحد منهم مذكراته الخاصة ليتولى الاخصائيون بفن التاريخ جمع هذه الاخبار ونبذ الكذب منها وتسجيل تاريخ القضية الفلسطينية الصحيح ، ليفيد الجيل الحاضر والاجيـال الصاعدة من عبر الحوادث واخطـاء المـاضي .

عندما تسلمت زمام الامر في اواخر ١٩٤٨ ، كان وقف النار نافذا بين الجيوش العربية وبين جيش اليهود . وكان الموقف جامدا في مجموعه ، وجهودُ الامم المتحدة محصورة في حمل الدول المتحاربة على عقد صكوك مهادنة . فيجتمع الطرفان تحت رئاسة مندوب الامم المتحدة ويتحادثان وجها لوجه ، اعتقادا ان هذه الاجتماعات تنتهي ربما الى عقد معاهدة صلح تعترف بها الدول العربية بالدولة الاسرائيلية وتنتهي الازمة في الشـرق الادنى ، بموجب مخطط التقسيم الذي اقرته الجمعية العامة بعد ادخال التعديلات المكانية التي حصل عليها اليهود باحتلالهم النقب باجمعـه والمثلث العربي الاصل . الا ان حكام العرب لم يجرؤوا على الاقدام على عقد الصلح، واكتفوا بعقد اتفاقيات الهدنة التي اسموها دائمة لانها غير محدودة بمدة معينة ، كما يكون الامر في اتفاقيات الهدنة التي تعقد عادة بين المتحـاربين .

وكانت مصر اول دولة عربية قبلت مبـدأ الهدنة الدائمة

وارسلت مندوبيها الى رودوس ، دون ان تستشير شقيقاتها العربيات . فنفتحت بذلك اول فجوة في الصف العربي . وتدعي مصر بان موقف الملك عبد الله وموقف العراق كانا السبب في شذوذها ، مستشهدة بعدم اقدام العراق على احتلال تل ابيب وهي على مرمى قنابل جيشه ، وبانسحاب قوى الملك عبد الله من المثلث (اللد — طولكرم — نابلس) ، وذلك حتى لا يبقى اي جيش عربي في المنطقة التي قضى قرار التقسيم بتخصيصها لليهود . وكان المرحوم النقراشي باشا ، رئيس وزراء مصر ، اشد الناس نقمة على رجالات العراق والاردن. فاتهمهم بالخيانة وبالتبعية لسياسة بريطانيا والولايات المتحدة . لكنه كان يرجف عندما يذكر امامه استئناف القتال .

واجتمع مندوبو مصر ومندوبو اسرائيل العسكريون في رودوس تحت رئاسة مستر بانش ، الوسيط الدولي ، الذي حل محل الكونت برنادوت الذي اغتاله اليهود . وانتهت المباحثات بعد اول هدنة رضائية بين دولة عربية واسرائيل . وانتهجت الدولتان العربيتان ، شرق الاردن ولبنان ، نهج مصر . اما العراق والسعودية فاحجمتا عن عقد الهدنة لفقدان الحدود المشتركة بينهما وبين اسرائيل . ولم يبق في الساحة الا سورية . وكان الضغط عليها شديدا .

ورايت عرض الحالة على مجلس النواب ، بخلاف ما سار عليه رؤساء الوزارة السابقون ، من حصر جميع المعلومات بهم وعدم اطلاع المجلس على حقيقة الوضع واستشارته فيما يجب عمله . ولا ريب في ان المجالس — اذا عرضت عليها امور خطيرة كهذه ، لا سيما في جلسات علنية — تسود اعضاءها نعرة التحبب الى الشعب باظهار الحماسة والتطرف اللذين لا يثمران الا الضرر اذا لم تلازمهما الروية والحكمة في معالجة الصعاب . غير ان خشية انسياق النواب في طريق المزايدة الشعبية يجب ان لا تمنع الوزراء المسؤولين عن ابداء رايهم الصريح وكشف حقائق الامور وفسح المجال امام كل فرد ليتحمل مسؤوليته تجاه امته . وتلافيا لهذه المشاكل والمتاعب ، لا مندوحة من طلب جعل الجلسة سرية ، ليفصح كل نائب عن رأيه الحقيقي ، ولتدلي الحكومة بما لا يصح نشره على الملأ .

وفي الجلسة السرية التي طلبت من الرئيس فارس الخوري

عقدها ، صارحت النواب بالحقائق مجردة من كل تلوين معيب ، وافضيت لهم بأن سورية لوحدها - وحتى مع شقيقاتها - لا تستطيع انقاذ فلسطين . بل هي لا تستطيع حماية اراضيها اذا هجمت عليها القوى الصهيونية . وقلت انه لم يبق في الساحة سوى سورية بين البلاد المتاخمة لاسرائيل . وبسطت راي الحكومة في السير على نهج مصر ولبنان والاردن ، وارسال وفد الى رودوس لعقد هدنة مع اليهود .

ولمست لدى النواب ارتياحا لبياني الصريح المسهب الذي حرصت على تجنب المواربة به . وبداوا بالادلاء برايهم دون ان يجنحوا الى اكتساب الشعبية الرخيصة باسماع النظارة ما يلامس عواطفهم الوطنية . وبعد اخذ ورد طويلين كانت الجلسة خلاله كانها ناد يتبارى الخطباء فيه بتقديم احسن الحلول العملية ، طلبت من الاستاذ الخوري ان يدلي برأيه. فسرد تاريخ القضية من اولها، وذكر الحوادث وعدد المسؤوليات . وانهى حديثه بأن اقترح على النواب ان يثقوا بالحكومة ويفسحوا لها في مجال العمل على حسب ما ترتاح له ضمائر اعضائها . فأقر النواب هذا الاقتراح وانتهى الاجتماع السري بهدوء وتأثر ظاهرين .

وعلى اثر ذلك ، استدعيت السيد فريد زين الدين وطلبت اليه الاتصال بمستر بانش . فأبرق له ، ثم سافر الى رودوس واجتمع اليه وطلب منه ما اصررت عليه به من ضرورة التمسك بجعل خطوط الهدنة حيثما هي الجيوش المتقابلة في الوقت الحاضر. وبذلك نكون احتفظنا بما كانت قطعاتنا العسكرية احتلته من الاراضي اللازمة لمناهجنا الدفاعي في المستقبل . وكذلك اكدت عليه بضرورة الاصرار والدفاع عن مبدأ جعل الخطوط في منتصف سطوح الماء ، اي منتصف نهر الشريعة ومنتصف بحيرة طبريا . ووعد المستر بانش بدعم طلب سورية . وتواعدا على موعد فتح المباحثات ، وعاد زين الدين الى دمشق . وكان ذلك في الايام الاخيرة من شهر آذار . ولم يمهلنا حسني الزعيم ، فقام بانقلابه صباح الثلاثين منه ، وتولى هو بنفسه امر المباحثات مع اليهود . ويقال انه اجتمع سرا مع بن غوريون .

وانتهت مفاوضات الهدنة بين سورية واليهود في عهد حسني الزعيم بأن قبلت سورية الانسحاب من جميع الاراضي التي كانت احتلتها ، بعد حمامات الحمة ومحطة سكة الحديد فيها . كما

تنازلت عن طلب جعل خط الهدنة مارا بمنتصف سطوح المياه . وقبلت ان تكون الحدود السياسية السابقة بين سورية وفلسطين هي الخط الفاصل . اما الاراضي المحتلة ، فعادت بمعظمها الى اليهود ، عدا جزءا منها سمي منطقة مجردة لا يجوز للقوى العسكرية دخولها . وتركت بالاضافة الى ذلك منطقة كانت القوى اليهودية احتلتها ليلة الهدنة ، وهي كائنة على الجرف المشرف على بحيرة طبرية .

واصبحت بموجب هذه الشروط جميع الشواطىء على بحيرة طبرية مناطق مجردة لا يجوز للقوى العسكرية ولوجها ، وهي تدخل ضمن الشاطىء السوري لمسافة عشرة امتار مما تصل اليه مياه البحيرة على اعلى ارتفاع .

انني لا انكر على حسني الزعيم عقده الهدنة ، بل انكر عليه عقده اياها بشروط اقل من التي كان يجب التمسك بها ، والتي كان يمكن الحصول عليها بقليل من الاصرار . فانه لو اظهر عنادا وثباتا لحصل على رسم خطوط الهدنة في منتصف سطوح المياه ، ولجعل موقف الجيش السوري في المستقبل احسن وضعا مما هو عليه الآن .

غير ان حرص حسني الزعيم على مسايرة الاميركيين للحصول على اعترافهم به وتأييدهم له ، ثم حملهم السعودية ومصر ولبنان على الاعتراف به ايضا ، وغير ذلك ، ادى الى رضوخه لمشيئة اليهود بجعل مواقع الجيش السوري غير مؤاتية .

وكان شأن حسني الزعيم بهذا المجال كشأن سائر ملوك العرب ورؤسائهم . وذلك بتفريطهم في حقوق الامة وفي مصالح البلاد العربية لاجل الحصول على منفعة خاصة او المحافظة على العرش والرئاسة ، او في سبيل هدم هذا العرش العربي او ذاك ، طمعا في مغنم من المغانم .

ولست ، كما ابديت آنفا ، في معرض سرد وقائع حرب فلسطين . ذلك لانني كنت في باريز بعيدا عن سورية ولا اريد ان اسجل وقائع نقلت الي ، خشية ان يكون الغرض قد دفع راويها . ناهيك بأن وضع تاريخ لقضية فلسطين يتطلب جهودا جبارة ليس بمقدور الفرد ان يتولاه لوحده . فلا اريد والحالة هذه ان اتجاوز بهذه المذكرات عما اشتركت فيه من الحوادث . غير انه لا بأس من تبيان رأيي في الاسباب التي ادت الى خسارة حرب فلسطين ،

اذكرها لا على سبيل الحصر ولا على حسب تدرجها في الاهمية :

رأيي في اسباب خسارة العرب حرب ١٩٤٨

اولا : تفرق الكلمة ، لا بين العرب ، لكـــن بين ملوكهم ورؤسائهم ، والتحاسد والتباغض اللذان اديا الـــى انقسامهم الى معسكرين : هاشمي (العراق وشرق الاردن نسبة الى سلالة الملكين) ، وغير هاشمي (وهو الذي كان يترأسه الملك عبد العزيز بن سعود ـــ بسبب عدائه السابق للعائلة التي كانت صاحبة الملك في الحجاز ـــ ويتبعه في سلوكه ملك مصـــر ، ورئيس جمهورية سورية شكري القوتلي ، ورئيس جمهورية لبنان بشارة الخوري، تبعا لنهج رياض الصلح) . فكان عاهل المملكة العربية السعودية يداب على مناواة ملكي العراق والاردن. وكان الملك عبدالله يسعى لضم سورية الى الاردن وتبوء عرش سورية الكبرى . وكان ملك العراق وولي عهده الامير عبد الالـــه يدبران المؤامرات لادخال سورية والعراق والاردن في ما كانوا يسمونه « الهلال الخصيب ». فيضمنان بذلك الاستيلاء على سورية واقامة عرش فيهـا للامير عبد الاله . ومع ان هذا المشروع كـــان معاكسا لمشروع الملك عبدالله ، الا ان هاشمية هـــذين الملكـــين والوصي ، كانت توحد كلمتهم ضد الملك عبد العزيز واتباعه . فكيف يتصور قيام جبهة عربية موطدة الاركـــان ، ورؤساؤها يصرفون جهودهم لمحاربة بعضهم بعضا ، بدلا من محاربة الاعداء ؟

ثانيا : تسلط النفوذ البريطاني على ملوك العرب ورؤسائهم بدون استثناء . وقد تبلور ذلك في التريث بالهجوم عـــلى فلسطين قبل انسحاب الجيوش البريطانية منها ، فاضيعت بذلك فرصة احتلال الاجزاء من فلسطين التي تسلمتها القوى اليهودية وتمركزت فيها في هذه الفترة . اما في سورية ، فالكولونيل كورنوالس البريطاني كان حلقة الاتصال بـــين وزارة الخارجية البريطانية والسيدين شكري القوتلي وجميل مردم ، اللذين كانا يتبلغان عن طريقه تعليمات « داوننغ ستريت ». اما ملوك العراق والاردن والسعودية ورئيس لبنان ، فكان امرهم معروفا ومشهورا اكثر مـــن امر الفاروق والقوتلي . فقد اكتفوا باحتلال جيوشهـــم للاراضي المخصصة للعرب بموجب قرار التقسيم ، وامتنعوا عن دخول غيرها .

ثالثا : فقدان السلاح والذخيرة في جميع الجيوش العربية . فقد دخلت هذه الدول الحرب ولم يكن لديها ـــ كما اعترف بذلـــك حسني الزعيم في اجتماع عسكري عال عقد في القاهرة ـــ اكثر مما

يستهلكه جيش منظم بمعركة تدوم يومين ... نعم يومان فقط ! والمسؤول عن ان الجيوش العربية لم تكن مجهزة بهذه المواد التي لا نستطيع بدونها ان نطلق على تلــــك الجموع صفة جيش ، هم الرؤساء الذين كانوا قد اخذوا على عاتقهم السياسة الخارجية والعسكرية . فكانوا لا يتركون لحكوماتهم حق النظر في هذا القطاع الذي يحصرونه بهم . واقصد بالرؤساء رؤساء الدول ، من ملوك ورؤساء جمهورية في كافة البلاد العربية .

ولرب قائل بان الدول الكبرى منعت تصدير الاسلحة الى دول الشرق الادنى . فاجيب على هذا القول بان هذا المنع صدر في ١٩٤٧ . اما قبل ذلك ، فكان مباحا وممكنا ، سواء من الدول الكبرى او من غيرها ، كسويسرا وبلجيكا خلال اعوام ١٩٤٥ ــ ١٩٤٦ ، وباوائل ١٩٤٧ نفسها . فرؤساؤنـــا لــم يسلكوا سبيلا منسجما بين عنادهم ورفضهم اي حل لقضية فلسطين ــ كالسماح بمجيء مئة الف لاجيء والتقسيم المقترح في ١٩٤٧ ومشروع برنادوت نفسه ــ وبين عدم تزويد جيوشهم بالسلاح وتوحيــــد اركانها وخططها . فالعناد والرفض جائزان لـــو كان يرافقهما تسليح وتخطيط وتنظيم للقـــوى الشعبية والقـــوى العسكرية . لكنهما جنايتان ، اذا ما اقتصرنا على الخطب الرنانة والمواقف الشعبية الرخيصة ، بينما الجيش فقير بالاسلحة والذخائر ، وغير مدرب وغير منظم ، ولا تقوده هيئة موحدة من الضباط والامراء المخلصين. ولم ينشط الرؤساء الى تدارك الاسلحة الا حين وقوع الواقعة . فارسلوا الوفود الى كــل بلد لشـــراء مـــا يمكن شراؤه ، وراحوا يشترون البنادق وطلقاتها ممن يهربونها من الاردن وهي من اسلحة جيشه ! فكانوا كمن يسرق من جيبه اليسرى ليملأ جيبه اليمنى . وكانوا يبعثون البعثات الى اوروبا فتتعاقد علـــى الصفقات بأي ثمن ، فيغرق وينسف بعضها . ويصل الباقي ، واذ به سلاح فاسد وذخيرة اكسبها اخفاؤها تحت الارض سنين عديدة طبقة من الصدأ افقدها فعاليتها . وقد شاهدت بأم عيني عمالا يستخدمهم متعهدو جلب الاسلحة والذخائر في ازاحة طبقة الصدأ ليخفى من المحققين عتقها ورداءتها . وكانت تلــك المشاهدات احد اسباب حنق حسني الزعيم ولجوئه الى القيام بانقلابه . فقد كان شريكا لاولئك المتعهدين ومتفقا معهم عـــلى اخفاء رداءة الذخيرة والسلاح وقبول تسلمه بحالته الراهنة !

وقد سردت في ما سبق من هذه المذكرات ما لقيته في اوروبا من الصعوبات في تدارك الاسلحة والذخائر ، سواء في فرانسا او بلجيكا او اسبانيا او ايطاليا او سويسرا ، وكيف انني توصلت ذات مرة الى عقد اتفاقية مع وزارة البحرية الافرنسية لشراء كمية كبيرة ، وكيف ان الوزراء اليهود هددوا الحكومة بالاستقالة وبانسحاب حزبهم منها اذا وقع العقد ونفذ ، وكيف انني بعد بذل الجهود المتواصلة في جميع البلاد الاوروبية التي ذكرت لم انجح الا بعقد صفقة واحدة مع فرانسا قبيل عودتي من باريز ، تلك الصفقة التي باعتنا اياها الحكومة الافرنسية حرصا على عدم تمكين الملك عبد الله من احتلال سورية وضمها لبلاده ، بسبب ضعف جيشنا بالنسبة لجيشه . وقد وصلت هذه الصفقة بسلام الى مرفأ بيروت بحراسة بارجة حربية فرنسية رافقت السفينة التي شحنت عليها المعدات . وهكذا حمتها على هذا الوجه من هجوم القطعات البحرية اليهودية والاستيلاء عليها .

وكانت فرانسا قريبة المنال لو احسنا سياستنا معها ودغدغنا مشاعرها الحساسة قليلا ، كالسماح لمدارسها بممارسة نشاطها وغير ذلك من الامور التي لا تضر مصلحتنا العامة . لكننا بدلا من ذلك عاكسناها على طول الخط وتذفناها باستمرار بانواع الشتائم وترديد ذكريات الانتداب والجلاء والعدوان بدون انقطاع . وكنت استطيع خلال إقامتي في باريز ، في ١٩٤٧ و ١٩٤٨ ، ان اعمل على تقريب السياسة الخارجية الافرنسية من سياستنا العربية لو لم تقيد يداي الاثنتان بتعليمات مشددة ضد كل اقتراح ابعث به الى دمشق من شأنه استرضاء فرانسا بقضايا ليست ذات بال ، كقضية المدارس الافرنسية ، وذلك لقاء الحصول على تأييدها الكامل او الجزئي ومدها جيشنا بما يلزمه لزوما شديدا . ولدي على سبيل المثال صورة كتاب بعث به الي رئيس الجمهورية جوابا على الحاحي عليه في استرضاء الافرنسيين بأمر مدارسهم. والمضحك انهم في دمشق كانوا يرسلون البرقية تلو البرقية بالسعي للحصول على تأييد فرانسا وعلى السلاح، وهم يمطرونها بوابل الاهانة وينادون باغلاق المدارس الافرنسية والاستيلاء على املاكها في سورية .

صحيح ان الصهيونية كانت صاحبة نفوذ كبير في الاوساط الافرنسية الرسمية ، غير ان الراي العام كان يكره اليهود كما يكرههم كثير من رجال السياسة النافذين . فلو كنا سلحنا هؤلاء

القوم بما كان يشد بأسهم تجاه اخصامهم ، لكـــان الامر انقلب لمصلحتنا ولم يكن مطلوبا منا الا ان نكف عـــن مهاجمة فرانسا بصحفنا واذاعتنا وخطب ساستنا وان نسمح بفتح مدارسها وان نظهر لهـــا قليلا مـــن الرعاية والاكرام مـــع حسن المداراة . لكن الانكليز كانوا ساهرين . فاذا تقربنا قليلا من الافرنسيين او سكتنا برهة عنهم ولم نقذفهم بالشتم والسباب ، اسرع عملاء بريطانيا الى الدس وحمل المهووسين على تجديـــد النغمات المزعجة . فيتخذ اخصامنا اليهود حجة من ذلـــك ويعملون عـــلى اثارة عواطف الافرنسيين ضدنا مجددا ، فنخسر السلاح ، ونفوز في ميـــدان الشتيمة !

رابعا : لم يعمل رؤساؤنا على احكام الانسجام ما بين الجيوش العربية وبين القوى الداخلية التـــي جهزها المفتي الحاج أمين الحسيني وجماعته ، ولم يمدوها بالقليل الموجود لديهم من الاسلحة والذخائر . وكانهم خشوا بذلك ان يزيدوا نفوذ المفتي بأسا وشدة، فيصبح رئيس الجمهورية الفلسطينية ويستقل بها ، بينما كان لهم او لبعضهم مطامع في ضم جزء منها الى بلاده . وكان الحقد الدفين يتآكل فؤاد ذلك الملك او ذاك الرئيس .

اما قوى المتطوعين الذين هرعوا من سورية ولبنان بقيادة فوزي القاوقجي واديب الشيشكلي ، فلم يفـــد اخلاصهم ولم تثمر شجاعتهم ، فقتل منهم من قتل وجرح من جرح . وقـــد باعهم رؤساؤهم وتآمروا ضـــدهم وامروهم بالانسحاب والاستسلام في صفد وغيرها . فرجعوا الى مدنهم محتفظين بالبنادق والرصاص ليستعملوه ضد ابناء بلدهم فيما بعد .

خامسا : ومن هذا القبيل دعـــوة الحكومات العربية اهالي فلسطين الى الجلاء عنها واللجوء الـــى البلاد العربية المتاخمة ، بعد بث الذعر في صفوفهم على اثر واقعة دير ياسين . وقد افاد اليهود هذا الهروب الجماعي واستقر لهم الامر بدون عناء .

ولنتصور لو ان اهالي فلسطين الذين كـــان يتجاوز عددهم المليون بقوا في بلدهم ، فاي طابور خامس كانوا يؤلفون ؟ واي ازعاج دائم كان بقاؤهم يسبب لحكومة اليهود ؟

نحن نطالب منذ ١٩٤٨ باعادة اللاجئين الى ديارهم ، ونحن هم الذين حملناهم على الخروج منها. ولم يمض بين الدعوة للالتجاء ومطالبة الامم المتحدة باقرار اعادتهم سوى اشهر معدودات ...

اهذه هي السياسة الحكيمة المستقرة؟ اهذا هو الانسجام في الخطة؟ لقد قضينا على مليون لاجىء عربي ، وذلك بدعوتهم والالحاح عليهم بترك ارضهم ودورهم وعملهم وصنعتهم . فجعلناهم مشردين عاطلين عن العمل ، بعد ان كان لكل واحد منهم عمل ومهنة يكسب منها عيشه ، كما عودناهم على الاستجداء والاكتفاء بالقليل الذي توزعه عليهم منظمة الامم المتحدة ، واسهمنا في تدني سويتهم الخلقية والاجتماعية باسكان عشرات النساء والرجال ببهو واحد لا يفرق بين فراش اسرة وفراش اخرى سوى ستارة لا تعصم احدا منهم من الوقوع في الرذائل ... ثم استخدمنا الرجال منهم في الاجرام ، بالقتل والحرق والقاء القنابل على الدور وسيارات الركوب الحافلة بالرجال والنساء والاولاد — كل ذلك خدمة لاغراض سياسية في لبنان والاردن . فمنهم من اعتاد على هذه التعديات ولم يعد يروي غليله منها ، ومنهم من امتهن القتل وسرقة البيوت ، ومنهم من بلغ به اليأس من الحياة ان استسهل الكذب والخديعة واستباح لنفسه الاحتيال وسرقة شركائه في الاعمال التجارية والزراعية التي اراد المشفقون على هذا القوم ان يشركوهم معهم فيها ... واصبح حسدهم لذوي النعمة التي تركوا في بلدهم مثيلها يتنافس في قلوبهم ويتزاحم مع كراهيتهم لليهود . وزالت من قلوبهم مشاعر الانسانية والرحمة والشفقة لانهم امسوا يستجدونها . فاذا اشفق عليهم احد عدوه موفيا جزءاً من حقهم فلا يقرون له احسانا . ولا عجب في ذلك بعد ان لاقى القوم ما لاقوه من مصائب التشريد عن الوطن ، وذل الاستجداء ، وحقارة العيش عالة على الاجنبي .

والحكومات العربية لا تزال متمسكة بالقشور والاوهام . وهي تلحف على الامم المتحدة بتنفيذ قرارها باعادة اللاجئين الى ديارهم ، عالمة حق العلم انهم لن يقبلوا العودة تحت الظلم والتنكيل وانها اذا دفعتهم للعودة فهي تدفعهم لميتة اشر من الميتة التي تنتظرهم في البلاد العربية . ومع ذلك فلا يخلو قرار تصدره جامعة الدول العربية ولا اقتراح يقدم لمنظمة الامم المتحدة من تكرار وتأكيد للطلب بتنفيذ قرار الاعادة . ولا ينسى اي خطيب او كاتب ان يذكر في خطابه او مقاله قرار الاعادة ذاك كأنه الترياق ، او كأنه الحل المنشود لقضية فلسطين !

وساستنا ، بالزامهم انفسهم بعدم التنازل عن مسألة الاعادة،

لا يقبلون اي تشبث تقوم به الامــم المتحدة لمد اللاجئين بما يلزم لتوطينهم واسكانهم النهائي في اراضي البلاد العربية ــ منطقة غزة والاردن وسورية ولبنان ــ لانهم يدعون انهم اذا سمحوا بذلك او عملوا في سبيله فقــــد اعترفوا بوجود اسرائيل وتنازلوا عن حق اللاجئين بالعودة الى ديارهم .

وها قد مضى على قيام اسرائيل اثنتا عشرة سنة ولا تزال الاجتماعات العربية تضرب على نغم العودة كما يشهد بذلك ما جاء في قرار الجامعة العربية الصادر في اول شهر آذار ١٩٦٠ بالقاهرة :

« ١٢ ــ ان الوضع الحالي في قضيــــة فلسطين ومطامع الصهيونية التوسعية واعمال اسرائيل العدوانية المتلاحقة توجب على الدول العربية الاعضاء ان تعنى مجددا بمعالجة قضية فلسطين في طورها الحاضر متعاونة مع الدول التي تعترف بحقوق العرب وان تعمل بما يكفل تحقيق العدل وفق ميثاق جامعة الدول العربية وميثاق الامم المتحدة .

« ١٦ ــ ان عودة الشعب العربي الفلسطيني الى وطنه عودة حرة كريمة هي حق طبيعي اصيل ، وقرارات الامم المتحدة في صدد رجوع اللاجئين العرب الى ديارهم انما هــي اعتراف وتأييد لذلك الحق . وحين تعمل الامم المتحدة على اعادتهم الى وطنهم تكون قد خطت الخطوة الاولى لبلوغ حل سليم يقوم على اساس الحق والعدل لا على اساس العدوان والامر الواقع . »

وقد اثبت الى جانب الفقرة ١٦ من القرارات المذكورة بشأن عودة اللاجئين، الفقرة الثانية عشرة . وهي دليل صريح على فقدان السياسة الايجابية لدى الدول العربية . اذ انها لا تزال توصي بوجوب العناية مجددا بمعالجة قضية فلسطين . فالقضية لم تعالج حتى الآن اذا ، ولم يتخذ بشأنها اي قرار عملي سوى قرارات المطالبة بعودة اللاجئين ، وعدم الاعتراف باسرائيل . وهذه القرارات ليست الا قرارات خوف من تحمل المسؤولية تجاه الشعب ، ومن الاعتراف بان الدول العربية عاجزة عن استرداد فلسطين لنقص قواها ، ولتفكك عرى الروابط بــين حكوماتها ، ولتنازع رؤسائها وخوفهم من ان يتسلط بعضهم على بعض .

سادسا : من المكابرة بالمحسوس ان ننكر ان اليهود الذين هاجروا من اقاصي الارض الى فلسطين جــاؤوها في عــز شبابهم ونضارة اجسامهم ، مزودا اكثرهم بالعلم الصحيح وبالنية المبيتة

على انشاء وطن جديد يعيشون تحت لوائه ، وبالعزم الاكيد للدفاع عن حريتهم ، وعن الاستقلال الذي وعدوا به ونالوه غصبا عن سبعين مليون عربي !

فهذا الشعب الذي تكون في فلسطين اصبح كتلة متراصة، رغم ان افراده تجمعوا من بلاد شتى ويتكلمون لغات متعددة . وقد اثبت تكتل اليهود في فلسطين وتأليفهم شعبا قويا موحد العناصر،ان النظرية الصائبة في تحري العناصر التي تجعل الناس يؤلفون شعبا واحدا ، هي وحدة الشعور والاتجاه والرغبة في تكوين شعب والدفاع عن حقوقه وحرياته ، لا منشأ القوم ولا وحدة لغتهم ولا وحدة دينهم . فاليهود دلفوا الى فلسطين من شتى الاقاليم ، وكل يتكلم لغة البلد الذي كان يعيش فيه ، حتى ان اغلبهم يجهل العبرية . اما الدين فليسوا متمسكين به ، وخاصة الطبقة الفتية الناشئة .

وهذا الشعب الفتي — (اذ ان نسبة الشباب فيه اعلى منها في اي شعب آخر لان المهاجرين اليهود كانوا في كثرتهم شبابا . فما في اسرائيل الآن الا قدامى المهاجرين المستوطنين منذ عام ١٩٢٩ ، وهي اقلية ضئيلة) — يمكن تشبيهه بالنجمة الحديثة . اما الشعب العربي المجاور فتصح مقارنته بالنجوم التي وصلت الى دور الشيخوخة والعجز ، فلا يجدد شبابها ويثير كامن قوتها الا هزة عنيفة او اصطدامها بكوكب آخر !

فنحن العرب مثل الكوكب الكهل ، بلغت منا الشيخوخة ووصل بنا العجز الى ما نحن فيه من ارتخاء وتواكل وفقدان العزائم ... ولا يعيد البناء النشاط والحيوية سوى صدمة قوية تدفع قوانا الخائرة وتبعثها الى الوجود ثانية ، بقيادة حكيمة تسير بالامة في الصراط المؤدي الى العلى والعز بخطى ثابتة خالصة بريئة من كل شائبة .

وكان جديرا بان نعتبر كارثة فلسطين الصدمة القوية المنتظرة، وبان نامل منها النتيجة الملتمسة . لكن بقاء الرؤساء المسؤولين عن الكارثة نفسها على رئاسة الحكم ، حال دون حصول الثورة المنتظرة. ثم اتت الانقلابات في دمشق والقاهرة وبغداد وبيروت . واغتيل الملك عبد الله . غير ان القائمين بتلك الانقلابات ما كانوا يملكون الميزات التي تؤهلهم لاستلام قيادة الامة العربية وبعث الحياة فيها وتسييرها في طريق التقدم والارتقاء السريعين . وانما انشغل الحكام الجدد بتثبيت اقدامهم في بلدهم ، باديء ذي بدء . ولم تمهلهم

المؤامرات الاجنبية والتيارات المعادية بين بريطانيا وامريكا وفرنسا ، التي لعبت دورها السيء في عدم استقرار الامور في البلاد . ومضت سورية ومصر من انقلاب الى انقلاب ، جاء كل واحد منه بزعيم جديد ليعبث بما كان بدأ به سلفه .

والحق ان الشعوب العربية لم تكن كل مرة تمنح ثقتها المطلقة لمن يصنعون الانقلابات ، سواء لقصر مدة حكمهم ، او لان الانقلابات نفسها لم تكن وليدة ثورة شعبية بل نزوة فريق من العسكريين او السياسيين لا جذور راسخة لهم في اعماق قلوب الامة . ومع ذلك فقد سايرت الجموع اولئك الزعماء وسارت في ركابهم حتى تبين لها انهم لا يختلفون عمن سبقهم الا بنوع الرداء وبتقاسيم الوجوه . فخابت آمال الشعوب وظلت القوى المدخرة كامنة في محلها .

فشل التجربة الاخيرة في توحيد صفوف العرب بقيادة عبد الناصر

وكانت التجربة الاخيرة قيام الرئيس عبد الناصر بتوحيد سورية ومصر . وسايرنا هذه الخطوة اعتقادا منا انها ستؤدي الى جمع البلاد العربية كلها في وحدة كاملة . وسعينا منذ ١٩٥٥ الى تحقيق هذه الخطوة واخترنا عبد الناصر زعيما لهذه القفزة . وكان تخوفنا من عبر الماضي قد حملنا على ابداء بعض الاعتراضات والملاحظات في كيفية تكوين الوحدة بين الجمهوريتين السورية والمصرية . فلم يقبل بها عبد الناصر ولم يقف الى جانبي اي وزير سوري او حزب ، فاصررت في آخر جلسة عقدناها بالقاهرة قبل اعلان الوحدة اننا نريدها جذابة قوية تغري سائر الدول العربية بالدخول فيها بطيب خاطر وعن ايمان بافضليتها على اى نظام آخر . لكن الحوادث اثبتت مع الاسف الشديد ان هذه التجربة الاخيرة قد فشلت كما فشل ما قبلها . ولم يعد عبد الناصر الزعيم القوي الذي يفجر في النفوس قواها الكامنة ويوحد كلمة العرب ويعيد اليهم مجدهم وسالف شأوهم . والدليل على ذلك انه اضطر الى استعمال القوة ليحمل لبنان والعراق على قبول الانتساب للوحدة فرفضا وابتعدا ، وانه لم يتمكن من اقناع الملك حسين بقبول البحث في هذا الصدد . اما المملكة السعودية والسودان وليبيا والمغرب وتونس ، فالكل يعلم ان هذه الدول تتهرب الآن من ولوج باب الوحدة كما يهرب البريء من المجذوم ! وان ملوك هذه الدول لا يسايرون عبد الناصر ولا يجتمعون معه الا خوفا من مذياع صوت العرب ، ومن لسان عبد الناصر السليط .

واما اليمن ، فبعد ان قبلت مشاركتنا ، ولو من طريق الاتحاد

الفدرالي لا الوحدة ، فقد تدرجت في التباعد درجة درجة حتى كادت الصلات بيننا الآن تكون اضعف من خيط العنكبوت .

ويا ليت الامر اقتصر على هذا الحد ، بل انني بت اخشى من كل قلبي وتفكيري ان لا تقوم خلال العشرات من السنين القادمة اية قائمة لفكرة الوحدة العربية . وبات كثير من المفكرين المتعمقين في معالجة الحوادث واستنباط النتـــائج يخافون على فكرة القومية العربية من التراجع والانكفاء . فثورة كالتي اراد ان يقوم بها عبد الناصر اما انها تفوز فورا او بأقرب مدة ، او انها اذا طال الامد تخبو وتعود الى الوراء ثم تندثر تحت اكوام الفشل المتعدد ..

مصيبة العرب من فعل زعمائهم وقادتهم ايضا

فمصيبة العرب ليست من فعل اعدائهم فحسب ، بل من فعل زعمائهم وقادتهم ، ومن فعل خطـا العرب في الثقـة العمياء التي يولونهم اياها . وكأن الهتافات الصـــارخة التي يستقبلونهم بها نداءات استنجاد واستعطاف . والزعمـاء تؤذيهم هذه الهتافات السانجة لانها تخلق في نفوسهم كثيرا من الغرور والاعتزاز وتوجد لديهم اعتدادا بالنفس واعتقادا بعبقريتهم وهم في الواقع خالون منها . وكلما زادت الهتافات ازداد ظن الزعمـاء ان الشعب انما يهتف اظهارا لتأييده وموافقته على الخطة التي يسيرون عليها .

ويغيب عنهم ان مظاهرات الولاء مهما كانت صارخة جارفة فهي مختلقة ومفتعلة في اكثر الاحيان . فكثيرا ما حملت الجماهير على ناقلات وجيء بها الى المدينة تحت ضغط افراد الدرك . وكثيرا ما رأينا شوارع المدينة تشعشع بالزينات الكهربائية المضيئة وتزدهي باقواس النصر العديدة . وهذا كله ، انما اقامه اصحاب المحلات التجارية تحت التهديد والقسـر . فتجتمـع عشـرات الالوف من الخلائق امام مقر الزعيم ، وتظل تناديه وتستعطفه حتى يطل عليها من شرفة القصر . فينقلب التصفيق الى مظهر من مظاهر الهستيريا . ويبدأ الزعيم خطابه ، وتمضي الجماهير على التصفيق ، غير سامعة ولا عابئة بما يقول ، لانها قدمت للفرجة و « الهيصة » ، لا لتلقي الارشاد والتوجيه . ويستمر الزعيم على الخطابة ترديدا واطالة ، وايرادا لجمل جوفاء خالية من اللب والجوهر ، مرصوفة التعابير لا ندرك منها سوى : الوطن ، الاستعمار ، العملاء ، فلسطين الشهيدة ، الزحف المقدس ، الثورة ، وغير ذلك من الكلمات المقصود بها اثارة الحماس واستمطار التصفيق والهتاف . صحيح ان لهذه الخطب مثل هذا المفعول ، ولكن ليس لها في الواقع اثر في استرداد فلسطين . فلو كان لها هذه النتيجة الباهرة ، لكنا حصلنا عليها بعد عشرات

الوف الخطب التي القيت منذ ١٩٤٧ حتى الان .

موقف الجماهير من زعمائهم وسوء مصير هؤلاء الزعماء

واكثر ما يزهو به الزعيم ويسلب لبه هو اقدام الجماهير على حمله على الاكتاف. وبالاكثر جر عربته، او رفع سيارته على الاعناق، والسير بالموكب فيما الزعيم يتهادى في سيارته على امواج الخلائق ، والهتافات تشق عنان السموات ، والاكف تلتهب من التصفيق . ويوقن الزعيم انه وصل الى ذروة المجد ، وان تعلق الشعب به اصبح كتعلق العبد بالسيد . وهو ينسى ان هذا المظهر الخداع قد فاز به قبله الجنرال غورو نفسه قاهر الجيش العربي في ميسلون ، وفاتح دمشق في ١٩٢٠ . فالجماهير عندما تتدفق كالسيل الذي يحمل ما يصادفه ، وكالنار تلتهم كل ما تقترب السنتها منه ، هي قوة جارفة ورافمة تفعل فعل الآلة التي تحركها اليد : تدفع وترفع ، تهوي وتسقط ، من غير وعي ولا تمييز ! وهي انما تقوم بتوجيهها عقول افراد قليلي العدد، يستولون على مشاعر الجمهور ويقودونه . وحتى هؤلاء قد ينخدعون في بعض الاحايين فيرفعون على الهامات من يظنون به الخير ، او يسقطون الى الحضيض من يبدو انه انحرف او خان !

والشعب بمجموعه ساذج ينطلي عليه الكثير من الاباطيل وتفعل فيه الدعاية . الا انها اذا زادت عن الحد المعقول وانصرفت الى الخداع المفضوح ، كان لها الاثر المعكوس . فالشعب مع طيب سريرته ، لا يخلو ممن يمعنون في التفكير بما يسمعون وما يقراون وما يرون . وهو يخدع في بعض الاوقات ، بحيث يبدو بسكوته او بخنوعه كأنه مصدق لما يسمع ، في حين انه يتربص وينتظر الفرص لابداء رايه الصريح ، او هو يتمتمه في السر . ثم تنقلب هذه الغمغمة الى الانتقاد العلني ، ثم الى الانتفاض والثورة الجامحة عند سنوح الفرصة ووجود القادة الموجهين الذين يأخذون بزمام الامر في يدهم ويسيرون بالجموع الجارفة ...

وقد شاهدت الجماهير الغفيرة تستقبل الامير فيصل وتحمله فوق الرؤوس . وسمعت انها حملت عربة الجنرال غورو ثم حملت الشهبندر من بعده ، وبحت اصواتها بالهتاف لفوزي الغزي وهاشم الاتاسي وابراهيم هنانو وصبحي بركات والداماد احمد نامي والشيخ تاج الدين الحسيني وجميل مردم وسعد الله الجابري وشكري القوتلي وحسني الزعيم واديب الشيشكلي واكرم الحوراني وخالد بكداش والرئيس عبد الناصر . ولم تبخل على الجماهير بهتافاتها ،

خاصة في اللاذقية وحماه ودمشق . فهل ظل تعلق هذه الجماهير واستمر ؟ فالملك فيصل اخرجه الافرنسيون من دمشق ، فلم يرتفع صوت لمصلحته . واغتيل فوزي الغزي والدكتور شهبندر . ومات الحسيني غير مأسوف عليه . وثار ضباط الجيش وقتلوا حسني الزعيم . ومات الجابري وهنانو وبركات ونسي ذكرهم . وهاجر جميل مردم الى القاهرة وطمس اسمه . وهرب الشيشكلي الى اوروبا وغضبت الناس عليه . وظل الاتاسي يعاني مرارة ارتحال معاصريه والالم الناشيء عن سجن ابنه عدنان . اما اكرم الحوراني وخالد بكداش وانا،فقد ابعدنا عن ساحة العمل السياسي، فلم يرتفع صوت باستنكار ذلك ... وما نصيب عبد الناصر من هذه الجماهير الا نصيب واحد ممن سبقوه . وارجو الله ان يكون هنيا رقيقا .

فبلهاء هم الذين تخدعهم مظاهر الجماهير . ومغفلون هم اذا اعتمدوا علىَ استمرار ولائها . فهي كالريح تعصف مرة من الشرق ومرة من الغرب !

ولم ينته اجل واحد من قادة سورية وهو في اوج عزه . ولست ادري اذا كان ذلك من قبيل الصدفة المجردة ام من سوء الطالع . اما القوتلي فانهى حياته السياسية بتسليم بلاده الى زميله عبد الناصر ، ففتح صفحة جديدة من حياته مليئة بالنفاق والرياء والارتماء بين ارجل الحكام المصريين ، وبالقاء خطب المديح والثناء على اعمال لا شك انه لا يستسيغها في قرارة نفسه . غير ان الراتب الضخم الذيَ خصص له والدار التي يسكنها بالمجان والخدم والحشم الذين تدفع الخزينة رواتبهم .. كل ذلك كان احجارا لقم فمه بها ولم يبق منه سوى منفذ ضيق يستنشق الهواء منه ويطلق المديح والتلفيق متظاهرا بدعم الوضع الحاضر ، وهو لا ينسى تنازله عن الرئاسة التي ارتكب كل خطيئة في سبيل بلوغها والمحافظة عليها .

ويا ليت القوتلي قضى قبل ١٩٤٧ ، لكانت اشيدت فوق قبره قبة كالاولياء الصالحين . ولكن المولى لم يرد له هذه الخاتمة .. فانا لله وانا اليه لراجعون .

يبدو اننا ابتعدنا بحديثنا عن قضية فلسطين . ولكن هل قضية فلسطين الا جزءا من قضية العرب ؟ وهل من سبيل الى الحديث عن تلك البقعة الغالية دون الاسترسال في جميع ما احاط بها ؟ فشؤون العرب المتعددة متداخل بعضها ببعض ، حتى انك لا تستطيع معالجة احدها حتى تجد نفسك تتحدث عن غيرها .

فالالتصاق بين كل القضايا والشؤون العربية كامل لا مجال لتفريق بعضها عن البعض الآخر وحصر الحديث في واحـدة منها . ولذلك ينساق القلم بالسليقة وبدون تكلف وارادة في خلجان ومضايق القضية العربية ويتسلق قمم الجبال وينحدر الى مهاوي الانحطاط . والرابطة هي هي ، والبحث لا يخرج بمجموعه عن الوحدة الكاملة ، الا وهي « القضية العربية » .

فعذرا ايها القارىء،وقليلا من التمعن.فأنت تدرك انك لم تخرج من ميدان البحث الاصلي ، مهما بدت لك الاحاديث متشعبة وخارجة في بعض الظروف عن الموضوع الاصلي . وضع نفسك مكان المؤلف وجرب ان تحصر حديثك بناحية واحدة من قضية قوميتك العربية فلا نجدك بعد قليل الا سابحا في بحر خضم لا تعرف له حدودا في السطح والاعماق .

رابي في الحلول العملية لقضية فلسطين

والآن لنجرب العودة الى سلسلة حديثنا بشأن الحلول العملية التي يتهرب الساسة العرب من معالجتها بصراحة وجراة. لقد وقعت الواقعة، وسقطت فلسطين في ايدي المغتصبين الصهاينة فاسسنوا فيها دولة منيعة بذاتها وبالدعم الذي تلقاه من دول الغرب كلها .

وقد ترسخت اقدام المهاجرين اليها منذ ١٩٤٨ ، وتزود جيشها بالمعدات العسكرية الحديثة الوفيرة ، وتدرب رجاله على الجندية بحماس شديد ، وتمركزت القيادة السياسية والقيادة العسكرية في ايدي رجال لا تفرقهم مطامع شخصيـة ولا تلعب بعقولهم اهواء . فاسرائيل وحـدة صحيحة في الارض والشعب والقيادة والهدف ، تدعمها كذلك ـــ فضلا عن دول الغرب ـــ دول منظمة الامم المتحدة التي خلقت اسرائيل والتي لا تجيز لدولة اخرى انتهاك حرمة اراضيها واستقلالها . وهي ترسل عند الحاجة القوى الدولية للوقوف في وجه المعتدي ، كما فعلت عند عدوان بريطانيا وفرنسا واسرائيل نفسها على الاراضي المصرية .

فمن الجنون المطبق التفكير بان ترمي جيوش الدول العربية آخر يهودي في البحر ـــ هذا اذا استطاعت الى ذلك سبيلا ـــ دون ان تبرز الامم المتحدة الى الميدان وتعيد المعتدي الى حدوده .

لا ريب في ان افتراض قهر الجيش الصهيوني ورميه في البحر لا يخرج عن دائرة التخيل والاحلام ، بالوقت الحاضر على الاقل . فلا كلمة العرب مجمعة ، ولا جيوشهم موحدة تحت قيادة واحدة ، ولا هي مالكة وسائل الحرب الكافية ، ولا النية معقودة في الحقيقة على

القفز الى الامام بهذا الشكل . اما الخطب والتصريحات والقرارات ، فما هي الا من قبيل الالهاء والتبجح والتهويل .

فلا نحن اذا قادرون علـــى محو اسرائيل ، ولا الامم المتحدة تمكننا من ذلك . فما علينا ، والحالـــة هذه ، سوى انتظار انحلال الامم المتحدة ونظامها وبلوغ قوانا الحد اللازم من القوة والمنعة .

وقد يـــلوح ان هذا الانتظار قد يطول امده فتخـــور العزائم وترتخي الهمم . وتتقوى اسرائيل في هـــــذه الفترة ، فـــلا تسهل محاربتها . كل ذلك لنفترضه صحيحا . ولكن هل لدينا حل آخر لا يستند الى الانتظار ؟ وهل يخطر في بال اي فرد يعالج الامور بروية وتحكيم العقل على العواطف، وبتقرير الامور والامكانيات حق قدرها، ان ينصح مخلصا وجادا بان نهاجم اسرائيل الآن ؟

انني لا اقول بالانتظار مكتوفي الايدي او رافعيها بالدعاء على اسرائيل في الجوامع والكنائس . بل اقول به على شرط جمع الكلمة وتوحيد الصفوف ، بعد ازالة اسباب الخلاف ، وتجديد النشاط ، وبعث الهمم ، واعداد الجماهير وتعويدهـــا على شظف الحرب ، وتدريب الاهلين على استعمال السلاح بانواعه . والخلاصة ، بخلق شعب موحد جدير بهضم الفكرة ، يستعد بمجموعـــه للاستبسال والتضحية قولا وعملا ، وبالاستمرار على حفظ سوية الامة على هذه الدرجة من البسالة والاستعداد ، حتى ياتي يوم نغامر فيه ونهجم علـــى اسرائيل . وذلك في ظرف دولـــي موآت ، اما بانحلال الامم المتحدة ، واما بقيام حرب عالمية نوحد فيها جهودنا مع الفريق الذي يساعدنا على استعادة حقنا في فلسطين ...

هذا هو المخطط العام الذي وضعته نصب عيني وبدات بتنفيذه، بتصفية الجو بيننا وبين الاتحاد السوفياتي ، ثم بشراء الاسلحة منه واخيرا بعقد اتفاق المعونة الاقتصادية والفنية . وتم كل هذا بعد اجتماع اولي بيني وبين مولوتوف وزير الخارجيـــة ، واجتماعـــات متتالية مع خروشوف وبولغانين وجوكوف في موسكو في زيارتي لها مرتين في ١٩٥٧ .

فلا بد في رايي من ان نعتمد على احد الفريقين ليكون الاعتماد وثيقا . اما مداراة الجانبين الكبيرين وتجربة اللعب على الحبلين بينهما والقفز من حضن خروشوف الى حضن ايزنهاور ، ومحاولة الضحك على ذقنيهما ، فامر لا نتيجة له. فاذا وقعت الواقعة احتلنا من يسبق الآخر الى ارضنا . فاذا انتصر في الحرب بقي عندنا مستعمرا ، واذا

فشل جاء الغالب ليستعمرنا بدوره . وما ذلك الا لاننا لم نعرف مداراته قبل ان ينتصر ولم نصادقه حين كان محتاجا لصداقتنا . بل سايرناه حينا وشتمناه حينا آخر . والدول الكبرى عندما تفوز ، تستعيد ذكريات الماضي وتنبش في ثناياه . لكنها قبل الانتصار الحاسم تسكت على الاهانة وتكظم الغيظ وتدفن الحقد الى حين .

اما مقاطعة البضائع الاسرائيلية وتحريم التعامل مع الشركات العاملة فيها او لمصلحتها ، فأمر فيه خير عميم . وهو سلاح يصلح للمقاومة السلبية طيلة مدة الانتظار هذه .

وثمة مجال آخر يمكن ابراز النشاط فيه ، هو مساومة الدول الكبرى ومنظمة الامم المتحدة لايجاد حل مؤقت ، كالعمل على تنفيذ ما قررته المنظمة في ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين شطرين — الواحد للعرب والاخر لليهود . ومن نكبات الزمن ان نسعى الآن لتطبيق ما كنا رفضناه بتهور وبخفة حينما كانت جميع الدول ترجونا قبوله . وبذلك نستعيد منطقة النقب فتتصل البلاد العربية بمصر ارضا . او نسعى لتطبيق مشروع برنادوت على الاقل ، فننقذ منطقة الجليل ونعيد اليها العدد الكبير من اللاجئين .

فقدان القيادة العربية الجريئة وسوء الاوضاع الحاضرة

ولكن هل من زعيم عربي يملك الجراة الكافية للمناداة بهذا الحل العملي المؤقت ؟ ام انه يخشى مغبة انقلاب الراي العام ضده ، وبالتالي فقدان شعبيته التي بناها حجرا حجرا ولبنة لبنة ؟ اعتقد ان زعامة ذلك الزعيم، اذا كان خالقها وموجدها الشعب نفسه، واذا كان الزعيم يطرح على الملأ الثقة بنفسه ويعلق بقاءه بالحكم على هذا الشرط ، فان الجماهير لا بد ان تسير وراءه ان كانت هي مطمئنة الى صدق عزيمته وخلوص نيته . وهكذا تفسح له في المجال للعمل على انقاذ ما يمكن انقاذه في الحاضر ، والسعي لاعداد ما يستطاع اعداده من قوة للمستقبل ، وانتهاز الفرصة الملائمة لتحقيق الآمال .

وقد اعدت الظروف الرئيس عبد الناصر ليكون مركز التجمع للامة العربية ، تنقاد اليه الآمال وتتجمع لديه القوى فيمسك بخيوط المقدرات ويدير دفة السفينة في الخضم ، متحاشيا الصخور والمزالق .

وقد انتصر في معركة القنال وفاز بوحدة القطرين ، مصر وسورية . غير ان نجمه افل بعد فشله الظاهر في سورية لانه لم يسلك بها الطريق السوي ، واخاف الناس بدل التحبب اليهم ،

ونادى بالثورة الاجتماعية في حين ان الثورة السياسية يجب ان تسبق اي تعديل في النظام الاجتماعي ، حتى لا تتفرق الكلمة وحتى لا تتعثر الجهود في مقاومة المعارضين ، لا سيما ان انتخابه بعد الوحدة لم يقصد به قلب الاوضاع الاجتماعية ، ولم يكلفه احد بولوج هـذا المعترك ، ولم يمنح اي اعتماد من هذا القبيل .

اما في لبنان والعراق فقد اثار الفتنة وارسل الاسلحة والعتاد لمن اشتراهم بالدرهم، وبعث الضباط والجنود والافراد الفلسطينيين، وشنها حربا داخلية قتلت النفوس وهدمت البيوت وعرضت لبنان والعراق لأسوأ المصير .ولكنه،في كلا القطرين،فشل وارتد على اعقابه خاسرا ، وخلف وراءه الضباط والشبان الذين غررت بهم الاهداف القومية التي تلثم بها ، واستهوتهم الاموال التي انفقها بسخاء . فوقعوا في الحبائل ، وقتل منهم من قتل ، وحوكم من حوكم ، واعدم وسجن منهم الكثيرون . وهكذا ذهبوا ضحية الشهوات والنزوات التي لا تمت في واقع الامر الى القومية العربية بأية صلة نزيهة . وانما كانت نزوة للاستيلاء على امصار جديدة ، وتوسيع منطقة النفوذ لبسط الهيمنة والجبروت . وقد نجت المملكة الاردنية من الاخطبوط بفضل شجاعة مليكها واقدامه ، فقتل الحية وهي في البيضة ، واستولى على ناصية الحال ، وقضى على المؤامرات التي بيتها الرئيس المصري وحزب البعث والضباط السوريون لهدم عرشه واقصائه هو عن عمان واقامة جمهورية [كيسلنغ] في الاردن وربطها كاقليم بالدولة العربية التي يقبض على زمام امورها عبد الناصر واجراؤه !

واما سعود، فنجته يقظته . وساعده البعض على الابتعاد عن متناول يد المصريين ولو بفقدان الراي العام المخمور باغاني القومية العربية . ولولا ذلك لانحدرت بلاده وسقطت في بوتقة الوحدة ، كما اوشكت ان تنحدر وتسقط بلاد امام اليمن . لكنه تنبه الى المؤامرة التي اشترك فيها ابنه البدر . فرفض الاتحاد ، ثم عكف على فك حبال هذا الاتحاد الرفيعة ، واحدة واحدة ، حتى اصبحت اوهى من خيوط العنكبوت .

واما السودان ، فعلى رغم رقصات الصاغ صلاح سالم وقفزاته وهزات بطنه ، ورغم الاموال الطائلة التي انفقها في الدعاية وفي استجلاب الزعماء السود ، لم ينخدع احد ببياض جلد الصاغ الرقاص . بل اكتفى الجميع بالتصفيق له ، وتقدير مقدرته

الفنية ، وملء جيوبهم بالجنيهات المصرية . فعندما وصل الامر الى عقد اتفاقية الالحاق ، قالوا : « قف وعد الى بلادك ، فنحن بغير الاستقلال الناجز لا نقبل » . فكان ذلك ، وانهارت احلام المصريين بامكان استعباد السودان — تلك الاحلام التي تلذذ بها حكام مصر المتعاقبون ، من محمد علي الى اسماعيل الى فاروق — ملك مصر والسودان ! — الى عبد الناصر .

وكذلك فشلت مساعي حكام القاهرة في اجتذاب ملك ليبيا ، والحبيب بورقيبة رئيس الجمهورية التونسية ، ومحمد الخامس عاهل المغرب . ومن هـؤلاء من ظلت العلاقة معه مكسوة بطلاء رقيق من مظاهر الاخوة والمحبة ، ومنهم من اشتد بينه وبينهم العنف وتوترت الصلات ، الى حد المهاترة الكلامية ومقاطعة الجلسات التي تعقدها الجامعة العربية في القاهرة .

فاذا التفتنا اليوم حولنا وجدنا عـداء مكشوفا مع العراق وتونس ، وعداوة مستورة مع عمان ، وبرودا ظاهرا مع الرياض ، ومجاملة ومسايرة بالقشور مع بيروت ، وفتورا مع الخرطوم والرباط رغم المظاهر الكاذبة . اما اليمن احـد اعضاء الاتحاد — للدول العربية المتحدة — فالامام متبرم ، والبدر مبعد عن الساحة ، ومجلس الاتحاد يكاد لا يعقد جلساته . وان عقدت ، فللمباسطة بين الاعضاء فحسب ! هذا ما وصلنا اليه بعلاقاتنا مع الـدول العربية في عهد الوحـــدة .

فاين منها الانتصارات التي يتبجح بها عبد الناصر والمطبلون له والمزمرون من افراد الكورس ، من نـواب رئيس الجمهورية ، والمواطن الاول ، والوزراء المركزيين والتنفيذيين ، والصحفيين ، والمذيعين ، وسائر الابواق الناعقة والحناجر العاوية . نعم ، لقد انتصر عبد الناصر على سورية ، ولكنه خسر معركة القومية العربية .

اسالوا ، بربكم ، قادة سورية الذين اوصلوها الى ذروة المجد : هل هم عن هذا الحال راضون ؟ واذا كانوا راضين من الصميم ، فلماذا هم قابعون في دورهم ، متخلفون عن الركب ؟ فان كانوا هم قد اقصوا انفسهم عنه فتلـك مصيبة ، وان كانوا قد اقصوا عنه فالمصيبة اعظم ؟ ماذا يقول اليوم رشـدي كيخيا وناظم القدسي وسواهما من جماعة حزب الشعب ؟ وماذا يقول صبري العسلي واخوانه من جماعة الحزب الوطني ؟ وماذا يقول اكرم الحوراني وصلاح البيطار وميشيل عفلق ، زعماء حزب البعث الاشتراكي ؟

وماذا يقول خالد بكداش والشيوعيون ؟ وماذا يقول غير المنتسبين لاي حزب او المنتسبون لهيئات سياسية او شبه سياسية ، كالاخوان المسلمين ؟ وماذا يجيبك رؤساء الدين من مسلمين ونصارى ؟ وماذا يجيبك المثقفون والشباب والموظفون وارباب المال والتجار والصناع والاطباء والمهندسون واصحاب سائر الحرف والمهن الحرة ؟ وماذا يقول ارباب الصحف ، واقلامهم تسيرها ايدي رجال الدعاية والمباحث ؟ وماذا يقول الفلاح والعامل اللذان ظنا الخير بقانون العمل وبقانون الاصلاح الزراعي ؟

وماذا يقول السائح الذي يسمح له بالدخول الى سورية ، وماذا يشاهد فيها ؟

اجمعوا الاجوبة واحصوا عدد الراضين وعدد الغاضبين فلا شك ان الاكثرية في جانب عدم الارتياح .

ولا غرابة في ان يكون في الساحة افراد او جماعات لا تزال الستائر تحجب عن عيونهم رؤية الحقائق ، وان يكون ثمة من يرتضي هذه الحال ويفضله على سواه . وقد كان ثمة من ارتضى الانتداب وتعلق بأذياله لنفع ناله منه او حماية لطائفة معينة .

اما القادة فالاجماع عندهم اكيد . فهم غير راضين عما تردت اليه الحال ، يأسفون على ضياع استقلال بلادهم وصيرورتها مستعمرة مصرية . وهم مجمعون على هذا الاعتقاد ، رغم فقدان الاتصال بينهم وما لا يزال كامنا في افئدتهم من النعرات الحزبية وما يرافقها من الحقد والكراهية وعدم الانسجام .

اما الفلاحون ، والمفروض فيهم ان يتغنوا بالمنافع التي اغدقتها عليهم الوحدة على حسب ادعاء زعاماتها ، فهم في الواقع فتحوا ايديهم فامتلأت ماء فقبضوا عليه . وهكذا وزعت عليهم شهادات التمليك، ولكنها بقيت معلقة على الجدران. ذلك لان الامر لم يصل بعد الى حيز التنفيذ . اما الارض فقد اعطيت لهم كما كانت تعطى لهم من قبل ملاكها في الماضي ، ولم تقسم عليهم ولم تحدد لكل فلاح مساحة معروفة من اراضي قريته ، بل اشير عليه بأن يزرع ويقدم لمصلحة الاصلاح الزراعي في آخر الموسم ٥٠ بالمئة من المحصول . وكذلك كان يعمل المالك والاقطاعي . فما الفرق اذاً بين الاثنين وبين دائرة الاصلاح الزراعي ؟ اما العمال فقد حرم عليهم التظاهر والاضراب ومنعوا من تقديم المطالب الجماعية . وتدخلت السلطات في انتخاباتهم النقابية ، فكانت نتائجها فوز افراد لا يمثلونهم فعلا .

اما في صدد ما خدشت آذاننا به من احاديث البرامج الاقتصادية لخمس سنوات او لعشر ، وما ملت مسامعنا سماعه من البيانات والتصاريح المحشوة بالاضاليل والاختلاقات عن التقدم والترقي في الزراعة والصناعة والتجارة ، فقد تفتحت الاذهان وصارت تطرح جانبا هذا الاسلوب السخيف في الدعاية والتمجيد . واما عن الاغاني المبتذلة القاصرة على مديح ناصر وترديد اسمه ووصف جمال وجهه وشبابه الاسمر ، فتذكرنا بطرق الدعاية التي يستخدمها ممثلو هوليود وممثلاتها لاستجلاب عواطف المتفرجين وسوقهم الى مشاهدة الافلام التي يلعبون دورها الرئيسي . أأصبحت قيادة الشعوب بحاجة الى استخدام هذه الاساليب لابراز محاسن الزعيم ولجمع القلوب حوله ؟

اللهم ، ان هذا جرم لا يغتفر في معركة القومية العربية . ونحن المؤمنون بالوحدة الكاملة نبكي دما كلما راينا هذه البهلوانيات تؤخر الركب عن الوصول الى اهدافه ، وكلما شاهدنا سقوط الوحدة بين سورية ومصر في هذا الدرك . اننا ، والله ، لا نريد ذلك ، خوفا على العروبة أن تمحى آثارها من القلوب ، وعلى الوحدة الشاملة ان تصبح في خبر كان . فاللهم ، الهم الزعماء الصواب واعدهم الى الصراط المستقيم . انه سميع مجيب .

فهرس الاعلام

ب

ح

خ

ط

ظ

ع

غ

ف

ق

ك

ل

ن

هـ

و

ي

طباعة ثالثة

بناء على الطلب المتكرر الملح من السادة القراء الكرام في الوطن العربي:
قررت ادارة الدار المتحدة للنشر والتوزيع في بيروت تلبية هذا الطلب الكريم فأعادت طباعة مذكرات

المرحوم خالد بك العظم

- رئيس وزراء سوريا السابق -

التي صدرت عام ١٩٧٢.
لقد راعينا في هذه الطبعة الدقة المتناهية وحرصاً على ان تكون كسابقاتها دقيق في نقل كل ما تضمنته هذه المذكرات.
اننا نرجو بهذا العمل ان نكون قد لبيّنا طلب القراء الاكارم وحققنا ما يرغبون فيه.

الناشر